Haykal, Muhammad Husayn.
/Fi manzil el-wahy./

في منزل الوحي

بقلم

محمد حسين هيكل

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٦

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

تقديم الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۞ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ۞ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۞

تقـــديم الكتاب

ثلاثمائة مليون من المسلمين أو يزيدون تهفو قلوبهم جميعـا إلى متزل الوحى ويهزّهم الحنين إليـه، يولّون وجوههم شـطره خمس مرات كلّ يوم أينما أقاموا الصـلاة، وإلى البيت العتيق تهوى أفئدتهم رغبة فى أداء فريضـة الحج، وإلى قبر الرسول النبى العربى يحثّهم الشوق ابتغاء زيارته . ومنهم من يودّ لو يقف عند كل مكان وقف فيه الرسول ليتمتع ما وسعه المتاع بمـا توحيه هذه المواقف من جلال روحىّ وخُلق وإنسانى يأخذ بمجامع النفس . ومنهم من يدعوه تطلّعه العلمىّ إلى البحث عن أسرار هـذه البيئـة العربية التى اختارها القـدر فجعل منها متزل الوحى بالتوحيد إلى محمد عبد الله ورسـوله فى أكثر صور التوحيد سمـوّا وصفاء : ماذا كانت قبـل الرسالة ؟ وكيف كانت فى حياة الرسول ؟ وإلامَ صـارت على توالى العصـــور ؟ .

بلاد ذلك مبلغها من عناية العـالم بها جديرة بأن تتعلّق بهـا أفئـدة الكتّاب والشعراء والمؤرخين والعلماء، تتلمس أسرارها وتستلهم من روحها . وهى لا ريب قد استوقفت منهم كثيرين من أهل الأمم المختلفة؛ بل لقد استوقفت كثيرين من غير المسلمين فى مختلف العصور وفى عصرنا الحاضر . على أن ما تحتفظ به من تُراث دائم الجـدّة، بالغ غاية الدقة فى تشعُّبه خلال التاريخ واتصاله بأرجاء العـالم المختلفة، قد حال بين طائفة من الأدباء والشعراء والباحثين وبين التنقيب فى كنوز هذا التراث؛ وذلك لمـا لها فى نفوس الباحثين المسلمين من قداسة روحية تصدُّهم عن الغوص فيها الى غاية أعماقها، ولمـا يغيب من أسرارها عن غير المسلمين بسبب هـذه القداسة الروحية ذاتها . هذا الى أن ما صارت اليه بلاد العرب منـذ قرون طويلة من تأخر واضمحلال قد لوى الكثيرين عنها ومال بهم عن التفكير فى أمرها،

شأن الناس إذ يرغبون عن كل ما انطفأ بريقه وإن حوى فى طيّاته أثمن النفائس . من ثم قلّ ما كُتب عن بلاد النبي العربى فى القرون الأخيرة مما له قيمة علمية تكشف الغطاء عن حقيقة هذه البلاد واختيار القدر إياها للوحى والرسالة على نحو يُقنع تفكير هذا العصر، وكان ما كتبه العلماء الأجانب بعيدا عن تناول الظاهرة الروحية التى تغيّرلها وجه التاريخ منذ أربعة عشر قرنا، والتى ستظل عاملا خالد الأثر فى حياة العالم ما كان للقوة الروحية فى توجيه العالم أثر وسلطان .

ولقد حَرصت على أن أقف ما استطعت عند البحوث التى تناولت بلاد العرب من هذه الناحية مذ بدأت أكتب السيرة وأنشرها تباعا فى فصول كتابى " حياة محمد " . ولقد وقّفت لبعض ما أردت فى الكتب العربية التى كُتبت فى العصور الإسلامية الأولى ، وفيما كُتب بالعربية من بحوث فى هذه العصور الأخيرة ، كما وقّفت لناحية أخرى منه فيما كتبه علماء الغرب ورجال الرحلات فيه . لكننى شعرت آخر الأمر بأنى سأظل ينقصنى جوهر ما أبحث عنه اذا أنا لم أذهب الى بلاد النبي العربى بنفسى، ولم أقف حيث وقف فى أدق ما مرّ به أثناء حياته ، ولم أمهّد لذلك بأن أحيط فى حدود الطاقة بالبيئة العامة التى نشأ فيها . وإنما كنت أفكر فى هذا لأتمّ به بحوثى فى السيرة . فأما أن أجعله موضوع كتاب مستقل فذلك ما لم يدر بخلدى بادئ الرأى . فلما ذهبت الى الحجاز وتجوّلت فيه تبينت أن ما قمت به من بحوث يتعدّى السيرة الى عصور إسلامية كثيرة ويمتدّ إلى عصرنا الحاضر . لذلك رأيت من الخير أن أطالع القرّاء بكتاب مستقل يتناول ما رأيت ويتناول ما أحسست به حين كررت بالزمن راجعا الى عهد الرسول ، وما كان بعد ذلك من حياة المسلمين فى عهدهم الأول، ثم ما أصاب البلاد الإسلامية المقدّسة بعد ذلك الى وقتنا الحاضر، مع الإشارة الموجزة الى ما أرجو أن يكون القدر قد خطه فى لوحه لهذه البلاد العربية يوم ينصر الله دينه على الدين كله .

وهذه الإشارة الوجيزة التى يجدها القارئ فى بعض فصول الكتاب هى مع ذلك أوّل ما تحرّكت له نفسى منذ فكرت فى الرحلة الى الحجاز حتى استقرّ بى العزم

عليها . من يومئذ جعلت أسأل الذين سبقونى الى الحج عن الحال فى بلاد العرب ، وعما يُروَى من الأنباء عن الوهابيين فيها ، وعن مذهب ابن عبد الوهاب وما ينطوى عليه ؛ أبتغى بذلك التهيؤ للبحث فيما يستطاع عمله لخير هـذه البلاد العربية ولخير المسلمين الذين ينزلونها . وإنما عالجت هـذا البحث لما أعرفه من أثر الفوارق المذهبية بين أهل الدين الواحد فى مختلف البلاد والأديان والعصور . أفيبلغ الاختلاف بين الوهابيين وغيرهم من المسلمين مبلغا يجعل العمل المشترك والتعاون عليه أمرا غير مستطاع ؟ أم أن جوهر العقيدة الإسلامية فى هذا المذهب كجوهرها فى سائر المذاهب الإسلامية واحد لا يتغير : قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ؟ . أمّا والجوهر فى المذاهب الإسلامية جميعا هو التوحيد ، أمّا وكتاب الله هو كتاب المسلمين جميعا ، فالرجاء عظيم فى تعاون المسلمين على إصلاح ما يتصل بشعائرهم وعقائدهم فى بلاد البيت العتيق والقبر النبوى وفى متابعة هذا التعاون على الزمن حتى يقضى الله بأمره ، ويتم على الناس نوره .

ولقد استغرق التفكير فى هـذا الأمر كل انتباهى منذ بدأت رحلتى : جعلت أفكر فيه حين ركبت الباخرة ، وحين نزلت جُدّة ، وأثناء الطواف والسعى بالعمرة بمكة ، وعند ما ذهبت أتم فرض الحج فى عرفات وأختم شعائره فى مِنًى . ولم أعجب حين رأيت الكثيرين من زملائى فى الحج يشاركوننى فى هـذا التفكير . فقد رأوا جميعا حاجة مناسك المسلمين الى الإصلاح ، فتحركت لذلك نفوسهم وعقدوا الاجتماعات يلتمسون وجوه الرأى فيه . أمّا أنا فقد وضعت مقترحات لبعض ما رأيت من وجوه الإصلاح ودفعت بها إلى رجال الحكومة العربية . ولعل من بين الذين سبقونى إلى الحج من صنع صنيعى راجيا ما أرجو أن يوفّق الله المسلمين لغاية الخير .

على أنى لم أتبسّط أثناء هذا الكتاب فى بيان ما رأيت وما أرى الآن من وجوه الإصلاح ؛ لأنى لم أجعل هـذا الغرض غايتى الأولى من وضعه ، ولأن شؤون الإصلاح تتطور فى تصويرها تبعا لما تقضى به حاجات العصر . ونحن فى زمن

تسرع فيه الأشياء إلى التحوّل، حتى لترى ما كان صالحا أمس قد أصبح اليوم عتيقا، أن حدث بعده ما هو خير منه وأدنى إلى الفائدة . لكنى تبسطت فى بعض فصول الكتاب فى نقد ما رأيته موجبا للنقد من أحوال بلاد العرب الاجتماعية ، وفى بيان الأسباب التى أدّت إلى تدهور البلاد العربيـة والإسـلامية ؛ لاقتناعى بأن النقد فاتحة الإصلاح ، وبأن تحرّى الأسـباب التى أدّت إلى الضعف تشخيص للمرض يسهل معه وصف علاجه .

ومع وقوفى موقف النـاقد من بعض الشؤون الحاضرة فى البلاد المقدّسة لقد وجّهت أكبر عناية إلى آثار الرسول الكريم فيها، وجعلت جلّ همى أن أسير حيث سار، ألتمس ما فى حياته من أسوة وعبرة، وأرجو أن أقف على شىء من السرّ الذى هيأ هـذه البلاد لتكون منزل الوحى إلى النبى العربى خاتم الأنبيـاء والمرسلين . ولم أتقيد فى تفكيرى وتأملى أمام شىء ممـا رأيت بغير منطق وعقيدتى الذاتيـة اللذين كوّنتهما الطريقة العلمية الحديثة . فأنا لا أسـلّم بالعقيدة الموروثة إذا لم يكن لهـا أساس غير ما وجدنا عليه آباءنا ، مالم أمتحنها وأمحّصها ومالم أصـل من أمرها إلى الإيمان بأنهـا هى الحقيقة كما يُسيغها عقلى ويطمئن إليها ضميرى . وأنا لا أحسب الذين يدينون بعقيدة ما لغير شىء إلا أنهم وجدوا عليها آباءهم مؤمنين حقـا . بل أرى واجبا على الإنسان لكرامته الإنسانية أن يحاول ما اسـتطاع فهم ما يُلْقَى اليه ، اتصـل ذلك بالعقيدة أو بالتشريع أو بالعلم والفن . فإن اهتدى الى الحق فيه فذاك ، وإلا فليلتمس الهدى عند أهـل العلم وليطالبهم بإقناعه . والعالِم الجدير بآسم العالِم هو من أقنع سامعـه بالحقيقة التى اهتدى اليهـا عن طريق المجادلة بالتى هى أحسن . فلا إكراه فى الدين، ولا يمارى فى الحقيقة متى تبين الرشـد من الغىّ إلا من أضلّه هواه .

ولقد جعلت السـير فى أثر الرسول غرضى من يوم أتممت مناسك الحج . فقد كنت شديد التّوق الى هـذا السير من سنوات ومذ كنت أتابع الرسـول خلال

الكتب أبحث فيها سيرته . وكنت أحسب السبيل ميسَّرة وأنى سأجد عند كل موقف من مواقف الرسول أثرا يدل عليه و يشهد به . ولم يزعزع من ذلك فى نفسى ما علمته من هدم الوهابيين القِباب التى أقامها من حكموا الحجاز فى العصور التى سبقتهم . فالوهابيون انما استقرّوا فيه لعشر سنوات خلت . وهذا زمن لا يتيح للنسيان أن يخفى على آثار خلّدتها أربعة عشر قرنا متعاقبة . هذا الى أن القباب ليست كل ما يمكن أن يقام من الآثار . و إذا كنا نحتفظ فى مصر بآثار ناهضت الدهر خمسين قرنا متوالية ، فما أحرى المقيمين ببلاد النبيّ العربيّ أن يحتفظوا بآثاره وهى أقرب من ذلك عهدا ، وأبلغ دلالة ، وأبقى على التاريخ ذكرا . والوهابيون هم بعدُ مسلمون ، إن أنكروا القباب فلا ينكروا ما سواها من دواعى الذكر والأسوة .

والحق أنى لم أجد مشقة فى تعرُّف الآثار التى هدم الوهابيون قبابها . فالأسف على ما صنعوا قد جعل الذين يخالفونهم فى الرأى أشدّ ذكرا لها وحرصا على إشهاد الناس ما حل بها . ولقد شاركت هؤلاء فى أسفهم من ناحية لا يفكر أحدهم فيها . فقد كان بين هذه القباب التى هدمت آثار بارعة فى الفن لم يكن يجمل بيد تقدّر الفن أن تمتدّ اليها بسوء . لكنى إنما وجدت المشقة فى الاهتداء الى آثار لها فى تاريخ المسلمين الأوّلين أثر بالغ ، ولا ترضى أمّة تقدّر تاريخها أن تذرها للنسيان يعبث بها ويجنى عليها . من ذلك آختلاف الأقوال على موقع حُنَيْن حيث كانت الغَزاة التى تركت فى تاريخ الإسلام أثرا قلّ كمثله أثر . ومنه اختلافهم على موقع عكاظ سوق العرب جميعا فى الجاهلية وفى صدر الإسلام . وإنما سوّغ الجهل الذى خيّم على بلاد العرب من عصر العباسيين هذه الجناية النكراء ، كما سوّغ أمرا لا يقل عنها نكرا . فقد أقيمت آثار لحوادث وقعت وليس فى التاريخ ما يدل على أنها وقعت حيث تقوم هذه الآثار ، وأُقيمت آثار لحوادث لا يعرف التاريخ الحق من أمرها شيئا . وتحقيق ذلك كله و بيان قيمته العلمية أمر جدير بكل من يريد الحقيقة . وقد حاولت من ذلك ما استطعت . لكن هذا التحقيق يحتاج الى أضعاف الزمن الذى قضيته بالحجاز ، و يحتاج مع الزمن الى بحوث ينقطع لها صاحبها ليقابل بين ما جاء فى الكتب

المختلفة، لعله يبلغ من المقابلة الى ما تستقيم به النتيجة التى يتوخاها. وليس يخامرنى ريب فى أن هـذا العمل لو قامت به بعثة جامعية لوجدت فيـه من الفائدة ومن المتاع العلمى ما تهون معه كل مشقة .

وكان حديث الآثار الصحيحة التى وقفت عندها كلُّه البلاغة فى التعبير عما تدل عليـه وتوحيه الى النفس من آى الجلال والعظمة . فجبـل حراء والغار فى قمتـه، ومسجد عَدّاس بالطائف، ومسجد العقبة و جمرتها، وجبل ثور ومختبأ رسـول الله وأبى بكر بالغار فيه ، والطريق الذى سلكه النبى الى المدينة حين هجرته من مكة، ومسجد قُبَاء، والمسجد النبوى والآثار الكثيرة المختلفة بالمدينة، وميدان بدر حيث وقعت الغزوة الأولى بين قريش والمسلمين ، هـذه المواقع وما اليها كانت تثير أمام ذهنى ذكريات مليئة بالحياة كأنما حدثت بالأمس، وكانت توحى الىّ معانى الإكبار والإعظام وتزيدنى إجلالا لهذه الأماكن فى صمتها العميق لم يغيِّر منه توالى القرون. ولقد كان ما أوحته هذه الأماكن مما حاولت تصويره فى هـذا الكتاب أبلغ من كل ما استطاع قلمى أن يصفه أضعافا مضاعفة .

ولقد كشفت لى هذه الاثار عن صورة لبلاد العرب حين بعث الله نبيه بالهدى ودين الحق تختلف أشـد الاختلاف عن صـورتها فى الوقت الحاضر ، وتختلف عما وقَر فى نفس الكثيرين من صورتها فى آخر أيام الجاهلية . كانت بلاد العـرب يومئـذ ذات حضارة لا شىء يشبهها فى شبه الجزيرة اليوم : كانت مكة و بعض بلاد الحجـاز مدنًا تجارية عامرة مزدهرة ، وكانت الطائف ذات الخصْب موضع عناية من أهلها بحسن استغلال خصبها و بصيانة سـلامتها ، وكان أهل تهامة وأهل الحجـاز أولى ثقافة وحكمة وأدب، وكان العـرب على اتصال بالعـالَم ينقلون تجارته بين الشرق والغرب ممـا زادهم علما وزادهم براعة فى التجارة وأساليبها ؛ لكنهم كانوا يحيون حياة سياسية أشـبه بحياة اليونان القديمة وبحياة بعض بلاد الغرب ، ومنها انجلترا، منذ قرون قليلة . كانوا قبائل ومدائن تحتفظ كلٌّ منها بوحدتها و بسلطانها

وتدفع عن حياضها كل من يحاول الاعتـداء على سيادتها أو على ثروتها . فلما بعث الله النبي العربي داعيا إلى التوحيد، ألفى فى هـذه القبائل قوة فى الجدل وصلابة فى الاستمساك بعقائدهم ونُظُمهم . فلما هدى الله الكثيرين من أهـل يَثْرِب الى الإسلام وهاجر النبي اليهم وانتصر بهم و جمع كلمة العرب تحت لواء الدين الجديد، استطاعت هذه الأمة الفتيّة المستعدّة بحضارتها للنهوض أن تثب الى حيث وثبتْ وأن تبثّ فى العالم حضارة هذا الدين الذى اختارها الله لتكون وطنَه الأوّل .

كشفت لى هذه الصورة عن جانب من السرّ الذى كنت ألتمســه والذى كان خفياً عنى حين كنت أتصوّر بلاد العرب كلها، كما يتصوّرها الكثيرون، وادياً غير ذى زرع لا تصلح مقرّا لحضارة يضىء نورُها العالم . كان أهلها شديدى المحافظة على عقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم، وكانوا ذوى بأس وقوة فى هـذه المحافظة . وقد كانت عقائدهم الوثنيـة تمسكهم دون الوثوب الى دعوة العـالم المفكك الأوصال يومئذ ليستظل بحضارة أجدر بالإنسانية ممـا كانت تدعو اليه بزنطيـة وفارس . فلما هدى الله العرب إلى الإسلام كانت تعاليم هذا الدين منارة الهدى للعالم، وكان النبي صلى الله عليـه وسلم الأُسوة والمثـل بأدبه وخُلقه وقوّته على الحياة لنشر هـذه التعاليم و إحياء الإنسانيـة بروحها السامى . وهذه الأسـوة هى ما تحدّث به آثاره فى بلاد العـرب حديثها البليغ الذى تهتزّ له النفس وتسمو به الروح إلى مراتبها العليا حيث تشرق الأرض بنور ربها و يرى الإنسان فيها فضائل الكون مجتمعة .

والواقع أن ما توحيه آثار الرسول من هذه المعانى بالغ غاية القوّة . وأنت تستطيع أن تجمع هذه المعانى فى عبارة موجزة : تكريس الحياة لمثل أعلى يوجه الإنسان إليه جهوده فيبلغـه أو يموت دونه مستشهدا فى سبيله . وحسبُك أن تقف عنـد كل واحدة من كلمات هذه العبارة لترى الجلال والقوّة والسموّ على الحياة متضافرة كلها إلى خير غاية . فالمثل الأعلى فى الإسلام ما هو؟ رضا الله بالبِرّ والتقوى، وحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه . صوّر هذه المعانى النفسية صورة مادّيّة واجعل منها مَثَلك

الأعلى الذى تكرّس له جهود حياتك . هـذا التصوير وحده عظيم شاق يقتضيك مجهودا جسيما . أنت تريد الغنَى مثلا أعلى لك . فليكن ! لكن يجب أن تبتغى به رضا الله وأن تكون فى تحصيله بَرًّا تقيًا وألّا تعامل الناس فى تحصيله إلا بمـا تحب أن يعاملك به مَن أراد منهم مثـل غايتك . وذاك يرى جاهَ الحكم مثلًا أعلى له . فليكن ! لكنه يجب أن يبتغى بالحكم رضا الله وأن يكون فيه بَرًّا تقيًا لا يعامل غيره إلا بما يحب أن يعامله الغير به إذا ولى أمرَه . فاذا صـوّر المرء مثلَه الأعلى وجب عليه أن يسعى إليه غير وانٍ وأن يوجّه إليه كل جهوده وأن يستهين فى سبيله بكل تضحية و إن كانت بالحياة . ولا عليه إن أصابه مكروه مادام رضا الله مبتغاه، فكان لذلك بَرًّا تقيًا مؤمنا بالأخوّة الإنسانية، محبا لإخوانه المؤمنين ما يحب لنفسه، راجيا لهم الخير وأن يبلغ كلٌّ من مثله الأعلى مايودّ هو أن يبلغه من المثل الذى جعله نُصْبَ عينيه وغرضَ حياته .

لكن الأمثال العليا تتفاوت تفاوتا عظيما . وأسمى الأمثال لا ريب ما بعث الله به نبيه هدًى للناس ونورا . ولقد بلغ من إيمـان العرب فى الصدر الأوّل بهـذا المثل أن جعله كل منهم غرض حياته، وأن أخضع له كل مافى الحياة من غرض دونه، وأن كان الاستشهاد فى سبيله أملًا يتمنّى أن يجعـله الله نصيبه . فهـذا الذى اتخذ التجارة حرفةً له فى الحياة ووقف لها جهوده كان يجعل فى تجارته حظا معلوما للسائل والمحروم، وكان يهب نفســه لله يوم يدعو الداعى إلى الجهاد فى سبيله . ذلك لأن الدين الجديد علّمهم أن الأمة يجب أن يكون لها ، كما يجب أن يكون للفرد ، مثل أعلى ، وأن المؤمنين فى مشارق الأرض ومغاربها أمة واحدة لكل منهـم على الآخر ما للأخ على أخيــه من حق ، فيجب أن يكونوا يدا واحدة فى سبيل الله يتحابّون بنوره بينهم ويبذلون فى سبيله مُهَجهم وأرواحهم ، يعلمون الناس بذلك أنْ لا إله إلا هو، لا يغيب عنه مثقال ذرّة فى السماوات ولا فى الأرض، وأنه جلّ شأنه برأ الناس ليتعاونوا على البرّ والتقوى حتى يبلغوا بالإنسانية كمالها؛ فان بغت طائفة منهم فقد وجب عليهم جميعا أن يقاتلوا الباغى حتى يفىء إلى أمر الله .

هـذه المعانى السامية هى تعاليم النبي العربى وتعاليم الإســلام، وهى ماتوحيه آثاره صلى الله عليـه وسلم إلى من يقف عندها فى بلاد العرب . ولقد كان من أثر هـذه التعاليم أن صارت بلاد العرب محطّ أنظار العالم كله فى حياة الرسول وبعـد اختيـاره الرفيق الأعلى . امتـدّ الفتح الإسلامى فى عهـد أبى بكر وعمر إلى بلاد الأمبراطوريتين الروميّة والفارسية ثم تخطاهما الى ما وراءهما من أنحاء العـالم شرقاً وغرباً حتى بلغت الحضارة الإسلامية فى مادون المـائة من السنين مالم تبلغه حضارة غيرها فى قرون متعاقبة . كان الرجل فى أقصى الصين يذكر فتح العرب بلاد المغرب والأندلس، وكان المســلم فى مصر وفى بلاد المغرب يتحـدّث مفاخرا بفتح جيوش الإسلام بلاد البوذيّة والكفشيوسية . وحيثما امتدّ الفتح رفرف لواءُ الإسلام وشهد الناس أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأخذوا بتعاليم الدين الجديد وتفقّهوا فيه . وأبناء العرب فى هذه الوثبة الأولى يتيهون فخرا بما يتم على أيديهم كل يوم من معجزات لم يتأتّ لغيرهم فى مختلف العصور أن يأتوا بمثلها ويكادون يحسبون أن الله قد نصر دينه على الدين كله منذ هــذا العهد الأول .

وأقبل أهل شـبه الجزيرة على الفتح وجعلوا يزدادون منه ثراء ويزدادون بأنعم المـال متاعا . وخُيّل يومئذ اليهم أن العهد الذهبيّ الذى فتح الله لهم أبوابه لانهاية له وأنهـم ناهلون من ورده هم وأبنـاؤهم وحَفَدتهم أبد الآبدين ودهر الداهرين حتى يرث الله الأرض ومن عليهـا . ولم يدْرِ بخلد أحدهم وهو يعبّ من هذا النعيم أن للزمن دورته، وأن لكل يوم غده، وأن الله مغيّر مابقوم يوم يغيّرون ما بأنفسهم .

ولقد غيّروا ما بأنفسهم فغيّر الله ما بهم، حتى صاروا الى حال تبعث الحسرة إلى النفس . أنت اليوم تقطع عشرات الأميال ومئاتهـا فلا ترى لحضارة بل لحيـاة مظهرا . وفيما خلا المدن القليلة، لا اعرف منها غير مدن الشاطئ وغير مكة والمدينة والطائف، أنت لا تقف على الطرق المأهولة إلا عند نجع هنا ومُخيَّم هناك . ما بالك بمـا سوى الطرق المأهولة ممـا تترامى به البادية الفسيحة ! إنك من ذلك فى مَهْمَهٍ

لايعرف غير الأفق حدًّا. وكلما أغذذت السير أو انطلقت بك السيّارة تطوى الأميال إثر الأميال تراجع الأفق أمام ناظرك ولم يكشف جديدا . فاذا مرّ بك سانح من الطير أو ضارب فى البيداء وراء بعيره سَعِدتَ بهذه المصادفة من الحياة سعادة راكب البحر شام سفينة تمخر العُباب على مرمى النظر . وليس فيما يصادفك من ذلك إلا ما يزيدك حسرةً على ما هوت اليه هـذه البلاد من درك الهمجية ، وهى هى التى وثب بها الإسلام تلك الوثبة فأضاء العـالم بحضارة جديدة ظل ينعم بها قرونا عدّة متوالية، نقل المسلمون أثناءها آثار التفكير الإنسانى فى اليونان القديمة وفى الهنـد وفى فارس ، فمهّد لهذه الحضاره الحاليّة التى ينعم العالم اليوم بها، ثم يُتّهم هذا الإسلام بأنه السبب فى تأخر بنيه والذين يدينون به .

وقفت غير مرّة إزاء هـذه الظاهرة أسائل نفسى وأسائل غيرى عن سببها . ولم يكن الاهتداء الى السبب عسيرا . فهؤلاء العرب الذين وثبوا الوثبة الأولى على عهد النبي وفى صـدر الإسلام قد أقام الكثيرون منهم فى بلاد غير بلادهم . ولئن لم ينس الكثيرون منهم تعاليم دينهم لقد نُسّوا الغرض الأسمى الذى يدعو هذا الدين اليه . تفتّحت لهم كنوز الأرض وتدفّقت عليهم خيراتها، فشُغلوا بها وبتنظيم شؤونها وبذلوا فى ذلك من الجهود ما حسبوه يساوى تثبيت دعائم الإيمـان الصادق فى نفوس الذين دانوا للإسلام . اكتفوا بأن يعلّموا الناس فروض هذا الدين دون أن يفقّهوهم فيه، وجعلوا غاية الفقه تنظيم علاقات المـال فى الحياة وفيما بعد الحياة. أمّا الإيمان الصادق الذى أضاء العالم ووثب بجـزيرة العرب فقد اختص بالنظر فيه أهل الكلام وعلماؤه . من ثَمّ شغل المسلمون بالحياة الدنيا عن الاخرة، وبالعرض عن الجوهر ، وبحكم الناس عن سياسة أمورهم فى دينهم ودنياهم . ولذلك كثرت الثورات وكثر الانتقاض وعمّ الاضطراب، واتخذ الملوك من العلماء والفقهاء ألسنة دعايتهم للدفاع عن ملكهم ، كما اتخذهم الثائرون ألسنة دعايتهم لتسويغ ثورتهم . وإذ كان ما فى بلاد العرب من ثروة لا يغنى غناء ما فى الشام وفارس ومصر والأندلس، فقد انتقل مقرّ الملك من المدينة الى دمشق وإلى بغداد وإلى القاهرة وإلى قرطبة .

من يومئذ بقيت بلاد العرب يحكمها من تؤول اليه الخلافة وإمارة المؤمنين .
ولقد حرص هؤلاء الملوك فى العهد الأوّل على استرضاء العرب وإغراقهم فى الأعطيات وفى الجاه . كذلك فعل بنو أمية ، وكذلك فعل الأولون من بنى العباس .
ولم يكن لهم محيص من أن يفعلوا وبلاد العرب كانت بعدُ ذات حضارة لم تقوّض دعائمها ، وأبناء العرب كانوا بعدُ أولى الأمر فى المملكة الإسلامية . فلما اشترك الفرس والتتار فى بلاط بنى العباس ونازعوا العرب الحكم ، بدأ المال ينقبض عن أهل شبه الجزيرة باعتباره حقا من حقوقهم ، وبدأ الملوك والأمراء يُنعمون عليهم بألوان من الإحسان مختارين مشكورين . ولم يُعْنَ أهل بلاد العرب بالتفريق بين الحق والإحسان بعد أن نزح الأكثرون من أبنائها الأصليين عنها وحلّ الأجانب من رقعة المملكة الإسلامية محلّهم فيها . وزاد فى عدم عنايتهم بالتفريق أن بدأ الجهل يخيّم عليهم كما بدأ يخيّم على غيرهم من بلاد المسلمين . على أن بلاد العرب كانت أسرع من غيرها انحدارا الى هاوية الجهل بعد أن فقدت بهجرة أبنائها العنصر الأساسى من مقومات الحياة القومية ، وبعد أن نزح العلماء والفقهاء والأدباء الى العواصم التى بعدت عن بلاد العرب حتى صارت العلوم والفنون جميعا غريبة عنها .

ولم تنهض البلاد الإسلامية المقدّسة من بعد ذلك الى يومنا الحاضر ، لأن الدولة الإسلامية هوت الى حضيض الجمود والجهل . فأما اليوم ففى بلاد العرب توثُّب الى نهضة جديدة تكاد تضارع ما فى غيرها من البلاد الإسلامية الأخرى .

وقفت عند هذه الظاهرات غير مرّة أحاول تحليلها . لكنى لم أقصد من هذا التحليل الى تفصيلها . فالتفصيل يتناول تاريخ الأمة الإسلامية ، أو الأمم الإسلامية إن شئت ، خلال ثلاثة عشر قرنا متوالية . وهذا جهد عظيم لا يتسنّى لفرد أن يقوم به . وميدانه ما يزال بكرا فى حاجة الى تنظيم علمى دقيق . والغاية التى أبتغيتها من وقوفى عند هذه الظاهرات لاتتناول من هذا الميدان إلا جانبا عامّا يتصل ببلاد العرب وأسباب تأخرها على القرون منذ العهد الإسلامى الأوّل الى

زمننا الحاضر . ثم إنى لم أُرد فيما أبتغيته من ذلك سرد تاريخ العرب وهجرتهم من بلادهم أو ذكر من حل محلّهم فيها . إنما اكتفيت بالإشارة الى ذلك لأبيّن أن التأخر مرجعه الى أسباب سياسية واجتماعية لا أثر للعقيدة ولا للدين فيها، وإلى أن العقيدة والدين تأثّرا، كما تأثر العرب والمسلمون، بهذه الأسباب السياسية والاجتماعية، وأن من اليسير لذلك أن يعود العرب والمسلمون سيرتهم الأولى. وحسبُهم أن يغيّروا ما بنفوسهم ليغيّر الله ما بهم .

ليس هذا الكتاب إذًا مرجعا من مراجع التاريخ الإسلامى، ولا شىء فيه من تقويم بلاد العرب . إنما هى وقفات وقفتها فى بلاد الوحى ومنزله أستوحى فيها مواقف محمد عبد الله ونبيه ورسوله . وهناك فى هذه المواقف تجردتْ نفسى وسمتْ روحى وكرتُ بالعصور والقرون أطويها ورحت أتمثل هذا الهادى الكريم وأتمثل المسلمين من حوله ألتمس فى ذلك الأسوة والعبرة آملًا أن أُشرِكَ فيهما إخوانى المؤمنين بالله وبما جاء من عند الله . لم أتقيّد فى هذه المواقف بما جاء فى كتاب غير كتاب الله الكريم، ولم أُخضع تفكيرى لحكم غيرى . وما كان لى أن اخضعه وقد كنت أحس فى كثير من هذه المواقف أننى بين القوم أسمع وأرى وأتمنّى لو كنت أجاهد معهم فأفوز فوزا عظيما . وما كان لى أن أفعل ثم أخدع نفسى فأزعم أننى إذ أحدّث الناس إنما أقص عليهم ما رأيته وما أحسست به، فى حين لا أقص إلا ما رآه غيرى وما سبقنى الى تسطيره . لقد تركت نفسى على سجيّتها، تتوجه بوحى روحى وتستلهم الحق مما حولى، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلى وتقدير ضميرى ؛ ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغى به إلا رضا الله وحسن ثوابه . فليقل هذا أو ذاك من كتّاب المسلمين أو غير المسلمين عن أىّ من هذه المواقف ماشاء، وليستند فى حكمه أو رأيه الى أىّ سند يطيب له أن يستند اليه . إنما ذلك قولَ له عندى احترامه ما اطمأننت الى حسن القصد فيه ؛ لكن لحكمى المكان الأوّل من الاحترام عندى . واذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن اليه وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه، وكانت العجلة طيشا غير جدير بمفكر يحترم عقله ، فليس

من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن يَنْحَل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره اليه . ومن الجمود الذى لا يقاس اليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعا حتى نطمئن إلى بلوغ غاية مانستطيعه من الحق فيها .

وأقف هنا لأدفع زعمًا حسب الذين زعموه أنه مَغْمَزٌ غمزونى به بعد تأليف كتابى "حياة محمد" . حَسِب هؤلاء أنى انقلبت بكتابة السيرة رجعيًا وكنت عندهم قبلها فى طليعة "المجدّدين" . وكيف لا أنقلب عندهم رجعيًا وقد جعلت القرآن حجتى وما جاء فيه عن السيرة سَنَدى، ولم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمىّ ! . وكيف لا أنقلب عندهم رجعيًا وقد دفعت بالحجة ما طَعَن به على النبىّ العربى جماعة المستشرقين ومن تابعهم من شباب المسلمين ! . وكيف ساغ لى بعد ذلك أن أزعم أمامهم فى "حياة محمد"، وأن أزعم اليوم هاهنا أنى طليق من القيود، عدوّ للجمود، نصير للبحث العلمى الحر ، وأنى أومن بحرية الرأى وأعتبرها الأساس لا أساس غيرُه لمن يريد معرفة الحقيقة . هم يرون ذلك خداعا يأباه العلم والبحث الحر . وأنا بعدُ عندهم رجعىٌّ انقلبت الى الجمهور أُتابعه ابتغاء رضاه، وكنت قبل ذلك أتقدّمه أريد توجيهه وهدايته .

أقف لأدفع هذا القول . وما ألتمس فى دفعه سبيلا غير مواجهته . لا أقول إن قوما غمزونى بنقيضه وزعمونى خارجا عن الإجماع والتمسوا الحجة لتأييد قولهم؛ وليس يستقيم فى المنطق أن يغمزنى هؤلاء وأولئك . لا أقول ذلك وأنا ما كتبت أبتغى رضا قوم أو أتقى سخط آخرين ؛ إنما كتبت للحق أبتغيه وحده . لكنى أسائل أصدقائى أحرار الرأى عن غايتنا جميعا حين نُنتج : ألسنا نبتغى التقدُّم خطوة جديدة فى سبيل الكمال ؟! فالعالِم يبتغى مزيدا من العلم ومن الدقّة فيه ، ورجل الفن يبتغى سموًّا فى الفن وفى إلهامه ، وطالب الحقيقة يريدها أجلى سنًا وأعم نورا . ومن الناس من يحسب أنا نحاول من إنتاجنا أن نبلغ السعادة لأنفسنا وللعالم . ومنهم من يعتقد أن السعادة لفظ مبهم يصوِّر الوجدان مدلوله على هوى

صاحبه ، وأنّا إنما نحاول من إنتاجنا أن نزيد فى معارف الإنسان القليلة الضئيلة حين تقاس الى هذا العالَم الذى لا يعرف الزمان ولا يعرف المكان له حدّا، لنطوّع للإنسان أن يزداد بالكون آتصالا . وأنا بين هؤلاء، أرى رأيهم، وأعتقد كما يعتقدون أن التماس المزيد من المعرفة والطموح من ذلك الى أبعد غاية هو وحده المطمح الخليق بالجانب الإنسانىّ فينا .

وإنما مطمعنا حين نلتمس المزيد من المعرفة أن نسمو بهذا الجانب الإنسانى فى الأفراد والجماعات. ولقد طالما التمسنا فى شرقنا الأدنى أسباب النهوض بعِلْمِنا، لنقف إلى جانب الإنسانيّة المهذّبة لا ينكّس الخجل رءوسنا ولا يحزّ فى نفوسنا ذلك الشعور الممضّ بأنا دون الغرب مكانا . ولقد خُيِّل إلىّ زمنا ، كما لا يزال يخيَّل إلى أصحابى ، أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلُنا إلى هذا النهوض . وما أزال أشارك أصحابى فى أنّا ما نزال فى حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكنى أصبحت أُخالفهم فى أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما فى الغرب منها غير صالح لأن ننقله . فتاريخنا الروحى غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسىّ على ما أقرّته «البابوية» المسيحية منذ عهدها الأول، وبقى الشرق بريئا من الخضوع لهذا التفكير . بل حوربت المذاهب الإسلامية التى أرادت أن تقيم فى العالم الإسلامى نظاما كنسياً أهول الحرب، فلم تقم لها فيه قائمة أبدا . بذلك بقى الشرق مطهَّرا من الأسباب التى أدّت إلى اضطراب الغرب الروحى وإلى ثوراته السياسية التى نشأت عن هذا الاضطراب، وبقى المسيحيون المقيمون بالشرق فى جوار المسلمين فى طمأنينة لا يَصْلَوْن من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم فى الغرب . كان الخروج على الكنيسة المسيحية فى الغرب إعلانًا للثورة على السلطان، وكانت الثقافة الروحية لذلك فى قبضة رجال الدين يُبرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه ، وينقضون ما يشاءون نقضه . أمّا والإسلام لا يعرف الكنيسة ، وأقرب الناس فيه إلى الله أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية

فى الشرق حرّة طليقة لم تقيّد إلا حين قعد الجهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الازدهار الإسلامى قيـدًا لحرية الفكر ما كان صاحبه برىء القصـد يبتغى برأيه سبيل الحق . ولم يعـرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله . كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب فى التاريخ وفى الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ! . لا مفرّ إذاً من أن نلتمس فى تاريخنا وفى ثقافتنا وفى أعماق قلوبنا وفى أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا .

هذا كلام واضح بيّن، ومن عجب أن يخفى على أصحابى فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سـبب تثريبهم علىّ . ولكن لا عجب، فقد خفى هذا الكلام عنى سنوات كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم . وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتى ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعا هدى ونبراسا . لكننى أدركت بعـد لأىٍ أننى أضـع البـذر فى غير منبته فاذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنـه ولا تبعث الحيـاة فيه . وانقلبت ألتمس فى تاريخنا البعيد فى عهد الفراعين موئلا لوحى هـذا العصر ينشىء فيه نشأة جديدة، فاذا الزمن وإذا الركود العقلى قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سـبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . وروّأت فرأيت أن تاريخنا الإسـلامى هو وحده البـذر الذى ينبت ويثمر، ففيه حياة تحرّك النفوس وتجعلها تهتز وتربو . ولأبناء هـذا الجيل فى الشرق نفوس قويّة خِصْـبة تنمو فيهـا الفكرة الصالحة لتؤتى ثمرها بعد حين .

والفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد فى الإيمان بالله تنزع فى ظلال حرية الفكر إلى وحدة الإنسانية، وحدةٍ أساسُها الإخاء والمحبة . فالمؤمنون فى مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابّون بنور الله بينهم . وهم لذلك أمة واحدة تحيتها السلام وغايتها السلام . وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليـه عالَمنـا الحاضر من تقديس القوميات وتصوير الأمم وَحَدَات متنافسةً يحكم السيف وتحكُم أسباب الدمار بينها فيما تُتنافس عليـه . ولقد تأثّرنا معشرَ امم الشرق بهذه الفكرة القومية واندفعنا ننفخ

فيها روح القوة نحسب أنا نستطيع أن نقف بها فى وجه الغرب الذى طغى علينا وأذلّنا . وخيّل إلينا فى سذاجتنا أنّا قادرون بها وحدها على أن نعيـد مجد آبائنا وأن نستردّ ماغصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية . ولقد أنسانا بريق حضارة الغرب ما تنطوى هـذه الفكرة القومية عليه من جرائم فتّاكة بالحضارة التى تقوم على أساسها وحدها . وزادنا ما خيّم علينا من سُجُف الجهل إمعانا فى هذا النسيان . على أن التوحيد الذى أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله سلامةً فى الفطرة هدتنا إلى تصوّر الخطر فيما يدعو الغرب إليه، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل، وإلى أن الأمة التى لا ماضى لها لا مستقبل لهـا . من ثم كانت الهوّةُ التى ازدادت عمقا بين سواد الأمم فى الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه إلى وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفورُ من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية مع حرصه على نقل علومه وصناعاته . والحياة المعنوية هى قِوام الوجود الإنسانى للأفراد والشعوب . لذلك لم يكن لنا مفرّ من العود إلى تاريخنا نلتمس فيـه مقوّمات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذلّ، ولنتقى الخطر الذى دفعت الفكرة القومية الغربَ إليه فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المـادية التى جعلها الغرب إلٰهه .

لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت الى إحياء حضارتنا الشرقية . ومصدرُ الحضارة سنا الأرواح المضيئة، وقِوامُها وثبـة النفوس القويّة . والأرواح تضىء ما اتصلت بروح أقوى سلطانا وأبهر سناً، كما يضىء سلك البلاتين إذ يصهره تيار الكهرباء . وكم فى ماضينا من أرواح ذات سناً باهر قادرة بقوّتها على أن تبعث الحضارة الإسلامية خَلقًا جديدا، كما بعث فلاسفة اليونان الحضارة الغربية الحديثة . ومحمد ابن عبد الله هو النور الأوّل الذى استمدّت هذه الأرواح منه ضياءها، وهو الشمس التى أمدّت كل هـذه الأقمـار بسـناها . لذلك جعلتُ سيرته موضـع دراستى فى "حياة محمد"، وجعلت مواقفه "فى منزل الوحى" مصدر إلهامى لمـا تنطوى عليه

من تعاليم أوحاها الله اليه كلها السمو والقوة والجلال والعظمة . فأين هذا من تملّق الجمهور أو متابعته التماسا لرضاه .

يقول الذين يغمزوننى : لك رأيك ! . فمالك لم تقف عند ما آخذ به المستشرقون محمدا ؛ ومالك جعلت القرآن سندك الأول فى السيرة وسندك الأول فى هذا الكتاب ، دون أن تمحص ما فيه تمحيص العلم وتنقده نقده ؟ إنما فعلتَ لأنك خفتَ الجمهور فجاريته ، وخشيت الناس فملقتهم ، ولم تخش العلم ولم ترعَ حقه . غفر الله لكم أيها الصحب ! وبم آخذ المستشرقون المنصفون النبي العربى ؟ وما الذى نقدوا القرآن به ؟ لست أُريد العود إلى ما ذكرته عن ذلك فى "حياة محمد" وفى تقديم طبعته الثانية . وحسبي أن أقول : إن ثلاثة عشر قرنا انقضت وتنصّف القرن الرابع عشر منذ وفاة النبي ولم تستر هذه المآخذ من ضيائه إلا ما يستر كَلَفُ الشمس من ضياء الشمس ، ولم يغيّر هذا النقد من سلطان الحق فى كلام الله إلا ما تغيّر الرياح من سُنَن الطبيعة . وها هم أولاء علماء العالم يعود اليوم أقدرهم وأكثرهم يعترفون بعجز العالم ويقولون ربّنا لا عِلْمَ لنا إلا ما علّمتنا . فإن يكن ذلك مبلغ العلماء من العلم فأخْلِقْ بالذين يتحدّثون عن النقد العلمى إذ يذكرون القرآن أن يكونوا أكثر تواضعا ، وأن يخشَوُا الله أكثر من خشيتهم غرورهم ، وأن يذكروا أن ما فى النفس الإنسانية من قوى يتوسّمها العلم ولمّا نزل خفيّة عليه يعدل أضعاف ما كشف العلم حتى اليوم عنه ، وأن ملايين الشموس والكواكب المنثورة فى فضاء هذا العالم أضخم قوة وأخفى . وإنى إن تحدّثت عن شىء من هذه القوى التى لم أبلغ من العلم بها بعضَ ما بلغ العلماء فليس ذلك متابعة للجمهور ولا خشية منه ، ولكنه الاقرار بالضعف والعجز ، وبأنا اذا وجب علينا أن نجاهد ما استطعنا لنبلغ من العلم غاية ما يؤتيه الجهد ، فواجب كذلك علينا أن نقرّ بأنّا لم نبلغ من العلم ما يطوّع لنا كل هذا الغرور .

أوَ يجد أولئك الأصحاب — عفا الله عنهم — ما يفسرون به كيف استطاع «ماركونى» وكيف استطاع «أديسون» أن يكتشفا فى عصرنا ما اكتشفا مما لم يستطعه

غيرهما ، وأضرابهما فى العلم والمعرفة كثيرون ؟ ما هذه القوة التى أرتهما ما لم يره غيرهما ؟ ولماذا لم ينسج أضرابهما على منوالهما كما ينسج الصانع على غرار الصانع والزارع على غرار الزارع؟ وهل يجدون ما يفسرون به لماذا ظل أرسطوطاليس وأفلاطون أئمة فى الفكر وقد تقدم العلم بالإنسانية نحو ثلثمائة وألفى سنة؟ وما قولهم فى الظاهرات التى يسجلها العلم اليوم ولا يجد لها فيما اهتدى اليه من سنن الكون تأويلا ؟ .

لا يسعك إذ تقف أمام هذه الأسماء والظاهرات إلا أن تقف موقف تواضع وإكبار . ولكن أين هذا من موقفى أمام آثار الرسول الكريم فى منزل الوحى! ما كان أعظمه فى تحنثه! وما كان أعظمه فى دعوة قومه الى الهدى، وفى صبره على أذاهم، وفى تأديبه المسلمين بأدب القوة على الحياة! وما كان أعظمه فى هجرته وفى غزواته، وفى عفوه وحلمه ، وفى تقواه وعدله ! . نعم ! ما كان أعظمه فى كل صفاته وفى كل أعماله ! . لكن هذه العظمة التى لا تدانيها عظمة تصبح أمرا إنسانياً إذا ذكر الوحى وذكر اتصاله بربه وما رأى من آياته الكبرى ، هنا يبلغ السمو الى حيث لا تدرك الإنسانية منه بعض المدى ، ولا يسع الانسان إلا أن يكرر قوله تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . ما ضَلَّ صاحبكم وما غوى . وما يَنْطِقُ عن الهَوَى . إنْ هو إلا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَه شَدِيدُ القُوَى . ذو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وهو بالأُفُقِ الأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فتدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى . فأَوْحَى الى عَبْدِهِ ما أَوْحَى . ما كَذَبَ الفؤادُ ما رَأَى . أفَتُمَارُونَه على ما يَرَى . ولقد رآه نَزْلَةً أُخرى عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهى . عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى . إذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى . ما زاغَ البَصَرُ وما طَغَى . لقد رَأَى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرَى ﴾ . وهنا يحاول العقل أن يسمو فوق نفسه ليدرك هذا الأفق الأعلى . وهيهات أن يدركه والعلم ما يزال الى اليوم محدود الأفق قاصرا دون تفسير الكثير مما يقع عليه الحس . أفرجعيةٌ أن يقف الإنسان فى منزل الوحى يحاول السمو إلى أن يفهم كيف كانت صورته ؟! أم رجعية أن يقف الإنسان عند آثار صاحب الوحى يلتمس فيها الأسوة والعبرة؟! إن يكن ذلك ظن أصحابى فأحِبْ إلىّ بها رجعية أستسيغها .

وأدع الإشارة إلى محاولات قام بهـا السلف ولا يزال العلماء من أهل عصرنا يعالجون القيام بمثلها ابتغاء الأتصال بالعالم فى وحدته التى تشتمل الزمان والمكان، وإلى محاولات غيرها يبتغى العلماء بهـا تفسير هـذا الأتصال على الطريقة العلمية الحديثة . وأدع الإشارة كذلك إلى أن المذاهب الفلسفية ترمى كلهـا إلى تصوير الكون بدءًا وغاية ، وإلى أنهـا تستمدّ هذا التصوير من وحى الحياة ما كان منهـا وما يكون، ما كشف عنــه العلم وما لا يزال مطويا فى سر الغيب . وهذه المذاهب تقتتل ويتّهم بعضها بعضا بقصور وسائله عن درَكِ الغاية، أو بنزوع وسائله منزعا لا يقف فى حدود العلم وطريقته، بل ينحو نحو المنطق التجريدى" الميتافيزيق " المتّهم فى نظر الواقعيين بالرجعية . فلو أننى حاولت هذه الإشارة لطال بى الأستطراد إلى ما لا يتسع له هذا التقديم، ثم لرأى القارئ أمثال " برجسون " صاحب نظرية الإلهام والتطوّر المنشئ يُغْمَزون برجعية كالتى أُغْمَزُ اليوم بهـا . وحسبى عزاء أن ما غُمِزوا به لم يحل بين الجمهور المثقّف والعناية بمذاهبهم، حرصا من هذا الجمهور على ٱجتلاء الحق الذى تنطوى هذه المذاهب عليه . بل إن هذا المغمز بالرجعية ليزيدنى غبطة بمـا لقيته بحوثى هذه من عناية القرّاء والباحثين بها عناية كانت الشهيدة على ما حبانى الله من توفيقه فى التحدّث إلى الناس حديثا يرونه جديرا بالاستماع له .

على أن هذه الرجعية التى زعموا قد أتاحت لى أن أقوم فى موافقى هذه بالبحوث التى أشرت إليها عن شؤون من بلاد العرب اختلفت الآراء عليها فى عصور الإسلام المختلفة . وإذا لم أكن قد تعمّقت فى هذه البحوث، لأننى لم أقض بالحجاز إلا ستة أسابيع ولم أُنفق للبحث بعـد ذلك من وقتى إلا ما قضت به الحاجة لتأليف هــذا الكتاب ، فلشَــدّ ما يسرنى لو يمهّــد مجهودى لبحوث جامعيّــة أدنى إلى الدقة فى تصوير الحقيقة ، بعد إذ بلغت أنا منهـا حظا أغتبط له فى مسائل شتّى خالفت رأى الجمهور فى بعضها . وإنى لأترك الحكم على هذه النتائج لمن اختصوا ببحث هذه الشـؤون، كما أترك لهم تقدير ما خالفت الجمهور فيه بعــد أن رجعت إلى مصادر

البحث العربيـة والأجنبية التى أتيح لى الرجوع إليها ، و بعد أن استعنت فى ذلك بمن أمدّونى بمعلوماتهم ومن عاونونى فى تقصّى المراجع المختلفة .

وليس يسعنى وقد ذكرت من عاونونى ، دون التنويه فى هذا التقديم بمـا كان لمعونتهم من فضـل جدير بأطيب الثناء . وشبّان الحجاز هم أوّل الأعوان الجديرين بشكرى ، والحاج عبد الله فلبى ، أو سانت جون فلبى ، حقيق بمثل هذا الشكر .

ولقد كان لرجال القسم الأدبى بدار الكتب المصرية من فضل معاونتى فى كثير من مراجعاتى ما يستحقون من أجله أطيب الثناء . أما دقة الفن فى طبع الكتاب فترجع إلى أولى الأمر فى مطبعة دار الكتب ، والقارئ يشاركنى فى شكرهم عليها .

وسأظل أذكر ما حييت ما بذله الشـيخ عبد الحميد حديدى أحد رجال مكة ذوى الفضل والعـلم من معاونة صادقة كان لها أبلغ الأثر فى اتجاهى . كان مُضيفى بمكة الشيخ عباس قطان أمين العاصمة قـد أحدث التعارف بينى و بينه و رجاه أن يصحبنى ، فصحبنى الرجل فى تجوالى بمكة و بادية الطائف وذهب معى إلى المدينـة ولزمنى حتى ودّعنى مسافرا من يَنْبُع . وقد كان فى صحبته رفيقا ذكيا ودليـلا محيطا بتفاصيل المواقع فى مكة ، عارفا بمـا فى الطائف والمدينة . وقد أعانه السيد صالح القزاز والشريف حمزة الغـالبى فى رحلة الطائف ، وأعانه الأسـتاذ عبد القدّوس الأنصارى أعظم العون فى رحلة المدينة . ولقد حرصت على الاشارة أثناء فصول الكتاب إلى ما قام به هؤلاء الإخوان الأجلاء من جهد فى معاونتى جدير بكل تقدير وحمد .

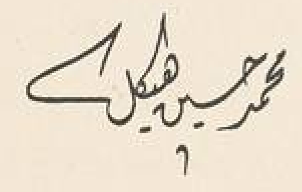
أما ما كان لجلالة الملك ابن السعود ولوزير ماليته الشيخ عبـد الله بن سليمان الحمدان ورجال الحكومة العربية من فضل فى معاونتى فذلك ما لا يفى الثناء بتقديره .

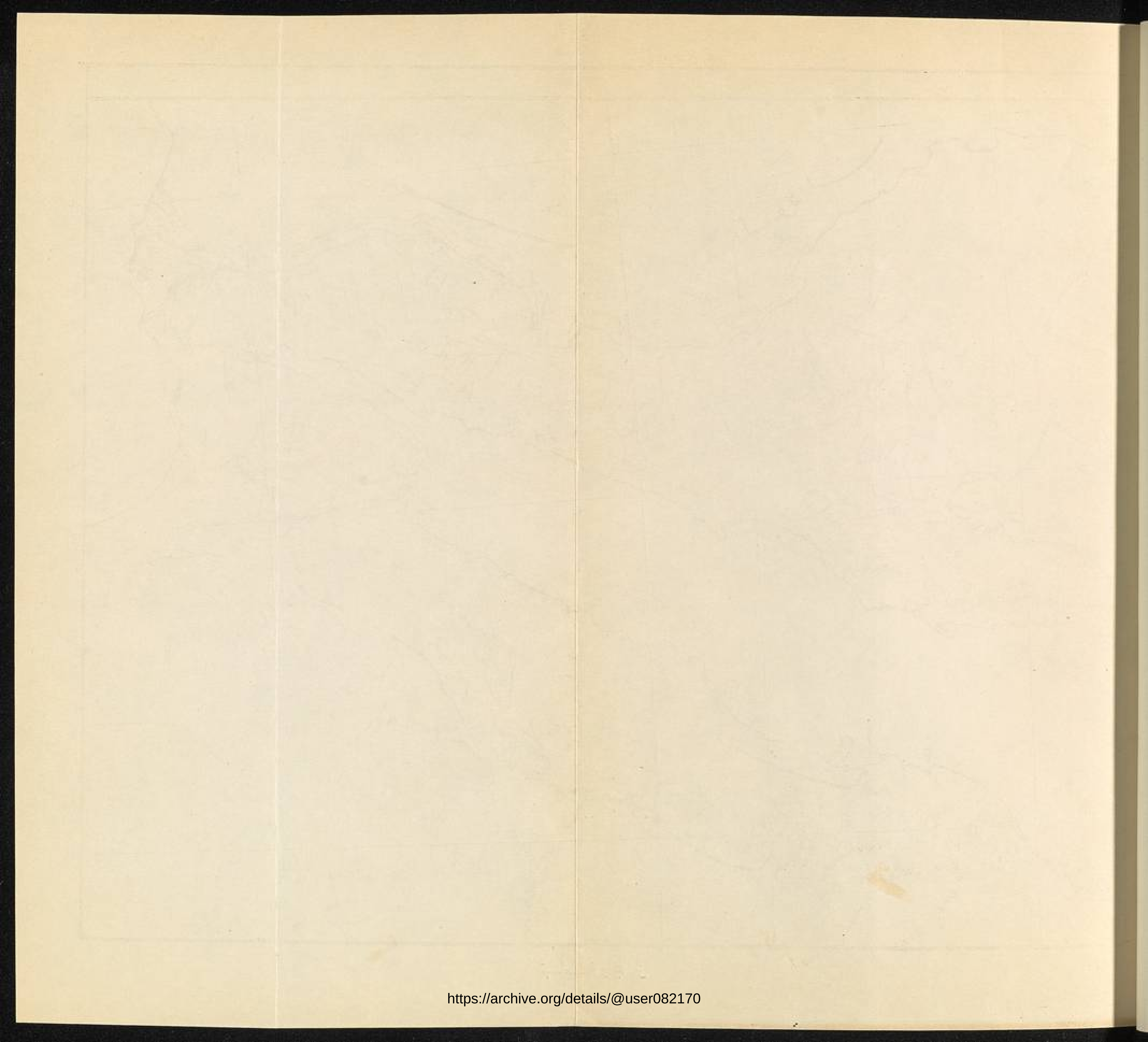
وإنى لأستغفر من نسيت ذكرهم من أولى الفضل ومن كان لهم يد فى معونتى ، والله يجزيهم عنى أحسن الجزاء .

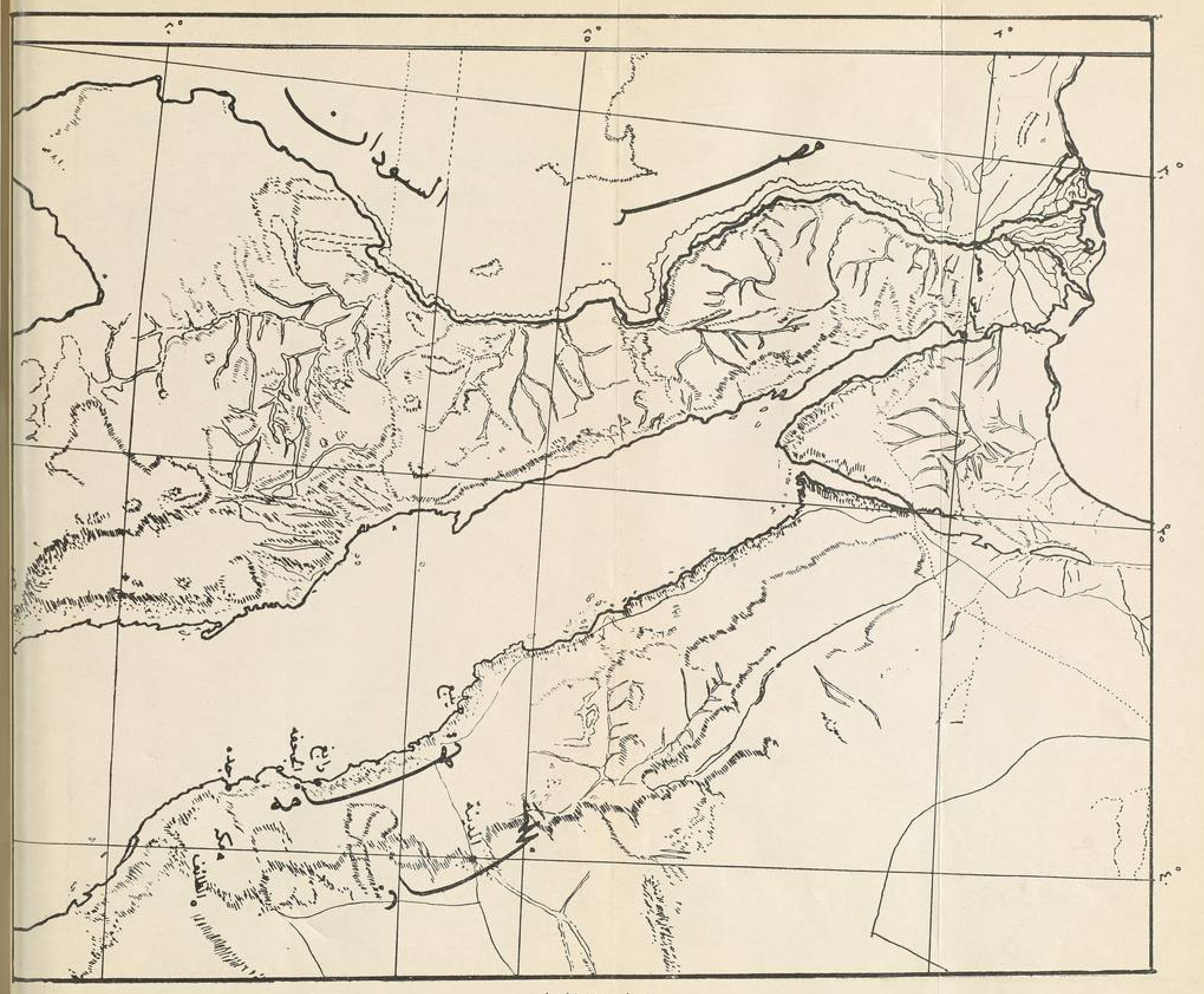
ويزيد فى تقديرى لهذه المعاونة وفى ثنائى على الذين أسدَوْها إلىّ بما هم أهله أنها طوّعت لى أن أقف أنا نفسى عند ما وقفت عليـه من قبل فى بطون الكتب

وأن أصف هاهنا ما كان لهذه المواقف من أثر مباشر فى أطواء روحى . و إنى لأعتبر هـذه الحرية فى الشعور فضلا من الله عظيما . فنحن فى حاجة الى أن نرى الأشياء فى كل عصر بعين أهله ، وأن نحكم عليها بمـا بلغنا فيه من تقدّم أو تطوّر فى العـلم والحضارة . فأمّا أن نتقيد بمـا شهده السلف فذلك الجمود الذى لم يرضه الإسلام مذ بعث الله به نبيه ، وذلك مايجب أن نتنزّه عنه . ولهذا قدمت أننى لم أتقيد أمام شىء ممـا رأيت بكتاب غير كتاب الله ، ولم أجعل لى فى التقدير إماماً إلا ما رضيه العقـل وطابت به النفس ، ولم أخش إلا الله و إلا ضميرى فيما أفاضـه الحس على القرطاس . فليغمزنى من شاء بالرجعية ، وليتهمنى من شاء بمخالفة الإجماع ، وليقدر هذا المجهود من شاء بما يشاء ؛ فإنما أبتغى به الجزاء من الله يوم تجزى كل نفس بما كسبت ولا يعرف حميم حميما . والله وحده عليم بذات الصدور .

وأختم هذا التقديم راجيا أن يُثمر هذا العمل من تقدير قومى ما يدعو جامعات الشرق العربى وما يدعو الكتّاب الى مزيد من العناية بهذه البلاد الإسلامية المقدّسة ودراسة حاضرها وماضيها دراسة علميـة دقيقة ، وما يدعو المفكرين والساسة أولى العزم ليعملوا على إصلاح هذه البلاد ، وليتخذوا من مكة أم القرى مقراً لعصـبة أمم إسلامية . ألّا لو فعل هؤلاء وأولئك ليكونن عملهم أعظم فوز لهذا الكتاب ، وليكوننّ فتح الله يومئذ للؤمنين مبينا .







تهامة والحجاز


فى منزل الوحى

للمـــؤلف

	سنة
حياة محمد	١٩٣٥
ثورة الأدب	١٩٣٣
ولدى	١٩٣١
تراجـــم	١٩٢٩
عشرة أيام فى السودان...	١٩٢٧
فى أوقات الفراغ	١٩٢٥
چان چاك روسو	١٩٢٣ ١٩٢١
زينب	١٩١٤
دين مصر العام — بالفرنسية	١٩١٢

الكتابُ الأولُ

فرض الحج

عزم السفر

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَا ذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

فى هـذه الكلمات الحكيمة تمثّل شعور الكثيرين من أصـدقائى منذ أعلنت عزمى على الرحلة الى الحجاز حاجًا حتى ودّعونى مسافرا . وفيها كان يتمثّل شعورى لو أن أحدا حدّثنى عن هذه الرّحلة قبل خمس سنوات من قيامى بها . فلما كانت سنة ١٩٣١ وبدأت أكتب " حياة محمد " شعرت بعد التقدّم فيهـا بالرغبة المُلِحَّة فى الذهاب الى الحجاز . ولمـا سيّرت شركة مصر للملاحة البحرية باخرتهـا الأولى " زمزم " الى الأماكن الإسلامية المقدّسة فى سنة ١٩٣٤ ، علمت أن فى نيّتها تسيير هـذه الباخرة فى أكتوبر من تلك السنة كيما تطوّع لمن شاء قضاء العُمْرة فى شهر رجب . إذ ذاك لم أتردّد وصممت على انتهاز الفرصـة لتنفيذ ما اعتزمته . لكن قلة الإقبال على هذه الزيارة الرجبية لم تسـمح بتسيير الباخرة فلم تتم الرحلة . وأسفت لفوات الفرصة ، وبقيت على عزمى أن أزور الحجاز و بلاد العرب وأن أقوم فيهما بكل ما أستطيع من الدراسات .

ولئن أسِفت على فوات هذه الرحلة لقد أسفت كذلك لإضاعة فرصة عرضت من قبل ، ولم يدُرْ بخاطرى يوم أضعتها أنى سوف آسف عليها . تلك فرصة السفر الى الحجاز مستهل الشتاء من عام ١٩٣٠ ، حين دعت الحكومة السعودية الصحافة المصرية الى الحجاز لحضور حفلة التتويج للملك ابن السعود . فقـد دُعيت الى هذه الحفـلة ، وكنت أودّ إجابة الدعوة لولا إقبال مصر يومذاك على المفاوضـة لعقد الاتفاق بينها و بين انكلترا . ولمّـا تكن كتابة سيرة النبي العـربى قد تمكنت من نفسى لتربط بينى و بين بلاد العرب بصلة تجعلنى حريصا على أن أتعجّل زيارتها ؛ لذلك لم يكن ما يحفزنى الى المفاضـلة بين المُقام بمصر ومغادرتهـا فى وقت كانت أحـوال مصر تدعونى للقيـام بواجبي القـومىّ كاملا . من ثَمّ رجوت صـديق

وزميلي الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني فسافر إلى الحجاز ممثلا جريدة السياسة بالنيابة عني . ولو كُشِف لي يومئذ من الغيب ما يسّرتني الأقدار له لما عدَل بي عن السفر الى موطن النبيّ العربيّ أيُّ اعتبار . ولكن ! ما تدرى نفسٌ ما ذا تكسِب غدًا .

أقمت على عزمى أن أزور الحجاز وبلاد العرب، وآثرت أن يكون ذلك فى أشهُر الحج، لأؤدّى فرضه وأدرك إدراكا ذاتيا كل حكمته . ووطّد عزمى ما عرفت فى فرائض الإسلام الأربع الأولى من حكمة بالغة يدرك سموّ جلالها وجليل نفعها كل من يؤدّيها بنفسه أو يعيش بين أهله وإخوانه الذين يؤدّونها . ألَا يجمل بى أن أقف بنفسى بين الحجيج بمكة ومِنًى وعَرَفات ، ومع الذين يزورون قبر النبيّ بالمدينة ، لأؤدّى فريضة الحج فأستبين حكمته ، ولأقف على ما يدركه المسلمون اليوم من هذه الحكمة، ولأرى كيف يؤدّون هذا الفرض ! .

إنما فُرض الحج ليشهد الناس منافعَ لهم، وليذكروا آسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ولتتيسّر لهم بالاجتماع لأداء الفريضة فرصةُ التعارف والتفاهم؛ فليكن الوقوف على مبلغ تقديرهم لهذه الحكمة بعضَ ما أشهده فى الحج من منافع .

وبدأ التفكير فى السفر للحج يساور نفسى ويشغَل حيزًا من ذهنى . ولم أطالع بهذا التفكير بادئَ الرأى أحدا ، إذ كانت شوائب التردّد ما تزال تشوبه . فقد انتشرت أمام ذهنى فى الأيام الأولى منه صورة غير مشجِّعة لما قد يقوم فى سبيل هذا السفر من عقبات . فما عسى أن تكون الحياة فى بلاد العرب لرجل تقتضيه عادات الحياة ما لا يتيسّر هناك ! . وما عساى أفعل إذا مرضت ! ولى ابن عم مات على عرفات ودفن بمكة من عامين لعله لو أُسعف بالعلاج والطب لما تيتم أبناؤه . وإذا استطاع الإنسان التغلّب على مخاوف المرض وحاجات الحياة فى غير أشهر الحج فكيف يغالبها حين يختلط حابل المسلمين بنابلهم بمكة ، وحين تكون الأماكن المقدّسة معرّضة للأمراض الوافدة إليها من الهند ومن جاوة ومن مختلف أقطار

الأرض . هذا إلى ما تقضى به نُظُم مصر الصحية من احتياط بالوقاية الطبية قبل السفر، وتحجر صحىّ فى العودة . والإحرام : التجرّد من الملابس كلها، والاكتفاء بمئزرين غير مَخيطين يلتفّ الإنسان بهما ويبق عارىَ الرأس ليلَه ونهارَه أياما عِدّة ! !

كيف يحتمل الإنسـان ذلك كله فى الحجاز، وهو فيما يصفه الواصـفون بلادٌ بادية لا تعـرف من صور الحضارة ما تطمئن إليه نفس أحد ممن أصبح جِوارُ الطبيب والصيدليّة بعضَ ضرورات حياته ! .

ولئن نسيت هذه الاعتبارات وجعلتُ لى فيمن سبقنى الى الحج أسوة ، أأنسى هذا الاضطراب الدولىّ القائم بسبب الحرب الناشبة بين إيطاليا والحبشة ! . لقد ألّبت إنكلترا الدول المشـتركة فى عصبة الأمم على عاهـل "رُومِيَة" وحشـدت فى البحر الأبيض المتوسط وعلى حدود مصر من القوّات ما يُنذر بالحرب بين عشيّة وضحاها ؛ حرب يكون البحـر الأحمر وطريق الحجاز فيه بعضَ ميادينهـا . فاذا أنا سافرت ثم وقعت الحرب فكيف لى أن أعود إلى وطنى وأهلى وأبنائى ! .

مرّ ذلك كله فى خاطرى فزاد فى تردّدى . ولقد حاولت الاطمئنان إلى رأى فيه بسؤال أصحابى الذين زاروا الحجاز عن نوع العيش هناك ، وبسؤال المشـتغلين مثلى بالسـياسة عمـا يتوقّعونه من أثر الخلاف بين إيطاليا وإنكلترا . على أنى لم أتجاوز السؤال الى ما قد يفهم منه عزمى على السفر . فلو أنهم فهموا منّى ذلك العزم لأقدمت وسافرت غير عابئ بالنتائج . ذلك مزاجى ؛ ولعله مزاج من يغلب عليهـم الحياء فى اتصـالهم بالناس . يجازفون مخافة أن يقال خافوا . ولم أتلقّ من أصحـابى بادئ الرأى جوابا أطمئن إليـه . فبينا كان قوم يهوّنون علىّ أمر العيش بالحجاز كان آخرون يصفون لى من عُسره وشدّته ما يَطير معـه اللُّب شَعاعا . ولقـد أوجب بعض الأطبّاء أن يأخذ المسافر معـه من صـناديق المياه المعـدنية ما يكفيه اتّقاء تلوّث مياه الحجاز ، ورأى آخرون أن يحمل المسافر معـه كل ما قد يحتاج إليه من طعام وشراب .

لم يكن الأمر على هذا التصوير سفراً الى بلاد قريبة يذهب الإنسان إليها ويقضى مناسكه بها ويعود منها فى أسبوعين أو نحوهما . فالعُدّة للطواف حول الأرض أو السفر الى القُطْب لا تزيد على ما يذكرون . أيّةُ عزيمةٍ لا تتضعضع إزاء هذه المخاوف ولا تردّ صاحبها عن عزمه ؟ !

صحيح أن أكثر الذين زاروا الحجاز وحجُّوا البيت وزاروا المدينة هوّنوا علىّ الأمر وجعلوه فى صورة من اليسر لا يبقى معها موضع للتردّد . بل أضاف بعضهم أن هذه الرحلة جميلة محبّبة تثير فى نفس المثقّف من الأَحساس والصُّوَر الشعرية والفنيّة السامية مالا تثيره الرحلات الى المصايف أو بلاد الآثار فى مصر والغرب . لكن كلام هؤلاء المشجّعين لم يمحُ من نفسى أثر كلام المحذِّرين ؛ فقد تصوّرتهم متأثّرين بعاطفتهم الدينية أكثر منهم بالواقع ، وأنهم يخشون إن ذكروا المشقة ، أو ذكروا نقص أسباب الراحة والصحة بالحجاز ، أن ينقص أجرهم عن حجّهم وعُمرتهم . ولولا أنّ منهم علماء ومثقّفين لما بلغت أخبارهم من نفسى أن تغالب أخبار المحذِّرين وأن تجعلنى أُديم التفكير فى أمر السفر .

وكان الخوف من الحرب وخطر الطريق أبلغ فى نفسى أثرا . ولم يقنعنى مَنْ سألتهم رأيهم فى الأمر بما يزيل هذا الأثر من نفسى . فبينما كان بعضهم ينفى احتمال الحرب بين إنكلترا و إيطاليا قبل أن تتضعضع قوّات إيطاليا فى الحبشة، كان آخرون يؤكدون اقتراب الحرب ويكادون يضربون لوقوعها موعدا . وكان من بين الذين استشرت مَن اعتزم الحج منذ العام الماضى . فلما استنجزتهم عزمهم اعتذروا بما طرأ من أحوال قد تجرّ الى حرب تشترك مصر فيها، وتكون الأراضى المصرية أو المياه المصرية ميدانها، ويتعرّض أبناء مصر وتتعرّض ثروتها من جرائها لما تجرّه الحرب وراءها من الدمار والهلاك . ولهذا الاحتمال ثارت مصر تطلب الى إنكلترا أن تعقد معها معاهدة مودّة وتحالف كانا قد انتهيا من قبلُ الى نصوصها . وأجابت إنكلترا بعد لأْى أنها على استعداد للحادثة من جديد على ضوء ما سمّته الأحوال

المتغيرة للشؤون الحربيــة الحديثة . وقبلت مصر عرض إنكلترا وجعلت تعدّ العُدّة للحادثات فالمفاوضات . وبهذه المفاوضات اعتذر بعض الذين نذروا السـفر الى الحجاز من قبل، وحاولوا أن يُلقوا فى رُوعى أنّ السفر فى مثل هذه الأحوال يعتـبر تحيا عن أدائى ما للوطن من حق على أبنـائه . وربما كان موقف مصر من هـذه المفاوضات أدعى الى إرجائى السفر من موقفها سـنة ١٩٣٠، حين اعتذرت عن تلبية الدعوة الى حفلات التتويج لابن السعود .

فكّرت فى هــذه الأمور كلها مليًّا، على أن استشارتى أصحابى جعلت غير واحد منهم يسألنى : أمسافرٌ أنت حقًا لتؤدّى فريضــة الحج ؟ . وكان جوابى منذ أُلقى هذا السؤال علىّ لأول مرة : إن شاء الله . ومع أن مشيئة الله يتعلق بهـا إرجاء السفر كما يتعلق بها السفر، فقد كنت أحس كلما قلت هذه الكلمة كأن دافعا أقوى من تفكيرى يدفعنى الى عدم الإرجاء، وإن أمسكنى ما قـدّمت من الاعتراضات فى دائرة تردّدى . وتركت الأمر معلّقا بمشيئة الله وإن لم يمنعنى ذلك عن ذكره وتفصيل الحديث فيه كأنه أمر لا محالة واقع .

ومن عجبٍ أنى رأيت بعض أصدقائى يزداد حرصا على صدّى عن السفر كلما رآنى أشدّ إقبالا عليـه . وكان بعضهم يلتمس من أسـباب الإرجاء ما يراه مقنعا . قال أحدهم : إنّ تيسير المواصلات لأداء فريضة الحج يطّرِد سراعًا، فخير لمثلك أن يرجئ أداءها حتى تكون غير مرهقــة إيّاه . أمّا إن كان مقصدك فى السفر استيفاء البحث فى سيرة محمد وعصره فالخير أن تذهب فى غير أشهر الحج . فالبحث التاريخى والعلمى بحاجة الى الهدوء والطمأنينة ليؤتى ثمره . ومكة فى غير أشهر الحج هادئة ، يعاون سكونها على البحث من غير عناء بحثًا أعْوَدَ بالفائدة وأدنى الى الدقة العلمية . فلا تغامر الآن حتى تطمئن الى سلامة البحر الأحمر، وحتى تنتهى مصر من مفاوضتها الى موقف حاسم فى أمر الاتفاق مع إنكلترا .

على أنى لم أعدَم تشجيع قوم استهانوا بمشقة السفر وبخطر الحرب وا كبروا عزمى واستحثونى على تنفيذه . قال أحدهم : إنك سترى فى الأماكن الإسلامية

المقدّسة تاريخا يمكن التثبُّت منه والقطع بصحة وقائعه ؛ وذلك على خلاف تاريخ المسيحية فى فلسطين، حيث تحجب الأساطير كل ما يمكن أن نسميه تاريخا بالمعنى العلمى . وقال آخر : إذا كانت المفاوضات المصرية الإنكليزية هى التى تدعوك الى البقاء فأنا الكفيل بأن تسافر وتؤدّى فريضة الحج وتحقّق ما تشاء تحقيقه ولمّا تقطع المفاوضات مرحلتها الأولى . وقال ثالث : هَبِ الحربَ شبّت وتعرّضت الملاحة فى البحر الأحمر للخطر، ففى مقدورك أن تعود بالسيّارة من طريق سيناء . ولن تَضِنّ مصلحة الحدود المصرية عليك بالمعونة كى تعود . ولو أن ذلك حدث لكان لك فيه من الحظ أن ترى من الأماكن المتصلة بسيرة النبى العربى ما لا تتيسّر لك رؤيته إذا عدت بالبحر والبحر آمن .

وأفضيت الى زوجى بذات نفسى ، فكانت أكبر مشجّع لى على السفر . قالت : إنك تفكر فى الحج وفى السفر الى الحجاز منذ عام أو أكثر من عام . فسافر على بركة الله وتوكل عليه ما دمت قد عزمت . وسترى فى الحجاز لونًا جديدا من الحياة يريح مرآه الأعصابَ وتطمئن له النفس . وقد شغلتَ نفسك حتى انتهاء مُقامنا فى الصيف بالشام بالدرس والبحث ، فروِّح عن نفسك بهذا السفر منهما .

كان حديث زوجى وتشجيع أصدقائى حريّين بالقضاء على كل أثر للتردّد فى نفسى . لكنى ظللت مع ذلك أُفكر فى العقبات وتذليلها، جاهدًا لتغليب جانب العزم على جانب الإرجاء . وإنى ذات ليلة لَمُشتغِلٌ بالأمر أُقلّبه على وجوهه وأستخير الله فيه إذ سمعت حديثا كأنه الإلهام قضى على تردّدى قضاء مبرما ؛ فقد عدت الى دارى بعد انقضاء عملى الصحفى مُنتَصَفَ الليل وجلست الى جانب أداة "الراديو" وجعلت أُدير شارته على محطات مختلفة حتى كانت عند "بودابست" عاصمة المجر . و "بودابست" تعزف فى مثل هذه الساعة من الليل ألحانا موسيقية تطرب لها النفس . فما كان أشدّ عجبى حين سمعت الإذاعة فيها غير موسيقية، وحين سمعتها محاضرة باللغة الإنكليزية . وكانت أول عبارة تنفّست عنها الإذاعة قول المحاضر:

"وسط هـذه الجموع الحاشدة حول الكعبة جعلت أسمع : الله أكبر . الله اكبر . فلما انتهيت من الطواف ذهبت أسعى بين ربوتَيِ الصفا والمروة ..." وانطلق المحاضر يتكلم عن الحج وشعائره ومناسكه وما كان له فى نفسه من أثر عميق . ولم يخامرنى ريبٌ من أول وهلة فى أن المحاضر هو صاحبي الأستاذ المجرى "جول جرمانوس" الذى أسلم وتسمّى باسم عبد الكريم، والذى جاء الى مصر منذ عام فزارنى غير مرّة ثم ذهب من مصر الى الحجاز فقضى بها أَشْهُرَ الحج وعاد فلقينى وقصّ علىّ شيئا مما مرّ به أثناء رحلته . فلما أتمّ إذاعته من "بودابست" أقفلت أداة "الراديو" وقد علانى الوجوم، وقلت فى نفسى : أَوَ يكون هذا الأستاذ الأوربى الحديث العهد بالإسلام أصدق عزمًا منّى فى زيارة الأماكن الإسلامية المقدّسة ؟ ! وهل تراه يطيق من مشقة الحج ما لا أُطيق ؟ ! وشعرت بما فى تردُّدى من تجديف يجب أن يتنزّه عنه إيمانى بالله وثقتى بنفسى . إذ ذاك نضوت عنّى كل ما علق من قبل بإرادتى ، ولم أرْتَب لحظة فى أن الله قد عزم لى بهذا الحديث من "بودابست" بعد أن استخرته مخلصًا واستعنته صادقا .

فلما اطمأن عزمى وقرّت إرادتى عدتُ أَلوم نفسى على ما كان من مخاوفها . وكيف أخاف اليوم وعهدى بنفسى أعظم ثقة بالله من أن أُحجم دون ما أعتقده الحق أو الخير، أو أرجع عن أمر تعلّقت به نيتى. وما البحر الأحمر واحتمال مخاوف الحرب فيه اذا قيس الى سنة ١٩١٤ ! . لقد كنت إذ ذاك محاميًا بالمنصورة ، وكنت قد عقدت العزم مع صديق لى أن نقضى بعض الصيف بلُبْنان . وحدّدنا اليوم الثانى من شهر أغسطس موعدًا لسفرنا على إحدى البواخر التى تبرح بور سعيد الى بيروت. و بينا كنا نستقل القطار صبيحة ذلك اليوم من المنصورة الى مرفأ سفرنا طالعتنا الصحف بأن الحرب شبّت بين النمسا والصرب وروسيا وفرنسا بعد أن عجزت السياسة عن تسوية حادث "سيرا چيڤو" بما يصون السلم ويحقن الدماء . وقدّرت وصاحبي امتداد الحرب الى عُرْض البحر الأبيض ، ودار بخاطرنا أن نقضى أسابيع رياضتنا فى بور سعيد . لكنى ما لبثت حين داعبنا هذا الخاطر أن

دفعته بأن فى مقدورنا أن نركب الصحراء فى عودتنا من لُبنان إذا خيف البحر وتعذّر ركوبه . وركوب الصحراء يومئذ كان معناه امتطاء ظهور الإبل؛ فلم تكن سكة الحديد قد مُدّت لفلسطين ولم يكن السفر بالسيّارات مألوفا . وسافرنا الى لبنان ، فاذا تركيا تحشد جنودها ، وإذا الأنباء تترى بعد أيام بأن البواخر الذاهبة الى مصر اضطربت مواعيد سفرها . مع ذلك لم تتغير ابتسامتى للحياة، وبقيت وصاحبى حتى أقلتنا باخرة جُمع عليها المصطافون من مصر جميعا فحُشروا فوقها زُمَرا .

ها هى ذى أكثر من عشرين سنة انقضت منذ هذا الحادث وما أزال سعيدا بذكره راضيا عن إقدامى؛ فكيف أخشى اليوم احتمال حرب فى البحر الأحمر لا يزيد على أنه احتمال قريب أو بعيد ، ولم أكن أخشى يومذاك أن تمتد إلى البحر الأبيض حرب شبّ بالفعل أُوارها . أَوَ بلغ من تقدّم السن بى أن أضعف عزمى ! أم أن الأولاد مَجْبَنَةٌ لى اليوم ولم تكن لى مَجْبَنَةٌ يومئذ ! أم أن إغراء الشباب بالمغامرة الرخيصة ليس فى شىء من حكمة الكهولة وأناتها فى تدبُّرها الأمور وتقديرها ! . ليرجع ترددى من خوف الحرب فى البحر الأحمر إلى أىٍّ من هذه الأسباب أو إليها جميعا؛ فأنا ملوم فيه . فما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله . وكل نفس ذائقة الموت كتابا مؤجلا . ولقد رأيت الموت بعينى غير مرّة، وهأنذا مع ذلك أضرب فى الحياة وما أزال أجاهدها . سقطت من أعلى دارنا بالريف فى سنة ١٩٠١ ، فلولا قدَرٌ عفا عنّى لكنت اليوم فى جوار الله . ومرِضت فى سنة ١٩٢٤ مرضا خِيف منه على حياتى . وصدمتنى سيّارة فى سنة ١٩٢٨ صدمةً قضى مثلُها على حياة كثيرين غيرى . وانقلبت بى السيّارة فى سنة ١٩٣٢ فلم يؤذنى انقلابها . وتصادمتْ ومعى أولادى فى سنة ١٩٣٥ تصادمًا أزعجنا ولم ينلنا بأذًى . ودون هذا وما اليه ما يودى بالحياة إذا حُمَّ الأجل . وكم مات أقوياء أصحاء فجأة بلا مرض ولا حادث . فليكن بعض إيماننا بالله أن نُقبِل على أداء واجبنا فى الحياة مطمئنين غير هيّابين ولا وَجِلين؛ فإن بلغنا من أدائه ما نرجو فذلك فضلُ الله وحسن تيسيره، وذلك هو الفوز العظيم ؛ وإن اخترمتنا المنون أثناء قيامنا به مخلصين ، فذلك مجدُنا فى الحياة

ورجاؤنا فى الله . وأى مجد فى الحياة كأداء ما نؤمن بأنه الواجب ! . وأى رجاء فى الله أكبر من الاستشهاد فى سبيل الواجب ! .

وخجلت وأنا أحاسب نفسى حين ذكرت ماتخيلت من مَشقة الحياة بالحجاز . فما المشقة ! ثم ما قيمة عيش لا مشقة فيه ! . وأين المتاع بالحياة وجمالها إذا نحن قضيناها على نَسَق مُطَّرد يشابه فيها كلُّ يوم ما قبله ، لا يهزّنا فيها جديد ولا تفجؤنا فيها فُجَاءة سارّة أو ممضّة ! . وكيف نروض أنفسنا على ما قد يمرّ بنا فى الحياة من شدّة ، وكيف نعرف الصبر فى البأساء وفى الضرّاء وحين البأس ، إذا أفزعنا شبح المشقة وانخلعت قلوبنا هلعاً لتصوُّرها ! . أوَلسنا نُقبِل عن طواعية واختيار على فنون من الرياضة فيها من الجهد والمشقّة ما لا يقاس اليه كل مافى بلاد العرب مما نتصوّره من جهد ومشقة! أوَلا يتسلّق جماعة منا جبال الألْپ بسويسرا معرِّضين أنفسهم لقسوة الزمهرير فى قُنَنها ولأخطار السقوط أثناء تسلُّقهم إياها ! بل إننا لنحمل أنفسنا أحياناً على ألوان من الرياضة أشدّ إجهادا للقوى وأشدّ تعريضًا للخطر من تسلّق الألپ . ومتاعُنا بهذه الألوان من الرياضة خير مايلذّنا من أيام حياتنا ، حتى لنجد فى ذكره من العذوبة ما يجعل العود إليه حلوا سائغا . وإنى لأذكر من مخاطرات الصِّبا ومن جولاته بأوربا وغير أوربا أياماً قضيتها فى مثل نُسك الزاهد وخشونة صَوْمعته ، فأجد لهذه الذكرى لذّة ونشوة لا يشبهها فى شىء ذكر أيام الدعة والنعيم ، وأستعيد بها صورة مَشاهد فى الطبيعة مما خلق الله أو نظم الإنسان قلَّ لمن لم يعرف الخشونة أن يشهد مثلَها . فمالى لا أغتبط لما عسى أن يكون بالحجاز من مشقة أُثاب عنها بما أستمتع به بعدها من جمال ذكرياتها العِذاب ؟ ! وهل الحياة بنعيمها وبؤسها إلا ذكرى ! . ومالى لا أُسارع إلى طلب هذه المشقة أستعيد بها ما عرفت فى ماضى حياتى من شؤون العيش ، وقد كان التقشُّف خير أستاذ يُدرك مريدوه مغزى هذه الكلمة القويّة العميقة : "اِخْشَوْشِنُوا فإنّ النِّعَمَ لا تدوم" .

نضوت إذًا ترددى ، ولم أَرْتَبْ لحظة فى أن الله عزم لى بحديث "بودابست"، وعمدت منذ الغداة أستشير السابقين إلى الحج من أهلى وأصحابى فى أُهبة سفرى . وهوّن بعضهم الأمر وهوّله آخرون . هوّنه الشيوخ والذين ينعمون بالضرّاء ابتغاء مغفرة الله لمن حج بيته . وهوّله من ليسوا أقل إيمانًا و إن كانوا أشدّ على طمأنينتهم وصحتهم حرصا . كان من رأى هؤلاء أن المياه فى موسم الحج مخوفة، وأخوفها ماء مِنًى ، وأن الاحتياط لقسوة البرد أثناء الإحرام يقضى بلباس خاص مع متزريه . وسألت بعض الأطباء رأيهم فى ماء الحجاز ووسيلة اتقاء تلوثه . وهوّن بعض الأطباء الأمر وهوّله آخرون . وكان ما يلائم جوّ الحجاز وتقاليد العيش فيه من أمر الملبس موضع خلاف كذلك . وقدّم لى صديق من الأطباء جَعْبة من الدواء لإسعاف المسافر، وأكملتها بما يتفق وحالى الخاصة . وانتهى بى التفكير فى الاحتياط الطبى إلى الاكتفاء بهذه الجعبة تاركًا ما سواها مما نصح به الأطباء إلى موجبات الحاجة أثناء السفر . ولعله السأم لاضطراب رأى الأطباء هو الذى حملنى على هذا الاكتفاء . أمّا اللباس فأخذت من ألوانه كل مانصح الناصحون به ؛ وقد شغل ما يقتضيه الإحرام وحده من عِياب المتاع حيزًا عظيما .

لست أذكر أنى ساورتنى مثل هذه الحيرة فى أهبة السفر إلا صَدْرَ الشباب حين كنت مسافرا فى سنة ١٩٠٩ لإتمام دراسة الحقوق بأوربا ؛ فقد صحبت منها يومذاك ما عرفت من بعد أنى فى غير حاجة إليه . فأمّا فى هذه الفترة التى انقضت بين سفرى الأول إلى أوربا وسفرى الأول إلى الحجاز، والتى تزيد على ربع قرن من الدهر ، فقد كنت أتخفّف من الأهبة أثناء أسفارى ما استطعت . وما أسفت يوما على هذا التخفف . سافرت مرّات إلى أوربا، وسافرت إلى لُبْنان والشام ، وسافرت إلى السودان، ولم أكن فى أسفارى هذه جميعا أحمل من الثَّقَل إلا ما أشعر بمسيس الحاجة إليه، ثقةً منى بأنى واجد ماينقصنى حيث أنزل . وكيف لا أجده وأهله يعيشون و يجدون حاجاتهم فيه ! . وكان حتماً علىّ أن أصنع هذا الصنيع فى السفر إلى الحجاز ، وأن أذكر أنى واجد فى كل بلد ما تقضى به

حاجات العيش فيه . لكنى نسيت هذا الأمر، وما أنسانيه إلا كثرة ما سمعت ممن استشرتهم . ولعلى إنما طاوعتنى نفسى إلى سماع الكثير مما قالوا لقلة من يسافرون لأداء فريضة الحج من الطبقات المستنيرة من المسلمين، ولكثرة ما يقال عن الحجاز والحالة الصحية فيه . وأغلب ظنى أنى لو قمت بهذه الرحلة فى غير موسم الحج لجريت على عادتى، ولتخففت من أهبة سفرى ما استطعت .

ونزلت على حكم الإجراءات الرسمية التى تجب على من يفرض الحج، فقدمت بذلك طلبا إلى الحكومة ودفعت نفقات السفر، وأسلمت نفسى للتطعيم ضد الجدرى والحقن ضد الكوليرا والتيفويد، وحددت موعد سفرى على الباخرة "كوثر" التى تبرح السويس يوم الثلاثاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٦ . من يومئذ اتجه تفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج ومناسكه، وجعلت أصور لنفسى ما أنا ملاقيه فى ترحالى وما سأشهده بالبلد الحرام والبلاد المقدسة . أما أصحابى الذين حاولوا من قبلُ أن يصرفونى عن سفرى فقد جعلوا يسألوننى عن شعورى إزاء هذه الرحلة وإزاء فريضة الحج، مشفوعا سؤالهم بأصدق الرجاء أن أتم الفريضة والرحلة وأن أعود إليهم بخير ما يرجونه لى من صحة وعافية .

وهرع آخرون من أصدقائى ومعارفى يهنئوننى بما عزمت ويؤكدون لى أنه آية فضل الله علىّ ورضاه عنى . وشكرت لهم تأكيدهم مغتبطا به ثقةً منى بإخلاصه وصدق النية فيه . وكيف ترقى إلى إخلاصه شبهة وأصحابه من أشد المسلمين تمسكا بدينهم واطمئنانا إليه، وأكثرهم ضليعون فى علومه واقفون منه على ما لا يتسنى لغيرهم الوقوف عليه بعد إذ قضوا السنين الطوال فى دراسته وتمحيصه والتدقيق فى متونه وشروحه! . وغاية ما رجوت أن يجيب الله دعاءهم فيقبل منى حجّى وعُمرتى، وييسر لى ما قصدت إليه من سفرى .

اتجه تفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج ومناسكه، وجعلت أصور لنفسى ما أنا ملاقيه فى هذه المناسك وما أنا مشاهده فى البلد الحرام . وسرعان أن ملأ هذا التفكير

نفسى هيبةً ورهبة؛ فقد عدت بذاكرتى إلى حِجّة الوداع، وتخيلت أمامى النبيّ العربى يؤدّيها على رأس مائة ألف أو يزيدون، فطأطأت رأسى لهذا المشهد إكبارا وإجلالا. ما أعظم الفرق بين ما كان يومئذ وما نحن عليه اليوم!. كان المسلمون يتحرّقون شوقًا إلى أداء الفريضة وهم لا يعلمون متى كتب لهم أن يؤدّوها مع رسول الله. فلما أذّن مؤذّنه فى الناس بالحج أقبلوا إليه من كل فج وهرعوا من كل حَدَبٍ يَنْسِلون. وأقاموا بالخيام التى ضُربت حول المدينة ينتظرون يوم الرحيل وقلوبهم فيّاضة بالبشر وكلهم الغبطة والمسرّة. واستنفرهم المنادى فقام جمعُهم وراء الرسول الكريم الى ذى الحُلَيْفة بظاهر المدينة، وقد امتلأت من خشية الله قلوبهم، وقد فاضت من هيبته عبراتهم، وكلهم إلى بيت الله هوًى، وفى سبيل دينه الحق اندفاعٌ ومحبة. ونزلوا ذا الحليفة وباتوا ليلتهم بها؛ ثم أصبحوا فتطهّروا وأحرموا وأعلنوا الى الله أنهم نَسُوا الدنيا فى سبيله، وأنهم نَوَوُا الحج الى بيته يبتغون وجهه. وسوّى الإحرام بينهم جميعا فلم يبق منهم غنىٌّ وفقير ولا قوىٌّ وضعيف، ولم يبق منهم من يفكر إلا فى رضا بارئه، له جل شأنه تعنو الجباه، ولعظمته يخرّ من فى السماوات ومن فى الأرض إلى الأذقان سُجَّدًا. وانطلقوا من ذى الحليفة فى طريق مكة يفكر كل منهم فيما قدم من عمل صالح، وينادون جميعا بصوت رجل واحد ملبّين داعىَ الله: "لَبَّيْكَ اللّٰهُمَّ لَبَّيْكَ. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك".

وتجاوبت الأودية بصدى هذا النداء تحمله الى بقاع البادية والى فسحة الصحراء. ونزل الجميع حين جَنَّ الليل؛ فلما تبسّم الفجر عن تباشير الصباح صلّوا ولبّوا ثم انتشروا وساروا يحدوهم الإيمان ويدفعهم الى بيت الله شوق ومحبة. وظلوا فى طريقهم إلى مكة اثنى عشر يوما، إذا جنّهم الليل نزلوا، فإذا أضاء لهم الصبح قاموا متوجّهين بقلوبهم إلى الله، مصلّين ملبّين ناسين عَرَض الدنيا مؤمنين بأن لا فضل لأحدهم على صاحبه إلا بالتقوى. فلما بلغوا مكة دخلوا المسجد الحرام يؤمّهم محمد وطافوا سبعا بالبيت العتيق، ثم سَعَوْا سبعا بين الصَّفَا والمَرْوَة. طافوا جميعًا معا، وسعوا جميعا معا، وهم جميعا فى إمامة محمد تسرى اليهم من قُدْس روحه

نفحات روحيّة لم يعرفوا ولم يعرف أحد قبلهم ما يشابهها سموًّا وقوّة . وآن لهم أن يرتقوا إلى عَرَفات ليُتِمّوا حجهم ، فاتّبعوا النبيّ إلى مِنًى يوم التَّروِيَة ثم ارتَقُوا الجبل معه . وأقاموا فوق عرفات فى مساواة الإحرام يهلّلون و يكبّرون ويلبُّون حتى مالت الشمس إلى المغيب . إذ ذاك استمعوا إلى خطاب النبيّ ، ثم أفاضوا الى المَشْعَر الحرام فذكروا الله عنده ، وهبطوا مِنًى فأتمّوا بها المناسك ، وعادوا وقد طهّر الحج قلوبهم الى حياة جديدة بقلوب أكثر طهرا ، ونفوس أجابت داعى الحق وعاهدت الله أن تُجيبه كلما دعاها .

ارتسم أمامى هذا المشهد الذى يملأ النفس رهبةً والقلبَ إيمانا ، ورأيت نفسى مقبلا على مثله فى ألوف اجتمعوا من أقاصى الأرض ، لا من جزيرة العرب وحدها ، للفريضة التى اجتمع اليها الأوّلون الذين اتبعوا محمدا من نَيِّف وأربعين وثلاثمائة وألف سنة خلت ، فازدادت نفسى لليوم القريب الذى أقف فيه هذا الموقف مهابة وإكبارا . قلت لنفسى : "هأنذا بعد أيام سأركب البحر قاصدًا بيت الله حاجًّا . فاذا بلغتُ رابغًا ، ميقات الإحرام ، أحرمت وأحرم المسافرون للحج كما أحرم النبيّ وأصحابه ، ونادى ركب الباخرة جميعا : لَبَّيْكَ اللّهم لبيك لبيك ، وامتلأت النفوس جميعا هيبة والقلوب إيمانا . ربِّ أيةُ شعلة من نورك الذى أضاءت له السماوات والأرض ستشتمل هذه الباخرة فى اندفاعها تمخر العُبَاب الى بيتك المحرّم ، يلبّى ركبها كلهم دعاءك ، وتتجه قلوبهم كلها اليك صادقة القصد عامرة بالإيمان . لن تكون هذه الباخرة فى تلك الساعات القدسيّة مطيّة أجسام تجرى فوق الماء ، بل قبسا من ضياء الهدى ونور الحق أفَضْتَه على عبادك فعادوا به اليك مهلّلين مكبّرين مستجيبين إلى ندائك القدسىّ الأطهر ، باعك كلُّ منهم نفسَه مجاهدا فى سبيلك ، ونسى كل منهم هذه الحياة الدنيا فانيًا فى جلال جنابك ، لك الجلال جلّ شأنك ، وبك العون على الجهاد فى سبيلك . وسأكون أنا واحدا من هؤلاء الفانين فيك ، الصادقين فى توجُّههم اليك ، كلنا عبادك وكلنا نلتمس غفرانك وعفوك ، فاعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا .

اغفر لنا ولوالدينا ولمن دخل بيتنا مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، واهدنا اللهم صراطك المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين .

وامتلأت نفسى بهذا المشهد كلّه الجلال والرهبة ، وبلغت منها مهابته أن لم يبق فيها موضع لشىء سواه . وأجبت الذين سألونى عن شعورى نحو رحلتى ، و بينهم جماعة من غير المسلمين ، عما يخالج نفسى مما أرى أمامى ، فرأيتهم تمتلئ قلوبهم منه هيبة وله إكبارا وإجلالا . وأىّ مشهد أدعى الى المهابة الصادقة من هذه الصيحة المؤمنة المنبعثة من أعماق القلوب ، تنفرج عنها شفاه عشرات الألوف من الواقفين بعرفة يوم التاسع من ذى الحجة ، يلبّون داعى الله متجرّدين من كل زخرف الحياة ، عُراة الرءوس ، متشحين بمآزر الإحرام ، معلنين التوبة عما مضى من هَنَات الحياة وخطاياها ، مُنيبين إلى الله ليطهّر نفوسهم كى تعود إلى الحياة فى مثل براءة الطفولة ، لتكون من بعـدُ مثال النزاهة والفضيلة والجهاد الحق فى سبيل الله جهادًا يهوّن من كل صعب ويَهُون الموتُ بل يحلو فى سبيله .

وتعاقبت الأيام ينسخ الليـلُ النهار ويمحو النهار آيةَ الليل . فلما كنا من موعد السفر على يومين جاء أهلى من الريف يهدون الينا تحية الوداع ، وكلهم مطمئنّو النفوس كبيرُو الرجاء فى الله ، وكلهم يطلبون إلىّ ما طلبه قبلهم كثيرون غيرهم أن أقرأ لهم الفاتحة عنـد بيت الله وعنـد قبر رسوله صلى الله عليه وسـلم ، وأن أدعو لهم الدعوات الصالحات . فلما كان الصباح الباكر من يوم الثلاثاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٦ ذهبنا الى محطة "كبرى الليمون" لنستقلّ قطار "الديزل" الذى يشق الصحراء الى السويس . ولَقِيَنا المودِّعون بالمحطة يرجون لنـا حجّا مبرورا وذنبـا مغفورا وسفرا موفّقا وعودا حميدا . وانطلق القطار يشقّ الصحراء براكبيه الذين اختاروا آخر باخرة من بواخر الحج . وبلغنا السويس ، وأخذنا أوراق سفرنا ، وأقلّتنا السيّارات الى بور توفيق والى مرسى الباخرة "كوثر" . وعلونا البـاخرة ولمّـا يكن الزوال قد آذن . وجعلت أطوف فى أرجائها ألتمس مَنْ أعرف من المسافرين معى عليها . وألقيت نظرى على

مياه البحر الأحمر فى خليج السويس، فذهب خيالى مع الأمواج يتقلب بعضها فوق بعض، نخلتها آتية من جُدّة تحيينا وتعلن الينا أنها فى انتظار تحركنا الى مرفأ البيت الحرام . وبقى خيالى مع موج البحر حتى نادانى من أصحابى جماعة جلست وإياهم، وجعلنا نتحدّث فى انتظار طعام الغداء وفى انتظار سير الباخرة الى الأرض الإسلامية المقدّســـة .

يا عجبا ! أى خاطر هـذا الذى يجول الساعة بنفسى وأنا أسطّر مشاهدى ! إن هــذه البواخر تقوم بحجاج المسلمين من السويس الى جدّة لتصل بين مرفأ سيناء حيث كلّم الله موسى ، وبين مرفأ مكة حيث نزل الوحى على محمد . والذين يؤمنون برسالة محمد يؤمنون بإبراهيم وموسى وعيسى والنبيين من قبلُ لا يفرّقون بين أحد منهم وهم لله مســلمون . تبارك الله ذو الجلال ! . إن كل ما فى الحياة ليوحى اتصالَ الوجود كله فى الزمان والمكان فى وحـدة هى الحُجّــة البالغة على وحدة بارئ الوجود جلّ شأنه . وسنرى من مظاهر الوحدة الروحيّة فى سفرنا هذا وفى مهبط الوحى على محمد ما يزيد المسلمين إيمانا وتثبيتا .

فلأنتظر مطمئنا ، فعمّا قليلٍ تجرى بنا الباخرة باسم الله مجريها ومرسيها إن ربى على كل شىء قدير .

بين المرفأين

كانت الأميرة خديجة حليم قد فرضت الحج عامنا هذا واختارت السفر على "كوثر" آخر باخرة تدركه . وكان برنامجها أن تغادر مكة طائرة الى المدينة فى اليوم التالى للوقوف بعرفة، مكتفية بالفِداء عن فرائض الحج ومناسكه جميعا .

ولقد أحدث صعودها وصعود حاشيتها الى الباخرة هَرْجا بين الذين سبقوهم اليها؛ ولم أجد لهذا الهرج مسوّغا إلا فى كثرة المودّعين الذين كانوا أضعاف المسافرين الى الحج عددا . هؤلاء أقاموا على ما طبعتهم الحياة الحاضرة فى نفوسهم من تقديس ذوى الجاه والإمارة . أمّا الذين فرضوا الوقوف بين يدى الله بالأماكن المقدّسة فقد وجب أن تبرأ نفوسهم من كل تقديس لغير الله ما دامت قد فرضت أن تبرأ من الحوبات والأوزار جميعا .

وشُغلت إدارة الباخرة بالأميرة وما تختاره من الغرف لنفسها ولمن معها . فلما فرغت من ذلك أذِنت للخدم فى دعوة الناس الى الطعام . وجلس طلعت باشا حرب مدير شركة مصر للملاحة البحرية الى مائدة تتوسط غرفة الطعام، ودعانى الى الجلوس معه كما دعا آخرين منهم محافظ السويس وحكمدارها الانكليزى وربّان كوثر . ودار حديث اشترك فيه الرُّبّان بالانكليزية تارة وبالفرنسيّة أُخرى . وما كنت لأشير الى هذا الحديث لولا ما أصاب الباخرة ساعة وصولها الى جُدّة . وتركنا الربّانُ وما نزال على المائدة، فذكرت لزملائى عليها أن انكليزيته وفرنسيته تدلّان على أنه ليس انكليزيّا ولا فرنسيا . قال طلعت باشا : بل هو إيطالى . إذ ذاك توجّهت الى الحكمدار الانكليزى وقلت مبتسما :

— ذلك خير . فلئن أصبح البحر الأحمر ميدان حرب بين إيطاليا وإنكلترا أثناء سفرنا لنكونن فى حمايته الإيطالية .

وسارع طلعت باشا الى التعقيب على عبارتى هذه بقوله :

— لقد دعوته منذ نشأت الأزمة الدولية الأخيرة ونبهته فى حزم الى احتمال وقوع حرب يشتبك وطنه فيها ، وسألته : ما يكون موقفه يوم ذاك؟ فأكد لى بشرف البحّار أنه يخدم بإخلاص العَلَم الذى يُظل الباخرة التى يقودها كائنة ما تكون الأحوال التى تحيط به .

وأردف الحكمدار الانكليزى بهذه العبارة العميقة المغزى :

— قد تكون الحوادث أحيانا أقوى من كل ما نُقسم به .

ونهضنا وغادرنا غرفة المائدة الى حيث جلسنا نتحدّث ونشهد تقلُّبَ الموج . وتناول حديث بعض الحاضرين زميلتنا فى الحج إلى بيت الله ، الأميرة خديجة حليم شقيقة عباس حلمى خديو مصر السابق وأرملة الأمير سعيد حليم الصدر الأعظم فى تركيا فى أخريات حكم السلطان الخليفة محمد رشاد . ودار الحديث حول تصور الأمراء للحج وما يلتمسون أثناءه من مغفرة الله لهم . وإنا لفى هذا الحديث إذ أقبل علينا الأمير محمد عبد المنعم بن الخديو عباس حلمى وولى عهد مصر السابق ، وكان قد جاء يودّع عمته بالسويس . وانتقل الحديث لمجيئه إلى موضوعات أخرى كان من بينها فِلْم "وداد" السينمائى الذى أخرجته المغنيّة أُم كلثوم فى شركة مصر للتمثيل والسينما ؛ وكان مدير هذه الشركة فى مجلسنا وكان حريصا على أن يسمع رأى الناس فى هذا الفلم . قال الأمير عبد المنعم :

— إنما ألاحظ على هذا الشريط صورة المسجد فيه والنداء للأذان به .

ولاحظ الأمير صمت الحاضرين وعدم إبدائهم الموافقة على ملاحظته فقال :

— صحيح أن المناسبة التى ألقى فيها الأذان من فوق مئذنة المسجد حسنة جدا ؛ فقد كان الناس يختصمون ، فلما سمعوا الأذان انصرفوا عن الخصومة وولّوا وجوههم شطر بيت الله للصلاة . لكن السينما تنتقل من بلد إلى بلد . ولا عجب

أن يعرض هذا الشريط فى أوربا . والغربيون يستهزئون حين يسمعون الأذان وحين يسمعون القرآن . ومن الواجب علينا ألّا نعرّض ما نقدّسه إلى استهزاء الغير به .

ودار حول رأى الأمير حوارٌ دل على أن كثرة الحاضرين لا تؤيده، وإن اختلطت عبارات هذا الحوار بكثير من ألفاظ التبجيل والاحترام . وتنقل الحديث من بعدُ فى مسائل شتى تركنا الأميرُ على أثرها ليقيم سويعة مع عمته قبل سفرها . ولعله تركنا غير راض عن الذين خالفوا رأيه عن الأذان فى السنما .

ولم أشترك فى حوار الذين حاوروا الأمير، ولم أُرد أن أذكر ما ورد فى القرآن عن الذين يستهزئون حين يسمعون كلام الله وأن الله يستهزئ بهم ويردّهم فى طغيانهم يعمهون؛ فما كنت لأثير جدلا حول أمر يتصل بعقيدة صاحبه، وليس من اليسير أن يصرفه الجدل عن رأيه أو يحمله على المصارحة بالعدول عن عقيدته فيه .

على أنى لم أعجب لهذا الرأى من شاب نشأ فى أسرة مالكة وكان يوما ولى العهد لعرش دولة لها مكانتها فى العالم الإسلامى كله . فهؤلاء يبالغون فى الحرص على تقديس ما يعتقدونه مقدّسا ليبالغ غيرهم فى تقديس الدين وما يصدر عنه . وهم لا يؤمنون كما يؤمن أبناء الشعب بصوت الشعب وأنه من صوت الله، وإنما يؤمنون بصوت الملك وأنه من صوت الله . فاذا حجّوا ليستغفروا أو يتطهّروا، كفاهم أن يرتقوا إلى عرفات ولهم فى سعة ما لهم من أسباب الفدية ما يحسبون أنهم يفتدون به كل الأوزار والخطايا . وإن منهم من لا يرضى أن يُحرم يوم عرفة لأنه لا يؤمن بالمساواة، فهو يريد أن يفتدى منها كأنما يفتدى من عذاب يوم عظيم .

وإنما عجبت أن لم يذكر أحد من الذين جادلوا رأى الأمير ما سمعته غير مرة من أن الأذان بصوت حسن كان مما حمل كثيرين من غير المسلمين على أن يدينوا بالإسلام . ولقد عرف هذه الحقيقة من أقاموا من قبلُ فى تركيا حين كانت تختلط فى عاصمتها زُمَرُ الأمم المختلفة الأديان . والحق أن كلمات الأذان العذبة البسيطة جديرة حين ترتّل ترتيلا يؤدّى معناها بكل قوته أن تنفذ إلى أشد النفوس صلابة

وأشد القلوب استكبارا . وهل أقوى من قولك : الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله حَىَّ على الصلاة حَىَّ على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله ! .

وغيرُ المسلمين يسمعون إلى آى الذكر الحكيم حين يقصد من ترتيله إلى حسن فهمه بإجلال وإكبار كاجلال المسلمين وإكبارهم . فلا عَجَبَ أن يحرص المسلمون على أن يذاع القرآن ويذاع الأذان بكل وسائل الإذاعة . ولا عجبَ أن يحتج المسلمون من أقطار الأرض كافّة حين يسمعون أن محطة الإذاعة فى مصر ستعدل عن إذاعة القرآن أو تقلل من تلاوته .

وآنَ لكوثر أن تتحرك ، فتركها المودِّعون بعد أن ألقَوا على المسافرين كلمات الأمل الطيب وحسن الرجاء فى حج مقبول وعود حميد . وانتقل المسافرون الى ناحية الشاطئ يحيُّون مودّعيهم التحيّة الأخيرة قبل السفر، فاذا جمع من ألوف الناس على رصيف المرسى لم يلبثوا حين سمعوا الموسيق تصدح أن تعالى فى الجو هُتافهم للإسلام وللحج وللوطن هتافا حارّا صادرًا من حبّات القلوب ومن أعماق الأفئدة . ما أبلغَ أثر هذا المنظر فى النفس! . فهذى الألوف الذين جاءوا لتحية المسافرين الى بيت الله لا يعرف أكثرهم أحدًا من هؤلاء المسافرين ، وإنما جاءوا يودّعون إخوانهم فى الدين بقلوب عامرة بالله والوطن . لقد كانت مشاعرى تهتز أيّما اهتزاز كلما علا نداء هذه الجماهير فى الجو . فهذه أمّة تلتمس التوجيه الصالح الى حياة تريدها حياةَ مجد وعظمة، وتلتمس هذا التوجيه بصدق وإخلاص ، وتلتمسه فى كل مظهر من مظاهر الحياة المصرية، يملؤها الأمل فى اقتراب هذا اليوم الذى يتفتح فيه باب الرجاء فتندفع اليه متفانيةً فى سبيله ، كلها التضحية للعقيدة، وكلها التضحية للوطن .

وتحرّكت الباخرة، فعدت إلى ناحيتها الأخرى أشهد أمواج خليج السويس المصرى ، وأشهد من ورائها مخازن شركة البترول الانكليزية القائمة فى الأراضى المصرية ، وأعود بتفكيرى إلى الحجاز وإلى الحج وإلى ألوف المسلمين الذين يؤدّون هذه الفريضة فى كل عام لأنهم يستطيعون إليها سبيلا .

وشُغِلت بخليج السويس ومياهه وأمواجه حتى انحدرت الشمس إلى مغيبها . ولما تناولنا طعام العشاء أسرعت إلى مخدعى، علِّى أجد فى النوم ما يعوّضنى عن مجهود نهارى، وبعض ما يعوّضنى عن مجهود الأيام التى سبقت .

واستيقظت مع الصبح واستنشقت هواء البحر، ما أرقَّه وأعذبه وأصحّه ! . وشكرت لله أنعمه وأنا فى خلوتى المبكرة فوق سطح الباخرة أشهد شواطئ خليج السويس التى لم تزل قريبة منّا . فلما آن ليقظة النهار أن تجمع أصحابى معى كى نتبادل من الحديث أطرافه ألفيتُنى فى رفقة لم آلَف منها أحدا فيما سبق من أسفارى، وإن يكن منهم من سافر من قبلُ الى أمريكا وأوربا، وإن يكن منهم من يقيم فى باريس أكثر وقته . قال صاحبنا هذا :

— أوَلا تُعجبكم هذه السكينة التى غمرتنا على البحر منذ غادرنا السويس ! ولو أن "كوثر" كانت مسافرة فى رحلة الصيف إلى أوربا لسمعنا الموسيقى على العشاء، ولشهدنا قِلّما من أفلام السينما المسلّية إن لم تحرّك الموسيقى شجن ذوى الشجن الى الرقص . أمّا وهى مسافرة الى بيت الله بالذين يريدون وجهه فقد نَسِيَتْ ما أَلِفَتْ من ألوان المسرّة الساخرة واتّشحت برداء من الحكمة هو وحده الجدير بوجهتنا . ولست أُخفى عليكم أنى ابتسمت مساء أمس حين ذكرت ما كان على الباخرة التى أقلّتنى من أوربا منذ أسابيع من مرح شَدّ ما كنا نستطيبه . واشتد بى الشوق أن أسمع إذاعةً من مصر على الأقل أتداوى بها من ملال السفر على الماء . فلما جنّنى الليل واشتملت الباخرةَ سكينته ولم أسمع إذاعة ولاموسيقى، تداويت عن طمأنينة العاطفة بطمأنينة القلب ، وادّكرت ما أنا مقبل عليه ، فطابت الى سكينة القلب نفسى، وجعلت من ذكر الله وتلبية دعائه أنيسى، وتذكرت أن الأقلين من أوتوا مثل حظى فداولوا فى أسابيع بين النهل من ورد باريس وعلمها ومسارحها ومتاحفها ومجتمعاتها الحافلة بأسباب الانس، وورد المنهل العذب للحياة الروحية بمكة عند بيت الله الحرام وبالمدينة مثوى قبر رسوله عليه السلام .

وبهت بعض الحضور لهذا القول فتبادلوا النظرات بينهم هنيهة خيّم أثناءها الصمت، ثم قال أحدهم موجها الكلام إلينا جميعا :

— ايذنوا لى أن أقدم لكم كتيبا جمعتُ فيه مناسك الحج وأركانه، لعل لكم فى تلاوته بعض ما ينفعكم فيما أنتم مقبلون عليه .

وأخرج من جيب قفطانه عدّة كتب صغيرة وزّعها علينا جميعا، عرفت إذ أجلت النظر فيها أنها تلخص مناسك الحج على المذاهب الأربعة . ولم يحجه هذا التلطف من أن يوجه إليه أحد الحاضرين بعد أن استوى الكتيّب فى يده قوله :

— وهل ترك مطوّفو مكة لأحد فى الحج قولا ! إنهم ليوجّهوننا فى كل دقيقة وجليلة من شؤون حجنا وإن استوى لأحدنا من العلم بهذه الفريضة ومناسكها مالا علم بعده .

قال صاحب الكتيّب :

— الذنب على الحاج لا على المطوِّف . فلو أنه عرف فروض الحج وواجباته وسننه لما كان لمطوِّف عليه ما تذكر من سلطان .

ومرّ بنا الخادم فطلبنا اليه قهوة ما كان أشهاها والباخرة تجرى بنا فوق لُجّ صاف ونسيم رقيق منعش . وأقمنا نتحدّث أن لم نجد غير الحديث مايسلينا فى هذا السفر . فلما نودى لصلاة الظهر قبيل موعد الطعام ذهبت مع القوم الى حيث يؤمّهم فقيه منهم فى صلاة الجماعة . وعجبت حين رأيتهم يتخطون بَهْوَ الدرجة الأولى ؛ فليس وراء هذا البهو فى كوثر إلا "البار" . ولم يدر بخَلَدِى يوما ما أن يكون بار من البارات مسجدا . لكن عجبي لم يمنعنى من مشاركة القوم حين رأيتهم اتخذوا من بار كوثر مصلّى . وما لهم ألا يتخذوه وقد طُهِّر أثناء رحلة الحج من أمهات الكبائر وأمهات الصغائر وفرش بالحصير الطاهر ! وكان هذا المصلّى أبلغ آية على أن العمل الصالح يخلع قدسيته على كل مكان يحلّ فيه، وإن شهد هذا المكان قبل ذلك من الوزر ومن اللهو ما يجعله إذ يشهدهما مثابة لهو ومهد متاع .

وتناول المسافرون طعام الغداء، وقال منهم من اعتاد أن يقيل، وأدوا فريضة العصر فى مصلاهم ثم انتظموا جماعات يتحدثون . وجلس فى جماعتنا شابٌّ عرف الحجاز ونجدا وقضى بهما سنوات اتصل أثناءها بابن السعود ورجال حكومته . وكان يرتدى "جلابية" من السكروتة وعباءة من صوف دقيق شف لدقته عما وراءه، وقد طرِّز ما حول العنق والصِّدار منها بالقصب، وتدلت من حاشية الصدار "كاريت" مكسوة بالقصب كذلك . وسأله أحد الحاضرين عن هذه العباءة، فقال : إنها لباس أهل الحجاز الرسمى كالجلابية سواء . أما غطاء الرأس عندهم فالطرحة والعقال، وحذاؤهم النعال . وهم يسمون العباءة "المِشلح" . وسئل عما يقصّونه عن النجديين وشدّة تعصبهم لمذهبهم فقال :

— كان ذلك أوّل فتحهم الحجاز وانحدارهم من نجد اليه . فقد دُفعوا يومئذ إلى الغزو والفتح عقابا للأشراف أصحاب الحكم فى الحجاز على استهانتهم بدين الله وارتكابهم المعاصى . وقيل لهم : إن أهل الحجاز قد أقاموا من القباب أوثانا فهم على عبادتها عاكفون . لذلك كانوا يحطمون القباب أينما ثقِفوها، كما كان المسلمون الأوّلون يحطمون الأصنام ، وكانوا يبالغون فيما يسمونه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى كانوا يعتدون على المدخّنين وعلى غير الملتحين . أما اليوم فقد استقرت الأمور الى نصاب وسط تواضع عليه القوم، وكان للحجاج من البلاد الإسلامية المختلفة أثر بالغ فى تقريره . وما أحسب مسلما يرى فى هذا النصاب الوسط اليوم عنتا . فالإخوان "النجديون" حريصون على أن يسيروا حيث وَلُوا الأمر على حكم كتاب الله وسنّة رسوله . لذلك يُجزَى كل من جَهَر بمعصية بالحدّ الشرعى . بذلك اختفى ما كان باديا قبل توليهم أمر الحجاز من استهتار ومجون؛ فلم يبق من يعاقر جهرة الخمر أو يغازل جهرة غلاما . وتطبيق الحدود على الجرائم هو الذى أقرّ الأمر فى نصابه، حتى صار الحجاز يفاخر بحقّ أكثر الأمم طمأنينة وأمنا . والفضل فى هذا النصاب الوسط يرجع الى ما بدءوا به من شدّة وترمّت .

" وإنما أدى بالحكومة الحجازية الى العدول عن بعض ما كان أهل نجد يشتدون فيه كشدتهم فى إرخاء اللحية وقص الشارب وعدم التدخين وما الى ذلك مما يبيحه غير المذهب الحنبلى من المذاهب الإسلامية، ما حدث غير مرة بين أهل نجد وأهل المذاهب الأخرى من المسلمين أثناء أشهر الحج مما كان له أثره فى الحج وفى الحالة الاقتصادية فى البلاد . ولو ذكرتم أن التسامح فى مسألة التدخين يرجع فى كثير الى تأثر إيراد المكوس (الجمارك) الحجازية بسبب منعه لعلمتم ما للحالة الاقتصادية من أثر كبير فى العقائد والعادات " .

بينا كنا نستمع لصاحبنا يتحدث عن الحجاز وما صنع به أهل نجد مرّ بنا جماعة ليسوا مصريين لبسوا لباس الإحرام . وإذ كان بيننا وبين ميقات الحج برابغ يوم كامل فقد فسّر أحد الحاضرين سبقهم الى الإحرام بأنه تعجُّل لمغفرة الله واستزادة من ثوابه .

وأوينا بعد العشاء الى مضاجعنا ، فلما أصبحنا كنا على ساعات من ميقات رابغ وعلى ساعات كذلك من إعلان النية بالحج والعمرة والإحرام بهما . لذلك لم يكن للمسافرين جميعا طيلةَ الصباح حديث غير حديث الإحرام . بعد هذه الساعات إذًا يتطهّر المسافرون جميعا ويصلون بنية الحج والعمرة ويحرمون ؛ وبعدها يكررون التلاوة لقوله تعالى: " اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فلا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فى الحَجِّ " . ثم نلتقى جميعا على سطح الباخرة وقد تغيّر لباسنا وتغيّرت تحيتنا وتغير حديثنا جميعا : نلبس غير المَخِيط، ونحيى بالتلبية، وننسى من شؤون الحياة كل شيء سوى الحج ومناسكه . يالَرَهبة الموقف وروعة جلاله ! . يجب أن ننسى كل شيء إلا أننا جند الله لبَّينا دعاءه . ويجب أن يكون كلامنا طاهرا وقلوبنا طاهرة وأعمالنا طاهرة، وأن يكون كل وجودنا خالصا لله وحده، خالصا إخلاص صدق لا تشوبه شائبة ولا ترقى اليه ريبة من أوهام هذه الحياة الدنيا . أىّ سموّ بالنفس كهذا السمو ! وأية مرقاة هذه المرقاة التى نروض أنفسنا على الارتفاع بها لإدراك هذه الغاية ! . ما أبلغ هذه الحكمة الأولى من حِكَم الحج ! وما أعظم هذه الرياضة

الروحية للنفس رياضة تبلغ بالإنسان الى عُليا درجات الإنسانية؛ الى الدرجة التى يقرب عندها من الأنبياء والصدّيقين والأولياء المقرّبين ، والتى تطوّع له أن يفنى حقا فى جلال الله ذى الجلال والإكرام، ليُقوّى بهذا الفناء ضعف نفسه، وتزول بهذه القربى كل عوارض أهوائه . لقد تضاعفت هيبة هذه الصورة فى نفسى منذ أحسستها قريبة كل القرب منّى ، فامتلأ قلبى بجلالها أضعاف ما امتلأ من قبلُ حين كنت أصوّرها لنفسى قبيل السفر .

وتناولنا طعام الغداء، وأويت الى مخدعى وأوى الآخرون الى مخادعهم والى غرف الاستحمام تتهيأ كلنا للإحرام . ودلفت محرما الى بهو الباخرة أتّقى به هواء البحر، فاذا مَنْ بالبهو جميعا محرمون . وألقيت عليهم السلام؛ فكان جوابهم أن تنادوا وأنا معهم : لبّيْكَ اللّهم لبيك ... هأنذا الآن تنطق شفاهى وأسمع بأذنى ما كان يتصوّره ذهنى . وهأنذا يخفق فؤادى لهذا النداء نجيب به داعى الله صادرا من قلوب ملئت بالله إيمانا . ويُقبل علينا قادم محرم فتعلو بالتلبية أصواتنا جميعا فى شىء من الترتيل لا يذهب بمعناها وينتظم نغمها . فاذا انقضت فترة لم نشغلها بالتلبية تحدّث الحاضرون فى الحج أو قص أحدهم طرفا من سيرة النبى عليه الصلاة والسلام . فلما آن للشمس أن تغيب قام فقيه فنادى مؤذّنا بصوت جَهْوَرِىّ سمعه أهل الباخرة أو أكثرهم، ثم أمّ المكان الذى اتخذناه مُصَلّى فنادى فيه للصلاة . وسرعان ما انتظمت الصفوف . ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين نظّموا صفوفهم، بل نظّم السيدات صفوفهن من خلف الرجال وقمن معهم بصلاة الجماعة فى خشوع وإنابة ، واستغفرن بعد الصلاة كما استغفروا وطلبن عفو الله كما طلبوه . وخرجت من البهو الى سطح الباخرة أجتلى فى مُوليات النهار تقلُّبَ الموج وألتمس أشعة القمر الناصع ما تزال متألقة فوقه . وإنى لأسير إذ لقيت رفيقا يمشى الهوينى فمشيت معه . ولم يكن رفيقى يُخفى من آرائه حرصَه على حجاب المرأة وعدم اتصالها بغير ذى رَحِم مَحْرَمَ من الرجال، ولا يخفى اعتقاده ان فى التقاء الجنسين، وإن فى مجمع

حافل، محرِّضا على الفساد . لكنه إذ رأى هـذا الاجتماع للصلاة يحضره الرجال والنساء فى طُهر و إنابة لم يلبث حين سرت معه أن قال :

– أرأيت هذا الاجتماع الذى ضم الجنسين معا للصلاة ؟ ! إن طهارة القلب والقصد وسمو الغاية كفيلة بأن تزيل كل خوف من اختلاطهما . ولو أن أخلاقنا صلحت وغاياتنا فى الحياة سمت لما تمسّك بالحجاب أحد .

وأقررت رأيه ولم أذكر له أن إقبال السيدات المصريات على الاشتراك فى صلاة الجماعة على الباخرة إنما شجّعهن عليه ما نلن فى السنوات الأخيرة من حرية طوّعت لهن الاتصال بالرجال فى تجارة الحياة ، وأنهن لو بقين كما كن رَهْنَ خدورهن ، يراهن الرجال عورة، و يولّين من منظر الرجال فرارا ، لما تركت إحداهن مُخْدَعَها ولا تناولت طعامها بالباخرة فى غرفة المائدة لا يفصل بينها و بين الرجال إلا ستار رقيق ، ولظللن حبيسات المخادع حتى يخرجن من الباخرة محمولات الى مركباتهن ثم الى مِحَفّات الطواف والسعى .

أقبل المساء وبدأ الركب يتحدثون فى وصول الباخرة بُكْرَةَ الصباح الى جُدّة ويتساءلون : أيتيح لهم الحظ فرصة النزول الى الشاطئ والذهاب الى مكة لإدراك صلاة الجمعة فى الحرم، ولأداء طواف العمرة وسعيها بعد الصلاة كيا يحلّوا إحرامهم إحلال التمتع ليُحرموا بعد ذلك للحج . واشتركت و إيّاهم فى هذا الحديث؛ فلما خلوت الى نفسى عجبت لهذا الإحرام الذى لا يدوم يوما كاملا والذى يتحدث أصحابه فى التحلل منه بعد سويعات من ارتدائهم إياه . فما بين رابغ وجدّة أقل من اثنتى عشرة ساعة فى الباخرة ، وبين جدّة ومكة ساعتان أو نحوهما فى السيّارة . وما بين ذلك من إجراءات النزول الى جدّة وما بعده من الطواف والسعى لا يستغرق أكثر من أربع ساعات أو خمس . أين اذًا أُسْوَةُ المسلمين بالرسول وأصحابه فى هذه الفريضة ! . إن ما بين المدينة ومكة على الإبل ليستغرق عشرة أيام أو أكثر يظل الحجيج محرمين أثناءها ملتزمين ما فرض القرآن أن لا رَفَثَ ولا فسوق

ولا جدال فى الحج . وهذه الأيام المتوالية لها أثرها فى رياضة النفس الروحية وفى تهذيبها هـذا التهذيب الرواقى السامى . وإنمـا فُرض الإحرام فى رأيى لهذا التهذيب وهذه الرياضة . ولذلك يلتزم الإنسان أثناءه آدابا فى التلبية وفى التوجه لله وفى الرغبة عن أهواء الحياة الدنيا . فكيف تتم هذه الحكمة بالتجرّد أربعا وعشرين ساعة لا يمتنع الإنسان خلالها إلا عن القليل من عاداته ! . إن رياضة هذا كل أمدها غير جديرة بأن تترك فى النفس أثرا يذكر .

وأفضيت بخاطرى هذا الى بعض إخوانى بالباخرة، فكان جواب أحدهم : الدين يُسْر لا عُسْر، والميقات مكان لا زمان . ولو أنك أحرمت من رابغ ثم طرت الى مكة فى ساعة أو دونهـا لكنت قـد أدّيت الواجب الدينى المفروض عليك . فأما الرياضة الروحية فليس الإحرام بممهد لها ولا التحلل بمانع منها من أرادها .

ردّنى هذا الجواب الى التفكير فيما حسبته من حكمة الإحرام، وتساءلت :

— فيم إذًا هذا التجرّد من المَخِيط إذا لم تكن له حكمة تسوّغه ؟ أوَ يكفى أن يتساوى الناس سويعـة فى مظهرهم وهم يعلمون ما بينهم من عظيم التفاوت ! . ولم أرد أن أُمعن فى هذا الحوار مخافة أن يكون الاعتراض على رأى الغير أو التفكير فى قيمته جدالا فيـه، ولا جدال فى الحج، وأنا جدّ حريص على رياضة نفسى هـذه الرياضة السامية التى وردت فى القرآن .

وأوينا الى مضاجعنا وكلنا الشغف أن يطالعنا الصبح بشاطئ جدّة بعد سفر بالغ البحرُ الأحمر أثناءه فى اللطف بنا ، حتى لودِدنا لو نظلّ وإياه أياما لولا شغفنا ببلوغ البيت العتيق . وتنفّس الصبح عن جوّ صاف ونسيم عذب ويقظة للوجود مستبشرة ضاحكة . وقمنا الى متاعنا نُعدّه للنزول، وأخوف ما نخافه أن تضيق بنا السويعة الباقية عن إتمام إعداده . وأزفت الساعة السابعة صباحا وتبدّى الشاطئ بشيرا بأم القرى . وإنا لنفكر فى النزول الى جدّة وفى الرحيل منها وفى إدراك الجمعة بالحرم اذا "كوثر" تهتز هزة عنيفة وكأنما زلزلت زلزالها، هزة رُجّتْ منها مفاصلها

جميعا، واضطرب لها كل وجودها . وبعد هنيهة من هذه الهزة التى لم تتسع لأىّ تفكير منا فى أمرها وقفت الباخرة لاحراكَ بها وكأنها جسد هامد . وفى أثر وقوفها سَرَتْ الى مُخْدعى من بهوها أصوات المسافرين ترتفع مرتِّلة : " باسم الله الله أكبر ولله الحمد " فلبيّةً فى حماسة فيها إيمان وتقوى .

ما هـذه الهزة العنيفة يعقبها وقوف مفاجئ ؟ ! لم يَدُرْ بخَلَدى أن فى الأمر ما أخشاه . وما عسى أن أخشى وهـذا الشاطئ على مقـربة منـا قد رأيناه رأى العين ! وكل ما توهمته أن رُبّان الباخرة أدارها نحو الشـاطئ فى عنف نشأت عنه هـذه الهزة ثم وقف بها انتظارا لشرطة المرفأ ورجال الصحة به . وآية ذلك هـذا الحمد لله من جانب المسافرين . وازددت إنهما كا فى إعداد متاعى كيما أسبق غيرى الى الزوارق فأسبقهم الى الشـاطئ . وضغطت الجـرس أبتغى فنجانا من الشاى أتناوله قبل أن يبغتنى الوقت . فلما أجاب الخادم جرسى طلبت اليه الشاى ، وسألته عن هزّة الباخرة ما كانت؟ فأجاب :

— لقد شحطت على جزيرة من الرمل، وعمـا قريب تعود سيرتها إلى جدّة .

شحطت على جزيرة من الرمل ؟ ! لم تكن الهزة المزعجة إذًا لفتة من الربّان فيها عنف، بل كانت صـدمة بجزيرة من جزر البحر وشِعْب من شعابه . الأمر أجلّ إذًا من أن أقف عند متاعى وإعداده ؛ فلأذهب لأتبين جليّته . وتناولت الشاى دِراكا وأسرعت إلى بهو الباخرة فى لباس إحرامى، فألفيت المسافرين مجتمعين كأنهم يتداولون . وخلوت بأحدهم وسألته فقال :

— لقد اصطدمنا بشعب من شعاب البحر الأحمر الناتئة بجدّة، هذه الشعاب المعروفة للملاحين جميعا . لذلك لا أدرى كيف دفع الرُّبّان السفينة إليه فى يقظة النهار وضوء الشمس . وقد قيـل لنا : إن الربّان بعث رجاله فامتحنوا موضـع التصادم من قاع البـاخرة واطمأنوا الى أنه لا خطر على البـاخرة ولا خطر علينا . ولست أدرى ما الله صانع بنا من بعدُ ونحن فى وسط البحر بين صخوره وشعابه .

واشترك معنا فى الحديث زميل حاجّ من رجال التلغراف اللاسلكى فقال :

— لقد صعدت الى الربّان ساعةَ حدثت الصدمة، لأننى أعرف فى هذا المكان شعبا يدعوه أهل جدّة "شعب السامرى" وتُثبته الخرائط الأوربية باسم "شعب سانت مارى" . ولم تدر بخاطرى ريبة منذ حدثت الهزّة فى أننا اصطدمنا به . وذكرت للربّان أننى من رجال اللاسلكى الرسميين، وعرضت عليه خدمتى، فشكرنى وذكر لى أن عنده رجل اللاسلكى الذى يعمل بالباخرة وأنه لا يخشى خطرا.

وساد الباخرة صمت رهيب بعد ضجة التكبير والتهليل التى أعقبت الصدمة . فقد نسى المسافرون الإحرام والتلبية ، ووقف تفكيرهم عند هذا الحادث وأثره . وكان جل تساؤلهم عن مبلغ الخطر وهل يوشك أن يدهمنا . ولم تهدأ وساوسنا بعض الشىء إلا بعد أن علمنا أن الشِّعب الذى ارتطمت به الباخرة شعب أملس يميل متدرجا فى هُون الى الارتفاع ، وأن ميله وملوسته وتدرّجه طوّعت لها أن تزحف عليه وأن تستقر فوقه. ولولا ذلك لتحطمت عليه ولكُنّا منذ وقوع الحادث بين يدى الموت يرحم من شاء ويختار من شاء . وقال الذى نقل إلينا هذا التفصيل:

— لعلكم علمتم أن الماء دخل من نوافذ الحجرات الواقعة عند مؤخر الباخرة واضطر رجالها الى إقفال الأبواب الحديدية المتصلة بهذه الحجرات . ذلك أن الباخرة حينما زحفت فوق الشِّعب ارتفع مقدّمها وانحدر المؤخر فهوت نوافذ حجراتها فخاذت الماء فتسرّب جانب منه إليها قبل أن يحكم إقفالها . ولولا أن وقفت الباخرة حيث وقفت بعد أن تقدّمت فى زحفها بضعة أمتار، لجرّها مؤخرها الى الماء فابتلعها وابتلعنا معها.

اِنطلق المسافرون يعلقون على هذا الحديث كلٌّ بما عنّ له . ولم يأبَ توثب الخيال على بعضهم أن يذكر أن الرُّبّان تعمّد وقوع الحادث . وكيف لا يكون قد تعمّده فى تصوّرهم وهو قد وقع فى وضح النهار وفى مكان يعرف كل من مارس البحر الأحمر مابه من شعاب . ولم يعدل هؤلاء عن تصوّرهم أن أبسط منطق للعقل يأباه؛ فلا مصلحة للربّان الإيطالى فى وقوعه، وأيسر نتائجه يؤذيه أبلغ الأذى . والعقل

يأبى أن يعرض إنسان نفسه للأذى بلا فائدة ولا مقابل . لكن منطق العقل ليس المنفرد بالسلطان علينا . وكثيرا ما يغلب خيالُنا منطقنا بتسلط تصورنا على حسنا . ولقد كنت أشدّ الناس اقتناعا بهذا المنطق وحرصا على إقناع المسافرين به . مع ذلك ذكّرنى وقوع الحادث وخوض الناس فى تفاصيله بما كان من حديثنا عن الربّان فى غرفة المائدة قبيل السفر وقول حكمدار السويس الانكليزى :

— قد تكون الحوادث أحيانا أقوى من كل ما نُقسم به .

وعدت وعاد المحرمون الى الخوض فى الحادث وكيف وقع، هذا الحادث الذى لم أحسبه أوّل الأمر ذا بال ، وها هو ذا يتجسّم الآن خطره ويزداد جسامة رويدا رويدا فى نظرى ونظر المسافرين جميعا . فلما أدركنا جسامة الخطر على حقيقتها ازددنا شكرا لله أن وقفت الباخرة حيث هى ، يمسكها الشّعب وإن مالت الى جانبها بعض الميل . وامتلأت نفوسنا بالشكر وفاض عنها ، فترجمنا عن فيضه بالإمعان فى التلبية مكررة قويّة صادرة من قلوب زادها تصوّر الخطر إخلاصا وإيمانا ، إن صح أن تزداد قلوب قصدت الى بيت الله ملبّية نداء ربها إخلاصا وإيمانا .

وكان رجال الباخرة الرسميون فى مثل ارتباك المسافرين للحادث ، حتى لقد اختفوا عن الأنظار ، ولم يقف منهم إلى جانب المسافرين من يهوّن الأمر عليهم أو يبعث الطمأنينة إلى نفوسهم . ولم يعاودهم من الطمأنينة ما يذكرهم واجبهم إلا بعد أربع ساعات من الحادث ، إذ ذاك أصدروا بلاغا قيل فيه إنه لا خطر منه والحمد لله على "كوثر" وركابها ، وإن الباخرة "زمزم" الراسية بمرفأ جدّة ستجىء لمعاونتها .

تلقّى المسافرون هذا البلاغ بنوع من الاطمئنان لم يكن منه مفرّ . وزادهم طمأنينة سكينة البحر وصفاء الجوّ ورقة النسيم من حولنا . والشمس ساطعة يبعث ضياؤها إلى الأفئدة دفئا يُنعشها ويزيل كل مخاوفها أن يصيبها من غدر البحر سوء . وهل يغدر البحر بمن أتوا إلى بيت الله حاجّين معتمرين ! .

وتناولنا غداءنا ولم تكن "زمزم" قد ظهرت فى الأفق . ومع لطف الله فى قضائه لم تطاوع أحدنا نفسه أن ينزل الى حجرته يقيل بها ، بل بقينا نحدّق الى ناحية

الأفق منتظرين الباخرة المنقذة . وقبيل الساعة الثالثة بعد الظهر ، أى بعد ثمان ساعات من الحادث، تبدّت "زمزم" مقبلة، فشدّت اليها أبصارنا و بقيت معلقة بها حتى وقفت على مقربة منا تختار مكانا يهيئ لها القيام بالمهمة التى نُدبت لها، حتى يتم انتقالنا اليها بسلام لإيصالنا الى المرفأ . ذلك ما جاء فى بلاغ رجال "كوثر"، وهو ما دار بخاطرنا . لكنّا بقينا ساعة كاملة ننتظر هذا الانتقال ثم لم نر من بوادر التهيؤ له ما يبشّر به . وسألنا فى ذلك فقيل لنا : إن التفكير منصرف الى أن تسحب "زمزم" "كوثر" من مكانها إن أمكن لتدخل الباخرتان جدّة معا، فيسدل ذلك على الحادث ستارا ينسى مَنْ علم بأمره فى مصر وفى غير مصر أنه وقع .

أقرّ كثيرون هذا الرأى حرصا منهم ألّا تشوب سفرة "كوثر" شائبة . وكاد هذا الرأى يسود لولا أن قال أحد الحاضرين :

— فاذا فرض أن بكوثر عيبا يستره التحامها بالشعب ويبديه سحبها فتتعرض بسببه حياتنا للخطر، فما عسى أن يكون الرأى ؟ . أليس الأحكم أن ننتقل أوّلا الى زمزم ثم تجر زمزم كوثر، فإن سحبتها من الشعب وعادتا معا الى جدّة تحقق الأثر الذى تبتغيه الشركة ولم يتعرّض المسافرون لخطر ، وإلا عادت زمزم بنا الى جدة قبل أن تضيع علينا فرصة الحج ولم يبق على الوقوف بعرفات إلا ثلاثة أيام ؟ !

وسمع السيدات هذا الحديث وكنّ متنحيات جانب البهو المقابل للرجال . فلما بدا لهنّ خوف الخطر إذا سحبت زمزم كوثر ونحن بها تقابلت نظراتهنّ فى لمح البصر، ولم تلبث إحداهنّ أن اندفعت معبرة عن شعورهنّ جميعا تقول :

— لن تُحرّك كوثر ونحن بها . فلينقلونا أوّلا الى زمزم لنكون بمأمن على ظهرها ثم ليفعلوا ما شاءوا . وإذا وجب علينا ، لأننا مصريون، أن نحرص على نجاة كوثر وسلامتها فواجب على الشركة أن تكون أشدّ حرصا على أرواحنا .

كذلك قالت، ثم حدّقت بنا معشر الرجال بنظرة الآمر، وأضافت :

— هذا رأينا، وعليكم معشر الرجال أن تشاركوا فيه وان يبلغ للمختصين من رجال الشركة،

أُلقيت هذه الكلمة فى حزم تجلّت فيه كل مظاهر الإرادة الصُّلبة التى لا تلين. وأيّد السيدات قول زميلتهن فى حزم كحزمها . وكان الرأى ظاهر السداد، فلم يكن الى التردّد فى تنفيذه سبيل. وأجابنا ممثل الشركة بأن الأمر استقر كما أردنا وأن تنفيذه يبدأ من فجر الغد، فقد أرخى الليل سدوله وسادت دولة الظلام .

شهدت ثورة السيدات قبل اليوم غير مرّة وفى غير بلد : شهدتها فى انجلترا وفى فرنسا وفى مصر . لكنها كانت فى هذه المرات كلها متصلة بمطالب سياسية أو قومية ، فكانت العاطفة التى تدفع اليها تشوب قوتها رقة ويشوب عنفها فنٌّ يتصل بها اتصال الرقة بسجية الأنوثة . أمّا هذه الثورة التى بدت فى أعين السيدات مذ شعرن بالخطر يهدّد حياتهن وحياة بعولتهن أو ذويهن فلم تشبها رقة ولم يسرِ فيها شىء من روح الفن، بل كانت كلها عنفا وقوّة وحزما وصلابة . وهذا طبيعىّ؛ فالثورة القومية أو السياسية يمكن أن تنتهى الى صلح إن لم يحقق أغراضها كان فيه شىء من حفظ الكرامة . أمّا ثورة من يدفع الخطر عن حياته وحياة من يعزّ من ذويه فلا صلح فيها إلا بالتسليم والنزول على إرادة هؤلاء الثائرات حفاظا على كيانهن وكيان ذويهن . وكذلك كان .

اطمأنت النفوس الى الانتظار فى كوثر حتى الصباح. وزاد فى طمأنينتها أن بقى الجوّ فى صفوه والنسيم فى رقّته، فلم نكن نخشى عاقبةً تتأثر الباخرة بها وهى مائلة فوق الشِّعب تأثرا بالَغ بعضهم أثناء النهار فى تقدير نتائجه . وجاء الى كوثر قنصل مصر فى جدّة وطبيب القنصلية بها ورجال الحكومة العربية السعودية منتقلين من زمزم اليها مع رجال شركة مصر للملاحة ، فشعرنا لوجودهم بيننا كى يشاركونا مصيرنا كأن الباخرة رستْ وكأننا وإياهم فى أرض جُدّة . وتناولوا وإيّانا طعام العشاء، واتصل بيننا وبينهم حديث فيمن سبقونا الى موسم هذا الحج ، وفى هذا الحادث ولطف الله بنا فى قضائه، وفى حسن حظنا بوجود زمزم بجدّة لتيسّر انتقالنا فلا يفوتنا الحج. بهذا كله سكنت أعصابنا ، وأُتيح لنا أن ننال بعض الراحة بالنوم فى أمن من انزلاق الباخرة الى قاع اللُّج، ممتلئين أملا أن ندرك مكة قبل مغيب شمس الغد .

وابتدأ انتقال المسافرين الى زمزم فى بكرة الصباح . وكان الانتقال بطيئا لعدم التعاون بين المسئولين عن سرعة إنجازه . ولولا اندفاع المسافرين وانتقال طائفة كبيرة منهم فى زوارق النجاة لما تم طيلة اليوم . وكمل المسافرون بزمزم فى الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فتحركت بهم على هُون حتى قاربت مرفأ جدّة والنهار يولىّ . و بينما كان المسافرون فى ابتهاجهم بقرب نزولهم اذا قرار السلطات المحلية فى هذا الأمر يحيل ابتهاجهم تجهُّما . فقد خشيت هذه السلطات أن يصيب " السنابك " التى تنقل المسافرين من الباخرة الى الشاطئ ما أصاب كوثر حين مرور هذه السنابك بين الشعاب فى ظلمة الليل ، فقررت مبيت المسافرين بزمزم . ولم يستثن من هذا القرار إلا الأميرة خديجة حليم وحاشيتها ، واستثنيت أنا منه لكونى ضيف وزير المالية العربية الشيخ عبد الله بن سليمان الحمدان ، فتركنا الباخرة مع رسوله الىّ ونزلت ومن معى الى " اللنش " لينقلنا الى الشاطئ .

وانطلق " اللنش " مخلفا وراءه زمزم ومن بها ، و إنى ليتنازعنى ساعة انطلاقه عاملان : عامل الأسف لمقام إخوانى على الماء ليلة أخرى ، وعامل الغبطة لإدراك مكة والبيت الحرام ولقضاء العمرة طوافا وسعيا . ولقد تنازع هذان العاملان نفسى مذ علمت أنى مغادر زمزم قبل إخوانى . وكان عزيزا علىّ أن أفارقهم أو أتقدمهم وقد قضينا سفرا نعمت معهم فيه بخير رفقة . لكنهم رأوا الأميرة وحاشيتها يسبقونهم فشجّعنى بعضهم على النزول ، وكأنما رأوا فيه مظهر مساواة بين الطوائف ، أو شبهة مساواة على الأقل .

وجرى بنا " اللنش " بين الشِّعاب قاصدا الى الشاطئ والشمس وراء ظهورنا تحدر الى مغيبها . واتشحت اللُّجة الزرقاء الأديم بوشاح المغيب ، فلم نأبه لها وقد شغلنا عنها باستعجال غايتنا . ومررنا بباخرة محطمة غرقت فى الماء فليس يبدو منها إلا أعلاها . تلك هى الباخرة الفرنسية " آسيا " التى احترقت منذ سنوات أثناء وقوفها حيث هى اليوم من غير أن تصطدم بشعب أو يصادفها غير الأجل الذى سلّط ألسن النار عليها . وسرى الينا نسيم المغيب فوق لجة الماء فأنعشنا وأنسانا بعض

وصب النهار . وتلوى الزورق فى انطلاقه متيامنا حينا متياسرا حينا محاذرا الشّعاب مطمئنا الى مهارة سائقه والى معرفته ما تحت الموج الى قاع اللج معرفة يأمن معها الاصطدام بالسامري أو غير السامري من هذه الشعاب .

اقتربنا من جدّة وبدت لناظرنا دورها وعماراتها ، وازدادت وضوحا على رغم نزول الظلام . وكان مظهرها يغرى بالظن أنها خططت تخطيطا جميلا وبنيت على الطراز الحديث ، وذلك الشأن فى كل ما يبدو للقبل فى البحر من مظاهر اليابسة ؛ فاذا اقتحمناه كنا كالجراح إذ يقتحم بمشرطه جسدا جميلا . وشاهدُ "نابولى" أو "مارسيليا" أو "بيروت" قبل أن ترسو الباخرة بها يرى جمالا أدنى الى جمال المرأة فى ثياب زينتها . وأحسب الذين لم يعرفوا من ذلك ما عرفت قد خُدعوا بمظهر جدّة . وكان من حقهم أن يخدعوا بهذه المبانى التى تمتدّ أمامهم على الشاطئ أميالا عدّة فى نظام زاده البعد اتساقا وجمالا .

وأرسى اللنش على درج صعدنا منه الى الشاطئ . ولم يُثِرْ إحرامنا تَطَلُّعَ أحد إذ كان الإحرام لباس عشرات الألوف الذين يفدون الى جدّة كل عام حاجين . وتناول رسول وزير المالية الينا جوازات سفرنا ، وتخطّينا بناء الجمرك ولا يكاد يرى الإنسان أثناءه طريقه لضآلة نور المصابيح المعلّقة الى جدرانه . وتفضّل رسول مضيفنا فأمر من تقدّمنا بمصباح ذى نور أبيض . وأفضى بنا الجمرك الى ميدان فسيح لولا نور القمر لتعذّر علينا أن نصل منه الى جانب وقفت السيّارات فيه وقد أعدّت إحداها لتقلنا الى أمّ القرى .

الله أكبر ! هأنذا بالأراضى المقدّسة ، بلاد النبيّ العربيّ محمد عليه الصلاة والسلام . وبعد سويعة سأكون فى الطريق الى مكة . ما أكرمك ربى وما أعظم رحمتك ورضاك ! . قضيتَ أن نحج بيتك ويسّرت لنا سبيله ، فتقبّل ربنا حجنا وعمرتنا وهيىء لنا ربنا من أمرنا رشدا .

العمـــرة بمكة

تخطينا جمرك جدّة إلى الميدان الفسيح أمامه، ووقفنا إلى جانب سيّاراتنا ننتظر مرور متاعنا بتفتيش الجمرك . ولم يطل انتظارنا ، بل أكاد أقول إنا لم ننتظـر . فلم يكن بالجمرك ما يشغل رجاله عنا غير متاع الأميرة خديجة حليم وحاشيتها . ولم يتناول التفتيش هذا المتاع ولم يتناول متاعنا؛ فمتاع الأميرة لا يفتّش لأنه متاع الأميرة . ومتاعنا لم يفتّش لأننا ضيوف وزير المالية ...

ولعل متاع الحجاج لا يفتّش بوجه تام إلا لشبه قويّة اعتمادا على أن من جاء بيت الله حاجّا لا يذكر ما يقرره عن متاعه إلا صادقا .

وإنما أوفد وزير المالية رسوله إلينا وكنت ضيفه لمناسبة أذكرها . فقد كنت عائدا من بيروت الى مصر فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥ على الباخرة الإيطالية "أوزونيا" . وكان وزير المالية قادما يومئذ على هذه الباخرة من مصر إلى لُبنان . وتقابلنا بها حين رست ببيروت، وجاء ذكر كتابى (حياة محمد)، وسألنى أحد من حضروا المجلس: هل تعتزم زيارة الحجاز؟ ولما أجبت أن ذلك بعض ما يدور بخاطرى منذ أعوام، طلب وزير المالية أن أكتب إليه متى صح عزمى على السفر . وكتبت إليه قبيل سفرى، فأوفد إلىّ رسوله فى مياه جدّة يبلغنى أننى فى ضيافته .

وكان أوّل مظهر لهـذه الضيافة أن أقلّتنا السيّارة بأمر الرسول إلى فُندق جدّة لتناول طعام العشاء فيه قبل ذهابنا إلى مكة . والفندق للحكومة أعدّته لراحة الحجاج والمسافرين من أهل البلاد . لذلك كان التقشّف فى عمارته وفى أثاثه وكل ما فيه .

ولم يطل مُقامنا به . فما فرغنا من طعامنا حتى نزلنا إلى السيّارة نركبها إلى مكة . وكذلك كان الفنـدق كل ما رأيت من جدّة . وآنطلقت السـيارة متمهّلة فى طرق هـذا البلد حتى وقفت عند مخفر الشُّرطة . ونزل السائق منها فى ردائه البـدوىّ

الخشن يؤشّر من المخفر على (الكوشان) . و(الكوشان) جواز السفر المحلى . فليس يجوز لأحد أن ينتقل داخل الحجاز من مدينة إلى مدينة بغير جواز خاص .

وتابعت السيّارة طريقها الى خارج جدّة والى ما وراءها من فضاء. وكان الليل قد اشتمل هذه الأرجاء جميعا فى صمته ورقة نسيمه . وأجلت بصرى فيما حولى وجعلت ألتمس صورة بلاد العرب المرتسمة فى دخيلة نفسى، فاذا ضوء القمر يسعد الليل بلجته ويرسل تحيّة عذبة الى صمت هذه الأودية قامت كثبان الرمل عن جانبيها، وارتفعت جبال يحجب سقف السيّارة عنّا قُنَنها . ولم يعصمنى لباس الإحرام من البرد فاتقيته متلفّعا بردائى ولم ألبس مخيطا . وكأنما انتقلت الينا عدوى الصمت المحيط بنا فأمعنّا فى الصمت، فلم تنفرج شفاهنا عن ألفاظ غير ألفاظ التلبية .

وبُعدت السيارة عن جدّة منطلقة فى البيداء وحيدة لا يُسعدها أنيس . على أنا لم نلبث أن مررنا بقافلة من الجمال تسير على هُون متجهة الى حيث نتجه . وخلّفناها وراءنا، ثم أدركنا قافلة من الحُمُر أسرع منها سيرا . وتخطّينا قافلة الحمر، ثم إذا بنا نسمع صوتا يقترب منا ويردد الليل صداه فى خشوع وإكبار ؛ أولئك جماعة من الذين لم يجدوا دابّة تحملهم فساروا على أقدامهم متوجهين إلى بيت الله بقلوبهم ، وإلى رب البيت بدعائهم : لَبَّيْكَ اللّٰهم لبيك لبيك . ومررنا بهؤلاء وصوتهم يدخل إلى قلوبنا بغير استئذان فيملؤها رهبة ومهابة . وكلما فُتنا واحدة من هذه القوافل أدركنا أخرى، وكلهم فى إحرامهم يشتملهم ضوء القمر فى لجته فيزيد بياضهم نصوعا . والأودية تحيط بها كثبان الرمل وتحجبها الجبال عما وراءها تردّد تلبية الملبّين من أهل هذه القوافل وقد اتّشحت من جلال هذا النداء المنبعث من قلوب كلها الإيمان والإذعان بما ملأها خضوعا وإذعانا .

كم سمعت هذه الطبيعة المحيطة بى من أصوات هذا النداء خلال مئات سنين خلت منذ بعث الله محمدا نبيا وهاديا ورسولا . أصوات لا يحصيها العدّ ولا يتناولها الحصر، وما يحدث فى الطبيعة لا يَمَّحى أثره . إذًا فقد ارتسمت هذه الأصوات

هاهنا ونقشت على سفوح هــذه الجبـال . ولو أن لدينا إبرة تظهرها كما تظهر إبرة "الفونغراف" الأصوات المسجّلة على أسطواناتها لسمعنا عجبـا : تلبية الملايين وألوف الملايين مرتفعة إلى بارئها فى إيمان يدكّ الجبال و يزعزع الرواسى ويخرّ له كل ما فى الوجود ساجدا ، لأنه أسمى من كل ما فى الوجود برهبوت جلاله وقوة عظمته واتصاله بمـالك الملك ذى الجلال والإكرام .

كانت أمّ السَّلَم أوّل محلّة مررنا بها بعد جدّة . وقد وقفت السيّارة عند مخفر الشرطة وقدّم السائق إليه (الكوشان) كيما يتابع سيره . ومخفر الشرطة بدوىّ فى بنائه ، لا شىء فيه من مظاهر نظام العمارة ولا يلفت النظر منه غير بدويّته الساذجة ، وليس حوله مظهــر عمران إلا بعض مبان من نوعه ، و بعض عرائش من فروع الشجر اليابسة يستريح من شاء من الحجاج إلى ظلها ويجد فيها فنجانا من الشاى الذى يقدّم فى كل مكان . أمّا القهوة فدون الشاى حظا ، و إن كنت تجد النجدية منها إلى جانب الشاى إن أردتها .

وعاودنا سيرنا نمرّ بمثل القوافل التى مررنا بهـا ، فنجتازها مسرعين حيثما كان الطريق صالحا ، مبطئين كلمـا أمسكت الرمال عجلات السيّارة فحالت بينهـا و بين الإسراع . و بلغ من إمساك الرمال السيّارةَ فى بعض الأحايين أن كانت تقفها عن الحركة ، وذلك حين تبتلع عجلاتها وتجعل دورانها عبثًا لا طائل وراءه . ولطالمـا وجدنا فى هذه الحالات عونا من رجال القوافل إذ كانوا يسارعون إلى تلبية رجائنا فيرفعون السيّارة و يدفعونها لتعاود سيرها .

لم تكن هذه المعونة تقتضى أكثرَ الأمر غير فترة وجيزة لا يكاد سائقنا ورجال القوافل يتبادلون أثناءها حديثـا . لكنها كانت تطول حين يغوص بطن السيّارة مع العجلات فى الرمل الناعم وحين يتعــذّر لذلك رفع السيارة إلا بتكرير الجهــد . فإذا آســتراح القوم هنيهة تبادلوا الحديث ترويحا عن أنفسهم . وكان الحديث كله يدور حول الحج والقادمين له . سأل السائق أحدهم عن قافلتــه فأجاب أنهــم من

الحاوة، وأن زميلا له يسير بقافلة من أهل فلسطين . أمّا الذين أعانونا من السائرين رجالا فقد بدا على وجه أحدهم أنه صينى ، ولم نستطع أن نعرف جنسية آخر لا من سحنته ولا من لهجة حديثه . وكذلك كانت هذه الجموع المُحْرِمة كلها ، المتوجهة كلها حاجّة بيت الله ، تجمع بين المسلمين من مختلف أقطار الأرض ممن آستطاعوا الى الحج سبيلا ، فجاءوا يحدوهم إيمان بالله تذوب دونه المتاعب وتصبح المشاقّ فى سبيله يسرا ومثوبة . ومن عليا السماوات أرسل القمر على هؤلاء السعداء بأداء الفريضة ، فما ينفكون ينادون ربّهم لبّيك لبّيك، أشعّةً رطبة نديّة تهوّن على الدوابّ السير وتبعث الى نفوس المشاة فى إحرامهم أشعة أعظم منها ضياء؛ تلك أشعة الأمل الصادق فى وجه الله وفى مثوبته وغفرانه، أمل يتردّد فيما يتبادلونه من حديث الطواف والسعى والصلاة فى الحرم والشرب من ماء زمزم .

طبع هذا المنظر أعمق الأثر فى نفسى . فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد الى غاية واحدة وترجو فى ربها الرجاء الأسمى . هم جميعا سواسية فى آتجاههم ، سواسية فى إيمانهم ، سواسية فى تفكيرهم . وهم جميعا قد نسوا كل شىء إلا هذه الغاية الروحيّة السامية التى تندفع نحوها جسومهم، وتطير اليها جوانحهم ، وتزداد امتلاء بها أفئدتهم وقلوبهم ، كلما ازدادوا قربا من مهبط الوحى ومن بيت الله . ليس يذكر أحدهم ما له من ثروة أو جاه أو ولد،و إنما يذكر أنه وهؤلاء المسافرين معه إخوة فى الله، وأنهم جميعا قد أتوا قاصدين بيته ، ملبّين داعيه ، ليشهدوه على أنفسهم وليطّهروا بين يديه مما قدّمت أيديهم ، وليبدءوا بذلك حياة جديدة يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، ويُحسنون كما أحسن الله اليهم ،ولا يبغون الفساد فى الأرض . لهذا جاءوا من كل فجّ عميق ،ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شىء إلا الله، ولهذا أحرموا آيةَ إخائهم ومساواتهم ، إيذانا بأن أقربهم الى الله أتقاهم ، ومَظْهَرًا لميلادهم الروحىّ الجديد، ليتخذوا من هذا الميلاد عُدّتهم لحياة جديدة؛ ولهذا تتصل قلوبهم وإن آختلفت أجناسهم

وألوانهم ولهجاتهم . وهم يعبّرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنها شفاههم فى حبور وغبطة مطمئنين الى رحمـة الله ومغفرته ، إنه يغفر الذنوب جميعا . لا يغفـر أن يُشْرَكَ به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

و بلغ من عمق هـذا الأثر فى نفسى أن ازددت نسيانًا لنفسى وفناء فى الله وفى أخوّتى لهؤلاء وقد قصدنا جميعا وجهه مخلصين له الدين حنفاء . نعم ! نحن جميعا إخوة ، وأقربنا الى الله أشدّنا بهـذه الأُخوّة شعورا . فأنا المصرىّ أخ لهذا العربى ولهذا الجاوىّ ولهـذا الصينىّ وللمؤمنين جميعا رجالا ونساء شبانا وشيبا وأطفالا . وأنا الذى نلت حظًا من العـلم أخ فى الإيمـان لمن نال من العلم أضعاف ما نلت ، أخ لمن لم ينل من العـلم أى حظ ، أخ للبائس والمحروم إخائى للغنى وصاحب الجاه والسلطان . والبائس والمحروم من الجاه والسلطان والعلم أدنى الى قلبى لأنهم أحوج الى محبتى و إخائى . ذلك وحى هذه الساعة الفذّة من ساعات حياتى ، والتى اتصلت فيها لأوّل مرة بمكان خطَتْ فيـه قدما محمد النبىّ العربىّ ، أ كبر من دعا الى المحبة والإخاء ، وأ كبر من دعا الى السعى والجهاد .

وفاض بى هـذا الشعور فتندّت عينى وخفق قلبى وانفرجت شفتاى عن آى الحمد والشكر : لَبَّيْكَ اللّهم لبيك لبيك ... وسمعت أذناى الأودية والجبال والقوافل السارية بينها جميعا يدوّى فيها هذا النداء ، فازداد شـعورى فيضا ، وقلبى خفقانا ، وازددت لله شكرا و به إيمـانا .

ووقفت بنـا السيّارة عند بَحْرة . وبحرة هى المحلة الثانيـة فى طريق مكة . وهى تلفت النظر بالأضـواء الكثيرة البيضاء المنتشرة فيهـا دلالة استعداد مقاهيها البدويّة لاستقبال القوافل بها . ذلك أن قوافل الإبل تقطع الطريق بين جدّة ومكة عندها وتقضى ساعات الراحة بالنهار أو بالليل فيها . أمّا السيّارات فتجتازها كما تجتاز أم السَّلَم بعد وقفة عند مخفر الشرطة يطّلع رجاله أثناءها على (الكوشان) ؛ وقد لا يأبى بعض راكبى السيّارات أن يتناولوا فنجانا من الشاى بها .

آخر محلة قبل مكة الشِّميسى . وكنت أعرف من قبل أن الشميسى اليوم هى الحُدَيْبية على عهد رسول الله. وكنت لذلك أرجو أن أقف عندها لأتبيّن مواقع المسلمين الذين جاءوا حاجّين فصدّتهم قريش، وكادت الحرب تنشب بينها و بينهم لولا حكمة الرسول وأناته وجنوحه الى السلم وحسن سياسته مما انتهى بينه و بين أهل مكة الى عهد الحديبية والى إقرار قريش أن يزور المسلمون مكة معتمرين عامَهم المقبل . ولكن أنَّى لى أن أنزل المكان والليل قد انتصف وقد هدّنا الجهد وشاقنا الوصول الى مكة ! . ولم أطلب الى السائق أن يقف، ولم أزد على أن سألته عما بقى بيننا و بين أمّ القرى . وظل هو فى انطلاقه يسرع كلما ساعفه الطريق، ويبطئ أو يقف اذا أبطأه غوص العجلات فى الرمال أو وقفه .

وجعلت فى السويعة الباقية على دخولنا مكة أرسم فى ذهنى صورة أم القرى كما عهدتها على الخرائط . لكن القمر لم يجلُ أمامى الصورة التى خلتُ . ولو أن الشمس كانت ساطعة لما زادت الصورة أمامى جلاء . فكيف يحيط النظر المحدود بما حوله من وهاد وجبال بكل ما هو مرسوم على الخريطة من مجموع هذه الوهاد والجبال ! . وكذلك تخطّت السيّارة بابا فسيحا قيل إنه باب مكة، ووقعت العين على مبان قيل إنها مبانيها ، فلم نجد فى شىء من ذلك ما يلفت النظر اليه و إن أيقنّا أننا صرنا فى حدود مناسك الله .

وكان دخولنا مكة منتصف الليل . دخلناها متعبين مما مرّ بنا فى يومنا و يوم أمس . وكانت ساعتئذ متّشحة برداء الليل ومولّيات ضوء القمر، فازدادت قداسة ومهابة. والسيّارة تجرى فى طرق لاينيرها غير هذه البقية من ضوء ساهر السماوات . وإنا لكذلك إذ نجمت أنوار كثيرة من الكهرباء لدارٍ عند منعطف من الطريق ؛ تلك الدار بيت وزير المالية . وتخطّينا هـذه الأنوار الى بقية ضوء القمر حتى كنا أمام أضواء ناصعة لمصابيح معلّقة فى مكان وقفت السيّارة عنده ؛ ذلك مقهى من مقاهى مكة . ونادى صاحبى من السيّارة : يا شيخ إبراهيم ، فجاء المطوّف وصحبنا

إلى بيت مضـيفنا أمين العاصمة الشـيخ عباس قطّان حيث كانت تسـطع أنوار الكهرباء سطوعها عند بيت وزير المـالية .

كان الرجل فى انتظارنا . فلما صحبنا الى الطابق الأوّل من داره أبلغنا تحيـة وزير المـالية وسؤاله المتكرر عنا مذ تركنا جدّة . وجىء بالشاى فشربنا ، وبالقهوة فتناولناها على رغم انقضاء هزيع من الليل . وسألنى الرجل : أأوثر أداء شعائر العمرة لفورى أم أرجئها للصباح كيما أنال بعض الراحة من مشقة السفر؟ . أمّا أنا فآثرت الأداء ولم تمل نفسى إلى الإرجاء . ولعله الهوى الى بيت الله والى حرمه والى الصفا والمروة حيث سعت هاجَر المصرية سـبعا تلتمس المـاء لابنها إسمـاعيل هو الذى دفعنى كى أسارع الى أداء هـذه الشعائر رغم الجهد والمشقة . وسألت : أيوجد الى إتمام الطواف والسعى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل سبيل، فقيل لى : إن الحرم مفتوح ليل نهار ، وإن الناس يطوفون ويسـعون فى كل ساعة منهما . وخرجت فى لباس إحرامى مع المطوّف وأقلّتنا السيارة التى جاءت بنا من جدّة الى باب الحرم فى دقيقة أو نحوها .

وما لبثت حين تخطّيت الباب والمكان المسقوف من المسجد بعده حتى تبدّت لى الكعبة قائمة وسط المسجد وقد انسدل على جدرانها لباسها الأسود المطرز بوشى الذهب . تبدّت لى دون أن يلفتنى أحد إليها . وتبدّت وكأنى أعرفها منذ عرفت الوجـود ، وكأنى عرفتها وطفت بهـا قبـل ذلك مرّات . ومالى لا أعرفها وقد رأيت كسوتها يطاف بها فى القاهرة منذ طفولتى، وقد تبعت هذه الكسوة مرّات عدّة فى سنوات متعاقبة حين كانت تنقل من القلعة إلى بيت القاضى مارّة بالمشهد الحسينى وسط الجموع التى كانت تسـير مثلى وراءها فى هـذا المشهد الدينى الحافل الرهيب ! .

تبدّت لى الكعبة قائمة وسط المسجد، فشدّ إليها بصرى وطفر نحوها قلبى ولم يجد فؤادى عنها منصرفا . ولقد شعرت لمرآها بهزة تملأ كل وجودى ، وتحرّكت قدماى

نحوها وكلى الخشوع والرهبة، وقلت إذ وقع نظرى عليها ما ألقى المطوّف علينا أن نقوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام، حيِّنا ربنا بالسلام؛ فزادنى تحرّك شفتىّ بهذه الألفاظ مهابة ورهبة . وأراد مطوّفى ونحن نتخطى إليها أن يحدّثنى فى تاريخ المسجد وأبوابه وما أضيف إليه من عهد الرسول، ثم أمسك حين لم يجد منى إقبالا على سماعه . وكيف لى فى هذه الساعة بالاستماع الى حديث وقد ملك البيت علىّ نفسى وجذبنى لأسرع اليه فأطوف به وأذكر الله عنده .

وارتسمت صورة البيت أمام بصيرتى منذ أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده مثابةً للناس وأمْنا يقيمون الصلاة ويذكرون الله عنده . وبلغت بابا قائما وسط صحن المسجد قال مطوّفى : إنه موضع بابه فى عهد الرسول؛ فأجلتُ طرفى بين هذا الباب والبيت العتيق وذكرت ما حدث قبل مبعث محمد حين كانت قريش تجدّد بناء الكعبة ثم اختلفت قبائلها أيها يضع الحجر الأسود مكانه، وبلغ منها الخلاف أن كادت الحرب الأهلية تنشب بينها، ثم أشار عليهم أبو أُميّة بن المغيرة المخزومى أن يجعلوا الحَكَم فى خلافهم أوّل من يدخل من باب الصفا؛ وكان محمد أوّل من دخل منه فارتضوا حكمه، فجعل الحجر على ثوب رفعه رؤساء القبائل جميعا من أطرافه ثم أخذه هو فوضعه مكانه . كان البيت يومئذ كما هو اليوم، إلا أن كسوته لم تكن سوداء مطرّزة بوشى الذهب . أمّا المسجد فكان ضيّقا لا يبلغ العشر مما هو اليوم . وهأنذا أتقدّم نحو البيت الذى أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده، والذى وضع محمد قبل مبعثه حجره الأسود فى مكانه، والذى طاف به الأنبياء وطاف به الملوك والأمراء على كر الدهور وهم فى مثل ما أنا فيه من خشوع ومهابة، وهم سواسية أمام الله مع من يرعونهم من عباد الله، وقلوبهم تفيض ندما وتوبة واستغفارا؛ والذى طاف به ملايين المسلمين، وربما كان من أشدّهم فقرا من هو أكرم عند الله من هؤلاء الملوك والأمراء، لأنه أتقى منهم وأعظم بالله إيمانا . هأنذا أتقدّم اليوم نحو البيت أطوف به طواف العمرة وقد اجتمع هذا الماضى كلُّه المهابة والجلال أمام بصيرتى، فزادنى شعورا بما بينى وبين الذين أقاموا قواعد البيت والذين

تطوّفوا به من صلة يمّحى أمامها الزمان والمكان وتتبدّى من خلالها وحدة الكون التى لا تعرف الزمان ولا المكان .

وسرت الى جانب المطوّف مأخوذا ، حتى إذا بلغت الكعبة اندمجت فى المثين الذين يطوفون بها وهم مثلى فى لباس الإحرام ، وأعلنت نيّةَ الطواف ببيت الله المكرم سبعة أشواط طواف العمرة . وكان المطوّف قد سبقنى إلى تلاوة صيغة النية . فلما حاذيت الركن اليمانى وقف المطوّف هنيهة فوقفت لوقوفه وقلت على أثره : الله أكبر الله أكبر ولله الحمد . واندفعتُ فى حماسة أسير مع السائرين وأُعيد بعد المطوّف قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ . ثم وقفت كما وقف قُبالةَ الحجر الأسود لأقول كرّة أخرى : الله أكبر الله أكبر ولله الحمد . واندفعت بعد ذلك أتم الشوط الأول وأنا أتلو فى حماسة صادقة أدعية الاستغفار والتوبة التى يلقى المطوّف علىّ تلاوتها . وبلغت الركن اليمانى فوقف المطوّف ووقفت ورفعت مثله اليد اليمنى وكبّرت كما كبّر وتلوت : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ . وحاذينا الحجر الأسود فرفعنا أيماننا وكبّرنا ثانية ، واندفعت أستغفر وأطلب الى الله الهداية على النحو الذى يلقى إلىّ والى غيرى من الطائفين . وكذلك كنت أفعل كلما حاذيت الركن ايمانى أو الحجر الأسود . وأتممت الأشواط السبعة وأنا أكبّر الله وأحمده وأدعوه وأستغفره ، وأنا مأخوذ بجلال هذا البيت العتيق ممتلىء النفس خشوعا أمام تاريخه الروحى الرهيب ، يفيض قلبى إيمانا بالله الذى جمع فى هذه البقعة الضيّقة من الأرض كل هذا الجلال وكل هذه المهابة . والمثون من حولى يطوفون كما أطوف ويتلون من الأدعية ما أتلو ، وإن لم يذكر أحدهم ما أذكر من أمر إبراهيم وإسماعيل ومن تجديد بناء البيت قبيل مبعث محمد ومن طوافه به فى عمرة القضاء وحجّة الوداع .

ودلفت بعد الأشواط السبعة الى مقام إبراهيم أصلّى فيه ركعتين . ومقام إبراهيم يقابل باب الكعبة ويقابل الحجر الأسود وقد قام الى جانب باب عمده وعقده من

الرُّخام . والذين يطيلون المُقام عنده قليلون ؛ لذلك أتممت عنده ركعتين واستغفرت ربى لى ولأهلى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ثم انتقلت إلى حِجْر إسماعيل . والحجر يقع قُبَالة جدار البيت الموازى للجدار الممتد بين الركن اليمانى والحجر الأسود ، ويحيط به سورٌ فى شكل نصف دائرة من الرخام . والمصلّون فيه يزحم بعضهم بعضا حتى لا يكاد الإنسان يجد بينهم مكانا ؛ وذلك لما يذكر المؤرّخون من أن الحجر يقع داخل رقعة الكعبة كما أقام إبراهيم وإسماعيل قواعدها ، فثواب الصلاة فيه كثواب الصلاة داخل بيت الله . وأقحمت نفسى بين اثنين يصلّيان ورفعت يدى أنوى الصلاة ، إذ وقع بصرى على رجال أشدّاء قاموا فى إحرامهم ورفعوا أيديهم إلى أعلى السجف من أستار الكعبة فتعلّقوا بها متشبثين لا يتركونها وقد ألقوا برءوسهم الى وراء ، فشخصت أبصارهم الى السماء تستغفر الغفور الرحيم . وذكرت إذ رأيتهم ما كان العرب يفعلونه من ذلك قبل الإسلام ، فيكون ذلك مجيرا لهم من عدوّهم ؛ وذكرت يوم الفتح حين عفا محمد عن أهل مكة جميعا إلا أشخاصا بأعيانهم أمر أن يؤخذوا وإن وجدوا متعلّقين بأستار الكعبة . وأقمت هنيهةً أنظر إلى هؤلاء المتعلّقين أسائل نفسى عمّا صنعوا ليكون ذلك موقفهم منه ، وأنا مُعْجَبٌ بإيمانهم إذ لا يجدون ملجأ من الله إلا إليه ، ولا يجدون ملجأ إليه خيرا من التعلُّق بأستار بيته المحرم . ونويت الصلاة وأتممتها ، ورفعت طرفى فألفيتهم ما يزالون فى تعلقهم بأستار البيت ، وما تزال أبصارهم شاخصة الى السماء تلتمس من رب البيت المغفرة . وأقمت مكانى فى الحجر فاذا مَن حولى فيه لا يكاد أحدهم يتركه حتى يحلّ غيره محله ، وكأنما نسوا أن الليل انقضى ثلثاه أو أكثر من ثلثيه . وبقيت زمنا فى مثل نسيانهم مأخوذا بما حولى مقدّسا إياه ، ملقيا وراء ظهرى ما عوّدنا التفكير الحديث من تعلق بالحاضر المحسوس وحده ، ومن مبالغة فى هذا التعلق الى إنكار ما وراء المحسوس من معنى ينتظم الوجود ويسمو على الزمان والمكان . وزادنى موقفى توجُّها الى الله ، فدعوته راجيا أن يستجيب ، وآستلهمته الهدى الى الحق والخير والفضل ، وتبت اليه من الآثام ، وأشهدته على نفسى إنه هو رب التقوى ورب المغفرة .

وفاض بى هذا الشعور فصرت من دعاء ربى الى التسبيح بحمده والتقديس له ، والى إكبار هــذه الأُخُوّة التى تصــل بينى و بين المؤمنين به جميعا فى مختلف أقطار الأرض، أُخوّة شعارها السلام، ودعامتها السلام، وغايتها السلام. وظللت كذلك حتى جاء المطوّف ينبهنى إلى ضرورة مغادرتنا المسجد لنسعى بين الصفا والمروة كيما تتم شعائر العمرة . وما كنت أحسبنى مطيعا إيّاه لولا حرصى على إتمام هــذه الشعائر. وخرجنا من المسجد نبتغى المسعى ، وسرت الى جانبه والنفس ممتلئة مهابة وتقديساً للواجب الذى أقوم به ويقوم به معى عشرات الألوف من إخوانى المسلمين على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم، والذهن شَغِلٌ لذلك عن إطالة التنقيب فيما ينطوى عليه اجتماع المسلمين كل عام فى هذه البقعة المباركة منــذ مئات السنين من غايات روحية واجتماعية وسياسية سامية . ولعل ما أصابنى من الجهد فى اليومين الأخيرين فمنعنى حتى من السكينة والنوم، ولعل مجهود الانتقال توًّا بعد ذلك الى مكة ودخولها فى ساعة متأخرة من الليــل ، ثم لعل المجهود الروحى الذى اقتضانيه الطواف ، لعل هذا الجهد والمجهود قد زادا فى توجّهى الآلى وراء المطوف لإتمام شعائر العمرة . وكيف لى أن أصنع غير هــذا وقدماى تسيران فى مكان لمـّا تعهداه و إن ألفيتــه مرتسما فى نفسى وكأن لى به كل العهد من قبل أن أولد . أم إن هــذا العهد كان مبعث التقديس الذى امتلأت به نفسى لأنه ميراث الأجيال التى سلفت من أهلى وآبائى؟ . نعم! لعل هذا أدنى الى الحق، فلقد سار هاهنا آبائى وأجدادى وأمهاتى وجدّاتى حِقْبةً بعــد حقبة وجيلا بعد جيل ، ولقد طافوا جميعا بالبيت كما طفت، وسعوا كما أريد أن أسعى، وتلوا بعد المطوِّف ما تلوت وما سأتلو . ولقد رأيت الكثيرين منهم وشاركت منذ طفولتى فى الاحتفال بخروجهم إلى الحج وعودتهم منه احتفالا كانت علائم الغبطة ترتسم أثناءه على أسارير الذين يودّعون مَنْ حج ويلقون من عاد من هــؤلاء الآباء والأجداد . فلا جرم قد انطبع فى نفسى هــذا الميراث المتنقل على الأجيــال وجعلنى أخطو خلال المســجد و إلى المسعى بقــدم مطمئنة

كما أخطو فى بيتى و بيت أبى وأهلى ، ثم كان لهـذا الميراث التليـد من عمق الأثر فى نفسى ما زادنى حرصا على الدقة فى أداء شعائره .

خرجنا من المسجد وأقلتنا السيّارة الى المسعى، ثم مال بنـا المطوّف الى ربوة الصفا وتخطّى بنـا نحو درجها خلال الذين سبقونا الى السعى محرمين . وتخطّينا خلال هذه المئين من الناس يسير بعضهم فُرادَى و يسير آخرون جماعات متشابكة الأيدى وقد ارتفعت فى جوف الليل أصواتهم جميعا مستغفرين فى ضراعة و إنابة . وعلونا بعض درج الصفا ثم استقبلنا المَسْعى ورفعنا أيدينا وأعلنّا نيّتنا السعى سبعا بين الصفا والمروة سعى العمرة، ثم هبطنا الدرج وسرنا ونحن نتلو كما يتلو المطوّف: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ . وانتقلنا من الصفا الى المروة ونحن ندعو بما يدعو به مطوّفنا ونستغفر كما يستغفر، والمئون من الساعين يدعون كذلك ويستغفرون. وبلغنا المروة واقتحمنا صفوف الساعين الى درجها، واستقبلنا المسعى وسعينا وكبّرنا وعدنا الى الصفا ندعو ونستغفر، والناس من حولنا يصنعون صنيعنا يدعون ويستغفرون . ولقد كنت تسمعهم رافعى أصواتهم فى لهجات مختلفة منها البدوىّ النجدىّ الذى يعلو بنفسه عن أن يتخذ من مطوّف إماما ، ومنها ما تشوبه عجمة تدل على أن العربية ليست لسان أصحابه الأصيل ، ومنها المتضرّع فى انكسار وخشية ، ومنها هـذا البدوىّ الذى لا يعرف الخضوع حتى فى خطابه ذا الجلال والإكرام . فلما أتممت أشواط السعى السبعة وقف بى المطوّف عند حلّاق فى حانوت من الحوانيت التى تزحم المسعى قصّ لى بضع شعرات من جانب رأسى الأيمن وبارك على أن أتممت عمرتى . وبذلك آن لى أعود الى منزلى وأن أُحلّ إحرامى إحلال التمتع، كيما أعود اليه بعد يومين حين أؤدّى فريضة الحج الأكبر .

وأويت الى مضجعى فى الثلث الأخير من الليل ألتمس فيه الراحة إن لم أسعد فيه بالنوم . وأطبقت أجفانى، وذهبت على عادتى أستعيد ما حدث منذ الصباح،

فاذا بى لا أذكر منـه إلا غبطتى بالطواف والسعى وتمـام العمرة ، وإذا بى أشعر بيد محسنة يسرى إلىّ من مسها جسمى سعادة لم أعرف من قبـلُ سعادة مثلها ؛ سعادة تنسينى كل شىء إلا ما كنت فيه من توجّه الى الله بالتوبة والاستغفار ، ومن رجاء فى أن يتقبّل توبتى واستغفارى . وانفرجت شفتاى فى ظلمة الليل عن ابتسامة طمأنينـة ورضا اسـتراح إليهما وجودى كله ، وبقيت فى غبطتى بهما مسـلما كل تفكيرى وإحساسى وعقلى وقلبى لمشيئة الله التوّاب الغفور الرحيم . ودخلت بهذه الطمأنينة فى عالم النوم ممتـلىء النفس رجاء وأملا ، صادق الإحساس أن قد زالت عنى أوزار المـاضى وأننى أصبحت قريبا من ربى . ونمت سـويعات استيقظت على أثرها وقد زالت عن صدرى أحمال لم أدر ما هى . وأغرتنى بكرة الصباح بالنزول الى مكة أجوس خلالهـا ، لكنى لم أجد دليلا يرشدنى ، فآثرت أن أنتظر مُضيفى وأن أنتظر مطوّفى ليرسما لى خطة يومى ويعاونانى فى إنفاذها .

وأتممت صـلاة الإصباح ، ورحت أتنقل فى حُجَر ضـيافتى أتمشى فيها طولا وعرضا ، وأستوحى ذاكرتى صورة هذه الدار الفخمة التى نزلت بها ، والطريق التى أدّت بى أثناءَ مكة اليها ، فلا تسعفنى الذاكرة بنافع . وما عسى أن تسعفنى الذاكرة به وقد تخطّيت أمّ القرى بليل فلم أر من الطرق التى اجتزتها إلا القليل . ولقد اجتزنا إلى دار مضيفنا أزقّة ضيّقة لم أتبين منهـا شيئا . وبرزت السيّارة من أحد هـذه الأزقّة إلى فنـاء فسـيح بالقياس إليها هو أشبه الأشياء بصحن دار كبيرة تحيط به جدرانها الأربعة ، ويخرج منه زُقاقان غير الذى برزت السيّارة منه . ويضىء هذا الفناء نور كهربائى ينحدر من مصباحين معلّقين على ناحيتين من جدرانه . ومن هذا الفناء وقفت السـيارة أمام دار يتخطى النظر بابهـا إلى دهليز طويل تضيئه الكهرباء . ونزلنا ، وصعِدت بنظرى إلى باب الدار فألفيته رفيعا معقودا أعلاه بالحجر ، ويصعد الإنسان إليـه بضع درجات تعلو به وبالبيت كله عن الطريق . وأقبل علينا حين وقفت السيّارة رجل تطوّق ثغره ابتسامة رقيقة ، وصافحنا بشوق ومودّة ، وسألنا عن سبب تأخرنا وما نكون قد لقينا من مشقة الطريق . هذا مُضيفنا الشيخ عباس

قطان أمين العاصمة صاحب هذه الدار التى تبدو الفخامة على ظاهرها . لقد أقام بداره ينتظرنا، فلما استقبلنا وتلطف بنا ما تلطف أنبأنى أن الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية قد سأله بالتليفون غير مرة عن مقدمنا بعد أن علموا من جدة أننا نزلنا من الباخرة إليها وغادرناها إلى مكة . وصعد وإيانا إلى الطابق الأول من الدار على درج أعاد إلى ذاكرتى منازل إيطاليا ؛ فهو محصور بين جدارين يصعدان إلى السقف ، فاذا آستدار الإنسان إلى يمينه أو إلى يساره عند منتصف الطابق ألفى نفسه من جديد بين جدارين يصعد الدرج أثناءهما إلى غرف الطابق الأول . ودخلنا إلى بهو عظيم فيه ومعنا مضيفنا ومطوفنا . ولم نلبث حين جلسنا به على مقاعد من طراز هذا العصر الحديث حتى جىء لنا بالشاى — أو الشاهى بلغة أهل مكة — فكان لنا نعم الدفء بعد برد الطريق . وتحدثنا إلى مضيفنا وتحدث إلينا ، وسرعان ما ذكرنى أنى تقابلت وإياه بالقاهرة وأننا تمنينا لو نلتقى بمكة فى هذه الدار . وبعد قليل قمنا إلى المسجد الحرام فأتممنا طواف العمرة وسعيها .

هذا ما وعت الذاكرة مما رأيت بمكة حين دخلتها أثناء الليل . وهأنذا الآن أنتقل من غرفة النوم الى البهو وأعود من البهو إليها ، وقد اتصلت بها دورة المياه فاصلة بينها وبين غرفة الطعام . لشد ما يثير هذا البهو وهذه الغرف فى النفس صورة البناء فى العهود العربية القديمة ! ولشد ما يثير أثاثها معانى النعمة والترف فى تلك العهود ! فهذا البهو الفسيح تكاد مساحته تبلغ ستة أمتار فى العرض وعشرة فى الطول ، تضيئه فى النهار وتهوّيه طيلة اليوم نوافذ تمتد من أقصى جدار عرض البهو الى أقصاه؛ وكذلك الأمر فى غرفة النوم المحاذية له . وهما الآن يضاءان أثناء الليل كما تضاء الدار كلها بالكهرباء، تولدها "ماكينة" خاصة بالدار؛ لأن مكة لاتزال الى اليوم محرومة من نور الكهرباء، ولا يضاء فيها على حساب الدولة إلا الحرم الشريف . وإضاءة الدار بالكهرباء لا ترجع إلى أيام بنيت ، ولذلك يتدلى من سقف غرفها نجف فيه لعشرات الشموع منازل مختلفة الألوان . والسجاجيد التى تفرش أرض البهو وغرف النوم ثمينة قيمة جميلة الرقم كثيفة الخمل .

وإحدى غرفتى النوم كبيرة تصلح لأن تكون بهوا عنـد الحاجة . والجدار المقابل لبابهـا نوافذ كله بجدار البهو الكبير . وقد أقيم إلى جانب هذا الجدار ، كما أقيم على الجدار العمودى عليـه ، مصطبة متصـلة فُرشت بالمراتب المغطاة بأغطية موشّاة بالقصب ومتكآت مغطّاة بوشى القصب كذلك ، تريح الجالس عليها والمتكىء إليها غاية الراحة . وفى الجـدار الرابع دولاب يبـدو منه بابه المطعّم بالسن تطعيما دقيقا كتطعيم سقف الغرفة . أمّا غرفة النوم الأخرى فقد أُعدّت للنوم ولا تصلح إلا له ، وهى متصلة بهذه الغرفة التى تصلح لأن تكون بهوا ، بل هى مدخلها ، مفروشة كفرشها ، وبها (بوريه) مطعم كله بالصدف المختلف النقوش والألوان ، والذى تبهرك حقا دقته . فأمّا غرفة الطعام فيقابل بابها باب الغرفة الأخيرة ، وتفصل بينهما دورة مياه لا تزال على الطراز العتيق ، يتلوها درج يهبط الإنسان على سُلّميه ليرقى مثلهما قبل أن يدخل هذه الغرفة . وهى أكثر من البهو ومن غرف النوم بساطة فى أثاثها ؛ لأنه أدنى إلى طراز عشرين أو ثلاثين سـنة مضت من عصرنا الحديث منه إلى أثاث العرب أيام ترَفهم ، مع اتساق بنائها مع بناء الغرف الأخرى من حيث النوافذ التى تتصل من أقصى الجدار إلى أقصاه ، والسقف المطعّم بالصدف أو المموّه بما يشبهه ، والمصطبة القائمة إلى جانب النوافذ .

كان النهار ضحى حين جاء المطوّف يسألنى عما أريد . وهبطنا المسـجد الحرام لأرى منه فى وضح النهار ما أخفاه الليل وما شغلنى الطواف عنه . والمسجد الحرام يشبه صحن الأزهر من حيث إنه فناء مكشوف تحيط به من جوانبه الأربعة قِباب قائمة على عمد كالقباب المحيطة بصحن الأزهر ، وتنتهى إلى جدرانه . لكن فناء المسجد الحرام فسيح جدّا يزيد على بضع عشرات من ألوف الأمتار المربّعة . وهو ليس مفروشا كله بالبلاط كصحن الأزهر ، بل مقسم أقساماً تتعاقب بعضها أثر بعض ، بعضها مفروش بالبلاط ، وبعضها مفروش بالحصباء ، على تعبير أهل مكة . وفى وسط هـذا الفناء الفسيح تقوم الكعبة بيت الله الحـرام وقبلة المسلمين جميعا فى صلواتهم . ويتصل بالكعبة حِجْر إسماعيل ، ويقوم على مقربة منها مقام إبراهيم .

ومن حول الكعبة مبلّغات أربع — أو مكبريّات أربع على تعبير المكيين — لكل مذهب من المذاهب الأربعة واحدة منها . وعلى مقربة من هذه المبلّغات ومن الحجر والمقام والبيت، يقوم بناء فوق بئر زمزم . وقد شيّدت هذه المبانى القائمة وسط فناء المسجد من أحجار متينة صلبة جيء بها من الجبال المجاورة لمكة ، كما جيء من هذه الجبال بالأحجار التى شيّدت منها عمد المسجد وقبابه وما وراء العمد والقباب من جدران ومبان يسمونها مدارس لأنها كانت كذلك بالفعل يوم شيّدت ؛ لكن الكثير منها يتخذ اليوم مأوى لبعض الطوائف ولا يتخذ أماكن للدراسة . وقباب المسجد وجدرانه بسيطة ، وفيها مع ذلك فن يتفق مع هذه البساطة . أمّا أبواب المسجد المؤدية إلى الطرق المحيطة به فأقل من قبابه فنًّا وأكثر منها بساطة خلا باب علىّ . وجدران المسجد من الخارج لا فنّ فيها، بل تزورّ عين رجل الفن عن بعض جوانبها ازورارا .

وخرجنا من المسجد إلى المسعى . وهو يقع على مقربة من باب الصفا . وكان المسعى إلى صدر الإسلام طريقا مستقيما ينقص طوله عن الميلين ، ويصل بين ربوتى الصفا والمروة ؛ وكان متصلا بما حوله من فسيح الصحراء، تطل عليه الجبال المحيطة بمكة ؛ أما اليوم ومنذ بضع مئات من السنين فقد أحيط بالمبانى والعمارة التى طغت عليه، وقد أُحيل كل من الربوتين إلى درج أقيمت حوله جدران تحجب بين الساعين وفسحة الجوّ وبهاء السماء . وقد بلغ من طغيان المبانى أن أعوجّ المسعى اعوجاجا يحول دون رؤية الصفا من المروة أو المروة من الصفا . وتخترق المسعى طرق تسير فيها الإبل والدوابّ والعربات والسيّارات . وقد كان هذا الطريق إلى سنوات مضت كله الرمال؛ أما الآن فقد رصف بالحجر رصفا غير منتظم .

عدت إلى الدار بعد هذه الزيارة القصيرة ، فقابلنى مضيفى يخبرنى أن وزير المالية ينتظرنى بداره قبيل الظهر ، وأن السيارة ستذهب بى وإياه إلى هذا الموعد . وذهبنا نخترق الطرق إلى ظاهر مكة حتى بلغنا غايتنا ونزلنا عند باب الدار . وليس

يبالغ من يسمى هـذه الدار قصرا ؛ فهى فسيحة وإن لم يكن لبنائها طراز ينسب إليه ، نخيمة وإن لم يسعد الفن نخامتها بتأنق أو روعة . تخطّينا بابها الضيّق إلى درج يؤدى إلى ممر من ناحيـة وإلى فضـاء به زرع من ناحية أخرى ، وآستدرنا فى الممر إلى حجرة تخطّيناها إلى دهليز فغرفة أخرى ثم غرفة ثالثة هى التى كان وزير المـالية ينتظرنا بها ، وهى غرفته الخاصة . وأحسبنى لو تركت لأعود وحدى إلى ظاهر الدار من خلال هذه الغرف والممرات لتعذّر ذلك علىّ .

والشيخ عبد الله بن السليمان الحمدان رجل بدوىّ نجـدىّ بكل معانى البدوية والنجدية ؛ نحيف القوام معتدله ، أسمر البشرة ، حاد النظرة ، تلمح فى عينيه ذكاء وغضبا ممتزجين ، يدعو امتزاجهما فى حالة سكونه ودعته إلى مهابته والتفكير فيما وراء نظرته ؛ وهو إلى ذلك حلو الحديث رقيق النبرة مبتسم اللقيا . تبادلنـا التحيّات ، ثم ذكرت له ما دار بخاطرى منـذ غادرت مصر أن تكون مكة مقـرّا لعصبة الأمم الإسلامية ، كما أن " جنيف " مقر عصبة الأمم الأوربية . ووافقنى هو فى الرأى على أن نمحصه بعد انتهاء فرائض الحج واشتغال الحكومة بها .

وبعد الحـديث والقهوة تركت الدار وآثرت أن أقوم بجولة بالسيّارة أجتلى بها صورة من بعض نواحى مكة . وما دمنا بجَرْوَل عند مدخل مكة من ناحية الشّميسى — أو من ناحية الحديبية إن شئت — فلأذهب الى ناحية غير هذه التى دخلت منها حين مجيئى أمس من جدّة ، ولأتبـع فى تجوّلى هوى نفسى وإرشاد مُضيفى . فأمّا هوى نفسى فقـد كان الى فنـدق مصر التابع لشركة مصر للملاحة البحرية . وهل تهوى النفس شيئا هواها لمـا له بالوطن اتصال ! . وأمّا مضيفى فذكر أن على مقربة من فنـدق مصر فندقا للحكومة الحجـازية ، وأن مديرهـذا الفندق هـو مواطنى المصرى الشيخ عبد السلام غالى .

وزرت فندق مصر لِمـامًا ، ومررنا بفندق مكة فلم نجد مديره ولم نقف عنده . وفندق مصر دار عربية نخيمة المدخل ، حاول مديره أن يدخل الى دورات مياهه شيئا من النظام الحديث .

وعدنا الى المنزل وفى نفسى بعد هذه الجولة صورة مبهمة من مكة، كل دلالتها أن مكة اليوم هى مكة منذ مئات السنين ، لم يطرأ عليها تقدُّم إلا فى منازل بعض الأفراد الذين آثرهم الله ببسطة فى الرزق . وهو تقدُّم نسبىٌّ لا صلة بينه وبين تقدم فن العمارة الحديث .

وحال قرب المسجد من منزل مضيفى دون توغلى بمكة منذ اليوم الأول، كما حال دونه ما أكرمنى به أهل مكة وزوارها من زيارتهم إياى حيث نزلت . وقد تبادلت مع هؤلاء وأولئك أحاديث شتّى عن البلاد المقدّسة كان لها أثر فى تكوين فكرتى عن العلاقة التى يجب أن تصل بينها وبين العالم الإسلامى .

غَدُنا اليوم الثامن من ذى الحجة، يوم التروية، ويوم يصعد الحجيج إلى منًى وعرفات لقضاء فريضة الحج . وفى غد أُغادر مكة بعد يومين اثنين من مقامى بها قضيت أثناءهما شعائر العمرة ، ولم أر خلالها من نظامها وحياتها وآثارها شيئا مذكورا . فمتى أرى ذلك كله ؟ ... بعد الفراغ من شعائر الحج ! فلأنتظر إذًا ، إن الله مع الصابرين .

وقفـــة عرفات

أصبحت يوم الاثنين الثامن من ذى الحجـة ، يوم التروية ، أفكر فى عرفات والذهاب اليها محرما والمبيت بها ، وقضاء ما يجب من شعائر الحج فيها ، والنزول منها الى المَشْعَر الحرام بالمُزْدَلِفة ، والى الصخرات بمنّى لأتم بعد ذلك طواف الحج حول الكعبة وسعيه بين الصفا والمروة ، فأكون قد قضيت الفرض الخامس من فرائض الدين الحنيف . ولا يفكر الناس اليـوم فى التروية ، وهى جلب المـاء معهم الى عرفة ليستقوا منـه يوم وقوفهم بهـا . وهم لا يفكرون فى التروية مذ يسّرت عين زبيدة لهم من المـاء ما يريدون .

وشـتان بين ما اشتملنى أثـناء التفكير فى الإحرام لعرفات من نعيم وغبطة ، وما كنت أخافه قبـل مغادرة مصر من أثر الإحرام وقضاء المناسك على صحتى . لقـد اشتملنى من فجر ذلك اليوم رضا عن الحياة وعن نفسى ، وشعرت بروحى فرحة وبقلبى مطمئنا . أقبلت منـذ بكرة الصباح أعدّ لباس الإحرام وما يقتضـيه المبيت تحت الخيام ، منشرح الصـدر لكل ما أصنع من ذلك ، عميق الإحساس بجلال هـذه الفريضة التى يسّر الله لى أداءها ، موقنا أنى سأشهد أثناءها من آيات حكمته فيهـا ما يزيد كل مؤمن إيمـانا وتثبيتا . وصوّرت أمام ذهنى هذا الجبل المقدّس وقمّتـه الفسيحة واجتماع عشرات الألوف من المسلمين فوقه مهلّلين ملبّين متوجهين الى الله بقلوب طهّرها صـدق الإخلاص من ماضى حوباتها ، وهداها الاجتماع المقـدّس بإخوانها المؤمنين سبيل الخير ، وفتح أمامها أبواب حياة جديدة تسمو خلالها بفضل إيمانها وصدق توجّهها الى الدرجات العلا من مراتب الإنسانيـة السامية ، مراتب البررة والمقربين والأتقياء الصالحين الذين يخشون الله ولا يخشون غيره ، ولا يخافون فى الحق والخير والبر لومة لائم .

بقيت فى إعداد متاعى الى ما قُبيل الظهر، ثم انحدرت من الدار الى قصر الملك لموعد ألقى فيه جلالتـه . وقصر الملك يقع خارج مكة من الناحية الشمالية الشرقية عند مبـدأ الطريق الذاهب الى منىً . وهو قصر بنى حديثا ليقيم ابن السـعود به ما أقام بمكة قبل الحج وبعده . وهو فسيح الجنبات بسيط المظاهر ، يجمع بين أُبَّهة الملك وطراز العروبة القريب من البداوة . تلقاك أوّل ما تتخطّى بابه حديقة فيها نباتات صغيرة ، ثم تتخطى دهاليز فرشت بالحصباء الى أبهاء بسيطة فى أثاثها وعمارتها على رغم سعتها وكثرة نوافذها . ويقابل القصر جبـل زَرُود الواقع على مقـربة من حِراء ، أو جبل النور كما يسمونه اليوم ، ذكرًا لنور الوحى الأول الذى هبط على النبي صلى الله عليه وسـلم وهو بالغار عند قمّته . وتقوم فوق زرود قلعـة تحمى مقرّ الملك أثناء مقامه بأمّ القرى . وقد لقيت فى ذهابى الى قصر الملك وعودتى منـه مشقة لم ألقها فى طريق مكة حين تجوّلى بهـا فى اليوم الذى سـبق . فالطريق إلى قصر الملك هو كما قـدّمت طريق منًى ؛ وهذا اليوم هـو يوم التروية . فيـه يصعد الحجيج جميعا إلى منًى أو إلى عرفات من هذا الطريق . وأكثرهم يصعدون على الإبل لأنها أيسر نفقة على الأكثرين ، ولأن الصعود عليها أكثر مشقة من الصعود بالسيّارات وهو لذلك أعظم عنـد الله أجرا فى رأى طائفة من المسـلمين . لذلك امتـلأت طرق مكة يومئـذ بقوافل الإبل ، حملت من ركبوها فى ألوان مختلفة الطراز والوشى من الهوادج والشقادف ، وبعضها يسـير إلى جانب بعض إذا انفسح الطريق ، ويتلو بعضها بعضا فى الطرق الضيّقة . وطرق مكة ضيّقة كلها إلا قليـلا ؛ لذلك كانت السيارة تقف فى الطرق ذات السعة أمام هـذه الإبل المتراصّة حتى تفسح لهـا طريقا ؛ أمّا فى الطرق الضيّقة فكانت تُضطر أحيانا إلى التراجع لتقف فى مكان يتسع لوقوفها ومرور القافلة بها بعيرا بعـد بعير ، وتضطر أحيانا أخرى إلى الانزواء فى طريق غير طريقها حتى تمر القافلة بها . والقافلة تمر بخُطا الإبل المتئدة لا سبيل لهـا إلى أن تسرع فى هـذه الأزقّة الملتوية فى ارتفاع وانخفاض . وتمر القافلة وتسير السيّارة بضعة أمتار ثم إذا قافلة أو بضعة جمال أخرى

تضطرها لتلتمس مكانا تقف فيه أو زقاقا تحتمي به . ولقد اقتضانا خوض هذا البحر اللجي من الإبل وسائقيها أضعافا مضاعفــة من الوقت الذى كنا نقطع فيه الطريق لو أننا كنا نسير فى غير يوم التروية أو أيام الحج .

وتناولت طعام الظهيرة، واتفقت ومُضيفى على أن ننتقل السيّارة إلى عرفات بعد صـلاة العصر . وتطهّرت لإحرام الحج ولبست لباسه بعـد أن نويته وصلّيت ركعتين سـنّته . فلما صلّيت العصر أقمت أنتظر السيّـارة . لكن المغرب اقتربت ولم تكن قد جاءت ؛ وخشى مضيفى أن أضيق بتأخرها ذرعا ، فهبطنا إلى حديقة صغيرة خلف الدار وفى حرمها ، نستمتع بما فيها من خضرة النبات وبهاء الأزهار . وإنا لكذلك إذ بدأ الرذاذ يتساقط . واحتملناه زمنا فرحين به آملين أن ينقطع بعد قليل ؛ لكنه استمر ثم هتن وابلا لاسبيل معه إلى البقاء فى الحديقة ؛ واحتمينا بإيوان متصل بها ، وجلست بمقعد عند بابه أشهد منه عبث المطر بالزهر والشجر . وفكر بعض الحاضرين فى الترويح عنى بذكر سيول الحجاز التى تنهمر سويعة انهمارا يحسب الإنسان معه أنه لن يكفّ ، ثم إذا السماء أمسكت وعاد إليها صفوها ، وإذا رمال الأرض ابتلعت مياهها ، وإذا الجوّ أكثر صفاء ورقة . والمطر يهتن والبرق يخطَف والرعد يقصف والرجاء فى مجىء السيّارة يذوى فى نفسى ، فأسائل مضيفى : أللصعود إلى عرفات فى هذا الوقت سبيل ... ؟ ويجيبنى مضيفى مطمئنا : إن الأمر لله ، والحج فرض الله ، ولا بد أن ييسر الله للناس فرضه .

وبينا نحن فى حديثنا أمسكت السماء فجأة ، وذهبت الريح بما فيها من سحب ، وصفا الجوّ ، وعادت إلى الثغور ابتسامتها . وأقبل الخادم ينبئنا بأن السيّارة بالباب تنتظر ، وركبناها وشققنا بها طرق مكة الضيّقة وهى تسير الهوينى تتخطى الإبل وهوادجها وشقادفها حتى قاربت بنا قصر الملك . هنالك انفسح الطريق وعظُم أملنا فى الوصول عما قليل إلى عرفات . على أن السيّارة وقفت هنيهة ليملأها سائقها بنزينـا . فى هذه اللحظة رفعت بصرى إلى السماء فألفيتها صفوا لم يبق لسحابة فيها أثر ، وألفيت

القمر لمّا يكتمل بدرًا قد بعث الى أرجائها من ضوئه النَّدِى ما زاد فى صفاء صفحتها بهجة ونورا . وسرّحت الطرف عن يمينى وعن يسارى وفيما أمامى فاذا لجة القمر تغمر سلاسل الجبال القائمة فى هذه الأرجاء جميعا متتابعة فى اتصال لا يدع للناظر من خلالها فرجة تشف عن شىء مما وراءها . وبدت هذه السلاسل فى لجة الضوء أشباحا ضخمة رهيبة جديرة بأن تبعث الى النفس الخشية منها ومما يستكن فيها لولا تجرُّد النفس فى هذه الآونة من كل خشية إلا خشية الله، ولولا سمو النفس فوق كل ما فى الحياة من آمال وآلام ومخاوف إلا عن الرجاء فى رضا الله عمن لبَّوْا نداءه ومن جاءوا من كل فجّ عميق رجالًا وعلى كل ضامر لِيَطَّوَّفوا ببيته و يتموا مناسك حجه .

وانطلقت السيّارة فى طريق منًى تسايرنا جبال العقبة عن يسارنا وطلائع ثَبِير عن يميننا . وفى لحظة غابت الإبل ولم يبق يزحمنا منها قافلة ولا بعير . ذلك أنا خرجنا عن طريقنا الى طريق آخر استحدثته الحكومة القائمة وخصّت به السيّارات تنفيسا عن القوافل وعن السيارات جميعا . والقمر فى كبد السماء الندية الزُّرقة بضيائه يلقى على الهضاب الممتدة عن يميننا وعن يسارنا ضوءا يبعثها الى يقظة الحياة فى هجعة الليل . أمّا فيما أمامنا فقد غلب ضوء السيّارة الباهر ضوء القمر الرطب الندى . وجعلنا نصعد فوق السفوح على هُونٍ، حتى طالعتنا أضواء كثيرة منتشرة عن يسارنا ؛ تلك أضواء سوق منًى يتأهّب أصحابها لإفاضة الناس من عرفات بعد غد اليها . ثم مررنا بعد قليل بضوء أقل من ضوء منًى دلّنا على أنا إزاء المزدلفة . وتابعنا التصعيد فى الجبل على هون بين هضاب ورمال انبسطت عليها أشعة اللجين من ساهر السماوات . وحاذينا بناء، ذكر أهل مكة أنه مسجد نَمِرَة، بدت بعده أضواء قيل إنها سوق عرفات . ثم انطلقت السيّارة فاذا بنا أمام سهل فسيح ضربت فيه مئات القِباب وألوفها وتلألأت فيه مصابيح النور الأبيض . تلك بطحاء عرفات، وهنا مكان الحج وملتقى الألوف من المسلمين الذين فرضوه على أنفسهم .

وقفت السيّارة، وسأل مضيفنا عن مضارب خيامنا . ومَنْ لك بالذاكرة التى تحيط بمكان كل قبة من هذه المضارب التى يخطئها العدّ فى هذه الساعة من الليل ! بل مَنْ لك بهذه الذاكرة فى أشد ساعات النهار وضحا ! . وبدأ الغضب يأخذ من المضيف حين لم يسارع أتباعه الى إجابة سؤاله . لكن جلال الموقف وعذوبة الهواء وصفوه ورقته هدّأت من حدة طبعه . وانفتل شاب من ذويه من السيّارة يلتمس منازلنا كى يهدينا اليها، ولم يطل عنا غيابه .

•

وألفيت الخيمة التى أعدّت لنا قد فرشت ببساط من السجّاد، فألقيت عليه فراش النوم، وخرجت أسرّح البصر فيما حولى . خرجت فى لباس إحرامى خفيفا فرحا نشيط النفس ممتلىء الفؤاد حبورا وجذلا . يا لَرِقّة هذا الهواء وجمال هذا القمر وبهاء هذه الساعة الفذّة التى سقطت فيها عن الروح كل الحجب وتجلى فيها أمام البصيرة نور الخالق العظيم ! لَبَّيْكَ اللّهم لبيك . لبيك لاشريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك ... أوَلا يجمل بى أن أتقدّم بين هذه المضارب لأرى ألوف المحرمين مثلى فأزداد برؤيتهم حبورا، وأتحدّث إليهم فيزيدنى حديثهم جذلا، وأُلَبِّى و إياهم فتتجاوب هذه الوهاد بأصداء عشرات الألوف من أصوات الملبّين ترتفع على موج النسيم وأشعة القمر إلى عليا السماوات !...

وأنّى لى أن أهتدى إلى مضربى إذا أنا ضللت بين هذه الخيام وليس لى من العلم بالمكان ما لأبناء مكة الذين يؤمّونه كل عام ! . ولكن ! ايضل هاهنا أحد وهاهنا موضع الهدى وملاذ الملبِّى نداء ربه ، اللاجئ إلى فىء رحمته ! . وتقدّمت خطوات إلى موضع توسّط الخيام، فتموّجت أشعّة القمر أمام نظرى على رماله . ثم وقفت وأطلت الوقوف ، وبقيت محدّقا بالسماء ، مأخوذا بصفو أديمها ، شارد اللب فى جلال هذا الكون المحيط بى وعظمته ، أناجيه وقد نضوت عنّى زينة الحياة الدنيا فأحس به أبهى جلالا وأجل عظمة ! . كم طالت بى هذه النجوى ؟ ! لا أدرى ! و أرادت قدماى أن تتقدّما بى لأتصل بمن أسمع هسيسهم من إخوانى

المؤمنين، فتلفتّ أتعرّف قبّتى كيما أتخذ منها منارا أهتدى به فى سيرى، فلم أعرفها بين الخيام القريبة منى. إذ ذاك آثرت العودة للبحث عنها والاحتماء بها من ضلّة الليل. فلما اهتديت إليها وقفت عند بابها، ولم تطاوعنى نفسى على أن أتخذ منها حجابا بينى وبين السماء وقمرها الباسم الضياء، وبينى وبين هذا العالم الروحىّ العظيم الذى اجتمع الساعة هاهنا فى هذه البقعة من بقاع الأرض، والذى يجتمع فيها فى هذه الساعة من كل عام، ناسيا كل شىء من زخرف الدنيا، متوجّها إلى الله أن يتم على الأرض كلمة الهدى ويوطّد فيها الحق والعدل والسلام.

وجلست مكانى على سجّادة صلاة سحبتها من داخل القبّة، وتركت لتصوُّرى عِنانه، وقد ارتسم كل ما تشتمله السماوات والأرض حولى فى دخيلة نفسى. وانتقلت بهذا التصوّر فى هنيهة من بيئة المكان إلى بيئة الزمن، وطويت القرون القهقرى إلى أكثر من ثلثمائة وألف سنة مضت، وامتثلت النبىّ العربىّ محمدا هاهنا فوق عرفات فى حِجّة وداعه، مُحْرِما كإحرامنا، ملبّيا كتلبيتنا، مستغفرا كاستغفارنا، خاضعا لله خضوعنا، عبدا لله كعبوديّتنا له. اِمتثلت هذا النبىّ العربىّ وقد تخطّى السنين، وقد فتح الله له فتحا مبينا، وقد أسلم لدينه أهل مكة الذين حاربوه وأصحابه وأخرجوهم من ديارهم، وقد آن أن يكمل الله للمؤمنين دينهم ويُتمّ عليهم نعمته. اِمتثلته واقفا فى هذا المكان على رأس مائة ألف من المسلمين بعد أن قطع إليه الطريق من يثرب إلى مكة محرما طَوال هذه الطريق، سائقا هَدْيَه معه، مقيما على إحرامه أسبوعين كاملين، ملبيا والمسلمون من ورائه كل نهاره وطرفا من الليل، مسلما كل أمره الى الله لا إله إلا هو، اليه يرجع الأمر كله، واليه تصير الأمور.

كم أقمت أذكر فنفعتنى الذكرى: ثلثى الليل أم نصفه أم زدت عليه أم نقصت منه؟! علم ذلك عند ربى. وشعرت بالسكون يمد رواقه حولى، حتى لم يبق مما كنت أسمع نبأة أو همسا. عند ذلك دخلت الى قبّتى وأطبقت أجفانى ألتمس النوم.

أفنمت حقا ؟ وكم نمت ؟ كل ما أذكره أنى كنت سعيدا وكنت ممتلئا نشاطا حين طـرق أذنى صوت المؤذّن لصلاة الفجر . طرق هـذا الصوت أذنى فابتهج له قلبي وطـرب له فؤادى طربه لأُغنية عذبة ترتّلها ملائكة السماوات ، وفتحت عينى فرأيت بشائر الضوء تسرى من فرجات القبة ، فقمت الى المـاء أتوضأ ، فإذا الحياة تسرى فيما حولى من المضارب ، وإذا الذين يلتمسون المـاء لغيرهم ينتشرون هاهنا وهناك ، وإذا النـداء للصلاة الأولى تتجاوب أصوات المنادين به فى مختلف أنحاء البطحاء ، وكلهم يلقى فى آذان الخليقة التى بدأت يقظتها : "الصلاة خير من النوم" . وفى نواح مختلفة من البطيح المترامى الأطراف سمعنا الذين قاموا يؤمّون مَنْ معهم للصلاة، ينادون: الله أكبر . وكلما أتم جماعة صلاتهم علت بالتلبية أصواتهم . وأقام النـاس على ذلك حتى ذرّ قرن الشمس فوق الجبال الى ناحيـة الشرق . عندئذ بدءوا يتسلّلون من خيامهم يرون بأعين النهار مالم تُسعفهم عين الليل على رؤيتـه من مكان الحج المقدّس . فلما علت الشمس بدأت حياة النهـار ضجتها وتجارتها ، وبدأ الناس يلقون بعضهم بعضا بالتحية والتبريك ، ثم ينتقلون بحديثهم إلى مألوف ما فى الحياة .

وتجارة الحياة فى عرفات تتصل بالحجّ وبالصدقات التى تهوِى بها أفئدة الحجيج إلى الفقراء والمساكين ممن يطوفون بهم . والحجيج تهوى أفئدتهم إلى إطعام الجائع والبرِّ بالمحروم . لذلك يسير الأعراب بقُطعان من الغنم يبيعونها من يذبحونها لساعتهم ويتصـدّقون بها على ذوى الحاجة من إخوانهـم المؤمنين، ومنهـم من جاء لأداء الفريضـة من أقصى الأرض وهو لا يجد قوت يومه، وآخرون اتخذوا من البقاع المقدّسة مقاما ومن الصـدقة مرتزقا . هؤلاء يطوفون بالمضارب يبتغون من ذوى الميسرة بعض ما رزقهم الله، ثم لا يكفيهم ما ينالونه فيعودون يسألون الناس إلحافا يستغلّون بذلك إحسان من لا يُمسكون أيديهم فى يوم الحج عن الإحسان .

وخرجت من قبّتى أتعرّف ما حولى، وأشهد صنيع النـاس يومَهم هـذا وقد جاءوا إلى الله حاجّين متجرِّدين . وإنى لأتلفتُ يمنةً ويسْرةً إذ وقع بصرى على رجل

لاشىء فى سيماه يدل على أنه من أبناء الشرق، بل هو أدنى إلى أن يكون من أبناء الشمال فى أوربا بطول قامتـه النحيفة و بشرته البيضاء المشربة حمـرةً وعينيـه الزرقاوين وشعره الأصفر . وأخبرنى بعض أهل مكة ممن حوله أنه هولندى "مسلمانى" يقيم بجاوة ، وأنه جاء يؤدّى فريضـته . ودلفت إليه وألقيت عليه التحيّة بالفرنسية، وتحدثت إليه بها، فدلّتنى لهجته على أنه ليس من أهل هذه اللغة، وأن أغلب أمره أن يكون انكليزيا . وسألته عن جنسيته فعلمت أنه إرلندى وانه يقيم "بسَرَوَاك" فى بورنيو، أكبر الجزر البريطانية فى أرخبيل الملايا، وأنه أسلم من سنوات خمس، وأنه جاء ليؤدّى الفريضة، فأقام بجُدّة سبعة أسابيع حتى أيقن رجال الحكومة العربية من حسن إسلامه وسمحوا له بمـا يسمح به للمسـلمين دون غيرهم من دخول مكة ومن أداء فروض الج ومناسكه .

واتّصل بينى و بينـه بالانكليزية حديث طو يل ، ومع ذلك لم تطاوعنى نفسى على سـؤاله عن سبب إسلامه . وعلى رغم ذلك أخبرنى أنه فى إقامته بسرواك بين المسلمين منذ أكثر من خمس عشرة سنة لم تطب نفسه بما دون التعمُّق فى درس حالهم الاجتماعية والأخلاقية، والبحث، بوصف كونه إرلنديا، عن الأسباب التى أدّت بهم الى الخضوع لغيرهم . وكانت عقيدتهم الدينية بعضَ ماعُنى بدراسته . ولم يلبث حين بدأ هذه الدراسة أن شعر بحافز قوى يحفزه للإمعان فيها ولقراءة ما كتب فى اللغات المختلفـة عنها وللتزيُّد من ذلك ولطول التفكير فيـه . ولقد أخذت بساطة العقيدة الإسلامية بمجامع قلبه، ووصلت من تفكيره الى أعماقه، وجعلته يؤمن بحقيقة هذا الدين الذى نزل على النبيّ العربىّ وبحضارة الأُخوّة والإباء التى يدعو إليها، و يؤمن بأن الحضارة التى تنشر أوربا اليوم لواءها فى العالم باسم العلم ليست من العلم فى شىء، وإنما هى اللعنـة التى صبّها الله على العالم . فهذه الحضارة تتلخّص عنده فى إخراج الناس من بساطتهم الفطرية التى تكفل لهم سلامة التفكير وسموّ الغاية، ليخضعوا لأهوائهم وشهـواتهم المـاديّة فتضعف نفوسهـم و يذلّوا . وأيّة صـلة بين سعادة

الرجل أو المرأة و بين منسوجات "لانكشير" أو حرائر "ليون" أو عطور "باريس" أو ما إلى ذلك من مواد الزينـة والترف . وهـذه مع ذلك هى مظاهر الحضارة الأوربية، وهى السبب الحقيق التى تغزو أوربا العالم من أجله . إنما الصلة الحقيقية بين هذه المنسوجات والحرائر والعطور، و بين الأموال التى تريد أوربا استنزافها من الشعوب بإقناعها كذباً بأن الحضارة فى الرداء والترف والزينة . أمّا الإسلام فيدعو الى معنى هو اسمى المعانى ؛ إلى نبـذ كل عبوديّة لغير الله ، وإلى الأستهانة بالموت فى سبيل الله ، وإلى البرّ والتقوى وإلى الرحمـة والمغفرة . وهو يدعو الى ذلك كله فى بسـاطة وقوّة لا حاجة بهما إلى منسوجات أو حرائر أو عطور . ولو أن أهـل سَرَوَاك وغيرهم من المسلمين أدركوا سرّ الإسلام إدرا كا عميقا لهان عندهم ما يعرضه الغرب عليهم ، ولمـا خضعوا لحكم الغرب ولا ذلّوا لسلطانه . فدينهم يربأ بمن يؤمن به عن الخضوع لغير الله، ويجعل الموت فى سبيل التخلص من هذا الخضوع موتا فى سبيل الله يُجْزَى صاحبُه الجزاء الأوفى .

وأعجبت بحديث صاحبي "المسلمانى" أيما إعجاب، لأنه صادف موضع العقيدة منّى؛ فسألته عما جاء به إلى الحجاز وعن رأيه فى حكمة الحج . وكان جوابه على سؤالى لحديثـه الأوّل حصافة ودقّة، قال : إنمـا فرض الإسلام الحج ليُشهد المسلم الله على نفسه أمام ملأ إخوانه المؤمنين جميعا أنه نبذ ما اختلط بحياته قبل الحج من ذنوب وأوزار . والله يغفر له ما صـدق التوبة ، ليُولَد ميلادا روحيا جديدا يكون بعده خيرا ممـا كان قبله عن علم وبصيرة .

وخشينا أثر الشمس فصرنا نقصد مضاربنا . ولم نبتعد إلا خطوات وإذا صاحبي يدعونى أن أدخل معه إلى خيمته لنشرب فنجانا من الشاى معا . فدخلت الخيمة معـه، فألفيت بها سريرين من أسِرّة الميدان جعلهما مضجع الليل ومتكأ النهار له ولزوجه . وزوجه امرأة مسلمة من أهل سرواك، عرفها وأحبها، فلما أسلم تزوجها وجاء بها تؤدّى فريضة الحج معه . وكانت ساعة دخلنا جالسة إلى جانب من الخيمة

وحولها رجال من أهل وطنها . وهى وسيمة غير بارعة ، تبـدو فى جلستها أدنى إلى القصر منها إلى الطول ، قمحيّة اللون ، عريضـة الأكتاف ، ممتلئـة فى غير سمنة . اشتركتْ فى الحديث بلغة أهـل وطنها فبدا صوتها عريضا عرِضًا لعله يؤذن بجماله فى الغناء . ولم تُنَاوِلنا أقداح الشاى على عادة الأوربيين ، بل ناولنا إياها أحد الجالسين حولهـا . وأعجبنى هـذا الحفاظ على العادات الشرقية ، كما أعجبتنى الدقّة الغربيـة فى إحضار أسرّة الميدان ، وآعتبرتها بعض العُدّة الواجبة للمسافر إلى الحج ، والتى تغنيه عن كثير ممـا يضيق به ذرعا حين لا يجد بمكة السرير الذى يستريح إليه ، ولا يجد بعرفات ولا بمنًى بديلا منها يغنى عنها ويريح الحاجّ كما تريحه .

وعدنا إلى حديث طويل تكلم أثنـاءه صاحبى عن المسلمين وعدم إدراكهم قوتهـم العظيمة بسبب ما تخـدعهم به مزاعم الغـرب . فهؤلاء المسلمون يزيدون فى آسيا وحدها على مائتى مليون ؛ ولو أنهم أدركوا مبلغ قوتهم وأدركوا قيمة حياتهم الروحية وعظمتها لأستطاعوا تجديد نشاط الإنسانية ؛ لكنهم متروكون إلى جهالتهم ليسهل خداعهم وآستغلالهم ، قانعون لذلك بضعفهم ، راضون عن هوانهم .

وعدت إلى قبّتى ، وآستقبلت كثيرين من الأصحاب جاءوا يزوروننى ويشاركوننى الحديث فى الحج وما يجب لنظامه . وأذّن الظهر وجمع الناس بين صلاة الظهر والعصر ، وقاموا يلبّون حين قيل لهم إن الخطيب قائم عند مسجد الصخيرات على بعيره يخطب الناس . لكن زحمة عرفات لم تدع لأحد أن يذهب لسماع الخطيب عند مسجد الصخيرات وفى مسجد نَمِرة . ثم إن مثل هـذه الخطب قد صارت خطبا تقليدية كخطب الجمعة فى مساجد مصر ، ألِفت الآذان سماع ألفاظها ومعانيها التى أصبحت لا تتفق وروح العصر ، ولا تتفق كذلك وطبيعة الإسلام الداعية دائما إلى التجدد فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه .

وكان الناس يفدون طيلة النهار إلى عرفات ليؤدّوا فرض حجهم ؛ فالحج عرفة ، وساعة الآجتماع والخطبـة هى الساعة التى يتم فيهـا فرض عرفة ؛ لذلك آكتمل

جمعهم قُبَيْلَها . فلما آنتهت بدءوا يفكرون فى الإفاضة الى المزدلفة ليذكروا الله عند المَشْـعَر الحرام ، ثم يؤمّون منًى ليقيموا بها ثلاثة أيام النحر يرمون فيها الجمـرات ، أو يرجمون فيها الشياطين الثلاثة، على حد تعبير أهل الحجاز .

و إن النـاس لفى تفكيرهم وتأهُّبهم ، مغتبطين بصحو الجـو و جمال الهواء، إذ آكفهر الوجود بغتة وهبّت الريح عاصـفة وثار النقع وتعـالى الغبار فى الجـو وخطف البرق وهزم الرعد، وبلغ من شدّة ذلك كلّه أن نسى الناس أُهبتهم وتفكيرهم وآتجهوا بأبصارهم الى مضارب الخيام يرون ما الريح صانعـة بها . وآقتلعت الريح بعض الخيام، فأسرع أهلها إليها يطوونها خشـية أن يمزّقها الإعصار العاصف . فأمّا النساء والضـعفاء والأطفال فلجئوا الى ما آنسوا فيـه قوة المقاومة من الخيام وآحتموا بهـا . وبلغ من هزيم الريح أن كان يُسْـمَعُ لهـا شهيقٌ و زفير يدوّيان فى آذان اللاجئ إلى الخيام أكثر ممـا يدوّيان فى آذان الفارّ منها . ولقد لجأت إلى خيمتى لحظـة ثم تركتها حين رأيتها تميل فى مهبّ الريح وتهدّد مَنْ فيهـا بالسقوط عليهم . ووقفت ومعارفى من أهل مكة وتوجّهنا الى الله أن يصرف عنا وعن الناس السوء والبأساء. مع ذلك، ومع ما كنا وكان الناس فيه من هذه الشدّة، لم تزايل القلوبَ غبطتُها ولا برح الأفئدة آبتهاجُها، بل بقيت ابتسامة الرضا تطوّق ثغور أصحابى و بقيت ضاحك السن أرى فيما حولى بعض ما رآه الرسول عليه السلام فى خسوف الشمس يوم موت آبنه إبراهيم ، آية من آيات الله جلّ شأنه ، لا يغيّر سُنّته ؛ ويجب علينا أن نرى فى هـذه الآيات مظهـر قوّته، وأن نتوجّه إليـه تعالت أسماؤه بالآبتهال والدعاء إكبارا و إعظاما وخضوعا و إسلاما . وكذلك فعلتُ وفعل أصحابى، فآنطلقنا نلبّى ونكبّر .

و إنا لكذلك إذ تفتّحت أبواب السماء بمـاء منهمر ، همَى غير منـذر برشاش أو مُؤْذِن برذاذ . أين أين المفر ؟ ! . طار أحد أصحابنا الى حيث النساء والأطفال، فألفاهم أحكموا أمرهم إذ لجئوا الى سيّارة كبيرة من سيّارات " اللورى " ونشروا

فوقهم قُماشا من الخيمة التى سقطت أثناء احتمائهم بها، فوقاهم المطر والريح. أمّا انا فكنت أسعد حظا إذ أويت الى السيّارة التى جاءت بى إلى عرفات، وكانت (ليموزين) محكمة الإقفال، وأوى اليها معى مَنْ وسعته. والوابل هتون، والرياح عاصفة تضرب زجاج السيارة كأنها سياط تهوِى على جسم فيشتدّ منها أنينه. وكان زجاج السيّارة ساعة آجتمعنا بها يحجب ما وراءها لكثافة ما علق به من الغبار؛ أما بعد هذه السياط فقد شفّ عما فى لون الجو المكفهر القاتم من بقية الضياء.

وأقمنا زمنا نرجو أن ينقطع المطر، بعد أن زال ما أثارته الريح من غبار، ونحن فى مثل ما كنا فيه من رضا النفس وضحك السنّ. فلما هدأ هَتْنُهُ ثم انقطع عاد الناس إلى خيامهم المطوية فنشروها وضربوا منها ما يكفيهم السويعات الباقية على انحدارهم إلى المزدلفة ثم إلى مِنًى. ودلفت إلى خيمتى وآستلقيت على بساطها، وبقيت هنيهة مستجمًا أمدُّ بصرى تارة من خَصَاص بابها إلى ضوء القمر المنبسط على الرمال، وأُغمِض أجفانى طورًا فأسعد بالنسيم الرقيق العذب الذى خلَف العاصفة فأنعش نفوسنا وزادنا طمأنينة ورضا. ثم عدت أفكر فيما كنا فيه وفى رضانا عنه وآغتباطنا به، ولو كنا فى غير هذه الحال لثار سخطنا عليه وآشتدّ برَمُنا به، ولفررنا من ثورة الطبيعة مولِّين الأدبار لا نعقِّب. وآبتسمت لهذه الموازنة بين حالين نفسيتين ما أبعد البون بينهما! ثم سألت نفسى: ما سبب تباينهما، وأيهما أدنى إلى الحكمة وإلى موجب العقل؟.

وسبب تباينهما بديهى واضح؛ فنحن اليوم فى تجرّدنا من الحياة وزينتها وفى توجهنا الى الله تسمو أرواحنا عن أن نأسى لشىء من أمره. والطبيعة وظاهراتها جميعا بعض أمره. وماذا بين ثورتها وصفوها وبين قطوبها وآبتسامها! وما لنا لا نستمتع بثورتها وقطوبها آستمتاعنا بصفوها وآبتسامها. إنا لنستمتع بالليل مثل ما نستمتع بالنهار، وهما نقيضان فيما يبدو لنا. وليس لنا اليوم ونحن فى إحرامنا ما نخافه من ثورة الطبيعة؛ فلن تحول هذه الثورة دون مصلحة من مصالحنا؛ ونحن

لا نفكر فيها، ولن يصيبنا منها أذى لأن حياتنـا اليوم روحية ساميـة فوق المـادة وآعتباراتها . ولو أننـا سمونا أبدا بالروح فوق المـادة لمـا آبتأسنا لشيء ولَكُنَّا أبدا من الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس . إنمـا نبتئس ونضيق ذرعا بثـورة الطبيعة حين تخضـع أرواحنا لمظاهر الحياة التى نتأثر بهذه الثـورة ، وحين نجعل سعادتنـا وشقاءنا ونعيمنا و بؤسنا رهناً بهذه الظواهر المحيطة بنـا ، غير مستمدة من دخيلة نفوسنا وأعماق أرواحنا . فنحن نخشى المطر لأن ملابسنا تبتل به فيفسد ابتلالهـا هندامنا ، ولأننـا نخاف أن يتسرّب من آبتلالهـا الينا ما يسوء أثره فى صحتنا . ولو أن ملبسنا كان فى مثل بساطة الإحرام لمـا خشينا على هنـدامنا ولا على صحتنا . ونحن نخاف الزوابع أن تحـول بيننا و بين مواعيـد ضربناها لقضاء مصالحنا . ولو لم نكن أسْرَى هـذه المصالح إلى حدّ الخوف عليها دون الخوف من الموت لوجدنا فى ثورة الطبيعة متاعا نفسيّا يعدل هذه المنافع أو يزيد عليها . والحق أن الناس إنما يشقَوْن بالحياة حين يذلّون لمـادّتها بدل السمو بروحهم عليها . ولو أنهم عالجوا هذا السمو وأدركوه لآمنوا بالمبادئ الإنسانية العليا ، وآمتدّت عدوى الإيمان منهم إلى غيرهم ، ولسمت الإنسانيـة بذلك إلى مقام غير مقامها الوضيع الحاضر .

فأمّا موجب العقل والحكمة فى الحالين فأشدُّ من سبب تباينهما وضوحا . ألسنا جميعا نبتغى السعادة ونطمع فى بلوغ درجاتها ! . ولا سعادة فى الخضوع لغير ماتوجبه الروح الفاضلة . والإيمان بالمـادة خضوع ، فأمّا الإيمان بالروح فسلطان . ولو أننا آمنا بالروح وآزدرينا المـادة لَعَنَتْ لنا المـادة وأقبلت علينـا تلتمس رضانا طائعة صاغرة . فأمّا ماخضعنا للمـادة عن إيمان بها فنحن البائسون الأذلّاء بحكمها ، يقتلنا الطمع فيها ونحن نحسب جهلاً أننا نحيا به .

وأرخى الليل سدوله وأنا فى تفكيرى حتى نبّهنى الأذان للعشاء منـه . فصلّينا وتناولنا طعامنا وأخذنا أُهبتنا للإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام . وطال بنـا الحديث والناس من حولنا يُفيضون ؛ فقد كان أصحابى يُؤْثِرون مذهب مالك من

أن المقام بالمزدلفة وذكر الله عند المشعر الحرام يكفى فيه مقدار حطّ الرحال ، على أن يصل الإنسان إلى المشعر قبل أن ينتصف الليل . وتناول حديث أصحابى الحج ومناسكه وحكمة هـذه المناسك . وأصحابى كما قدّمت مكيون يحجون فى كلّ عام، ولعلّ أكثرهم يعتمرون فى كل عام غير مرّة . وهم لذلك مطمئنون إلى مغفـرة الله لهم ، جريئون بذلك على تناول الحديث فى الأمور المقدّسة ومناقشتها بحرية قـد تصل بهم إلى ما يعتبره غيرهم إثمـا وتجديفا . قال أحدهم : إنمـا الحج ومناسـكه أمور تعبُّدية تغيب عنا حكمتها ولا سبيل للعقل إلى فهمها ، والمسلمون يتمونها لأنها فرض فرضـه الله عليهم . فـا عرفات وما المشعر وما الجمرات إلا أماكن كغيرها جعلها الله للمسلمين مناسك لحكمة لا يعلمها إلا هو ، ويجب علينا أن نؤمن بهـا وإن لم نفهم شيئا من حقيقتها وسرّها . وقال آخر : بل الحج وسيلة تهوِى بها أفئدة من الناس إلى وادينـا الذى لا زرع فيه ، تلك حكمة الله . وآية ذلك ما جعل على مَنْ عجز عن أدائه أيًّا من مناسـك الحج من فدية الدم ليطعم الفقراء ممـا رزق الله النـاس من بهيمة الأنعام . وقال ثالث : ليس هـذا كل حكمة الحج ؛ إنمـا حكمته الأولى اجتماع المسلمين وتعارفهم وتعاونهـم ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله . ومن يلبي دعوة التعارف والتعاون جدير بأن يغفر الله ماتقدّم من ذنبه لأنه آثر أُخوّة المؤمنين على نفسه وطمأنينتها ، فاحتمل مشقة المجىء إلى بيت الله يلقاهم عنده . وعاد الأوّل إلى الحديث فقال : هذه أقوال تسوّغون بها أمرا فرضه الله فى الإسلام . فـا مسوّغه أيام كان حج البيت فرضا قبل الإسلام ، ويوم لم يكن من أديان العرب دين نزل للناس كافة ليكون فى المجىء إلى بيت الله من تجشُّم المشقة ابتغاء الاجتماع بالمسلمين ما يساوى مغفرة الذنوب ، ولم يكن يحج البيت قبل الإسـلام إلا أهل جزيرة العرب ، وهم ليسوا أكثر من أهل هـذا الوادى يسـارًا ، فلم يكن فى هُوِىّ أفئدتهم إلى بنيه ذلك الخير الذى نرتجيه اليوم ممن يحجون إلينا ؟ .

عجبت لهذا الحديث ولم آخذ فى شىء منه بنصيب . وكيف أشترك فيه وإن كثيرين ليحسبونه «هَرْطَقةً» يستعيذون بالله منها ويلعنون أصحابها وينصرفون عن

السماع لهم . ولست أخفى أننى دهشت لتناولهم إياه لم تنههم عنه حُرْمةُ المكان ولم يردّهم عنه إحرامهم لله وتلبيتهم نداءه، وكأنما نسوا قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾. وٱلتمست سبب جرأتهم هذه، فوجدت الجواب حاضرا. إنهم يصعدون إلى عرفات كلّ عام، وهم يغشونه فى غير أشهر الحج، فلا يرون منه إلا السطح الأجرد لسلاسل الجبال القريبة منهم بمكة، ويرون هذا السطح صفصفا ليس يعمره إلا بعض البدو فى أوبارهم . ولطول ماتردّدوا عليه ٱختلطت صورته المـادية بالمعنى الروحى السامى لفريضة الحج، وذلك شأنهم فى إدراك سائر المناسك بالمزدلفة وبمنًى . وإذا ٱختلطت الصورة المـادية لموضع ما بالمعنى الروحى لأيّة فكرة سامية تتصل به، طغت الصورة على المعنى، إلّا أن يكون المؤمن به بالغا من الإيمان غايته، أو كان من المهذّبين المثقّفين الذين يستطيعون التفريق الدقيق بين مظاهر المـادّة الدائمة المور المختلفة الأطوار، وبين الروح المتصل الخالد الذى لاتحدّه المـادة ولا يعرف حدودا للزمان ولا للمكان. ولقد كان الكهنة الأقدمون فى اليونان وفى مصر أشدّ الناس سخرا من إيمان المؤمنين بالأصنام، وإن لم ينـل هؤلاء الكهنة من التهـذيب حظًّا يطوِّع لهم إقناع الناس بوحدة الله، وبأن الروح من أمره، وبأنه سام فوق المـادة غير محدود بحدودها . ونقصُ تهذيبهم وما يؤدّى إليه هذا النقص من ضعف إيمانهم هو الذى كان يجعلهم يقصّون على الناس ما يزعمونه معجزات الأصنام ليفيدوا من أعطيات هؤلاء الناس ماينفعهم فى حياتهم المـاديّة . ولو أن إخوانى المكيين هؤلاء كانوا مع جماعة غير مثقّفين لمـا تحدَّثوا حديثهم الذى قدّمت؛ أولتزعوا فيه، أغلب الظن، إلى ناحيـة أخرى . لكنهـم أرادوا أن يُظهروا لى مبلغَ حرّيتهـم فى التفكير لمـا يعلمونه من شدّة حرصى على الحرية وإيمانى بأنها السبيل إلى الإيمان الحق . ولعلهم أرادوا أن أُشاركهم فى حديثهم وأن أقصّ عليهم من رأيى ما لعلّه ينفعهم . فلما رأونى ممسكا عن القول مكتفيا بالإنصات لهم، أثار أحدهم جدلًا فى مناسك الحج فقال :

— لم يرد فى القرآن عن الحج وفرضـه غير قوله تعـالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، والبيت هو الكعبة . فأين فى غير سـنّة الرسول

ما يفرض الصعود إلى عرفات والقيام بما سواها من مناسك الحج ! . ولقد ورد فى القرآن من تفصيل فرائض الوضوء والصلاة والصوم ما لم يرد مثله فى الحج إلا ما جاء عن البيت والطواف به .

وأجاب أحد الحاضرين بقوله :

— من المأثور عن النبيّ عليه السلام أنه قال : « الحج عرفة » . ولقد ورد فى القرآن ذكر عرفات والإفاضة منها بعد الوقوف بها ، والمَشْعَر الحرام وذكر الله عنده ؛ فالقول بأن فرائض الحج لم ترد فى القرآن فيه تجاوزَ غير جائز .

وأدّى هذا القول إلى التساؤل عن الجبل الذى نحن عليه ما آسمه الصحيح : أهو عرفة أم عرفات ؛ فالحديث أن الحج عرفة ، والقرآن يقول : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾ . ولجأ القوم فى تفسير ذلك إلى قواعد البلاغة العربية فى إطلاق الجمع وإرادة المفرد وإطلاق المفرد وإرادة الجمع . وآطّرد حديث القوم والليل ينساب إلى ناحية منتصفه ، وجعلت أنوار المضارب فى البطحاء تخبو شيئا فشيئا ، ثم طويت الخيام وتحمّل القوم مُفيضين . فلمّا كنّا من منتصف الليل على ساعتين أو نحو ذلك كانت بطحاء عرفات قد خلت من الناس إلا قليلا ، وكان ضوء القمر وحده هو الذى يمدّ على رمالها بساطه الوَضّاء . وما أجمل ضوء القمر منبسطا على الرمال الممتدّة إلى حيث لا يعرف النظر غير الأفق حدّا ! وما كان أجمله فى تلك الساعة بلغ صفو السماء وصفو الجوّ فيها من أثر المطر ما زاد ساهر السماوات بهاء ونورا .

وقمنا يُسعدنا النسيم الرقيق إلى سيّارتنا لُنفيض كما أفاض الناس . وانطلقت بنا السيّارة نحو المشعر الحرام وإن فى نفسى إلى عرفات لهوًى يدعونى إلى العودة إليها والمبيت فى مضاربها والوقوف بها ملبيًا شاكرا ، داعيا مستغفرا . ذلك موقف لم أعرف مثله فى حياتى كلها روعة وسموّا بالنفس فى صدق وإخلاص إلى الله جل شأنه ، ولم أعرف مثله فى حياتى كلها دعوة إلى إخاء المؤمنين ليتحابّوا بنور الله بينهم .

أيام التشـــريق

يقف الناس إذ يُفيضون من عرفات عنـد المشعر الحرام يذكرون الله عنده ثم ينحدرون الى مِنّى ليقيموا بها أيام النحر ثلاثة أو أربعة يرمون أثناءها الجمرات. وكان العرب قبل الإسلام يسمون أيام النحر هذه أيام التشريق . ولم يمح الإسلام هذا الاسم و إن غلّب عليه أيام النحر. وفى المعجمات أسباب مختلفة لتسمية التشريق هذه . فبعضهم يذهب إلى أنها تطلق لأن الضحايا تنحر بعد شروق الشمس؛ ويذهب آخرون إلى أنها سميت كذلك من تشريق لحم النحور أى تجفيفه . ومهما يكن السبب فى إطلاق آسم التشريق على هـذه الأيام فقد بقى هـذا الآسم لم يمحه الإسلام ؛ فما تزال كتب السيرة على آختلافها تذكر أن بيعـة العقبة الثانية وقعت فى أوسط أيام التشريق ؛ وقد وقعت هذه البيعة بعد ثلاثة عشر عاما من بعث الرسول، أى قبيل هجرة المسلمين الى يثرب .

وبيعة العقبة الثانيـة ، بل بيعتا العقبة الأولى والثانيـة ، عَلَم مضىء فى تاريخ الإسلام كغزوة بدر الكبرى . أمّا وكتب السيرة تُجمع على أنهما، أو كبراهما، وقعتا فى أيام التشريق فإنى أوثر أن أحتفظ بهذا الآسم، وأن أطلقه على أيام النحر فى منّى، وأن أجعله لذلك عنوان هذا الفصل من الكتاب .

أفضنا إذًا قبيل منتصف الليل من عرفات يُسعدنا النسيم الرقيـق ويضىء لنا ساهر السماوات ما حولنا ويبهر نورُ السيّارة الطريق . وبلغنا المشعر الحرام، فنزلنا وذكرنا الله عنده، ثم جمعنا جمارنا كى نرجم بها الصخرات بمنى . ورأيت على مقربة منّا أنوارا عرفت أنها ببعض المقاهى القريبة منّا، وأن الحجيج الذين أفاضوا أول الليل يقضون ليلهم بالعراء عندها ليكونوا على أبواب مِنّى قبيل الفجر . أمّا نحن فقد انتظرتنا سيّارتنا حتى أتممنا ذكر الله وجمع الجمار، فلما كنّا فى النصف الأخير من الليل أقلّتنا إلى منّى فكنّا على أبوابها قبيل الفجر .

ولمِنًى أبواب كالتى نعرفها فى الحضر ؛ فهى ليست بطحاء جرداء كعرفات ، وليست مسجدا قائما فى عزلة كالمشعر الحرام . إنما مِنًى قرية بها مبان ومنازل إلا يكن أكثرها عامرا فى غير أيام الحج فبعضها مملوك لفخذ من قريش يقيمون به طوال عامهم ، ويؤجرونه أيام الحج لمن يأوى إليه ، وبعضها مملوك لجماعة من أهل مكة يقيمون به أيام النحر أو يؤجرونه لمن شاء من الحجاج أن يستأجره .

وقابلنا عند أبواب مِنًى مخفر للشرطة وقفنا عنده ، وقدّم إليه سائقنا جواز مرورنا . فلما جاوزناه فى طريق فسيح تقوم المنازل على جانبيه قابلتنا صيحات عالية فيها ترتيل يسترعى السمع ؛ تلك صيحات الباعة الذين قضوا ليلهم فى انتظار الحجيج بعد إفاضتهم كى يعرضوا عليهم سلعهم من طعام وفاكهة ، ومن سُبَح وما إليها مما يتبرّك به قصّاد الأماكن المقدّسة . ومرّت السيّارة بنا خِلالَهم حتى وقفت عند جمرة العقبة الكبرى . هنالك نزلنا فرجمناها ثم عدنا الى منزلنا بمِنًى ، وقد آن لنا أن نتحلل التحلل الأصغر . على أنى آثرت بعد أن فكرت مليًّا أن أبقى محرما حتى أطوف وأسعى وأتحلل التحلل الأكبر . وسحبت من متاعى سجّادة صلاة فرشتها وألقيت بنفسى اليها ألتمس إغفاءةً تُعِدّنى لإتمام مناسكى . وما أحسب أحدا من الحجيج زار النوم تلك الليلة أجفانه إلا لِمَامًا ؛ فقد أقام الباعة يصيحون حتى ارتفعت الشمس فوق الجبال . ولعل الذين أووا إلى مضارب فى صحراء مِنًى لم يكونوا أسعد بالنوم حظًّا ، وإن كانوا عن صياح الباعة أكثر بعدا ؛ فقد نال أكثرهم إغفاءته بالمزدلفة ، فلما بلغوا مِنًى وأتموا شعيرة التحلل الأصغر كان النهار قد نشر فى الأرجاء نوره . وأنّى لإنسان أن ينام فى قبة يسرى الضوء فى فرجاتها ! وأنّى له أن ينام هذا اليوم يوم النحر والعيد الأكبر وقد بلغ مِنًى ليصلّى الفجر وليصلّى العيد وهو فى غبطته ونشاط نفسه لقضاء الفريضة فى عرفات وذكر الله عند المشعر الحرام ! .

ومرّ بى مضيفى كيا أُعدّ نفسى لنهبط إلى مكة نطوف ونسعى . وكان رجاؤنا أن ندرك ابن السعود فى طوافه وسعيه . وأقلّتنا السيّارة وانطلقت بنا على هُون

بين قوافل الإبل، فرأيت هذا الطريق من منًى إلى مكة لأول مرة فى ضوء النهار . ولم أستبن منـه كثيرا ونحن فى زحمـة من هبطوا يقصدون إلى ما نقصد إليـه من الطواف والسعى ، وإنْ حرص مضيفى على أن يذكر لى أنه طريق جديد شـقته الحكومة القائمة فى الجبال، وأقامت إلى جانب قسم طويل منـه سورا يمنع السيول أن تطغى عليه . ولم يطل بنـا السير حتى كنا على مقربة من مكة ؛ إذ ذاك آجتمع هذا الطريق بطريق الإبل، ولم يكن للسيارة بدّ من التمهل والوقوف أحيانا . فلما بلغنا قصر الملك لفت مضيفى نظرى الى الجبل القائم عن يميننا بين جبال عدّة وكأنه منها فى عزلة الناسك، وقال : هذا جبل النور . وصادف لَفْتُه نظرى وقوفَ السيارة لمرور قافلة أمامها ، فتوجّهت ببصرى إلى هـذا الجبل الذى آختاره النبىّ العربىّ ليتعبّد فوقه قبل أن يبعثه الله نبيّاً . توجهت ببصرى إليه فآسترعى كل آنتباهى بهذه العـزلة العجيبة التى تفرّد بها عمـا حوله من الجبال ، وبهـذه الآستقامة المخروطية فى آنطلاقه إلى السماء آستقامة تجعله أدنى إلى برج شاده الإنسان لغاية خاصة منـه الى جبل قائم بين عشرات من الجبال حوله ، لا يميزه عنها إلا الحادث الفـذّ الذى جعله القدر نصيبه ، حادث هبوط الوحى الأوّل على رسول الله فوقه .

ودخلنا مكة وقصد مضيفى إلى دار أحد معارفه لنتوضأ قبل أن نطوف ونسعى . وكانت الدار فى طريق يجاور المسعى؛ فلم يكن بدّ من أن نخترق صـفوف الساعين إليها . وأجلت بصرى أتفرّس فى وجوه هؤلاء وأتحرّى أمر هذا المكان الذى يؤدّى المؤمنون اليوم فيه مَنْسَكاً كان إخوانهم يؤدّونه فيـه منذ مئات وألوف من السنين خلت . ولقد كنت فى حاجة إلى الدقة فى تعرّفه ؛ فلم ترتسم منه لدىّ صورة حين سعيت فيه سعى العمرة قبيل الفجر أوّل ما حللت مكة، لأنى كنت فى شغل بالسعى والدعاء ؛ ولم أقف صبح الغـد من ذلك اليوم على كل ما أردت منـه . وألفيت وجوه الساعين فى هـذا الصباح من يوم النحر أكثر طمأنينة وأصواتهم فى الدعاء أدنى إلى السكينة، وكأنما شعروا بعد أن أتموا فرض الله بعرفة أنهم أدنى إليه، فدعاؤهم إياه أدنى أن يستجاب . ويحصرهم هذا المكان الظليل بسقفه المهلهل وبالمبانى

الرفيعة القائمة على جانبيه فى غير آنتظام رغم فخامة بعضها، فلا يرون ما كان يراه أسلافهم من زرقة السماء وفسيح الصحراء . وهم يهرولون أوّل سعيهم أثناءه ثم ينبعثون سائره بخُطًا مطمئنة، ولا يفترون أثناء ذلك عن ذكر الله ولا عن التلاوة والدعاء .

وآنعطفت وراء مضيفى فى زُقاق ضيق قذر متصل بالمسعى، ثم صعدنا بعد خطوات فيه درجا يشهد بأن الدور تقوم على ربوة قديمة . ودق مضيفى بابا فتحه أهله واستقبلونا بالتحية والترحيب رغم مجيئنا على غير آنتظار. وتناولت القهوة وتوضّأنا وصلّينا، ثم قصدنا إلى المسجد الحرام نطوف طواف الحج لنسعى من بعد ذلك سعيه. ودخلنا المسجد، فعلمنا أن الملك سبقنا إليه فطاف وسعى من بكرة الصباح. وألقيت بنظرى أوّل ما دخلت إلى ناحية الكعبة فألفيتها نصف عارية من كسوتها، وألفيت القسم الذى لا يزال مكسوًّا منها عليه ثياب بيض وُضعت قبيل يوم عرفة إيذانًا بإحرام البيت العتيق . واليوم، يوم عيد النحر، تنزع عن الكعبة ثياب العام الذى ودّعنا لتوضع مكانها ثياب العام الذى نستقبله . وأبدى عُرْيُها أحجار الجرانيت الأسود الذى بنيت منه دالّة على صلابة وقوة على الزمان. والناس يطوفون بها ومنهم من حل إحرامه فى منًى ومنهم من لا يزال محرما . وآنبسطت أشعّة شمس الصباح فى صحن المسجد الفسيح وأضاءت بنورها كل أرجائه . والموكّلون بإلباس الكعبة كسوتها ينزعون عنها الثياب البيض، ثياب الإحرام، وينزعون كسوة العام الماضى ليُسدلوا مكانها كسوة هذا العام . ويفرغ الناس من طوافهم فينحرفون إلى مقام ابراهيم وإلى حِجْر إسماعيل يصلّون فيهما، ثم يقصدون الى البناء القائم فوق زمزم يلتمسون عنده شربة من مياه بئر إسماعيل . أمّا نحن فقد يممنا زمزم منذ دخلنا المسجد، ودق مضيفى باب مقامها ففتحه لنا الموكلون بها، فتوضّأنا من مائها ولبسنا خِفَافًا وخرجنا نطوف بالكعبة . ولم يكن معى فى هذه المرة مطوّف أتلو من بعده ما يتلو من الأدعية . لذلك تركت نفسى على سجيتها تتوجه إلى الله كما أفهم أنا كيف يجب أن يتوجه الإنسان إلى الله . فإذا مررنا بالركن اليمانى سمّينا الله وكبّرنا وتلونا قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

وعدنا إلى تسمية الله وتكبيره قبالة الحجر الأسود، وانطلقنا بعـده نُتِم الطواف ونحن ندعو ونستغفر، والطائفون طواف الحج يسيرون سيرتنا يسمون الله كما نسميه ويكبّرونه كما نكبره ويتلون من الأدعية ما يلقيه المطوِّف عليهم أو ما تجيش به خواطرهم وما يريدون الاستعانة عليه بالله فى أمرهم وفى أمر من يحبون من ذويهم وأهلهم .

وأتممنا الطواف وصلّينا فى مقام إبراهيم وفى حجر إسماعيل، ثم آتحينا إلى فىء قِباب المسجد فجلسنا وتناولنا شربة من زمزم وصلّينا . وأقمت مكانى هنيهة محدِّقا ببيت الله وبالطائفين به وبالرُّكّع السجود . وإنى لكذلك إذ مرّت بخاطرى صورة الرســول الكريم عليه الســلام فى عُمْرة القضــاء . يومئذ ظنّت قريش به الظنون وحسبته وأصحابه فى عسرة وجهد أوهناهم وضعضعا من عزمهم . ألم يجيئوا ليعتمروا قبل عام من ذلك اليوم، فلما صدّتهم قريش عن مكة وحالت بينهم وبين البيت كفى محمدا أن يعقد معها عهد الحديبية وأن ينصرف إلى يثرب! ولولا العسرة والجهد لمـا فعل ولمـا آرتضى أن يؤجِّل عمرته وعمرة المسلمين عاما كاملا . ذلك ما خيِّل يومئذ إلى قريش . فلما آنقضى العام وأقبل المسلمون إلى مكة ومحمد على رأسهم وآنصرفت قريش عنها إلى الجبال المحيطة بها، أراد الرسول أن يريهم كيف وهموا فيما ظنوا من ضعف المسلمين ووهنهم . فلم يلبث حين دخل المسجد ونادى بنية الطواف أن أخرج ذراعه اليمنى من ردائه، وأن صاح بأصحابه : "رحم الله آمرأً أراهم اليوم من نفسه قوة!" ثم آستلم الركن عند الحجر الأسود وهرول وهرول أصحابه من ورائه حتى بلغ الركن اليمانى . هنالك مشى إلى الحجر الأسود مسبِّحا الله مكبِّرا إياه، ثم هرول من جديد وأصحـابه يهرولون حتى أتموا ثلاثة الأشواط الأولى ومشوا سـائر الأشواط السـبعة . ورأى المشركون من قريش كذب أوهامهم، إذ رأوا محمدا والألفين من المسلمين معـه أقوياء لم يصبهم نصب ولا لغوب . والمسلمون لا يزالون إلى اليوم يهرولون فى الثلاثة الأشواط الأولى اتبـاعا لسنّة الرســول، وإن لم يعرف أكثرهم حكمة هذه الهرولة، وإن لم يَدُرْ بخاطر أكثرهم ما يدل عليه هـذا المظهر من أن الإسلام دين بأس وقوة ونظام .

والمسلمون اليوم يطوفون لا يؤمّهم أحد ، وهم لذلك تختلف أثناء الطواف صفوفهم، لا يهرولون فى نظام ولا يتئد سيرهم فى نظام . وشتان فى ذلك ما بينهم وبين المسلمين الأوّلين . شتان بين ما أرى اليوم وما كان فى عمرة القضاء أو فى حجّة الوداع . كان محمد يؤمّ ألفين فى عمرة القضاء، ومائة ألف فى حجة الوداع ، يسيرون كلّهم سيره، ويتبعونه فى نظام أدق النظام، هرولة ومشيا وآستلاما للركن أو للحجر الأسود . وهذا النظام المتصل بروح الإسلام سبب من أسباب القوّة ، بل هو مصدرها وملاكُها . وهذه الإمامة يقوم بها رجل مطهّر يؤمن أصحابه بصدقه هى روح هذه القوّة وقِوامها . ولو عاد المسلمون إلى الإمامة والنظام فى الحج وفى غير الحج، ولو أنهم واءموا كما يوائم دينهم بين حرّية تامة أساسُها الإيمان بالله وحده، وإباءُ الخضوع لكل من سواه، وألّا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وهذا النظامِ الكفيلِ بحرية الجماعة وحياتها ، إذًا لآستطاعوا أن يؤدّوا فى العالم رسالة الإسلام كرّةً أخرى، ولسعد العالم بهذا الدين كما يجب أن يسعد به .

مرّت هذه الخواطر بنفسى وأنا فى مكانى من فىء المسجد، فانطلق ذهنى على أثرها يفكر فيما يجب أن تكون الإمامة والنظام فى العالم الإسلامى الحاضر ، وكيف يجب أن يكونا فى الطواف والسعى وسائر فرائض الحج ومناسكه . وإنى لفى تفكيرى إذ نبّهنى مضيفى الى القيام لنسعى . وأتممنا السعى بين جماعة الساعين يزحمنا هذا ويدفعنا ذلك ويعترضنا بين آن وآخر صفّ من النجديين شبكوا أيديهم بعضهم ببعض، فإذا صادفهم ساع صاحوا به : طريق ! طريق ! وآنطلقوا فى سعيهم ينادون ربهم بلغتهم : "رب آغفر. حتما تغفر. إن لم تغفر من ذا يغفر" . وذكر بعض أصحابى أنه سمعهم يقولون : "رب آغفر . حتما تغفر . إن لم تغفر جنتك تصفر" . ويمر بين هذه الصفوف كما يمر بين صفوف الطائفين بالبيت ما بين حين وحين جماعة يحملون مِحَفّةً عليها شيخ أو عجوز أو مريض لم تستطع قدماه حمله ليطوف ويسعى، فطاف به هؤلاء وسعوا، والمطوِّف يسير إلى جانبهم يدعو والمحمول فى المحفّة يدعو معه .

وكما يسعى الناس رجالا وفى المحفّات يسعى بعضهـم ممتطين جيادا أو مستقلّين السيّارات . وهؤلاء يرون أن لاجُناح عليهم وقد سعى رسـول الله فى عمرة القضاء راكبا بين الصفا والمروة ، وإن رأى بعض الفقهاء فى السعى على الأقـدام مزيدا فى المثوبة . وكان الشيخ عبد الله بن بليهد عالم نجد يسعى ممتطيا جوادا . ولقد كان يحدّثنا ساعة نزلنا معا من منًى أنه يريد السعى فى السيّارة لأنه لا يطيق السعى ماشيا ولايحب السعى فى محفّة . ولهذا العالم النجدىّ عذره ؛ فهو رجل عالم تقدّمت به السن فتضعضعت صحته بعد أن لوّح وجهه هواء الصحراء فى أسفاره بين نجد والحجاز ، فهو أشعث أغبر . وهو رجل ناحل الجسم ، يعلو عنقه الدقيق رأس عريض الجبين ، ذكىّ النظرة ، تلمع عيناه ببريق لم تطفئه السنون ويدل على حيلة واسـعة وبصيرة نافذة . وهذا الرجل خليفة محمد بن عبـد الوهاب الحنبلى مجـدّد المذهب فى نجد ، والذى خلع اسمـه على الوهابيين الذين اقتدوا به فى اتّبـاع ابن حنبل . وابن بليهد هو لذلك روح الحركة الوهّابية فى هذا الدور الحديث من أدوار حياتها ، وهو موضع التبجيل والاحترام من النجديين جميعا ، من مليكهم عبد العزيز بن سعود الى أصغر صغير فيهم . وهو مع ذلك وعلى ما رأيته ، من أشدّ الناس زهدا فى الدنيا وزخرفها وغرور متاعها .

وأتممنا السعى سبعا ، وآن لنا أن ننصرف وأن نتحلل التحلل الأكبر . على أنى وقفت هنيهة قبـل منصرفنا أمام مقهى من المقاهى القائمة وسـط المسعى وقلت لصاحبي : أفيليق أن تقوم أمثال هـذه المقاهى والحوانيت على حافة هـذا المكان المقدّس ؟ ! . قال : إنها ليست على حافتـه ، بل هى قائمة داخل حرمه . والذين أقاموها لم يتقّوا الله ولم يرعوا حقـه ، بل اعتدوا عليـه عدوانا مبينا . والعجب أن منهم من اجترح هذا العدوان تبركا بأرض هـذا المَنْسَك ، ناسيا أنه يؤثر بها نفسـه ويحرم منها ملايين المسلمين على تعاقب الأجيال .

ولقد ثارت نفسى حقا لمنظر هذه المقاهى وهذه الحوانيت التى تتجر فى السُّبَح والمنسوجات وما إليها ممـا يتبرك الحجيج به . وزاد نفسى ثورةً منظر صيارفة النقود

الذين يصكّون الآذان بصرير ريالاتهم السعودية إعلانا بها عن أنفسهم . ما لهذا المكان الذى يتوجه فيه الناس الى الله بالتوبة والآستغفار وصرف النقود والجلوس الى المقاهى وتبادل التجارة ! وما لهذا المكان الذى ينسى الناس فيه تجارة الحياة ليتصلوا فيه ببارئهم وهذه الحماقات من تجارة الحياة ! أليس من الخير أن تظل لهذا المكان حُرْمَتُه كاملة وأن تكون الحوانيت فى طريق غيره قريب منه ، إن لم يكن بدٌّ من أن ينصرف الناس بعد آستغفار ربهم إلى شرب القهوة وشراء السبحة والمكحلة و إلى صرف النقود للتبادل ! .

وليس ذلك كلّ ما يثير النفس لحال المسعى ؛ فقد بلغ من إهمال شأنه ، وهو منسك من مناسك المسلمين ، حدًّا بعيدا . وآجتياز بعض الطرق إياه ومرور الدوابّ والعربات والسيارات فى هذا الطريق بين الساعين بعضُ مظاهر هذا الإهمال . فإذا أنت تحدّثت فى ذلك قيل لك : وما عساك كنت تقول من عهد قريب وقبل أن ترعى الحكومة الحاضرة هذا المنسك بعنايتها ! . فقد كان حرما للكلاب تقيم فى ظلاله نهارها وليلها لا يُزعجها عن مرقدها أحد وكأنها حمام الحمى .

لقد كان المسعى إلى صدر الإسلام طريقا مستقيما يصل بين ربوتى الصفا والمروة متصلا بما حوله من فسيح الصحراء وهضابها وتطل عليه الجبال المحيطة بمكة ، أمّا منذ مئات من السنين فقد بلغ من طغيان الدور التى أقيمت فى حرمه أن آعوجّ اعوجاجا يحول دون رؤية الصفا من المروة أو رؤية المروة من الصفا ، كما حال سقفه بين الساعين وفسحة الجو وبهاء السماء ، وأحيلت كل من الربوتين درجا أحيطت جوانبه الثلاثة بالجدران ؛ أما أرضه فقد رصفت بالحجر رصفا غير منتظم .

تثور النفس لهذه الحال التى عليها المسعى . ولولا أن الناس يحسبونه كذلك منذ وجد ، ولولا أنهم إذ يرونه يشغلهم السعى عما سواه ، لقام بينهم من يدعوهم الى الثورة لإصلاحه ، ولإزالة هذا المساس بحرمة مكان يجب أن يحاط بكل تقديس وإجلال . ذلك كان شعورى ساعة منصرفى من المسعى . وما زال هذا

الشـعور يحز فى نفسى . فلعلنى أجد من يشاركنى فى دعوة المسلمين إلى إصـلاح منسك من شعائر الله، ولعلنى أجد من الحكومات الإسلامية استباقا للخيرات وإجابة لهذه الدعوة .

انصرفت من المســعى إلى الدار بمكة، فخلعت إحرامى ولبست العقال والعباءة العربية — أو المشلح كما يسمونها — وأقلتنى السيارة عائدة إلى منًى، ولا يكاد من يرانى يشك فى أنى عربى من أهــل البلاد . فلما حاذت السيارة حِراء آســتوقفت سائقها لأمتع النظر بهذا الجبل كرة أخرى ؛ فلقد شعرت له فى نفسى بهوى أى هوى، ووددت لو آستطعت أن أحيط خُبْرًا بكل ما جل أو دق من أمره .

وبلغنا منًى قرابة الظهر وأويت إلى الدار فيهـا . ودور منًى غاية فى البساطة، وليس بها من الأثاث إلا ما يحمـله الحاج من مكة إليها . لذلك كان سرير الميدان من نوع ما رأيت عنــد صاحبى "المسلمانى" بعرفات ذا فائدة بها أكبر الفائدة . وهذه الدور بعدُ معدودة لا تسع من الحجيج إلا عددا محدودا . وهى تقع بين سلسلتى الجبال المتحاذيتين المــارتين بمنى، ويمر من بينهما الطريق الرئيسى إلى مكة . فاذا كنت مقيما بإحداها رأيت من نافذة الدار المطلة على الطريق كل ما فى منًى من حياة أيام التشريق، ورأيت الدور المقابلة لدارك مطمئنة فى أحضان الجبل الشامخ عليها، ثم رأيت من النافذة الخلفيــة سلسلة الجبال الأخرى تحــدّ نظرك عن تبين ما وراءها كما تحدّه سلسلة الجبال الأولى .

وقد خلع أهل الحجاز على جبال منًى من بهاء الأساطير ما لا يكاد يترك حجرا منها إلا جعل له قصة من الأقاصيص المتصلة بحياة الأنبياء . فهذا الطريق الصاعد فى الجبل هنــاك والذى نراه قُبالتنا من نافذة الدار، هو مجز الكبش الذى ذبحه إبراهيم الخليل فداء لآبنــه إسماعيل . وهــذا الحجر الناتئ فى الجبل المقابل له هو طاقية النبى حين اختفى يوما من قريش أو غير قريش فلاذ بهذا المكان . والطاقية هى هذه الفجوة التى دخلت فيها رأس النبى إذ لاذ بحجر الجبل لآختفائه فيه . وهناك هناك فى موضع

لا يحدّده العرّافون من الجبل مكان أرادت الشياطين فيه أن تعبث بنبيّ من الأنبياء فانتهرها . وأكثر هذه الأساطير لا سند له فى كتب السيرة أو كتب التاريخ المحترمة . وأهل مكة يقرّون بذلك لمن سألهم عنه . والأذكياء منهم لا يسلّمون بصحة مايقصّونه . مع ذلك يتبرك أكثر الحجاج من الأقطار الإسلامية المختلفة بهذه المواضع ويُروون ظمأهم الروحى بمشاهدتها . ومالهم لا يفعلون وكثير من هذه الأساطير مدوّن فى كتب متأخرة أراد أصحابها بها سحر الجماهير السريعة إلى تصديق الخوارق ، والتى لا تعنى من الروايات إلا بما يتّفق مع هواها .

تقع دور منًى على جانبى الطريق الفسيح المؤدّى الى مكة . وتقوم فى هذا الطريق الصخرات الثلاث التى يحصبها الحجيج بجمارهم ، ولذلك صارت تسمى الجمار الثلاث . كبراها جمرة العقبة ، وعلى مقربة منها الجمرتان الوسطى والصغرى . وهذه الصخرات او الجمار هى اليوم قوائم من الحجر ناتئة من الأرض إلى ما فوق قامة الرجل الفارع الطول ، أحيط كل قائم منها بسور من الحجر يقف الناس عنده ويحصبون هذه الأحجار قضاء لمَنْسَك منًى . والجمار لاتلقَ يوم النحر ، إنما يحصب الحاجّ جمرة العقبة أوّل بلوغه من بعد الإفاضة من عرفات ليتحلل التحلل الأصغر . أمّا الجمرتان الوسطى والصغرى فترجمان فى اليومين التاليين ليوم النحر . فاذا تمّ هذا المنسك تم الحج ، وهبط الناس الى مكة ليعودوا منها بعد طواف الوداع الى أوطانهم أو ليذهبوا لزيارة مدينة الرسول . وأكثر الناس يهبطون الى مكة ثالث أيام النحر ويهبط بعضهم رابعها .

ويطلق أهل الحجاز على هذه الصخرات اسم الشياطين . فاذا أراد أحدهم أن يدلّك على منزل شخص معيّن من منًى قال : إنه إلى جانب الشيطان الكبير ، أو على مقربة من الشيطان الصغير ، أو بين شيطانين معينين من الثلاثة . وترجع هذه التسمية إلى ماترويه بعض الكتب عن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وأن الله بعث ملكاً يُريه مناسك الحج حين أمره أن يؤذّن فى الناس به . وطاف الملك معه بالبيت وسعى به بين الصفا والمروة ثم صعِد وإياه متجها إلى الجبل ؛ فلما كانا بمنى تبدّى

الشيطان لإبراهيم يُغويه فحذفه إبراهيم بالحصى فولّى هاربا ، ثم تبدّى له كرة أخرى فحذفه فولّى، ولما حذفه للمرّة الثالثة ولّى مدبرا ولم يعقّب . وتذهب الرواية إلى أن الشيطان تبدّى فى كل من هذه المرّات الثلاث عند صخرة من هذه الصخرات الثلاث، ولهذا أطلق أهل الحجاز آسم الشياطين عليها . وآنطلق الملك بإبراهيم من منًى الى المشعر الحرام وسار وإياه حتى بلغا عرفة . هنالك قال له : الآن عرفتَ مناسكك . وسمى هذا الجبل عرفة أو عرفات لأن إبراهيم عرف عنده مناسك حجّه .

الجمرات مناسك منًى . والناس يرجمونها لأنها تتقمص الشياطين فيما يقول أهل الحجاز . وهم لذلك يرجمونها ناقمين عليها أشدّ النقمة . ولقد بلغ من نقمة أحدهم أن قذفها بحذائه ؛ وأطلق بعضهم على أحدها « مسدّسه » آملا أن يقتل الشيطان بقذيفته . أمّا وهذه عقيدة الناس فيها فليس طبيعيا أن يلتمسوا البركة منها ؛ إنما يلتمسون البركة من منازل الأنبياء والقدّيسين فيما ترويه الكتب، كما أنهم يذكرون الله ويلتمسون مغفرته وثوابه فى مساجده .

وبمنى مسجدان يقعان فى سفح ثَبِير ، وأحدهما أقرب إلى طريق مكة من الآخر . فأمّا الأوّل فمسجد الكوثر . وهو مسجد صغير يقوم فى مكان يروى أن النبيّ عليه السلام كان به حين أوحى الله إليه سورة الكوثر . والناس يتبرّكون لذلك بهذا المسجد، ويؤمّه كثيرون من الزَّمْنَى يتمرّغون فى ترابه ثقةً منهم بأنه يشفيهم من أمراضهم . أمّا الآخر فمسجد الخَيْف، وهو أكبر مسجد بين مكة وعرفات بعد المسجد الحرام ، وكان أكبر من المسجد الحرام فى الصدر الأوّل من الإسلام .

ومسجد الخيف قديم العهد ، حتى لتروى بعض كتب التاريخ أن أربعين أو خمسة واربعين نبيًا صلّوا فيه . ويذكر بعضهم حديثا عن الرسول عليه السلام ان هذا المسجد هو الذى تبايعت فيه الأحزاب من العرب واليهود على قتال محمد والمسلمين بالمدينة، وأن الأحزاب خرجوا منه لغزوة الخَنْدَق . وبمسجد الخيف صلّى رسول الله فى حجة الوداع حين مقامه بمنًى أيام التشريق . ولا يزال المسلمون

يصلّون به يوم النحر وأيام الجمرات، فهو وحده الذى يتسع لعشرات الألوف منهم إذ يجتمعون للعبادة والتعارف .

وقلّ أن يصلّى بمسجد الخيف أحد فى غير أيام الحج حين تكون الصلاة به سنّة يجتمع لها ألوف المسلمين وعشرات ألوفهم . وهو لذلك البساطة كل البساطة فى عمارته التى لا تزيد على جدران أربعة تحيط بمساحة فسيحة من الأرض، تتوسّطها مبلغة — أو «مكبرية» — لصلاة الجمعة أو الجماعة؛ على أن الجانب المتصل منه بجدار القبلة مسقوف بقباب قائمة على عمد متينة من الحجر تتسع لما بين الألف والألفين من المصلين . وجدرانه الأربعة متينة البناء . وبابه الكبير معقود على عمد أربعة عقدا قويّا يبعث فى الذهن صورة الآثار القديمة . وللمسجد أبواب أخرى يسلك المصلّون أثناء الحج طريقهم إليها، لأن الباب الكبير لا يتسع وحده فى هذه الفرصة لألوفهم الكثيرة .

وإن بمنًى لمكانا يثير الذكرى ويستوقف النظر، وإن لم يكن فى فسحة مسجد الخيف ولم تكن له عمارة كعمارته . والمسلمون يؤمّون هذا المكان أوّل إفاضتهم من عرفات، وقلّ من يذكر منهم حين وقوفه أمامه أكثر من أنه منسك من مناسك الحج تؤدّى شعائره . ذلك مكان العقبة الكبرى حيث تقوم الجمرة التى يلقيها المسلمون ليتحللوا التحلل الأصغر . هذه الجمرة وعلى مقربة منها مسجد العقبة يثيران فى النفس ذكرى البيعتين اللتين تمّتا بين أهل يثْرِب ورسول الله، فمهّدتا لهجرته وكانتا بذلك مبدأ الفوز وأذانا من الله بأن يفتح لرسوله وينصره نصرا مبينا .

قلّ من المسلمين من يذكر هاتين البيعتين حين يلقى الجمرات على صخرة العقبة . أمّا أنا فوقفت عند العقبة وعدت إليها من بعدُ كما عدت إلى مسجد البيعة ووقفت عنده طويلا باحثا عن الشِّعب الذى احتمى الرسول والمسلمون من أهل المدينة به حين بايعوه . وإن من الواجب أن يذكر المسلمون يوم إفاضتهم وحين وقوفهم أمام جمرة العقبة هذا الموقف الفذّ فى التاريخ من مواقف النبىّ العربى؛ فهو من

المواقف التى وجّهت التـاريخ وجهة جديدة ، والتى وجّهت الإنسانيـة كلها الى النور والهدى .

لا يؤدّى الناس أية شعيرة من شعائر الحج بمنًى طول يوم النحر ولا صبح غداته ؛ إنما يتزاورون يهنّئ بعضهم بعضا بالعيد، ويفضى بعضهم الى بعض بخلجات نفسه . ويذهب كثيرون منهم فى ضحـوة الصباح من ثانى أيام النحر ليشتركوا فى تشريفة الملك آبن السعود، وفى تشريفة كل من ولديه سعود ولىّ عهده وفيصل نائب الملك بالحجاز ووزير خارجية المملكة العربية وأمير مكة .

ولقد ذهبت مع جماعة من أصحابى نحضر هذه التشريفة للملك وولديه . وتشريفة الملك تقع فى قصر أقيم له بمنًى منذ سنوات قليلة . وفى نعت هـذا المكان بالقصر شىء غير قليـل من التجوّز ؛ فهو أبسـط فى أثاثه وفى بنـائه من أن يسمى قصرا وإن آتسعت أرجاء غرفه . والذين يذهبون لحضور التشريفة ينتظرون قبل الدخول على الملك فى خيام أقيمت أمام القصر . وليس فى هذه الخيام دفاتر يكتب الناس أسماءهم فيها؛ ولا يسأل أحد من الجند ولا من حاشية الملك أحدا من الذين قصدوا إلى التشريفة عن آسمه أو جنسه أو أى شىء من أمره . ويقوم الناس من الخيام فوجا بعـد فوج دون آعتبار للطوائف أو لغير الطوائف . فاذا بلغـوا باب القصر ارتقوا أربع درجات تؤدّى الى باب هو باب الغرفة التى يستقبل الملك فيها . ويمرّ الناس به ويحيونه ، فيدعو ذوى المكانة منهم الى الجلوس فى المقاعد المجاورة له . ولم يكن يرضى أوّل ملكه على الحجاز عن تقبيـل أحد يده لما فى ذلك من مخالفة عقيدته الوهّابيـة ومن مخالفة قواعد الإباء والشمم العربية . على أن أهـل الحجاز أصرّوا على تقبيل هذه اليـد، فصار فى السنوات الأخيرة لا يحول بينهم وبينها . أمّا النجديّون فلا يزالون كما كانوا يهزّون يد عاهلهم ويسمّونه باسمه ويحيّونه بتحية الإسـلام فيقول له أحدهم : كيف حالك يا عبـد العزيز؟ ! فاذا أرادوا المبالغة فى التحية أطلقوا عليـه لقب "طويل العمر" . ويمرّ المهنئون بالملك ، ويشرب

المقتربون قهوته النجدية ، ويلق بعضهم أمامه القصائد والخطب ، كل ذلك فى بساطة بدوية تطأطئ أمامها الديمقراطية إكبارا وإجلالا .

أمّا سعود وفيصل فيستقبل كل منهما فى خيمة فسيحة لامقاعد فيها . ويجلس كل منهما على فراش بسيط . فإذا دعا أحدهما بعضَ ذوى المكانة للجلوس إلى جانبه جلسوا على البساط المفروش فى الخيمة .

خرجت بعد التشريفة أطوف بمِنًى لأرى بعض الصحاب وزملاء الحج . وخيمتا سعود وفيصل تتصلان بمضارب الخيام القائمة فى مسيل الوادى الفسيح بين جبلى منًى . وهذه المضارب أشدّ من مضارب عرفات تشابكا ، لأن بطحاء عرفات أكثر فسحة . وحبال الخيام تلتق وتشتبك بعضها ببعض حتى ليتعذّر على الإنسان أن يتنقل بينها دون مشقة . وما أدرى كيف يهتدى اليها أصحابها ولا كيف يُعلمونها . على أن لإخواننا المصريين من اليسر فى ذلك ما ليس لغيرهم ؛ فهم يتخذون مضاربهم الى جانب السبيل المصرى أو على مقربة منه ، فلا يتعذّر عليهم أن يجعلوا من هذا السبيل مناراً للاهتداء به .

والسبيل المصرى هو وحده الواحة الباسمة وسط هذه الجبال والرمال العابسة الجرداء . بنته مصر فى عهد الملك فؤاد الأوّل بناء أنيقا على الطراز العربى كبناء مساجد القاهرة أو دار الكتب المصرية . تراه من بعيد فيتعلّق به نظرك ، وتسير إليه فيلقاك سور محيط بحديقة فسيحة أمام البناء . تتخطى الباب فإذا أنت بين خضرة باسمة ونبات وزهر ، وإذا عن يمينك مجلس صفّت على بسطه وسائد يستند إليها الجالسون فيه . ويستقبل الموظفون المصريون كلّ مسلم قصد إلى السبيل فى أىّ من أيام العيد بكل إكرام وتجلّة ، هذا وإن وجد أولئك القاصدون سبيل مصر فى المياه الصالحة التى يشربونها به غاية ما يطمعون فيه .

دلفت بعد التشريفة إلى السبيل ، فكان لنفسى مسرّة أىّ مسرة . إنه فلذة من وطنى قامت فى هذه البقعة المقدّسة فتحدثتْ عن وطنى خير حديث . إنه مصر

تنتظر أبناءها الذين جاءوا ملبّين ربهم ليكون مثابتهم للقاء إخوانهم المسلمين ممن ينظرون إلى مصر نظرة تقـدير ومحبة وإخلاص . إنه المأوى لمن شاء أن يتخذ من الحج فرصة اجتماع للتحدُّث فى شؤون المسلمين كافة . كان به ساعة دخلته طائفة من بنى وطنى ومعهم مسلمون أحدهم هولندى وآخر صينى من أقصى الشرق و بين هذا وذاك من مختلف الأمم ألوان شــتّى . ولم يطل بى المقـام ولا الحديث حتى رأيتنا جميعا نحس إحساسا واحدا وتحركنا عاطفــة واحدة هى عاطفة الأُخوّة الإســلامية الصــادقة . فالهولندىّ الجالس إلى جانبى والمغربىّ الجالس قبالتى والجاوىّ الذى يجاورنى نحن جميعا عباد رب واحد لا إله إلا هو ، لا نعبـد إلا إياه ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دونه . فأرض الله أرضنا جميعا، وسماؤه سماؤنا جميعا، وما خلق جلّ شأنه فى السماوات والأرض هو لنـا جميعا ، والله جلّ شأنه يورث ذلك من يشاء من عباده الصالحين .

سمعنا جميعا فى خشوع وإنابة إلى قارئ يرتّل القرآن ترتيلا حسنا بصوت جميل . ثم تناول حديثنا الحج وشؤون المســلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . عنـد ذلك ذكرت قول رسول الله : ”لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه“ فازداد شعورى بإخاء المسلمين فى أقطار الأرض جميعا عمقا وقوة، وجعلت أنصت إلى حديث المجتمعين معى بهذا السبيل المصرى وأنا أشدّ تعلقا بهم ومودّة لهم .

وتركت السبيل أبتغى زيارة بعض معارفى فى الخيام المتصلة به . وبعـد لأى فى السير بين خيام يقصر الطرف دونها ألفيت أصحابى جلوسا بها تحت سقوف واطئة يتلظَّوْن بحرّ الشمس وما نزال فى الشتاء . تُرى ما حال أمثالهم إذا استدارت أشهر الحج إلى أيام القيظ وارسلت الشـمس من أشعتها شــواظًا ولهبا ! أوَلَا يجمُل بأهل البلاد وبحكومتها أن يقيموا بدل الخيام مساكن قليلة النفقة يجد الحاج فيها من طمأنينة الحياة ما لا يجده فى الخيام ؟ . وأفضيت بهـذا السؤال إلى بعضهم؛ فعجب منه وظن فيـه تيسيرا لمشقة الحج يذهب بالكثير من ثوابه ، لأن الأجر على

قدر المشقة . وعجبت لما قال صاحبي وسألته : أفلا يشجّع التيسير الناس على أداء الفريضة فيزداد عدد الذين يؤدّونها و ينالون ثوابها آلافا مؤلفة ! .

وأويت إلى الدار ممتلئ القلب بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه " ، وشغل ذهنى أمر المنازل فى منًى حين الحج . أوَ ليس حقًّا على الذين آتاهم الله من فضله أن يعملوا لمزيد من الطمأنينة لإخوانهم الذين يحجّون البيت ، كما يفكرون فى طمأنينة أنفسهم ! لقد كان النبي وأصحابه يقيمون بالخيام أيام مِنًى لأن الخيام كانت منازل ذلك العصر فى شبه الجزيرة ، فلم يكن أحد من أهلها ليضيق بالخيام ذرعا . أمّا اليوم فهذا عاهل شبه الجزيرة ابن السعود ، وهو بدوى شديد الولع بالبداوة ، وهؤلاء ابناؤه وأهله و وزراؤه وذوو اليسار من عشيرته ، يقيمون فى منى بمنازل توفّر من الطمأنينة مالا توفّر الخيام ، وإن كانت البساطة كلّ البساطة ولم يكن فيها من الترف شيء . فمن الحق علينا لكمال إيماننا أن نوفّر مثل هذه الطمأنينة لكل من نستطيع أن نوفّرها لهم ممن يفرِضون الحج ويجيئون اليه من أقصى الأرض .

عدتُ غداة يوم النحر من رجم الجمرة الوسطى ومعى صاحب يسألنى عن رجم الجمار ما حكمته وأية مثوبة فيه؟ وتمثّل لى وأنا أسمع لقوله صاحب عَرَفات إذ يقول : إن مناسك الحج فروض نؤدّيها ولا نعرف حكمتها ؛ كما ذكرت ما يقوله أهل الحجاز من أنهم إنما يرجمون الشيطان بالجمرات حتى لا يعود فيوسوس إليهم ليردّهم إلى المعصية والإثم . لكن صاحبي لا يقتنع بهذا القول ولا بذاك ، و إنما يريد أن يعرف رأى المجدّدين من مفكرى المسلمين . قلت له : إن هؤلاء العلماء يرون فى إلقاء الجمار إعلانَ المشيئة على طرح ما فى النفس من زيف ، وصدقَ الإرادة لدوام طهرها بعد أن غفر الله بالحج ماضى حَوْباتها ، و إشهادَ ملأ المسلمين على ذلك كله . قال صاحبي : " هذا كلام أدنى إلى تصوّر العقل ، و إن يكن كلام أهل الحجاز أكثر اتفاقا مع ما يقصّه الرواة الأقدمون فى بطون الكتب ، لكنى أحسب حكمة الله أبلغ من هذا ومن ذاك " .

وتداولنا الحديث فى الأمر، وانتهينا الى رأى لعله أكثر اتفاقا مع ما جاء فى القرآن من حكمة الحج. فأول اجتماع للمسلمين فى الحج بعرفات . وهم يومئذ يجتمعون مُحرمين ملبّين مسـتغفرين ربهم مستمعين إلى خطاب أمير المؤمنين أو من ينوب عنـه . وفى ذلك كله ما يشغلهم عن التعارف والتشاور وشهود المنفعة المشتركة التى تربطهم بعضهم ببعض . لذلك وجب عليهم، متى أفاضوا من عرفات ونزلوا مِنًى، أن يجتمعوا وأن يتعارفوا وأن يشهدوا منافع لهم. واجتماع ألوفهم المؤلَّفة ساعات معدودة لا يحقق هذا الغرض . لذلك فُرضت أيام النحر الثلاثة ليُحسنوا التعارف والتشاور وشهود المنافع . ولإتمام ذلك بما يتفق وروح الإسلام وجلالَ موقف الحج سُنَّت لهم مناسك يؤدّونها إلى الله لتظلّ نفوسهم نقيّة وأرواحهم طاهرة . وأى مَنْسَك خيرٌ من أن يشهدوا العقبة التى شهدها الرسول عليـه الصلاة والسلام، وأن يُلقوا بسواعدهم جمرات يُعلنون بإلقائهـا أنهم على عهده فى بيعة العقبـة، ينفع بعضهم بعضا ويذود بعضهم عن عقيدة بعض ، ويكفل الكل بذلك حريّة العقيدة الإسلاميـة وحرية الدعوة اليها، ويُشهدون على أنفسهم إذ يُلقونها أنهم على استعداد لإلقاء مثلها فى وجه عدوّهم اذا حاول فتنتهم عن دينهم أو حاول إخضاعهم وقهرهم .

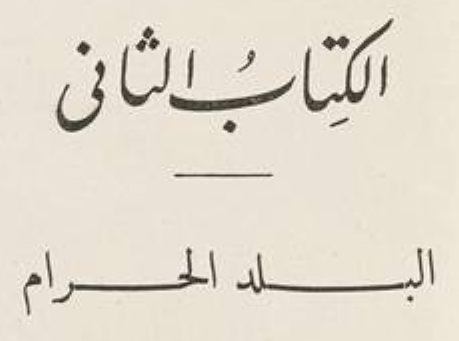
لعلّ هذا الرأى أدنى من غيره إلى روح الإسلام وحكمة الله فيه . فهذا الدِّين كله البأس والقوة على الحياة، وكله النظام الذى يضاعف هذه القوة أضعافا مضاعفة. ولقد جمع الإسلام بين النظام والحريّة ما لم يجمع بينهما دين غيره . هو يصل بالحريّة إلى غاية حدودها ، وبالنظام إلى غاية حدوده؛ فلا عبـادة إلا لله، والاميرُ ورجل البادية سواسية فى التزام حدود الله . ومن يتعدّ منهم حدود الله فقد ارتكب إثما وبهتانا عظيما . هم فى هذا سواء وإن تفاوتوا فى الثروة وفى الجاه وفى كل مظاهر هذه الحياة الدنيا . والحريّة أعزّ مايحب الإنسان لنفسه، ويجب أن تكون أعزّ مايحب لأخيه إذا أراد أن يكمل إيمانه . وحُريّةُ الفرد مِلاَكُها قوة الجمـاعة . ولا قوة لجماعة إلا بالنظام يبلغ من دقّتـه أن يكون كنظام جسم الفرد فى تآلف ذرّاته وفى اتّسـاق عملها جميعا تمام الاتّساق . كلّ اضطراب فى هذا الاتساق يُفسد حياة الفرد ويجعله

عُرضة للأمراض والعلل . وكل اضطراب فى نظام الجماعة يُضعفها ويجعلها عُرضة لتسلُّط الغير عليها ولتحكُّمه فيها .

ومظهر النظام فى الإسلام بالغٌ غاية الدقة من غير أن يجنى مع ذلك على الحرية أو أن يمسّها . وهو يقوم على أساس من المساواة الصحيحة والتعاون الصادق . ذلك شأنه فى أركان الإسلام جميعا : فى صلاة الجماعة ، وفى الصوم ، وفى الحج . ومظهره فى الحج أوضح جلالًا وأعمق فى النفس أثرا . واجتماع المسلمين بمنًى وإلقاؤهم الجمرات ختامُ شعائر الحج بعد الوقوف بعرفة والطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة . أمّا وغايةُ الحج اشتراك المسلمين من أقطار الأرض فى التفاهم على منافعهم واشتراكُهم فى ذكر الله ، فيجب لنجاح هذه الغاية أن يبلغُ نظامهم أثناء الحج غاية الدقة ، ويجب لذلك أن يكون إلقاء الجمرات والتعارف والتشاور خيرًا مما هى اليوم نظاما .

والمسلمون يشعرون اليوم بواجبهم فى تحقيق هذه الغاية أكثر مما كانوا يشعرون به من قبل . دعا الشباب العربىّ السعودى ذوى المكانة من الذين جاءوا يؤدُّون فريضة الحج من أهل الأمم المختلفة الى اجتماع بمنًى للتعارف والتشاور . وقد اجتمعنا فى الموعد المضروب ، وجاء مجلسى بين هندىّ وتونسىّ . وبادل الداعون ضيوفَهم التحيّات ، وأحدثوا بينهم من التعارف ما يُستطاع إحداثه فى مثل هذه الحفلة ، ثم دعوا بعضهم ليتحدّثوا اليهم . وكم تمنّيت لو كان بين من يؤدّون فريضة الحج من أهل المكانة والرأى والكلمة المسموعة فى بلادهم من يحضُر مثل هذا الاجتماع ، لتتم حكمة الحج ، ولتكون مكة مقرًّا لعصبة الأمم الإسلامية تسمع كلمة أهلها ويكون لهم فى العالم رأى معدود . لكن ذوى الكلمة المسموعة ممن حضروا لم يكونوا يمثّلون من العالم الإسلامى إلّا أقلّه ، ولم يكونوا يقصدون باجتماعهم الى غاية وراء الاجتماع . لذلك ضُعف الرجاء فى أثر ما ألقوا فى هذا الاجتماع من أقوال لم تتعدَّ الدعوة العامة إلى إخاء المسلمين وتحابّهم . ولو اجتمع ذوو الكلمة المسموعة لغاية يريدون تحقيقها لكان لاجتماعهم أثر يدوّى فى العالم كله .

أزمعت الانصراف عن منًى عصر اليوم الثالث من أيام النحر، ومررنا بالجمرات فرجمناها، ثم أقلتنا السيّارة تؤمّ مكة . واسترعى "حِراء" نظرنا ساعة مررنا به، وأذكرني تحنُّثَ النبيّ العربيّ فوقه ونزول أوّل الوحي وأول الرسالة عليه بعد سنوات من تحنّثه . فلما أويت الى الدار واشتملني مُخْدَعي بها جعلت أفكر : لقد أتمّ الله لي فريضة الحج، وهأنذا الآن بمكة مسقط رأس محمد، أفأُغادرها إلى المدينة لأزور قبره ثم أعود إلى وطني ؟ ! . وأطرقتُ هنيهةً إذ تمثّـل لي حِرَاء ، وامتثلت محمدا فوقه في عزلته، ثم امتثلته يوم الوحي الأوّل عائدًا إلى خديجة يقول : "زمّلوني زمّلوني". ولمّـا تمثّل لي في حياته كلها آليت على نفسي أن أبقى لأسير حيث سار، ولأتابع خطواته قبل هجرته من مكة و بعد عوده اليها فاتحا ؛ علِّي أتزوّد من ذلك بما ينفعني قبل أوبتي إلى قومي؛ فاذا عدت اليهم عدتُ وفي يدي قبضة من أثر الرسول .


الكتاب الثانى
البلد الحرام

مكة الحديثة

أشرت لِماماً الى ما رأيت بمكة أول نزولى بها، وذكرت دار مُضيفى ودار وزير المالية وقصر الملك وصورة عمارتها . ولقد حاولت أن أجد فيها، وفى المنازل التى دُعيت أثناء مقامى بمكة لزيارتها، والمنازل التى نزلت بها بضواحى مكة ، ماأستشفّ منه روح عصرنا الحاضر فى العمارة أوفى نظام الحياة، فعدتُ من محاولتى مقتنعا بأن مكة القديمة الخالدة ماتزال بريئة من هذا الروح ، وإن لم يبق فيها كذلك شيء من الروح العربىّ القديم مما تحدّثنا به تواريخ مكة من عدّة قرون . وغاية مايستشفّه الإنسان من خلال الحياة فى أمّ القُرى اليوم، فذلك أن شبابها يصبو بكل وجدانه إلى الحياة الحديثة، وأن هذه الصبوة لم تقم بنفسه إلا بعد أن انفصل الحجاز عن دولة الخلافة بالثورة التى أعلنها الحسين بن علىّ، والتى يسمّونها عهد النهضة . لذلك لم يبلغ الشباب من أمانيهم شيئا مذكورا ، بل بقيت مكة تمثّل حياتُها خليطا من حياة البلاد الإسلامية المختلفة فى المراتب البُدائية من هذه الحياة . ولا عجب! فأهلها اليوم هم على الحقيقة خليط من أبناء أهل البلاد الإسلاميّة قصدوا المدينة المقدّسة حاجّين، ثم جذبتهم قدسيتها فأقاموا بها، ومنهم من تيسّرت له أسباب العيش، ومنهم من ظلّوا يعتمدون فى عيشهم على الصدقات وعلى معاونة الحاجّين فى أداء الشعائر .

وصَبْوة شباب مكة للحياة الحديثة قويّة آخذة بنفوسهم تدفعهم إلى تَتَبُّع مايكتب ويقال عن هذه الحياة والى التعلّق بما يظنّونه من صورها وأمثالها . ويبلُغ اندفاع بعضهم فى هذه السبيل حدًّا يكاد ينكره ماضى البلد الحرام فى العصور القريبة، بل يكاد ينكره حاضره ممثّلا فى الجيل الذى تخطّى الشباب إلى الكهولة. فهذا الجيل ما يزال يفكر تفكيرَ الآباء : يبالغ فى تصوير الإسلام لله مبالغة تعدِم معها الإرادة الإنسانية وينعدم معها الذوق الإنسانى، ولا يرى فى غير ما قاله السّلف شيئا يُحترم

أو يعار التفاتة ؛ بل يرى فى العلوم والفنون الحديثة أفانين من لهو الخيال لا تتصل بالحق أىّ اتصال جدير بأن يثير عناية الذهن .

كان الشيخ حافظ وهبة — ممثّل الحكومة العربيّة السعوديّة لدى بلاط لندن الآن — مديرا للتعليم بالحجاز الى سنة ١٩٣٠ . وقد أراد أن يُصلح التعليم بإدخال علوم الجغرافيا والرسم واللغة الأجنبيّة فى المدارس الابتدائيّة الموجودة دون سواها بالحجاز . لكن العلماء وكبار المشايخ من أهل نجد مالبثوا حين سمعوا بأمر هذا الإصلاح أن ثارت ثائرتهم واحتجّوا لدى الملك ابن السعود على هذا البِدْع المنكر، واتصل الشيخ حافظ بهم وحاول إقناعهم بأن لا بدعةَ فيما صنع . فأجابوه بأنهم أبدوا للإمام عبد العزيز الحجج التى لاتُنْقَض عما يترتّب على هذه العلوم من فساد . فالرسم هو التصوير وهو محرّم قطعا . واللغات ذريعة للوقوف على عقائد الكفّار وعلومهم الفاسدة؛ وفى ذلك الخطر على الأخلاق والعقائد. وأمّا الجغرافيا ففيها كُرَوِيّة الأرض ودَوَرانها والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف. ولقد استطاع الشيخ حافظ أن يتغلّب على عناد كبار المشايخ، لامن طريق إقناعهم، ولكن من طريق تأييد الملك إيّاه .

وهذا الذى يقول به علماء نَجْد هو ما يقول به أهل الحجاز ممّن سِوَى الشباب. ولا عجب فى ذلك وقد بقى التعليم مهملا فى بلاد العرب الى عصرنا الحاضر . يقول الشيخ حافظ فى كتابه (جزيرة العرب فى القرن العشرين) : « الأُميّة تكاد تكون سائدة فى جزيرة العرب. وربما كانت أول محاولة لتثقيف العقول والقضاء على شئ من الأميّة كانت من جانب السيد محمد علىّ زين الرِّضا فى الحجاز؛ فإنه فى سنة ١٣٢٦ هجريّة وما بعدها قام بإنشاء مدرستين، إحداهما فى جُدّة والأخرى فى مكة . ومع ما وُضع فى طريقه من العقبات وما أُحيط به مشروعه من الشكوك من الأتراك والأشراف فإن هذه المدارس قد قامت بنصيب وافر فى الحجاز. وربما كانت الشبيبة الموجودة فى الحجاز اليوم هى من غرس هذه المدارس . وهذه المدارس ، وإن

كانت تسير فى التعليم على الطريقة القديمة العتيقة التى تعتمد على الحفظ لا على التفكير، كانت المدارس الوحيدة فى الحجاز . على أننا لا ننسى هنا بعض المعاهد التى أسسها الهنود فى مكة والمدينة فإنها قامت أيضا بنصيب يذكر . وكل ما كان فى الحجاز هو حلقات الدروس فى المسجد الحرام على نظام التدريس فى الأزهر قديما . ولم يكن العلماء يُلمّون إلا ببعض العلوم الشرعيّة واللغوية » .

هذه الشبيبة التى يذكرها الشيخ حافظ هى التى تصبو بوجدانها للحياة الحديثة ويتعلّق خيالها بما تظنه صورها وأمثالها . وشبيبةٌ ذلك مبلغُها من العلم لاتستطيع أن تُحدث فى حياة بلد مقدّس كمكة انقلابا فى نوع العيش أو فى تفكير أهله . لذلك ما يزال الأمر فى التفكير الى الأقدمين ، وإن كان النشاطُ العملى لهذه الشبيبة المتحركة المترامية المطامع والآمال . والتفكير هو الذى يصوغ الأشياء على غِراره . فبيتك الذى تقيم به، وغرفتك التى تكتب فيها، ومكتبك وتنظيم الكتب عليه ، كل ذلك مظهر من مظاهر تفكيرك . وتخطيطُ المدن والعناية بالميادين فيها وتنظيم عمارتها هو كذلك مظهر لتفكير أهل المدينة . أمّا وتفكير أهل مكة ما يزال محافظا على قديم لا هو بالعربىّ الصرف ولا هو بالإسلامى الصرف، ولكنه خليط مما قدمنا، فإن عمارتها وطرقها ومسالكها هى كذلك من هذا النوع، لمّا يَغْزُها التغيّرُ ولمّا تعمل فيها أيدى التجديد والبناء .

ولو جازت المقارنة لعدتُ الى كلمة الشيخ حافظ من أن التعليم فى الحجاز كان على نظام التدريس فى الأزهر قديما . وحسبُك أن ترجع الى كتاب من كتب الأزهر القديمة والى نظام وضعه لترى صورة الحياة بمكة حتى فى التنظيم والعمارة . فأنت ترى المتن فى كتب الأزهر منثورا خلال الشرح محاطا بالحاشية وعليه الى جانب ذلك التقرير، بما يجعل هذا وذاك متداخلا بعضه فى بعض وما لايدع فى فراغ الصحيفة بياضا قط . القراءة فى هذه الكتب تطبَع التفكير بطابع صورتها، وتطبع الحياة بطابع هذه الصورة كذلك. وهذا مالا تزال تراه بمكة، وما كنت تراه الى عصر قريب جدّا

فى الأحياء المحيطة بالأزهر . وقد أزيل جانب عظيم من هذه الأحياء فى العهد الأخير من حياة مصر . لكنك إذ ترى ما بقى من آثار حين تخترق الأحياء التى ما تزال باقية على حالها كحى الكحكيين وما جاوره ، ترى فيها الأثر الواضح لهذا النوع من التفكير .

وإنما حدث هذا التجديد بالقاهرة وببعض مدن الشرق الإسلامى فى عهود متأخرة . أما إلى أوائل هذا القرن العشرين فقد كانت هذه المدن مخططة تخطيط مكة اليوم ، ويسودها تفكير كتفكير كهول مكة فى هذا الزمن الحاضر ؛ بل لقد كانت مكة أسبق الى التقدم فى كثير من العصور فى عمارتها وفى لون الحياة عند أهلها . هى من أقدم مدن الأرض برواية التاريخ الإسلامى . وقد ذكر أبو التاريخ "هيرودوتس" بيتها الذى تعظمه العرب . وهيرودوتس عاش بين سنة ٤٨٤ وسنة ٤٢٥ قبل الميلاد ، أى منذ أكثر من ألفين وأربعمائة سنة . لكن بيتها المعظم أحاطها بجلال جعل منها مثابة الرائح والغادى فى كل العصور ، وجعل أحدث ألوان التفكير والحياة ترد إليها ، لا على أنها أجنبية عنها غازية إياها ، بل على أنها مقبلة فى إجلال وإكبار الى دار السلام مقر الحقيقة فى أسمى صورها . وأكبر ظنى أن يكون ذلك شأنها من حياتنا الحديثة فى زمن غير بعيد .

ولقد زارها الرحالة السويسرى "بورخارت" الذى أعلن إسلامه وتسمى باسم الحاج عبد الله فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى — سنة ١٨١٥ — وكتب عنها طويلا فى مؤلفه (جولات فى بلاد العرب) . ومراجعة ما كتبه تؤيد أنها كانت موضع تجديد دائم يتم فى رفق وعلى هون ، ولا تبدو فيه مظاهر الثورة التى لا تتفق ومهابة البلد الحرام ووقاره . يقول "بورخارت" فى وصفه ما ترجمته : «الميدان العام الوحيد فى قلب البلد هو مربع المسجد الفسيح . وليس ثمة أشجار أو حدائق تبهج النظر ، وإنما تدب الحياة الى مكة أثناء الحج بما يملأ الحوانيت الكثيرة المنتشرة فى كل أنحائها من ألوان التجارة . وفيما خلا أربعة منازل أو خمسة يملكها الشريف ، ومدرستين

صارتا مخازن للغلال، والمسجد بما حوله من المبانى والمدارس، فلا تفخر لمكة بأية عمائر عامة تقوم بها . وربما كان نقصها فى هذه الناحية أشد وضوحا من مثله فى أى بلد شرقى آخر فى حجمها . فليس بها "خانات" لنزول السائحين بها أو إيداع البضائع إياها، ولا ترى فيها قصورًا للعظماء، ولا مساجد كالتى تزين كلّ حى من أحياء بلاد الشرق الأخرى . وقد يكون السرّ فى عدم وجود عمارات فخمة بها تقديس أهلها معبدهم تقديسا يحول دون إقامة بناء يُخْشَى أن ينافسه .

« وطريقة البناء عندهم شبيهة بطريقة البناء فى جُدّة، مضافا إليها نوافذ مطلّة على الطريق يبرز الكثير منها من الجدار ويحيط به إطار مُتْقَن الحفر أو دقيق التلوين . وتتدلّى أمام النوافذ أستار من عيدان دقيقة تمنع الذُّباب والبعوض وتُدخل الهواء النقىّ . ولكل بيت سطح مرصوف بالحجر فى ميل لطيف تنزلق عليه مياه المطر الى ميازيب تلقى بها فى الطريق . فأمطار مكة ليست منتظمة السيلان، ولا خير لذلك فى جمع مياهها فى خزّانات، كما يفعلون فى سوريا . وتُحْجَب الأسطُح عن الأبصار بجُدُر قصيرة . ذلك لأنهم فى الشرق يرون الظهور على السطح غير لائق بالرجل حتى لا يتّهم بالنظر الى النساء فى الدور المجاورة . فالنساء يقضين كثيرا من الوقت على الأسطُح مشتغلات بأعمال منزليّة شتّى كتنشيف الغلال أو تجفيف الملابس وما إلى ذلك .

« وفيما خلا منازل السَّراة وذوى الرياسة تبنى منازل أهل مكة لراحة النازلين بها، فتقسم الى شُقَق فى كلّ منها غرفة للجلوس ومطبخ لتكون صالحة لنزول الحاجّين بها .

« والطرق كلها غير مرصوفة، ولذلك يشتد أذى الرمل والتراب صيفًا، كما يشتد أذى الوحل فى الفصل المطير، إذ يتعذّر المرور بها بعد نزول المطر، ويبقى ذلك شأنها حتى يجفّ الماء منها . وربما عُزِى إقفار مكة من المبانى القديمة الى انهمار السيول المخربة، فهى تنهمر بقوّة وغزارة وإن كانت أقصر أمدا من مثلها فى البلاد الحارّة

الأخرى . وقد أصاب المسجدَ نفسه من هذه الأمطار ماقضى بإصلاحه غير مرّة على عهود سلاطين مختلفين ، حتى ليسمّى لذلك بنـاء حديثا . أمّا المنازل فلا أحسب أقدمها ترجع عمارته الى أكثر من أربعـة قرون . من ثمّ لم تكن مكة موضع بحث السائح عن ألوان العمارة القديمة التى تسترعى النظر ، أو عن بقايا المبانى العربية الجميلة مما يثير الإعجاب فى سوريا ومصر وبلاد المغرب وأسبانيا . وإن أصغر مدن سوريا ومصر لتسبق فى هذا المضمار مكة القديمة الذائعة الصيت .

« ومكة متأخّرة من حيث نظام الشرطة المعـروف فى مدن الشرق . طرقها حالكة الظلام فى الليل لايضاء بها مصباح . وأحياؤها لا أبواب لهـا ؛ فهى بذلك تختلف عن أكثر بلاد الشرق إذ يُقْفَل كل حىّ فيها بعناية تامة كل ليلة عقب الصلاة الأخيرة . وتُلْقَى بقايا منازلهـا فى الطرقات لتصير ترابا أو وحلاً يختلط بمـا فيها على اختلاف فصول السنة .

« والمـاء ، وهو أهمّ ما يطلب الآسيويّون وموضع سؤالهم الأوّل ، ليس خيرا فى مكة منه فى جُدّة . فالصهاريج التى تجمع مياه المطر قليلة جدّا ، ومياه الآبار غير صالحة للشرب ، وإنْ شَرِبتها فى موسم الحج طبقات الحجاج الدنيا . وبئر زمزم المشهورة بالمسجد الحرام تكفى بالفعل حاجات البلد ؛ لكن مياهها عسيرة الهضم غير مقبولة الطعم على قداستها . مع ذلك تمنع الطبقات الفقيرة من أن تنال منها بغيتها . وخير ماء بمكة هو المجلوب من عرفات على ست ساعات أو سبع من البلد الحرام . وهو مجلوب فى مجَارٍ مبنية بالحجر لا تنظّف . ولقد سمعت أن لها اليوم خمسين سنة لم تمسّها يد التطهير ؛ وهذا ماء عين زُبَيْدة » .

هـذا الوصف يرسم أمام الذهن صورة بلد شرقىّ فى أوائل هذا القرن ، ويدلّ بذلك على أن مكة كانت دائمة التطوّر فى حياتهـا إلى ما تتطوّر اليـه المدن الإسلاميّة الأخرى . وما يذكره الشيخ حافظ وهبة من تفشّى الجهل بها ، وما يصوّره " بورخارت " منهـا منذ قرن وربع قرن ، لا يردّها عن مصافّ البلاد الشرقيـة

المتقدمة . على أن طابَعها الخاص يجعل تطوّرها غير متأثر بعقليّة أهلها أو خاضع لتفكير ذاتى نستطيع أن نسميه التفكير العربىّ ، أو التفكير المكىّ .

فمكة اليوم ليست بلدا عربيًّا ، ولم تكن بلدًا عربيًّا منذ زمان طويل مضى . إنما هى كعبة المسلمين ، فهى بلد الإسلام على آختلاف أجناس أهله ولغاتهم . وأنت تراها كذلك اليوم ، وكذلك رآها " البتانونى " ورآها "بورخارت" قبله ، كما رآها كذلك كل الذين زاروها فى حِقَبِ الزمن المختلفة . وأنت إذا ذكرت أن المُلْك لم يبق عربيًّا صرفًا بعد الأمويين ، بل دخلت العُجمة بِطَانته منذ العباسيّين ، وتقلّبت عليه من هذه العجمة الأشكال والألوان ، أدركت السر فى أن يستدرج بلدُ المسلمين جميعًا هذه الأشكال والألوان اليه . فإذا علمت أن أغنياء المسلمين من مختلف الأصقاع يُجْرُون الصدقات والأعطيات على كثيرين ممن يقيمون بمكة ، وأن منهم من يُجريها على قوم بالذات من المغرب أو من الجاوة أو من الهند أو الأتراك أو الأفغان أو التكارنة ، لم يبق لديك موضع لعجب أن تجمع مكة شتيتا من هؤلاء جميعا ، ترفع الأقدارُ بعضهم الى مكان الرياسة ، وتمسك آخرين عن مجرى الأرزاق ليعيشوا من حسنات المسلمين .

خرج المُلْك من مكة منذ فتحها النبىّ العربىّ ، ولم يعد بعد ذلك اليها ، وإن بقيت عاصمة الحجاز من عهد الأمويين . فقد استأثرت المدينة بالسلطان من يوم فتح الرسول مكة إلى أن انتهى عهد الخلفاء الراشدين ، ثم آنتقل الملك من بعد ذلك الى دمشق وإلى بغداد وإلى القاهرة وإلى الآستانة ، واتصلت الخلافة بالملك فى هذه البلاد جميعا . أمّا البلد الأمين فقد انحلّت عنه السلطة الزمنيّة وإن بقى له بالبيت الحرام كلّ الجلال الروحىّ . ولمّا قام الحسين بن علىّ الهاشمى فأعلن الثورة على الأتراك وانضم إلى الحلفاء فى سنة ١٩١٥ ، حاول أن يجعل من مكة عاصمة العرب لا عاصمة الحجاز وحده ، فكان هذا بدء الخلاف بينه وبين ابن السعود فى نجد ، وكان المقدّمةَ التى انتهت إلى جلاء الحسين وأبنائه عن الحجاز وآستئثار آل سعود بأمره . وكذلك عادت مكة عاصمة الحجاز وحده كما كانت منذ زمن الأمويّين .

وكانت مكة على حِقَب العصور ميدان صِدام بين المذاهب الإسلاميّة التى تنازعت الملك؛ وهى اليوم ميدان صِدام بين المذهب الوهّابىّ وسائر السنّيين من المسلمين . فالنجديّون الحاكمون يتبعون مذهب ابن عبد الوهاب ، وهو مذهب أحمد بن حنبل ؛ وهم يتّبعونه فى شدّة وغلو كانا أوضح أثرا أوّل تسلّطهم على الحجاز فى سنة ١٩٢٦ . ويقرّ كثيرون بأن الوهابيّة طهّرت البلد الحرام من مفاسد كثيرة كانت تجرى فيه . يذكر "بورخارت" أنه رأى حوانيت قائمة بالمسعى بين الصفا والمروة تبيع الخمر، وإن كانت لا تعرضها للبيع إلا ليلا . وكانت زُمَر المسلمين من أخلاط الأمم تُرخى لشهواتها أعنّتها، فتشهد مكة من مختلف ألوانها ما لا يجتمع فى بلد واحد . أمّا اليوم فلا شىء من ذلك فيها . وإذا بُلِى أحدهم بشىء منه استتر . وإنما يشكو الناس من الإغراق فى المنع وإن كانوا يعترفون بأنه خفّ اليوم فلم يعد شيئا إلى جانب ما كان منذ سنوات ، إذ كانت جماعات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من النجديّين تطوف بأنحاء مكة فتردع وتزجر وتُوقع العقاب بالناس لما تراه هى منكرا ، وإن لم يكن منكرا فى رأى أكثر المسلمين . كان الرجل الذى لا يُرخى لحيته عرضةً للأذى . وكان من يدخّن علنًا معرّضا من صرامة هذه الجماعات لما لا يحب ولا يرضى . أمّا اليوم فقد بطل عمل هذه الجماعات وإن بقى أثره ، وإن بقى من هذا الأثر أن صار الناس يرون الكبيرة كبيرةً حقّا ، تستحق الازدراء والتعزير لا التسامح والإغضاء .

على أيّة صورة تكون صبوة شباب مكة إلى الحياة الحديثة فى هذه البيئة المحيطة بهم ؟ وما هى هذه الحياة الحديثة فى نظرهم ؟ أهى حياة الفكر الحرّ كما يصوّر الغرب الفكر الحرّ ؟ أهى حياة العلم والبحث العلمى كما نراها نحن فى مصر أو كما يراها أهل أوربا ؟ أهى حياة الصناعة وتسلّطها على قوى الطبيعة وإخضاعها إياها لإرادة الإنسان ؟ أم أنها ليست هذا كله ، لأن هذا كله لا يتفق وحياة مكة وتفكير أهلها وقدسيّة ما فيها ، وإنما هى نوع آخر أدنى إلى ما يسمّونه أدب القوّة وأكثر إيمانا بأنّ الأمم الأخلاق ؟ الحقيقة أنك لا تستطيع أن تعرف . وشبابُ مكة أنفسهم

لا يعرفون أيّة ناحية من هـذه الحياة الحديثة يأخذون ، وأية ناحية منها يدعون . هم يرون بلادهم ضعيفة، ويرون لغيرهم السلطان عليها، ويرون من آثار مصر وما تنقله من ثمرات الغرب الأدبيّة والعلميّة ما يُعجبهم؛ فهم يريدون أن تكون لهم مثل هذه الآثار، ليكون لهم من الحياة حظ كهذا الحظ الذى يتصوّرونه منها لأهل مصر ولأهل الغرب، دون أن يكون لذلك أثر لا تحمد مغبّته فى حياة مدينتهم. ومنهم من يتصوّر فى محاكاة حياة الغرب الوسيلة لذلك، ومنهم من يرى العلم وحده الوسيلة اليـه . وهم بين هـذا وذاك يعملون تاركين للزمن أن يُنضج من ثمرات عملهـم ما يرجون أن تطمئن به نفوسهم وأن يصل بهم إلى هذه الحياة الحديثة التى يصبُون اليها بوجدانهم .

تفضّل غير واحد من رجال الحكم فى مكة فدعانا إلى تنـاول الطعام عنده . وأفضـل الطعام عند أهـل مكة اللحم والثريد . وهم يتناولونه عادةً كما كان يتناوله أجدادنا . يُسلق الضأن أو يشـوى ويثرد الثريد ويوضع فى قصعة على خِوَان من تحته السّماط، ثم يتناول كلٌّ من الثريد واللحم بيده إلى شبعه . ولقد تناولت الطعام وإياهم على هذا النحو بعَرفات وبمكة وحيثما ذهبت من بلاد العرب، وكنت أجد فى ذلك من ذكر أيّام الصِّبا الأوّل ما أسعد به . لكن أولئك الذين تفضّلوا بدعوتى مع من جاءوا مكة من المسلمين أولى المكانة لم يروا أن نأكل وإياهم على طريقتهم، بل آثروا الطريقة الحديثة، طريقة الغـرب، وما ألفه من ألوان الطعام العـديدة والصحاف التى يدور بهـا الخدم لينال كل منها لنفسه فى صحنه، وليأكل بالشوكة والسكّين بدل أن يأكل بيده . وإنهم ليؤثرون اليوم أن يجلسوا على الكراسىّ بدل الجلوس على المصاطب أو على السجّاد فوق الأرض . وهم يرون فى هذا من محاكاة المدنيّة ما يسرّ ضيوفهم من ناحية، وما يقربهم من الحضارة الحديثة من ناحية أخرى .

كان ذلك شأننا حين تناولنا طعام العشاء عند الشيخ عبد الله السليمان الحمدان وزير المـالية، وعند السيد محمد سرور الصبّان وكيل المواصلات والمشرف على حركة

النقل بالسيّارات . على أنا كنا نعود بعد تناول الطعام الى غرف الاستقبال الوثيرة وكنا
مرتدون الملابس العربيّة، فننتقل بذلك من جو لاتتلاءم فيه هذه الملابس مع أدوات
الطعام الى جو آخر أكثر انسجاما مع حياة العُروبة. فغُرَف الاستقبال على مابها من
مقاعد وثيرة تحتفظ بالطابع الشرقي القديم، ما خلا إضاءتها بالكهرباء المجلوبة الى هذه
المنازل دون سواها من منازل مكة . ثم إنهم ليحرصون على عادة انتقلت اليهم مع
النجديّين هي التبخّر والاجتمار بالعود، فما تكاد غرفة الاستقبال تحتوى الناس حتى
يدور عليهم الخدم بالشاى و بالقهوة و بمجامر يحرق فيها عود ذكيّ الرائحة يستنشق كلٌّ
عَبَقه ويحتبسه فى أردانه تحت المشلح و بينه و بين الصمادة . وأدوار القهوة والشاى
والعود لاتكاد تنقطع مابقى الناس فى سمرهم .

وقد دُعينا الى عشاء من هذا النوع بدار مضيفى أمين العاصمة الشيخ عباس قطّان.
وعلى أنه كان عشاءً على الطريقة الغربية فى تقديم الألوان فى الصحون، لقد رأينا يومئذ
ما أعاد الى الذاكرة صورة ليلةٍ من ليالى كتاب ألف ليلة وليلة . كمل عقد اجتماعنا
قبل تناول الطعام فى بهو فسيح بالطابق الأعلى فوق البهو المجاور لغرفة نومى، والذى
كنت أقضى به الكثير من وقتى . وكان البهو مفروشا كله بالسجّاد العجمى، وثير
المقاعد، تضيئه ثُرَيّات من الكهرباء ساطعة النور . فلما آن لنا أن ننتقل الى الموائد
ألفيناها مُدّت فى هواء الأسطح الطلق وقد أنارتها ثريّات الكهرباء القائمة بين الفاكهة
وصحاف الحلوى . ولما طَعِمنا هبطنا الى الإيوان الذى أويت اليه أتقى المطربوم
أزمعت الصعود الى عرفات . لكنه أُضىء ليلة هذا العشاء على طريقة جعلته
جديرا ببعض ليالى هارون الرشيد، لولا أننا لم تُغَنِّنا فيه القِيَان، ولم يدر علينا فيه
غير الشاى والقهوة ومباخر العود . ولقد قرأ القرآن حجازىّ بإيقاع غير مألوف
فى مصر، غير أن الإيقاع المصرى فى القراءة قد طغى حتى على أهل الحجاز فصار
قارئوهم يتأثرونه وينحون نحوه .

هذا الجمع بين طريقة الطعام فى الغرب و بين الحياة الشرقية الأصيلة هى صورة
هذه الصبوة فى نفس الشباب المكى الى الحياة الحديثة . فهم يرغبون فى اجتناء

ثمراتها، لكنهم يرغبون فى ذلك على استحياء، ومع الحرص أشد الحرص على طابع البلد الأمين وتقاليده . هم يُعجَبون بالأدب الحديث و يأخذون بحظ منه فى صحافتهم، لكنهم يقفون منه عند بعض الصور . فأمّا الروح فى أعماقها فعربيّة أدنى إلى البداوة المحيطة بهم، والتى تذر أعمق الأثر حتى فى نفوس من نزحوا الى مكة من غير العرب ومن البعيدين كل البعد عن موطنهم الأصلى بشبه الجزيرة . وهم يفكرون فى نظام سياسى كهذه النُّظُم الدّيمُقراطية التى نقلها الشرق عن الغرب ولمّا "يتأقلم" فيه . لكن تفكيرهم لا يخرج بهم عن حدود أهل الرأى ومن تكون منهم الشورى كما كانت فى العهد الأوّل للسلمين . وهم يودّون لو تكون لهم حياة اقتصادية كحياة غيرهم من الأمم . لكنهم لا يتصوّرون هـذه المذاهب الاقتصادية السـائدة فى الغرب، والتى تتنافى فى جوهرها مع الفكرة الإسلامية الاقتصادية . وهم لذلك مايزالون يقفون من تعلُّقهم بالحياة الحديثة عند نقد ما هم عليه فى بلادهم، دون أن يتصوّروا اللون الجديد للحياة التى توائم مِزاجهم والتى لا ينكرها تفكيرهم .

ذلك ما بدا لى واضحا أثناء الأحاديث الكثيرة التى دارت بينى و بين شبّان مكة الذين شرّفونى بزيارتهم منذ اليـوم الأوّل لنزولى بينهم، والذين ما فتئوا يزورونى طول إقامتى ببلدهم . إنهم جميعا يشعرون بحاجة بلادهم إلى التعليم، وهم يتحدّثون فى ذلك بلهجة صادقة، و يصلون منه فى بعض الأحايين إلى عيب الحكومة بأنها تنفق الطائل من الأموال على السيّارات واقتنائها و إصلاحها فى حين تضنّ بالتعليم وما يجب أن ينفق عليه . لكنك إذ تسألهم عن نوع التعليم الذى يرونه صالحا لذويهم وأبنائهم وعن الفكرة التى يجب أن يقوم هذا التعليم على أساسها، تراهم يضطربون ولا يكادون يُحيرون جوابا . قد يكون ذلك راجعا إلى تأخر العلم عندهم، و إلى أن الحظ الذى نالوه منه لا يكفى لإبداء الرأى فى مثل هذه المسألة العويصة . لكن ثمة أمرا آخر يزيد فى حيرتهم؛ ذلك تعلُّقهم بمكانة مكة المقدّسة وحرصهم عليها . فكلّ علم يزيد هذه المكانة سموّا محبب اليهم . وكل علم لا يجعل منها موضع عنايته كلها، أو لا يضعها فى المكان السامى، أو يراها أمرا لا يدخل فى نطاق العلم، مزهود فيه مرغوب عنه .

فاذا حدثتهم فى حرية العلم وفى حرية الأدب رأوا ذلك أدخل فى باب الجدل النظرى ورأوه لذلك لا غناء فيه .

قد يكون غلوًّا مطالبة شباب مكة بتصوير الحياة الجديدة التى يصبون اليها صورة واضحة الحدود وحظ بلادهم من العلم ما رأيت . بل إننا فى مصر وفى بلاد الشرق العربى المختلفة ما نزال فى دور النقد لم نتعدّه إلى دور التصوير والتصميم ، على ما اتصلنا بالغرب وما وقفنا على علمه وأدبه . لكنا خطونا بحكم الحوادث خطوات إيجابية لاتعاون أحوال مكة ولا أحوال الحجاز على مثلها . ومما دفعنا إلى هذه الخطوات وجود الأجانب بيننا وتمتعهم مدى أزمان طويلة بامتيازات طوعت لهم أن يعيشوا كما يعيشون فى بلادهم ، لا يغيّر أحدهم زيه ولا طريقة طعامه أو حياته فى شىء ، كما طوعت لهم إنشاء مدارس تنشر بيننا ثقافتهم وتعليمهم . ومن ذلك نفوذ الدول الأجنبية الذى تغلغل فى الولايات العثمانية المختلفة خلا البلاد المقدسة منذ زمان بعيد . فقد ظلت مكة وداخلية بلاد العرب وما تزال حراما على غير المسلمين . والأجانب الذين يريدون دخولها يضطرون قبل حضورهم إلى معقل الإسلام أن يظهروا إسلامهم وأن يدرسوا العربية وأن يتقنوا التزيّى بلباس العرب والعيش على مثالهم . فإن لم يفعلوا لم يكن آجتيازهم الساحل إلى داخل البلاد ميسورا . وإن فعلوا حرصوا على إخفاء طواياهم ومظاهرهم ما استطاعوا . ومن ثمّ لم يكن لوجودهم بين العرب أثر المثل الذى يحتذى ، فيحدث احتذاؤه النتائج الإيجابية التى حدثت فى مصر والشرق . وقد صدّت هذه الأسباب عن هجرة الأجانب إلى شبه الجزيرة ، كما صدّ عنها قلة الأمل فى الربح المادى بسبب شدة الأحوال الاقتصادية بمكة وبالحجاز كله . والذين غامروا فى اجتياز هذه البلاد من أبناء الغرب قليل عددهم حتى ليُحْصَوْن فردا فردا ، ويُنْظَر إليهم نظرة إعجاب لمغامرتهم . ولقد رأيت بضعة رجال منهم أثناء مقامى بمكة . وأكثر هؤلاء ذيوعَ صوتٍ بين الناس الحاجّ عبد الله "فلبى" كما يعرفه المسلمون ، أو "سنت جون فلبى" كما يعرفه الإنكليز . وقد سعيت إلى معرفته ولقيته غير مرة . لقيته مرتين أو ثلاثا

فى التكيّة المصرية، وزرته مرة فى بيته، وهناك أهدى إلىّ خرائط من صنعه عن الطريق من مكة إلى الطائف وإلى المدينة . وهو رجل عجيب على ما يصفه ابناء وطنه . فهو يعيش عيش البَدْو من النجديين ويحتمل احتمالهم، طعامه كطعامهم، وسكنه كسكنهم . وهو موضع الثقة عند الملك ابن السعود، كما أنه شديد الملازمة لمجلسه . ولقد جاس خلال شبه الجزيرة من كل أطرافها ونواحيها، ووضع لها الخرائط ووصفها أدقّ الوصف . وكتابه (الربع الخالى) يصف شيئا من مجهوده الشاقّ فى ارتياد الصحارى، ومن عمله الدقيق فى وضع الخرائط المفصلة التى تطبعها له وزارة الحربية البريطانية . لكن حياته العلمية حياة عزلة تامة . فالبدو الذين يصحبونه فى رحلاته لا يفهمون من أعماله شيئا ؛ وهو لا يطالعهم بشىء من هذه الأعمال التى لا يفهمونها وإن آهتدى بهم فى كل مايحققه منها . لهذا، ولأنه يعيش عيش البدو، لا يُوحى وجوده فى بلاد العرب إلى أهلها جديدا فى تصوُّرهم للحياة الجديدة التى يصبون إليها . ذلك شأنه وشأن غيره من الأجانب الذين تثير بلاد البداوة خيالَهم وتدعوهم للإقامة بها ما أطاقوا هذه الإقامة .

هذه كانت حالة الرحالين الغربيين فى بلاد العرب منذ قرون مضت . وإن بعضهم ليظن أنها وشيكة أن تتغيّر فيما سوى المدينتين المقدّستين مكة والمدينة، بعد أن أعطت الحكومة العربية السعودية امتياز استخراج الذهب إلى شركة "توتشل" الانكليزية الأمريكية، وآمتياز استخراج البترول من الأحساء إلى شركة أجنبية أخرى . فاذا تغيرت أسرعت الحياة الغربية إلى البلاد العربية . ويذهب القائلون بهذا الرأى إلى أن غزو الحضارة الاوربية الشرق إنما تمّ عن طريق الصناعة والتجارة، وعن طريق التدخُّل السلمى، أكثر مما تمّ عن طريق الفتح الحربى والغزو بقوة السلاح . والهند التى تحرص بريطانيا اليوم أشدّ الحرص عليها باعتبارها أكبر مستعمرة للتاج البريطانى، إنما بدأ غزو بريطانيا إياها من هذا الطريق حين تألّفت بها شركة الهند الشرقية . وقد اهتدت شركة "توتشل" إلى مهد الذهب فى بلاد العرب على ثمان ساعات من المدينة المنورة ؛ وهى تمهّد الآن طرق تصديره إلى الخارج .

فاذا لم يكن فى استقرار هذه الشركة وفى قيام شركات مثلها ما يثير المخاوف أن يصيب بلاد العرب ما أصاب الهند، فأيسرُ ما فيه تمهيدٌ لتغلغل الحضارة الغربية من ناحيتها الصناعية ومن ناحيـة ظواهر العيش والحياة، فى هـذه البلاد التى ظلت محتفظة حتى اليوم بطابعها العربىّ . ولا عَجَبَ يومئذ أن نرى هذا اللباس العربىّ يتوارى ليحل الزىّ الغربىّ محلّه ،وأن نرى لون الحياة العربية الذى يوحى الطمأنينة إلى زائرى البلاد المقدّسة جميعا من المسـلمين يحول إلى لون غربى ، شأنه فيها شأنه فى مصر وغير مصر من بلاد الشرق . وهنالك يسرع التجدّد إلى مكة ، وتصبح جديرة باسم مكة الحديثة حقا . و يومئذ يعود شباب مكة يفكرون : أَسعِدوا وسَعِدت مدينتهم بهذا التغيير الذى تصبو اليوم اليه نفوسهم ، أم أن بلادهم فقدت به طابَعها السحرىّ ، كما فقدت بوسائل النقل الحديثة شيئا كثيرا من روعتها الشعريّة .

وعلى رغم بقاء الأجانب إلى اليوم مبعدين عن بلاد العرب خلا مدن الشاطىء لقد تحوّلت أسباب المواصلات فيها بقدر عظيم من الجمل سفينة الصحراء إلى السيّارات بأنواعها المختلفة، ومن البريد إلى البرق و إلى التليفون و إلى آخر مُحْدَثات الصناعة . والسيّارة سريعة مريحة عظيمة الفائدة فى إنجاز الأعمال . وقد أفادت أمانةُ العاصمة منها أن اتخذتها وسيلة الكنس والرش و إطفاء الحريق ، وأن اقتنت سيّاراتٍ لهذه الأغراض التى لم تكن تعتبر ذات بال من قبلُ . لكن السيّارة هدّامة لوَحْى الصحراء مُضيعة لشعر البادية . وأنّى لراكبها أن يتأمل البادية وما فيها وهى تقطعها فى لمح البصر، فما يكاد البصر يستقرّ منها على شىء يتأمله . والبرق والتليفون شأنهما فى ذلك شأن السيّارة، لا يدعان للذهن أن يستقرّ، ولا للخيال أن يفتنّ فى التعبير لمن نكتب اليهم عن عواطفنا وآمالنا وآلامنا . ولقد كان من العرب من يرغب عن هـذه الوسائل أوّل دخولها بلاد العرب، وكان منهم من يراها حراما . أمّا اليوم فقد أَلِفوها، وصار بعضهم يستغنى بها عمـا أَلِف من الوسائل من قبل . ولهذا لا رَيْبَ أثره فى التفكير ، وله عنـد شباب مكة من الدلالة على عدم صلاح أسباب الحياة القديمة لهذا العصر الحاضر ما يجعلهم أشد صبوة إلى الحديث من كل

شىء . لكن هذا كله لم يصل بعدُ من موضع التفكير إلى تصوير الحياة صورة غير التى عرفوها عن السَّلَف؛ بل هو يجاورُ هذه الصورة فى الذهن العربى جِوَارًا يتعذّر على الإنسان أن يتنبأ بآثاره .

وتجارة الغرب ذات رواج اليوم فى أسواق مكة، حتى ما يكاد الإنسان يجد من صناعة مكة أو صناعة بلاد العرب فيها شيئا . وإذا قلت الغرب قلت اليابان أيضا . فالمصنوعات اليابانيّة منتشرة بأثمان زهيدة تدعو إلى أشد الرغبة فيها . ولقد بلغ من حِذْق الصناعة أن صارت اليابان وصار الغرب يبعث إلى مكة بالأشياء التى يبتاعها المسلمون للتبرُّك بها على أنها من البلد الأمين . فالسُّبَح والعطور تصدر من مصر مصنوعة فى خان الخليلى والتربيعة خلا ما يُصْنَع من مَرْجان إيطاليا . والمباخر ورشّاشات العطر والمكاحل تصنع فى الخارج، وقلّ منها ما يُصْنَع فى بلاد العرب . وهذا كله تجده فى سوق المسعى بين الصفا والمروة، وتجده فى السويقة (أو السوق الصغيرة كما يسمونها) معروضا مع الأقمشة المختلفة، يُقبل عليه المسلمون من شتّى أقطار الأرض ويصيبون منه ما يعودون به الى أهلهم فى هذه الأقطار، ليكون عندهم بركة يحافظون عليها ويحتفظون بها .

ولا تختلف مكة الحديثة فى استيراد تجارتها من الخارج عن مكة القديمة العربية الصميمة . وقد كانت مكانة مكة التجاريّة قُبَيل الإسلام وفى عهده الأول عِدْلَ مكانتها الدينية، وكانت ملتقى تجارة الغرب والشرق . وإنما الفرق بين يوم مكة وأمسها أنها كانت أمس طريق التجارة، فكان أهلها يذهبون فى رحلة الشتاء الى اليمن يجيئون منها ببضاعة الجنوب ليتجروا بها فى الشمال، وبتجارة الشرق ينقلونها فى رحلة الصيف الى الغرب والى الشام يصرّفون فيها ماجاءوا به من اليمن ويجيئون بألوان أخرى من التجارة مكانه . أما اليوم فالتجارة تجىء الى مكة وتوزّع على الحاجّين فى أسواقها من غير أن يكون لمكة فى ذلك أى نشاط إيجابى؛ بل تنقل البواخر التجارة من أقصى الأرض من اليابان أو أوربا الى جُدّة، وتنقلها السيّارات من جدّة الى مكة ليتولّى أهل مكة بيعها للذين فرضوا حجّ بيت الله الحرام بربح هو مصدر حياة أهلها الى جانب مايتبرّع

به المحسنون للبلد الحرام من أرزاق . وقد أصبح الكثير من موادّ التغذية نفسها، كالفاكهة والأطعمة المصنوعة من "بسكويت" وجبن وما اليها، يرد الى مكة من الخارج كما يرد غيره من البضائع . أمّا الموادّ الطازجة فترد من وادى فاطمة ومن الطائف .

وهؤلاء الألوف وعشرات الألوف من المسلمين الذين يفرضون الحج الى البيت كل عام هم اليوم، كما كانوا فى كل عصر، عاملُ التطوّر فى مكة نحو حياة العصر . فهم يجيئون اليها ويقيمون بها زمنًا ليس بالقليل . ولهم عقائد وعادات يراها أهل مكة ويدرسونها بعناية فطرية ليُجيبوا مطالب هؤلاء الغرباء وليكفلوا لهم خير قسط من الراحة يحبّب اليهم الإنفاق ويجعل منهم بعد عودهم الى بلادهم دعايةً صالحة لمكة وحجّ بيت الله فيها . ومما لوحظ فى السنين الأخيرة أنّ عددا من أثرياء المسلمين وأولى الرأى فيهم يقصدون الى الحج أكثر مما كان يفعل أمثالهم من قبل ، وأنهم يلتقون بأهل مكة وبأولى الأمر فى الحجاز ويُبدون لهم من العناية الواجبة على العالم الإسلامى كله بالأماكن المقدسة مايزيد أهلَ مكة وذويها تفكيرا فى التماس أسباب الراحة لهؤلاء الأثرياء وأولى الرأى . ولقد كان من ذلك أن فكّرت الحكومة الحاضرة فى إنشاء حيٍّ بضاحية الشهداء من ضواحى مكة تُراعَى فيه حاجات الحياة الحديثة فى النظام الصحى والماء والإنارة تشجيعا لأمثالهم على الحج . ذلك بأن الأماكن الصالحة لنزولهم بمكة قليلة جدّا، والكثيرون منهم يلقون أشدّ العَنَت فى توفير المسكن الصالح لهم . فإذا نظّمت لهم ضاحية مهيأة بأسباب العيش الذى ألفوا كان ذلك خير دعاية لأُمّ القرى، وكان خطوةً فسيحة نحو التطوّر إلى حياة العصر، وفى سبيل التقريب بين المسلمين ذوى الرأى من أهل البلاد المختلفة .

يدلّ على ما لهذه المنشآت من فضل فى التطوّر ما كان للتكيّة المصرية بمكة وما يزال لها من أثر فى حياتها . والتكيّة من الآثار الجليلة التى أنشأها محمد علىّ الكبير جدّ العائلة المالكة بمصر بعد أن آستقرّ له الأمر بالحجاز . وقد بقيت التكية على عمارته فى سنة ١٢٣٨ هجرية حتى جدّدها الخديو عباس حلمى الثانى

سنة ١٣١٩ هجرية . وهى تقع بشارع أجْيَاد من شوارع مكة ، ويقابل بابها باب المسجد الحرام الذى سمّى باسم باب التكية لشهرتها . وكانت تُجْرى فيها الأرزاق على الفقراء فيما مضى ، فكانت تُطعم فى أشهر الحج نحو أربعة آلاف منهم كلّ يوم . وكانت تُطعم أربعمائة فقير كل يوم فى غير أشهر الحج . لكن الخلاف الذى حدث بين مصر والحكومة العربية بعد دخول الوهّابيين مكة فى سنة ١٩٢٦ ، وما أدّى هذا الخلاف إليه من آنقطاع سفر المحمل ومن حبس أوقاف الحرمين ، حال دون آستمرار التكية فى إجراء هذه الأرزاق . وأكبر الظن أن يعود الأمر إلى نظام جديد بعد أن آستتبّت العلاقات المصرية الحجازية من جديد . لكن الذى لا ريبَ فيه أن وجود التكية المصرية فى مكة منذ أكثر من قرن من الزمان كان له أثره فى تطوّر الحياة فى مكة . فالتكية لا يقف أمرها عند هذه الأرزاق وصرفها ؛ بل إن بها لطبيبا يعالج المرضى الذين يقصدون إليه أيًّا كانت جنسيتهم و يصرف لهم الدواء من عنده . ولعل ما قامت وتقوم به التكية من ذلك كان أوّل ما عرفه أهل مكة وأهل بلاد العرب بوجه عام عن العلاج بالطريقة الحديثة ، بعد أن كان العرب لا يعرفون من وسائل العِلاج إلا مايعرفه أهل البادية ، وبعد أن كانوا يؤمنون بأن آخر الداء العياء الكىّ . هذا إلى أن التكية صورة من الحياة المصرية بمكة ، إليها يقصد المصريون جميعا أثناء أشهر الحج ، فهى بهذه المثابة مَثَلٌ يُشهِد العرب ما يجرى فى بلاد أقرب منهم إلى الحضارة وأعظم اتصالا بها .

ثم إن أهل مكة أنفسهم ، ورجال الحكم فى بلاد العرب جميعا ، يتّصلون اليوم بالبلاد الإسلامية المختلفة بعد أن يسّرت أسباب المواصلات الحديثة سبل الآنتقال وقرّبت بين أجزاء العالم ، مما يجعلهم أكثر استعداداً لقبول التجديد فى مدينتهم . وإن منهم من يزور أوربا ويقف على أساليب الحياة فيها . هذا إلى أن كثيرين من موظفى الحكومة العربية ينتسبون إلى مصر وإلى سوريا وإلى بلاد إسلامية شتّى . صحيح أن الماضى يحول دون الطفرة فى دعوة هؤلاء إلى الإصلاح كما تحول

الأحوال الاقتصادية دونها . لكن هذا العامل له قيمته لا ريبَ فى تجديد صورة الحياة بمكة، وله أثره فى تفكير الشباب من أبنائها .

وهذا الماضى الذى يُثْقِل خُطا دعاة الإصلاح يجد فى ناحية من نواحى الحياة بمكة ما يشدّ من أزْره إزاء المحاولات التى تبذل للتغلُّب عليه . هذه الناحية هى التفكير القديم الذى أشرت فى أول هذا الفصل إليه ، والذى يجعل فكرة التوكّل قائمة على التواكل والكسل وعدم السعى فى الحياة والقناعة فى الرزق بما يجىء من غير مشقة أو عمل . وإن ألوفا وعشرات الألوف من المقيمين بمكة ليرون حقًّا لهم أن يعيشوا من الصدقات التى تُجْرَى عليهم ، ولا يفكر أحدهم فى مزاولة عمل يقيم أَوَده وأود أهله . وهذا الروح هو الذى يجعل التسوّل منتشراً بمكة ، وخاصّةً أثناء الحج، انتشارا مروّعا . فأنت كلما ذهبت إلى المسجد الحرام للصلاة وجدت على كل باب من أبوابه الكثيرة العدد، وهى تبلغ ستة وعشرين بابا، عشرات من الصبية والنساء يتكفّفون الناس ويسألونهم إلحافا . ويرى كثيرون من الحجاج ، وكثيرات منهم بنوع أخص، فرضا عليهم أن يُعطوا هؤلاء . فهم يُنفقون فى ذلك العطاء الرخيص الشىء الكثير مؤمنين بأنهم يعطون الفقير مما أعطاهم الله من فضله ، فلهم مثوبة ذلك عند ربهم . وكثيرون من هؤلاء المتسوّلين أقوياء البِنية أصحاء الأجسام قادرون على العمل . وكثيرا ما رأيت منهم مَنْ لو وُجِد فى أحياء القاهرة أو فى أرياف مصر لأُنذر بالتشرُّد ولشدّدت الشرطة عليه الخِناق . لكنهم فى المدينة الإسلامية المقدّسة يجدون عطفا عليهم من حجاج المسلمين، وتسامحا معهم من جانب الحكومة . ولعلك لو سألت فى ذلك لقيل : إنهم من ذرّية إسماعيل وإنهم تنطبق عليهم الآية : ﴿ رَبِّ إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ ؛ وإن ما يبذله الناس من هذه الصدقات إنما هو هذا الهُوِىُّ من أفئدة الناس إلى ساكنى البلد الأمين . هذا وإن لم يكن بين سكان البلد الحرام من ذرّية إسماعيل اليوم إلا القليل؛ أمّا الأكثرون فخليط من أبناء البلاد الإسلامية فى آسيا وإفريقية .

ولقد ذكّرني مشهد هؤلاء المتسوّلين بما تقرّره مذاهب عصرنا الحاضر من حق العمل للأفراد كي يعيشوا منه ، وذكرت دعوة القرآن الناسَ ليمشوا في مناكب الأرض ويأكلوا من رزق الله، وحاولت أن أجد مسوّغا لانتشار التسوّل بمكة، فلم أجده إلا في سوء التأويل للفكرة الإسلامية،ذهبتْ إليه طائفة أرادت استغلال العواطف لفائدة قوم كسالى لا يعملون ، وهم على العمل قادرون . وهذا التأويل الفاسد لا يُقرّه مذهب سليم . فالدعوة الإسلامية أساسها العمل في الحياة والجهادُ للرزق فيها . ولقد كان المسلمون الأوّلون من أهل مكة من أكثر الناس سعيا ودأبا . فلما هاجروا مع الرسول إلى المدينة وأراد الأنصار أن يشاطروهم أموالهم أبوا ذلك على أنفسهم على رغم حاجتهم إليه، وذهب يعمل في التجارة منهم مَنْ تؤهله مواهبه للتجارة، ويعمل في الزراعة من يفضّل العمل في الزراعة . ولم تكن الأرزاق يومئذ تجرى إلا على العاجزين عن الكسب، شأنهم في ذلك شأن أمثالهم اليوم في أرقى الأمم حضارة . فأمّا القادر على الكسب فلا حقّ له في الحياة ما لم يعمل . والعمل للقادر عليه عبادة لها مثوبتها عند الله، ولها كرامتها واحترامها عند الناس .

ولو أن الألوف التي تعيش اليوم بمكة من الصدقات زاولت من الأعمال ما تستطيعه لتغير وجه الحياة في مكة . ولو أن ما يُخرجه المسلمون من مالهم صدقات للتسوّلين جُمِع وأُنفق في أعمال يقوم على استغلالها هؤلاء لكان أعْوَدَ عليهم وعلى مكة بالفائدة، ثم لتغيّرت هذه العقلية المريضة ، عقلية التواكل والكسل المزرى العجيب، ولتغيّر تبعًا لذلك تفكير الناس تغيرًا يدفع مكة الى ناحية الحياة الحديثة . لست أجهل ما في ذلك التغيُّر من عسر وأهلُ مكة لا تجمع بينهم رابطة الجنس . ولهذه الرابطة أثرها القوىّ في تكوين الحياة القومية . ولقد كنت أتحدّث يوما إلى مكى صميم في حرب الأشراف والنجديين، وكنا نفرض الأسباب التي أدّت إلى دخول الإخوان مكة من الطائف موفورين . ومما اتّفقنا عليه من هذه الأسباب تكوين أهل مكة من خليط من أجناس المسلمين المختلفة المنتشرة في أنحاء الأرض جميعا . فماذا يعنى المغربىّ أو الجاوىّ أو الأفغانىّ أو الهندىّ أن يكون حاكمه عربيا قرشيا

أو بدويًا نجديًا مادام هذا وذاك مسلما، ومادام كلٌّ منهما يدع له من أسباب الرزق بلاسعي ولا عمل ما آعتاده منذ قرون خلت! أمّا وذلك شأنه فليس يعنيه أن يشترك في نزاع على حكم مكة أو حكم الحجاز، وليس يُصيبه من تغيير الحاكم خير ولا أذى. ولو أن أهل مكة كانت تجمع بينهم رابطة الجنس لتغيّر وجه تفكيرهم في الدفاع عن مدينتهم، ولرأوا هذا الدفاع واجبا عليهم متصلا بكرامتهم لأنه الدفاع عن الوطن، ثم لرأوا واجبا على كل فرد من أبناء الوطن أن يعمل لخير الوطن، وألّا يعيش عالة عليه ما دام قادرا على العمل.

ولقد أدركت الحكومات العثمانية هذا السرّ في الماضي فلم تعمل لتغيير عقلية التواكل في مكة وفي الحجاز كلّه، بل عملت على تثبيت قواعدها وتعميق جذورها بإجراء الأرزاق على هؤلاء الأعراب الذين نزحوا إلى مكة وآستوطنوها، وتشجيع ذوي اليسار على حبس الأوقاف لإجرائها عليهم. بذلك توطّد روح التواكل والقعود بالبلد الحرام وآنتشر منه الى ما حوله من بلاد الحجاز، وبذلك تعذّر القيام فيه بأي حظٍّ من الإصلاح. فإذا فكر أحد في إصلاح شُوِّه مقصده ونُعت بأنه يريد إخراج الناس من طمأنينتهم السعيدة التي أرادها الله لهم، والزجّ بهم إلى حظيرة العمل الشاقّ والأفكار الضارّة المارقة.

لست أقصد مما سبق إلى أن الطبيعة قضت ببقاء فكرة التواكل سائدة أهل البلد الأمين ممتدّة منهم إلى ربوع البلاد العربية المختلفة؛ وإنما أقصد إلى أن التغيير لا يتم سِراعًا كما يتم في بلد تربط وحدةُ الجنس بين أبنائه. لكن تمامه أمر لا مفرّ منه، كما أسلفت، لتزايد أسباب الاتصال بين بلاد العرب والعالم الخارجي. هذا الاتصال يُسرع بألوان التفكير الحديث إلى مكة على أيدي المسلمين الذين يحجون البيت من مختلف الأقطار، كما يُسرع به إليها ما بين الحكومة العربية والحكومات الإسلامية الأخرى من أسباب التفاهم.

ومن أسباب الانهيار في تفكير التواكل ما تم الاتفاق عليه بين حكومة مصر والحكومة العربية السعودية في أمر الأرزاق التي تجرى من مصر إلى الحجاز غلّة

لأوقاف الحرمين ، وفى أمر الأموال التى تُرسلها حكومة مصر إلى الحجاز . فقد كانت هذه الأرزاق والأموال توزّع فيما قبل الاتفاق صدقات ضئيلة القيمة على أهل مكة وعلى أهل المدينة ، أمّا بعد الاتّفاق الذى تمّ عام ١٩٣٦ ، فقد أصبحت هذه الأرزاق تجمع لتنفق فى أعمال ذات فائدة عامّة كتعبيد الطرق وتعمير المنشآت الإسلامية فى البلاد المقدّسة . وقد كان الناس هناك يكتفون بالصدقات عن مزاولة هذه الأعمال لإقامة حياتهم . فاذا انقطعت هذه الصدقات أو قلّت فصارت لا تكفى حاجات العيش ، اضطر أهل البلاد للعمل ، وحلّوا بذلك محل العمال المصريين وغير المصريين ممن يُجَاء بهم لإتمام هذه الأعمال .

وسيكون الاتفاق الذى تمّ بين مصر والحكومة العربية مثلًا لغير مصر من الأمم الإسلامية التى تُجْرِى الأرزاق إلى الأماكن الإسلامية المقدّسة . ومن ثَمَّ لا يبقى أمام هؤلاء الكسالى إلا أن يعملوا ، غير مكتفين بما يصلهم من صدقات الحجاج . وأغلب ظنى أن الحكومة العربية ستنظّم هذه الصدقات كذلك وتضرب على أيدى المتسولين وتعمل جهدها للقضاء على حالة محزنة تثير اليوم إشفاق الكثيرين ، ولكنها تُثير إلى جانب إشفاقهم الزراية بمن يقيمون فى موطن الرسول العربى أعظم داع للسعى والعمل ، وللإخاء فى السعى والعمل . هنالك تتغلغل فكرة العمل فى حياة مكة وحياة الحجاز ، على أنها الفكرة الإسلامية الصحيحة ، بعد أن كانت تعتبر مخالفة لروح الإسلام وتعاليمه .

هذه لمحات سريعة تشفّ عن العوامل التى تدفع مكة نحو الحياة الحديثة . وثمة عامل آخر لا يظهر له أثر وإن كان يحول بأخلاد الكثيرين . كنت أتحدّث إلى طائفة من أهل مكة فيما يستطيع المسلمون القيام به من إصلاح الأماكن المقدّسة كتعبيد الطرق بين جُدّة ومكة وبين مكة وعرَفات وبين جدّة والمدينة ، وتنظيم المياه الصالحة للشرب فى مناسك الحج جميعا ، وتنظيم المضارب لنزول الحجاج بها ؛ فأشار واحد من ذوى الرأى من أهل مكة بالرجاء أن يتناول

الإصلاح إنشاء جامعة بالطائف يتعلّم فيها أبناء البلاد العلوم الحديثة . وقد آختار الطائف للتخلُّص من آعتراض المعترضين على تعليم العلوم الحديثة بمكة . وفى رأى هؤلاء أن تكون مقارنة المذاهب الإسلامية بعضَ ما يدرس فى هذه الجامعة ، وهذا روح علمىّ حرّ لمحته فى محادثاتى مع كثيرين . فإذا تحقّق هذا الأمل وأُنشئت هذه الجامعة بالطائف أو بمكة — وأفضّل أن يكون إنشاؤها بالحل من ظاهر مكة — وإذا ساهم علماء المسلمين من مختلف الأقطار بنصيب فى تفقيه أبناء البلاد ، فسيكون ذلك إيذانا بإسراع التطوّر نحو الحياة الحديثة فى صورة من هذه الحياة تتصل بماضى بلاد العرب وتتصل آتصالا وثيقا بروح الإسلام الصحيح ، وتجعل من مكة مقصدَ العلماء وذوى الرأى وموضع الأفكار التوفيقية المستندة على أصول ثابتة من الكتاب والسنّة ومن العقل والمنطق ، والقمينة بأن تُحدث فى أنفس أربعمائة مليون من المسلمين وفى حياتهم العقلية والروحية من الأثر ما لم يحدث مثله منذ مئات السنين .

لست أدرى متى يتحقق هذا الأمل . ورجائى أن يكون هذا الكتاب باعثا على الدعوة إلى تحقيقه . على أن قيامه فى نفوس الذين يعملون لتطوّر الحياة العربية ويدعون إلى آتصالها بحياة العصر هو لذاته عاملٌ من العوامل الكثيرة التى تهيِّئ لهذا التطوّر ، والتى تجعل مكة اليوم على أبواب نهضة علمية آستجنّت فكرتها فى نفوس بنيها عشر سنين أو نحوها ، وقد آن لها أن تُؤتِى ثمراتها وأن يُبدأ بتحقيق أغراضها .

وآعتقادى أن ليس بين المسلمين من ذوى الرأى أحد إلا يرجو أن يرى هذا التطور يُسرع الى هذه البلاد المقدّسة . وما أظن الأمر يقف منهم عند الرجاء ؛ بل أحسبهم جميعا على آستعداد لمدّ يد المعونة والعمل لنشر الدعوة كى تتّسع دائرة هذه المعونة .

يوم تمتدّ أيدى المسلمين متصافحةً من مختلف أقطار الارض للتضافر على هذا العمل العظيم بصدق وإخلاص ، يومئذ تتهيأ مكة كَرّةً أُخرى لتضىء العالم بنور

الحق الذى أشرقت منها شمسه يوم بعث الله نبيّه بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله . وما أشدَّ تعَطُّشَ العالم اليوم إلى هذا النور العظيم ! .

يومئذ تصبح سُنّتُنا جميعا سنّةَ النبيّ العربى وتوحيدُنا الله كتوحيده . وسُنّة النبى تجتمع فى قوله عليه السلام : « المعرفةُ رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحُبّ أساسى ، والشوق مركَبى ، وذكرُ الله أنيسى ، والثقة كنْزى ، والحزنُ رفيق ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حِرفتى ، واليقين قُوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خُلق ، وقرة عينى فى الصلاة » .

والتوحيد الحق ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به ولا يتخذ بعضُنا بعضًا أربابًا من دون الله .

إذا اجتمعت هذه السنّة الى هذا التوحيد ، وانبعث نورهما كَرّةً أخرى من منزل الوحى الأوّل ، فقد آن لمنطق العقل وإيمان القلب أن يلتقيا فى الله وفى سنّته التى لا تبديل لها ، وآن للعلم بأحدث ما اهتدت إليه بصائرنا أن يكون سلاحنا إلى الحقيقة ، وآن للمعرفة وتَوْقِ النفس الدائم للتزيُّد منها ، أن تزيد آفاق العلم سعة وقواعدَ الإيمان تثبيتا ، وآن للإنسانية أن تسير فى ظلّ التسامح والإخاء الى الكمال الذى تَنْشُده من أقدم العصور فلا تهتدى إليه ، لِتنازُعِ العقلِ والقلب على تولّى زمامها وتوجيهها الوجهة التى يحسب كلٌّ منهما أنها أدنى إلى هذا الكمال .

ويومئذ تعود مكة الحديثةُ المكانَ الذى تشخص إليه القلوب والأبصار وتتعلّق به تعلُّق جهاد فى سبيل الحق ، متخذة إليه من العلم سلاحها ، ومن العقل أصلَ دينها ، ومن الزهد فيما سوى الحق حرفتها ، ومن الرضا بالحق غنيمتها .

ويومئذ يرضى الله عن الإنسانية وترضى عنه ، وتؤمن بأنها اهتدت الهدى الحق إلى سبيل الكمال .

آبن السعود بمكة

كنت أسمع آسم آبن السعود عاهل العرب منذ زمان طويل . فلما بدأ يغزو الأشراف وعلى رأسهم الحسين بن علي ملك الحجاز ، كنت أتتبع أنباء النزاع بين الملكين العربيين دون أن أقف طويلا عندها . فلما آنتهى الأمر إلى فرار الحسين وإلى قيام علي آبنه مقامه ثم إلى آستقرار السلطان فى الحجاز لابن السعود ، بدأ الحديث عن هذا الفاتح النجدي لبلاد العرب يتردد فى صحف الغرب والشرق . وقد لقيت إذ ذاك غير واحد من الصحفيين المشهود لهم بالاتزان وبدقة الحكم على الأشياء والأشخاص ، فما كان أشد عجبي حين سمعت من أحدهم ، "فون ڤيزل" الألمانى المعروف ، مبالغة فى الثناء على آبن السعود إلى حد نعته إياه بأنه "بسمرك الشرق" . هذا وكان "فون ڤيزل" قد لقى آبن السعود وتحدث إليه وعرف مرامى سياسته . فلما آختلفت مصر والحجاز بسبب حادث المحمل فى سنة ١٩٢٦ ، حين اضطر أمير الحج المصرى أن يأمر بإطلاق الرصاص دفاعا عن نفسه فيما قيل يومذاك ، بدأت الأنباء ترد بأن آبن السعود ورجاله يقيمون بالحجاز نوعاً من الحكم لا يطيقه أهل السنة ولا غيرهم من المسلمين ، وأن حكم الوهابيين بالحجاز سينتهى لذلك بعدول الأكثرين عن الحج ، وأن حكومة الحجاز ستلقى من جراء ذلك شدة أى شدة .

لكن الحج آستمر ، وبدأت أنباء جديدة تغالب الأنباء القديمة وتتغلب عليها . فالحجاز قد أصبح مضرب المثل فى الأمن بعد أن كان مضرب المثل فى الفوضى ، وبعد أن كان الحاج لا يأمن فيه على نفسه وأهله ولا يأمن على ماله . وطرق الحج قد بدأت تمهد وتجرى فيها السيارات بما يكفل راحة الحجاج وطمأنينتهم . وقد أصبح الحج بسبب الأمن وصلاح الطرق ميسورًا قليل المشقة بعد أن كان المشقة والعسر . وقد دعت حكومة الحجاز الصحفيين فى شتاء سنة ١٩٣٠ إلى حفلة تتويج الملك عبد العزيز ، فعادوا يلهجون كلهم بالثناء على الأمن والنظام هناك .

وسئلوا عن شدّة الوهّابيين فى معاملة من لا يُرخون لحاهم ومن يدخّنون، فهوّنوا الأمر غاية التهوين . وكذلك اختفت الأنباء القديمة وجعل قصّاد الحجاز يصوّرون الملك عبد العزيز بن السعود صورة خلّابة تحببه إلى النفس وتدعو إلى الإعجاب به.

وقد ذهبت إلى قصره يوم دُعيت لمقابلته غداة وصولى مكة وفى نفسى منه صورة غير واضحة المعالم لا تستبين فيها قَسِمَات محيّاه ولا جِلسته أو وقفته . ونزلت من السيّارة أمام باب القصر، فتخطّيته إلى حديقة غُرست فيها نباتات صغيرة وأزهار . ورفعت طَرْفى فإذا أمامى درج فسيح لم أكد أُثبت نظرتى فيه حتى ٱلتفت الذى يتقدّمنى إلى اليمين . وسرت وراءه، فتخطّينا بابا ٱستدرتُ عنده فى دِهليز فرش بالحصباء، ثم ألفيت إيوانا أشار مضيفى إلىّ أن أدخله، وتلقّانى وزير المالية على بابه . وأردت أن أَسَرِّح بصرى فى المكان المفروش بالسجّاد كى أجتلى منه صورة كاملة؛ لكن وزير المالية ٱلتفت إلى الناحية المقابلة للباب، فالتفتُّ معه فألفيت رجلا ضخم الجِلْسة على مصطبة مفروشة بالسجّاد وقد لبس عَباءة — أو مشلحا على التعبير الحجازى — من الصوف البُنّىّ اللون، وٱعتجر بعمامة مخططة بالأحمر والأبيض من فوقها عِقال مُذهب . وتقدّم الشيخ عبد الله السليمان فأسرّ له شيئا، وتقدّم من ورائه الشيخ عباس قطّان، ثم تأخّرا وتقدّمتُ؛ فوقف عاهل العرب ومدّ إلىّ يده الضخمة فحيّانى وأشار إلى مقعد بجانبه فجلس وجلست، وٱنصرف الرجلان . وبدأ جلالته الحديث بقوله :

— لم أقابلك من قبل ولكنى أعرفك .

وٱغتبطت لهذه التحيّة الرقيقة التى لم تكن تتفق مع ما يبدو على وجه الرجل فى هذه اللحظة من ٱشتغال باله ، وأجبت :

— جئت أقدّم التحية وأعرض الرجاء فى تعاون المسلمين لرفعة هذه الأماكن المقدّسة .

وكأن لم ينس الرجل ما كان بينه وبين مصر فى خلال السنوات العشر الأخيرة من خلاف، ولم ينس النزاع الذى ٱستحال حربا بينه وبين إمام اليمن من سنتين ،

ولم ينس المناوشات التى كانت تقع على حدود العراق ، ولم ينس هـذه الخصومات تثور بين الأُمم العربيـة والأُمم الإسلامية آنا بعـد آن ؛ لذلك أسرع فى الجواب على ما أبديت من رجاء بقوله :

— نحن لا نبتغى من الدول الإسـلامية غير آمتناع أذاها ، ويكفينا صـدق مودّتها معنا . ونحن هاهنا فى هـذه البلاد بفضـل الله لا بإرادتنـا نحن . القرآن فى رقابنا ، وسيوفنا فى جُنوبنا . وأكبر ما نغتبط له أن تجتمع كلمة المسلمين . فالمسـلمون أكثرهم عرب ، بل كلهم عرب . وآجتماع الكلمة هو أوّل واجب على الدول الإسلامية .

لمّـا رأيت هـذا التحفُّظ من جانب الرجل ، وذكرت إلى ذلك أنه سيذهب إلى مِنًى على رِكَابٍ[1] بعد ظهر ذلك اليوم يوم التروية ، أى بعد ساعة أو نحوها ، آثرت أن أقتحم الحديث إلى غايتى دون تمهيد لهـا فقلت :

— ونحن المسـلمين نحرص على أن تكون مكة من الدول الإسـلامية بِحَنيف من الدول الأوربية ، وأن نتعاون جميعا لرفعة هذه الأماكن المقدّسة .

وأجاب وما يزال فى تحفُّظه :

— لقد عرفت رأيك فى مكة وما يجب أن تكون عليـه . وهـذه الحكومة تُشاطرك الرجاء فى أن تكون مكة مقرّ عصـبة الأُمم الإسلامية ومكان الإصلاح بين المسلمين إذا آختلفوا . أمّا مَنْ أراد إحسـانا إلى حجاج بيت الله فله أجره عنـد الله وله شكرنا . ونحن نعـلم أن الشـعوب الإسلامية تؤيّدنا بعواطفـها ، فأمّا الدول الكبرى كلها فتبغى رضانا .

سرّنى أن أفضى وزير المـالية إلى الملك بالحديث الذى دار بينى و بينه عن مكة ، وأن أبدى جلالته موافقته على رأيى ، ودار بخاطرى أن أُوضّحه ؛ لكنى حرصت على وقته فقلت :

(١) الركاب : الهجين .

— وفق الله هذه الحكومة لإعلاء شأن العرب .

وكان جوابه :

— نحن قد جئنا هنا فوجدنا أمنًا مضطربا فوطّدناه ، ووجدنا شيوخا لهم عاداتهم وشبّانا لا سلطان لهم ، فعالجنا أمر الشيوخ لنتزع بالحسنى ما خالف الدين من العادات ، وأتحنا للشباب الفرصة لتأييد الفكرَ الإسلامية الصحيحة .

وأمسك الرجل من القول عند هذا الحدّ على سعة الموضوع الذى استفتحه . إذ ذاك قلت :

— أخشى أن تحول مشاغلكم الكثيرة بسبب الحج دون طول الحديث .

وتحرّك الرجل الى ناحيتى حين سمع منّى هذا القول وقال مبتسما :

— أرجو أن نلتقى بعد الحج .

وودّعنى فانصرفت ، وشغلت مذ وصلت الدار بالتهيؤ لعرفات وصعوده . لكنى بقيت بعد ذلك أعود إلى التفكير فى هذا الرجل المديد القامة المفتول العضل القوى الساعدين الحادّ النظرة الضخم فى كل شىء ، وأفكر فى هذا الذى قاله أثناء حديثنا وفى شدّة تحفُّظه . فلما ذهبت ثانى يوم العيد الى تشريفته بمنًى وألفيته يقابل الناس جميعا ، مَنْ عرف منهم ومن لم يعرف ، ويقابلهم ببساطة بدويّة لا شىء من التكلف فيها ، ازددت عجباً منه وإعجابا به . وأفضيت بخواطرى عنه إلى بعض السوريين من موظّفى الحكومة العربية والى بعض الشباب العربى من أهل مكة ، راجيا أن أجد فى حديثهم ما تكمل به فى نفسى صورته . ولقد فهمت منهم أنه رجل محب للإصلاح ميّال بكل نفسه إليه ، وأنه ، وهو السياسى العليم بشدّة قومه ، يحاول ما استطاع التوفيقَ بين مذهبه فى الدين وبين الأمر الواقع ، ويحاول هذا التوفيق بمقدرة وذكاء يبدو بهما طبيعيا موفّقا .

لما اشتدّ رجاله النجديون فى تحريم التدخين على المقيمين بمكة جميعا ، سواء منهم أهل البلد ومن جاءوا إليها حاجّين البيت ، بدأت إيرادات المكوس (الجمارك) من

الدخان تهوى سريعا وتهبط هبوطا تأثرت به ميزانية الدولة التى تعتمد على المكوس بقدر عظيم . وتحدّث إليه رجاله فى هـذا الأمر من ناحيته المـالية ، ومن ناحية الدعاية به ضـدّ حكومته بالحجاز بأنهـا تغلو فى تحريم ما لا تحرّمه أكثر المذاهب الإسلاميـة . إذ ذاك أسرعت الحكومة بموافقته فنادت فى النـاس أن لَا إكراه فى الدين، وأن الذين يجيئون للحج من أهـل المذاهب المختلفة لا جناح عليهـم أن يدخّنوا أو أن يُحفوا الحاهم أو أن يفعلوا ما تُبيحه لهم مذاهبهم ما دام لا يُحِـلّ ماحرّم الله فى كتابه . والتمست الحكومة الفتوى بذلك عند عالم نجد الشيخ عبد الله ابن بليهد، فأفتى بأن الدخان لا يسكر كثيره ولا قليله فهو غير محرّم و إن كان مكروها؛ وبذلك أبيح التدخين لمن شاءه من الحجيج، وعادت موارد المكوس منه الى مثـل ماكانت قبل تحريمه .

وكان التجديون أشدّ الناس طعناً على "التليفون" و "الراديو" وكانوا يزعمون أن الشياطين هى التى تتكلم فيهما، فكانوا لذلك يحرّمون آستعمالها . ولمـا كانت الحاجة إلى هـذه المنشآت ماسّـة ولم يكن الآستغناء عنها ممكنا ، فقد دعا ابن السعود كبار المشايخ وسألهم : أتستطيع الشياطين أن تتلو القرآن ؟ فلما أنكروا ذلك طلب إليهم ان يُنصتوا لمـا فى سمّاعة التليفون، فاذا هو قرآن يتلوه قارئ جميل الصوت؛ فلم يبق لديهم ريبَ فى حِلّه ؛ وكان ذلك شأنَهم أمام الراديو . وكل ما آستطاع غُلاتهم بعد ذلك أن يقولوه : إن هذه الآلات تصلح لنقل السيّئ من الأخبار ولإذاعة المحرّم من الغناء وأسباب الطرب . لكن الرّد على هذا القول كان ميسورا . فكل ماأحل الله قد يكون ذريعة لأمر محرّم . الخمر بنت الكرم، ومن كروم الطائف كان بعضهم يصنع الخمر فى البـلد الحرام ؛ فلم يكن عملهم سببا لتحريم زرع العنب أو غيره من الفاكهة التى يصير عصـيرها خمرا إذا عُتّق . وأدوات القتـل هى بذاتهـا أدوات الصيد وأدوات الدفاع عن النفس وأدوات صدّ المغير على الوطن ؛ و إنمـا الإرادة والتمييز عنـد الإنسان هما اللذان يفرّقان بين الخير والشر، يبيحان الحلال ويحرّمان الحـــرام .

قص علىَّ مَنْ تحدّثت إليهم بعض هذه الأنباء ومثلها مما دلّنى على حيلة الرجل وسعتها وعلى دقة إدراكه لعقلية أهل بلاده والسبيل التى يسلكها لإقناعهم وتوجيههم نحو مايراه الخير والحق . وإن قوما من أهل الحجاز لا يحبونه قد أرادوا يوما أن يدلّوا على مبلغ قسوته، فكان ماذكروا دليلا على دقة الإدراك والقدرة على التفريق بين المبادئ الواجبة الأتباع والضرورات التى تبيح المحظورات . سمعنى هؤلاء أذكر ابن السعود وحكومته وأقول : لو لم يكن من أثرهم إلا أنهم أقروا الأمن فى ربوع الحجاز بعد الذى كان من فساده واضطرابه لكفاهم فخرا . قال أحدهم : لو عرفتَ أنهم لم يبلغوا ذلك إلا بمظالم ارتُكبت لما أضفت لهم كل هذا الفخر، فلقد كانوا يأخذون البرىء بجريرة المذنب، ويُلقون تبعة جريمة تقع على قبيلة بأسرها، فيستأصلون القبيلة استئصالا . ولولا ذلك ما تمّ لهم ما يفاخرون به من أمن مستتبٍّ يرى الناس اليوم استتبابه ولا يذكرون كيف كان هذا الاستتباب ولا الأرواح التى أزهقت فى سبيله .

قلت : وكم من القبائل استأصلوا أخذًا للبرىء بجريرة المذنب ؟

وأجاب محدّثى : المعروف عندنا قبيلة واحدة . لكنى لا أستطيع ولا يستطيع غيرى أن يجزم بأن غيرها من القبائل لم تُستأصَلْ كذلك . وما تزال الشدّة ديدن الحكام النجديّين . وإنك لتسمع اليوم عن أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم مايدلّ عليها ؛ وستراه وستقف من أخباره حين تزور المدينة على ما يقطع عندك بصحة هذا القول .

قلت : والقبيلة أو القبائل التى عوقبت لأن أفرادا منها كانوا يعيثون فى الأرض فسادا ، ألم تكن على علم بما يجترحه هؤلاء الأفراد ؟ أوَلم يكونوا هم يشعرون بحمايتها إياهم ؟ .

وسكت محدّثى هنيهة ثم قال : الحق أنهم كانوا يشعرون بهذه الحماية ، وقبائلهم كانت تعرف أمرهم ؛ لكنهم لايزيدون فى ذلك على شقىٍّ من أبناء الاسر

الكريمة يجد فى حياة أسرته الحماية مما يأتيه من أعمال شقاوته . أفعدلٌ أن تؤخذ الأسرة بذنبه؟ ! إن الله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ . ﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .

قلت : فإذا تعدّت شقاوة الشقىّ إلى الغير، فأنذر الأسرة أن تنزع منه حمايتها فلم تفعل ، وظل يأتى المنكر وهو لها جار ، أفليس من حق الغير أن يحمّل الأسرة وزره وأن يُنزل بها عقابه؟ .

لم يجد محدّثى ما يجيب به على سؤالى . وأردفت : إن كثيرا من الأمم لتصنع ما صنع ابن السعود هنا؛ فحماية الأمن واجبة على الأفراد وجوبها على الحكومة . ونحن جميعا مطالبون بأن نعاون أولى الأمر عليها . فإن لم نفعل ثم لم نقف عند التقصير، بل شعر الجانى بحمايتنا إياه، حقّ لصاحب الأمر أن يؤاخذنا بتقصيرنا، وأن يؤاخذنا أضعافا مضاعفة بحماية هذا الجانى . وهذه شدّة واجبة ما تعلّق الأمر بالسكينة التى يجب أن يُفيد الجميع منها . وإذا جاز لصاحب الأمر أن يتسامح فى انتقاض سياسىّ يوم ينتصر على خصومه، فليس من حقه أن يتسامح فى العبث بالأمن مع من يريدون كسب المال حرامًا كما يفعل أولئك الذين يعتدون على حجاج البيت . فالحاجّ ضيف الله . وأولى الضيف بالكرامة ضيف الله . ذلك كان الشأن فى الجاهليّة، وكذلك كان يقول جدّ النبىّ . أفلم يكن من الواجب على المسلمين من أهل هذه البلاد أن يُكرموا الضيف ما كان يُكرمه العرب فى الجاهلية ! . فإن لم يفعلوا وعاقب ابن السعود جُناتهم وحُماةَ الجناة فلا تثريب عليه، بل ذلك واجبه . ولذلك يشكر المسلمون جميعا فى مختلف أقطار الأرض هذا الذى جعل الطريق إلى البلد الأمين أمنًا وإلى بيت الله مهادَ سكينة وسلام .

ولقد صدّقت أحاديثى مع ابن السعود هذا الذى سمعت من حصافته وحسن رأيه . لمّا تمّ الحج وعدنا إلى مكة اجتمع قوم من بلاد مختلفة يتحدّثون فيما يجب لهذه الأماكن المقدّسة على المسلمين . وكنا من مصر ومن العراق ومن سوريا ومن

فلسطين ومن إيران . ووضع القوم قرارات لتمهيد طرق الحج وجلب الماء إلى منًى أيام الفريضة وغير ذلك مما شعرنا جميعا بضرورته حين أداء الشعائر . ووكّل القوم إلى جماعة منا أن يقابلوا ابن السعود وأن يحدّثوه فيما اجتمع عليه رأى الذين تحدّثوا فى الأمر . وأفضينا إلى فؤاد بك حمزة وكيل الخارجية بما حدث ، كى يضرب لمقابلتنا الملك موعدا . وقابلناه مساء ذلك اليوم ، وقرأ أحدنا ما وقّعه المجتمعون ، وشرحتُ مادار فى الاجتماع . فلما أتممنا حديثنا استوى الرجل فى مجلسه وكان فى غرفة القصر العليا وقال :

— إنى شاكر لكم تفكيركم فى أمر هذه الأماكن المقدّسة ، مقتنع بأن اجتماعكم ستكون له نتيجته متى عدتم إلى بلادكم . وغاية رجائى أن يبقى اتصالكم بعضكم ببعض من بعدُ ليتيسر الاستمرار فى القيام بشىء مما فكرتم فى القيام به . ورجائى الأجلّ من هذا أن تكون هيئتكم أكثر تمثيلا للشعوب الإسلامية . فأنتم ، على ما فهمت ، تمثّلون أربعة شعوب أو خمسة . ومن الشعوب الإسلامية من ليس ممثّلا معكم ، ومن له من المكانة ومن الآثار فى هذه البلاد فى الماضى ما لا ينساه أحد . فالهند مثلًا لم يمثّلها فى اجتماعكم أحد ، ولم يمثل أحد المغرب الأقصى ولا الصين . ثم إن فى كل أمة من الأمم الإسلامية ، وبينها أممكم ، رجالًا سبقت منهم إلى الحجاز وإلى الأماكن المقدّسة فيه أيادٍ وأعمالُ بِرٍّ . وخير أن ينوب هؤلاء عن بلادهم ؛ فأسماؤهم اللامعة فى هذا الموضوع مدعاة للنجاح . وأذكر بنوع خاص طلعت باشا حرب فى مصر . لقد عمل هذا الرجل لتيسير الحج ما استطاع ؛ وهو على رأس مؤسّسات كثيرة ذائعة الصيت فى البلاد الإسلامية كلها . فلا أخالكم إلا تريدون أن تجعلوه فى مقدّمة الذين يشاركون فى هذا العمل . والحكومة هنا ترحّب بكل إصلاح يريد المسلمون القيام به لخير المسلمين جميعا ولخير أهل هذه البلاد .

وخرجنا بعد تحيات بادلنا ابن السعود مثلها . وسألنى بعض إخوانى رأيى فيما حاز مشروعهم لدى الملك من القبول ؛ فأجبت بكلمات مُطَمْئِنة ؛ لكنى كنت أعلم

أن الأمر ليس هيِّنا بمقدار ما ظنوا . ولقد لفتُّ نظرهم ونحن فى اجتماعنا قبل أن نلق الملك الى أن إصلاحًا يراد إشراك العالم الإسلامى فيه لا بد لنجاحه من تحديد أعماله ونفقاته ووسيلة تحصيل هذه النفقات واليد الأمينة التى تتولى الإنفاق منها. لكنهم كانوا متأثرين بروح الحج ولمّا يمض على إتمامهم فرضه غير أيام ، فلم يأبهوا طويلا للاعتبارات العملية ، وحسب بعضهم أن الأمر لا يزيد على أن يكتتب بقدر من المال تتولى حكومة الحجاز إنفاقه فى الإصلاح ، ناسيا أن اكتتابا يتم فى وقت كوقت الحج من غير أن يوضع نظام لإنفاقه ، لا يمكن أن يؤدى إلى الأغراض التى يُقصَد إليها منه ، أو أن يزيد على صدقات تعطى وتتولى الحكومة توزيعها فى حدود المبالغ المكتتب بها توزيعًا لا يتصل بالإصلاح فى شىء .

ولم يكن ما لفتُّ نظرهم إليه وليد تفكيرى أو ملاحظتى وحدى ؛ فقد اتصلت قبل سفرى إلى الحجاز بأشخاص لهم تجارب فى الأمر وتحدثت إليهم فيه واقتنعت وإياهم بما أسلفت . وكان هذا اقتناع حكومة الحجاز من جانبها هى كذلك ؛ فقد تقابلت بعد يومين من حديث الملك وإيانا مع بعض رجال الحكم من الوزراء وغيرهم وتحدثنا ، فأنبئونى بأن مثل هذا الاجتماع يقع فى كل عام على أثر الحج ثم تقدَّم مثل هذه الاقتراحات إلى الحكومة ، وينصرف الناس بعد ذلك إلى بلادهم ، فتنسيهم مشاغل الحياة ما اجتمعوا فيه ، وتنسيهم ما تحتاج إليه البلاد المقدسة من إصلاح . على أن هؤلاء من رجال الحكم الذين حدثونى كانوا مع ذلك كبيرى الرجاء فى قيام حركة الإصلاح من ناحية مصر بعد الذى أبدته حكومتها ، والذى أبداه طلعت باشا حرب ، كما أبداه غير واحد من رجالها ، من صادق الحرص على إتمام أعمال لا مفرّ من إتمامها لخير المسلمين جميعا فى هذه الأماكن التى يقصد المسلمون جميعا إليها .

مع ما أبداه ابن السعود من الحصافة فى مقابلة هذا الوفد الذى ذهب إليه فإننى لم أفز منه بصورة أقدر بها مبلغ ذكائه ودهائه ، وإنما فزت منه بهذه الصورة

عشية سفرى من مكة الى المدينة . فقد استأذنت فى مقابلته لأشكر له ولحكومته ما لقيته من معاونتهم إياى فى بحوثى أثناء مقامى بمكة و بالطّائف ، ولأستأذن فى مغادرة مكة إلى المدينة لأعود بعد زيارتها إلى يَنْبُع فمصر ، وكان ذلك فى يوم السبت ٢١ مارس . وقد أخبرنى مضيفى أمين العاصمة أن وزير المالية سيكون فى انتظارنا بداره بجَرْوَل فى الساعة الثانية والربع بالحساب العربى ، أى حوالى الثامنة والربع مساء ، وأننا سنذهب من هناك إلى قصر الملك كى أقابله فى الموعد الذى حدّده . وذهبنا إلى دار وزير المالية ، فأقمنا بها ريثما تناولنا الشاى والقهوة ، ثم غادرناها إلى قصر الملك فبلغناه قبيل الساعة الثالثة .

وسأل ابن السليمان فقيل له إن القراءة انتهت . ذلك أن الإمام الذى يصلى بابن السعود يقرأ له بعد العشاء من كل مساء شيئا من تفسير القرآن فى تفسير ابن كثير أو شيئا من الحديث فى ابن كثير كذلك . ويشترك الحاضرون فى تبادل الرأى فيما يسمعون . وكثيرًا مايشارك الملك فى الحوار ابتغاء الحقيقة ، فهذا كتاب الله وهذه سنّة رسوله ، لكل مسلم منهما حظ ونصيب . فيهما هدى لكل مسلم ، وهما سبيله إلى الله ؛ فالكل متساوون أمامهما لا تفاوت بينهم بسبب مناصبهم أو جاههم أو مالهم . ويحضر الحاج عبد الله فِلْبى — أو سانت جون فلبى إن شئت — هذه الجلسات وقد يأخذ فى الحديث بنصيب . فهو قد درس أمور الإسلام دراسة دقيقة و بلغ منها مبلغا جعله يفضّلها ، باعتبار أنها نظامٌ ، على الديمقراطية وغير الديمقراطية من نُظُم الاجتماع المعروفة اليوم ؛ كذلك ذكر لى حين زرته بداره بظاهر مكة . فاذا تمّت القراءة انسحب الملك إلى مخادعه وانصرف الحاضرون الذين يجتمعون فى كل مساء حوله يصلّون معه ويشاركون القارئ الرأى فيما يقرأ . أمّا فى هذه الليلة فقد جعل الملك موعدى بعد تمام القراءة ليخلو لنا الجوّ . وقد دخلت عليه فى هذا البهو السماوى الكبير الذى كان فيه حين قابله الوفد من أيام ، فلقينى هَشّابَشًّا من غير تحفُّظ . وسقانا الخادم القهوة ثم انسحب ، و بقيت أتحدث وأستمع ساعة شعرت أثناءها أنى انتقلت على الزمن إلى عهود العرب الأقدمين ، لولا ما كان يتناوله الحديث من شؤون متصلة

بحياة العالم الحاضر . ولقد غادرت الرجل بعد هذه الساعة شاكرًا رقّة عواطفه مقدّرًا هذه الثقة التى انعقدت بيننا أواصرها بعد الذى كان من تحفّظه أوّل ما لقيته يوم التّروية ، راجيًا أن تحقق الحوادث ظنّى فتزيل ما بين مصر وبينه من جفاء . فلقد كنت لقيت رئيس الوزارة المصرية قُبيل سفرى ، وأفضيت اليه بما يتردّد فى خاطرى من الأسف للجفوة بين مصر وحكومة البلاد الإسلاميّة المقدّسة . ولمّا بادلنى على ماهر باشا الرجاء أن تزول هذه الجفوة على رغم ما فى نفس الملك فؤاد من الاعتقاد بعدم صراحة هؤلاء العرب وصدق إخلاصهم فيما يقولون ، تحدّثت فى ذلك الى وزير المالية السعودية والى وكيل الخارجية فؤاد بك حمزة ، كما أفضيت به الى رجال القنصلية المصرية بجُدّة . ولقد ترك الحديث الذى دار بينى وبين ابن السعود تقديرا للرجل فى نفسى أكتفى عن بيانه برواية ما وقع تاركا لمن شاء أن يُبدى فيه من الرأى ما يشاء .

بدأت حديثى بشكر جلالته وشكر حكومته على معاونتهم إيّاى فى بحوثى ، وأبديت له عظيم إعجابى لما تمّ فى الحجاز وخاصّةً فى أمر الأمن ، ورجوت له ولحكومته دوام التوفيق فيما أخذوا أنفسهم به من إصلاح هذه الأماكن المقدّسة ، وما يعتزمون فيها من مشروعات لخير أهلها وخير المسلمين الذين يقصدونها جميعا . هنالك قال جلالته :

— نحن لا فضل لنا فى شىء من هذا و إنما الفضل كله لله . وأنا لم أفكر يوم تركت نجدًا إلى هذه البلاد فى حكمها أو فى الإقامة بها . ولقد بقيت معتزما العَوْد إلى بلادى متى تمّ لى مقصدى من تأمين حدود نجد والحصول للنجديّين على حريّة المجىء الى الحجاز لأداء فريضة الحج . لكنّ إرادة الله كانت غالبة ؛ فلم يكن بدّ من نفاذها ومن أداء ما فرض الله علىّ أداءه .

” لما فكرت منذ خمس وثلاثين سنة فى القيام ضدّ ابن الرشيد كى أسترد منه حقوق آبائى لم يكن حولى يومئذ من يؤازرنى . ولقد عمل آبائى منذ عشرات

السنين ليقرّوا التوحيد الصحيح وحكم الكتاب الكريم فى هـذه الربوع التى آنبعث منها نور التوحيد؛ فرأيت هذه الدعوة خير ما أقوم به وما أُقيم على أساسه جهادى. وعاهدت أربعين رجلا من أهلى فاقسموا لَيَنْصُرُنّنى فيما أريد أو نموتَ جميعا. وخرجنا نبغى "الرِّيَاض" وسيوفنا معنا واعتمادنا على الله، وغامرنا مخاطرين والظفر يحالفنا حينًا وتدور علينا الدائرة حينا آخر. ثم استقر لنا الأمر بالرّياض، والتف حولنا من العشائر من كان ملتفًّا حول أجدادنا. ولما آستتبّ لنا الأمر فى نجد رأيت الشريف وأبناءه من حولى، ورأيت الملك حسينا فى الحجاز يحاول أن يصدّ قومى عن بيت الله ويأبى أن يتصالح وإيّانا فى مؤتمر الكُوَيْت. عند ذلك طلبت إلى رجالى أن يذهبوا إلى الطائف وأن يحتلّوها وأن يقفوا عندها حتى أعرف ما يؤول إليه الأمر من بعدُ. ولقد قدّرت يومئذ أن انجلترا لا يرضيها أن نتقدّم فى الحجاز وأنها ستقف منّا ما وقفت من قبلُ صديقةً وحاميةً للملك حسين. وكنت حريصًا على آستبقاء ما بينى وبين الانجليز من علاقات المودّة. لكنى رأيت حسينا ينقض كل عهوده معنا ومع غيرنا ولا يعبأ بعلاقات الصداقة يربط بها بينه وبين الأُمم الاسلاميّة المختلفة؛ فلم أَرَ بدًّا من إقناعه بضرورة الاعتدال؛ وآحتلالُ الطائف خير وسيلة لهذا الاقناع. وأقام رجالى ببادية الطائف زمنا، آنهزم أثناءه رجال الحسين وتضعضعت قوتهم. وعزّ على الملك حسين أن يتصالح وإيّانا وقد كان يحسب فى مؤتمر الكويت أنه قدير أن يفرض علينا إرادته؛ فآثر الآنسحاب من مكة الى جُدّة والنزول عن الأمر لآبنه علىّ. وتوسّطت انجلترا أثناء ذلك تريد الصلح. على أن حادثا وقع دعاها أن تترك الأمر فى الجزيرة لمن يتمّ له الغلَب. ذلك حين طرد الأتراك الخليفة العثمانى من بلادهم وتلقّته انجلترا حامية إيّاه. فقد آرتجّ العالم الإسلامى لهذا الحادث، إذ قامت جمعية الخلافة فى الهند تنادى بأن الخلافة من أمر المسلمين دون سواهم. وتَنَادَى الناسُ من البلاد المختلفة أن أمر المسلمين فى شؤونهم الدينيّة يجب ألا تتدخّل فيه دولة مسيحيّة. من أجل ذلك آثرت انجلترا أن تترك المسلمين يفعلون ما يشاءون، حتى لا تتّهم بأنها تنصر فريقا منهم على

فريق لأغراضها السياسية . وشجّعنى ما حدث بعد ذلك على التقدم، فحاصرت جُدّة ونقلت ميدان جهادنا اليها، كما ذهبت قوات نجديّة الى المدينة .

« إلى يومئذ لم يكن حكم الحجاز قد دار بخَلَدى . وكلُّ ما كنت أبتغيه أن أجلى عنه جماعة الأشراف فأخلِّصَهُ بذلك من مظالمهم ومن عبثهم ؛ فاذا فرغت منهم جعلت الأمر فيه للمسلمين كافّة يرون فى أمره رأيهم . ولقد أذعت على العالم الإسلامىّ كله رسالة صارحته فيها بهذا العهد أن يكون الأمر له فى مصير الأماكن المقدّسة . وكنت كلما تحدَّثتْ إلىّ انجلترا أو تحدَّث إلىّ غيرها فى الصلح كان هذا العهد جوابى لهم ، وهذا العهد هو ما كاشفتُ به الأستاذ الشيخ المراغى حين جاء فى سنة ١٩٢٥ مع عبد الوهاب بك طلعت مُوفَدين من قِبَل جلالة ملك مصر للبحث فى أمر الحجاز . ولقد زدتُ عليه أنّى لا أبتغى هاهنا مُلْكا ولا خلافة ، وأنى أُرَحب بملك مصر ملكا للحجاز برضا أهله . وكان عزمى متّجها الى عقد مؤتمر لتنظيم شؤون الحجاز بمشورة ذوى الرأى فى العالم الإسلامىّ يكون له اختيار ولىّ الأمر فيه . وأذعت منشورا بذلك على أهل الحجاز كى يُخلدوا الى السكينة حتى ينعقد المؤتمر لينظر فى مستقبل الحجاز ومصالحه .

” لم أكد أُذيع هذا المنشور حتى جاء إلىّ وجوه أهل الحجاز ، وجاء إلىّ رؤساء العشائر من نجد ، وكلهم غاضب يحتجّ على هذا المصير الذى أُريده لهم . قال أهل الحجاز : كيف يقرّر المسلمون من مختلف أقطار الأرض مصيرنا وطريقة الحكم فى بلادنا والحجازُ لنا ونحن أهله وأولى الناس بالرأى فى أمره وباختيار الحاكم الذى يتولّى شؤونه ، وليس للمسلمين أن يشاركونا فى غير الحجّ وما يتّصل منه بشأن مكة والمدينة ! . وقال رؤساء العشائر من أهل نجد : نحن فتحنا هذه البلاد وطهّرناها من الأشراف واخترناك قائدا لنا وأميرا علينا . فإن شئت أن تنزل عن القيادة والإمارة فإنما يعود أمرها لنا لا للمسلمين من الهند والجاوة والصين ممّن لا يعرفون من شؤون هذه البلاد شيئا . وقال أهل الحجاز : إنك هنا منذ سنين عرفناك أثناءها وعرفنا

أغراضك وطريقة حكمك ، فنحن نختارك ملكا علينا . وقال رؤساء العشائر من اهل نجد : أنت أميرنا المختار ما لم تتنزل على رغمنا عن هذه الإمارة . وألحّ هؤلاء وأولئك وأعادوا القول فى أيام متعاقبة ؛ فلم يكن لى بدٌّ من النزول على إرادتهم بعد أن رأيت الشعوب الإسلامية لا تبدى بأمر المؤتمر الذى دعوت إليه أية عناية . وكذلك بايعنى أهل الحجاز ملكا عليهم .

قلت :

— لعل هذا ما أحفظَ ملك مصر . فقد فهم من حديثكم مع الأستاذ المراغى أنكم جعلتم أمر الحجاز له ، وأنكم كنتم على أُهبة معاونته فى تحقيق هذا الغرض . فلما بايعكم أهل الحجاز ملكاً عليهم عدّ الملك فؤاد هذا الأمر نقضا لعهد عاهدتموه عليه .

قال :

— هذا ما لم يخف علىّ يومئذ . ولقد فكرت طويلا فى كلام أهل الحجاز ورءوس العشائر من نجد قبل أن أقدم على قبول مُلك الحجاز مخافة ما قيل . لكن الأمر كان قد تحرج إذ بلغ القلق من نفوس أهل الحجاز على مصيرهم ما خشيت معه اضطراب الأمر إن لم أقم بعمل حاسم . ولم يكن العمل الحاسم ممكنا بقوة السيف وقد كان موقف رؤساء العشائر من نجد ما شرحت لك . ولو أننى حاولت يومئذ شيئا من ذلك لازداد الأمر اضطرابا ولقامت الفتنة بين عشائر نجد وانقلب الأمر الى نقيض ما أبغى ويبغى كلّ مسلم محبّ لهذه البلاد .

" ولقد دعوت الى المؤتمر ، واجتمع هاهنا بمكة بعد ذلك الحادث بأشهر ، ووضع قرارات لم ينفّذ منها شىء ؛ لأن المطامع فى ملك الحجاز انكمشت فلم تحرك المؤتمرين عاطفة لها فى نفوسهم سلطانُ هذه المطامع . على أننى بقيت عند رأيى من أننى لا مطمعَ لى فى الخلافة . ولقد دعا جلالة الملك فؤاد بمصر الى مؤتمر للنظر فى مسألة الخلافة بعد أن انفضّ مؤتمر مكة ؛ وكان من رجالى من دُعى إليه . وقد بعثت يومئذ الى جلالة ملك مصر برسالة رقيقة ذكرت فيها مؤتمر الخلافة

ودعوة رجالى اليه، وقلت : إننى أوّل من يبايع بها اذا بايع أهل مصربها مليكهم، وأبديت الأسف ألّا يستطيع رجالى الذين دُعوا الى المؤتمر أن يشتركوا فيه لأنهم لم يُدْعَوْا عن طريق حكومتهم، وأنهم وقد بايعونى مَلِكًا عليهم، يبايعون معى بالخلافة من يبايعه أهل مصربها .

" مع ذلك ظلّت الحكومة المصرية حانقة علينا . ولما جاء المحمل فى تلك السنة التى كان فيها مؤتمر الخلافة لم يحفل رجاله بعقائد أهل نجد الدينيّة . ومع أننا رجوناهم أن يحتاطوا لكى لا يقع آحتكاك بسبب هذه العقائد وعملنا جهدنا لضبط عواطف رجالنا، لقد حدث ما تعرفونه من إطلاق حامية المحمل نيران المدافع على المسالمين من النجديّين . وقمت بنفسى أول ما بلغنى الخبر وقام معى أبنائى فعملنا جهدنا حتى حصرنا الشرّ فى أضيق حدوده . ولم أرِد أن أُكبر من شأن الحادث فلم أذِع أنه قتل فيه خمسة وستون رجلا وخمس وثلاثون امرأة من عشائر نجد . وإنما فعلت ذلك إبقاءً على ما رجوت بقاءه من علاقات المودّة بينى وبين مصر . لكن حكومة مصر عاملتنا معاملة أدّى بنا الحذر إلى توقُّعها وإن لم يجرِ بخاطرنا أن تبلغ ما بلغت . فقد أبدت حكومة مصر أنها سترسل كسوة الكعبة أيًّا كان الرأى فى المحمل وإرساله . وبقينا ننتظر مجىء هذه الكسوة الى أواخر ذى القعدة، إذ جاء النبأ بأن حكومة مصر لن ترسلها . وهذه مسألة لاضرر منها؛ فنحن قادرون على القيام بها . لكنّك تُقِرّنى على أنها مسألة تَغيظ . فأمرت رجال حكومتى فعملوا ليلا ونهارا حتى كسونا الكعبة فى العاشر من ذى الحجة على سابق العادة . ومن يومئذ أنشأنا دار الكسوة بمكة، فأنشأنا بذلك صناعة لم تكن متداولة فى هذه البلاد من قبل " .

قلت :

— إننى أعتقد أن الوقت قد حان لحل المسائل المعلّقة بين مصر والحجاز جميعا . فقد أثبت الزمن أن لا خير لأيّهما فى بقائها من غير حل . وما بُذل من المجهود فى هذه السبيل أثناء السنوات الماضية كان يعترضه قرب العهد بهذه

الحوادث التى تركت من الأثر فى النفوس ما لم يتيسّر التغلّب عليه . ولقد فهمت قبل حضورى الى هنا من حديث جرى بينى وبين رئيس الوزارة المصرية أنهم يرحّبون بإعادة النظر فى كل اقتراح مقبول يُعرَض عليهم . وفهمت من محادثاتى مع رجال حكومتكم هنا أنهم حريصون من جانبهم على حل هـذه المسائل ، خصوصا وقد حلّ الزمن غير واحدة منها كمسألة الجنسيّة . هذا، وعواطف الشعب المصرى إزاء الحجاز عواطف مودّة صادقة ؛ وشعب الحجاز يبادل هـذه العواطف بمثلها فيما رأيت . وهذا فى نظرى خير عربون لتسوية حالة معلّقة يودّ الجميع تسويتها .

قال جلالته :

ــ لقد جاءنى قنصلكم حافظ عامر من خمس سنوات يحدّثنى مثل هذا الحديث . وقلت له يومئذ : اِسْمَعْ يا حافظ ! إنكم تقولون إنكم أكثر منا حضارة وعلما، و إننا قوم من البـدو بيننا و بينكم فى ذلك مراحل . وأنا أوافقكم على هـذا . فإذا كان ذلك شانكم وكنتم ترون أننا نطمع فى مسألة صغيرة كالاعتراف بنا كى تكون مقدّمة لتسوية مسائل ترون فى تسويتها خيرا لكم وللمسلمين وللبلاد المقدّسة، فلم لا تُرضوننا بهذه المسألة الصغيرة ، مسألة الاعتراف ، لتأخذونا فى كنفكم وتحت جناحكم ؟! . إن عدم اعترافكم بملكى على الحجاز لن ينزع هذا الملك عنّى بعد أن اعترفت به انجلترا وفرنسا و إيطاليا وكلّ الدول العظمى . فالمُلْك أمر واقع لا ينزعه إلا أمر واقع يتغلّب عليه . وما بيننا و بينكم من المصالح قد اقتضاكم إنشاء قنصليّة لكم بجُدّة ، واقتضانا أن يكون لنا وكيل لديكم بالقاهرة، يرعى هذا وذاك مالا سبيل الى إنكاره من هذه المصالح . أليس عجيبا أن يكون ذلك واقعا، ثم تتجاهله وتتجاهلونه ! . ولقد أبدى حافظ عامر اقتناعه بأقوالى وما عرضه فؤاد حمزة عليه من حلول للمسائل التى بيننا وبين مصر، ووعد أن يُقنع الحكومة المصرية برأيه . لكنه لم يعد بعـد ذلك الى الحديث فى هذه المسائل .

"ولم يفتنى فى وقت من الأوقات أن أعمل ما استطعت لتقريب مسافة الخُلْف بين هـذه البلاد ومصر . فقد أرسلت حافظ وهبة فى سنة ١٩٢٨ إلى مصر فعرض

حلولا كثيرة ، لكنه لم يجد استعدادا من لدن مصر لقبول ما عرضه . وإننى لسعيد بما ذكرته من حسن استعداد الحكومة المصرية الآن ؛ فإننى أكنّ لجلالة الملك فؤاد كل احترام ومحبة وأعتبره فى منزلة والدى عبد الرحمن . وأرجوك متى عدت إلى مصر أن تبلّغه عواطف مودّتى الصادقة ورجائى فى أن تكون علاقات مصر والبلاد العربيّة علاقات مودّة وإخاء إسلامىّ صادق[1] » .

شكرت لجلالته هذه العواطف نحو مصر ومليكها ، وشعرت بأننى استنفدت غير قليل من وقته ، فقلت :

— لقد سعدتُ بما آتصل بين جلالتكم وبلاد العراق من حسن العلاقة ، وسعدت كذلك بما كان من ترحيبكم بوساطة المسلمين بينكم وبين إمام اليمن . ويُسعدنى أن يتّصل هذا العمل فى توثيق أواصر الموَدّة بين هذه البلاد العربية والإسلامية المتجاورة . وإنى أستأذن جلالتكم فى مغادرة مكة شاكرًا راجيا لكم ولرجال حكومتكم كل التوفيق .

وحسبت الرجل يتحرّك فيأذَن لى بالانصراف ؛ لكنّى رأيته آستدار قليلاً إلى ناحيتى وتوجّه إلىّ أكثر من ذى قبل وقال :

— اِسْمَعْ يا أخى ! إن هذا الكلام الذى تقوله حسن . وهذه البلاد العربيّة والإسلامية المتجاورة ترتبط منذ مئات السنين بروابط قويّة إذا تعهّدها من يَعنيه أمرها آزدادت متانة وقوّة . وليس أحبّ إلىّ من أن تتّحد هذه البلاد كلها فى أغراضها مع بقاء كلٍّ منها محتفظا بكيان سياسى ليس له وحده الخيار فى تغييره . لكنّى أقول لك : إن الدعوة الى هذه الوحدة لا يجوز الاعتماد فيها علينا مَعْشَرَ الملوك ، ولا يجوز الاعتماد فيها على الحكومات . فنحن مرتبطون مع أسلافنا بماض له فينا أثر لانستطيع الفكاك منه ، ونحن مرتبطون كذلك باعتبارات سياسية لها عندنا وزنها . ثم إن للملوك مطامع تجعلهم

---

(١) لم تتح لى الفرصة أداء هذه الرسالة وقد اختار الله الملك فؤادا إلى جواره قبل أن أستطيع مقابلته بعد عودى من الحجاز .

يحيدون حرصًا على تحقيقها عن الفكرة التى لا يُضطر أمثالك أن يحيدوا عنها لمثل هذه الاعتبارات . والحكومات خاضعة للأحوال المحيطة بها، مضطرة لمجاراة ظروفها . ويوم علمت أن سعد زغلول قَبِل تولّى الوزارة فى مصر لم يخامرنى ريبٌ فى أنه سيضطر الى النزول على حكم الظروف فى أمر الغرض الذى ندب نفسه كى يحققه لبلاده . فأمّا الرجال الذين يؤمنون بفكرة ويَهَبُون لها حياتهم لا يبتغون من ورائها حكما ولا سلطانا، وإنما يريدون لها أن تتحقق، فأكثرُ أمرهم أن يصلوا إلى غايتهم . وفكرة الإخاء الإسلامى فكرة سامية بلا ريب من غير حاجة إلى سند لها من وحدة سياسية تؤازرها . وانى لأرجو لك ولأمثالك ممّن يدعون اليها التوفيق والنجاح » .

واعتدل ابن السعود ووقف بقامته الطويلة ومدّ إلىّ يده الضخمة وصافحنى بحرارة، ورجا لى الخير قائلا : « اعتَمِدْ علىّ يا أخى واعلم أننى دائما أخوك » . فشكرت له هذه العواطف وودّعته راجيا أن أراه من بعدُ بالحجاز وبنجد حين أعود إلى هذه البلاد .

خرجت من عنده وهبطت الدرج يتقدّمنى حاجبه . وألفيت وزير المالية وأمين العاصمة بالطابق الأوّل ؛ فلما رآيانى ذكرا لى والغبطة بادية عليهما أننى قضيت مع الملك ساعة كاملة . وبادلنى وزير المالية التحيّة، وعدت مع مضيفى أمين العاصمة إلى داره وأنا أفكر فى هذا الملك البدوىّ وحديثه، وأذكر ما قاله لى أولئك الصحفيّون الغربيّون الذين أُعجِبوا بذكائه ومقدرته على كسب محدّثه ، وأذكر حديث أولئك الحجازيّين الذين كانوا خصومه أوّل دخول النجديّين مكّة، والذين بلغت خصومتهم أن هجر أكثرهم بلاده، فذهب منهم الى الهند من ذهب، وذهب الى جاوة من ذهب ، ثم عادوا بدعوة منه وأصبحوا اليوم فى مقدّمة العاملين مع رجال حكومته من أهل نجد . من هؤلاء شاعره اليوم الأستاذ إبراهيم الغزّاوى؛ فقد هجر هذا المكىّ الحجاز وذهب الى الهند وأقام بها واحتمل لفراق أهله وذويه أشدّ الألم ، ثم لم يعد إلا بدعوة من ابن السعود وإلحاح من أهله

أن يرجع إليهم ليرى بعينه أن الأحوال بالحجاز صارت الى خير مما كانت فى كل عهد سلف . ومنهم الشيخ طاهر الدبّاغ الذى يتولّى اليوم إدارة المعارف، والذى سافر مع الغزّاوى الى الهند وظل مقيماً بها الى ما بعد عودة الغزّاوى منها . وغير هذين كثيرون كانوا كلهم يتمنّون أن تكون حكومة الحجاز للحجازيّين ، وأن يكون ملك الحجاز رجلا من أهل الحجاز. لكنّهم جميعا يقرّون بأن أحوال الحجاز اليوم خير مما كانت فى أى عهد عرفوه .

ولقد أقرّ هذا القول كثيرون من غير أهل الحجاز ، ومنهم جماعة من بنى وطننا المصريين . فقد تحدّثت إليهم وسألتهم فيما يشكو بعض شبّان الحجاز منه من إنفاق أموال الدولة فى أمور ليست جليلة الخطر فى حياة الدولة ، ومن إسناد أعمالها الى غير أبنائها ؛ فقيل لى إن كثيرا من الأمور فى حاجة الى الإصلاح هنا ، ومن المستطاع أن توزّع ميزانية الدولة على نحوٍ أكثر عائدة وجدوى مما يحدث اليوم . فأمّا ما لا مِرْيَةَ فيه فهو أن الحجاز لم يتمتّع منذ مئات السنين بما يتمتّع به اليوم من أمن، وأن الأخلاق العامّة فى المدن أرقى كثيرا مما كانت ، وأن ما يُنْفَق فى التعليم وما اليه من مرافق الإصلاح أكثر مما كان يُنفق فى العهود السالفة جميعا . قال لى طبيب مصرى أقام بمكة سنوات طويلة : "إننى لم أر فيما رأيت أو سمعت عهدا كهذا العهد بالنسبة للحجاز . وحسبى أن أذكر لك أنّ أُمّ القُرى هذه كانت مثلًا فى الاستهتار الخُلُق قبل حكم النجديّين ، حتى لقد كان الرجل لا يأبى أن يسير وفى صحبته غلام يعرف الكلُّ صلته به، وأن كل شىء فيها كان مباحا فى رأى أهلها لأن الحجّ إليها مصدر المغفرة . أما اليوم فلا يقع شئ من ذلك فى العَلَن ؛ وما يتصل أمره بأولى الشأن مما يقع خفيةً يعافه الناس فلا يجد مشجّعا عليه . ولو أن الحكومة وجدت أموالا أكثر مما تجد، ورجالا أقدر وأكثر كفاية ممّن عندها اليوم، لاستطاعت أن تقوم بأضعاف ما قامت به من إصلاح" .

ولقد أبدى مثل ملاحظة الطبيب المصرى بعض رجال الحكومة العربيّة السعوديّة حين ذكروا أنّ ابن السعود قد شُغل منذ فتح الحجاز بحروب خارجيّة

وثورات داخلية آستنفدت الكثير من جهده ومن مال الدولة ؛ ولولا ذلك لكان الإصلاح أشمل وأوضح . ويرجع بعض الثورات إلى أن قومًا من رءوس العشائر الذين أخلصوا للدعوة الوهابيّة ما أخلص آبن السعود، كانوا يبالغون فى إخلاصهم، حتى ليعتبرون غيرَهم من المسلمين كفاراً ومشركين . لذلك لم يرضهم أن يتصالح ابن السعود مع غيره من المسلمين على المذهب أو أن يتهاون فيما يرون التهاون فيه إقرارًا للكفر ؛ ومِن ثَمَّ لم يستطع ابن السعود أن يوجّه من الجهود إلى الإصلاح غاية ما يرجو ؛ لأن الاستقرار الواجب للقيام بالإصلاح ما يزال معرّضا لهزّات الثورات؛ والحروب تستنفد من أموال الدولة أكثرها .

أمّا عن الرجال وكفايتهم فلابن السعود فيهم رأى لم يَضَنّ علىّ به أثناء هذا الحديث الذى رويته، قال: «لقد فكرت فى الاستعانة برجال من المشهود لهم بالقدرة والكفاية من أهل البلاد الإسلاميّة المختلفة . لكنّنى قدرت أن يكون لهؤلاء الرجال من المطالب فى الإصلاح ما قد تنوء به موارد هذه البلاد . فإن أنا أجبتهم إلى إصلاح لا أشك فى فائدته اضطُررت إلى اقتضاء أموال لا يهون على الناس دفعها فتعرّضتُ لآمتعاضهم . وإن أنا لم أُجبهم إلى ما يطلبون من هذا الإصلاح خلقت لنفسى منهم خصوما ، وما أشدّ حاجتى إليهم أعوانا ومؤازرين ! . لذلك أكتفى بما تطيقه موارد البلاد وما يطيقه أهلها من تدرُّج بطىء . وقديما قالوا : "فى الأناة السلامة" » .

لست أريد فى ختام هذا الفصل أن أحكم لآبن السعود أو عليه . وحسبى ماقصصت من هذا الحديث الذى رويته عنه، وهذه الأنباء التى يقصّها الناس عن آثار حكمه . وإنما أُضيف إلى ما سبق أن الرجل خرج بنجد من عزلة كانت فيها بعيدة عن العالم، وأتاح لهؤلاء البدو أن يتصلوا من طريق المخترعات الحديثة بعالمنا السريع التغيّر والتطوّر . فهذا النجدىّ الذى كان لا يعرف غير بعيره أو جواده من عشر سنوات مضت قد ألِف السيّارة والطيّارة والإذاعة اللاسلكيّة، وأدرك أنها

من عمل الإنسان، وكان يحسبها من قبل من عمل الشيطان، وهو اليوم يُفيد من مزاياها ما يقرّبه من العصر وأهله ويُعِدّه لتطور سريع لعلّنا نراه بأعيننا عما قريب.

روى بعضهم حديثا لطبيب أوربى يقيم بالأحساء أو بالكُوَيت يدعى الدكتور "ديم" قال فى أثنائه : " لقد غزا أهل نجد الحجاز بقوة سواعدهم وثابت يقينهم . ولم يجد الأعرابىّ القليل الحاجات والمطامع مشقّة فى الانتصار على ابن الحجاز الذى ألِف رخاء العيش وطمأنينته. لكن أهل الحجاز غزوا نجدًا فى حياة أهلها وفى عاداتهم غزوًا أعمق أثرا. فهذه الصمادة الحجازية البيضاء النظيفة قد بدأت تحل عند النجديين محل صمادتهم ذات المربّعات الحمراء . وأهل نجد يشربون الشاى اليوم أكثر مما يشربه أهل الحجاز، وكانوا قبل الغزو لا يعرفونه ولا يعرفون إلا القهوة . ومن طريق العيش ورخائه بدأت أخلاق أهل نجد تعرف الهوادة والتسامح، وكانت من قبل متعصّبة لا يطيق أحدهم أن يضع يده فى يد من لا يدين بمذهبه ولا يعتقد عقيدته " .

مدلول هذه العبارة من كلام الدكتور "ديم" أن تبادل الغزو بين أبناء نجد وأبناء الحجاز قد مهّد الطريق لوحدة فى شبه الجزيرة أدنى إلى الاتصال بحياة العالم الحاضر، وأدنى كذلك إلى انتشار قوة جديدة فى حياة هذا العالم لم تكن معروفة من قبل .

وابن السعود هو الذى مهّد لهذه الوحدة ، وهو الذى لفت أنظار المسلمين فى مختلف أنحاء العالم إلى البلاد العربيّة وأهلها، ولم يكن يفكر أحد فيها من قبل إلا من جهة أنها البلاد المقدّسة .

ترى هل لهذا البعث من مغزى فى حياة العالم الإسلامى؟ لا يزال الجواب عن هذا السؤال مطويًا فى ضمير الأيام .

الجمعـــة فى الحـــرم

المسجد الحرام مَثَابةُ المسلمين الذين يَفدون إلى مكة من أقطار الأرض جميعا فى أشهر الحج، وهو مثابتهم ما أقاموا بأُم القرى : يَفِدون إليه لصلاة الفجر وعند الظهيرة، ويعودون إليه لصلواتهم الأُخرى وللطواف بالبيت كلما هوت نفوسهم إلى التطوّف به . وهم يقضون فيه الساعات الطوال يتحدّثون أثناء النهار ويستمعون إلى جماعة من الفقهاء يحدّثونهم فى الإسلام ويفقّهونهم فى الدين قِطَعًا من الليل . وإن منهم لمن يقضى فيه يومَه يجاور البيت، ومنهم من ينصرف نهارَه إلى شؤون الحياة، فإذا أقبل الظلام قضى بالمسجد ليله يقوم إلا قليلا، يذكر الله كثيرا، ولا ينال من النوم إلا القدر الذى يكفيه لسعى النهار وتهجُّد الليل .

لذلك قلّ أن يصلّى بغير المسجد الحرام أحد من المقيمين بمكة على كثرة مساجدها . وما رأيت أحدا قام بهذه المساجد مصليًا على كثرة مرورى بها ووقوفى عندها؛ ولا تقام بها صلاة الجمعة مطلقا . ومن ذا الذى تطاوعه نفسه وهو بمكة على أن يصلّى بمسجد غير المسجد الحرام والإجماعُ منعقد على أن مثوبة الصلاة به تزيد على مثوبة الصلاة بغيره أضعافا مضاعفة . وهذا الإجماع صحيح أساسُه . فالإسلام دين جماعة ودعوة للجماعة، ولا شىء يمقته الإسلام كالخروج على الجماعة فى غير حق . ولا تجد الجماعة بمكة مكانا كالمسجد الحرام مقام بيت الله لتقوم بفروض الله فيه .

وصلاة الجمعة بالحرم من أروع مظاهر الإيمان فى الجماعة الإسلامية؛ هذا الإيمان القوىّ فى بساطته، البالغ فى قوته، والذى يجمع بين الحرية والنظام جمعًا لم أقف على ما يقرب من رفعته فى أىٍّ من المذاهب والنظم الحديثة أو القديمة التى اطّلعت عليها . ولقد رأيت فى أسفارى الكثيرة ببلاد يدين أهلها بغير الإسلام من شعائر العبادة ومن نُظُم الجماعة ما فيه مهابة ورهبة ونظام، ولقد حضرت صلاة الجمعة فى بلاد إسلامية شتّى، ولكنى لم أر فى شىء من ذلك ما قد يقرب فى جلال

مظهره وقوة روعته، وفى جمعه بين الحرية والنظام، وبين الاعتداد بالذات والإسلام لله، مما رأيت فى صلاة الجمعة بالمسجد الحرام؛ ولم يطبَع شيء من ذلك كله من الأثر العميق فى نفسى ما طبعته صلاة الجمعــة بالمسجد الحرام من أثر بالغ فى عمقه؛ فما أفتأ كلما أذكره أشعر به متغلغلا فى أطواء روحى، يسمو بها إلى ذروة الإيمان ويرقى بها إلى ما فوق مستوى الإنسانية الذى نألفه .

قصدت إلى المسجد ومعى صاحبي ودخلنا وما يزال بيننا وبين أذان الظهر فسحة من الوقت تزيد على ربع الساعة؛ مع ذلك وجدنا الأماكن الظليلة حينما دخلنا صحن المسجد قد اكتظّت كلها بالذين سبقونا إليها، وبقى صحن المسجد خاليا إلا من حمام الحِمَى . وسرنا نتخطّى الصفوف نلتمس لنا فرجةً بينها نقوم فيها للصلاة، فلا تقع العين بين الجالسين على موضع لواقف . ثم رأيت صاحبي وقف على قوم وتحدّث إليهم، ثم أشار الىّ فدنوت منه، فتفسّح القوم حتى استطعت أن أقف بينهم، وانطلق هو بين الصفوف يلتمس لنفسه مكانا آخر. وصلّيت ركعتين ثم جلست ما استطعت أن أجلس، وسرّحت الطرف فيما حولى. وأسرع إلىّ جار يمينى وجار يسارى فمدّ كل منهما يده مسلّما علىّ، بعد أن أتممت ركعتىّ، سلامَ تحية فيه مودّة وفيه إخاء . وتفرّست أثناء السلام فى وجه كل منهما فلم تَهْدِنى سِيمَا أيهما إلى جنسيته، ولا دلّنى على شيء إلا أنه ليس من أهــل هــذه البلاد . وعدتُ أسرّح طرفى ناحيــة صحن المسجد فإذا الناس يَفِدون إليــه فى سيل دافق ، يحاول السابقون منهــم أن يكون مجلسهم أدنى إلى منــبر الخطيب أو إلى إحدى المكبّريات حول الكعبة . وامتلأ الصحن فى دقائق حتى لم يبق موضع لواقف ؛ وجعل الوافدون إليه يتخطّون صفوفه يلتمسون لهم مكانا كما كنا نتخطى الصفوف فى ظــلال القِباب نلتمس لنــا مكانا . ومنهم من إذا تهيّأ له المكان جلس فيــه ، ومنهم من يؤدّى للمسجد تحيتــه بصلاة ركعتين . ولمــا لم يبق بالمسجد موضعٌ أقام النــاس خارجه يأتمّون لصلاة الجمعــة بإمامه، مكتفين بصلاة الجماعة وثوابها ، وإن لم يكن لهم ولا لكثيرين ممن وصلوا المسجد رجاءٌ فى سماع خطبة الإمام .

وعلا صوت المؤذّن بالنداء للصلاة : الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله، حىّ على الصلاة، حىّ على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله الا الله. ما أجمل هذا النداء وأعظم وقعه فى النفس ! إنها لتهتز له وتفيض حين سماعه إكبارا وتقديسا . والقلب والروح وكل جارحة وكل عضو تجاوب لسماعه وتردد صداه فى إيمان و إسلام. وكلما ألقى المؤذّن مَقْطعًا منه دوّى المسجد بالجواب عليه صادرا من عاطفة قويّة فى صدق إيمانها بالله؛ فلا يكاد المؤذّن ينادى: "الله أكبر، الله أكبر"، حتى يجيبه المسجد كله كلمة واحدة : "الله أعظم والعزّة لله" ؛ ولا يكاد ينتهى من ندائه : "حىّ على الصلاة حىّ على الفلاح" حتى يدوّى المسجد كله مجيبا: "لا حول ولا قوة إلا بالله" . و يربط هذا النداء وتربط هذه الإجابة بين قلوب المصلّين برابطة تزيد إخاءهم فى الله قوة على قوة ، فتنهار الفوارق بينهم ولا يبقى منهم قوىّ وضعيف ولا غنىّ وفقير، بل يصبحون رجلا واحدا وقلبا واحدا كله الإيمان بالله والتوجه إلى جنابه جل شأنه توجُّه صِدْق و إخلاص .

وأتم المؤذّن أذانه ، فقام من شاء يصلى ركعتين لله تعالى، وأقام القوم بألوفهم المؤلفة ينتظرون خطبة الخطيب ليؤمّهم بعد ذلك فى صلاة الجمعة .

وسكن كل من فى المسجد وما فيه حين بدأ الخطيب يتكلّم . أمّا نحن البعيدين عنه فلم نسمع ممّا قال شيئا ؛ وما أحسب الأكثرين من الحاضرين كانوا خيراً منّا فى ذلك حظًّا . وأنّى لصوت رجل ينطلق فى الفضاء فلا يحجزه جدار أن يصل إلى هؤلاء الذين جلسوا فى مئات متلاصقة من الصفوف وكلهم متوجّه إلى ناحية الكعبة من جهاتها الأربع ! . قلت فى نفسى: أليس من الخير أن يستعين الخطيب بمكبّر للصوت ينقل خطبته إلى جميع المصلّين فى المسجد وفيما وراء جدرانه ! . إن خطبة الجمعة ركن من أركانها . والغرض من خطبة الجمعة إرشاد الناس إلى ما يجب عليهم فى أمر دينهم ودنياهم حسب الأحوال المحيطة بهم. وهى تتكرّر فى كل أُسبوع؛ لأن الحوادث تتلاحق بما يحتاج الناس معه إلى من يُرشدهم إلى الخير يسلكون سبيله .

وأى رشد إذا لم يسمع الناس لقول المرشد ! وما أحرى هذا المرشد أن يهون عليه أمر خطبته إذا علم أن الناس لا يسمعونها ! وما أحراه أن يُعيرها كل عناية متى علم أنهم جميعا يسمعونها ويُفيدون منها ! . ولقد رأيت خطباء ذوى رأى وبصيرة يوجّهون الناس فى بعض مساجد القرى توجيهاً ينتظم حياة القرية كلها . فما أجدر خطيب المسجد الحرام أيام الحج أن يحيط خُبْراً بأمر المسلمين كافّة وأن يصل إلى المصلّين صوته ليكون لهم هداية ورشدا .

وفهمت أن الخطبة تمّت حين نودى للصلاة من فوق المبلّغات ، أو المكبريّات إن شئت . وقام الناس جميعا من أقصى المسجد إلى أقصاه يأتمّون للصلاة . وكان كل يكبّر بعد نيّة الصلاة ثم يقف خاشعاً مطرقاً ذاكراً قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ، وإن لم يستمع إلى قراءة الإمام إلّا الذين كانوا على مقربة منه . ساد هذه الألوف المؤلّفة صمت خشوع كلّه جلال ورهبة : جلال النظام ورهبة الإيمان ؛ فهم جميعا يستمعون إلى الإمام يتلو «الفاتحة» فى صمتهم المهيب كأنهم فى ساعة الحشر إكباراً وتقديساً . فلما أتمّ الإمام تلاوته آنفرجت الصدور كلّها عن « آمين » قيلت فى خشوع وصوت خافض ؛ ودوّى المسجد بها فآزدادت القلوب والمشاعر رهبة واهتزازاً ، ثم انطلق كلٌّ يتلو الفاتحة وصمت الإمام . فلمّا أتمّوها تلا هو ما تيسّر من القرآن ثم كبّر وكبّر المبلّغون على أثره . وركع هذا الجمع الحافل كلّه يسبّح بالله العظيم . وكبّر المبلّغون ، فآعتدل الناس ؛ ثم كبّروا فسجدوا يسبّحون بآسم ربهم الأعلى . وكبّروا للركعة الثانية ، فتلا الإمام الفاتحة ودوّى المسجد من بعده بـ«آمين» وكبّر الناس وركعوا وكبّروا وسجدوا وتلوا التحيّات ثم ختموا صلاتهم بتحيّة الختام : " السلام عليكم ورحمة الله " لافتين رءوسهم ناحية اليمين فاليسار .

لم تترك صلاةُ جماعةٍ ولا تركت صلاةُ جمعة فى نفسى من الأثر ما تركته هذه الصلاة فى الحرم . ولطالما وازنت بين صلاة الجماعة يقوم بها المسلمون فى مساجدهم وما رأيت من صلوات فى الكنائس المختلفة ، فألفيت صلاة المسلمين أعظم فى النفس

أثرًا، لأنها تُوَجَّه لله الأحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ولأن المسلم هو الذى يصلّى بنفسه ويتّصل بالله بقلبه ويستغفر الله عن ذنبه، ليس للإمام عليه سلطان؛ بل يقف عمل الإمام عند تنظيم صلاة الجماعة، بلا قيد لحرّيّة الفرد فى صلته بربّه إلّا عمله وتقواه. أمّا صلاة الجمعة فى الحرم فقد اهتزّ لها كلّ وجودى، وقد أثارت أمام ذهنى صورة مجسّمة من المعانى السامية كنت أُقدّسها من قبلُ ولكنّى لم أكن ألمسها لمسًا ماديًّا، ولم أكن أراها بارزة بالوضوح الذى رأيتها به أثناء هذه الصلاة ولا إثرها. ولقد جلست مكانى والناس ينصرفون من المسجد أفكر فيما رأيت فلا أجد من مزيد التفكير فيه إلّا مزيدًا فى تأثّرى به وإكبارى له. ولولا أن جاء صاحبى يدعونى لمغادرة المسجد إلى الدار لأقمتُ حيث كنت مسترسلا فى تفكيرى ملتمسًا العبرة البالغة منه. وما أكبرها عبرة وما أبلغها عظة!.

وأبلغ أثر تركته هذه الصلاة فى نفسى هذا النظام الكامل لعشرات ألوف يُخطئها العدّ عن إسلام به وإيمان بوجو به وحبّ إياه وإقبال عليه. فها هى ذى عشرات الألوف تقف وراء الإمام صامتة خاشعة متّجهة بكلّ قلوبها الى الله مؤمنة إيمانًا كاملا بكلّ كلمة وكل حرف من هذه السبع المثانى التى يتلوها الإمام إذ يتلو سورة الفاتحة، ثم تتلو هذه السبع المثانى من بعده تحمد الله ربّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، لا تعبد إلا إيّاه ولا تستعين إلا إيّاه، تستهديه الصراطَ المستقيم صراط الذين أنعم عليهم فلم يغضب عليهم ولم يَضلّوا. وها هى ذى عشرات الألوف من كل الأجناس والألوان واللغات ينتظمها إيمان واحد بهذا الذى تتلو، إيمان لايتلجلج ولا يكبو، فإذا سمعت التكبير للركوع ركعت جميعا مؤمنة تسبّح بحمد ربّها العظيم الذى تؤمن به وتقدّسه، واذا سمعت التكبير للسجود سجدت تسبّح بحمده كرّة أخرى. وها هى ذى تُعيد فى الركعة الثانية حمدها وتسبيحها واستغفارها ربّها وعبادتها إيّاه واستعانتها به فى مثل نظامها فى الركعة الأولى. وتتوجّه كلّ هذه الألوف فى هذا النظام الذى يأخذ بالقلوب والأفئدة إلى بيت الله من جوانبه الأربع. أىُّ جيش

جيش الإيمان هذا ! وأيّة قوّة فى العالم تستطيع أن تغلب هذا الجيش لو أنّه عرف كيف ينظّم الحياة مثل نظام هذه الصلاة الجامعة ، وأن يجعل الإيمان قِواماً لنظام الحياة كما أنه قِوام هـذه الصلاة ! . ألاَ لو أن ذلك كان وآجتمع مَنْ فى الأرض جميعا لما غلب قوما ذلك إيمانهم وذلك نظامهم وذلك سموّهم إلى الله وهذه عبادتهم إيّاه وحده لا شريكَ له .

الإيمان قِوام هذا النظام البالغ فى كماله ،والذى جمع الأوربى والإفريقى والآسيوى وأهل الأرض جميعا فى صعيد واحد . والإيمان هو الذى جعلهـم إخوة متفاهمين على تباين لغاتهم وآختلاف أجناسهم . و إيمـانهم له كلّ هـذا السلطان لأنّه إيمان تجرّد من كل ما سوى الفكرة السامية ، لا تشوبها شائبة ولا تندسّ اليهـا غاية من غايات هذه الحياة الدنيا : الفكرة المجرّدة من كلّ مطمع ومن كل هوى إلاّ رضا الله رضًا يستعذب المسلمون التّضحية بكل شىء فى سبيله ؛ التّضحية بالهناءة والطّمأنينة، و بالمـال والحياة، وبكلّ ما فى الحياة، بل بالحياة نفسها . وهذه الفكرة السامية يؤمن عشرات الالوف هؤلاء ويؤمن بها المسلمون جميعا ، تتلخّص فى كلمتين آثنتين هما أبلغ وأقوى ما عرفت الإنسانيّة منذ وُجدت، ولا يمكن أن تعرف أبلغ ولا أقوى منهما إلى أن يبيد الله الأرض وما عليها : «الله أكبر» .

نعم ! هاتان الكلمتان هما أبلغ ما عرفت الإنسانية، وما يمكن أن تعرف . هما مظهر السـموّ الإنسانى على ما يتصل به الإنسان من سائر الكائنات . وهما مظهر سموّ النفس وقوّتها ، فلا يعتريها ضعف ولا يُزعزع منها سلطان . يكفى أن يحيط الإنسان بمعنى هاتين الكلمتين كاملًا، وأن يؤمن به إيمـانًا صادقا، ليتّصل بالله آتصالا صحيحا، وليَرْقى بهذا الاتّصال فوق الألم وفوق الأمل الخادع وفوق الغـرور الكاذب وفوق كل ما فى الحياة الدّنيا . إننا نحن المسلمين لنسمع هاتين الكلمتين ولنقولها فى كل يوم عشرات المرّات : نسمعهما مرّات ساعة الأذان، ونسمعهما ونقولها مرّات حين الصلاة، ونردّدهما فى مناسبات كثيرة ونؤمن بهما حقًّا ؛ لكن

الكثيرين منا يؤمنون بهما ولا يحيطون بمعناهما إحاطة إدراك تام وشعور متنبه لهذا المعنى .

فما أعظم سلطانَ المال وما أكبر حكم أَصحابه! نعم! لكن الله أكبر. وما أعظم سلطان هذا الملك الحاكم فوق عباده! نعم! لكن الله أكبر. وما كان أعظم سلطان رومية وآمتداد أمبراطوريتها! نعم! لكن الله أكبر. وما أعظم سلطان الأمبراطورية البريطانية التى لا تغيب الشمس عن أملاكها! نعم! لكن الله أكبر. وما أعظم سلطان أوربا سلطانا تحكم به الشرق وتُحكّم به فى مصير العالم كله! نعم! لكن الله أكبر. فإذا أنت آتّصلت بالله وحده، وعبدته وحده، وآستعنته وحده، لم يكن للمال ولا للملك ولا للأمبراطورية البريطانية ولا لأوربا ولا لقوّة من القوى بالغًا مابلغ كبرها أىّ سلطان عليك .

وماهذه القوى جميعا وهى لاتساوى عند الله جناح بعوضة! وإن من التجديف حين نذكر أنّ الله أكبر من كل كبير وأعظم من كل عظيم أن نذكر هذه القوى الضئيلة فى حياة الكون والتى تبدو اليوم وتختفى غدا، وتقوى اليوم وتضعف غدًا، وتوجد اليوم وتنعدم غدا . يبتلع البحر من الأرض ماشاء الله أن يبتلع، ويذهب الأقوياء فلا يبقى لهم بعد ذهابهم إلا ذكر قوتهم؛ لكن الأرض التى يسير عليها هؤلاء يعيشون ويأكلون وإلى ثراها يرجعون، ما أكبرها! لكن الله أكبر. والشمس ما أكبرها! لكنّ الله أكبر . والوجود كله من محسوس نشهده وغائب نتوسّمه ما أكبره! لكن الله أكبر! وسِع كرسيّه السماواتِ والأرضَ ولا يؤوده حفظُهما وهو العلىّ العظيم .

وعبادةُ الله والاستعانة به تقتضيانك علم ماخلق، والسعى فى مناكب الأرض، وإدراك أسرار الحياة . وأنت أعظم آتصالا بالله كلما كنت من هذا العلم وهذا السعى وهذا الإدراك أكبر حظًّا . وإيمانك الحق بهاتين الكلمتين ينقلب إيمانا آليًا لا ينفع ولا يضرّ إذا لم تَسْعَ ولم تُدرك ولم تتّصل بنوره العظيم . إذا علمت

هذا وعملت به ودأبت لتدرك عظمة الله فى خلقه ممّا نرى ومالا نرى، وما نحسّ وما يجاوز إحساسنا ، إذًا فلن يغلبك غالب وأنت فرد . فأمّا إن علمته أُمّة وعملت به وآمنت عن إدراك صحيح بأن الله أكبر، فقد حقّ لها أن تتولّى هدى العالم إلى الحقّ فى أسمى صُوَره وأرق درجاته ، هدًى يصل بالإنسانيّة الى ما تبغى من مجد الإخاء فى الله إخاء هو وحده الجدير بالإنسانية حين تبلغ من التقدّم درجة حسنى .

مابال هذه الألوف المؤلّفة من المسلمين الذين يصلّون الجمعة فى الحرم، ثم مابال إخوانهم الملايين من المسلمين المنتشرين فى بقاع الأرض جميعا ، وهم يؤدّون صلاتهم فى هذا النظام البالغ ويسمعون هاتين الكلمتين ويكرّرون فى صلاتهم : «الله أكبر» مرات وعشرات المرّات ، مابالهم فيما هم فيه من ضعف وجمود وخضوع لسلطان الغير وحكمه ؟ ! فكّرت فى هذا حين أويت الى الدار وآعتكفت فى غرفتى . فكّرت فيه متألمًا ثائرا بهؤلاء الذين أوتوا أسبابَ القوّة فضعُفوا وهانوا ، وأُوتوا سبيلَ العزّة فذلّوا وآستكانوا . وكيف لا تثور النفس حين ترى هذا النظام البالغ ثم ترى ماهم فيه من هوان وفوضى ، ومن شأن من ينتظمهم الإيمانُ السليم به أن يكونوا العزّةَ والقوّة . ولم ألقَ عُسْرًا فى الوقوف على علّتهم؛ فنظامُهم هذا ينقصه الروح ؛ ولذلك غاضت حياته ، فآنقلب آليًّا، فانقلبت على أهله غايته . وهذا هو السبب فيما هم فيه وما سيظلّون فيه، حتى يغيّروا ما بأنفسهم ليغيّر الله ما بهم .

الروح ينقص هذا النظام لا ريبَ ؛ الروح المستمدّ من الإيمان الكامل . أليس رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «لا يكمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» . والكثرة من هؤلاء المصلّين لا يفكر أحدهم فى أخيه ولا يحبّ إلا نفسه . هو لم يحضُر الى مكة ولم يفرِض الحج ولم يَستوِ مع الناس فى صلاة الجماعة بالحرم ليكون لإخوانه المؤمنين كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا ، بل جاء الى مكة حاجًّا وحضر صلاة الجماعة آبتغاء المغفرة لنفسه والثواب لنفسه دون تفكير فى المؤمنين ممّن حوله . وليس هذا شأنَ المسلمين اليوم وفى هذا العصر الأخير وكفى؛

بل هو شأنهم — مع الشيء الكثير من الأسف — منذ مئات من السنين خلت: منذ انتقل الأمر بينهم من الشورى الى الاستبداد، ومن الاجتهاد الى التقليد، ومن الاستهانة بالموت الى حبّ الحياة، ومن عبادة الله وحده الى عبادة المال وأرباب المال. من ذلك اليوم البعيد عنّا، حينما كان تاريخ الأمة الإسلامية مايزال مزدهرًا، بدأت الأَثَرة تبلُغ من المسلمين أن صار أحدهم لا يعرف إلا نفسه ولا يحبّ إلا نفسه، ويحسب مع ذلك أنه يستطيع الوصولَ الى رضا الله باعتزال إخوانه المؤمنين وبالانقطاع عن التفكير فى أمرهم الى التفكير فى أمر نفسه. ومن يومئذ نسى المسلم أنه إذ يقول وهو يصلّى لله: "إيّاك نعبد وإيّاك نستعين"، أنه يتحدّث عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين، وكأنما خُيِّل اليه فى غروره أنه بهذه الصِّيغة يعظِّم نفسه وهو يخاطب ربّه. وحينما بلغت الأَثَرة من النفوس هذا المبلغ ضُعُف إيمانها وتزعزع يقينها وتعلّقت بالحياة وأذعنت خاضعة لكل سلطان يملك عليها أسباب المادّة فى الحياة. هنالك تنزوى الروح ويضمحلّ سلطانها على النفس. وهنالك تتهلهل أواصر الاتّصال بين المؤمنين وتضعف أُخوّتهم فيضعُفوا جميعا. وهنالك تصير حياتهم حياة أفراد تنتهى بالموت لا حياة أُمّة تتّصل على الزمان ولها فى شهدائها وفى موتاها أعلام مجد وعزّة تتعلّق بها وتضحّى للاحتفاظ بما شادوا من هذا المجد ولإكباره والمزيد منه.

وذكرت وأنا أفكّر فى هذا وفى مثله أولئك المسلمين الأوّلين الذين كانوا يجيئون للصلاة عند الكعبة كما نجيء نحن للصلاة عندها اليوم، فيصدّهم المشركون ويُؤذونهم ويبالغون فى تعذيبهم. لم يكن يومئذ حول الكعبة مسجد معمور تُحيط به هيبة الإسلام شأن المسجد الحرام اليوم؛ بل لم يكن حولها مكان مسوّر؛ إنما كان حرمها متصلا بالطريق ومتّصلا بالمساكن اتصال المَسْعَى بين الصفا والمَرْوة فى وقتنا الحاضر. مع ذلك كان المسلمون الأوّلون يذهبون الى الصلاة متّحدين متضامنين وهم يعلمون أنهم معرَّضون للأذى وللموت، وأنّ تحابّهم وتضامنهم يجعلهم أكثر

للموت وللأذى تعرضًا . ولقد كثر عدد المسلمين بمكة قبل الهجرة، وآعتز الإسلام بحمزة بن عبد المطلب وبعمر بن الخطاب، وجعل عمر يدفع من أذى المشركين للمسلمين ما يستطيع دفعه؛ مع ذلك ظل المشركون على عداوتهم للنبي وأصحابه وإيذائهم إياهم، وظل المسلمون على تضامنهم وحبهم بعضهم لبعض فى الله وصبرهم على الأذى فى سبيل الحق وإيمانهم بأن النصر لهم ما صبروا ، يذهبون الى حرم الكعبة للصلاة مستهينين بالأذى وبالموت ، مؤمنين بأنهم رجل واحد فلا يموتون ما بقى منهم من ينادى مؤمنًا : « لا إله إلا الله الله أكبر » ، محبًا إخوانه فى الله، موقنًا أنه لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ولم يكن هذا الحب الصادق الذى يكمل به الإيمان حب عاطفة هوجاء يرى صاحبها فى الإلقاء بيده الى التهلكة آستهانة بالموت؛ بل كان حب تعقل وروية وحرص على معرفة الحياة وما فيها الى غاية ما يبلغ المرء من معرفتها فى ذلك العهد . كان المسلمون يجتمعون بالرسول فى كل يوم يتشاورون، وكانوا يتنطسون أخبار المشركين ليقفوا على دخائل نفوسهم، وكانوا ينافسونهم فى العلم بالأمور ليدفعوا حجتهم بالحجة وقوتهم بما يستطيعون من قوة . لم يكن أحدهم يرى فى الإسلام لله والتوكل عليه ما يصرفه عن التفكير ليومه وغده ، ولشد أزر وليه ودفع خصمه ؛ بل كانوا يرون فى الإيمان بالله والإسلام له سموًا على كل إذعان لغير الله وآستهانة بكل مجهود وكل مشقة لبلوغ هذا السمو؛ وبذلك كانوا حربًا على كل ضعف فى أنفسهم كما كانوا حربًا على قوة خصومهم . من أجل ذلك آستلوا من نفوسهم كل سلطان للأثرة عليها ؛ فقوى آعتداد الفرد منهم بنفسه وحبه لإخوانه، وبذلك كانوا الغالبين .

وكان لهذا الآعتداد بالنفس مع إنكار الذات أثره فى أولى المواهب وأهل الزعامة منهم . لم يكن أحد من هؤلاء يرضى اذا آمن بشىء أن يكتم إيمانه مخافة ما يجره إعلان هذا الإيمان عليه من أذى ؛ ولم يكن أحدهم ينتظر حتى يرى اين تكون

منفعته ليكيّف بوحيها رأيه أو عقيدته ؛ بل كانوا جميعا يؤمنون بأن العقيدة والرأى معًا ملكٌ مُشاعٌ للجماعة ؛ فيجب أن يطالعها الفرد بما يرى ، وأن يحاول إقناعها به فى صراحة وشجاعة و إيمان . لهذا نجم منهم القادة واولو الرأى، وتوارى من جماعتهم المراءون والمنافقون الذين يريدون أن يتخذوا من كل شىء، حتى من الرأى والإيمان به، مطيّة أهوائهم ووسيلة منافعهم . ولذلك آمنوا بأن الروح من عند الله، وأن الحياة الانسانيّة متصلة بكلمة الله ، وأن الله خلق الإنسان على صورته ؛ فهو من ثمّ روح قبل أن يكون مادّة، وحياتُه من ثمّ فكرة متّصلة بالروح ، وليست حركةً آليّة، ولا حركة فِطرية كحركة النبات، ولا حركة سَلِيقيّة كحركة الحيوان .

وحينما آمن الإنسان بأن الحياة فكرة استهان بالموت فى سبيل الفكرة . ومن استهان بالموت عَنَتْ له الحياة . وكلما ازدادت الفكرة سموًّا ازداد صاحبها استهانة بالحياة وسموًّا لذلك عليها . والجماعة التى تعيش من أجل فكرة إنسانيّة سامية ولا تخشى الموت فى سبيلها، تصل من القوّة الى حيث لا يغلبها غالب . كذلك كان شأن الجماعات الإنسانيّة فى كل العصور ، وكذلك كان شأن الجماعة الإسلاميّة الأولى . كان الإيمان بالوحدانيّة يملأ نفوس أهلها، حتى ليصغُرُ كلُّ ما فى الحياة الى جانبه . وكانوا يُعلنون إيمانهم هذا ولا يكتمونه ؛ لم يكن يصرفهم عنه وعد ولا وعيد، ولم تكن تَردّ الصادقين منهم تضحيّة و إن عظُمت، و إن بلغت التضحيّة بالحياة؛ بذلك نصرهم الله وفتح لهم فتحا مبينا .

وإنه ليأخذ منّى اليوم العجبُ حين أرى قومًا ينادون بغير هذا الرأى أو يعلّمون الناس ما يخالفه . وأعجبُ هذه التعاليم وأشدّها فتكا بالقوى الإنسانيّة قولهم : إن الإنسان آلة وأعضاء جسمه كأعضاء الالة، ووجوده وروحه رهينان بسلامة هذه الأعضاء ارتهان حركة الآلة ونشاطها بسلامة أجزائها؛ فاذا أصاب الإنسان الموت أصبح جثة هامدة كما تصبح الآلة رُكامًا من أجزائها التى فقدت أسباب الحركة . ويزيد فى عجبى ما يزعمه قوم من أن هذه الفكرة الآليّة هى أساس الحضارة الغربيّة

التى تحكم العالم اليوم، كأنما تستطيع المادّة أو يستطيع شىء غير الفكرة أن يطوّر الحياة أو ينشىء فيها جديدا .

وهـذا القول بأن حضارة الغرب تقوم على هـذه الفكرة الآلية وَهْمٌ يدلّ على سوء الفهم لحياة الغـرب . فعلماء الغـرب ومفكروه يُقَرِّرون ما عرفته الإنسانيـة الحيـة فى كل أطوارها من أن الفكرة أساس الحياة وأساس كل نشاط فيهـا . بل إن حياة العلم فى هذا العصر لتستند إلى الكلمة التى قالها «ديكارت» فى القرن السـابع عشر : "أنا أفكر، فأنا إذًا موجود" . وليس يصحّ فى الذهن أن يكون التفكير أساس الوجود ، وأن يكون الوجود الإنسانى آليًّا لا يساوى الوجود الفطرى للنبات والحيوان .

وإنما أدّى إلى فكرة الآليـة فى الحياة الإنسانية أن بلغ بعضهم بالفكرة الروحيّة مبلغًا أخرجها عن حكم العقـل، ثم أراد مع ذلك أن يصوّرها فى صور من المـادّة؛ فهوت بذلك فكرته فيها إلى دَرَك الجمود والتعصّب . وحيثما قام التعصّب ناضله تعصّب مثله يَضيق به ذرعًا . من ثَمّ قامت الفكرة الآليّة لنضال أوهام زعمها أصحابهـا صادرة عن الفكرة الروحيّـة . فأمّا الحق فى الغرب والشرق وفى كل زمان فإنّ الحياة الإنسانيّة روح قبل أن تكون مادّةً، وفكرةٌ متصلة بالروح وليست حركة آليّة تنتظم حياة الجسم وحدها .

والنضال هو الذى نزل فى الغرب بالمَثَـل الأعلى إلى الرغبة عن النظر فى الروح وفى اتصال الإنسان بالكون نظرًا طريقُـه العقل إلى التقيّد بالمحسوسات المـادية وآستنباط سنن الكون منهـا بمنطق العقل كذلك . على أن كثيرين من كبار علماء الغرب ومفكريه لم يلبثوا حين رأوا ما فى هـذا التقيّد بالحسّ من حدّ لحرّية الفكر، أن دَعَوْا لتحطيم هذا التقييد وأن عالجوا الظاهرات الروحيّة على الطريقة العلميّة، طريقة الملاحظة والتبويب والاستنباط، آملين أن يصلوا من هذا الطريق إلى نتائج أسمى أثرًا من ثمرات النظريات النفعية والمـاديّة فى الخُلق وفى الحيـاة وفى آتصال

الانسان بالوجود و بارئ الوجود . وما يحاول الغرب اليوم من سموّ هو ما حققه الإسلام منذ نشأته للذين دانوا به .

لذلك كان الروح أساس ما دعا إليه من نظام ومن حرّية ؛ ولذلك كان المسلمون الأوّلون أشدّ حرصا على حرّية أرواحهم منهم على حرّية أبدانهم ، وكانوا يفتدون حرّية الروح للفرد بكل قيد للبدن ، ويفتدون نظام الروح للجماعة بما شَهِدتُ فى صلاة الجمعة بالحرم . لم تكن المظاهر تُغريهم عن الحقيقة ، ولا كان الغلاف يحجب اللُّبَّ عن أنظارهم . لم يَعْنِهم أن كان المسجد مما حول الكعبة غير مسوّر ، ولم يروا فى بيت الله إلا أنه منارة روحيّة يتوجّه إليها المسلمون جميعا على أنه الوحدة لقلوبهم ولإيمانهم وتوحيدهم ربهم . لم يتوجّه أحد إلى الكعبة بالعبادة لأنها بيت الله ، بل قصروا جميعا عبادتهم على ربّ البيت . كان عمر بن الخطاب يقول وهو يقبّل الحجر الأسود حين طوافه : "والله لولا أنّى رأيت رسول الله يقبّلك ما قبّلتك" . وكذلك كان هُدَاهم روحيًّا فى كل شىء ، وكانوا يلتمسون هذا الهُدَى فى كل ما يقع عليه الحس ليروا فيه سنّة الله لا تبديلَ لها ، وآية الله فى خلقه شهيدة بربوبيّته جلّ شانه .

ولم يفكّر المسلمون فى أن يسوّروا ما حول الكعبة ليتخذوا من سياجه قُدسا لصلواتهم إلى أن آختار الرسولُ الرفيقَ الأعلى وطيلة خلافة أبى بكر . وعلى عهد عمر امتدّ الفتح الإسلامىّ وكثر الذين يشهدون الحجّ ، وضاق الفضاء المحيط بالبيت بهم حين الصلاة إذ كانوا يدخلون إليه من الأبواب القائمة بين الدور المحدقة به . عند ذلك آشترى عمر دُورًا حول الكعبة وهدمها وأدخلها فى حرمها وأحاطها بجدار قصير . ولقد أبى بعضهم يومئذ أن ينزل على إرادة عمر ، فأجلاهم عن دورهم ووضع لهم ثمنها فى خزانة الكعبة ، وقال لهم : إنما نزلتم على الكعبة فهو فناؤها ولم تنزل الكعبة عليكم . وآزدادت رُقعة الفتح الإسلامىّ فى زمن عثمان وآزداد الذين يشهدون الحجّ عددا ، فآحتذى عثمان مثالَ عمر وأضاف إلى الكعبة دُورًا آشتراها .

كان المسجد الحرام يؤمئذ محاطًا بجدار قصير وكان غير مسقف ، وكان الناس يجلسون حول البيت وحول جدران المسجد بالغَداة والعَشىّ يَتَفَيَّئُون الظِّلال ، فاذا تقلّص الظلّ تفرقت المجالس . ولم يفكر أحد من خلفاء المسلمين ولا من رجال هذا الصدر الأول فى زينة المسجد ولا فى فخامته . فبساطة الإسلام الحق تنأى بالمؤمن عن هذا التفكير ، وعبادة الله لا تعرف الزخرف ولا تتّصل به . إنها ابتهال خالص بالقلب إليه جلّ شأنه ، وتوجُّهٌ ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ويسمو بالنفس على غرور الحياة الدنيا . لذلك لم يزد عمر حين ضمّ إلى المسجد من المنازل المحيطة به ما ضمّه على أن أقام جدارًا لا يرتفع إلى قامة الرجل ، وكذلك فعل عثمان . ويذكر بعضهم أن عمر وضع على الجدار مصابيح تُضىء المكان للذين يصلّون العشاء ، أمّا قبل عمر فلم تكن ثَمّة مصابيح ، بل كان الناس يقصدون إلى فناء الكعبة ليصلّوا وهم فى غير حاجة إلى نور يهتدون به ، اكتفاء بنور بصائرهم وهدى قلوبهم .

فى هذه الأيام الأولى كانت صلاة الجمعة بالحرم يدعو إليها روحٌ مبعثه الإيمان ونظامٌ قِوامه الأخوّة . والإيمان والأخوّة يسموان بطبيعتهما على الزينة والزخرف . لذلك لم يفكر عمر ولا فكر عثمان فى أكثر من توسيع رُقعة المسجد ليسع المصلين حين الحج ، وإضاءته ليهتدى فى أرجائه من لا عهدَ له به . ولم تغرِ عثمان أموال الفتح التى كانت تتدفق من الأقطار الجديدة التى رفرف عليها العلم الإسلامىّ ، فلم يصنع بالمسجد ما صنع قومه فى الجاهليّة بالكعبة حين كشف عبد المطلب عن زمزم بعد أن بقيت مطمومة ثلاثة قرون ؛ فلقد أخرج من بئر إسماعيل غزالتين من ذهب كان الجُرْهُمِىّ الذى طمّها قد أخفاهما بها ، فضربهما فى باب البيت الحرام حليةً له . لم يصنع عثمان صنع من سلف ؛ لأن الإسلام جعل التقوى قربان الإنسان إلى ربه ، ولم يجعل من مساجد الله هياكل آلهة تعبد ويتقرّب إليها المتقربون بالأموال ، كما كانوا يتقربون إلى هُبَل وإلى غيره من الأصنام قبل أن يطهّر النبى الكعبة منها .

ولما انقضى عهد الخلافة وشبّت نار الحرب الأهلية بين المسلمين باسم الثأر لعثمان من قتلته، بدأت الشوائب تشوب قلوب طائفة من المسلمين وقد حرّكتها مطامع هذه الحياة الدنيا، فغشّت فيها طُهْرَ دين الله وصفاءه. على أن الذين أقاموا الى جوار بيت الله من عِترة النبيّ كانوا أبعد أن تشوب هذه الشوائب قلوبهم، وكانوا أشدّ لبيت الله ولحرم البيت إكبارا وتعظيما. أقام عبد الله بن الزبير بالحجاز حفيظا على التقاليد الأولى؛ فلما كانت سنة أربع وستين من الهجرة اشترى دورا وسّع بها المسجد الحرام على نحو ماصنع عمر وعثمان من قبلُ؛ ولم يزد على أن أحاط الزيادة بجدار المسجد.

لكن بنى أمية كانوا قد اتّصلوا فى الشام بأهل البلاد التى دخلت فى الإسلام بحكم الفتح، ورأوا من عناية النصارى بكنائسهم وعمارتها وزينتها ماجعلهم يفكرون فى القيام للمسجد الحرام بشىء من هذا الذى رأوا. وكان عبد الملك بن مروان أوّل من سنّ هذه السنّة حين حج فى السنة الخامسة والسبعين من الهجرة. فهو لم يجد المسجد فى حاجة الى زيادة فيه، فأمر فرفعت جُدُره وسُقِّف بخشب الساج الداكن اللون المتين، وجعل فى رأس كل أُسطوانة خمسين مثقالا من الذهب. وفى ذلك عَوْدٌ لتقاليد الجاهليّة وإن لم يعترضه يومئذ من المسلمين أحد أن كان أميرُ المؤمنين هو الذى أمر به. وزاد الوليد بن عبد الملك فى عمل أبيه بعد أن نقضه، فوسّع المسجد، وزخرف الساج الذى سقفه به وأزّر أسفل جُدرانه بالرُّخام وجعل له شُرَفًا، ونقل اليه أساطين الرخام وجعل على الذهب فى رأسها صفائح من النحاس، وزخرف أعلى أبواب المسجد بالفسيفساء. وإنما صنع الوليد ذلك لأنه كان اذا شيّد المساجد زخرفها كما يزخرف النصارى كنائسهم.

ودالت دولة بنى أمية، وقام بنو العباس على إمارة المؤمنين. وبنو العباس يمتّون الى بيت النبوّة بآصرة قريبة، وقد جعلوا من صلتهم به أساس دعوتهم. فلا عجبَ أن يتّجه نظرهم الى البيت الحرام والى الزيادة فيه وإعظامه، وإن لم يفكر

أحد فى الرجوع به الى البساطة الأولى . فلما اطمأنّ لهم الأمر أصدر ثانى خلفائهم أبو جعفر المنصور أمره الى زياد بن عبـد الله الحارثىّ واليـه على مكة ، فزاد فى المسجد الحرام وجعـله ضعف ما كان عليه وزيّنـه بالذهب وأنواع النقوش، وبنى مئذنة بنى سهم؛ وأتمّ ذلك فيما بين سـنة سبع وثلاثين ومائة وسـنة أربعين ومائة . وفى هذه السنة حج المنصور ورأى حجارة حِجْر إسماعيل بادية ، فأمر زياداً أن يغطّيها بالرُّخام، ونفّذ زياد الأمر ليـلا وأصبح المنصور فرآها كما أراد . وزاد المهدىّ بعد أبيه المنصور ما جعل المسجد قُرابة ما هو اليوم .

وكانت الكعبة فى جانب من المسجد لأن ما أضافه اليه عمر كان يتجه الى الناحية التى لا يخشى انحدار السيل اليها . وكره المهدىّ أن تكون الكعبة فى ناحية من المسجد وأراد أن تكون فى وسطه . وقال المهندسون حين استشارهم : إن وادى مكة له سـيول قويّة العزم، ونخشى إن حولنا الوادى عن مكانه ألّا يتم لنا ما نريد . قال المهدىّ : لا بدّ لى من سعة المسجد حتى تكون الكعبة فى وسطه ولو أنفقت فيـه جميع ما فى بيوت المـال . وأحكم المهنـدسون أمرهم ، وترك لهم المهدى المـال وعاد الى العراق . واشـتط أصحاب الدور التى تدخل فى هـذه الزيادة فى أثمـان دورهم، حتى بلغ ثمن الذراع مما دخل المسجد خمسة وعشرين دينارا أى اثنى عشر جنيها ونصف الجنيه . وأتمّ المهندسون العمل فى عهد الهادى بن المهدىّ بعد أن جُلبت أساطين الرخام لهذه الزيادة من مصر ومن غيرها وحُملت على العَجَل من جُدّة الى مكة .

لم يضف الى المسجد بعـد ذلك غير إضافتين جزئيتين تمّتـا فى عهـد الناصر والمقتدر من العباسيين. على أن عمارته جدّدت مرّات بعد ذلك، وكان لملوك مصر وأمرائها حظ من ذلك عظيم، وكانوا لا يقفون من العمارة عند الترميم أو البناء بل كانوا يضاهون العباسيين فى تزيين المسـجد وزخرفته وإن لم يبلغوا من ذلك ما بلغوا فى تزيين حرم المدينـة وزخرفته مما سنقصّه عليك . ومع ما كان من انتقال الخلافة

من مصر الى آل عثمان بالآستانة، ومن عناية آل عثمان بالحرمين، لقد ظلّت مصر أشدّ البلاد الإسلامية حرصا على عمارة الأماكن الإسلامية المقدّسة وأكثرها سخاء فى الإنفاق على هذه العمارة . كان المعلم محمد المصرى هو الذى استصحبه شيخ المهندسين أحمد بك المصرى لعمارة المسجد الحرام حين أصدر السلطان سليم أمره الى حاكم مصر سِنَان باشا للقيام بهذا العمل . وكان لمصر نصيب وافر من النفقة على هذه العمارة التى بلغت خمسا وخمسين ألفا من الجنيهات عدا مائة ألف من الذهب الإبريز، وعدا ما دخل من مصر من موادّ العمارة كالخشب والحديد وأهلّة القِباب المطليّة بالذهب، على نحو ما يرى الإنسان بالمسجد الى يومنا هذا . وفى هذه العمارة عُنِي المهندس بخفض أرض الطريق المنحدر الى وادى مكة لتنحدر منه السيول اذا دخلت المسجد . وكثيرا ما كانت هذه السيول سببا فى توهين بنيان المسجد من قبلُ .

ليس غرضى مما قدّمت تفصيل عمارة المسجد ومن قام بها؛ لذلك لا أقف عند عمارة داخل المسجد من مقام إبراهيم وحِجْر إسماعيل وبئر زمزم ومقامات الأئمة الأربعة؛ إنما سقت ما ذكرت لأبين ما أدّت اليه صلاة الجمعة فى الحرم من توسيع المسجد على مر السنين ليسع المصلّين، وعنايةَ خلفاء المسلمين وأمراء المؤمنين بذلك عناية بدأت من عهد عمر واستمرّت على القرون بعده، وما أدّى إليه تطوّر التفكير الإسلامىّ من البساطة القويّة الأولى، بساطةِ الإيمان والنظام للفرد والجماعة، الى الترف والزخرف فى العصور التى سبقت الانحلال فى الحضارة الإسلامية . فقد رأيتَ أن الخلفاء الأوّلين لم يَعْنِهم من أمر الحرم وتوسيعه إلا أن ينفسح المكان للمسلمين فى أيام الحج ليصلّوا حول بيت الله، ثم آل الأمر الى تزيين المسجد والى زخرفته شيئا فشيئا حين أصبح الإيمان فنًّا والنظام حوارا وجدلا . فقد بدأ الإيمان بالله يتزيّا فى أزياء ويتصوّر فى صور تجعل الإيمان درجات تتفاوت بتفاوت ما يتقرّب به صاحبه الى الله من مادة الحياة، بعد أن كان أمره روحيا خالصا،

يتّصل تفاوته فى الدرجات بمبلغ سموّ الروح به إلى الله . كان هذا السموّ الروحى دأب المسلمين الأوّلين ، وكانوا يقرّون لفقراء لا يملكون قوت يومهم أنهم أقرب الى الله لأنهم أكثر به إيمانًا وله إسلاما ، وأن من الأغنياء الذين يُنفقون فى التقرّب الى الله بإقامة المساجد وما إليها من لا يبلغ فى الإيمان درجة هؤلاء الفقراء . فلما شابت السموّ الروحىّ الشوائب خيّل إلى الأغنياء وذوى الأمر والسلطان أن من درجات الإيمان ما يبذلون من مال فى توسيع الحرم أو زخرفته . ثم تطوّر أمر الإيمان إلى التقرّب إلى الله عن طريق الأولياء والصالحين ، ثم ضَعُف هذا الإيمان وصار إلى ما صار إليه فى زماننا إيمانا تقليديا يكفى صاحبَه أن يقول ألفاظ الإيمان وإن لم يؤمن منها بشىء ، ثم يحسب بعد ذلك أنه أرضى الله . ولعله لا يعنيه من هذا الرضا أكثر مما يعنيه من حقيقة إيمانه .

هذا التطوّر وما انتهى إليه هو علة ماقدّمنا عن النظام فى صلاة الجمعة بالحرم وأن الروح ينقصه . على أن هذا الحرم ، حرم الكعبة ، كان له فى نفوس المسلمين جميعا من التقديس ماحال دون غلبة التطوّر فى بنائه على روح الاسلام القوىّ ببساطته ؛ فلم يبلغُ ما رأيت من جهود الملوك والأمراء أن جعل من هذا الحرم هيكل عبادة على صورة هياكل العبادة فى غير الإسلام من الأديان ، ولم يبلُغ أن جعله على صورة مساجد المسلمين مما تراه فى غير مكة من بلاد العالم الإسلامىّ ؛ بل ظلّ الحرم تطبعه بساطة تجمع بين الصراحة والمهابة ، وتجعلك ترى الفقير المعدم يقف الى جانب الغنىّ المُترَف ويصلّى وإيّاه كتفًا الى كتف ، وهما يتجاوران فى هذا الحرم المقدّس تجاور إخاء واتّساق كما تتّسق فيه الحصباء الى جانب الحجر المرصوف به ما يجاورها من صحنه ، ويظلُّهما إيمانهما بالمحبة والسلام وهما يريان فى حمام الحِمَى رمزًا يدل على المحبة ، إذ يجاوره المصلُّون فلا يطير ولا يخاف لأنه فى حمى الله وفى حرم بيت الله .

لم يغلب التطوّر فى بناء الحرم على روح الإسلام القوىّ ببساطته . لكن هذا التطوّر كان له أثره فى النفسية الإسلامية منذ بدأ الانحلال بعد ازدهار الحضارة

إبّان العصر العباسى . وقد رأيت مبلغ ما هوت اليه هذه النفسية، حتى نسى المسلم أن إيمانه لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، وحتى صار المسلم أثرًا لا يعرف إلّا نفسه، ولا يحب إلا نفسه، ولا يفكر إلا فى نفسه . يصلّى رجاء التوبة لنفسه والمغفرة لذنبه، لا انتهاءً عن فحشاء ولا عن منكر . ويقف فى صفوف الجماعة وهو لا يفكر إلا أن يعود عليه من ثواب صلاة الجماعة ما يعادل الثواب الذى يعود عليه من صلاته وحيدا أضعافا مضاعفة . وهو يؤدّى فريضة الحج ليغفر الله له ذنبه وليعود نقىّ الصحيفة، وسيّان عنده بعد ذلك ما يحل بسواه . حتى البرّ، وهو عماد التقوى ، قد تضاءل فى نفسه ما لم تحقق لديه المثوبة عنه . لم يَعُدْ يفكر فى أن يخرج من ماله عن حظ معلوم للسائل والمحروم ابتغاء وجه ربه، لا رغبة ولا رهبة، ونسى أن الأرض لله يُورثها من يشاء من عباده الصالحين . لا يفكر فى دار علم يقيمها، ولا فى مكتبة يُنشئها، ولا فى متحف ينظّمه، ولا فى مستشفى أو مصلّى ينفق عليه . غاية همه أن يستغفر عن الخطايا، كأن حياته كلها خطيئة يريد أن يكفّر عنها، وكأنما يعجز عن أن يجعل من الحياة عملا صالحا يكون به عند الله راضيا مرضيّا .

وإنما هوت النفسية الإسلامية فى عصور الانحلال إلى هذه المكانة، لأن من المسلمين من اتخذ إلٰهه هواه ، ورفعه تدهور الجماعة إلى مكان الزعامة منهم والحكم فيهم . وقد ألف كثيرون أن يقولوا : "الناس على دين ملوكهم" ، فجرت الجماعة مجرى هؤلاء الملوك والحكام، وجعلت إلٰهها هواها ، واقتصرت من عبادة الحق على ما ترى فيه مغفرة وِزْرها والتخفيف من إثمها، ولم تقصد وجه الحق جل شأنه لذاته، إياه تعبد و إياه تستعين ، و وقفت عبادتها عند ألفاظ تتلوها ، وفاتها أن العمل عبادة ، والعلم عبادة، والسعى عبادة، ومعرفة سنّة الله فى خلقه بالاجتهاد والجدّ أسمى معانى العبادة .

مَنْ لى بأن يُدرك المسلمون هذا الذى فاتهم، وأن ينفضوا عنهم جمود الأثَرة، وأن يجعل كل منهم إلٰهه الله لا يُشرك به هواه ولا يُشرك به أحدا ، وأن يذكروا

أنهم إخوة، أخوة إيمان وعبادة . إن يفعلوا فقد آن للزمن أن يرتفع بهم الى السماك كما ارتفع بهم من قبل، وأن يجعلهم هُداة الإنسانية؛ ويومئذ يتم وعد ربك فينصر دينه على الدين كله .

ماعسى أن تكون صلاة الجمعة بالحرم يومئذ ؟! فيومئذ يؤمه حين الحج أضعاف من يؤمه اليوم من المسلمين . ويومئذ يؤمه أولو الرأى والعلم منهم ومن يريدون أن يشهدوا فى الحج منافع للأمم الإسلامية كافة . ويومئذ يؤمونه والروح مبعثُ إيمانهم وقِوامُ نظامهم، والمحبةُ الصادقة رباطٌ وثيق بينهم . هؤلاء جميعا إذ يقفون فى الحرم منادين : الله أكبر، يحمدون الله، إياه يعبدون وإياه يستعينون، يكونون قلبا واحدا وجنانا واحدا وقوة واحدة . أية قوة فى الأرض لا تحدّق الى هذه القوة مطأطئة إكبارا وإعجابا! . بل أية قوة فى الأرض لا تسير وراء هذه القوة فى طريق الخير والحق والجمال والسعادة والسلام ! .

هل لى أن أرى ذلك اليوم !! لشدّ ما أسعَدُ به إن رأيته ! . فإن متّ قبله فما أسْعَدَ روحى به يوم يتحقق، وما أشدّ ماتهتف روحى يومئذ : الآن عاد للإسلام مجده ! .

والمجد لله فى العلا، وعلى الأرض السلام .

فى جوف الكعبة

منذ فرغت من شعائر الحج وعدت إلى مكة كان الدخول إلى جوف الكعبة فى مقدمة أغراضى . لكن كثرة تجوالى بمكة وما حولها وذهابى أثناء ذلك إلى الطائف أجّل قيامى بهذا الواجب حتى غادر أكثر الحجيج أمّ القرى . ولقد أجّله كذلك أن الحجيج لا يفتئون طيلة مُقامهم بالبلد الحرام يلتمسون المثوبة من ربّ البيت بالدخول الى جوفه . وهم يدخلون الكعبة زُمَرا ، فاذا آحتوتهم لم يجد من يكون بينهم فرصة تفكير أو استجمام . فلما خلتْ مكة من غير أهلها وآن لى أن أغادرها ، فكّرت فى تحقيق غرضى بإتمام هذه الزيارة . وقيل لى يوما إن سادن الكعبة يفتح بابها بعد صلاة الظهر ، فأقمت بالمسجد أنتظره ، لكنّه لم يحضر الى العصر ولم يفتح الباب لداخل بقيّة ذلك اليوم . إذ ذاك رجوت مضيفى أمين العاصمة فكتب الى الشيخ الشّيبى يُنبئه بما أُريد . وردّ السّادن ردًّا رقيقًا ضرب لنا فيه موعدًا ضحى الغد .

وذهبت فى الموعد فطفت بالبيت وصلّيت بمقام إبراهيم وبحِجْر إسماعيل ، ثم عدت الى المقام قبالة باب الكعبة أنتظر فتحه . وكان مطوّفنا يتنطّس أخبار السّادن خيفة أن يطول بنا آنتظاره . وأقبل الشيخ الشيبى بعد سويعة فى لباسه الضّافى وسار خدم الكعبة من ورائه ، ورآهم الناس فتفرّجوا عند الباب ، ووضع الخدم السلّم وصعدوا عليه وفتحوا باب البيت ودخلوا اليه ، ولم يؤذَن بالدخول لغيرهم . وسألت فى ذلك فعلمت أنهم يكنسون الكعبة ويطلقون فيها البخور . ولما أتمّ القوم واجبهم وقف السّادن بالباب وأشار إلىّ ، فتقدّمت نحو هذا الدرج الذى يوضع كلما فتحت الكعبة ويرفع بعد تمام زيارتها .

تقدّمت ممتلئ النفس خشوعًا وإكبارا . أنا أعلم ممّا قرأته أن الكعبة ليس بداخلها شىء منذ طهّرها النبىّ العربىّ من الأصنام يوم فتح مكة . ولقد دخلت

قبل اليوم هيا كلَ ومَحاريبَ من آثار مصر يرجع تاريخ بنائها الى بضعة آلاف من السنين خلت، كما دخلت متاحف ومعابد فى بلاد أوربا المختلفة . ولقد كنت أشعر فى الكثير من هذه الأماكن بالهيبة والإجلال . لكنّ شعورى ساعة تقدّمت لأصعد الى الكعبة كان غير هذا الذى شعرت به فى هذه الاماكن ؛ كان شعورا قويًا عميقًا آخذا بمجامع القلب صادرا من أعماق الروح ، ملك علىّ كل وجودى فجعلنى أتعثّر فى مشيتى وأنا أخطو الى الدرج وما أكاد أرفع بصرى الى باب الكعبة . وكيف لا يأخذنى الخشوع والإكبار وأنا أصعد الى بيت الله ، وأنا أومن بأن الله أكبر من كل كبير فى الأرض أو فى السماء !

وصعدت الدرج ودخلت البيت العَتيق . وتلقّانى الشيخ الشَّيبى أوّل دخولى فحيّانى هَشًّا بَشًّا ، وأشار لى بيمناه الى علامتين فى إزاء الجدار الذى يقابل الباب وقال : هنا يصلّى الإنسان ركعتين فى المكان الذى صلّى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فتقدّمت نحو المكان أُصلّى ركعتين . وما أذكر أنّى شعرت فى حياتى بمثل ما شعرت به فى هذه اللحظة من غبطة ورضا . تباركت ربّى ! أأقف أنا الآن حيث كان يقف عبدك ورسولك ، وأعبدك مخلصا لك الدينَ كما كان يعبدك ! ليتنى أستطيع السموّ بفضلك الى هذا الرّضا . ولكنْ ! غفرانَك ! أين الرّوح الذى يستطيع السموّ اليك سموّ من آصطفيته لرسالتك ، ويطمع فى أن يبلُغ من الصفاء ومن الحبّ لبنى الانسان ما بلغ نبيّك الكريم ! . وأتممت صلاتى ، وبقيت فى جلستى أستغفر الله وأعبده وأستعينه . ولعلّ السّادن أدرك ما أنا فيه فتركنى فى آستغفارى وآدّكارى . نعم ! ذكرت وأنا بموقفى هذا كيف صدّ أهل مكة نبىّ الله عن بيت الله ، وكيف فتح محمد مكة دون أن يسفك دما ، وكيف عفا يومئذ عن أشدّ خصومه لَدَدًا فى عداوته ؛ ثم انطوى الزمن أمام بصيرتى فخلتنى وأنا أقف حيث وقف الرسول وكأنما أشهد هذا كله ، فيزيدنى ما أشهد خشوعًا وإكبارا .

وقت ، فدلّني السّادن على مواضع صلّى فيها الأنبياء والخلفاء قبالة الجدران الأخرى ، فصلّيت حيث صلّوا منذ عشرات قرون مضت ، وتلوت بعد صلواتى ماطلب إلىّ السادن أن أتلوه . فلما أتممت التلاوة جعلت أسأله عن شؤون البيت وكسوته وبنائه ، وجعل يجيبنى فى ظَرْف ورقّة سائغين ما أجدره بهما وهو من سُلالة بنى شَيْبة الذين أقرّ الرسول فيهم سِدانة الكعبة يوم الفتح لا يأخذها منهم إلا ظالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ! .

والتفت السادن الى والدتى وجعل لها كلّ عنايته ، يجيبها عما تسأل عنه ، ويتلو وإيّاه ما يطيب به قلبها ويطمئنّ له روحها . إذ ذاك أدرت بصرى فى جوانب البيت . ما أشدّه بساطةً وما أعظمه مع ذلك مهابة ! . هو غرفة أو — إن شئت — بهو رفيع خال من كل زخرف ، وهنا بساطته . وهو هيكل التوحيد فى أشدّ صور التوحيد صفاءً وأشدّها للشرك إنكارا ، وهنا عظمته ومهابته . وهو كذلك اليوم ، وكان كذلك منذ أقام إبراهيم وإسماعيل قواعده . تقلّبت عليه أجيال أنكرت التوحيد وأشركت بالله وجعلته مثابةً أصنامها ، وجاءت بعد الإسلام أجيال تنكّر له بعض بنيها ولم يعرفوا له حرمته . وها هو ذا هيكل التوحيد اليوم كما كان حين أقيمت قواعده ؛ وهو يزداد كل يوم تعظيما حتى ينصر الله دينه على الدّين كله ، فيكون قبلةَ العالم جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها .

وإنى لفى إكبارى لبيت الله وفى تعظيمى حرمته إذ رأيتنى أردّد فى دخيلة نفسى : ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ ﴾ . وتمثّلت لى عقيدةُ التوحيد فى صفاء جوهرها السّامى يتضافر الدين والعلم على إكبارها ؛ فعجبت كيف لا تمثلها النفوس جميعا كما امتثلتها نفسى ! وكيف لا يدرك الناس جميعا ما فى هذه الآيات التى ردّدتها روحى من

حقيقة تراها البصيرة واضحة محسوسة ! وكيف لا يرى الناس وجه الله أينما ولّوا وجوههم ! كيف لا يرونه مضيئا بنور الحق فى خلق السماوات والأرض والليل والنهار وما نعلمه نحن وما لايعلمه إلا هو! . إذ ذاك آزددت إكبارا لهيكل التوحيد على إكبارى إياه ، وآزددت عجبا لأولئك الذين يملكهم حبّ الحياة عن أن يروا وجهه الكريم متجلّيا فى كل ما حولنا؛ وهو أشدّ تجلّيا فى ذات نفوسنا وأعماق قلوبنا وفى كل حسّ وفى كل جارحة .

الكعبة بهو رفيع خال من كل زينة أو زُخرف . وسقفها يعتمد اليوم على ثلاثة عمد من الخشب الضارب لونه إلى حمرة تشوبها صفرة . ويرجع العهد بهذه العمد الى أجيال طويلة خلت . فعبد الله بن الزبير هو الذى وضعها حين جدّد بناء الكعبة . ولم يصب هذه العمد فساد على طول العهد بها ، إلا ما كان منذ خمسين سنة أونحوها حين تآكل أسفلها فشُدّت بدوائر من خشب طُوّقت بها وسُمّرت عليها . وتعلو هذه الدوائر عن أرض الكعبة ما يزيد قليلا على ثلاث أذرع . وأرضها مفروشة برخام أبيض عادىّ ، قصد منه الى المتانة ولم يقصد الى الزخرف .

فأمّا الجدار فأُحيط أسفله برخام ملوّن زُركش بنقوش لم تعمل فيها يد ذوى الفنّ ولم تُخرج بيت الله عن بساطته .

وغطّيت جدران الكعبة بستر من الحرير ، قيل إنه كان أحمر ورديًّا فى زمانه ، ثم أحالته السنون الى ما يُشبه الرمادىّ الضارب الى الخضرة . ولقد أنبأنى السادن أن هذا الستر الذى شُدّ إلى جدرانها فى عهد الخليفة العثمانى عبد العزيز منذ ستين سنة أو يزيد قد أثار قِدَمُه وآستحالةُ لونه العاهلَ النجدىَّ عبد العزيز بن سعود فأمر بصنع غيره ليُستبدل به . وهذا الستار القديم قد زركش بالنسيج الأبيض طرِّزت عليه عبارات وألفاظ توائم روح العصر الإسلامىّ الذى كتبت فيه من حيث دلالتها . فمنها : "سبحان الله وبحمده . سبحان الله العظيم" و "ياحنّان يا سلطان ، يامنّان يا سبحان" . وهذه العبارات الأخيرة مكتوبة داخل دوائر من النسيج الذى

طُرِّزت به . ولست أدرى أيّة عبارات طرزت على الستر الذى أمر ابن السعود بصنعه والذى يكسو اليوم جدار الكعبة فى جوفها : أهى آيات قرآنية تتصل بالبيت وإقامته ، أم بالتوحيد وصفاته وقوته ، أم هى أحاديث الرسول فى يوم الفتح ، أم هى ألفاظ تعبّدية كالألفاظ التى كانت على الستر يوم رأيته .

يختلف الركن الأيمن ممّا يلى باب الكعبة حين دخولك منه عن سائر جُدُرها وأركانها ؛ ففى هذا الركن يقوم الدرج الصاعد الى سطح الكعبة ، وقد وضع عند باب هذا الدرج ستر أسود مطرّز بالقصب الفِضّى المموّه بالذهب من نوع الستر المنسدل على باب الكعبة .

هذا كل ما فى الكعبة من داخلها . وهو لا يغيّر من بساطتها شيئا كما ترى . فهذا الستر الذى يكسو جدارها ليس منها ، وهو بعدُ كل ما فيها من زخرف . أمّا ماوراءه فالبساطة كل البساطة القويّة التى تأخذ بمجامع النفس ، البساطة الجديرة بهيكل التوحيد فى بساطته وصفاته وقوته .

أمّا والتوحيد هو العقيدة الأزليّة الثابتة جاءت بها الأديان وأثبتها العلم ، فقد برع خيال الكتّاب والمؤرّخين فى تصوير نشأة بيت الله الأحد ومبدأ بنائه . وقد تحايلوا لذلك على تفسير ما ورد من آيات القرآن الكريم فيه . فالقرآن صريح فى : ﴿ إنّ أوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ ، وفى أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان رفعا قواعد هذا البيت . مع ذلك رأى بعض المؤرّخين أن يجعل الملائكة بناة البيت قبل أن يبرأ الله الأرض ومن عليها ، وأن آدم بناها بعد ذلك . وذكر بعضهم أن شِيثًا أوّل من بنى الكعبة . فأما المشهور عن أكثر العلماء فهو أن أوّل من بنى البيت إبراهيم ؛ بهذا قال علىّ بن أبى طالب وجزم به ابن كَثِير فى تفسيره .

والذين يذكرون أن الملائكة بَنَوُا البيت يقصّون رواية لها جمال شعرى فيه طابع الفن ، إذ يصوّرون المعنويات صورة ماديّة . فهم يروون أن الله غضب على

الملائكة حين قال لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فقالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ . وكان مظهر غضبه جل شأنه أن أعرض عنهم . فلاذ الملائكة بالعرش و رفعوا رءوسهم وأشاروا بالأصابع يتضرّعون ويبكون إشفاقا من هذا الغضب ، وطافوا بعرش الله سبعا كما يطوف الناس بالبيت الحرام وهم يقولون : لبّيكَ اللّهم لبّيك . ربّنا معذرةً إليك . نستغفرك ونتوب إليك . فنظر الله إليهم ونزلت الرحمة عليهم ، ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتا هو البيت المعمور على أساطين أربع من زبرجد تغشاهن ياقوتة حمراء ، وسمّى ذلك البيت الضُّرَاحَ . ثم قال الله تعالى للملائكة : طوفوا بهذا البيت ودعوا العرش . فكان طوافهم به أيسر من طوافهم بالعرش . ثم أمر الله الملائكة من سكان الأرض أن يبنوا فى الأرض بيتًا على مثال البيت المعمور ، وأمر مَنْ فى الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور . وفى بعض الروايات أن هذا البيت الذى بنى فى الأرض هو الذى سمى الضُّرَاحَ ، وأن الملائكة بنوه قبل خلق آدم بألفى عام فكانوا يحجّونه . فلمّا حجّه آدم قالت له الملائكة : برّ حجّك يا آدم . حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام[1] .

وفيما روى عن بناء آدم الكعبة روعة شعرية كروعة بناء الملائكة إيّاها . فقد قيل : إن آدم سأل ربه بعد أن هبط وزوجه من الجنة : يارب مالى لا أسمع أصوات الملائكة ولا أُحسّهم ؟ قال : بخطيئتك يا آدم ، ولكن اذهب فابن لى بيتا فطُف به واذكرنى حوله كنحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى . فأقبل آدم يتخطى الأرض حتى بلغ مكة . هنالك ضرب جبريل عليه السلام بجناحه فى الأرض السفلى فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق حملَ الصخرة ثلاثون رجلا . وعلى هذا الأساس بنى آدم البيت متخذا أحجاره من خمسة أجبال : من لُبْنان ، وطُورِسِيناء ،

---

(١) راجع كتاب (تاريخ الكعبة المعظمة) لحسين عبد الله باسلامة ص ١٤ ومابعدها ، وبه الإسناد الى العلماء .

وطُورزَيْتا، والجُودِىّ، وحِرَاء. وفى رواية تفرّد ابن لَهِيعةَ فى نسبتها الى النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "بعث الله جبريل الى آدم وحوّاء فقال لهما ابنيا لى بيتا فخطّ لهما جبريل فجعل آدم يحفر وحوّاء تنقل، حتى [إذا] أجابه الماء نودى من تحته حسبك يا آدم. فلما بنيا أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به. وقيل له: أنت أوّل الناس وهذا أوّل بيت. ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه".

ولم يرد فى الرواية التى تذهب الى أن شيثا بنى الكعبة شىء من التفصيل.

وإنما قيل إن طوفان نوح أغرق البيت وغيّر مكانه حتى بوّأ الله لإبراهيم مكان البيت فأقام قواعده مع ابنه إسماعيل، على ما ورد فى الذكر الحكيم.

وهذه الروايات الشعرية عن بناء الملائكة وآدم وأبنائه ممن سبقوا إبراهيم الكعبةَ يعتبرها أكثر العلماء من الإسرائيليات التى دُسّت على الإسلام؛ فليس لها فى كتاب قديم سبق نزول القرآن سند. والقرآن لا يشير إليها بما يسوّغ استنباطها؛ وما يذهب إليه الذين ذكروها من ألوان التفسير لا يُثبت صحتها. والقرائن كلها على أن وادى مكة كان غير ذى زرع حين جاء إبراهيم بهاجر وابنه إسماعيل اليه. فلو أن هيكلا للعبادة، أو أثرا لهذا الهيكل كان قائما به، لأقام فى جواره كهّان وسَدَنة ينالون من قاصديه رزقهم. ولقد ظلّت هاجر مع ابنها بهذا الوادى الى أن شبّ إسماعيل فتزوّج من جُرْهُم.

ولقد دُسّ على الإسلام من الإسرائيليات الشىء الكثير. ولم يفتأ بنو إسرائيل مذ كانوا يحاربون النبىّ بالمدينة يحاولون أن يشوّهوا صفاء التوحيد فى الإسلام وأن يحيلوا روحانيته ماديةً ليضعفوا من نفوس الآخذين به. فليس أدعى الى ضعف النفس من أن يصبح العالَمُ أمامها مادّةً بدل أن يكون فكرة معنوية سامية. وليبلغوا من ذلك غايتهم دسّوا الكثير من الأحاديث ونسبوها الى النبىّ صلى الله عليه وسلم، وحركوا الفتن على أساس ما دسّوا بأن جعلوا مطامع المسلمين مادية غايتُها الحكم أو المال أو ما الى ذلك من متاع الغرور الإنسانى فى هذه الحياة الدنيا. وإن

العالم ليعانى اليوم من آثار هذا التفكير فى أقطاره الإسلامية والمسيحية جميعا ما ترى مظاهره فى هذه المذاهب الاقتصادية المختلفة، وفى الثورات الدامية التى تقوم بسببها فتحرق الأخضر واليابس وتأتى على خير مخلفات الإنسانية من علم وفن بيد التخريب، يحركها الجهل والتعصب والطمع المادى الأحمق الوضيع .

فأما بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة فقد ورد نبؤه فى القرآن ، ولكنه ورد موجزا فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وما روى بعد ذلك من تفصيل فمرجع أكثره إلى أحاديث أفراد أو روايات لا تستند إلى سند تاريخى يقره العلم . فقد ذهبت رواية إلى أن جبريل أمر إبراهيم فصحب هاجر وابنها وإسماعيل ما يزال طفلا، وركبوا البُراق ليبلغوا موضع البيت لبنائه، وكان إبراهيم كلما مر بقرية سأل جبريل : أهى التى اختارها الله لبناء بيته؛ وكذلك ظلوا حتى بلغوا مكة . وذهبت رواية أخرى إلى أن ملكا من الملائكة جاء إلى هاجر أم إسماعيل حين أنزلها إبراهيم مكة قبل أن يُقام البيت فأشار لها إليه، وهو ربوة حمراء مدرة، فقال لها : هذا أول بيت وُضع فى الأرض، وهو بيت الله العتيق، وأعلمها أن إبراهيم وإسماعيل يرفعانه . وفى رواية ثالثة أن إبراهيم جاء الى مكة بعد سنوات من مقام إسماعيل وأمه بها وبعد أن شب إسماعيل وتزوج وقوى ساعده، فوجد إسماعيلَ يبرى نباله تحت دوحة قريبة من زمزم، وتبادلا تحية الأبوة والبنوة، ثم قال إبراهيم لابنه : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمر ربك . قال : وتُعيننى ؟ قال : وأُعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها؛ وعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يجىء بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى ارتفع البناء .

وهذه الرواية الأخيرة أدنى إلى تصور عقلنا الإنسانى . يضاف إليها أن البناء لما ارتفع طلب إبراهيم إلى إسماعيل أن يجىء بحجر؛ فجىء بالحجر الأسود .

والروايات فى الحجر الأسود وأصله تختلف : قيل إن إسمـاعيل ذهب الى الوادى يطلب حجرا يضعه أبوه فى البناء وعاد فألفى عند أبيه حجرا أسود، فسأله : من جاءك بهذا الحجر؟ قال إبراهيم : من لم يكلنى إليك ولا إلى حجرك . وكان جبريل هو الذى جاء بالحجر الأسود من السماء ، إذ كان قد رُفع إليها حين أغرق الطوفان الأرض . وقيل : إن جبريل جاء بالحجر الأسود من الهند حيث هبط به آدم من الجنة، وكان أبيض ناصعا، فآسودّ من خطايا الناس . وقيل : بل كان الله عز وجل استودعه جبـل أبى قُبَيْس حين طوفان نوح، فجاء به جبريل ووضعه فى مكانه وبنى إبراهيم عليه وهو حينئـذ يتلألأ نورا حتى لقـد أضاء بنوره شرقا وغربا وشمـالا ويمينا الى منتهى أنصاب الحرم من كل ناحية، وإنما سوّدته أنجاس الجاهلية وأرجاسها .

وذكرت الروايات أن إبراهيم بنى الكعبة من الجبال الخمسـة التى ذكرها من تحدّثوا عن بناء الملائكة البيت .

يقول مؤلف (تاريخ الكعبة المعظمة) : « فتحصل من عموم ما رويناه عن صفة بناء إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسـلم وآبنه إسماعيل عليه السـلام للكعبة المعظّمة، أنه بناه بأمر الله سبحانه وتعالى، وكان البانى إبراهيم والمساعد له إسماعيل، وأنه بناه بالحجارة . وجعـل آرتفاعه الى اليسار تسع أذرع ، وطوله من الشمال الى الجنوب ممـا يلى الجهة الشرقية اثنتين وثلاثين ذراعا، ومن الشمال الى الجنوب ممـا يلى الجهـة الغربية أيضا إحدى وثلاثين ذراعا ، ومن الشرق الى الغـرب ممـا يلى الجهة الجنوبية أى من الحجر الأسود الى الركن اليمانى عشرين ذراعا ، ومن الشرق الى الغرب أيضا ممـا يلى الجهة الشمالية أى من جهة حِجْر إسماعيل اثنتين وعشرين ذراعا ، وجعـل له بابين ملاصقين للأرض ، أوّلهما من الجهـة الشرقيـة ممـا يلى الحجر الأسود، والآخر من الجهة الغربية ممـا يلى الركن اليمـانى على سَمْت البـاب الشرقىّ . وحفـر فى داخله بئرا تكون خزانة له، ولم يجعل عليـه سقفا، ولا وضع على بابيه أبوابا تفتح وتغلق . والله أعلم » .

رفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل وطهّراه للطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود ، وجعلاه مثابةً للناس وأمْنا . وخلَف العمالقةُ وجُرْهُم إسماعيل على مكة أجيالا بعد ذلك متعاقبة ثلاثمائة سنة؛ فأعاد هؤلاء ثم أولئك بناءه و زادوا فيه وأقاموا على تعظيمه والطواف به . ولم يكن أحد يجرؤ أن يأخذ من هدايا البيت المحفوظة بالبئر مخافة ما ينزل به من عقاب رب البيت . على أن السُّهَيْلِيّ روى فى الرّوض الأُنُف : أن سارقا سرق من مال الكعبة فى زمن جُرْهُم وأنه دخل البئر التى فيها كنزها، فسقط عليه حجر فحبسه فيها حتى أخرج منها وانتزع المال منه ، ثم بعث الله حيّة لها رأس كرأس الجدى بيضاء البطن سوداء المتن ، فكانت فى بئر الكعبة خمسمائة عام فيما ذكر رَزِينٌ . ولعل رَزِينًا والسُّهيليّ لم يقف أحد منهما على نقوش قدماء المصريين؛ إذ كانوا يجعلون الحيّة التمثال الحارس على أبواب المحاريب التى تكون فيه المومياء والنفائس المدفونة معها .

وبناء العمالقة وجُرْهُم الكعبة بعد إبراهيم مختلف عليه . ومنهم من يذكر أن أوّل من جدّد بناء الكعبة بعد إبراهيم قُصَىّ بن كِلاب الجدّ الخامس للنبيّ العربيّ ، وأنه سقفها بخشب الدَّوْم وجريد النخل . والمعروف أن الكعبة كانت الى عهد قُصَىّ قائمة فى الفلاة لا يبنى أحد حولها إعظاماً لحرمتها؛ فلما آل اليه أمر مكة أمر الناس فبنوا حول البيت ولم يتركوا إلا قدر المطاف .

ولم تذكر المراجع المختلفة أن أحدا تولّى تشييد الكعبة بعد قصيّ وقبل أن تبنيها قريش قبيل بعث محمد نبيًّا إلا ما رواه تقيّ الدين الفاسيّ فى كتاب (شفاء الغرام بأخبار المسجد الحرام) أن عبد المطلب جدّ النبيّ بناها . ولعله أبدعَ هذه الرواية ليكسِب عبدَ المطلب بها تشريفا ؛ فإن ما أصاب جدران الكعبة من الوهن بعد موت عبد المطلب بعشرين سنة أو نحوها لا يتّفق مع هذا القول .

أما الثابت الذى أجمع عليه المؤرّخون وكتّاب السيرة ، فذلك بناء قريش الكعبة على عهد محمد حين طغى السيل عليها ووهّن جدرانها . فلما بلغ القوم مكان

الحجر الأسود اختلفوا وكادت تنشّب الحرب الأهلية بينهم، ثم آحتكموا إلى أوّل داخل من باب الصفا ؛ ودخل محمد من هذا الباب وحكم بينهم بأنْ وضع الحجر على ثوب رفعه أهل القبائل المختلفة من أطرافه ثم رفع محمد الحجر ووضعه مكانه من البناء .

ذكرتُ هذا الذى تداولته الروايات المختلفة عن بناء الكعبة وأنا بموقفى فى جوفها . فلما بلغت بآستعراضى الى قيام محمد بين قومه مقام الحكم فى وضع الحجر الأسود مكانَه، تنبّهت الى موقفى وذكرت أن رسالة محمد وما جاء فيها من فرض الحج على الناس هى التى جاءت بى الى هذا المكان ووقفتنى هذا الموقف . واقتربت من باب الكعبة أنظر إلى ما حولها، وخيّلت لنفسى صورة هؤلاء الذين رفعوا الثوب والحجر الأسود فوقه ، وموقف محمد منهم وهو يقضى بينهم قضاء تطمئن له نفوسهم وتستريح إليه أفئدتهم .

وما لبثت حين آرتسمت هذه الصورة أمامى أن انتقلت بغتة أرى صورة أخرى تنبعث أمامى واضحة المعالم، ممتلئة حياة وقوة، كلها الروعة وكلها الجلال ؛ تلك صورة محمد والمسلمون من حوله يوم فتح مكة . فها هو ذا ممتطٍ ناقته القصواء يجىء متّجها إلى الكعبة وأصحابه من ورائه، ومن ورائهم عدد من سادة مكة وكبرائها . ويطوف رسول الله بالبيت سبعا ثم يقف أمام بابه فيدعو السادن ليفتحه له . ويفتح عثمان بن طَلْحة الباب فيقف محمد فيه وقد تكاثر الناس من حوله ، فيخطبهم ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . ويسأل أهل مكة فيقول : يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟ فيقولون : خيرا، أخ كريم وآبن أخ كريم . ويجيبهم : فاذهبوا فأنتم الطلقاء . ويدور فيلقى ببصره إلى جدران الكعبة وهو واقف من بابها مثل موقفى الساعة فيرى هذا الهيكل الذى أقامه إبراهيم وإسماعيل هيكلا للتوحيد قد آنقلب هيكلا للوثنيّة والشرك ؛ فلم تبق

من تمّ له بساطته ولا بقيت له مهابته وقوته . عبث الفنّ بجدرانه و بجوفه، فانشأ من الصور والتماثيل ما يأخذ النظر إليه والفكر إلى تقدير دقة صنعه عن التفكير فى وحدانية الله جل شأنه وفى قوته وقدرته . نُقشت على الجدران صور الملائكة نساء ذوات جمال، فصارت هذه الأرواح النورانية ذات كيان مادى يطغى على المعنى الروحى فيها . وصوِّر إبراهيم و فى يده الأزلام يستقسم بها، وصوِّر النبيّون من حوله فى أوضاع مادّية كوضعه . وفى جانبٍ وُضع تمثال حمامة من عيدان . وقام الصنم هُبَلُ فى جوف الكعبة تحفّ به هذه الصور على جدرانها وهو على صورة الإنسان قد صنع من العقيق إلا ذراعًا له كُسرت فأبدله القرشيون منها ذراعا من ذهب. وشُدّت أصنام كثيرة بالرصاص إلى جدر الكعبة ، ولبعضها من جمال الفنّ بعض ما لِهُبَل.

أىّ متحف هذا المتحف ! إن صورته لتثير فى الذهن صورة قاعة من قاعات المتحف المصرى بالقاهرة أو بهو من أبهاء متاحف العواصم الأوربية . ولم يكن أهل ذلك العصر ينظرون إلى هذه الصور والتماثيل كما ننظر نحن اليوم إليها ، ولا كانوا يعتبرونها بعض آثار الفنّ كما نعتبرها ، بل كانوا يبعثون إلى هذه الصور المادّية حياة يتوهمونها ثم يكبرونها ثم يُشركون أصحابها فى الألوهية أو يتخذونها إلى الله زُلْفَى . لذا كانت الكعبة فى تلك الساعة التى دخلها محمد فيها هيكل الوثنية والشرك كما كانت هيكلَهما قبل ذلك أجيالا وآجالا . أمّا والإسلام ينكر الشرك ويدعو إلى التوحيد كما دعا إليه إبراهيم منذ أقام البيت ، فليعد بيت الله هيكلَ التوحيد كما كان . لذلك أمر محمد فطُمست الصور وحُطمت الأصنام وألقيت إلى ظهورها وطهِّرت الكعبة من كل أثرلها ؛ وعادت اليها بساطة التوحيد ومهابته بمعناه الروحىّ السامى توحيه الى من يطوف بها أو يدخل الى جوفها فتوجِّه قلبه الى الله وحده، له وحده الحمد وله الملك واليه يرجع الأمر كله .

يا لَعظمتها ساعةً من ساعات التاريخ تلك التى طهّر محمد الكعبة فيها من فنون الشرك وآثامه !. لقد تمثلت لى مناظرها جميعا واضحة جليّة فى بهاء جلالها كأنها

تمر أمام باصرتى على شاشة بيضاء، بل كأنها تحيا فى عالمنا من جديد كرّة أخرى . وجعلت أشهدها وأنا واقف على عتبة باب الكعبة، فتمتلىء بها روحى وتتغذّى بها نفسى، فيزيدنى ذلك تعظيما لموقفى وإكبارا للرسول الكريم الذى محا آية الضلال؛ ثم تنفرج شفتاى عن كلمة هى جِمَاعُ هذه الرسالة الروحانية العظمى : " لا إله إلا الله، الله أكبر " .

لو أدرك المسلمون ذلك كله إدراكا حلّ منهم محل اليقين لما نزل بالإسلام ما نزل به، وما اجترأ على بيت الله يوما مجترئ . لكن الفتح الإسلامى أدخل فى دين الله أقواما لم تمتثل نفوسهم مبادئ هذا الدين فى سموّ صفائها وفى دعوتها الى الإسلام الصحيح لله، وفى احترامها حرمة بيته احتراما وقر فى النفس العربية من قبل الإسلام ثم زاده الإسلام قوة وتثبيتا. لذلك قامت الفتن بعد مقتل عثمان واستقل بنو أمية بالملك وجعلوا دمشق عاصمتهم . فلما آل الأمر الى يزيد بن معاوية كان عبد الله بن الزبير ما يزال منتقضا على إمارة الأمويين ثائرا بهم بمكة . ولقد جرّد يزيد جيشا لإخضاعه وأمَّر عليه الحصين بن نُمَيْر، فسار اليه وضيق عليه الحصار بمكة. ولم يطق ابن الزبير ورجاله مقاومته فلجئوا منه الى الحرم و بنوا حول الكعبة خِصَاصًا من القصب يحتمون بها من حجارة المنجنيق الذى نصبه ابن نمير على جبلى مكة أبى قُبَيْس وقُعَيْقِعَان . ولم تمنع هذه الخصاص اللاجئين اليها ؛ فقد أمر الحصين أصحابه أن يرموا الكعبة من المنجنيق بعشرة آلاف حجر؛ وكانوا يرمون و يرتجزون، وكانت الحجارة تصيب الكعبة حتى تمزّقت كسوتها و بدت أحجارها . وأصاب الذين يقيمون بالخصاص والخيام حول الكعبة الفزع؛ حتى إن أحدهم ليوقد نارا فى خيمة قائمة بين ركن الحجر الأسود والركن اليمانى ، إذ طارت منه شرارة أحرقت الخيام وتعلّقت بأستار البيت . ولما كان بناء الكعبة يومئذ مدماكا من حجر ومدماكا من خشب الساج؛ فقد احترق الخشب ووهن البناء كله حتى كان وقوع الحمام على الكعبة كافيا لتناثر حجارتها .

ولقد فزع لذلك أهل مكة وأهل الشام جميعا . وترك ابن الزبير الكعبة ليراها الناس ، فيكون مَرْآها محرِّضا لهم على أهل الشام . وظلّ الأمر كذلك ، وظل الحصين بن نمير محاصرًا البلد الحرام حتى بلغه نعى يزيد بن معاوية . وتحدّث اليه رجال من أهل مكة واتّهموا رجاله بأنهم رموا الكعبة بالنِّفْط وقالوا له : أمّا وقد تُوُفِّىَ أمير المؤمنين فعلى ماذا نقاتل ! . اِرْجِعْ الى الشام حتى ترى ما يجتمع عليه رأى صاحبك ، يريدون معاوية بن يزيد . ورجع الحصين الى الشام تاركا الكعبة واهية توشك أن تنقضّ .

وتحدّث ابن الزبير الى أهل مكة : ما يصنع بالبيت ، أيصلح ما وهى منه؟ أم ينقضه ويعيد بناءه؟ وكان عبد الله بن عباس على رأى المعارضين للهدم وإعادة البناء ، قال موجِّها كلامه لابن الزبير : دَعْها على ما أقرّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنى أخشى أن يأتى بعدك من يهدمها ثم يأتى بعد ذلك آخر ، فلا تزال أبدا تُهْدَم وتُبْنَى فتذهب حرمة هذا البيت من قلوبهم ، ولا أحب ذلك ولكن ارقعها . وأجابه ابن الزبير : والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه ، فكيف أرقع بيت الله سبحانه وأنا أنظر اليه ينقضٌّ من أعلاه الى أسفله ، حتى إن الحمام ليقع عليه فتتناثر حجارته . وأقام أياما يشاور ويستخير ، ثم أجمع على هدم الكعبة . وهدمها وأعاد بناءها . وإذ كانت خالته عائشة أمّ المؤمنين تذكر أن رسول الله قال لها : «يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية لأمرت بالبيت فهُدِم فأدخلت فيه ما اخرِجَ منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابا شرقيا وبابا غربيا فبلغت به أساس إبراهيم» ، لذلك زاد ابن الزبير فى مساحة الكعبة فأدخل فيها حِجْر إسماعيل بعد أن كشف عن أساسها وجعل لها بابين وألصقها بالأرض .

ولمّا هدم ابن الزبير الكعبة وشرع فى إعادة بنائها بعث إليه عبد الله بن عباس يقول : «لا تدَعِ الناس بغير قِبلة . اِنْصِبْ لهم حول الكعبة الخشب

وآجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلّوا إليها» . ونفّذ آبن الزبير مشورة آبن عباس . فلما بلغ البناء الركن وآن أن يوضع الحجر الأسود فى مكانه أمر ابن الزبير آبنه عباسا وجُبَيْر بن شَـيْبة بن عثمان أن يجعلا الحجر فى ثوب وقال لهما : « إذا دخلت فى صلاة الظهر فآحملاه وآجعلاه فى موضعه فأنا أطوّل الصلاة . فاذا فرغتما فكبّرا حتى أُخفف صلاتى» . فلما وضع الرجلان الحجر فى موضعه وطوّقا عليه الركن كَبّرا وخفف آبن الزبير صلاته . وغضب رجال من قريش حين لم يُحْضِرهم آبن الزبير وأعادوا قصة تحكيم أجدادهم أوّل داخل من باب الصفا ، وحكم رسول الله قبل بعثه بينهم . لكنهم كانوا أمام الأمر الواقع ، فلم يزيدوا على أن غضبوا ثم رضوا .

ولمّا تمّ بناء الكعبة آعتمر آبن الزبير مُحْرِما من التَّنْعِيم وآعتمر الناس معه ونحروا وأقاموا يَطْعَمون ويُطْعِمون شكرا لله على تيسير بناء بيته الحرام ، وكان ذلك فى السنة الخامسة والستين من الهجرة .

وظلّت الكعبة كما بناها آبن الزبير عشر سنوات . فلمّا كان عهد عبد الملك ابن مروان وحاصر الحجّاج آبنَ الزبير وقتله ، كتب الى عبد الملك يخبره أن آبن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها بابا آخر ، ويستأذنه فى رد ذلك الى ما كان عليه فى الجاهلية . وأذِن عبد الملك ، وغيّر الحجاجُ الجدار الذى من جهة الحجر وسدّ الباب الغربى ورفع البناء ورفع باب الكعبة على ما كانت فى الجاهلية . ويذكرون أن عبد الملك ندم على إذنه للحجاج ولعنه وقال : ”وَدِدنا أنّا تركنا أبا خُبَيْب وما تولّى من ذلك“ .

وقد آختلف المسلمون من بعدُ : أفيتركون الكعبة كما بناها الحجاج أم يعيدونها الى بناء آبن الزبير آستنادًا الى حديث عائشة . فلما تولّى هارون الرشيد الخلافة سأل الإمام مالكا فى هدم الكعبة وردّها الى بناء آبن الزبير . فقال مالك : ياأمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها . فترك الرشيد الكعبة كما هى .

وبقى الأمر على بناء ابن الزبير وتعديل الحجاج إياه، لا يزيد المسلمون على أن يشدّوا من بناء الكعبة ما قد يعتريه الوهن . فلما كانت سنة ١٠٤٠ هجرية (١٦٣٠ ميلادية) هطل بمكة مطر عظيم استمر يومين كاملين، فدخل المسجدَ الحرام ثم ارتفع حتى دخل الكعبة ووهّن بناءها، وكان قد انقضى على إقامته قُرابة ألف عام . فلما أمسكت السماء وبدأ المطر ينحدر من الكعبة بدأت جدرانها تتساقط، وكان جدارها الشمالى أول جدار سقط، ثم سقط بعض الجدارين الشرقى والغربى . هنالك ارتاع الناس وزُلزلوا زلزالا شديدا . ونزل أمير مكة إلى المسجد الحرام وأمر بإخراج قناديلها خشية الضياع . وتبلُغ هــذه القناديل عشرين كلها من الذهب ، وأحدها مرصع باللؤلؤ . وجعلت أحجار الكعبة تتساقط لشــدة ما أصابها من الوهن وجعل الناس يزدادون وجلا . ثم تقــدم الأمير وجوه مكة وتبعهم النــاس ينظّفون المسجد وقد جرفت السيول إليه من الرمل والتراب ما تعذّر معه التنظيف بغير المساحى والمكاتل؛ بل أحوج الأمر من بعــدُ الى إحضار الأبقار من جُدّة لتحرث أرض المسجد بعد جفافها لإزالة ما بها .

وتشاور الناس فى أمر الكعبة وما يصنعون بها . وانعقد رأى الجماعة من علماء مكة وسادتهــا على المبادرة إلى عمارتهــا من مال الكعبة، وأن يعــرض الأمر على السلطان، وألا يمنع أحد من عمارتها من ماله اذا لم يكن فيه شبهة .

وترامى نبأ الكعبة وما أصابها الى الأقطار الإسلامية المختلفة، فهاج النــاس له واضطربوا . ولم ير والى مصر محمد باشا الألبانى أن ينتظر ورود أمر السلطان من الاستانة مخافة أن يزداد التصدّع فى الكعبة ، ولأن أشهر الحج كانت قــد اقتربت؛ فأرسل رسوله إلى مكة ليرى فى عمارة الكعبة رأيه . وبلغ الرسول مكة فى منتصف شوال من تلك السنة .

وانقضت أشهر الحج والسلطان يشاور أصحابه ما يصنع . فلما استقر رأيهم على العمارة بعث رسوله الذى بلغ مكة فى ربيع الأول من سنة ١٠٤٠؛ وكان أول ما صنع هؤلاء جميعا أن أحاطوا الكعبة بسيــاج من الخشب يطوف النــاس به ويتخذونه

قبلتهم كما فعل ابن الزبير. ثم إنهم جعلوا يتشاورون ما يصنعون. وإنهم لكذلك إذ سقط مطر هدمت منه بعض أحجار الجدار الغربىّ. هنالك اتجه الرأى الى هدم ما بقى من جوانب الكعبة، ولم يقع خلاف إلا على ركن الحجر الأسود؛ لكن فتوى المهندسين بأن هذا الركن يوشك أن ينقضّ كذلك أزالت تردد القوم جميعا، فهدموا البيت كله ليقيموا بناءه ثابتا قويّا.

واشترك فى هذه العمارة جماعة من المهندسين والمعلّمين المصريين. وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر وأموالا طائلة. ولم يكونوا يعيدون من الأحجار التى بنى ابن الزبير بها الكعبة إلا ما وجدوه ما يزال صُلْبا قويّا؛ فأمّا ما وهن أو ضعف فكانوا يستبدلون به غيره. ولم يجدوا فى ذلك مشقّة وقد كان لايكلّفهم إلا تسوية الأحجار ودقة نحتها. لكنهم واجهوا مشكلة ذات خطر حين أرادوا أن يضعوا الحجر الأسود مكانه. فهذا الحجر كان قد أصابه بعض التصدّع فى عهد ابن الزبير؛ فلم يجد مشقة فى شدّه وتقويته وربطه بسيور من الفضة. فلما أراد البناءون وضعه مكانه أثناء هذه العمارة الأخيرة فى عهد السلطان مراد ألفَوْا به شطوبا مستطيلة ورأوا الفُتات يتناثر منه. وللحجر الأسود من التقديس ما لا يصح معه أن يسقط من أجزائه كثير أو قليل، أو أن يتناثر منه فُتَاتٌ ولو كان ضئيلا؛ لذلك عالجه المهندسون على هدى فن المعمار مصطنعين الصبر والأناة مستهينين بكل مشقة أو تعب، عاملين على ملء ما بين أجزائه بمركّب يعيد اليها قوتها ويكفل بقاءها مشدودة فى إطار الفضة لا يصيبها سوء.

ولمّا فرغ القوم من بناء الكعبة وسقفها ووضع عمدها وترميمها، بنوا حِجْر إسماعيل. وكانوا حريصين على أن يعيدوا من أحجاره ما نُقرت فيه أسماء من سبقوا الى عمارته. على أنهم ألْفَوا رُخامةً مفقودة من الجدار الذى تمّ بناؤه فى عهد ملك مصر الملك الأشرف "قانصوه الغورى"؛ فلم يُعْنوا أنفسَهم بنقش غيرها ليضعوها مكانها، بل وضعوا رخامة ملساء. ولعلهم فى ذلك قد أخذوا بإحدى النظريّات التى يقرّها الفن الحديث للمعمار؛ إذ يحترم صنع الزمن بالأشياء فلا يحاول ردّها الى

أصلها أو إبدال ما يشابهها بها ، بل يقوّى مكانها مكتفيا بذلك معتبرا إياه بعض ما يوجب الفن فى عمارة الآثار التاريخية .

ولما أتمّ القوم البناء كتبوا محضرا أرسلوه الى مصر فيه شهادة المكيين بحسن عمارة البيت المعظّم . وفى ذلك اعتراف بما كان لمصر من مجهود فى هذه العمارة فاق كل مجهود قامت به أية أمة إسلامية أخرى . ولا عجبَ فى ذلك ، أرسلت مصر جميع ما يلزم لهذه العمارة ، وأنفقت مع ذلك ستة عشر ألفا من الجنيهات لإتمامها .

وهذا البناء الذى شاركت فيه مصر بالحظ الأوفر هو بناء الكعبة القائم اليوم .

أنا الآن أقف إذًا من بيت الله الحرام فى بناء شاده أجدادى و بنو وطنى . هذا البناء ما يزال قويّا الى اليوم ، ولن يزال قويّا على الزمن ما فى طبيعة بناء تُشيده الأيدى المصرية أن يقف قويّا على وجه الزمن . نعم ! أنا أقف حيث وقف إبراهيم و إسماعيل ، وحيث وقف النبيّ العربىّ عليه السلام ، وحيث وقف ألوف وملايين من الناس كانوا الى ما قبل العمارة الأخيرة للكعبة يذكرون العرب الذين بنوها أيام قُصَىّ وأيام ابن الزبير ، وهم اليوم يذكرون العالم الإسلامىّ كله ، ويذكرون مصر درّة التاج من هذا العالم الإسلامى كله . ولكن ! أفيساورنى فخر بمصريتى وأنا هنا فى بيت الله ، ونحن جميعا عباد الله عبوديةً لا تعرف وطنا ولا تعرف فخرا ولا غرورا ، بل تعرف الحب والأخوة للمؤمنين جميعا فلا يكمل إيمان الإنسان إلا اذا كملا ! !

وخجلت من تفكير شابه الغرورُ الإنسانى ، واستغفرت الله منه ، وعدت الى تفكير أكثر سموًّا ، عدت الى التفكير فى موقف الرسول من الكعبة فى حِجّة الوداع : فى موقف هذا البشير الهادى يحفّ به مائة ألف أو يزيدون وهم يستغفرون الله جميعا ويتوبون اليه ، وهو على رأسهم يعلّمهم مناسك حجهم ، وهو ليس دونهم استغفارا وخضوعا لله ، مع ما يعلمه من أنه رسول ربه وأنه بلّغ رسالته وأدّى أمانته واحتمل فى سبيل ذلك ما تنوء به العصبة أولو القوة . لكنه يعلم كذلك أنا أبدًا

فى حاجة الى مغفرة الله لنا ورضوانه عنا ، وأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وأنه جلّ شأنه له الأمر وهو العفوّ الغفور . فكّرتُ فى هذا الموقف الأخير للرسول وطوافه بالبيت وطواف مائة ألف من المسلمين وراءه ، وهو مع ما جاوز الستين يُسرع فى أشواط الطواف الأولى والمسلمون يُسرعون إسراعه ، وهو يذكروهم يذكرون يوم طاف فى عُمْرة القضاء ومعه ألفان ، وهو يُسرع ويقول لأصحابه : " اللهم ارحم آمرأً أراهم اليوم من نفسه قوة " ، والمشركون من أهل مكة ينظرون من أعلى الجبال إلى أولئك الذين زعموهم ضِعافا أرهقتهم يثرب وأرهقتهم الحروب فإذا هم البأس والقوّة والعزيمة الصادقة بإذن الله .

كان أهل مكة ينظرون إلى المسلمين فى أثناء طوافهم وراء نبيهم فى عمرة القضاء ؛ أمّا فى حِجّة الوداع فكان أهل مكة قد أسلموا وقد أصبحوا مع سائر العرب بنعمة الله إخوانا ، وكانوا يطوفون بالبيت مع الطائفين ، ويذكرون الله مع الذاكرين ، وقد هداهم الله إلى الدين القيِّم ، وأنجاهم من ضلال الشرك ومذلّة الوثنية .

ألا إن هذا البيت العتيق لينطوى من أسرار التاريخ وعِبَره على قَدْرٍ يعادل ما يستكنّ فى جوفه هيكلًا للتوحيد من مهابة وجلال . وإن هذا الحق الذى يبدو صامتا حوله لملىء من أصداء العبادة بما لو آنفرج عنه كما تنفرج أسطوانة الحاكى عن الأصوات المسجّلة عليها لدوّت الأرض كلها مؤمنة مقدّسة منادية نداء يسمعه أهلها وأهل السماء جميعا : لا إله إلا الله والله أكبر .

وآن لى أن أهبط من الكعبة إلى المطاف وإلى المسجد ، فودّعت السادن وودّعنى بكلمات كلها الرقة والظَّرف . وقصدت مذ هبطت إلى حجر إسماعيل وإلى مقام إبراهيم فصلّيت فيهما . وغادرت المسجد الحرام بعد ذلك ممتلئ القلب روعةً وإكبارا وتعظيما ، وكل ما حولى يدوّى فى أُذنى بذكر الله والتسبيح بحمده : ربّنا لك الحمد .

آثار مكة

قَلّ من زوّار مكة من يُعْنَى بحاضرها وما يجيش بخاطر أهلها من رجاء فى هذا الحاضر وأملٍ فى المستقبل . فهم يقصدون إليها ليحجّوا بيت الله كيما يغفر لهم ربهم ذنوبهم ويطهّرهم من ماضى حوباتهم . وبيت الله فيها هو لذلك مثابتهم . فإذا أقاموا بها التمسوا مزيدًا من المثوبة بزيارة ما بها من آثار النبيّ وأهل بيته والسلف الصالح عليهم رضوان الله أجمعين . من ثَمّ كانت نفوسهم لا تتعلق مما فى مكة إلا بما يتصل بالماضى البعيد ٱبتغاء ثواب المستقبل فى الآخرة . فإذا عناهم من أمر مكة غيرَ ذلك شيء فما يبتاعونه منها تبركًا به وحبًّا فى ثواب ينالهم أو ينال من تُهْدَى إليه هذه البركات من ذويهم والمقرّبين منهم .

ولقد أردت أن أقوم بزيارة هذه الأماكن التى يُضْفِى أهل مكة عليها ثوب التاريخ لعلّى أجد فيها من الفائدة العلمية ما يُشيد بذكرى الذين شادوا المساجد والذين يرقدون الرقدة الأخيرة فى المقابر . وتحدّثت فى ذلك الى غير واحد من شبان مكة ومن أولى الرأى فيها . ولَشَدَّ ما كان عجبى لقولهم : إن هذه الآثار لا تجد سندًا ثابتا من التاريخ ، وإن المؤلّفين مختلفون على أكثرها إن لم يكن عليها جميعا . وبلغ بعضهم فى تأكيد رأيه أن قال : إن ما يروى عما سوى الكعبة وما يحيط بها بالمسجد الحرام وعن حِرَاء وثَوْرٍ كلُّه رجم بالغيب ، وهو إلى القصة أدنى منه إلى أنباء التاريخ . وأردت أن أمحّص قولهم ، فرجعت إلى بطون ما ٱستطعت الرجوع إليه من الكتب ، فلم أجد فيها ما يطمئن اليه السند العلميّ الصحيح ، وإن روى بعضهم من الأنباء المتواترة عن بعض هذه الآثار ما يجعل الإنسان يتردد بين صحة النبأ وبطلانه ترددا ينفى الثبوت العلمى ، ولكنه لا يثبت النفى العلمى كذلك .

وأفضيت الى مضيفى بقصدى ، فأنبأنى أن الشيخ عبد الحميد حديدى خير من يرشدنى الى ما أقصد اليه . والشيخ عبد الحميد حديدى يعمل الآن مع الشيخ

عبّاس قطّان فى أمانة العاصمة، وكان قبل ذلك قد اشتغل بالتعليم فى جُدّة، و بالقضاء عنـد أدنى حدود الحجاز من اليمن، كما تثقّف بالأسفار الى الهند وجاوة حين شبّت نيران الثورات والحروب بالحجاز فى العهد الأخير. ولم أسأله عن سنّه، ولكنه يبدو فى جوار الخمسين. وهو رجل أسمر اللون كسمرة العرب، مديد القامة نحيفها، لا يلبس العقال بل يكتفى (بالصمادة) على عادة أهل العـلم فى بلاده. وكانت معـرفتى به فى هذا اليوم مقدّمة صحبـة اتّصلت طَوال إقامتى بالحجاز الى يوم سـفرى من يَنْبُع الى مصر. ولقد أنِست إلى هذه الصحبة واطمأننت إليها كل الاطمئنان. وهل كنت أطمع فى أكثر ممـا كان عبد الحميد عليه من سعة الفكر والبعد عن التعصُّب وعدم التقيُّـد إلا بموجب العقـل، وتبادله الرأى لذلك معى تبادلًا حرًّا فى كل ما يعرض لنـا حين نقف أمام مشهد نمحّص ثبوته التاريخىّ أو موضـعه من أنباء حياة الرسول !. وأبدى الرجل من هـذا اليوم الأوّل اغتباطا بصحبته إيّاى؛ فشكرته عليه ولن أنساه له.

وكان الشيخ عبد الحميد حديدى يشاطر شبان مكة رأيهم أن ما بمكة من الآثار ليس له من التاريخ سند ثابت على رغم كثرته. ولعل ذلك هو الذى جعله لايبدى كبير اهتمام بزيارتى وإياه هـذه الآثار أوّل الأمر، وخاصّةً زيارة ما لم يكن منها وثيق الاتّصال بحياة محمد. ولعل سببا آخر دعاه الى ذلك؛ فلقد كان لكثير من هذه الآثار فيما مضى قيمة فنّية بمـا أُقيم عليـه من قِباب وما شُيِّد لذكره من مساجد. أمّا اليوم ومُذْ حكم الوهّابيون بلاد العرب، فقد هُدمت هذه الآثار الفنية وامّحتْ رسومها. فهم أعداء ألِدّاء لكل ما يحسبونه يورث الشبهة فى توحيد الله جل شأنه؛ وهـم يرون فى المقـابر و زيارتهـا وإقامة القِباب عليهـا إثما كما يجب القضـاء عليه؛ وهم يرون فيها، على الأقل، منكرا تجب إزالته. وما عسى أن تغنى مثلى زيارة آثار لم يبـق منها اليوم إلا ما يحفظه النـاس أو يروونه عنها !. وأيّة فائدة فى أن أذهب الى مقابر المَعْلَاة مثـلًا حيث قبر خديجة وقبور أجداد النبىّ وأعمـامه وقد سُوِّيت هذه القبور بالأرض وأصبح ما يرويه حُرّاس المقابر عنها أشبه شئ بحديث

خرافة . ولم يخفِ عبد الحميد ما ساوره من ذلك ، ولم يخف أسفه على زوال القباب الجميلة التي كانت مزارًا لعشرات الألوف من الحجاج ، والتي كانت تدرّ لذلك على مكة الخير الوفير . لكنني أبديت من الحرص على زيارة هذه الآثار ما أزالَ تردُّده . ولم يلبث حين تبادلنا الحديث بعد زياراتنا في اليوم الأول أن أقبل يضع خُطَط تجوالنا بهمّة لا تعرف الملل .

وكانت مقبرة المَعْلاة أول ما اتجهتْ إليه زيارتنا . وإنّ بي لزيارة المقابر لهوًى ملحًّا . فالمقابر مستقرّ الأعزّاء الذين سبقونا إلى دار الخلد ، وهي مستقرّ الإنسانية وموضع سكنها بعد الفراغ من واجب الحياة . والمقابر هي العبرة الباقية تحدّثنا عن الوجود وتصوّر لنا قيمته . أليس القبر هو الإنسانية الماضية كلها ، بل الحياة الماضية كلها لهذا الكون ! وإذا صح ما قيل من أن من مات قامت قيامته فالقبر هو المظهر المادّي لصلة الأحياء والأموات . والأموات هم إخواننا وآباؤنا وأبناؤنا الذين سبقونا الى الرحيل ، والذين يتصلون بنا بعد موتهم بما خلّفوا لنا من آثارهم ، ونتصل نحن بهم اتصالا لاينقصه إلا تبادل المنافع في الحياة . ألم يخاطب الرسول عليه السلام قتلى بدر من المشركين بعد أن دفنهم المسلمون في القليب بقوله : " يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا " . فلما تحدّث المسلمون إليه قائلين : " يا رسول الله أتنادي قوما جَيَّفوا " كان جوابه : " ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني " .

ومقبرة المَعْلاة تقع في الشمال الشرقي من مكة . وهي فضاء فسيح محصور بين الجبال من شماله وغربه ، وتفصل بينه وبين الجبال من الشرق بعض المساجد والمساكن ، ويتصل من الجنوب بمنازل أهل مكة . وهذه المقبرة قديمة ترجع إلى عهد الجاهليّة ، وهي ما تزال مع ذلك مقبرة أهل مكة في هذا الزمن الحاضر . ولعل بقاءها مقبرة حتى اليوم يرجع إلى تقديس المكيين للقبور القديمة التي بها أكثر مما يرجع إلى رغبتهم عن اتخاذ مقبرة لمدينتهم فيما وراء الجبال التي تحصرها .

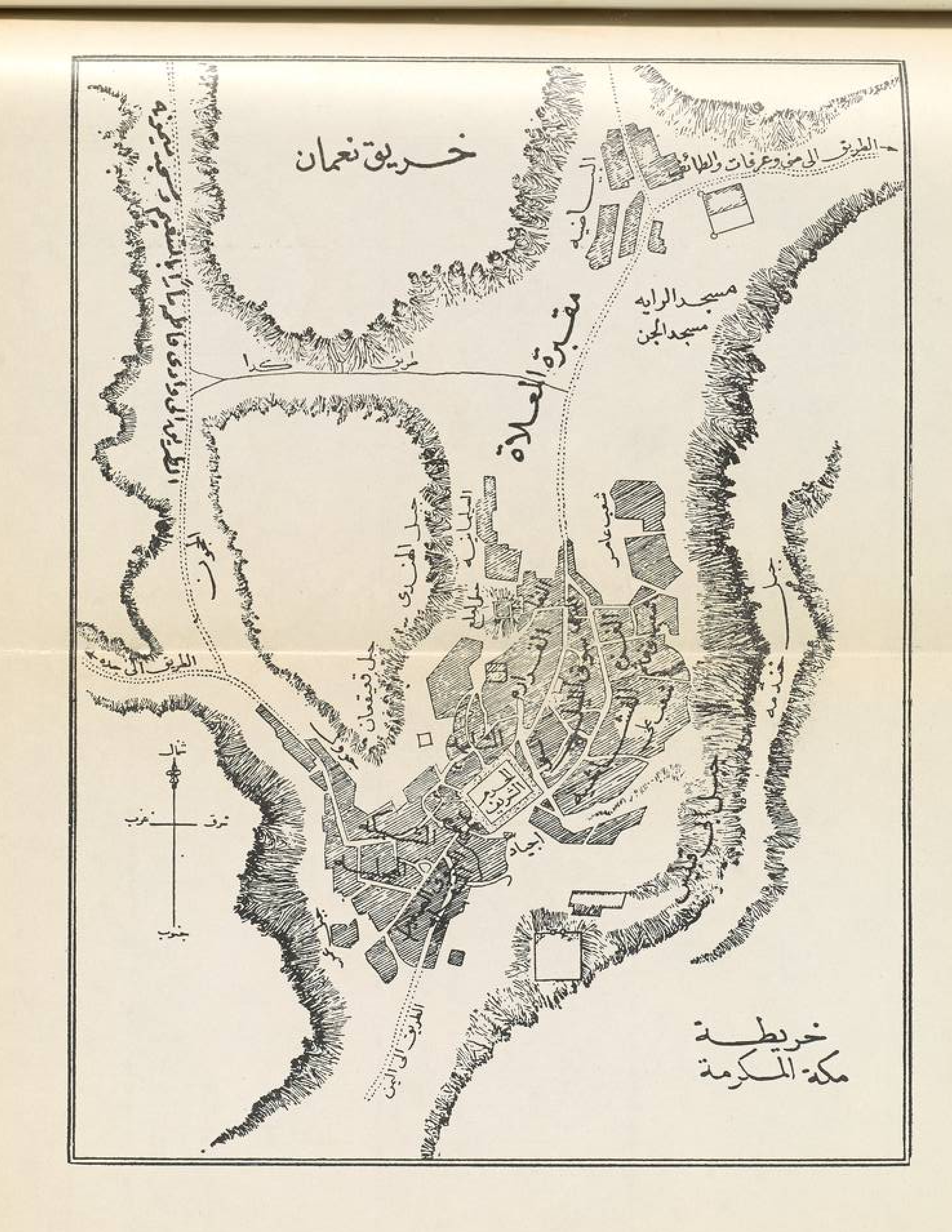
وقبور المعلاة مسوّاة بالأرض اليوم، وهى لم تكن كذلك قبل أن يدخل الوهّابيون الحجاز . ويفصل بينها وبين الطريق منحدر من الأرض يسمو بها وبما تحويه من ذكريات إلى سفح الجبل . وإنك لترى بها على رءوس قبور شواهد نقشت عليها بالخط الكوفى أو بالخط الثلث الجميل آيات قرآنية فى أغلب الأمر، وأسماء ساكنى هذه القبور فى بعض الأحيان . ولقد صحبنا حارس المقبرة فى مسيرنا يهدينا أثناءها إلى مقابر بعض الصحابة والتابعين .

وتقدّمنا غير بعيد، ثم وقف يشير بإصبعه الى قبر ذكر أنه قبر عبد الله بن الزبير صاحب الجهاد المشهور فى مقاومة بنى أُمية، والذى أقام بناء الكعبة فى السنة الرابعة والستين من الهجرة بعد أن رماها الحُصَين بن نُمَير قائد جيوش يزيدَ بالمنجنيق . والى جانب قبر ابن الزبير أشار الحارس الى قبر آخر ذكر أنه قبر أُمه أسماء بنت أبى بكر . ومدّ الحارس بصره الى ناحية الجبل من الشمال ومددنا البصر معه، فأشار الى جدار قائم فى سفح الجبل يحجب ما وراءه ولم ينبس ببنت شفة . أمّا الشيخ عبد الحميد حديدى فقد أخبرنى أن الإخوان الوهابيين شادوا هذا الجدار ليستروا به قبر خديجة أمّ المؤمنين وقبور بنى هاشم من أجداد الرسول عن الأعين، وليحولوا بين الحجاج وزيارتها للتبرُّك بها؛ لأنهم يرون فى الزيارة والتبرك إثما هو إثم الشرك بالله، أو اتخاذ هذه القبور زُلْفَى اليه . وهذا وذاك يخالف عقيدتهم الإسلامية ويجعلهم يرمون من يُقْدِم عليه بالمروق والكفر .

وتقدّمنا الشيخ عبد الحميد الى ناحية هذا الجدار متخطّيا المقبرة التى كنّا بها الى فضاء يعترض السبيل اليه عارض من خشب سُدّ به الطريق . وطأطأنا رءوسنا واجتزنا هذا العارض، وتسلّقنا السفح حتى كنّا عند باب قديم قائم فى الجدار الذى امتدّ بصرنا اليه . ودق عبد الحميد الباب بيده وشعرنا بحركة وراءه ؛ ذلك حارس هذه المقبرة المحرّمة يزيل الأحجار التى أوصد بها الباب حتى لا يقتحمه مقتحم . وفتح الحارس المصراع، ودخلنا فحيّانا بتحية من يعرف الشيخ عبد الحميد ومن كان

معنا من ذوى قرابة أمين العاصمة . وبعد هنيهة أشار الى قبر على يسار الداخل قال إنه قبر خديجة بنت خويلد أمّ المؤمنين وجدّة جميع المنتسبين الى الرسول بأنهم من أبناء ابنته فاطمة وابن عمه علىّ بن أبى طالب . وقد سُوِّى هذا القبر بالأرض كما سوِّيت سائر القبور بأمر الوهابيين . وتقدّمنا خطوتين بعد ذلك الى قبور قال الحارس إنها قبور جَدّىِ الرسول عبدِ المطلب وعبد مناف وعمّه أبى طالب. ثم أشار الى قبر ذكر أنه قبر أمه آمنة . ولم يدهشنى ما ذكره عن قبر آمنة مع علمى أنها توفّيت ودُفنت بالأَبْواء بعد الذى ذكره أهل مكة عن هذه الآثار وقيمة سندها من التاريخ . فالقول بوجود قبر آمنة فى هذا المكان إنما كان يُقْصَد به الى الاستزادة مما يدفعه الحجاج أثناء زيارتهم هذه القبور للتبرُّك .

وعُدْت أدراجى خطواتٍ، ووقفت مستقبلا قبر خديجة . هنا إذًا يرقد جدّ النبىّ وعمّه اللذان احتضناه طفلًا أيام يتمه! وترقد زوجه الوفيّة التى وهبته مالها وقلبها وحبها وروحها أيام شبابه وبعد بعثه! فى هذه البقعة يَثْوِى أولئك الذين شبّ محمد بينهم واستظلّ ببرهم ورعايتهم من يوم وُلِد إلى أن جاءهم الموت لسنوات بعد رسالته تعرّض أثناءها للسوء والأذى والهلاك . عبد المطلب ! أبو طالب ! خديجة ! ما أجلّ هذه الأسماء وأبقاها على الدهر مذكورة بالتعظيم والإكبار! وإنما بقاؤها واحترامها فى اتصالها بهذا الاسم الأكبر اسم محمد النبىّ العربىّ الذى استعذب العذاب فى سبيل الحقّ وهداية الناس أداءً لرسالة ربه . فعبد المطلب الجدّ البارّ العطوف هو الذى كان يجلس كل يوم الى جوار الكعبة مثابة عبادة العرب جميعا ؛ فاذا جاء حفيده الطفل اليتيم أدناه منه وأجلسه معه على فراشه وربّت على كتفه وغمره بحبه وإعزازه ، وأبناؤه أعمام هذا الطفل جلوس من حول الفراش ما يدنو منهم أحد كما يدنو هذا الطفل، ولا العباس الذى كان ضريبَ محمد فى سنّه وطفولته . وأبو طالب العمّ المسنّ هو الذى احتضن محمدا من يوم مات عبد المطلب ومحمد ما يزال فى الثامنة من عمره ، والذى بقى يوليه من العناية والرعاية أكثر مما كان يولى أبناءه الى أن شبّ عن الطوق وتزوج خديجة ، والذى أظلّه



خريق نعمان
الطريق الى منى وعرفات والطائف
مسجد الرايه
مسجد الجن
مقبرة المعلاة
طريق كدا
الحجون
جبل الهندى
جبل قعيقعان
شعب عامر
الطريق الى جده
اجياد
الطريق الى اليمن
شمال
شرق
غرب
جنوب
جبل خندمه
خريطة
مكة المكرمة

بحمايته حين دعا الى دين الله ، ووقف دونه مخافة أن يناله من قريش أذى . ولئن ينس التاريخ من أحداثه ماعساه أن ينسى ليذكرن أبدا فى لوحه يوم مشت قريش الى أبى طالب تُنذره بالحرب إن لم يسلم ابن أخيه أو ينهه عنهم ، وليسطرن بأحرف من نور كلمة محمد حين دعاه عمُّه وقصَّ عليه أمر قريش وقال له : فأبق علىّ وعلى نفسك ولا تحمّلنى من الأمر ما لا أُطيق ؛ ليسطرن بأحرف من نور قول الرّسول لعمّه : "يا عم ! والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمرَ فى يسارى على أن أترك هذا الأمرَ حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته" . أمّا خديجة التى اختارت محمدا لنفسها ، والتى ضحّت من أجله بمالها ، والتى آمنت برسالته أوّلَ ما أفضى بها اليها ، والتى كانت سنده وقوّته فى أدقّ الساعات التى مرّت به أوّل نزول الوحى عليه وحين إيذاء قريش إياه ، أمّا خديجةُ أمّ المؤمنين فلن يفيها حقها كل ما يسجله التاريخ إشادةً بذكرها . فكيف لا تخلُد هذه الأسماء فى لوح الوجود خلود إجلال وتعظيم وإكبار .

وآن لنا أن ننصرف من المقبرة ، فآستوقَفنا الحارس إذ مدّ يده ممسكا بها قطعة من القاشانىّ الأخضر الجميل اللون زيّنت أطرافها بنقش فنىّ دقيق وقال : "هذه قطعة من جِدار القبّة التى كانت على قبر السيدة خديجة" . فقد كان على قبر خديجة قبة شاهقة بارعة الجمال ، يذكر المؤرّخون أنها بُنيت فى السنة الخمسين والتسعمائة من الهجرة أثناء ولاية داود باشا بمصر ، وأن الذى بناها أمير دفاتر هذا الوالى الأمير الشهيد محمد بن سليمان الجركسىّ . وقد أزال الوهّابيون هذه القبة فيما أزالوا من القباب أوّلَ دخولهم مكة إرضاء لهوى إيمانهم ، ثم بقيت صورتها الشمسية تشهد بأنها كانت آية بارعة الجمال فى فن العمارة براعةً تصدّ من يفهم هذا الفن عن أن يصيبها بسوء . وكانت الى جوارها قِباب لجدّىِ النبىّ عبد المطّلب وعبد مَنَاف ولعمّه أبى طالب . بذلك كانت هذه المقبرة بِدْعًا يعشقه من يحبون جمال الفن ، وكان الناس يزورونها إجلالًا لهذه القِباب وتبرُّكا بذكرى ساكنيها . أمّا اليوم

فلا يفكر أحد فى القباب وقد أزيلت، ولا يزور أحد القبور وقد حيل بين الناس وبينها بهذا الجدار الذى يصدّهم عنها . على أنهم ما فتئوا يحضرون اليوم كما كانوا يحضرون من قبل فيقفون عند هذا الحاجز الذى تخطيناه قبل أن نصعد سفح الجبل فيقرءون الفاتحة ويلتمسون البركة ثم ينصرفون .

قال صاحبي : أرأيت كيف عدا الوهّابيون على آثار أهل بيت النبيّ ولم يرعوا لعواطف المسلمين إزاءها حرمة !. وأجابه آخر : وهل كان لشيء من هذه الآثار وجود فى عهد النبيّ! إنما أحدثها الذين حسبوا فيها قربى الى الله يثابون عنها، وأزالها الذين يرون فى بقائها ما لا يُرضى اللهَ والرسول . فالأمر من هذه الناحية نضال بين عقيدتين . وفعلُ الذين أزالوها أدنى فى عقيدتهم الى حكمة الإسلام وسنّة الرسول . لمّا تُوفِّى إبراهيم ابن الرسول وتمّ دفنه، أمر أبوه بسدّ القبر، ثم سوّى عليه بيده ورش الماء وأعلَم عليه بعلامة وقال : "إنها لا تضرّ ولا تنفع ولكنها تُقِر عين الحيّ، وإن العبد إذا عمل عملًا أحبّ اللهُ أن يُتقنه" . ولقد سُوّى قبر خديجة بعد دفنها فى حياة زوجها، ولم يُقِم عليه أحد قبّة فى عهده، ولا أقام أحد عليه قبة فى أيام خلفائه من بعده ، وبقى القبر ألف سنة حتى جاء هذا الأمير الشهيد الجركسى فأقام القبة التى هدمها الوهّابيون . وإنما شاع بناء القبور والقِباب فى عهد الانحلال ومنذ بدأ الناس يتخذون من سبقوهم زُلْفَى الى الله . فليس من الحق وذلك نبأ التاريخ أن يوصف عمل الوهّابيين إذ هدموا هذه القِباب بأنه عدوان على أهل بيت النبيّ ؛ إنما هو نضالٌ بين عقيدتين كما قدّمت . وما دام الباعث على بناء هذه القباب قد كان باعثا دينيّا ، فيجب أن يُنْظَر فى حكم إقامتها وهدمها الى ما قرّره الإسلام فى كتاب الله وسنّة رسوله . ولو كان الباعث لإقامة القباب غير دينيّ لوجب النظر إلى إقامتها وهدمها نظرةً أُخرى، ولكان حقًّا أن يلام الوهابيّون على ماصنعوا أبلغ اللوم .

كأنما شجّعت العبارة الأخيرة صاحبي ؛ فقد انبسطت أساريره لسماعها واتجه إليّ بعد أن كان يسبقنا الى باب المقبرة وقال :

— ولِمَ لا نعتبر الباعث إنسانيًا هو أن تهوِى أفئدة من الناس الى أهل هذا البلد الأمين القائم بواد غير ذى زرع؟! ولِمَ لا نعتبره دينياً دعا إليه تشجيع الذين يؤمنون بعقيدة المقابر والقِباب إلى أداء فرض الله بحج بيته؟! لقد أضاع الوهابيون على مكة بهدم القِباب موردا من خير موارد المال فيها ؛ وإنهم ليحسّون ذلك اليوم وبعد أن أقاموا بمكة كما نحسه . ولعلهم يأسَفون على ما ضيّعوا ، وإن كنت فى ريب من أن يجد الأسفُ على أمر الى نفوسهم سبيلا .

وشاركت فى الحديث فقلت : لو أنك يا صديقى رَجَعتَ الباعثَ على بناء هذه القباب إلى فكرة فى فنّ العمارة لشاركتك فى تأثيم الذين هدموها ؛ فللفن جلال وسلطان فى حياتنا اليومية وفى حياتنا الروحية جاهلٌ من ينكرهما . وكان لأتباع ابن عبد الوهاب مندوحةٌ عن هدم هذه الآثار الفنّية الجميلة بتحريم التقرب الى الله بوساطة المدفونين طىّ ثراها تقرُّبا ينكره مذهبهم فى الإسلام؛ ومن ثمّ أراهم حقيقين بالتثريب عليهم ولومهم ؛ ولو عُنف لذلك من شاء فى هذا اللوم ما خالفته . لكننى فى ريب من أن تفيد القباب بعد ذلك فى جلب المال إلى مكة أو جعل أفئدة من الناس تهوى الى أهلها .

أتممنا هذا الحديث ونحن فى طريقنا إلى السيّارة كى نجوس بها خلال مكة؛ وأمسك صاحبى حين ركبناها فلم يتابع حواره . وانطلقت بنا السيّارة تقف عند مسجد مرّة، وعند بئر أخرى، وعند دار تارة ، وعند شِعْب أو مَضيق فى الجبل طورا . وكذلك فعلنا أياما تباعا ، وعبد الحميد يقف مستقبلا الأثر الذى نقف عنده موقف الدليل أو الحارس يقص علىّ ما تسطّره الكتب وما ترويه الأساطير عن كل واحد منها . بذلك حصّلت فكرة ، لا أقول عن آثار مكة ، ولكن عما يروى عن هذه الآثار اليوم ، ومنها ما هو باق يدلّ مظهره على شىء من القِدَم ، ومنها ما لم يبق له على وجه الحياة أثر .

المساجد الأثريّة بمكة لا شىء من الجمال ولا من الفنّ فيها . ولا عجب؛ فهى لم تُقَم للعبادة ولا لاجتماع الناس بها ؛ فالناس من أهل مكة ومن زائريها ومن

حجيج بيت الله يقصدون المسجد الحرام ولا يقصدون مسجدا غيره . لذلك نرى هذه المساجد الأخرى لا تزيد على مربع من الأرض تحيط به جدران غاية فى البساطة ، يعلوه من ناحية المحراب سقف ساذج يستند إلى عمد ليست دون السقف سذاجةً فى بنائها . وقلّ أن تجد بالمسجد حصيرا أو قشا أو أىّ فرش يشعرك أن الناس يصلّون فيه ، بل الأرض فيه عارية يكسوها التراب . فاذا سألت : فيم إذًا أقيمت هذه المساجد؟ علمتَ أنها أقيمت ذكرا لحادث وقع حيث تقوم . فهى إذًا أدنى إلى أن تكون نُصُباً تذكارياً تحتفظ بأنباء تسجّلها بطون الكتب أو يرويها الرواة منها الى أن تكون بيوتا يذكر اسم الله فيها أو مقصدا للناس كى يقيموا الصلاة بها .

وقفنا قُبالة مقبرة المَعْلاة عند مسجدين متجاورين ، أحدهما مسجد الراية والآخر مسجد الجنّ . وسمّى الأول مسجدَ الراية لما يذكر من أن الرسول عليه السلام ركز رايته عامَ الفتح حيث يقوم اليومَ هذا المسجد . وسمّى الآخر مسجدَ الجن لأن الله أوحى الى النبىّ فى هذا المكان الذى كان الجن يستمعون فيه إليه: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إلىَّ أَنَّهُ آسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنّ فَقَالُوا إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ . ولمسجد الجن باب بأسفل الطريق غير بابه المطروق ، وينزل من شاء اليه بضع درجات دون مستوى أرض المسجد . وأهل مكة يذهبون الى أن الجن كانت تستمع فى المكان الذى يؤدّى هذا الباب اليه ؛ ولذلك كان الناس يزورونه . وقد أقفل هذا الباب فى العهد الأخير بالطين والحجر منعًا للتبرك بزيارته .

وهذان المسجدان من الطراز الذى ذكرناه،والذى يعتبرطراز المساجد فى مكة جميعها . وقد زرت عددا منها، بينها مسجد الإجابة ومسجد حمزة، فلم أجد ما يدعو الى استقصاء شىء عن سائرها . ولم يكن تشابهها فى العمارة هو وحده الذى أطفأ ظمأ تطلّعى، بل أطفأه كذلك أنك لاتقف على نبأ صحيح للذكرى الذى يقوم

المسجد شاهدًا عليها . فالناس لا يعرفون عن مسجد حمزة القائم بحىّ المَسْفَلَة أكان موضعا لمولده أم كان أثرا لنبأ لم يدوّن فى بطون الكتب . وكل ما يذكره الذاكرون عن مسجد الإجابة القائم داخل الشِّعْب على مقربة من حِرَاء ومن قصر الملك أنه قائم حيث حلّ النبىّ عليه السلام إحرامه بعد عوده من مِنًى . ولئن صح ذلك لكان بعد حجّة الوداع ، وهذا أمر لا يقطع بصحته أحد .

والحق أن تعيين الأمكنة التى نزل فيها الوحى أو التى أوى اليها الرسول فى مناسبة ما ليس أمرا ميسورا . فكتب السّيرة لم تكتب إلّا بعد قرنين أو نحوهما من وفاته . والحديثُ لم يُجْمَع كذلك ولم يدوّن إلا فى عهد العباسيين . وإلى يومئذ كان المسلمون فى شغل بالغزو والفتح و بالثورات الأهلية عن تدوين آثار الرسول . بل لقد اختلفوا فى جواز تدوينها ، حتى نادى عمر فى الناس : إن من كان عنده شىء عن الرسول غير القرآن فليمحُه . والخلاف واقع على آثار أدنى بطبعها إلى التحديد من المواضع التى نزل فيها الوحى بسورة من السور أو آية من الآيات . فهو واقع على أماكن لها خطرها ، كتحديد مكان حُنَين ، وهى من أشهر غزوات الرسول وفيها نزل قرآن . وتحديد منازل الوحى بالسور والآيات لم يتيسّر إلا فيما اتصل من هذه السور والآيات بحوادث معيّنة . والخلاف مع ذلك واقع على التحديد الدقيق للمواضع التى نزلت فيها هذه الآيات والسور ، وعلى الحوادث التى نزلت فيها . لا جرم إذًا أن يتعذّر القول بصحة ما للمساجد القائمة اليوم من دلالة على الآثار المسندة اليها . والراجح أنها أقيمت على الظن لا على اليقين ، وأقيمت لأغراض تتصل بهوى النفوس الى مكة أكثر مما أقيمت لأغراض علمية ثابتة .

فأمّا ما سوى المساجد من آثار فبعضه أدنى الى الصحة فيما يدلّ عليه ، و إن لم يكن أوفر حظّا من الثبوت العلمى لمن أراد البحث والتمحيص الدقيق .

والآبار بعض هذه الآثار ، وهى تختلف عن المساجد فى أنها لم تنشأ بعد أجيال من عهد النبى ذكرًا لقصة أو حديث رواه الرواة أو تداوله الكتّاب ، بل كان

منها فى عهد النبي عدد غير قليل اندثر بعضه وجدّ من بعدُ غيره ؛ لكنك قلّ أن تعثُر فى تواريخ مكة على شىء ثابت عنها . وما سوى زمزم من الآبار تختلف عليه الرواية أشدّ الاختلاف .

وليس يذكر "الأزرق" فى كتابه (أخبار مكة) عن آبار الجاهلية إلا الشىء القليل ، وإن ذكر أساطير شتّى عن الآبار التى أنشأتها قريش حين بدأ تكاثر الناس بأمّ القرى . فأمّا ماجدّ بعد الإسلام فكثير، بقى موضع الرعاية ماستقى الناس منه . فلما أجرت زُبَيْدة زوج الرشيد الماء إلى مكة لم يبق مايثير العناية بهذه الآبار ، وإن احتفظ أهل مكة منها بما علّقوا عليه ألوان القصص الدينى ليثيروا به تطلّع الذين يزورون مكة ، والذين يبتغون أثناء زيارتهم إيّاها كل سبيل للتبرك والمثوبة .

كنت أحفظ فى حياتى كثيرا من الشعر العربى نسيت الآن أكثره . ومما لا يزال عالقًا بذاكرتى قول الشاعر :

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصَّفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامرُ

ولم يكن للحجون ولا للصفا أيّة صورة معيّنة فى ذهنى . وقد عرفت الصفا حين سعيت بين الصفا والمروة ، وعرفت أنها ربوة أُحيطت اليوم بالجدران . أمّا الحَجُون فطريق بين جبلى كُدَىّ وكَدّى . ويقع أولها بأعلى مكة ، ويسير الآخر حتى يصل إلى أسفلها . وطريق الحجون يصل بين السفوح التى تقع عليها مقبرة المَعْلاة وماعند المَسْفَلة نحو الجنوب من مكة . ولقِيتنا أوّلَ ما برزنا من الحجون بئرٌ عليها بناء غير مرتفع ، قال صاحبى : إنها بئر طُوى ، وإن الرسول اغتسل منها حين دخوله مكة عام الفتح ؛ ولهذا يسنّ الاغتسال منها عند دخول مكة . ويضبط الأزرقى وغيره من قدماء المؤلفين اسمَ هذه البئر على أنها الطُّوَى . والبناء القائم عليها بناء حقير لا أحسب الذين أقاموه قصدوا إلى أكثر من إعلام البئر وحفظها به . والبئر من داخل البناء قد أحيطت فُوّهتها بأحجار تُشبه البناء ، وتدلّت فيها دَلْو يشدّها حبل غليظ معلّق إلى بَكَرة أحدثها المعاصرون من أهل مكة .

ولم أقف داخل مكة على آبار أخرى غير بئر عثمان المنسوب إحداثها إلى عثمان ابن عفان، وهى تقع الآن فى رباط المغاربة . والدخول إلى هذا الرباط واجتيازه إلى البئر يعيد إلى الذاكرة أشد أحياء القاهرة القديمة قذارة وبُعْدًا عن أسباب الصحة، فقد اجتزنا حارة ضيقة لا تدخلها الشمس، قذرة لا تنظفها مكنسة، تزكم الأنف روائح تفوح منها، وتجرى فيها جراثيم الأنيميا، ودخلنا الرباط، فكأننا دخلنا مستوقدا أو شرا من مستوقد . ولقد حدثتنى نفسى أن أعود أدراجى قبل أن نبلغ البئر لولا الحياء ممن معى من أهل مكة . ومدخل الرباط أشد من مدخل الحارة ضيقا وأكثر قذارة . وألفيت إلى جانب جدرانه أشباحا أحسبهم أشخاصا يعيشون فى هذا الرباط . وبلغنا البئر فاذا فوقها بناء أكثر ارتفاعا من بناء بئر طوى، وفوهتها كفوهتها محاطة بأحجار البناء، يتدلى فيها حبل يدور على بكرة ويمسك فى نهايته دلوا هى التى يمتح بها ماء البئر .

الدور التاريخية بمكة أثبتُ نَسَبًا من المساجد والآبار . وإذا قامت الشبهة فى نسب الكثير منها، فبعضها متواترة أنباؤه ولا يشتد عليه خلاف . وأنت واجدٌ من ذكر هذه الدور الشىء الكثير فى أقدم ما كتب من تواريخ مكة؛ لكن ما يتصل منها بعهد الرسول وما يثبت على التاريخ قليل .

ودار الأرقم أو الخيزُران من أشهر هذه الدور وأثبتها نسبا، وهى تثير فى النفس ذكرى من أروع الذكريات فى حياة محمد عليه السلام . فقد كان يجلس فى هذه الدار يوما مع أصحابه والإسلام لايزال فى أول عهده، وقريش ماتزال تحاول القضاء عليه . وكان عمر بن الخطاب على الجاهلية الى يومئذ، ولقد فكر فى أن يريح قريشا من هذا الذى سبَّ آلهتها وفرق أمرها بأن يذهب اليه فيقتله . ولقى فى طريقه نُعَيْم بن عبد الله وأظهره على طويته . قال له نعيم : والله لقد غرّتك نفسك من نفسك ياعمر! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع الى أهل بيتك وتقيم أمرهم! وكانت فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما . وكرَّ عمر

راجعا إليهما حين عرَف من نُعَيم أمرهما ، ودخل البيت عليهما وعندهما من يقرأ القرآن . فلما أحس أهل الدّار دنُوّه ، آختفى القارئ وأخفت فاطمة ما يقـرأ . وسأل عمر : ماهذه الهَيْنمة التى سمعت ! لقد علمت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بسعيد ، فقامت فاطمة تحمى زوجها فصدمها فشجّها . إذ ذاك هاج هائج الزوجين وصاحا به : نعم أسلمنا ، فآقض ما أنت قاض ! . واضطرب عمر حين رأى ما بأُخته من الدم ، وغلبـه برّه وعطفه فآرعوى وسأل أختـه أن تعطيه الصحيفة التى كانوا يقرءون ، فلمـا قرأها اهتز وأخذه إعجازها وجلالهـا وسموّ الدعوة التى تدعو اليها ، وخرج يريد محمدا كى يعلن اليه إسلامه ، وسار متوشّحا سيفَه ، حتى اذا بلغ دار الأرقم ضرب الباب على مَنْ فيـه . وقام رجل فنظر من خَلَل الباب ثم عاد فزعًا يقول : هذا عمر بن الخطاب متوشّحا السيف . قال حمزة بن عبد المطلب : فأْذَنْ له ، فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له ، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه . وأمر رسول الله أن يؤذَن لعمر ، وقام فتقدّم نحو الحجرة التى تلى الباب . ولمـا دخل عمر أخذ النبيّ بمجمع ردائه وجـذبه بقوّة وقال له : ما جاء بك يابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى يُنزل الله بك قارعة . قال عمر : يا رسول الله ، جئتـك لأومن بالله ورسوله وما جاء من عند الله . فكبّر محمد تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر أسلم ، فتفرّقوا من مكانهم فرِحين مؤمنين بأن عمر وحمزة سيحميان رسول الله من خصومه وأذاهم .

وفتّ إسلام عمر فى عضد قريش وقد دخل فى دين الله بالحميّة التى كان يحاربه من قبـلُ بها . لم يرضَ عن اختفاء المسلمين حين صـلاتهم ، بل دأب على نضال قريش حتى صلّى عند الكعبة وصلّى المسلمون معه . ثم كان عمر بعد ذلك للإسلام عزًّا فى حياة الرسول ومجدًا فى خلافة أبى بكر وخلافته .

هذا حادث جليل فى تاريخ الإسلام ؛ فالمكان الذى وقع فيه جدير بأن يذكر وأن يحتفظ به وأن يزار . وقد ذهبت الى زيارته على مقربة من الصفا وانعطفت

اليه فى طريق من حارة الباب . وأشار الشيخ عبد الحميد الى باب مغلق وقال لى : إنه هو . وسألته هـل من سبيل الى دخوله ؟ فعلمت أنه أصبح مسكنا لإحدى الأسر منـذ جاء الوهّابيون مكة، وأنه من يومئذ لا يزار . وقد رأيت بأعلى الباب كتابة لم أتثبتها على رغم صعود الطريق المنعطف قُبالتها صعودا يجعل نظر الإنسان يكاد يحاذيها، وعلى رغم استعانتى بالمنظار المكبِّر.

وقد أسفت لحرمانى من زيارة هذه الدار، أنا الذى زرت بأوربا أماكن ودوراً صانتها الحكومات ذكرى للعظماء الذين وُلدوا بهـا أو أقاموا فيها .أو لأنهـا شهدت من حوادث حياتهم أمرا خلّدته صحف التاريخ . وإنما هوّن علىّ الأسف ما علمته من أن دار الأرقم تغيّرت معالمها ولم يبق فيها ما يذكّر بهذا الحادث العظيم فى حياة العالم الروحيّة . وحسبُك أنها تدعى اليوم دار الخيزُران، لما يزعمون من أن الخيزُران أم الخليفتين موسى وهارون عمّرتها أيام العباسيين . والذين زاروا هـذه الدار قبل الوهّابيين يذكرون أن بابها يفتح على دهليز مكشوف الى السماء طوله ثمـانية أمتار وعرضـه أربعة ، والى يساره إيوان مسقوف على عرض ثلاثة أمتار، والى يمينه غرفة فى مثل مساحته مفروشة بالحصير، وقد وُضع فى زاويتها الشرقية حجران أحدهما فوق الآخر، كتب على أعلاهما : « بسم الله الرحمن الرحيم . فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . هـذا مختبأ رسول الله ودار الخيزُران وفيها مبدأ الإسلام» . وكتب على الحجر الأسفل مثل هذه العبارة الأخيرة واسم مَنْ أمر بعمل هذا الأثر وإنشائه، وهو أبو جعفر محمد بن علىّ بن أبى منصور الأصفهانى وزير الشام والموصل . قال الفاسىّ فى شفاء الغرام : « وعمّره أيضـا الوزير الجواد . وعمّرته مجاورة يقال لها مُرّة العصمة . وعمِّر أيضا فى سنة ٨٢١ هـ والذى أمر بهذه العمارة ما عرفته » .

ليست دار الأرقم التى قص الفاسىّ نبأها والتى تحـدّث صاحب الرحلة الحجازية وصاحب مرآة الحرمين عنهـا، هى إذًا الدار التى أعلن بهـا عمر بن الخطاب

إسلامه . وخير ما يقال إن البناء القائم اليوم قائم مكان هذه الدار . ولقد هوّن ذلك على نفسى أنى لم أجد الى زيارتها الوسيلة لأنها كانت مغلقة ، وكان يسكنها قوم من أهل هذا الجيل لا يزيرونها الناس ، ولا يرعَوْن لها حرمة خاصّة ، لأنهم على رأى ابن عبد الوهاب ، فهم يظنون أن كل أثرٍ صنمٌ أو نُصُب قد يعبد أو يتخذ الى الله زُلْفَى . وربما قام ما يصنعه المسلمون من التبرّك بهذه الآثار عذرًا للحكومة النجدية فى تحريمها زيارة هذه الأماكن . لكنها كانت تستطيع ان تفعل غير ما فعلت ثم تبلُغ غايتها بأن تحرِّم التبرك والزلفى ، وتُبيح الزيارة وتجعلها جمة الفائدة إذ تعيّن من يفسر للزائرين مغزى هذه الآثار . ولو انها فعلت لكان صنيعها أجلّ فائدة وأعظم أثرا . ولقد اضطرت الى مثل هذا الصنيع فى أماكن أخرى فأثمر صنيعها خير ثمرة .

ثمّ غير دار الأرقم دار أبى سفيان . والمسلمون يذكرونها لقوله عليه السلام يوم فتح مكة : « مَنْ دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . وتقع دار أبى سفيان بمكان يقال له القبّان بشارع المُدَّعَى . وما بقى منها اليوم لا يمتّ الى أصل بنائها بصلة أو نسب ، بل دخل فى أرض عمّرتها الحكومة المصرية على عهد محمد على ، وأقامتها الى جانب تكية فاطمة التى أنشأتها الحكومة العثمانية إذ ذاك . وأكبر الظن أنها عمّرتها لتكون مدرسة يتعلّم فيها أهل مكة ؛ فتقسيم البناء على ما رأيته يشهد بذلك . لكن الحكومة العثمانية صاحبة الأمر فى الحجاز لم تر أن يبقى المكان مدرسة بعد أن جلت عنه قوات مصر ، فجعلت منه مستشفى للمجاذيب الذين يخشى خطر هياجهم . أمّا اليوم فهو مستوصف يزوره الناس ويصرف منه الدواء . وقد لقينا الموكّل به ، وهو سورى ، فدار معنا فى جوانبه ؛ فكان ممّا رأيناه به مسجد صغير يقال إنه قائم موضع دار أبى سفيان حيث كانت على عهد الرسول . وبهذا المستوصف حديقة فى داخله ترى فيها من الشجر الأخضر ما لا ترى منه بمكة إلّا فى بيوت ذوى اليسار .

ويذكرون دار أمّ هانىء، وهى الدّار التى كان بها الرسول عليه السلام ليلة الإسراء . وليس لهذه الدار اليوم أثر، فقد دخلت فى المسجد حين توسيعه، وهى الآن إحدى المدارس المتصلة بالمسجد الى جوار باب الحميدية، ويطلق عليها اسم مدرسة أمّ هانئ .

ووقفنا عند دارٍ قال الشيخ عبد الحميد إنّها دار الصدّيق، ولم أعثُر بهذا الاسم فى تواريخ مكة . وهى مقفلة اليوم لا يدخلها أحد . وموقعها الى جوار البازان المجرور من عين زُبَيْدة بالمسفلة . ولست أدرى مبلغ ما فى نسبة هذه الدار الى الصدّيق من صحة .

لم يَطْمِ الوهابيّون الآبار، ولم ينقضوا الدُّور كما هدموا قِباب قبور المعَلاة. ولعلهم لم يروا الناس يعكُفون على الآبار والدّور ما يعكفون على القِباب، فكفاهم أن أقفلوا الدّور وأن تركوا الآبار لمن شاء أن يغتسل منها، كما تركوا من شاء يتوضأ من ماء زمزم. لكنهم كانوا أشدّ بطشًا بآثار أخرى، حتى لقد عفَّوْا عليها ولم يتركوا لها ذكرا؛ وكانت هذه الآثار أعزّ على المسلمين من كل ما تركوا . ولا عجبَ فهى مولد النبيّ، ومولد فاطمة ابنته، ومولد علىّ بن أبى طالب ابن عمه وصهره وأخيه حين آخى بين المسلمين فى المدينة . وأنت تمرّ بها اليوم فتحسبها ميادين خالية حينا، معمورة بالخيام حينا آخر، وكثيرا ما تراها مُنَاخا للإبل فى زمن الحج . وإن قومًا يرونها اليوم وكانوا قد رأوها من قبل أن يطمس الوهابيون على آثارها فيحزّ الألم فى نفوسهم، وتخنق بعضهم العبرة وقد تسيل على خده أسفاً لما أصاب هذه المواقع التى كانت من قبلُ موضع إكبار وتقديس كما يجب أن تكون . بل إن منهم من يهون على نفسه هدم القباب، ومنهم من لا يرى به بأسا؛ لكن هؤلاء وغيرهم يرون فى التعفية على معالم هذه الأماكن التى ولد فيها الرسول وابنته وصهره وزرًا لا يعدِله وزر . وإكبارُ هؤلاء لما صنع ابن السعود ورجاله من إقرار الأمن والنظام بالحجاز ومن القضاء على المنكرات فيه، لا يَثْنيهم عن مصارحة وزرائه وعن مصارحته هو، برأيهم وإنكارهم هذا القضاء على آثار للرسول وأهل بيته قضاءً لا مسوّغ له .

ويشعر أولو الأمر من الوهابيين بما فى قول هؤلاء من صحة، ويرون أن رجالهم الذين فتحوا الحجاز ودخلوا مكة غلوا فى تطبيق المـذهب غلواً كبيرا حين هدموا من الآثار ما هدموا . قال لى أحدهم : لو أن الملك ابن السعود كان على رأسهم لما وقع من ذلك كل ما وقع، لكنا وجدنا أنفسنا أمام الأمر الواقع . ولسنا نستطيع أن نصرّح للناس بأن غُزاتنا الأولين أخطـأوا ؛ فهم أصحاب الفضل فى الفتح وهم الذين طوّعوا لابن السعود البلوغ بالحجاز فى مضمار الإصلاح إلى ما بلغ . على أن شعورنا نحن بخطأ هؤلاء الغزاة يدعونا إلى التفكير فى إصلاحه . ولقـد فكرنا فى أن ننشىء مكان مولد الرسول دارا للكتب تضم كتب التفسير والحديث والسنّة جميعا . لكن صعوبةً واجهتنا لم نستطع التغلّب عليها، فقد وقف علمـاء نجد يسألوننا : وكيف تضعون فى هذه الدار كتبا تنطوى على ما يحكم مذهبنا بخَطئه ؟ ! إنكم إن فعلتم تكونون قد ارتددتم عن المذهب، ونزلتم على حكم أهل الحجاز، وقلبتم فَتْحَنا إياه استعمارا مكان استعمار، ونحن إنما فتحناه لإقرار حكم الإسلام الصحيح فيه .

قال محدّثى : هذه صعوبة واجهتنا لم نستطع التغلّب عليها ؛ فنحن فى حاجة إلى إقرار الرأى العام فى نجد أعمالَنا لأنه سندُنا ؛ وما لم نستطع التوفيق بين سياستنا ومعتقداته فلا بدّ لنا من النزول على حكمه . فللملك ابن السعود خصوم من رؤساء القبائل فى نجد يتهمونه بأنه سخّر عقيدة أهل نجد الإسلامية لأغراضه ومطامعه السياسية، فلما تم له ما أراد، واستتب له أمر الحجاز، أنِس إلى الطمأنينة بترك أهـل الحجاز يزاولون من العقائد ما يجاور الشرك ويأباه الإسلام ، ولذّ له الفتك بمن يثور على هذه العقائد من أهل نجد أُولِى الحفاظ على الدين الصحيح والمذهب السليم . وهذا كلام يلق آذانا تسمعه وتُسيغه . فلا بدّ لنا من التوفيق بين آراء العصر الحاضر بما لا تأباه العقيدة السليمة عندنا ، وبين تصوّر قومنا لموجب هذه العقيدة . ونحن لا نستطيع أن نُقنع أحدا منهم بفكرة حرية الرأى ؛ فحرية الرأى عندهم معناها حرية الباطل فى غزو العقول . لذلك لم نجـد بدًّا من أن نُعرض عن إقامة دار للكتب فى موضع مولد النبى وأن نُؤْثر عليها إقامة مسجد يذكر فيه اسم الله وتلقى فيه التعاليم الإسلاميّة الصحيحة .

ولم أجد ما أعترض به على هـذا الكلام بعـد الذى ذكرته فى فصـل « مكة الحديثة » من حديث الشيخ حافظ وهبة مع علماء نجد عن التعليم ؛ ورافقنى أن يبنى مسجد حيث وُلِد من يذكر اسمه الى جوار اسم الله فى كل مسجد : محمدَ عبدُ الله ورسوله . ثم إنى خشيت أن يكون حظّ هذا المسجد كحظ مساجد مكة إذ يذرها الناس ابتغاء مثوبة الصلاة فى المسجد الحرام وعنـد البيت العتيق . لكن محدّثى طمأننى الى أن المسلمين سيجدون لا ريب من المثوبة فى الصلاة بالموضع الذى وُلد فيـه رسول الله ما يدعوهم الى الإقبال على هـذا المسجد إقبالَهم على المسجد الحرام أو بعضَ إقبالهم عليه .

ويقع مولد النبي بِشِعْب بنى عامر فى أحياء مكة من شرقها . والخـلاف يقع على هذا المكان : أَوُلِدَ فيه النبيّ حقا . ولقد أورد صاحب المواهب اللّدُنية مما روى من ذلك ماقيل من أنه وُلِد بمكة فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف الثقفىّ ، وكانت فى هذا المكان المشهور اليوم ، ومن أنه وُلد بِشِعب بنى هاشم ، ومن أنه ولد بالرَّدْم ، ومن أنه ولد بعُسْفان . ثم إن المسلمين تواضـعوا فى عصور متأخرة على أن المكان المشهور اليوم هو مولد الرسول . ومنذ القرنين السادس والسابع الهجريين بدأ ملوك الإسـلام فى اليمن وفى مصر يفكرون فى عمارة هذا المكان ، ثم فكر ملوك بنى عثمان فى عمارته فى القرن العاشر الهجرىّ ؛ فأقيمت فيه قبـة عظيمة ومنارة ورتِّب له مؤذِّن وخادم وإمام . وكان الطريق المجاور لهـذا المكان يرتفع عنـه نحو متر ونصف متر ، وكان النازل اليه يتحـدر على درج يصـل به الى فناء وصفه البتانونىّ فى رحلتـه وذكر أن طوله يبلغ اثنى عشر مترا فى عرض سـتة أمتار ، وفى جداره الأيمن باب يدخل الإنسان منه الى القبّة حيث يجد مقصورة من الخشب فى داخلها رُخامة قد تقعّر جوفها لتعيين الموضع الذى وُلد فيه الرسول . ومن هـذه القبة ومن الفناء خارجها تتكوّن دار مولده عليه السلام .

نقل صاحب مرآة الحرمين قول العياشىّ فى رحلتـه تعليقا على موضع المولد :

« ويبعـد عندى كل البعـد تعيين ذلك من طريق صحيح أو ضعيف ، لمـا تقدّم

من الخلاف فى كونه بمكة أو غيرها . وعلى القول بأنه فيها ففى أى شعابها . وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففى أى الدور . وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار بعد مرور الأزمان والأعصار وانقطاع الآثار . والولادة وقعت فى زمن الجاهلية، وليس هناك من يعنى بحفظ الأمكنة، ولا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك . وبعد مجىء الإسلام قد عُلِم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بتعيين الأمكنة التى لم يتعلق بها عمل شرعىٌّ لصرفهم اعتناءهم رضوان الله عليهم لما هو أهم من ضبط الشريعة والذبّ عنها بالسِّنان واللسان . وكان ذلك هو السبب فى خفاء كثير من الآثار الواقعة فى الإسلام من مساجده عليه السلام ، ومواضع غزواته ومدافن كثير من أصحابه، مع وقوع ذلك فى المشاعر الجليلة، فما بالك بما وقع فى الجاهليّة، لاسيمّا مالا يكاد يحضره أحد إلا من وقع له كمولد علىّ ومولد عمر ومولد فاطمة رضوان الله عليهم جميعهم » .

عفَّى الإخوان الوهابيون كذلك على كل أثر لمولد فاطمة ؛ فهو الآن فضاء كمولد أبيها . وما ذكره المؤرّخون عن مولد الرسول ، يصدق على مولد ابنته فى مبلغ ثبوته . وفاطمة قد ولدت بدار خديجة، كما وُلد بها أبناء النبىّ جميعا . وبدار خديجة أقام النبىّ منذ تزوّجها الى أن هاجر من مكة ، أى من الخامسة والعشرين الى الخمسين من سنّه ؛ فهى اذاً قد شهدت بعثه، وشهدت أوّل الوحى وأوّل الرسالة، وشهدت ائتمار قريش به وأذاها إياه وتعذيبها أصحابه لعقيدتهم . ولقد نزل عليه الوحى فيها غير مرّة؛ فطبيعىٌّ وذلك شأنها أن يبقى على التاريخ أثرها، وفى نفوس المؤمنين جميعا ذكرها .

عفَّى الوهّابيون على كل أثر لهذه الدار، فهدموا ما كان الناس يزورونه من رسومها . وهم لم يهدموا فى الحق دار خديجة، إنما هدموا ما أُقيم ذكرا لها؛ وهى قد عُمِّرت فى عهد الخليفة الناصر العباسىّ، ثم عمِّرت فى عهد الملك الأشرف صاحب مصر، وعمّرها كذلك ملك مصر الظاهر برقوق؛ ولعلها عمِّرت بعد ذلك غير مرة،

والظاهر أن عمارتها كانت تختلف شكلا على ما يتصوره الناس مما كانت عليه فى عصر النبيّ . فما وصفها به الفاسى فى (شفاء الغرام) يختلف عن صفتها فى رحلة البتانونى . فبينما كانت فى عهـد الفاسى على صفة المسجد وكانت لهـا عقود وأساطين إذا هى فى رحلة البتانونى بالغة غاية البساطة تنحدر عن الأرض انحدار مولد النبى ، وينحدر النازل إليها درجات عدّة ، فيواجهه عن يمينه بهو وغرفة فسيحة ، وعن يساره باب يدخل الإنسان منه إلى ثلاث غرف ، كانت إحداها سكنًا للنبيّ مع خديجة ، وكانت الثانيـة سكنًا لبناتها ، وغرفة ثالثة صـغيرة يطلق الكتّاب عليها اسم غرفة الوحى ، وكانت فيما يذكرون مُصَلَّى النبيّ ومهبط الوحى عليه . وأمام ذلك كله بِعُرض البيت مكان مرتفع يظن البتانونى أن خديجة كانت تخزن فيه تجارتها .

أسائل نفسى : لو أن دارًا فى الغـرب حوت من الذكريات الخالدة ما حوته دار خديجة ، وأراد رجال الفن هناك أن يقيموا لهذه الذكريات رمزًا ، فماذا عساهم يصنعون؟ فهى قد حوت ذكريات نفسيّة وروحيّة وعقليّة لم تحوِ مثلها دار غيرها : فى هـذه الدار وقفت خديجة ترقب فى عِلّيّة لها عودَ محمد بتجارتها من الشام ، فلما دخل عليها فى شبابه وقوّته وذكائه وأمانته وقع من قلبها وهى فى الأربعين سـنًا . وفى هذه الدار عرف محمد اليُسر بعد العسر ، ورخاء العيش بعد شدّته . وفيها أنجب أبناءه من خديجة ، فكان الوفاءَ لزوجه والبِرَّ بأبنائه ، وكان فى ذلك أُسوة ومثلا كما كان فى أمانته بين قومه . وفيها رغب عن الرخاء وعن نَعْمة العيش وسما فوق عواطف الزوجية والأبوة وانقطع للتحنُّث فى حِرَاء بعد أن سما بخديجة إلى مثل سموه ، وجعلها أشدّ تطلعًا إلى موضع تأمُّله منها إلى ربح تجارتها وازدياد مالها . وإليها رجع من حراء بعد الوحى الأوّل وقد ملك عليه الفزع كل نفسه وهو يقول : زمّلونى زمّلونى ، فوجد فى خديجة الزوج الوفيّة البارّة العطوف . وفيها انقطع إلى ربه يعبده ويدعوه أن يهيِّئ له الأسباب لدعوة قومه إلى الهدى ودين الحق . وفيها نزل عليه الوحى بعد فتوره . وفيها ذاق لذّة الحقيقة والدعوة إليها لذّة تسمو على خصومة قريش وأذاها . وفيها ماتت خديجة وحزّ الألم فى نفسه لفراقها ثم هوّنت رسالته الكبرى عليه ألمه . وفيها

بات ليلة اعتزم الهجرة إلى يثرب ، وقد أحاط بها فتيان مكة يريدون قتله . إن في كل واحدة من هذه الذكريات الباقية على الدهر بقاء الدهر ما يُلهم ربّ الفن أسمى صور الفنّ وألوانه . لكنها إذ تتداعى جميعا إلى نفسه تذره في حيرة لا يجد وسيلة إلى صورة أو معنى مستقل بذاته يجسّمها جميعا ويطبع منها في النفس أثرا باقيا بقاءها ، اللهم إلا أن يُلهَم صورة تمثل الدعوة إلى التوحيد في أسمى صور التوحيد صفاء وقوة ، فهذه الدعوة هي جوهر الحياة ورحيقها في حياة النبيّ العربي وفي تعاليمه .

أصاب الوهابيون مولد عليّ في شِعْب بني هاشم بما أصابوا به مولد النبيّ ومولد فاطمة ، فهو اليوم فضاء لا أثر فيه . ولعل أولي الأمر في الحجاز يفكرون في تعميره ، ولعلهم يوفّقون حين يعملون لأثر لا يثير الحفائظ بين الشيعة وأهل السنّة .

بمكة آثار غير المساجد والآبار والدور : بها الجبال وشعابها حيث كان المسلمون يأوون من أذى المشركين . والأساطير التي أُضفيت على هذه الجبال ليست أقل بهاء مما يُضفيه أهل مكة على سائر الآثار فيها . لكن التاريخ لا يُثبت من هذا كله شيئا .

والأثر الخالد الحق في مكة بيت الله ، وكل أثر غيره يتصل به ويعنو له ؛ إليه يولّي الناس وجوههم وهم بمكة ، وحيثما كانوا ولّوا وجوههم شطره .

فى غار حـــراء

الكعبة والحرم أوّل ما يتجـه اليه من يحج مكة وأشدُّ ما يسترعى نظره فيها .
فاذا أتمّ الناس شعائر الحج طوافًا وسعيًا ، ظلّت الكعبة وظلّ الحرم مع ذلك مثابتهم ما أقاموا بالبـلد الحرام . وإن كثيرين منهم ليتّجهون بعـد زيارة الحرم الى زيارة مقابر آل البيت . هذه المقابر التى كانت موضع تقديس ورعاية من حكومة البلاد وأهلها ، ومن زائريها ، ومن المسلمين فى شـتّى بقاع الأرض ، حتى اذا تولّى النجديون أمر الحجاز أنكروا تقديس هذه الأماكن وآعتبروه إشراكا بالله فى عبادته ؛ فهدموا ما أقامه السلف عليها من قِباب ومساجد ، وجعلوا على بعضها حرّاسا وأبوابا توصد . ولم يصرف الحرّاس الناس عن زيارة مقابر آل البيت ، ولم تحل الأبواب بينهم وبين الوقوف بها والدعاء لساكنيها واستغفار الله لهم وقراءة الفاتحة لأرواحهم .

ويتّجـه بعضهـم بنظره الى حِرَاء والى الغـار الذى بأعلاه . ولقـد قلّ عدد هؤلاء بعد حكم النجديّين الحجاز ، وبعد أن هدموا القبّة التى كانت مقامة فوق هذا الجبـل . وجنت قلة الصاعدين الى قمة حراء على مُقْهًى كان قائمـا على مقربة من القمة عنـد صهريج كان يختزن مياه المطر ، كما جنت على الطريق المعبّد الذى كان يتخذه الصاعدون الى القمة . أمّا المقهى فلم يبق له أثر ، وأما الطريق ففسد وشقّ الصعودُ عليـه . بذلك زاد عدد الصاعدين الى غار حراء قلة ، ولم يبق منهـم من يكابد مشـقة الصعود إلا الذين درسوا تاريخ الرسول وعرفوا نزول الوحى لأوّل مرّة على محمد أثناء تحنّثه بحِرَاء . هؤلاء يحرصون على أن يصعَدوا جبـل النور وأن يصـلوا الى الغار الذى اتخذه محمد مَقَرَّه ، والذى جاء اليه جبريل أثناء مُقامه به يلقى عليه أوّل ما جاء به من القرآن : ﴿ اِقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اِقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلأَكْرَمُ . ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وهؤلاء يرون فى الجبـل وفى الغار فوقه أقدسَ مكان تجب له الزيارة بعد حج البيت ؛ فهو منزل

الرسالة ، وهو مهبط النور ، وهو مقام الرسول قبل البعث يلتمس الحقيقة حتى أوحاها الله اليه ، وهو هو اليوم كما كان منذ خمسة عشر قرنا مضت ، لم تَعْدُ عليه عادية ، ولم يغيِّر منه حاكم ولا محكوم ، وسيبقى كذلك عَلَمًا على الوحى وعلى الرسالة حتى يوم الدين .

ومذ وقع نظرى على حراء حين ذهابى الى قصر الملك غداة وصولى الى مكة تعلّق به نظرى وشُدَّت اليه مشاعرى ، وتمثّل لى حيثما كنت بهذه العزلة العجيبة التى تفرّد بها عمّا حوله من الجبال ، وبهذه الاستقامة المخروطية فى انطلاقه الى السماء استقامةً تجعله أدنى الى برج شاده الإنسان منه الى جبل قائم بين عشرات من الجبال حوله . والحقّ أن الحادث الفذّ الذى جعله القدر نصيب هذا الجبل ، حادثَ نزول المَلَك على محمد بأوّل الوحى وهو يتحنّث بالغار فوقه ، جدير بأن يجعل منه عَلَمًا فى تاريخ الإنسانية يتعلّق به ذهن كل إنسان ويتوجه إليه قلبه أكثر من كل موضع سواه . ويزيد الذهنَ تعلّقا به والقلب توجُّها إليه أن هذا الحادث لم يكن حادثا عارضا من خوارق أعمال القدر لم يمهِّد القدر له ، بل كان نتيجةً لتمهيد طويل خلال سنوات عدّة أدّب محمدا ربُّه أثناءها وطهّر نفسَه ، وأعدّه لتلقِّى رسالته وإبلاغها للناس . على هذا الجبل ، حراء ، كانت خاتمةُ التمهيد والتهذيب والإعداد قبل الرسالة . إذًا لقد شهد حراء هذه الرياضة الروحية العظيمة منذ هدى الله محمدا الى الحق حتى أضاء أمامه سبيل هذا الحق بنور الرؤيا الصادقة ، والى أن أوحى اليه النبوّة ليكون من بعدُ بشيرا للناس ونذيرا . وليس ثمة موضع نعرفه فى العالم شهد هذا كلَّه . فلا جَرَم ، وذلك شأنه ، أن يتعلّق به الذهن وأن يتوجه له القلب وأن تشدّ اليه المشاعر .

وحسبك أن تقف قُبالة حراء وأن تتأمّله لتذكر هذا المشهد كله ، ولتراه مرتسما أمامك وكأنه حدث بمرأى منك ، أو كأنما حدث منذ عهد قريب . فهاهوذا محمد يسير وحيدا منفردا حاملا من الزاد ما لا ينوء رجل بحمله ، يخترق طرق مكة من جنوبها

الشرق حيث يقع اليوم شِعْب علىّ ، وحيث كانت دار خديجة ، الى شمالها الشرق حيث يقوم هذا الجبل . وها هو ذا على سفح حراء يصعد اليه وسِيَما التفكير ترتسمة على قَسَمَات مُحَيَّاه ، وليس فيما حوله من أسباب الحياة ما يرفّه عن تفكيره أو ينبهه الى جديد فى الحياة . ويستمر فى تصعيده ، وزاده معه ، حتى يبلغ قِمّة الجبل . هنالك يجد ماء المطر القليل قد اختزنته بعض أخاديد شِعابه . ويجلس على مقربة من هذا الماء ومن غار قريب منه ، هو مأواه أثناء نومه ؛ ويجيل بصره فيما حوله من خلق الله ، ثم يرجع البصر ويغمض عينيه الواسعتين الجميلتين إغماضة تأمل وادّكار لكل ما سمع وما رأى . فاذا جنّ الليل وتألّقت النجوم وانتثرت فى قبة السماء ، أجال بصره فيها ، وفكر فى أمرها وفى خلقها وفى خلق هذا العالم العظيم كله ، وقضى أشطر الليل متأمّلا يقلّب فى صحف ذهنه كل مايقول قومه فى العالم وفى خلقه وفى الآلهة والملائكة ، وفى هذه الأصنام التى يعبدون . ويُنسيه التفكير نفسه ، ويُنسيه طعامه ونومه ، ويُنسيه الوقت ومرّه ، ويذره متعلقا بما ينشُد من حقيقة العالم والوجود والكون . ويستريح فى الغار سويعات لايلبث حين يقظته بعدها أن يعود الى تفكيره وإلى تأمّله والى نِشْدانه حقيقةَ العالم والوجود .

لقد كان إلى أن مال به حبّه العزلة الى التحنّث والانقطاع عن الناس ، محبوبا من قومه مقدّرا بينهم لوفائه وصدقه وأمانته . وقد كان مضرب المثل بينهم لبرّه أبناءه وحبه زوجه وعطفه على الضعيف والمحروم . وكان يشارك قريشا فى أحاديثهم وسمرهم : يجلس وإياهم فى دار النَّدْوة الى جوار الكعبة ، ويُنصت اليهم وهم يتحدّثون فى تجارتهم وفى مصالحهم ، ويشير عليهم برأيه ، ويستمع الى حديثهم ، ويراهم اذا اختلفوا فى أمر ذهبوا الى هُبَلَ فضربوا عنده بالقِداح ليشير عليهم الصنم بما يجب أن يصنعوه . وكان يرى منهم قوما عُرِفوا بالحكمة وحسن الرأى ينظرون الى هُبَلَ وإلى من دونه من الأصنام التى يعبدها بنو وطنهم نظرة ريبة فى ربوبيتها وفى صحة عبادتها . وكان يسمع الخطباء من هؤلاء الحكماء ينادون فى الأسواق التى تنعقد حول مكة إبّان الحج بأن لله دِينًا غير هذا الدين الذى عليه قومه ،

ويرى قوما من أهل الكتاب يعيبون العرب لوثنيّتهم ويبشّرون بالنصرانية يريدون بالعرب أن يهتدوا بهُداها . وكان قومه يسمعون لما يسمع ، ويتناقلون أخبار الرهبان الذين يلقونهم أثناء رحلتهم الى الشام فى تجارة الصيف ، فلا يثنيهم ذلك عن التعلّق بما ألِفوا من تجارة الحياة ، ولا يعدل بهم عن دينهم وعن عبادتهم أوثانَهم ، ولا ينصرف بتفكيرهم الى شيء غير الدفاع عما لمكة من مكانة دينية قائمة يومئذ على الوثنيّة ، وعما تيسّره هذه المكانة لها من مزيد فى الرخاء وسعة فى التجارة . أمّا هو فقد آنصرف منذ عهده الأوّل عن الأوثان وعن عبادتها ، وتاقت نفسه الى معرفة الحق ، فتعلّق به ودأب على البحث عنه والتفكير فيه . وشغله هذا الدأب عن تجارة خديجة فلم يخرج فيها الى الشام كما فعل قبل أن يتزوّجها ، بل كفاه منها أن أغناه الله بها ، وآنصرف يلتمس هذا الحق الذى شُغِلت نفسه بالبحث عنه والتفكير فيه يريد أن يراه واضحا صريحا لا لَبْس فيه ولا غموض .

اِعتزل الناس وأمعن فى الانقطاع عنهم ، ووجد فى حراء خير مَرْصَد روحى يمتحن به أسباب الحقيقة التى تتجلّى أمام بصيرته فى أناة ودقة . فاذا جاء شهر رمضان من كلّ عام صعِد اليه وآستعان بالصوم والزهد فى متاع الدنيا على استجلاء الحقيقة فى كل ما تقع عليه عينه أو يتعلّق به حسّه ، وفيما يتوسّمه من حياة وراء ما يقع عليه الحسّ أو تُدركه العين . وكذلك ظلّ حتى أماطت له الحقيقةُ عن لِثامها وتبدّت أمامه فى كلّ صفائها وتجرّدها ؛ وصار يراها فى يقظته وصارت تتجلى له فى رؤياه الصادقة أثناء نومه ، متجرّدةً من كل شائبة ، مضيئة كأنها وضح الصبح . بهذا كله أدّبه ربه . فلما تم لنفسه صفاؤها ، أنزل الله عليه أول الوحى ، فآرتاع له وخافه . ثم أمره أن يُنذر الناس وأن يدعوهم إلى الحقّ الذى آهتدى إليه ، فصدع بأمر ربّه ودعا الناس إلى الهدى .

تُرَى هل يأخذ بالنفس فى الحياة شيء ما يأخذ بها هذا المرصد الرُّوحى الذى تجلّت الحقيقة فيه لمحمد كاملة واضحة صريحة؟ ! لقد وقفتُ أمام جبال شتّى أخذ بعضها

بمجامع قلبي لجماله ، وبهرني بعضها بعظمته ، وشُدِهتُ لما احتوى عليـه بعضها من عجائب الخلق والحياة . ولقد وقفت ذاهلا مأخوذا أمام آثار شادها الإنسان تُزرى بالزمن وتسخر من الدهر ، ووقفت مُعْجَبا أمام مراصد أقامها العلم لتزيد ما فى العالم وضوحا أمام الحس . لكنى لم أشعر يوما بما شعرت به خلال المرات التى وقفتها قُبالة حراء ، أرسم من هذا المرصد الروحى صورة فى نفسى فلا يكاد يعدله شىء مما شهدت فى حياتى من عظمة الطبيعة وجلالها ، ومن فن الإنسان وبراعته ، مع يقينى ببساطته وبأن الصاعد إليه لن يرى فوقه إلا ما يرى فوق سائر الجبال .

ألحَّت بى الرغبة فى ارتقاء هـذا الجبل لأقف حيث كان يقف محمد ، وأشهد من مظاهر الخلق ما كان يشهد ، ولأرى الغـار الذى كان يقضى فيـه ليله والذى نزل عليه الروح الأمين بالوحى فيه . وأفضيت إلى أصدقائى برغبتى ، وأبدى جماعة من أهل مكة منهم الرغبة فى مصاحبتى ، ليشهدوا معى ما لم يشهدوه من قبـلُ على قربهم منه . وكان بعد صلاة العصر من يوم الجمعة موعدنا ، فأقلّتنا السيارة ، حتى إذا كنا قبالة قصر الملك تياسرت بنا ثم انحرفت إلى مضارب جماعة من البدو لا يأبون أن يقدّموا القهوة لمن شاء أن يتناولها . وقد جعلهم مُقامهـم بالحضر يتوقّعون ما لا يتوقعـه أبناء البادية من اقتضاء ما تنفحهم به مقابل تقديمهم إياها ، ومقابل حراستهم السيّارة أثناء مقامك بالجبل إذا صحبك سائقها .

ماذا أرى ؟ ! لقد كان حراء ينحدر وأنا أنظر إليه من بعيد فى استقامة مخروطية تجعـله أدنى إلى برج شاده الإنسـان ، وها هو ذا الآن وله سفح كسفوح الجبال ، وتبدو على السفح آثار طريق لسير الناس فيه . لكن قمّته أكثر استقامة من سائر ما حولها من القمم . أتُراها أشدّ عُسْرا فى الصعود إليها ؟ سألت عن ذلك فهوّن القوم علىَّ الأمرَ ، وذكر من تسلّقوا هذا الجبل من قبلُ أن الله يهيئ للصاعد فيه من أسباب اليسر ما لا يهيئه للصاعد فى غيره من الجبال . لكننا أتينا بعد الظهيرة ، وهذا السفح الذى يصعد الناس منه تطالعه أشعة شمس المغرب ويحسر الظلّ لذلك عنه . ولو

أننا أتينا مُصْبحين لكان صعودنا فى الظلال أكثر يسرا . على أن أصحابى ذكروا أن الانسان يستدير فى صعوده إلى الفىء حين يقترب من القمة ، وأنه يرى منها عند المغيب وقُرابته كلَّ ما حول حراء إلى أبعاد نائية مما يحجبه الضوء الباهر حين الظهيرة.

وسرنا الى السفح و بدأنا نتسلّقه . بدأنا فى نشاط رجونا ألّا يفتُر قبل الغاية . وما له يفتر والجبل أمامنا ليس بالغًا فى ارتفاعه ما يخاف الإنسان معه اللُّغوب!. وسرنا فى الطريق المألوف خلا شابًا منا آثر أن يختزل هذا الطريق وأن يتسلق الجبل فى استقامة تُدنيه من غايته . وأنذره أصحابه أنه جاهدٌ نفسه بهذا الصعود العنيف فمُنْقَطِعٌ به دون القمّة . ولم يسمع شبابه لإنذارهم ،وانطلق إنطلاقة السهم ، يسبقنا مصعِّدا و يقف بين آن وآن فوق صخرة من الصخور يصيح بنا صيحة الفائز المنتصر . وقطعنا فى تسلُّقنا دون ربع الساعة ، ثم بدأنا نشعر بالشُّقة ونقدّر طول الطريق الذى حسبناه من قبل قصيرا . واعتذر لى أصحابى عن سوء حال هذا الطريق وألقوا التَّبِعة فى ذلك على حكومة الوهّابيين الذين هدموا قبّة حِراء فصرفوا الناس عن الصعود للتبرك بها فأُهمل الطريق وساء حاله . وزاد بنا الشعور بالمشقة، فاتخذنا من فىء صخرة حمًى نستريح اليه . وعاودنا سيرنا حتى عاودتنا المشقة فاسترحنا كرّة أخرى . وكلما أخذ منا الجهد ارتفعنا بأبصارنا نَحْزُر ما بقى من الطريق الى القمّة .

واستدرنا فى تصعيدنا الى الفىء ، وسرتْ الينا نسمات منعشة أشعرتنا بنشاط كان وشيكا أن يفتُر. وجلسنا ننعم بهذا النسيم ونعدّ العُدّة للوثبة الأخيرة الى القمة. ما كان أحوجنى الى هذه الجلسة! كانت أنفاسى تضطرب ، وصدرى يعلو ويهبط فيكاد يمزّق أضلاعى، والعرق يسيل من كل مسامّ جسمى ويبلل كل ملابسى ؛ وأمسكت لا أتفوّه بكلمة،وفتحت خياشيمى أستنشق النسيم بكل قوة ألتمس هدوءا لصدرى واستعادة لسكينة نفسى . وقال أحد أصحابنا من أهل مكة وقد طاب له المكان الظليل : إنى ناظركم هنا حتى تعودوا من القمّة ؛ فلم يعد فى مستطاعى أن

أصعد. ولعله أراد أن يمتحن صبرى و يبلو احتمالى . وكيف لى أن أقف دون غاية قصدت اليها بالغًا ما بلغ الجهـد منّى ، ولست أدرى متى يتيسّر لى أن أعـود الى مكة، ولهذا الجبل وللغار من السحر فى قلبى والسلطان على مشاعرى ما يهون معه كلّ جهد وتطيب به كلّ مشقة! . ولم تك إلا دقائق حتى رأيتنى أكثر نشاطا وقد اطمأنّ صدرى، وعادت إلى نظامها أنفاسى ، وسَرَتْ الى فؤادى مع النسيم بهجة لم أشعر من قبلُ بمثلها . وخلّفنا صاحبنا وقمت ومعى رجلان يحمل أحدهما الماء المثلوج ويحمل الآخر الشاى الساخن فى «ترمذَيْنِ» كانا لمثل هذه الرحلات خير عون.

وانطلقنا مُصعدين نتيامن ونتياسر مع الطريق خلال شـعاب الجبل، وقد جدّدت الراحة نشاطنا، وزاد فيه الظل والنسيم، وقوّاه اقتراب الغاية والثقة بالنجاح فى إدراكها. وتلفتُّ بعد فينة، فإذا ورائى عبد أسود ناداه أحد الرجلين اللذين معى: يا فتى! وحسبت أنه يعرفه، ثم علمت أن العبد من التكارنة الذين يقيمون ألوفا بمكة، وأن هذا اللقب يطلق على كل فرد منهم ، وأنهم يلتمسون مثل هذه الفرصة لمعاونة صاعد متعب لعلّهم ينالون منه بُلْغة يومهم . ولم أكن فى حاجة بعد ما نلت من الراحة الى معونته، لكننى اطمأننت اليـه وأنِست بوجوده إلى قدرتى على تحقيق غايتى، وازدادت قدماى قـوّة فى الصعود والتسلّق . و زادنى أنسا اليـه أنه لزم الصمت ولم يشارك من معى فى الحديث، فدلّ بذلك على أنه لا يبتغى غير بذل العون لمن يحتاج الى عونه .

ودعانى صاحباى الى الجلوس كيما أستريح . و إنى لأحاورهما متردّدا إذ سرى على النسيم الى سمعنا صوت ذلك الشابّ الذى اختزل الطريق الى القمة يُهيب بنـا أن هلّموا. ورفعت بصرى كيما أراه فاذا الجوّ ينكشف، و إذا ما حولى أكثر ضياء، واذا الشاب قد تسنّم مكانا زعم أنه الغاية التى جعلناها مقصدنا . وأزال ما رأيت تردّدى، فلم أجلس ولم أعبأ بما عاودنى من البُهْـر[1]، وتابعت تسلّق وأنا أستدير حول

(١) البهر (بالضم) : تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء .

صخرة حيناً وأقف مكدودا بين صخرتين هنيهة . وطالعتنا الشمس كرة أخرى ؛ لكن أشعتها تسربت الينا من ناحية القمة فكانت بشير الفوز ، وزادت عزمنا مضياً ، وحرصنا على بلوغ الغاية قوة . والشاب ما يفتأ يهيب بنا ويثير حميتنا ، ونحن نتسلق ثم نقف ، ونقف ثم نتسلق ، حتى انفرجت الشعاب والصخور أمامنا عن سطح مستو اندفعنا اليه مطمئنين الى أنا إذ بلغناه قد صرنا من القمة والغار على بضعة أمتار .

وليس آستواء هذا السطح من عمل الطبيعة ، وهو لم يكن مستويا أيام كان محمد يصعد حراء للتحنث فوقه ؛ إنما سوّاه الناس حين كان الألوف من الحجيج يصعدون يبتغون القبة المشيدة على القمة للتبرك بها . سوّوه ونقروا فيه صهريجا يختزن مياه المطر ، وأقاموا عنده مقهى يستريح الناس اليه ويتناولون طعامهم فيه إذ يصعدون لزيارة القبة . فلما هدمها الوهابيون وانقطع الناس عن الصعود أقفر المكان من المقهى ولم يبق من يعنى بأمر الصهريج وما يجيء من الماء اليه . لكن السطح بقى مستويا كما كان ، وبقى الذين يصعدون ابتغاء الغار يقفون عنده ، يستريحون الى فيئه ويستجمون مما أرهقهم من الصعاب مستندين الى جدرانه ؛ وكذلك فعلنا . فلما اطمأنت أنفاسنا الى صدورنا دُرْنا فى المكان نرى الصهريج وبضع الدرجات التى ينزل الانسان بها اليه ، ونرى استواء الجدران حيث كان المقهى ، ونلق فى هذا المكان الموحش بعد أن خلا من كل مؤنس آثار أولئك الألوف الذين كانوا يتسلقون اليه ويجلسون فى مقهاه منشرحة صدورهم لأنهم يؤدّون واجبا مقدسا ، منفرجة شفاههم عن آى الغبطة ، يرجون رحمة الله ورضا رسوله عما قدّموا بين يدى نجواهم من صدقات حين جاءوا حاجّين بيته ملتمسين مغفرته وعفوه .

وآرتقينا من هذا السطح عشرين مترا أو نحوها ، وبلغنا القمة التى كانت تقوم القبة عليها . هنالك انكشف لنا الوجود المحيط بنا كله . فهذه القمة أعلى حراء ، وهى ضيّقة لا يزيد مربعها على الثلاثين أو الأربعين مترا ؛ وهى مكشوفة لا يحيط بها صخر ولا يحجب الناظر منها الى ما حولها حجاب . وتبدو سلاسل الجبال

المحيطة بحـراء من جهاته الأربع كأنها كلها دون هــذه القمّة ارتفاعا ، وهى لذلك تنكشف للناظر من القمة عن سفوحها وعن شِعابها وعن كل ما عليها وكل ما فيها . وأظلّت قبّة السماء هذه القمةَ، فما يغيب عن النظر ممـا فيها سحابة أو شامة و إن دقّ حجمها . وهذا موقع فريد قلّ فى غير حراء من الجبال نظيره . فأنت إذ تقف فيـه ينكشف لك كل ماحولك، وتبدو لك عظمة الكون فى كل جلالها، وتشعر وأنت تشهد من موقفك السماء والجبال ، وتشهد مكة ومسجدها الحرام و بيتهـا العتيق ، وتشهـد ما وراء ذلك ممـا لا نهاية له ، أنك تشهد آية الله تجلّى كمالها فى الكون وفى خلقه، وتشهد سنّة الله فى هذا الكون، سنّة لن تجد لهـا تبديلا و إن تعاقبت الدهور وخلفت القرون القرون . فاذا طال بك موقفـك وطال تأملك فيما حولك تجسّمت فى نفسك هــذه الآية وآستولت على كلّ حســك وشعورك، ففَنِيت فيها وغاب حسّك بنفسك وكنت فى تيهاء لا تدرى بعدها ما حظك وما نصيبك .

كان ذلك شعورى حين وقفت فوق القمة أحدِّق من عليائها فيما حولى . ولقد استعنت بمنظار مكبِّر أعددته لأستعين به على مثل هــذا المشهد . وما عسى أن ينفع المنظار وأنت لا ترى ممّـا يقرّ به لك من الأبعاد إلّا مزيدا فى عظم الخلق وجلاله ! . هذا الخلق الهائل من الجبال المتعاقبة لا ترى خلالها من مظاهر الحياة إلا حياتها هى ، حياة صخور عابسة وكلأٌ لا يكسر من كل هــذا العبوس ولا يزيد الناظر اليها إلا مهابة ورهبــة ؛ وهذا البيت العتيق قائم فى أمّ القرى يحـدّث عن حياة العالم الروحية منذ أقام إبراهيم قواعده و إسماعيل؛ وهذه الجماعات من الناس والقواقل من الإبل لا يكاد المنظار يبين عنها لصغر حجمها ودقة شأنها، وهى حول البيت أو بين الجبال تُتيه على الجبال وتطوف بالبيت ناسية أنها قليلة البقاء الى جانب البيت والجبال وأنهـا تتعاقب أجيالها والبيت قائم ، وللبيت ربّ يحميــه ، والجبال مطمئنة تُزرى بالقرون والأجيال .

وسبقنى أصحابى الى الغار وبقيت فوق القمة وحيــدا أجيل الطرف فيما حولى فأزداد لخلق الله إكبارا و بالله إيمـانا . وما عساى أستطيع أن أرى من خلق الله

فى هذه السويعة، وتقلّبُ الوقت وتنقُّل الشمس وانتشار الليل، كلّ ذلك يجلو أمام البصر والبصــيرة فى كل لحظة جديدا . والبصر والبصيرة يريان الأشـياء فى ألوان تختلف بآختـلاف سكينة النفس واضطرابها ، وهدوء العصب وهياجه ، وبحالنا من الصحة والمرض، والرضا والغضب ، والراحة والنصب . ودع عنك ما تحجب الجدران بيننا ، نحن سكانَ المدن، و بين الأبعاد الشاسعة . وكيف تُرانا نبلغ أن نرى ما يزعم قوم من أهل مكة أن أقو ياء البصر يرونه من هذا المكان الذى أقوم فوقه ! . فهم يذكرون أنهم يرون منه ساحل البحر الأحمر ساعات مغيب الشمس .

وعاد إلىّ بعض أصحابى فانحدرنا الى الغار الذى كان ملجأ رسول الله والذى نزل عليه الوحى الأوّل فيــه . و بين الغار والقمة عشرون مترا أو نحوها ، وهو مقــدار ما بين السطح الأوّل والقمــة . والوصول اليه يقتضى المرو ر بين صخرتين تكادان تتلاصقان ، فلا يتخطى الإنسان ما بينهما إلا بمشقة و إن كان نحيفا . فاذا تخطّاهما وجد الغار فى داخل الجبل محجو با عن كل ما حوله بالصخور الضخمة وهو أشدّ من كل ما فى الجبل وحدة وعزلة ، ووجده لا يتّسع لأكثر من شخص واحد ينام فيه نوما خشنا جافيا كل الجفاء . دخل الشاب الذى معنا اليه وتمطّى فيه، فلم يطق المقام به غير لحظة ارتدّ بعدها الينا ووقف معنا يشهد و إيّانا فى هذا الوسط الموحش ذلك الوكْر المخوف، يفزع منــه من يجهل أن الحيــاة لا يملكها إلا من سَمَــا فوق الخوف من كل ما فى الحياة .

وهو مخوف حقّا . ولولا ما تنطوى نفوسنا عليه من تقديس إيّاه لمــا طاوعتنا الى البقاء أمامه ، ولفررنا مشفقين ممــا فيه . وأنّى لنا أن نعرف ما فيه والصخور الضــخمة حوله لا تدع مسربا للنور الى أبعــد من فوّهته ! . فأما ما وراء الفوّهة فظلام لا تهتك العين حجــابه . والجبل وشعابه من وراء الصخور أجرد داكن اللون فى حمرة قاتمة يزيد هذه المخاوف ولا يهوّن منها .

وعدنا أدراجنا نقصــد القمّة وقد امتلأت النفس مهابة ورهبــة . ووقفت فى منتصف الطريق استنشق هواء هذه الساعة رقّ حين دنا المغيب فأسعد النفس

وزادها غبطة بما حولها من جلال وهيبة . وحدثتنى نفسى : هنا كان الرسول يقضى شهر رمضان من كل عام، عدّة أعوام تِباعًا، قبل أن يبعثه الله نبيًا . فى هذه البقعة المنعزلة الموحشة كان يقيم وحيدا يؤنسه تفكيره وتأمّله، يقلّب فى صحف نفسه هذه الحقيقة السامية التى كان الله يهيئه لها ليبعثه إلى الناس بها . لم يكن فى عزلته وفى وحدته وفى انقطاعه يخاف الجبل ولا الغار وما قد يكون فيهما من وحش أو هوام . أيّة قوّة روحية يهبها الله لمن يتخذ هذا المكان القفر له موئلا ! . إنها قوّة فوق ما أوتى الناس جميعا وفوق ما فى العالم كله، لا يؤتاها إلا الذين اختارهم الله لرسالته ورضى عنهم ورضُوا عنه .

وبلغتُ القمة، وتناولت قدحا من الشاى، وجلست مستندا الى بقية جدار لعله أثر من بناء القبة التى هدمها الوهابيون ليحولوا بين الناس وبين التبرك بها، لما يرونه فى هذا التبرك من معنى تقديسها . وأقام أصحابى معى هنيهةً ثم تركونى وذهب كل فى ناحية من شعاب الجبل يستطلع ما قد يحتويه جبل النور من آثار لا يحتويها غيره من الجبال . وتركت لخيالى العِنان وأنا فى عزلتى هذه، فتمثّل لى الرسول الكريم جالسا حيث أجلس، مشتملا فى نَظْرَةٍ هذا الكونَ العظيم المحيط بى، متأملا، مفكرا فيما يرى وفى دلالته . ترى ما بال أهل مكة لا يجىء منهم من يتعبّد فى حراء طول شهر رمضان كما كان النبىّ يفعل قبل بعثه؟ أليس لنا معشر المسلمين فى رسول الله أسوة حسنة! وهل لمكان أن يعين المعتزل على التفكير وعلى التأمل ما يعينه هذا المكان من حراء! فهو بعيد عن ضجة الحياة وضوضائها، قريب من الحياة ومن كل ما فيها . فيه يعكُف الإنسان على نفسه ما شاء، ويتصل بالكون وبخلق الله ما أراد . ليست هذه القمّة صومعة تحجبنا عن الحياة وتحجب الحياة عنا، ولسنا فوقها رهن محبس تحيط به الجدران، أو كهف غائر فى الصخور؛ إنما هى مرصد يطالع الحياة وتطالعه، تبزغ الشمس عليها ساعة تشرق وتنحدر عنها ساعة تغيب، وتتألق النجوم ويحبو البدر فى السماء، وتهوى الشهب وتنطح

السحب، وهى شهيدة على هذه الأحداث كلها. فأين يجد المعتزل مثل هذا المرصد يرى منه ما يشاء من غذاء الروح وأسباب التفكير والتأمل ! .

فاذا هو أقام من كل سنة شهراً كاملا صائما منقطعا عن تجارة الحياة إلى التفكير فيما يرى آناء الليل وأطراف النهار، وإلى التأمل فى مشاهد هذا الكون المترامى الأرجاء إلى حيث يقصر النظر، وإن بلغ من القوة والدقة نظر زرقاء اليمامة، والى حيث تُسلم المحسوسات لقوة الإنسان العاقلة أسرارها، فليس من ريب فى أن يصل من معرفة هذه الأسرار الى نتائج باهرة . إنه لن يكون نبياً ولن يبعثه الله رسولا، فمحمد صلوات الله عليه خاتم الأنبياء والمرسلين ؛ لكنه يصل من طريق العلم بالمشاهدة والملاحظة والترتيب والاستنباط الى خير ما يصل اليه مشاهد من مرصد يسجِّل حركات الأفلاك وموج ما فى السماء، والى خير ما يصل اليه من يسجِّل نتائج اتصال الإنسان بالكون فى أسمى مراتب الاتصال . وهو الى ذلك وما يزاوله من ألوان الصوم وكَبْت هوى النفس وشهوات الجسد يصل بالرّوح الى درجات الطهر والتنزّه والسلطان على المادة وعالمها دون أن يكون للمادة أىّ سلطان عليها .

ما للسلمين من أهل مكة، وما للسلمين ممن يقصدون إلى مكة للحج أو لعمرة رجب، لا تميل بهم الأسوة إلى معالجة هذه الرياضة العقلية والروحية ولها فى تهذيب النفس أكبر الأثر، ولها من النتائج فى العلم ما أشرنا إلى شيء منه! وأىّ تهذيب للنفس كاتصال الإنسان بالكون فى مثل هذا المنقطع الرفيع فوق حِراء اتصالًا يسمو به المرء فوق حاجات الحياة، ويرى أثناءه فى شظف العيش وفى الغنى بالنفس عن كل شيء ما يزيده إيمانا بالله وحده، وبأنه دون سواه تجب له العبادة، باسمه يسبِّح مَن فى الأرض جميعا ومن فى السماوات! . وهل شيء غير مشاهد الكون تقوم عليه النتائج العلمية! . إنما تقوم هذه النتائج على ما فى السماء والأرض، فى الضحى، والليل اذا سجا، والنجم اذا هوى، والشمس وضحاها، والقمر اذا تلاها، والجبال

وما أرساها، والهواء فى مسراه، والمـاء فى مجـراه، والحَبّ اذا نبت ، والصـخر اذا تفتّت، والضوء إذا تحلّل، والمطر اذا ترقرق ، والريح اذا اصطفقت، والنفس اذا سكنت ، لأمر ربهـا وفكّرت . أىّ شىء غير هذا هو العلم فى أحدث صورة أثمرتها حرية الفكر ؟! وهل طريقة علمية أدقّ من هذه الطريقة لمعرفة سنن الكون وما ينطوى عليه! .

إنما يرغب المسلمون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم انحرفوا عن أمر الروح الذى يكيّف المـادّة وأذعنوا لسلطان المـادة يكيّفها غيرهم بقوّة عقـله وروحه، ولأنهم آثروا راحة التقليد على عناء الاجتهاد، ولأنهم نسوا أن المرء لا يكمل إيمـانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويجب عليه لذلك أن يهب من نفســه لإخوته المؤمنين؛ فتولّت عليهـم الأَثَرة، وصار ما يرضى الأثرة من ابتغاء المـال والجاه وما إليهما كلّ شىء عندهم . وأنّى لمن هوى إلى هذا الدرك أن يفكر فى الحقيقة ينقطع لهـا ويجعل العلم سبيله إلى إدراكها، وأن يحمل نفسه على نشر نورها يستضىء به الناس جميعا ، وهو لا يريد العـلم إلا لنفسه، ولا الحقيقة إلا لنفســه ، ولا الحياة إلا لنفسه، ولا المـال إلا لنفسه، ولا السلطان إلا لنفسه! . وأنّى لمن هوى إلى هذا الحضيض أن يدرك ما فى بذل النفس لهدى الغير من سموّ يتضاءل أمامه الجاه والمـال والسلطان، ويصبح الفقر معه فخرا، وتصبح الفضيلة معه لباس المتقين! . والناس متى هَوَوْا فى هذا المنحدر فاتهم معنى العبادة على وجهها الحق ، ففاتهم أن العمل عبادة، وأن العلم عبادة، وأن هداية النـاس عبادة، وأن البذل للمحتاج من مال أو علم أو شفقة وبرّ عبادة، وأن الله يقبل عبادة من يُؤثر على نفسه راضيا عنه؛ فأما الأَثِر الذى لا يعرف إلا نفســه ففى حاجة إلى أن يطهّر نفســه قبل أن يطمع فى مغفرة الله له . وفوت هذا المعنى قد جعل الناس يحسبون أن خير العبادة ما كان فى هيا كل فخمة العمارة ذات محاريب وأبراج تأخذ روعتها بالنظر، وينسون أن خير العبادة ما توجّه الإنسان فيه بكل قلبه إلى الله ، ناسيا نفسه ، محبا فى الله إخوانه ،

مستعينا ربه ، كانت عبادته فى هيكل مشيد أو كانت فى فضاء الله و بين خلقه الذى لم تعدُ عليه يد الإنسان .

والمسلمون يرغبون اليوم عن هذه الأسوة الحسنة لأنهم لا يطيقونها . فالوحدة للتفكير ابتغاءَ الحقيقة إنما يطيقها ذوو الأرواح القويّة . هؤلاء يتلمّسونها تلمُّسا ويتخذونها ملجأ من ضعف الجماعة وأَفَنِها . يرى أحدهم ما تَخُبّ الجماعة فيه وما تَضَعُ من ضلال يُبعدها عن الطريق السوىّ ، طريق الحق والخير والجمال ، فيزورّ عنها ، ولا يجد فى غير العزلة موئلَه ، وفى غير التفكير أثناء هذه العزلة وسيلةَ خيرها وصلاحها . ومنهم من يذر بيئته إلى بيئة أخرى ليست منه وليس منها فلا سلطان لها عليه ، وقد يفيد من الاتصال بها ؛ وهو أثناء مُقامه بها فى عزلة عما ألف ، تفتح له الحرية من أبوابها ما كان مقفلا فى جماعته . ومنهم من لا يرى فى الجماعة الإنسانية مظهر الحق ، و يراه فى أطواء النفس ودخيلة القلب ؛ فهو ينقطع عن الناس وينظر فى الكون كله ويعود بنظره إلى صورة هذا الكون مرتسمة فى أعماق وجوده ترشده إلى الحق وتضىء أمامه بنوره . فأمّا الأوّلون الذين يتلمّسون الحق عند الناس من غير ذويهم فهم أقوياء ، لكنهم عاجزون عن مواجهة الوجود فهم يريدون الحق عند جماعة يحسبونها أرقى من جماعتهم ، و يريدون أن يحملوا جماعتهم على تقليد مَنْ يحسبونهم أدنى الى الكمال وأبعد عن الضلالة . وأمّا الذين يرجعون الى أنفسهم يتلمسون الحقيقة فى أعماقها فأولئك هم الأقوياء حقا ، وهم الذين يقدُرون النفس الإنسانية قدرها الصحيح ، والذين يتوجّهون الى القوّة العليا التى برأتهم وكان الروح من أمرها يرون فيها الحق لا حقَّ إلا هو ، و يتلمسون فى خلق الله سُنّةَ الله فيه ؛ فاذا اهتدوا اهتدت الإنسانية بهُداهم وسعدت برايهم .

ليس يطمع أحد فى أن يؤتيه الله من هذه القوّة ما أوتى محمد صلى الله عليه وسلم . وقد حاول أفراد فى مختلف الأمم أن ينقطعوا عن العالم ، فاذا هم قد انقطعوا عنه الى غير أوبة اليه ؛ فمنهم من ضلّ عنه عقله ولم يثب إليه رشاده . ومنهم من

هجر العالم فرارًا من آلامه . ومنهم من أخذ عن الجماعة الإنسانية ببدائع الطبيعة . ومنهم من فنى فى الخالق جلّ وعلا وهام به ونسى أن هدى الناس خير ما يُرضى الخالق . وقليلون منهم عادوا الى الإنسانيّة بحقائق أضاءت أمامها فسارت على هُداها؛ وهؤلاء هم الذين ساروا على سنّة الرسول . لكن الله لم يؤت أحدا ما آتى عبدَه ونبيّه ورسوله؛ فلم ينطبع العالم فى نفسٍ بالقوّة التى انطبع بها فى نفس محمد، ولم تصل الرياضة الروحيّة بأحد، ولن تصل بأحد، الى الرؤيا الصادقة التى انتهى اليها قُبَيل بعثه وبعد أن قضى السنين يتعبّد شهرا كل عام فى حراء . ولقد ظل محمد طَوال حياته مشغوفا بالوحدة تطمئن اليها نفسه القويّة ويستمد أثناءها من ربّه نور الهدى حتى تنزّلت عليه كلمة الله وحيًا ونورا .

من هذه القمّة التى كان الرسول يتعبّد فوقها متخذًا إياها المرصد الروحى لتلمّس الحقّ فى الحياة، يرى الإنسان منظرا يدلّه على أن المسلمين لم يكفهم أن لم يطيقوا أسوته عليه السلام بل نسوها، وتعلّقوا بالعرض دون الجوهر، وبالقشور دون اللُّبّ . لست أقصد إلى أنهم أقاموا قبّة يتبركون بها حيث كان الرسول يتعبّد وظلوا على ذلك حتى هدم الوهابيون هذه القبة؛ فلا عجب أن يقام فى هذا المكان الخالد الذكر بالحادث الذى خصّه القدر به تذكارٌ ينبّه الغافل اليه، فأما البركة الحقّة ففى العبادة وفى التّقوى؛ بل أقصد أن ثَمّةَ شقّا فى القمة يجرى حوله جدل أشار اليه صاحب "مرآة الحرمين" وردّه على أنه غير صحيح . وهو جدلٌ لا غناء فيه عن هذا الشقّ وأصله، وهل شقّ الملكان صدر النبي فى هذا المكان وطهّراه وأسالا ماء الطهور من هذا الصدع فى الجبل . ما أكبر الفرقَ بين هذا التفكير ممّن يقف على قمّة حراء وتفكير الرسول حين تعبّد فوقها قبل بعثه ! . لقد كان يتلمّس الحقيقة وكان يراها فى خلق الله ممّا حوله، وكان يجاهد لاختراق حُجُب الحياة اليها حتى أسلمها الله اليه بالوحى كاملة . كانت حقيقة العالم وخلقه وخالقه هى التى تشغل روحه، وهى التى تصرفه عن تجارة الحياة وطعامها وشرابها وتُنسيه كل شىء فيها .

لم يكن يعنيه أن يزداد ٱرتفاع جبل على جبل ، أو أن يكون في شِعْب من شعاب الجبل شقٌّ أو نتوء لا شبيه له في الشعب الآخر، بل كان متعلقا بما هو أسمى من هذا وأرفع مكانا : كان يبحث عن الكون وعن الزمان والمكان فيه ، وعن منشئ ذلك كله . أما اليوم فينصرف أكثر المسلمين عن هذا السمو الفكرى ويتعلقون بروايات تصحّ أو لا تصحّ ويجعلونها علّة لخلافهم ونضالهم ولإقامة الفِرَق والشِّيَع المتناحرة بينهم، بل لرمى بعضهم بعضا بالمروق والكفر .

كانت الشمس تنحــدر إلى ناحيــة المغيب، فيجلو ٱنحدارها قطوب الجبــال ويكسو السفوح الظليلة سلاما وسكينة . وكان أصحابي يدورون في شعاب الجبل ويعود أحدهم الفَيْنــةَ بعد الفينة فيراني منصرفا عنه إلى ما حولى لا أوجِّه اليه كلمة فيرتدّ إلى إخوانه . فلمــا طال بهم الأمَدُ ورأوا المغيب زاحفًا علينا، نبّهنى أحدهم فاستمهلته رويدًا وهبطت وإياه الى الغــار، غار حراء ، ورجوته أن يدعنى هنيهة الى نفسى . ووقفت بين هــذه الصخور الضخمة قُبالة البحــر الموحش فى الجبل القفــر وقد تسلّلت اليه الظلمة فزادته وحشــة وقفرا . وقفت وحيــدا مفكــرا أتخطّى بذهنى القرون إلى المــاضى وقد ٱمتــلأت نفسى بصورة ذلك اليوم الفــذّ فى التاريخ، يوم نزول الوحى الأول، ونسيت كلّ ما حولى، وخيِّل إلىّ أنّنى أرى ؛ نعم ! رأيت محمدا متمطيا فى الغــار الموحش وعلى محيّاه الجميــل سيمــا الرضا وكأنمــا يتقلّب من هــذا الصخر فى فراش وثير . وإنى لأحدِّق بقَسَمات وجهه وقلبى كله الرضا والحبّ، إذ رأيت هذا الوجه أضاءه نور لألاء زاده جمالا، ورأيت ابتسامة مطمئنة ترتسم على ثغر تنم شفتاه الرقيقتان عن معانى التأمل وعظيم الأمل . وأُخذت بمــا رأيت، وٱزددت بصاحب الوجه المنير شغفا، وبقَسَماته الحلوة تحديقا . وفيما أحدّق شعرت أن الجبــل كله يهتزّ، وبهرنى من الغــار نور لم تُطق عيناى ساطع ضيائه . وسمعت صــوتا ملائكيا يُهيب بالمتمطّى فى الغار : "اقرأ" . ويجيب محمد فى صوت مرتعش ونبرات تهتزّ من الخوف : "ما أقرأ" . والنور ساطع والبَهَــر[1]

(١) البهر (بالفتح) : العجب .

يتولانى من كل مكان، وأحس الفزع يجرى فى عروق ، وأحاول الفرار فتخوننى قواى ، وأسمع الصوت الملائكى مرة أخرى يهيب بمحمد : "اقرأ" ومحمد ملؤه الخوف والوجل يجيب بصوت من أرسل بعد اختناق : "ما أقرأ" . ويكرر الصوت الملائكى : "اقرأ" ويشعر محمد أنه لم يبق فى ملك نفسه وأنه لا مفر له من أن يقرأ أو يظل صاحب الصوت يخنقه ويرسله ، فيجيب : "ماذا أقرأ" ؟ . ويتلو الصوت الملائكى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ويتلو محمد هذه الآيات من بعده .

خيل إلى وأنا فى موقفى من الغار أنى أرى هذا المشهد الفذ فى التاريخ ، وأنى أسمع هذه الأصوات لم أسمع قط مثلها . وصفدنى الفزع مكانى وأقمت أنتظر ما يكون من بعد ، فاذا النور الباهر يرتفع ، ومحمد فى الغار يتصبب عرقا ويدور بنظراته فيما حوله ويهتز مضطربا من رأسه إلى أخمصه ثم يفرك عينيه ويمسح بيده جبينه العريض المضىء سمة من يخشى مكروها أصابه . ويزداد به الرعب فينطلق من الغار هائما فى شعاب الجبل لعل فى هوائه ما يدفع عنه روعه . هاهو ذا يقف منصتا كأنما يناديه مناد من السماء . إنه الصوت الملائكى الذى كان يحدثه فى الغار . وهو يحدق فى مصدر الصوت ، ويرى صاحبه فيزداد فزعا ويقفه الرعب مكانه ؛ وهو يلق بنظره إلى الجبل ويصرف وجهه يمنة ويسرة ثم لا ينفك يسمع ويرى . ليست حواسه إذا مصدر سمعه ورؤيته ؛ إنما مصدرهما روحه . وهذا الصوت الذى اتصل بروحه هو صوت الروح الأمين . وهو مع ذلك يراه لأنه تجلى بإذن الله له ولم يتجل لغيره . وهو من بعد فى فزع يتقدم فى شعاب الجبل ويتأخر ولا يبرح يسمع الصوت الملائكى ويرى صاحبه . ما أشد هذه الساعة هولا ، وهى مع ذلك للإنسانية ساعة النور والرحمة والهدى ! .

ورآنى أصحابى واقفا فى شعاب حراء على مقربة من فوهة الغار ؛ فأقبل على أحدهم يسألنى أن نهبط الجبل قبل أن تدهمنا الظلمة وقد آذنت الشمس بالمغيب .

وأفقت لسماع صوته مما كنتُ فيه ، وطلبت إليهم أن يأتونى بشربة ماء . وتناولت القدح وشربت من ماء " الجِعْرانة " المثلوج فأعادنى شربه إلى الحياة المحيطة بى . وتهيأت للهبوط فجمعت قوتى ، وبدأنا جميعا نحدر فى الطريق المتعرج و (التكرونى) يتبعنا دون أن ينبس ببنت شفة . ولقينا رجل من الهنود وامرأته يصعدان ، فسألانا فى لكنة أعجمية عما بقى إلى القمة . وجعلنا نتلوى يمنةً ويسرةً منحدرين دون أن تكون بنا حاجة إلى الوقوف لنستريح ؛ ففى نسيم هـذه الساعة التى تتلو المغيب ما يُنعش ويريح .

وألفيت صاحبي المكيّ الذى وقف دون القمة قد سبقنا إلى أسفل الجبل . فلما رآنى سألنى عن حالى واعتـذر عن تخلفه فى الطريق بجرح أصاب به الصخر قدمه . وأقلّتنا السيّارة إلى المأوى وصلاة العشاء تكاد تؤذن . وشعرت وأنا أصعد الدرج إلى مُخْدعى أن بفخذىَّ وساقىَّ ألما ، وأفضيت إلى مضيفى بما أشعر به ؛ فسألنى : وماعسى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفعل ؟ قلت : لقد ألِف الجبال وتَصْعادها وأحبّ خشونة العيش وشظفه ، فما يشقّ اليوم علينا كان رياضة له ، وما نعجز اليوم دونه كان فى متناول يده ؛ حياتنا متاع غرورنا ، وحياته متاع روحه ورضا ربّه . والرجل لا يمتّع غروره فى ناحية إلا على حساب الأخرى ، يمتّع غروره بقوّة عضله على حساب عقله أو على حساب روحه ، ويمتّع غروره بكثرة ماله على حساب خُلُقه أو على حساب كرامته . أمّا متاع الرّوح بما يرضى الله فلا ضعف فيه ، وهو القوّة على كل شىء . ومتاع الروح الرياضة : رياضة الجسم بالسّعى فى مناكب الأرض ، ورياضة العقل بتدبّر ما فى الكون ، ورياضة القلب بالحبّ والإخاء . ذلك بعض ما رأيت وأنا فوق حِراء ، وبعض ما شعرتُ به وأنا أنحدر عنه .

وبكّرت الى مضجعى حتى أهبّنى مؤذّن الفجر عنـه . وجلست بعـد الصلاة أفكر فى حِراء ، وفى الغار ، وفى المَلَك ، وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى يوم

الوحى الأوّل . جلست أفكر والخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود من الفجر . وذكرت رسول الله بعد يوم الغار ، وتمثّلت لى رسالتُـه تتبيّن من خلال الظلمات المحيطة بها ، ظلمات الكفر والوثنيّة والشرك ، كما يتبيّن هـذا الخيط الأبيض من ظلمات الليل البهيم . وجعل الضياء ينتشر حولى شيئا فشيئا كما انتشر الإسلام فأضاء الأرجاء بنـوره . إذ ذاك توجّهت الى الله بكلّ قلبي ودعوته : اللّهم مالكَ الملك تُؤتى الملك من تشـاء وتَنزِع الملك ممّن تشاء وتُعِزّ من تشاء وتُذِلّ من تشاء بيدك الخيرُ إنك على كل شيء قدير .

ربّنا منك السلام واليك السلام فحيّنا ربّنا بالسلام .

وقمت عن مصـلّاى ممتلئ النفس من مشهد الجبل والغار فوقه ، ومن مشهد يوم الوحى الأوّل حين أراد الله للناس الهدى فبعث به عبـدَه ورسوله محمدا بشيراً ونذيرا . وإننى اليوم لأذكر هذا المشهد ممتلىء النفس من جمـاله وجلاله وهيبته ، عامر القلب إيمـانًا بهذا النور الذى أضاء العـالم بالحقّ علّمـه الله الناس بالقلم ولم يكونوا يعلمون .

ربّنا جل ثنـاؤك ، وتعالت أسماؤك، لا إله إلا أنت، بيدك الخير، ومنـك الهدى، واليك المرجع والمآب .

فى غار ثـَــوْر

أمّا وقد آن لنا أن نغادر مكة إلى المدينة فهلمّ بنا إلى غار ثور . وأومأ الإخوان الذين صحبونى فى صعود حِراء وفى جولاتى بالبلد الأمين وما حوله أنهـم سيكونون فى صحبتى . وقال اثنان منهم : وسنصحبك إلى المدينة ؛ فشكرتهما . ثم حددنا موعد الذهاب إلى ثور والصعود إلى غاره فى الغَداة . أوَ ليس الرسول عليه السلام قد احتمى به من كيد عدوّه حين أزمع الهجرة إلى المدينـة ! فلنذهب إليه ولنشهد أثر الرسول فيـه ، ولنحتَمِ بأفياء الصخور وظلّ الغار وإن لم يطاردنا عدوّ ولم يأتمر بنا ليقتلنا أحدٌ . قال رجل من أفاضل المكيّين لم يكن صَحِبنا من قبل : وأنا زميلكم فى رحلتكم هـذه إلى ملجأ رسـول الله فى هجرته ، وإن لم يكن بى الى زيارة المدينة هـذا العام عزم . وسألته فذكر أنه لم يصعد ثورًا ولم يرَ الغار من قبلُ ؛ ثم ابتسم وقال : إن مئات من الهنـود والجاويين والصينيين وغيرهم ليتسلّقون ثورًا ويصلون الغار فى كل عام ؛ أمّا نحن أهل مكة فتصرِفنا الحياة وشُغلُها عن الصعود إليه . ولم أجد فى ذلك عجبـا ؛ فالسائحون الغربيّون الذين يجيئون إلى مصر أشدّ حرصا من أهـل مصر على مشاهدة آثار الفراعنة والرومان ومساجد العرب والمسلمين . والشرقيّون الذين يزورون أوربا يرون من آثارها ومتاحفها أضعاف ما يراه أهلها . ذلك بأن المقيمين على مقـربة من هـذه الآثار والمتاحف لا يستعجلون زيارتها طمأنينةً منهم إلى أنهـم سيقومون بهذه الزيارة يوما ما ؛ فأمّا الذين جاءوا من بلاد قاصـية فلا يعرفون هـل قُدِّر لهم أن يعودوا ؛ ولذلك يحرصون على أن يروا كلّ ما يستطيعون رؤيتـه . وهؤلاء المسافرون قد جاءوا وفى برنامج رحلتهـم أن يروا هـذه الأماكن ؛ فأمّا المقيمون حولهـا فلديهـم من مشاغل الحياة اليومية ما يحملهم على إرجاء زيارتها ، وكثيرا ما يطول هذا الإرجاء فلا تتم الزيارة أبدا .

ورحّبت بصحبة صديقنا المكيّ لنا وقلت مبتسما : لطالما يتحدّث أهل مكة عن آثار الرسول فيها ؛ فلعلّك تفيدنا فى هذه الرحلة بمعلوماتك عنها . ولم ير الرجلُ فى حديثى هذا محلّا لدعابة بل قال : نعم ! فإن ما لدىّ من العلم بآثار مكة كثير وقفتُ عليه فى بطون الكتب ومتون التاريخ، ووفّقت غاية التوفيق فى بحثه وتمحيصه . وهل قصّة يشوق الإنسان بحثها ما تشوقه قصة الهجرة ، هذه القصة التى لم يرو التاريخ قط مثلها من أنباء المغامرة فى سبيل الحقّ والعقيدة والإيمان قوّة وروعة ! وجبل ثور وغار ثور يتّصلان بهذه القصة أبلغ اتصال . وجدير بكل ما اتصل بها أن يخلدُ على التاريخ . وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد أصبحت الهجرةُ مبدأ تاريخ لِذاتها ؛ فإنها فصَلت على الزمان بين عهد الوثنيّة والشرك بالله وعهد التوحيد القائم على أسمى الأُسُس الروحيّة والعقلية والخُلقيّة .

كان الرجل يلقى هذا الحديث وبيانه يتدفّق حماسة وإيمانا مع أنه لم ير ثورا ولا صعد إلى الغار فيه ؛ إنما دفع إلى قلبه هذه الحماسة وأفاض على لسانه هذا البيان إيمانه بالله ورسوله . ثم إن أهل مكة قد أَلِفوا الحديث عن آثار بلدهم المقدّس بلهجة تزيد المسلم حبًّا لهذه الآثار وحرصًا على رؤيتها ، وإن لم يكن المتحدّث من أهل مكة قد رأى أثرًا منها ، وإن أفضى إليك إذا خلوت إليه بأن التاريخ لا يُثبت من هذه الآثار إلا الكعبة والحرم والصفا والمروة وحراء وثورًا . فأمّا ما سوى ذلك فلا تنهض حُجة موثوق بها على صحة أنه المكان الذى ينسب إليه . وقال أحد الحاضرين وكان قد صعد ثورا إلى الغار من قبل :

— لولا قصّة الهجرة لما ذكر ثورًا ولا ذكر الغار الذى بأعلاه ذاكر . فهو واحد من الجبال الكثيرة التى تحيط بمكة ؛ ليس أرفعها وليس أبهاها ؛ وليس يمتاز عليها بشىء مطلقا من حيث طبيعته . والغار الواقع فى قمته لا يمتاز على أى غار آخر مما يرى الإنسان فى جبال الحجاز وفى جبل ثور نفسه . أمّا وقد لجأ الرسول ولجأ الصِّدّيق معه إلى هذا الغار وأقاما به ثلاثة أيام، كانا موقنين أثناءها بعثور الباحثين

عنهما من فتيان قريش بهما وقتلهم إياهما ، فقــد صار هــذا الغار علماً من أعلام التاريخ ومَنْسَكاً يحج إليه كثير من الناس ذكرًا لهذه الهجرة التى كانت مبدأ فتح الله لرسوله ، ونصر الله دينه ، وإعلائه كلمة الهدى والحق .

وأقلّتنا السيّارة صبح الغد حتى بلغت بنا سفح ثور . وهو يقع إلى جنوب مكة فى طريق المنحدر منها إلى اليمن ، وتقوم على جانبيــه إلى اليمين وإلى اليسار جبال مشابهة له كل الشبه ؛ مع ذلك لا يعنى أحد بأن يعرف اسمها لأنها لا تتصل بحادث من حوادث التاريخ .

والذهاب من مكة الى جبل ثور ميسور اليوم كما كان ميسورا من قبل للسائر على قدميه ؛ لكنه العِثار للسيّارات لكثرة رماله وتنقّل هــذه الرمال مع الريح تنقلا يتعذّر معــه بقاء طريق تمهّده الســيارات صالحا لسيرها فيه . ولقد غاصت بنــا الســيّارة غير مرّة ، فنزلنا منهــا وأعنّا سائقها على دفعها خلال الرمال أو على إزاحة الرمال من حول عجلاتها ، أو على رفعها إذا بلغ غوصها أن طمرت الرمال العجلات وجزءا من قاع السيارة الأسفل . وبَصُر بنا بعض الأعراب فى إحدى وقفاتنــا فأنبأنا أن الطريق التى نســير فيها كانت سويّة من أسابيع مضت ، وأن الطريق السويّة انتقلت إلى بعيد عن يميننا ، وأن من الخير أن يعدل بنا السائق إليهــا عند عودتنا . فلما سألناه عن المكان الذى نصــعد منــه ثورا أشار إلى بناء حقير على مقــربة منا . وبلغناه فألفينا جمــاعة من أهل المِنْطَقة جعلوا من هــذا البناء مَقْهًى يستريح فيه من يقصدون إلى الجبل ساعة صعودهم أو هبوطهم منه .

وما أظن أصحاب هــذا المقهى يُفيدون منــه إلا قليلا ، خلا ما يصيبهم من جود من يقصــدون ثورًا ومن لا يبتغون عندهم قهوة ولا شايا . فالأكثرون من هؤلاء يحملون معهــم قوت يومهم لأنهــم يمضون النهار بأعلى الجبل ؛ فاذا هبطوا كانوا أحْرَص على اللّحاق بمكة منهم على تناول الشاى أو القهوة .

بلغت بنا السيّارة هـذه البِنْيَة التى يتخـذها الناس علمـا يهتدون به الى موضع الصعود، فترجّلنا واتجهنا نحو الطريق الصاعد فى سـفح الجبل . وقـد خيّل الينا إذ رأيناه أن تَسَلُّقَهُ يسير وأنه أقل مشقة من الصعود فى حراء أو فى جبال الطائف . كذلك كان شعورى وشـعور الأصدقاء الذين جاءوا معى ، وكذلك قال لنا أهـل المنطقـة ؛ لذلك أقدمنا مقبلين على الصعود بنفوس مطمئنة وبال مستريح . ولم تكذب المقدّمات ظننا على رغم حر الشمس فى الضحى . ولم نر فى صعود السـفح عَنَتًا يصـدّنا عن المضىّ فى طريقنا أو يدعونا لنستريح الى ظِلّ صخرة ما لم ينل منا التعب . وصعدت ببصرى نخيّل إلىّ أننا صرنا على مقربة من القمة . فهذا الجبل الذى نتسلّقه قد أوفى على غاية ارتفاعه ، وهـذا الجبل الذى يبدو أمامنا بعيدًا عنا وأكثر من ثور ارتفاعا لا بدّ أن يكون فى سلسلة أخرى لا شأن لها بثور ولا بغاره . آن لنا إذًا أن نبلغ الغار وأن نطمئن الى مجلس عنده ريثمـا نعود اليه ليحدّثنا حديث الهجرة وينشر أمامنا ممـا طوى الزمن ما يفيض القلب بإجلاله وتقديسه . لكنّى ما لبثت حينما بلغنا هذه القمّة التى نتسلّق السفح اليها أن ألفيتها قمّة وسطا بين هذا السـفح الذى ارتقيناه وذلك الجبـل الذى كنت أحسـبه فى سلسلة أخرى أكثر ارتفاعا من ثور ، وأن ألفيت بين السفحين طريقًا ممهدا يسير الصاعد عليه وكأنه برزخ بين الجبلين . وهو يطلّ على سلاسل جبال أخرى كان السفح الأوّل يحجبها عن النظر، وعن جانبيـه ينحدر سفحان الى أودية لم أُعَنِّ نفسى بالسؤال ما اسمها، وأنا فى شُغل بهذا الجبل المنقسم الى جبلين وتسلّقه .

فلما اجتزنا الجسر الممهد إلى السفح من بعده سألت أصحابى : أليس بعده سفح ثالث قبـل الغار ؟ ونفى أصحابى وأكّدوا أن الغار فى قمة هـذا السفح . وبدأت أتسلّق كرّة أخرى، فاذا طريق التسلّق وعر لا يُقاس طريق حراء إليه فى وعورته . كنت أرانى مضطرا الى الاعتماد على ساعدىّ أرفع جسمى كلّه بهما أحيانا لتخطّى مضيق فى هذا الطريق لا أجد وسيلة إلى تخطّيه غير هذا الاعتماد، وكنت أزحف أحيانا أخرى معتمدًا بيـدىّ على جدار الطريق من صخور الجبل مخافة الانزلاق .

فاذا أعياني الجهـد آعتمدت بظهري على صخرة ذات ظِلٍّ حتى تهدأ أنفاسي . ولن يبلغ مني الإعياء أن يصـدّني عن غايتي من بلوغ الغار ما دمت قد فرضتُ بلوغه . فالإرادة الصادقة أقوى من كلّ مشقة في الحياة . فاذا عزّز الإيمانُ الارادةَ وقلتَ للجبل آنتقِل من مكانك آنتقل . وما مشقّة الصعود الى ثور وهاهم أولاء أبناء المنطقة يهرعون اليه ويجرون في مسار به ومزالقه خفافًا كأنهم القطا ، ما ينوء أحدهم بشيء ممـا أنوء به ؛ فاذا آتجهت بإرادتي الى بلوغ الغار فأجهدني ذلك فانما يجهدني أنني استنمت من الحياة الى الراحة في الحياة ، ناسيا أن الراحة سبيل التعب ، كما أن التعب سبيل الراحة بل سبيل النّعمة في الحياة بخير ما وهبنا الله من أنعم الحياة .

بهـذه الإرادة تقدّمت في ارتقاء الجبل لا ينال الجهد الذي ألقاه من عزيمتي ولا يفلّ التعب من قوّتي . كنت أتصبّب عرقًا فأستند الى الصخر وأمسح بمنديل عرقي وأعود فأتقدم مجتازا من الطريق أشـدّه وعورة . وكنت أجد أمامي من أسباب الانزلاق وخطره مالا أتردد في التحايل عليه وتخطّيه . وتعرّضت صخرة مقوّسة أنت في اجتيازها بين تسنّمها وقد تهوِي بك ، والانحناء للمرور من تقوّسها وقد تهوى عليك ؛ فانحنيت ومررت غير عابئ . هذا وأشعّة الشمس مسلّطة علىّ منذ بدأت الصعود تزيدني جهدا ، وتزيد عرقي تصبّبا . وإني لكذلك إذ اسـتدار الطريق الى ناحية الغرب ، وآحتجبت بذلك عنّي أشعة الشمس ، وأويت الى صخرة جلست عليها أستريح كيما تهدأ أنفاسي .

وبينا أجلس قال صاحبي الذي يتقدّمني : هذا هو الغار ، فلم تبق إلا خطوة لتبلغه . وعدت أسير والطريقَ ، ثم رفعت بصري الى مصدر الصوت فاذا صاحبي معتمد في موقفه على صخرتين متقابلتين ، واذا به يشير بيده أن هَلُمّ . لكن الطريق زَلِقٌ والحذاء الذي ألبسه لا يستقر عليه ؛ فلأَلجأْ مرّة أخرى الى الاعتماد بساعِدَيّ فوق الصخور ، والاعتماد على قوّتهما في رفع جسمي . وفعلت ، فلم أتقدم إلا قليلا ، عنـد ذلك انحنى صاحبي وأدنى يده منّي وطلب إلىّ أن أعتمد عليها في صعودي ،

ومددت اليه يدا مسّها الجهد وآذاها مسّ الصخور، ولم يجنح الى قوة يعيننى بها، فقد طفرت اليه فوق الحجر الزّلق طفرةً كنت بها الى جواره . وصنعت صنعه فاعتمدت بقدمىّ على الصخرتين المتقابلتين وأمسكت بيدى صخرة ألفيتها معلقة فوق رأسى .

هأنذا أمام فوّهة الغار الذى احتمى به النبىّ العربىّ من كيد أعدائه حين أذن الله له فى الهجرة من مكة الى يثرب، أُمسك أنفاسى على شدّة اضطرابها فى صدرى لأحدّق فى داخله علّنى أرى السرّ العظيم الذى يستجمّ منذ أربع وخمسين وثلاثمائة وألف سنة فى مهابة ظلمته . ووقفت حيث أنا مشدوها مأخوذا لا أدرى أأتقدّم لخطوة الأخيرة فيما بعد فوّهة الغار الى سطح القمة أتفيّأ ظِلَّ صخرة جاثمة تقوّست فوقها تحميها من لظى الشمس أوقات الهاجرة ، أم أظل حيث أنا ممسكة يدى بالصخرة حتى لاتنزلق قدمى، محدّقا من فوّهة الغار فى داخله ، أم أدخل الغار لأقيم حيث أقام الرسول عليه السلام فى أدقّ الساعات التى مرّت به منذ بعثه الله نبيا وهاديا ورسولا ؟ وكنت أشدّ شوقاً للدخول الى الغار والمُقام به ما استطعت ، لولا أن حال زَلَقُ الصخور حيث أقف دون تنفيذ هذا العزم لساعتى ، رغم جهد أنسيته أمام جلال المشهد العظيم .

وخطوت الى القمّة وتفيّأت ظلّ الصخرة قبل أن يدركنى أكثر أصحابى الذين تسلقوا الجبل معى . ولم تكن القمة فسيحة الأرجاء، فربّما لا يتجاوز الثلاثين مترا ، لكنها كانت ذات بهجة بظلّها وبالصخور المحيطة بها والتى تجعل منها بهواً تستريح النفس اليه ويطيب لها المقام به .

فلمّا هدأت أنفاسى تناولت شربة من الماء،ثم قمت أدور حول الصخرة ومعى منظارى، فشهدت مكة والحرم، وشهدت ما وراء مكة الى حد الأُفق ، وشهدت الجبال بين ثور ومكة يتلو بعضها بعضًا ولا تستبين العين ما بينها من الطرق .

هذه إذًا أمّ القرى التى أخرجت محمدا منها لأنه دعا الى الحقّ أهلَها ؛ وهذا البيت الحرام الذى أقامه إبراهيم وإسماعيل مثابةً للناس وأمنا يتوسّطها وينفس

عنهـا ؛ وهذه البادية الفسيحة الممتـدة أمام النظر الى غاية الأفق تدعونى أرجاؤها الى التأمل و إلى الأناة والى تدبّر مافى الكون من حاضر أمام نظرنا ومن غيب نتوسّمه ولا نعلمه؛ فليس يعلم الغيب الا الله عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

وأدركنى أصحـابى وجلسوا يتفيّـئون ظلّ الصخرة ، وجلست اليهم ، وتناولنا الشاى إذ كنّا نتنـاول بالقول انصراف المسـلمين عن زيارة هـذه الأماكن اتقاء المشقة وخوف ما يذكرونه عن بطش العرب فى المـاضى بمن ينقطع عن قافلتـه . وجعل القوم ينصرفون واحدا بعد واحد ، يقصد أحدهم إلى الغار ، ويدور الآخر حول الصخرة ، ويلتمس ثالث مسالك الجبل فى غير الناحية التى صعدنا منها . فلما اطمأننت الى وحدتى فوق القمّة عدت بذهنى الى الليلة التى هاجر فيها الرسـول ، فرأيته قائمـا صَدْرَ الليـل فى داره يعبـد ربّه ويتـلو كتابه ، ورأيت أبا بكر بداره فى طرف آخر من مكة لا يطرق النوم جفنه ولا يدرى ما الله صانع به . لقـد أسرّ محمد اليـه أن الله أذِن لهما فى الهجرة ، فمتى تكون ؟ وكيف تكون ؟ إنه أعدّ راحلتين تحملانهـما من مكة الى يثرب ؛ لكنهما لن يخـرجا بأعين النـاس والناس لمحمد بالمرصـاد وقد ائتمروا به ليقتلوه ؛ والليـلة موعده من الرسول فلينتظره وليصـبر ، إن الله مع الصابرين. وهذا علىّ بن أبى طالب فى دار محمد قد تسجّى برده الحَضرمىّ الأخضر ونام حيث ينـام ابن عمه مبلبل النفس منـذ أسرّ اليه أن ينتظر بمكة بعد مغادرته إياها حتى يؤدّى ما لديه من ودائع للنـاس . وهؤلاء فتيان قريش بالباب وحول الدار ينظرون لعلهم يصيبون من محمد فرصة يفتِكون به فيها فتكة رجل واحد حتى يضيع دمه بين القبائل . والليـل يُردف أعجازا وينـوء بكلكل فيأخذ هؤلاء الفتيـانَ غمض ليس بالنوم ولكنـه أدنى إلى الأرق . ويخـرج محمد من داره الى دار أبى بكر فلا يراه منهم أحد ولا تقع عليـه عين ، ويُلفى أبا بكر فى انتظاره أشدّ ما يكون شوقا الى هـذه الساعة التى يهاجر معه فيها بأمر ربّه .

نحن الآن فى ساعة الهجود قُبَيل الفجر ، فليس بمكة همس ولست تسمع فيها ركزا ، والرجلان يسريان متجهين الى أقرب مخرج من مخارج مكة صوب الجنوب ،

لا ينبس أحدهما ببنت شفة ولا يُحس مسراهما أحد. هاهما ذان الآن قد خرجا بين الجبال ، وآن لهما أن يخرجا من صمتهما ليُسِرّ محمد الى صاحبه أنهما فى الطريق المستقيم الى ثور . ويلزمان الصمت كرة أخرى وإن أيقنا أنهما صارا من العيون بمنجاة ؛ فليس يدور بوهم أحد أنهما اتخذا وجهة اليمن بعد أن هاجر المسلمون قبلهما الى يثرب ؛ ومحمد مستغرق أثناء مسيره فى التفكير ، فما يكاد يحس وجود أبى بكر الى جواره ؛ ويتلفّت ملتمسا إيّاه فاذا هو يسير خلفه ، فينتظره حتى يكونا كتفا الى كتف ؛ ويعود محمد الى تفكيره ، ثم يلتمس صاحبه فاذا هو قد سبقه يسير أمامه ؛ والجبال حولهما تشهد مسراهما وحيدين حيث لم يسْرِ قبلهما فى مثل هذه الوحدة أحد . ويفطن محمد الى أبى بكر يسير تارة خلفه وطورا أمامه ، فيعجب ويسأله فى ذلك ، فيجيبه صاحبه : يارسول الله ، أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك . ويبتسم محمد وتُفعم قلبه المسرّة لإخلاص صاحبه ويسأله : ياأبا بكر ، لو كان شىء أحببتَ أن يكون بك دونى ؟ ويجيب أبو بكر فى حماسة : نعم والذى بعثك بالحق ! . وترتسم على مُحيّا محمد سيما الغبطة ، ويظلّ فى انطلاقه هو وصاحبه الى غايتهما يسعدهما نسيم الليل الرقيق حتى يبلُغا أسفل ثور ثم يندفعا اليه يصعدانِه . وما كان لهما أن يتخوّفا من التّصعيد مشقة أو عَنَتا وهما من أبناء الجبال ، قد ألِفا خشونة العيش وألِفا فى المشقّة النعماء المستعذبة .

ما أبهى هذه الصورة وما أعظم روعتها فى نفسى ! لقد انتشرت أمام ذهنى وأنا فى مجلسى من القمّة فتعلّق بها قلبى ونقشت فيه نقشا . إن كثيرا ما يسرى رجلان أو تسرى قافلة جوف الليل فى هذا الطريق طريق اليمن أو فى طريق غيره ، وقد يكون لصورة هؤلاء السُّراة جمالها وعذوبتها ، لكنه جمال مادىّ وعذوبة فنية ؛ فأمّا هذان الرجلان اللذان يسريان ، وقلبهما مفعم بجذوة الإيمان المقدّسة ، فرارًا بإيمانهما الى الله ممّن يأتمرون بمحمد ليقتلوه ، فلمسراهما فى النفس صورة أخرى ؛ صورة روحيّة بالغة غاية السمّو ؛ صورة من يستهين بالحياة ومتاعها ، ومن لا يمسك

عليها إلا حرصًا على الحقيقة أن يبلغها الناس ، وأولهم المؤتمرون به ، وإن ناله فى تبليغها الأذى وأصابه العذاب .

وبلغ الرجلان الغار ، فتقدم أبو بكر فاستبرأ المكان مما حوله ، ثم استبرأ الغار مخافة أن يكون به ما يؤذى الرسول . وصلى الرجلان شكرًا لربهما ، ولجأا إلى الغار يحتميان به ويستريحان فيه من مشقة يومهما .

بلغتُ هذا الموضع من الصورة الذهنية التى ارتسمت فى نفسى إذ عاد صاحبى الذى لزمنى فى صعودى وأعاننى فيه . فلما رأيته لم أمهله أن قلت له : هَلُمَّ بنا إلى الغار نلتمس الدخول اليه . قال : خير لك أن تدور حوله وأن تدخل من صغرى فوهتيه ؛ فالدخول منها آمَنُ عثارا وإن لم يكن أشدّ يسرا . ودرت ودخلت ووقفت ما أتاح سقف الغار لى أن أقف ، واطمأن صاحبى الى سلامتى فتركنى ومضى . وتلفتُّ فيما حولى ثم طاب لى أن أجلس فجلست . جلست فى شبه الظلمة التى تشتمل كل ما فى الغار ، ونظرت الى فوهته الكبرى وأسفت كما أسف غيرى أن اجترأ أمير من أمراء المسلمين فأوسعها عن حسن نية لييسّر الدخول لمن أراد . وهذه الفوهة الكبرى مستديرة يبلغ قطرها مترا أو نحوه ، أما الفوهة الصغرى فلا تبلغ نصف مساحتها . فإذا آستوى الإنسان فى الغار رأى سقفه يرتفع إلى حيث يستطيع أن يطمئن إلى مقامه فيه طمأنينة العابد المنقطع إلى ربه فى خلوته .

جلست مكانى وحيدا ممتلىء النفس من هيبة هذا الغار الذى أوى اليه رسول الله وصاحبه نجاةً بنفسيهما من قريش الظالمين . ومحت ظلمة الغار آية الزمن أمام بصيرتى وتمثّل لى اللاجئ العظيم فى مجلسه هنا بهذه البقعة متوجّها بكل قلبه إلى ربه يناجيه ويدعوه أن يصرف عنه كيد عدوّه . وينقضى النهار وهو فى مناجاته ودعواته وصلواته مطمئن إلى ربه واثق من نصره ؛ وصاحبه إلى جانبه مطمئن بطمأنينته . أما قريش بمكة ففى حيرة من أمرها كيف استطاع محمد الفرار ! . فهى فى حوار دائم تلتمس الرأى للعثور به وقتله . وعبد الله ابن أبى بكر يقف على

ما يأتمرون ويدبِّرون . وكان عبد الله قد عرف من أبيه حين الهجرة من مكة أنه سيلجأ مع النبي الى غار ثور ، فكان إذا جنّ الليل ينطلق الى الغار فيقص على محمد وعلى أبيه ما رأى وما سمع . وينطلق عامر بن فُهَيْرة مولى أبى بكر بأغنامه فينال الرجلان من ألبانها ولحومها طعام يومهما ، ثم يعود عبد الله بن أبى بكر ويعود عامر بالقطيع وراءه ليعفّى على أثره ، ويعود اللاجئان الى عزلتهما بالغار والله معهما يسمع ويرى .

وقريش ما تنفك تأتمر وتدبِّر . فقد ذهب فتيانها الجُلَداء الموكلون بمحمد وقتله الى كل ناحية مما حول مكة : ذهبوا الى الشمال حاسبين أنه مسارع ليلحق بمن سبقه من أتباعه المسلمين الى يثرب فلم يقفوا له على أثر ؛ وشرّقوا وغرّبوا وتيامنوا وتياسروا وقصّاص الأثر يحاولون أن يعرفوا أى طريق سلك فتذهب محاولاتهم هباء . فليذهبوا إذًا إلى الجنوب من ناحية اليمن ، وإن كان سلوك محمد هذا الطريق مما لا يرد بالخاطر . وذهبوا إلى الجنوب وتسلقوا من الجبال ما تسلّقوا وصعدوا ثورًا واقتربوا من الغار الذى أوى الرجلان إليه ، وكانوا مع ذلك لا يميلون الى الظن بأنهم سيصادفون من النجاح فى الجنوب أكثر مما صادفوا فى غيره من النواحى . وكان على مقربة من الغار راع لم يلبثوا حين رأوه أن سألوه : هل رأى محمدا أو أبا بكر؟ وهل عرف أين ذهبا ؟ وأجاب الراعى :

— قد يكونان بالغار وإن لم أر أحدا أمّه .

وسمع الرجلان هذا الحديث وسمعا وقع أقدام الفتيان وهم يتقدّمون إلى ناحية الملجأ الذى تحصّنا به . وسرت رِعدة الخوف فى عروق أبى بكر لما سمع ؛ فأمسك أنفاسه واقترب من محمد وألصق نفسه به وقد أيقن أنهما مأخوذان لا محالة بالتلابيب فسوقان الى مكة أو مقتولان دونها . أمّا محمد فبقى فى سكينته ملتزماً الصمت متوجِّها بقلبه إلى ربه واثقا من أنه لن يصيبه أو يصيب صاحبه مكروه . وتقدّم أحد الفتيان حتى كان عند فوهة الغار ؛ فلو أنه حدّق بعينيه اللتين اعتادتا الأبعاد

واعتادتا الظلام لرأى الرجلين ولنادى أصحابه فأمسكوا بخناقهما . وبَصُر به أبو بكر فتصبّب من شـدّة خوفه عرقا وازداد بالرســول التصاقا . ولم تزايل محمدا سكينته ولم يزايله اطمئنانه إلى ربه . ودار الفـتى حول الغار وتلفّت يمنةً ويسرةً، ثم عاد أدراجه . وسأله أصحابه : ما لك لم تنظر فى الغار ؟ فهزّ كتفيه وأجاب : إن عليه العنكبوت من قبل أن يولد محمد .

تمثّل لى هذا المشهد كلّه وأنا مكانى بالغار، وبلغ من امتثالى إياه أن كدت أسمع حديث المطاردين مع الراعى وأرى الفتى كما كان يراه أبو بكر؛ وآمتلأ قلبى رعبا من هول ما أرى وأسمع، وشعرت بصيحة تكاد تنطلق من صدرى وتنفرج عنها شفتاى وكأنى أُهيب مستغيثا بالذين يطاردوننى : على رِسْلِكم ! فهأنذا مسلمكم نفسى ورِفقًا ثم رِفقًا ! . وما عسى أن أصنع وهــذا الفتى مدركى ثم قاتلى لا محالة ! . فلعل لى فى التضرّع والاستغاثة من الموت منجاة . وإن أنا نجوت بعد هذه المغامرة فمن ذا يلومنى على الإذعان . هــذا منطق إنســانىٌّ لا غبار عليه . لكن الفتيان الجُـلَداء لا يطاردوننى بل يطاردون محمدا عبد الله ورسوله . ومنطق محمد ليس كمنطقنا؛ لأن روحه ليس كروحنا وإن كان بشرًا مثلنا . وخيِّل إلىّ أنى انتحيت ناحيــة من الغار وأنى أشهد فيه محمدا وصاحبه . ما أشدّ أبا بكر جزعا ! ها هو ذا يرتعد كأن به الحمّى، وها هما تان شفتاه تتحرّكان كأنما يريد أن يقول شـيئا . أمّا محمد فأحيط بهالة من جلال أفاء الله بها عليه سكينته، فليس يهتز لشىء ممـا حوله، وكأنما يطارد الفتيان شخصا غيره . وطال بى ما أرى، ثم تحرّكت شفتا أبى بكر فهو يهمس فى أذن صاحبه: "لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا" . وأسرّ الرسول فى أذنه : "يا أبا بكر ماظنّك فى رجلين الله ثالثهما"! وفى هنيهة أضاء وجهه نور لألاء ثم تحرّكت شفتاه بما أسمع أبا بكر قوله : « لا تحزن إن الله معنا » .

ووجمت حين سمعت هذه الكلمة وحدّقت فى معالم أبى بكر فإذا به زايله الروْع وعاودت السكينة نفسه . ومم عسى ان يخاف والله معه ! . إن الفتيان ليتحاورون على

مقربة من الغار، ثم يحاول بعضهم أن يتقدم نحوه ؛ فيردّهم صاحبهم الذى دار حوله ويدعوهم أن ينتشروا فى أنحاء الجبل لعلهم يلقون نجاحا . ويسمع أبو بكر هذا الحوار فلا يعاوده شىء من الروع الأول ولا تزايله سكينته لأنه أنِس إلى صاحبه وأنِس إلى ربه . ويتقدم هذا الفتى الذى رآه أبو بكر منطلقا إلى شِعاب الجبل ويتبعه أصحابه ، وتبعد بهم خُطاهم عن هذا المكان حتى لم يبق من أثرهم نبأ ، فيتنفس أبو بكر الصُّعَداء، ويصيح رسول الله : "الحمد لله الله أكبر" .

آن لى أن أدع مجلسى بالغار بعد أن رأيت هذا المشهد التاريخى الفذّ فآمتلأت نفسى من رؤيته الى غاية ما تمتلئ النفس مهابة ورهبة . هذان رجلان يواجهان الموت ولا يخافانه ثقةً بأن الله معهما ؛ والله مع من وثِق به ؛ ومن لم يخف الموت فى سبيل الله عنت له الحياة فملك زمامها . أيّة نفس مطمئنة هذه النفس الكبيرة التى لا تعرف غير الله ولا تثق إلّا به ولا تخشى شيئا فى سبيله ! وأيّة أسوة أكبر من هذه الأسوة يضربها النبىّ العربىّ للناس فى جميع الأمم ليعيشوا أعزّة كراما ، فيعيشوا بذلك كما يجب أن يعيش الإنسان ، وكما أمره الله أن يعيش ما أبقى له الأجل على حياة ! .

وخرجت من الغار الى القمة، فألفيت أصحابى جميعا يستريحون الى فيئها . وتناولنا أقداح الشاى وقصصت لهم بعض ما مر بخيالى وأنا بالغار . قال أحدهم : وكيف تمثّل لك موقفهما بعد آنصراف الفتيان عنهما الى أن غادرا ملجأهما؟ كم أقاما بالغار بعد ذلك : يوما أو بعض يوم أو أكثر أو أقل ؟ فكُتب السيرة لا تحدّثنا عن ذلك فيما قرأت ، وكل ما تحدّثنا عنه أنهما أقاما بالغار ثلاثا حتى خمدت عنهما نار الطلب؛ فلما سكت الناس عنهما أتاهما عبد الله بن أرَيْقط ببعيريهما اللذين استأجرا وببعير له فسلك بهما إلى يثرب طريقا غير الطريق الذى ألِفه الناس ؛ أفما دار بخاطرك كم مرّ بين آنصراف الفتيان ومجىء الإبل؟ .

لم أكن قد فكرت فى هذا ولا عُنِيت به . ولست أدرى هل فكر غيرى فيه . لكنى مع ذلك أجبت : أحسبهما لم يطل بهما المكث بالغار بعد أن مرّت بهما

هذه الساعة العصيبة التي تمثلت لي وأنا به . فهؤلاء الفتيان لم ينحدروا الى الجنوب ميممين ثورا حتى بدا لهم اليأس أن يجدوا محمدا فى غير الجنوب من النواحى . فلما عادوا من بحثهم بخُفّى حُنَيْنٍ أدرك اليأس قريشا وألقت سلاحها . وما لبث عبد الله بن أبي بكر حين رأى ذلك أن أخبر به النبيّ وصاحبه . وأكبر ظنى أن ذلك حدث أمسية اليوم الذى عاد الفتيان بالخيبة فيه إلى أهلهم بمكة، وأن عبد الله استصحب أخته أسماء وأسرّ إلى ابن أريقط أن يتبعهما مَلْثَ الظَّلامِ[1] ، وأن هؤلاء جميعا التقوا قبل الفجر بأسفل ثور . فلما تحمّل محمد وأبو بكر وسارا فى طريقهما ميممين الشاطئ، عاد عبد الله وأخته إلى مكة ولم يفطن الى عودتهما أحد .

لم يعن أكثر الحاضرين بالإنصات الى هذا الحديث، ولم يعنهم أن يكون الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام قد ترك الغار بعد انصراف الفتيان عنه بساعة أو بيوم أو بثلاث ليال . حَسْبُهم أنه صلّى الله عليه وسلم لجأ الى هذا الغار، وأن الله تعالى يقول فيه : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . وحسبُهم ما جاء فى كتب السيرة من معجزة العنكبوت والشجرة والحمامتين . وما عسى أن يجدى هذا البحث الذى دفع بي اليه صاحبهم ! وأيّة فائدة للتاريخ أن يكون اللاجئان قد نزلا من الغار بعد يوم أو يومين من خروج القرشيين للبحث عنهما ! هذه محاورات لا تقدّم ولا تؤخر، وقد تؤدّى ببعض أدعياء العلم الى التجديف باسم التنقيب والبحث تجديفا مصدره الهوى ومبعثه الخيال السقيم .

وكأنما أراد أحد أصحابنا أن يظهر برمه بهذا الحديث ، فالتفت الى أحد الأعوان ممن معنا وطلب إليه أن يسير معه الى الغار ليدخله فيصلّى ركعتين فيه، وتركنا وذهب لأداء هذه السنّة المستحبة . فقد شعرت حين أديتها بفيض من الرضا

(١) ملث الظلام : اختلاطه .

يغمرني طمأنينة منّى إلى أنني أصلّي حيث صلّى رسول الله. وشعرت وشعر من وجّه الحديث الىّ ما فى عمل صاحبنا من معنى الاحتجاج على حوارنا، فأمسكت عن القول خشية أن يكون هــذا الذى احتج معبرًا عن رأى أصحابنا الآخرين الذين لم يظهروا من التبرم ما أظهر إكرامًا لى . أمّا من وجّه الحديث الىّ فـلم يعبأ بشىء من هذا، ولعله لم يفهم منه ما فهمت؛ فقد وجّه الىّ الحديث كرّةً أخرى ينبئنى أن غارا غير هــذا الغار الذى زرته ويزوره الناس يقع على مقربة منّـا بين القمة والغار المأثور ويسألنى : لم لا يكون هذا الغار هو الذى أوى الرسول اليه ؟

كان جوابى عن سؤاله أن قمت إلى هذا الغار الآخر مع شابّ كان معنا والتمست إليه مدخلا . ونادانى الشابّ من داخله ، ولم أعرف كيف سلك اليه سبيله ؛ ثم رأيته تمتدّ يده من فرجة ضيّقة لا سبيل الى الانزلاق منها، فذكر لى أن بالجانب الآخر منــه فرجة أكثر سـعة وأيسر سَرَبا . واستلقيت على ظهـرى ودلّيت ساقىّ وأنزلقت شيئا فشيئا حتى احتوانى هذا الوكر الضيق الموحش. وخرج الشاب وتركنى أمتحن الرمل الذى يعـلو قاع هذا الغار وأدور بنظرى فيـه وما أكاد أستوى الى جلسة أستريح اليها كما فعلت فى الغار الأوّل . ولم يكن خروجى من هذا الغار دون دخولى اليه عسرا ومشقة .

وألفيت صاحبنا الذى دلف الى الغـار المأثور فصـلّى به جالسا فوق القمّـة فى ظل الصخرة مع سائر الرفاق . وبادرته بالتحية أن يتقبّل الله منـه صلاته حيث صلى الرسول عليه الصـلاة والسلام ؛ وتمنى أن يتقبّل الله منه ومنى . وسألنى الذى يحاورنى عما رأيت فى الغار الآخر، وهل يسيغ العقل أن يكون هو الغار الذى أوى اليه الرسـول دون الغـار الأوّل ؟ ولم يكد يتم كلامه حتى رأيت الذى صلّى بالغـار المأثور قد امتقع لونه وظلّل الغضب وجهه وانطلق فى حدّة يقول :

— ما هــذا الكلام الذى لم يسمع به ولم يجـرؤ على قوله من قبـلُ أحد! إن الأجيال المتعاقبة منذ عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام لتحدّثنا بأن هــذا

الغار الأول هو المأثور عنه صلى الله عليه وسلم أنه لجأ اليه وأنه هو الذى نزل فيه القرآن ، فما هذا التشكيك فيه ياشيخ ... ؟!. أوَ قرأت فى كتب السِّيرة أو فى كتب الحديث ما يجعل لقولك شبهة من الحق حتى تفكر فيه ؟!

وخشيت مغبّة هذه الحدّة أن يضاعفها الجواب عليها فقلت :

— فضلا عن أن الغار الأول هو المأثور فكل الدلائل تنهض حجة على صحة الأثر ، وتدلّ على أن الغار الآخر لا يمكن أن يكون ملجأ للاجئ سويعات من زمان . فهو على ضيقه وانخفاض سقفه أدنى الى القمة وأيسر لذلك أن يُكتَشَف . وما دام الغاران متقاربين والاتجاه الى المأثور والمقام به ثلاثة أيام أدنى الى العقل فلا موضع لشبهة يثيرها إنسان بحجة الدقة والتمحيص أو بأيّة حجة أخرى .

تخطت الشمس للزوال وآن أن نحدر إلى مكة . ولم نكن قد جئنا بطعام يقيمنا طول يومنا ، وقد أوفى الماء والزاد الذى معنا على النفاد . لكن مجلسنا إلى ظل الصخرة فوق القمة لذيذ حقّا ، والنظر منه الى مكة وما وراءها من فسحة البادية بالغ من الجمال ما تودّ العين منه كل مزيد . أوَ ليس من الخير أن نبقى الى المغيب ؟ إننا إذًا لنتقى شدّة القيظ وما تُرهقنا إياه من ضيق حين انحدارنا ، ثم إننا إذًا لنستمتع من هذا المنظر الساحر بما يزيده ساعة الشفق سحرا .

أفضيت إلى أصحابى بهذا الذى رأيته ، ووَدّ غير واحد منهم لو نقيم الى مابعد المغيب ، وذكّرنا يوم حراء وهبوطَنا منه إقبالَ الليل وجمالَ الشفق على هذه الجبال الكثيرة المتتابعة حول جبل النور . والجبال التى تحيط بثور أكثر عددا وأعظم ارتفاعا.

لكنّ أصحابنا اعتذروا بأعمال لدى بعضهم لا سبيل الى أن تؤجّل . وهبطنا من الجبل وأنا أجد فى الهبوط أكثر مما أجد فى الصعود من مشقة . وإنى فى ذلك لعلى خلاف الناس جميعا إلا من كان مثلى . فصعود السلّم أسهل لى من هبوطه . وارتقاء الجبل لا يزعجنى ؛ لكن الانحدار منه يحدث لى شيئا يشبه الدُّوَار . وأنا أتقيه بأن أحصر نظرى بين قدمىّ حتى لا يقع على الهاوية أمامى أو عن جانبى . وبلغنا

المقهى عند أسفل السفح ، فإذا أصحابى سبقونى اليه وٱستراحوا به . فلما رأونى قاموا الى السيّارة فأقلّتنا الى الدار .

لقد كان لقصة الهجرة فى نفسى من المهابة أكبر نصيب ؛ ذلك كان شأنى منذ نعومة أظفارى ؛ لكنى منذ صعدت ثورًا ودخلت الغار وتمثّل لى به ما تمثّل لى ، قد صرتُ أشدّ لها إكبارا و إجلالا . وهأنذا قد تركت مكة وسافرت إلى نواح من الحجاز مختلفة وعدت إلى مصر وقمت بأسفار أخرى ، وما أزال كلما ذكرت ثورا والغار المجاور لقمّته ذكرت قصة الهجرة فٱمتلأت نفسى لها مهابة ورهبة .

أخطأ الذين يحسبون فى حياتنا المادية سبب سعادتنا أو سبب قوتنا ؛ إنما سعادتنا وقوّتنا فى حياتنا النفسية . لنكن طلقاء فى البادية او حبيسين فى الغار أو حيثما شئنا من أرض الله ، فنحن سعداء ونحن أقوياء بإرادة الله و إرادتنا ما وهبنا نفوسنا لله وفى سبيل الله نريد غاية سامية نحققها لإخوتنا بنى الإنسان . وهذا بعض ما يدعو محمد اليه حين يقول : ” لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه “ .

هذه بعض العبرة فى ذلك الغار وقصته . وقصة الهجرة أكبر عبرة لقوم يعقلون .

ظاهر مكة

كان وادى مكة خاليًا إلا من بعض مضارب الخيام حين أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ولما جاءت جُرْهُم ثم خُزاعة فأقامتا بالوادى، ثم لما تزوج إسماعيل من جرهم، لم يُقِم أحد منهم جوار بيت الله بيتًا غيره ، بل تركوه قائما يطوفون به أثناء النهار وزُلَفًا من الليل، فإذا جَنّهم الظلام ذهبوا إلى الحِلّ فقضوا ليلهم فيه . كذلك تجرى الروايات إذ تقص تاريخ مكة . وتزيد الروايات من ذلك أن قُصَيًّا، الجدّ الخامس للنبيّ، لما اجتمع له أمر مكة وأصبح الأميرَ المطاع فيها جمع قريشا وأمرهم أن ينشئوا الدور فيها وأن يقيموا حول البيت ما شاءوا . وبنت قريش دورها حول الكعبة ، فلم يتركوا خاليا إلا مكان الطواف بها ، وتركوا بين كل دارين طريقا ينفذ منه إلى المطاف، وسبقهم قُصَيّ إلى البناء فى جوار الكعبة، فأقام دار النَّدْوة لأهل مكة جميعا يجتمعون فيها يتحدّثون ويتشاورون ويعقدون العقود ويتمّون من أمورهم كل ما يريدون إتمامه .

أين كانت حدود الحرم أيام جُرْهُم ؟ وأين كان هذا الحِلّ الذى يذهبون للمبيت به حتى أمر قصىّ بالبناء بالحرم ؟ يتعذّر اليوم تحديد ما كان ذلك عليه فى الأيام الخالية . وإن قوما ليذهبون إلى أن الحرم قد كان محصورا إذ ذاك فى حدوده المعروفة اليوم، والتى تعينها الأعلام القائمة على منافذ أُمّ القرى . وهذه الأعلام قائمة اليوم فى خمس جهات تحيط بمكة من نواحيها جميعا . فثَمّ علمان عند الحُدَيْبية، وهى التى يطلق عليها اليوم الشُّمَيسى فى طريق القادم من جدّة إلى مكة، وعلمان عند التَّنْعيم فى طريق القادم من المدينة إلى مكة ، وعلمان عند الجِعْرانة فى طريق القادم من العراق ، وعلمان عند عَرَفة فى طريق القادم من الطّائف ، وعلمان عند أضاءة فى طريق القادم من اليمن . والأعلام التى يشهدها الإنسان اليوم أحجار مُتقنة النحت ترتفع عن الأرض قُرابة متر وتقوم متحاذية على جانبى كل طريق من

هذه الطرق . وتختلف أطوال المسافة من الحرم إلى كل واحد من هذه الأعلام . فعَلَمَا الحديبية يقعان على نحو عشرين مِيلا من المسجد الحرام، وعَلَمَا التنعيم يقعان على نحو ستة أميال منه، وعلما الجِعْرانة يقعان على مسافة ثلاثة عشر ميلا، وعلما عرفة يقعان على ثمانية عشر ميلا، وعلما أضاءة يقعان على اثنى عشر ميلا . فأمّا ما يجيء وراء هذه الأعلام إلى مواقيت الحج فذلك هو الحِلّ، ومن وراء الحل تمتدّ الآفاق إلى أقصى الأرض فى مختلف بقاعها وقارّاتها .

يذهب قوم إلى أن الحرم كان محدودا من عهد جُرْهُم بالحدود القائمة هذه الأعلام عندها ؛ بل يذهب بعضهم إلى أن إبراهيم عليه السلام هو أول من نصب الأعلام تعظيما للبيت وتشريفا . ويقول آخرون : إن إسماعيل بن إبراهيم هو الذى نصب هذه الأعلام . ويذهب قوم إلى أن قُصَيًّا هو الذى عيّن هذه الحدود حين أمر بالبناء حول الكعبة . ويقال إن عدنان أول من وضع أنصاب الحرم، وإن قريشا نصبتها بعد ذلك فى عهد النبيّ وقبل هجرته من مكة . وفى قول يرجحه بعضهم أن النبيّ وضع حدود الحرم عام الفتح ونصب الأعلام حوله، ثم نصبها عمر ابن الخطاب، ثم عثمان بن عفّان، ثم معاوية بن أبى سفيان، ثم عبد الملك بن مروان، ثم المهدىّ العباسىّ . وقد أمر جماعة من الملوك والأمراء بتجديد هذه الأعلام بعد ذلك. وأحدث ماتذكره الكتب من تجديدها أنه كان فى سنة ٦٨٣ هـ بأمر المظفر صاحب اليمن . والحالة التى عليها الأعلام اليوم تدل على أنها جدّدت بعد ذلك غير مرة وأنها لا ترجع إلى أكثر من بضع عشرات من السنين .

فيما بين حدود الحرم ومواقيت الحج يقع الحل . وليس بين أعلام الحرم ومواقيت الحج أبعاد نائية إلا فيما بين مكة والجُحْفة، وفيما بين مكة وذى الحُلَيفة. وتقع ذو الحليفة بظاهر المدينة ، وهى ميقات أهل المدينة ؛ منها أَحْرَم الرسول وأصحابه حين خرجوا الى عمرة القضاء، وحين خرجوا إلى حِجّة الوداع . أمّا الجُحْفة فتقع فى منتصف الطريق بين مكة والمدينة وهى ميقات المصريين والشاميين وكل من حاذاها فى البر

والبحر . أمّا ميقات العراقيين فذات عِرْق على مقربة من الجِعْرانة . وأمّا ميقات النجديين فقَرْن المنازل على مقربة من العُشَيرة . وأمّا ميقات أهل اليمن فيَلَمْلَم ، وعلما أضاءة يقعان بينها وبين مكة ؛ وهي لذلك تلى الجُحفة فى بعد مواقيت الحج عن مكة . وعند هذه المواقيت يُحرم المقبلون للحج ويظلّون على إحرامهم حتى يدخلوا مكة ويتمّوا العمرة ثم يحلُّوا إحلال التمتع ما لم يسوقوا الهَدْىَ معهم ينحرونه . فمن ساق الهدى فقد وجب عليه أن يبقى على إحرامه حتى يُتم العمرة والحج جميعا قارنًا غير متمتع .

أمّا فيما خلا أشهر الحج فشأن ما بين المواقيت وأعلام الحرم كشأن الآفاق مما وراء المواقيت إلا لمن ذهب معتمرا إلى مكة ، فإنه يحرم من ميقات الحج إحرامَه بالحج ، ولا يحلّ إحرامه إلا إذا أتمّ عمرته .

وقد جعل كتاب الله حرم مكة من البيت العتيق إلى هذه الأعلام مثابةً للناس وأمْنا ، وحرّم التعرّض لصيده ولنباته وحيوانه . فلما أزمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة جعل كل همّه أن يدخلها من غير أن يسفك دما . ولقد تمّ له ذلك إلا ما سُفِك دفعًا لاعتداء جماعة من قريش على جيش خالد بن الوليد . فلمّا كانت الغداة من يوم الفتح قتلت خُزاعة رجلا من قريش وهو مشرك ؛ فقام الرسول فى الناس خطيبا وقال : ” يأيها الناس إن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض ، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة ؛ فلا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفِك فيها دما أو يَعضِد فيها شجرا ، لم تُحلَلْ لأحد كان قبلى ولا تحلّ لأحد يكون بعدى ، ولم تَحلَلْ لى إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها ، ألَا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليُبلغ الشاهدُ منكم الغائب ... “ .

كان حرم مكة اذًا أمْنًا من قبلُ الى عهودٍ بعيدة يذكر بعضهم أنها ترجع الى أيام إبراهيم وإسماعيل كما قدّمنا ، وكان شأن الحِل فى أشهر الحج كشأن الحرم مدى السنة جميعا . وما رُوى عن سريّة عبد الله بن جَحْش يصوّر هذا الأمر خير تصوير ، فقد

بعثه رسول الله فى رجب من السنة الثانيـة للهجرة على رأس جماعة من المهاجرين ودفع اليـه كتاباً وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسـيره، فيمضى لما أمره ولا يستكره من أصحابه أحدا . وفتح عبـد الله الكتاب بعد يومين فاذا فيه : " اذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نَخْلَةَ بين مكة والطائف فَتَرَصَّـدْ بها قريشا وتَعَلَّمْ لنا من أخبارهم" . وما لبث عبد الله ومن معه حين نزلوا نخلة أن مرّت بهم عِيرٌ لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحَضْرَمى، وكان يومئذ آخر رجب، ورجب من الأشهر الحُرُم . وتشاور المسلمون وقال بعضهم لبعض : "والله لئن تركتم القوم هذه الليلة لَيَدْخُلُنَّ الحرم فَلَيَمْتَنِعُنَّ به، ولئن قتلتموهم لَتقتُلُنَّهم فى الشهر الحرام" . وتردّدوا ثم شجّعوا أنفسهم وأغاروا على المشركين وقتـلوا عمرو بن الحضرمى وأسروا رجلين وعادوا الى المدينة بالعير والأسيرين . فلما رآهم الرسول وعرف خبرهم قال لهم : "ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام"، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . وانتهزت قريـش الفرصـة فنادت فى كل مكان : أنّ محمدا وأصحابه استحلّوا الشهر الحرام وسفكوا فيـه الدماء وأخذوا فيه الأموال وأسروا الرجال . ولقد ظلّ المسـلمون فى حيرة من أمر عبد الله بن جحش وأصحـابه حتى نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ .

الفرق بين الحرم والحل والآفاق إذًا فيما خلا أمر الإحرام والمناسك، أنّ الحرم يحرُم فيه القتلُ والغزو والأسر طيلةَ العام، وأن الحِلّ لا يحرُم ذلك فيه إلا فى الأشهر الحُرُم، فى حين لا يحرم فى الآفاق دم لم يحرّم الله سـفكه إلا بالحق . وحرمُ مكة فسيح كما رأيت؛ لذلك لا تشغل عمارة مكة منه إلا أقلّه . فأمّا ما وراء عمارة مكة الى أعلام الحرم فذلك ظاهر مكة، ويعتـبر أكثره من ضواحيها، وهو بعدُ بادية تتداول فيها الجبال والأودية تداولها فى الكثير من جهات البادية، وقلّ أن تترامى

فيه الصحراء ترامها فى سائر أرض تهامة مما يلى البحر . وهذا التداول بين الجبال والأودية وما يكون أحيانا من ترامى الصحراء يجعل ظاهر مكة متغيرة ألوانه بتغير اتجاهه الى الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب ؛ أضف الى ذلك أن به من الأماكن الأثرية على التاريخ ما جعلنى أحرص على أن أجوس خلاله وعلى أن أقف على أسراره . وما وقفت عليه من مظاهره وأنبائه المتصلة بسيرة الرسول وبتاريخ الأيام الأولى التى سبقت الإسلام والتى عاصرته هو الذى أدى بى الى كتابة هذا الفصل، كما أدى بى الى كتابته ما أدركته من وحى البادية الى العرب الأولين فيما خلفوا لنا من صور الشعر وأخيلته .

أقرب أعلام الحرم الى مكة علما التنعيم . ويخرج الإنسان الى التنعيم من مكة فى طريق القوافل الى المدينة . وقد أطلق على هذا المكان اسم التنعيم لاعتبارات تاريخية يسوقها واضعو تاريخ مكة ويختلفون عليها ؛ وأشهرها أنه يقع بواد يقال له نعمان محصور بين جبلين اسم أيمنهما ناعم واسم الأيسر نُعَيْم . ولعل أشهر حادث فى تاريخ جهاد المسلمين على عهد النبى وقع عند التنعيم مقتلُ خُبَيْب بن عَدِى . وخبيب أحد المسلمين الستة الذين بعثهم النبى من المدينة فى السنة الثالثة من الهجرة إجابة لطلب رهط من هُذَيل ليعلّموهم شرائع الإسلام ويقرئوهم القرآن . وسار خُبَيب مع الرهط حتى بلغوا ماء لهذيل بالحجاز بناحية تُدْعَى الرَّجيع ؛ هنالك خرج عليهم من هذيل رجال بأيديهم السيوف وأرادوا أن يذهبوا بهم الى مكة أسرى، فأبى المسلمون وقاتلوا هذيلًا حتى قتل أربعة منهم وأُسر الرجلان الباقيان وأحدهما خبيب بن عدى . وذهبت هذيل بهما فباعتهما من قريش إذ كانت لاتزال فى نشوتها بيوم أُحُد . أمّا صاحب خُبَيب فقتل بمكة، وأمّا خبيب فخرج به القوم الى التنعيم ليصلُبوه ؛ وصلّى ركعتين ثم رفعوه الى خشبة وأوثقوه اليها، فنظر اليهم بعين فيها الغضب وصاح : "اللّهم أحْصِهم عددا، واقتلهم بَدَدا، ولا تغادر منهم أحدا" . وأخذت القومَ الرهبة من صيحته واستلقوا الى جنوبهم حَذَرَ أن تُصيبهم لعنته ثم قتلوه وهو موثق مكانه .

أمّا الذكريات الدينية المتصلة بالتنعيم فأشهرها عمرة عائشة أمّ المؤمنين . روى عن النبيّ أنه قال لعبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق : "أردِف أُختك — يعني عائشة — فأعمِرْها من التنعيم ، فإذا هبطتَ بها الأكمة فمُرْها فلتُحْرِمْ فإنها عمرة مُتَقَبَّلَةٌ" . وفعل عبد الرحمن وأحرمت عائشة من التنعيم وطافت وسعت بعمرة . وقد بني مسجد هناك باسم مسجد عائشة ذكر صاحب مرآة الحرمين أن آخر من جدّده السلطان محمود في سنة ١٠١١ هـ . وخلف المسجد حوضٌ لخزن المياه ، وصهريج كبير قديم كان يمتلئ من السيول ويتوضأ منه المعتمرون ، ثم تخرّب فأصلحه الوزير سِنَان باشا في سنة ٩٧٨ هـ ، وأصلح بئرا قريبة منه وأقام عليها ساقية . لكن الصهريج والبئر أهملا وعفّت عليهما يد الزمن .

ولمّا بني عبد الله بن الزبير الكعبة بعد مهاجمة الحُصَيْن بن نُمَير قائد يزيد ابن معاوية إيّاه وتوهينه البيت ، خرج مع أهل مكة في ليلة الإسراء في السابع والعشرين من شهر رجب لسنة أربع وستين من الهجرة ، فأحرموا من التنعيم وذبح هو مائة بَدَنَةٍ وذبح كل واحد على قدر سعته . وقد بقيت هذه عادة أهل مكة الى اليوم .

والمقيم بمكة إذا فرض الحجّ أحرم من بيته بمكة ثم صعد إلى عرفات وعاد بعد الحج فطاف وسعى . ذلك أن الحج عرفة ؛ فالإحرام للحج إنما يكون من مكة ، إلا حاجّ جاءها يسوق هَدْيه معه . أمّا من اعتزم العمرة وهو مقيم بمكة فقد وجب عليه أن يغادر مكة الى الحلّ فيحرم منه . والتنعيم أفضل أعلام الحرم بعد الجِعْرانة ؛ ذلك أن عائشة أحرمت معتمرة من التنعيم . أمّا الجعرانة فقد أحرم منها رسول الله بعمرة ، على ما ورد في كثير من الروايات .

ويقع التنعيم اليوم بظاهر مكة على الطريق الى المدينة كما قدّمنا . ويمتدّ الطريق بعد التنعيم الى وادي فاطمة مارّا بسَرِف حيث بني رسول الله بميمونة بعد عمرة القضاء . وتذهب أنباء السلف الى أن قرية تدعى يأجَج كانت قائمة عند

التنعيم ، كما أن سَرِف كانت قرية كذلك ؛ فأما اليوم فليس عند التنعيم غير العلمين، علمى الحرم، وليس عند سَرِف شيء يدلّ عليها غير مسجد ميمونة . وأنت تسير من مكة الى وادى فاطمة فلا تكاد ترى مظهراً لحياة فيما قبل هذا الوادى ، بل تحيط بك الجبال والأودية منسابا بينها الدرب الذى تسير فيه القوافل صوب المدينة . وهذه القوافل تكثر أيام الحج كثرة تجعلك تلقاها كلما خرجت الى هذا الطريق .

ويذهب أهل مكة الى التنعيم كما يذهبون الى الشهداء والزاهر للرياضة . والطريق اليها ميسور فى السيّارة. ولقد ذهبت اليها غير مرّة أستمتع بهواء الصحراء الصفو ساعة المغيب، كما ذهبت بعدها الى سَرِف والى وادى فاطمة، فرأيت من حياة الصحراء ومن حياة البادية غير ما رأيت من حياة الصحراء فى مصر، وما كان مقدّمة لما رأيت من حياة البادية بالطائف وفيما حول المدينة . وقد كشفتْ لى حياة البادية هذه من وحيها لشعراء العرب فى الماضى ما لم تكشف الكتب التى درست فيها الأدب العربىّ ، فبدت لى معانيه فى وضوح شعرت به مذ رأيت حياة البادية بعينى وأحسستها بجوارحى إحساس بدوىّ يسير مع أهل الحجاز ويعيش عيشهم . ولقد آمنت بعد الذى رأيت من ذلك بأن الشعر ثمرة بيئته حقًّا، وأن الفنّ والأدب هما أصدق صورة للبيئة التى ينشأان فيها .

لى بمصر صديق مُدَلَّهٌ بالأدب شديد الإعجاب بأبى نُوَاس كثير الترديد لبيت له يتهكم فيه بشعراء العرب الأوّلين؛ ذلك قول ابن هانئ :

قل لمن يبكى على رسم دَرَسْ واقفا، ما ضرّ لو كان جلس

وكنت أشارك صديقى فى الإعجاب بهذا البيت وبدقة النكتة وبالتهكم اللاذع فيه . فلما خرجت الى التنعيم ثم إلى سَرِف وإلى وادى فاطمة ورأيت القوافل متجهة صوب المدينة ورأيت إبلا تنقطع عن القافلة وتسير فُرَادَى وعلى هُون ، ذكرت هذا البيت من شعر أبى نُوَاس فلم يُثِرْ منى إعجابا ولا طربا، بل سخرت منه

ومن أبي نُوَاس . فهذه البادية المترامية الأطراف يتحمّل أهلها البدو من مكان الى مكان ، يضربون خيامهـم اذا نزلوا ، فاذا ارتحلوا درس رسمهم ، ليس فيهـا معنى أبعث للشوق وللحنين من هــذه الرسوم الدوارس ، كانت الى أمس عامرة بمن جاء اليهم هــذا السائر على بعيره يحث مطيّته من بعيد وقد براه الشوق الى محبوبتــه ، وها هو ذا يراها اليــوم خلاء تحمَّل أهلها ولم يتركوا بعــدهم أثرا . ما ذا تراه يصنع وقــد ذهب أمله فى لقــاء المحبــوب هباء ؟ أفيجلس ليبكى ! أم هو يقف ساعة ثم يستحث بعيره قافيا أثر هؤلاء الذين جاء فى طلبهم ، وليس أمامه فى هذه الساعة التى يقف فيها من يتحدّث اليه أو من يسائله إلا هذا الرسم الدارس يبث له شوقه ويُعلن الى صمت البادية عنده وجده؟ ! . وهو فيما يفعله من ذلك صادق العاطفــة بليغ التعبير عنها .

من عيون قصائد الشاعر الفــرنسى " لا مارتين " قصــيدة البُحَيْرة . وأبدع ما فى هذه القصيدة تحنان الشاعر لأيام كانت تجىء فيها محبوبته الى شواطىء هذه البحيرة ، بحيرة ليمــان ، فتقف معــه عندها ، ويستلهمان معًا وحيها ، وتوحى اليه هى مزيدا من المتاع بجمالهــا . والبادية والرسم الدارس فيها ، والحنين الى من تركوا وراءهم هذا الرسم حين ارتحلوا ، والشدو بما خلّفوا وراءهم فى قلب المحب من لوعة ، لا يقــل فى بهــاء روعته الشــعرية عن البحيرة وموجها والجبال المحيطة بها والسماء المطلّة عليها . فإذا تحدّث بعــد ذلك عن هذه الرسوم الدوارس من لم يشهدها ، بل تحدّث عنها مقلّدا ، فمثله فى ذلك كمثل من يتحدّث عن البحيرة مقلّدا "لامارتين" من غير أن يشعر بشعوره . أمّا وحى البادية البديعة فى صفاء جوّها و رهبة صمتهــا وموج رملها وتتابع هضابها وجبالهــا ، فمما يُلهم الشاعر الصادق العاطفــة عيون الشعر وغُرر الصور والأحساس والمعانى .

اِجتازت السيّارة بنا يوما عَلَمي التنعيم قاصدة وادى فاطمة ، وظلّت فى مسيرها حتى بلغت بنا سَرِفَ ووقفت عند مسجد ميمونة أمّ المؤمنين . وقلّ من يعرف اليوم

اسم " سرف " أو يطلق على المكان اسما غير مسجد ميمونة ؛ فقد درس هنالك كل ما سوى المسجد، ولم يبق من المسجد إلا أطلال دوارس . وتخطت السيارة القوافل القاصدة الى المدينة وانفسح أمامنا وادٍ تموج جنباته بالرمال وتقوم الهضاب على جانبيه . وتمهلت السيّارة حيناً ، فأدرت البصر فيما حولى . ما أجمل هواء الصحراء! وما أجمل هذا الفضاء المترامى صمته فلا نسمع فيه هسيسًا أو نبأة! كم مرّ هاهنا من أقوام لم يذروا من بعدهم أثرا نذكره ، وكان لهم على الحياة من فسيح الأمل ما لنا اليوم . وسنقضى كما قضوا، وسيمرّ بعدنا من يقول عنا ما نقوله عمن قبلنا . لكن التاريخ لا ينسى قومًا مرّوا بهذا المكان آتين من المدينة معتمرين يريدون بيت الله ثم صدّهم المشركون عنه وكادت الحرب تنشب بينهم حتى عقد رسول الله معهم عهد الحُدَيْبية . ولكن التاريخ لا ينسى هؤلاء القوم حين جاءوا بعد ذلك بعام فدخلوا مكة وطافوا بالبيت وأتمّوا مناسك عمرة القضاء وأقاموا بمكة ثلاثة أيام والرسول على رأسهم ؛ ولا ينسى أن قريشا جَلَتْ أثناء هذه الأيام الثلاثة عن مكة نزولًا على حكم العهد الذى وقّع بالحُدَيْبية فى العام الذى قبله . وبعد ثلاثة الأيام خطب رسول الله ميمونة إلى عمه العباس، ثم جاء بها بِلَالٌ إلى سَرِف فبنى محمد فى خيامه بها . والتاريخ لا ينسى عشرة آلاف من المؤمنين جاءوا بعد ذلك بسنتين ومحمد على رأسهم يغذّون السير ليفتحوا مكة ، فيدخلونها ولم يلتحموا فى حرب ولم يسفكوا دما . والتاريخ لا ينسى بعد سنتين أخريين مائة ألف من المسلمين مرّوا بهذا المكان والرسول على رأسهم وقد فرضوا حج البيت على أنفسهم ، ولا ينسى طوافهم وسعيهم ووقوفهم بعرفة وقضاءهم مناسك الحج جميعا . نعم ! لا ينسى التاريخ أولئك المسلمين الأولين الذين مرّوا بهذا الدرب آتين من المدينة ، لأنهم هم الذين فتحوا مكة وهم الذين قضوا على عبادة الأوثان وهم الذين أقرّوا التوحيد فى العالم . ونحن الذين نسير اليوم فى عشرات الألوف وفى مئات الألوف من كل عام متخذين هذا الدرب الذى مروا به طريقنا بين مكة والمدينة إنما نسير على نهجهم، نبتغى أداء فرض الحج ليغفر الله لنا ذنوبنا، لا نريد بمسيرنا غزواً ولا فتحا، ولا نخاف أن

تصمد قريش لقتالنا لتصدّنا عن بيت الله. ما أعظم الفرق بين مسيرنا ومسير أولئك المسلمين الأوّلين! هو الفرق بين المجاهد الذى يفتح الطريق عنوةً، مخاطرا بحياته، غير مبال يُتْمَ أولاده وحزنَ ذويه وشقاءهم، ومن يسير فى الطريق الذى عبّده المجاهد، لا يخشى أن يصيبه من بأساء الحياة وضرّائها إلا ما يصيب غيره، دون أن يكون له فى ذلك فضل الجهاد وفضل الإقدام .

وحين بلغنا سَرِفَ نزلنا من السيّارة وزرنا مسجد ميمونة . وهو قائم اليوم وسط الصحراء فى عزلة الناسك، إلا أن يزوره من يقصد إلى زيارته. فأمّا قبل أن يحلّ النجديون بالحجاز ويتولّوا حكمه فقد كان أهل مكة يزورون هذا المسجد زَرافات ويقيمون حوله ويشربون من البئر المقابلة لبابه فى الثالث عشر من شهر صفر من كل عام . وكانت أنباؤهم تدعو كثيرين من الحجيج إلى زيارته تبركا بقــبر أمّ المؤمنين ميمونة. فلما حل النجديون بالحجاز واحتلوا مكة كانت القبة القائمة على هذا القبر بعضَ ما هدموا، وكان تحريم زيارة القبر والتبرك به بعضَ ما صنعوا . لذلك انصرف الناس عن زيارة القبر والمسجد، وأصبح هذا المكان خلاء لا يكاد ينزله إلا من قصد إلى الوقوف عنده ومعرفة أمره .

ومسجد ميمونة أفسح من مساجد مكة ، وهو خير منها نظاما وأجمل بنـاء . وجدرانه من الخارج تشهد بأن عمارته ليست بالغة فى القدم . فقد حاولت أن أقف على تاريخ بنائه فلم أجد فى الكتب القديمة شيئا عنه. وكل ما رواه الأزرقىّ فى كتابه (أخبار مكة) عن قبر ميمونة قوله : "قال أبو الوليد : وقبر ميمونة بنت الحارث الهلالىّ زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم وهى خالة عبد الله بن عباس، على الثنيّة التى بين وادى سَرِفَ وبين أضاءة بنى غِفَار . ماتت بسَرِف فدفنت هنالك" . وكانت وفاة الأزرقىّ فى القرن الثالث للهجرة . ولم يذكر الأزرقىّ ولا ذكر الذين جاءوا بعده ممن دوّنوا تاريخ مكة ما يدلّ على وجود مسجد على قــبر ميمونة فى أيامهم . فلا عجب أن يكون المسجد قد استحدث فى عهد متأخر، وأن تكون القبة قد بنيت على القبر

للتبرك فى العصر الذى أصبح التبرك بالقبور و بناء القِباب فوقها والمساجد حولها بعضَ ما يؤمن به جماعة من المسلمين .

و يرتفع مسجد ميمونة عما أمامه من أرض البادية ، ولكنه يتصل فى ارتفاعه بما خلفه من هضبة لا ريب أنها الثنيَّة التى أشار إليها الأزرقى إن كان المسجد قد بنى فوق القبر حقًّا ؛ وأغلب الظن أنه بنى فوقه . و يصعد الإنسان إلى باب المسجد بضع درجات فيجد الجُدُر مما حوله أرفع من جُدر مساجد مكة ، و يرى فى شُرف البناء حليــة من أقواس صغيرة متتابعة تُعيد إلى الذاكرة الطراز العــربى ، ثم يرى أمامه عقدين من ورائهما المحراب ، ومن وراء المحراب القبر مكشوفا إلى السماء بعــد أن هدمت القبّــة التى كانت فوقه . وليس يفرش أرض المسجد حصير ولا فرش أيًّا كان نوعه ، ممــا يدل على أنه غير مقصود ؛ فشأنه فى ذلك شأن غيره من المساجد خلا المسجد الحرام .

وعدنا إلى السيّارة فانطلقت بنا فى الطريق بين المسجد والبئر و بلغت بنا وادى فاطمة بين العصر والمغرب . تباركتَ ربى ! هذا اليوم الذى جئنا فيه إلى هذا الموضع هو يوم الســبت الرابع عشر من شهر مارس . ثمــانية عشر يوما قد انقضت إذًا مذ غادرت مصر . وهأنذا لأول مرّة من يومئذ أشعر بنشوة الطرب لمرأى الخضرة الناضرة والزرع البهيج . نعم ! فالوادى الذى كان أجرد قاحلا قد استحال جنة يانعة تجرى فيها جداول المياه ، وتقوم على جانبيها زروع مختلفة من نبات وشجر ، وتتنفس خضرتهــا عن ابتسامة عذبة تهوّن من وحشة الرمال والهضاب التى كانت تحيط بى مذ هبطت الحجاز . لقد شعرت لمرأى النبات فى هــذا الوادى كأنمــا وجدت شيئا فقدته ، وأحسست مايحسه أبناء مصر بلدالخِصْبِ والنماءِ من الشوق والوحشة إذا التمسوا مظاهر الخصب والنماء فلم يجدوها ! وعلى حافة وادى فاطمة قامت أكواخ كأكواخ أهل العزب من سكان مصر. وأحسنَ أبناء هذه الأكواخ استقبالنا حين سرنا فى حذر على حافة الجدول نستنشق عبق الخضرة والحياة ، فجاءوا لنا برداء جلسنا عليه ، ودعونا

إلى قهوة اعتذرنا عنها شاكرين . ووضعتُ فى الجدول يدى وأنا بمجلسى على الرداء كأنى فى ريب من مسيل الماء فيه ، أو أنى أردت أن أُضيف إلى شعورى المعنوى بالمسرّة شعورا مادّيا بمصدر هذه المسرة. وجاء أحد الغلمان من أهل الوادى بأبراج من قطن قيل لنا إنهم يزرعونه ، وذكروا لنا أنهم يبعثون بالكثير مما يُنبتون من الخُضَر إلى مكة، وأما ما يُنبتون من الفاكهة فقليل .

وأقمنا زمناً على حافة الجدول، ثم قمنا ندور فى أنحاء هذه الحقول حتى آذنت الشمس بالمغيب . هنالك استأذنّا القوم وعدنا الى سيارتنا فأقلّتنا الى مكة . ولَشَدَّ ما كان اغتباطنا حين سمعنا ونحن على مقربة من التنعيم غناء مصريًا تردّده قافلة تقصد المدينة على طريقة غناء الحجاج . فلما جاوزنا التنعيم ألفيتنى فرح القلب بما رأيت من ماء وخضرة وما سمعت من غناء، وإن كان الماء جدولا وكانت الخضرة قليلة ولم يكن فى ترجيع الغناء من سبب للطرب إلا أنه مصرى . ومالى لا أقنع بالقليل يوم أحصل عليه ! . بل مالى لا أجد فيه غاية النِّعْمة ولذاذة العيش ! . أليس هذا القليل خيرا من كثير تَغَصّ به النفس وكثيرا ما يورثها الملال ! .

⁂

أدنى أعلام الحرم الى مكة بعد التنعيم عَلَمَا الحُدَيْبية وعَلَمَا الجِعْرانة . وقد مررت بعلمى الحديبية ليلاً حين مجيئنا من جُدّة الى مكة أول ما وصلنا الحجاز مُحرمين، ثم مررنا بهما بعد ذلك نهارا فى طريقنا من مكة الى جُدّة لنتخذ طريقنا منها الى المدينة . والطريق بين مكة وجدّة عامر بالمارّة أكثر مما سواه من الطرق لكثرة المتنقّلين بين البلدين من أهل الحجاز ، بَلْهَ الحجاج . لذلك يمر الإنسان فى الطريق من مكة الى الحُدَيبية بمشرب قهوة يقف عنده بعضهم إذ يخرجون من مكة يستنشقون هواء الصحراء، فأمّا ما بعد مشرب القهوة فالرمال والهضاب حتى نصل الحديبية. هنالك يجد الإنسان فُنْدقًا من الفنادق التى أقامتها حكومة الحجاز لينزل بها من شاء. واسم الفندق أدنى هنا الى المجاز منه الى الحقيقة، فتلك منازل قائمة فى الصحراء بها

غرف ضيقة فى بعضها فرش لمن أراد النوم . ولعل فُنــدق الحديبية من خيرها .
ومن بعد الفندق وعلى مسافة غير قليلة منه يجد الإنسان مسجد الرضوان، وهو مربع
مكشوف نصفه الى السماء مسقوف نصفه الآخر بعقود الحجر تقوم على ثلاثة عمد،
وقد كتبت بأعلى محرابه هذه العبارة : "هذا مسجد بيعة الرضوان ، مأثرة من مآثر
حبيب المنــان، عمّــره الفقير الى رحمة الرحمن ، المغفور له السلطان محمود خان
سنة ١٢٥٤ هـ" . وتجرى الرواية بأن هــذا المسجد أقيم فى الموضــع الذى كانت
تقوم فيه الشجرة التى بايع المسلمون رسول الله تحتها بيعة الرضوان . وقد أمر عمر
ابن الخطاب بقطع هــذه الشجرة من خوف أن يفتتن المسلمون بها لورود ذكرها
فى القرآن فيتخذوا منها مَنْسَكًا من المناسك يحجّون اليه . وكان عمر رضى الله عنه
حريصا غاية الحرص على أن يظل التوحيد فى صفائه لا تشوبه شائبة ، ولا يرضى
أن يسبغ المسلمون على هذه الأماكن من التقديس ما يخاف معه الشرك، ولا يرضى
أن يكون التقديس لمكان غير بيت الله، وألا يحج المسلمون الا إياه .

ولقد وقفت عند مسجد الرضوان هذا ،وجعلت أصوّر لنفسى موقف المسلمين
الذين صحبوا محمدا قاصــدين العمرة ثم بايعوه فى هــذا المكان على جهاد المشركين ،
وأذكر ما كان من سياسة محمد مع ذلك وحرصه على الســلم حتى كان عهد الحديبية
فتحا مبينا . فقد جاء المسلمون معه يريدون الطواف بالبيت معتمرين؛ فلما سمعت
قريش بمسيرهم قررت أن تحول دون دخولهم مكة، حتى لا يقال : دخلها محمد عليهم
عنوة . وعقدت لخالد بن الوليد وعِكْرِمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه
وحدهم مائتين . وتراءى الجمعان وأبدى المسلمون اســتعدادهم للقتال . لكن النبىّ
لم يخرج غازيا بل خرج حاجًّا، وهو قد خرج مسالما لا يريد حربًا؛ لذلك انحرف
بمن معه عن طريق مكة وساروا حتى بلغوا الحديبية وهنالك نزلوا . وأوفدت اليه
قريش من يسأله : ما الذى جاء به ؟ ولم يُعْجِبْ قريشــا أن اقتنع رسلها بأنه جاء
حاجًّا لا يريد حربا، بل أوفدت غيرهم ثم غيرهم . ورأى رسل قريش تحفّز المسلمين
للحرب لولا حرص النبىّ على السلم ؛ لكنهم لم يستطيعوا إقناع أهل مكة بما رأوا .

هنالك أرسل النبيّ عثمان بن عفّان سفيرا الى أهل مكة ، وغاب عثمان عندهم حتى ظن المسلمون وظن النبيّ أنه قُتل ، وعظُم عليه هذا الغدر من قريش ، فدعا أصحابه اليـه وقد وقف تحت شجـرة فى الوادى فبايعوه جميعا على ألّا يفرّوا حتى الموت ، وهنا كانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . ولما أتمّ القوم البيعة ضرب عليه السلام بإحدى يديه على الأخرى بيعةً لعثمان كأنه حاضر معهم بيعة الرضوان . و إن المسلمين لينتظرون يوم الظفر أو يوم الاستشهاد إذ علموا أن عثمان لم يقتل . ثم جاءهم عثمان يروى نبأ قريش وأنهم أيقنوا أن النبيّ وأصحابه إنما جاءوا حاجّين معظّمين للبيت ؛ لكنهم وقد تأهّبوا للقتال لا يستطيعون أن يدعوه يدخل مكة أو تتحـدث العرب بأنه دخلها عنوةً بعـد أن هزمهم ، وبذلك تسقط فى نظر العرب مكانتهم ؛ لذلك هم يصرّون على موقفهم منه موقف الخصومة الى أن يجدوا من خوف العار مخرجا . وتفاوض رسـل قريش مع الرسول وانتهوا الى عهد الحُدَيبية أن تتهادن قريش والمسلمون ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة هذا العام على أن يعودوا اليها فى العام الذى يليه فيدخلوها و يقيموا بها ثلاثة أيام .

جعلت وأنا بموقفى من مسجد الرضوان أصوّر لنفسى هذا الموقف من مواقف رسول الله ، فيبلغ منّى الإعجاب بالحكمة السياسية التى أملت عليه خُطّته ، والتى جعلته يرغب عن القتال و يحرص على السلم ويبلغ من ذلك حتى يغضب عمر بن الخطاب على قوّة إسلامه وعظيم إيمانه ؛ ثم تشهد الحوادث بأن خُطّته كانت الحكمة حقًّا ، وأن ما أغضب عمر وكثيرين من أصحاب الرسـول من طول أناته وعظيم صـبره وجميل محاسنته لخصمه ، إنما كان الفتحَ المبين الذى مهّد للإسلام أن يزداد انتشارا وللمسلمين أن يفتحوا مكة بعـد عامين اثنين من صلحهم . وكذلك كان عهد الحديبية حجرا لا ينقض فى سياسة الإسلام والمسلمين .

وتقع الجِعْرانة الى الشمال الشرقىّ من مكة على حين تقوم الحديبية الى الغرب المنحرف شمالًا منها . و يقع طريق التنعيم وسَرِف ووادى فاطمة وما وراء ذلك فيما بين

الحُدَيبية والجعرانة . والذاهب إلى الجِعْرانة ينحرف عن طريق السيّارة الى الطائف مغرّبا الى الشمال بعد أن يبلُغ من طريق الطائف منتصف ما بين حِرَاء والشرائع . ولا يشير كثيرون الى الجعرانة على أنها من أعلام الحرم؛ لأنها لا تقع على طريق متصل بما وراء الحجاز من بلاد يُقام لأهلها ميقات الحِلّ كى يُحرموا عنده حين مجيئهم الى مكة معتمرين . لكن ما بقى للجعرانة على التاريخ من ذكر، وما كان من إحرام الرسول صلى الله عليه وسلم منها عام حُنَيْن إحرام العمرة، قد جعلها أفضل مكان فى حرم مكة للإحرام بالعمرة . من ثَمّ كان الحديث عن حرم مكة وأعلامه لا يتم إلا اذا تناول الجعرانة ، وكان المؤرّخ الذى يسير فى أثر الرسول وينسى الجعرانة قد نسى موقعا فى تاريخ الإسلام مذكورا . وهذا ما استحثنى للذهاب اليها والوقوف عندها والشرب من مياه بئرها والتصعيد فى الهضاب المحيطة بها .

روى الأزرقىّ فى (تاريخ مكة) أنّ النبىّ لمّا غزا حُنَيْنا وحاصر الطائف ثم رجع منها انثنى فى طريقه نحو مكة الى الجعرانة ، "فقسم بها مغانم حنين فى ذى القعدة ثم دخل مكة ليلاً معتمرا فطاف بالبيت وبين الصفا والمروة من ليلته، ومضى الى الجعرانة فأصبح بها كبائت فأنشأ الخروج منها راجعاً الى المدينة فهبط من الجعرانة فى بطن سِرف" حتى لقى طريق المدينة من سَرِف . وذكر الفاسىّ فى (شفاء الغرام) أنّ النبىّ أحرم من المسجد الأقصى الذى تحت الوادى بالجِعْرانة، ولَمْ يجز الوادى إلا محرما، وذلك لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة، وأن أهل مكة يُحرمون كل عام من الجعرانة ليلة سبع عشرة من ذى القعدة ، وربما أحرموا منها العشىّ فى السابع عشر اذا خافوا من الإقامة بها إلى الليل .

وبالجعرانة مسجد يقابل البئر، وهو مسجد من طراز مساجد مكة، وقد ذكره الأزرقىّ فى تاريخه ، فدلّ بذلك على قدمه ، وأضاف أن عمرة النبىّ قد كانت من المكان الذى يقوم المسجد اليوم به ، وأنه خرج فى عمرته هذه الى مكة ليلاً وأصبح بالجعرانة كبائت؛ ولذلك خفيت هذه العمرة على كثير من الناس .

ومسجد الجعرانة اليوم أدنى الى أن يكون أثرا . أمّا بئرها فمعنيٌّ بها ، أقيم بناء مستدير حول فوّهتها وعلّقت فيها دلو يشرب النـاس منها . وذلك أن ماء هذه البئر عذب ليس كمثـله بمكة ماء ، والموسرون من أهـل مكة يؤثرونه على ماء زُبَيْـدة ويجيئون به الى دورهم لأنه أصـلح من كل ماء غيره . وأشهد إنهـم لصادقون ؛ فلطالمـا شربت من هذا المـاء بمنزل مُضيفى فلذّت لى عذوبته وأعجبتنى رقّته .

والطريق من مكة الى الجعرانة طريق صالح للإبل وللسيّارات جميعا . يخرج الإنسـان من مكة حتى يحـاذى حِرَاء ويكون فى أوّل طريق مِنًى ؛ هنـالك ينعطف يسرةً بين الجبال دائرا حول حراء . ولقـد استمهلت السائق فسـار مبطئا فى هذا المنعرج كيما أملأ ناظرى من جبل النور فى عزلته ولمّـا أكن قد صعدت اليـه ، وكان لى بالوقوف أمامه وبالتحديق فيه من الشغف ما ازداد بعـد أن وقفت أمام الغـار الذى نزل الوحى الأوّل على الرسول فيه . ثم انبعثت السيّـارة فى طريقها بين الجبال حتى نفذت بنا الى فرجة واد ضيّق نَمَتْ فيه أعشاب اتخذت منها الإبل مرعاها فهى تمرح منها فى كلأ تجد فيه الشبع والنّعمة ؛ وهى تسير أسراباً فى رعيها لايحول بينها وبينه وعث الطريق ولا التصعيد فى الجبال . ولشدّ ما كانت دهشتى حين رأيت بعضها يتسلّق الهضاب الى قممها يبحث فيها عن أسباب العيش . فقد ألفيت جمالنا فى مصر رقيقة العظم على ضخامتها حتى ليبلُغ أحدها حجم اثنين من جمال الحجاز . ورقّة عظمها تدعو للإشفاق عليها أن يصيبها مكروه إذا زلِقت فى اليوم المطير أو هفت خطوتها عند قناة أو ارتطمت بحجر . فأمّا هـذه القطعان من إبل الحجاز فتسير أسرابا وتجرى أفرادا وتتسلّق الجبال ولا يأخذ الإشـفاق راعيها عليها . ولعلها كذلك تفعل لأنها نشأت فى أحضان الطبيعـة معتمدة على ذاتهـا ؛ فالبادية بيئتها ، وهى تعيش فيها كما يعيش الإنسان فى داره . أما بيئتنا المصريّة فى الوادى فالجمل فيها ضـيف على دوابّ الحمل الأُخرى وإن يكن سفينة صحارينا كما أنه سفينة صحراء العرب . وكيف لا تعتمد هـذه الإبل فى بلاد العرب على نفسهـا فى تسلق الجبال والتماس الكلا بين الصخور وليس لديها سبب غير ذلك من أسباب العيش ! .

والجبال فى البادية تتصل بالأودية ويتصل بعضها ببعض ، فهى محيطة بهذه الإبل حيثما توجّهت وأنّى سارت .

ولقد أحاطت بنا هذه الجبال طول الطريق الى الجِعْرانة، فما تكاد تنفرج الى أفسح من الطريق إلا فى أماكن قليلة ؛ مع ذلك تتابعت أسراب الجمال تسير عشرات وعشرات ، وتسير مطمئنة لاتزعجها السيّارة ولا تدعوها الى الفرار لطول ما أِلفتها فى السنوات الأخيرة . وتياسرت السيّارة بعد مسير ساعة فإذا واد فسيح ينفرج أمامنا ويمتدّ النظر فى فسحته الى حيث يشاء ؛ ذلك وادى الجعرانة . وانكشف لنا المسجد وتبدّت لنا فوهة البئر ووقفت السيّارة بينهما؛ فأسرع الينا صغيران ينتظران الخير من مجيئنا ومن وقوفنا . وزرت المسجد وشربت من ماء البئر ووقفت أسرّح الطرف فيما حولى وأستعين بمنظارى المكبّر أرى به ما يكسو قمم الجبال من كلأ لا يُفَلّ من حدّة عبوسها . وماذا عسى أن يكشف المنظار عنه غير هذا الكلأ وليس هاهنا إلا رمال الوادى والجبال المحيطة به ! وقصدت هضبة على مقربة من المسجد صعدت فيها حتى بلغت منتصفها، ثم درت بالمنظار كرّة أخرى فيما حولى فلم أر غير ما رأيت من قبل، ولم أر فى صخور هذه الجبال شيئا يلفت النظر .

وسألت صاحبى : ألهذا المكان موسم يقصده الناس فيه كما كانوا يقصدون أسواق العرب قبل الحج إلى مكة ؟ قال : إنهم يخرجون إلى هذا المكان فى شهر رمضان فيُحرمون بالعمرة؛ ذلك لما روى عن النبيّ عليه السلام أنه قال : "عمرة فى رمضان تساوى حِجّةً معى"؛ كذلك كانوا يفعلون قبل حكم الإخوان، ولا يزالون كذلك يفعلون وإن كانوا أقل على هذه العمرة إقبالا .

وسألته فى هذا الحديث وروايته عن النبيّ؛ فابتسم وقال : لعلك تحسبه من روايات المكيين مما يحدثون به الغُلاة فى الدين إلى مدينتهم . أمّا أنا فلم أُحقق سنده، لكننى أحسبه يرجع الى الأسوة بالنبيّ فى عمرته من الجِعْرانة بعد عوده

من الطائف، وإن كان هذا الحديث يجعل العمرة فى شهر رمضان ، وكانت عمرة الرسـول من الجعرانة فى ذى القعـدة . ولئن صح ظنّك ليكونن قصـد رُواته أن يباعدوا ما بين عمرة شهر رمضان والحج ليجعلوهما موسمين، بدل أن تجتمع العمرة والحج فى موسم واحد .

قلت : لك رأيك؛ لكننى أفكر الساعة فى المسلمين الذين عادوا يقتسمون هاهنا فىء حُنَين . فالذين سمعوا حديث العمرة فى شهر رمضان لايزيدون على مائة أو بضع مئات ؛ أمّا الذين عادوا مع النبىّ من حصار الطائف فكانوا ألوفا بلغت العشرة أو زادت عليها ، وكان الفىء الذى جاءوا يقتسـمونه هنا ستة آلاف من الأسرى واثنين وعشرين ألفا من الإبل وأربعين ألفا من الشاء خلا أربعين ألف أُوقيّة من الفضة . أفشهِد هذا الوادى فى كل ما مضى من تاريخه مثل هذا العدد من الناس ومن الإبل والشاء! ومحمد على رأس المسلمين يقسم بينهم هذا الفىء، إذ جاءه وفد مَنْ أسلم من هوازن يرجونه أن يردّ عليهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم؛ ويقول له أحدهم : "يا رسـول الله إن فى الحظائر عمّاتِك وخالاتِك وحواضِنَك اللواتى كن يكفُلنك ، ولو أنا مَلَحنَا[1] للحارث بن أبى شَمِر أو للنُّعمان بن المنذر ثم نزل بنا بمثل الذى نزلت به لرجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين " .

كلّا ! ما عرف تاريخ الجعرانة كله يوما كهذا اليوم . وإن من الأرض لبقاعاً جرداء، قل أن تصلح لمقام أو حضر، ثم يكون بها حادث يتغيّر له وجه التاريخ، فإذا هى علم باق بين الناس ذكره ، وإن عادت بعـد هذا الحادث جرداء غير صالحـة لإقامة أو حضر . وهل ينسى الجعرانة من يعرف حُنَيْنا ! وهـل ينساها من يعرف سيرة محمد بن عبد الله، وهى اليوم كما كانت على التاريخ، فيما خلا أيام حُنَين، واد غير ذى زرع، لايستوقف النظر منه إلا مايحتفظ به من ذكرى أيام حنين! . ولعل لهذه البقاع من الأرض عزاء فيما تحتفظ به من هذه الذكريات الخالدة عمـا تعانيه من

(١) ملحنا لفلان : أرضعنا له .

عزلة وإمحال، كما أن من الناس من يجد فى ذكريات ماضيه من المجد ما يملأ حياته خيرًا ألف مرة مما يملأ أكثر الناس الحياة به مما يثيرونه فيها من ضجة وضوضاء.

جالت هذه الخواطر بنفسى وأنا بموقفى فوق الهضبة المجاورة لمسجد الجِعْرانة أجيل بصرى فى هذا الوادى الخلاء اليوم وقد ملأته الذكرى بما أعاد الى خيالى صورته يوم قسمة الفىء مليئا بالحياة وضجتها، مليئا بالرضا والتذمّر، وبالصفو والغضب. عفا رسول الله عن نساء هوازن وأبنائها، فغضب لذلك رجال حديثو عهد بالإسلام؛ وأفشى محمد أعطياته فى المؤلَّفة قلوبهم من أهل مكة، فغضب المهاجرون والأنصار وتهامسوا؛ وبلغه الهمس فوقف مُغْضَبا الى جانب بعير فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصبعيه ثم رفعها وقال: "أيها الناس، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمس. والخمس مردود عليكم". ولم يرض عباس بن مِرْداس عن نصيبه الذى أخذه فقال النبي: "اذهبوا به فاقطعوا عنّى لسانه"؛ فأعطوه حتى رضى فكان ذلك قطعَ لسانه. ويقول الأنصار بعضهم لبعض: "لقى والله رسول الله قومه"؛ فيحدّثهم النبي ويقول فى ختام حديثه لهم: "ألَا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله الى رحالكم! فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعبَ الأنصار. اللّهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار". فيتأثرون ويبكون ويقولون: "رضينا برسول الله قِسْمًا وحظًّا".

أيّة حياة كالحياة التى كان يموج هذا الوادى ذلك اليوم بها؟! لقد ارتسمت صورته فى هذه الساعة أمام خيالى فعجّ الوادى بمن فيه من الناس وما فيه من الإبل والشاء، وخلتنى أراهم جميعا، تَرْهَق الذلّة وجوه الأسرى، وتبدو العزّة على وجوه المسلمين فى حالى الغضب والرضا، وخلتُ التاريخ مطلًا من عليائه على هذا المشهد وكأنما قرأ فى لوح القدر ماستتجه الأمة العربية إليه بعد أن مهّدت هذه الغزوة لتوحيد

صفوفها، وما ستقوم به من فتح العالم ونشر الإسلام فى ربوعه، ثم ما سيكون بعد ذلك من ثورات وتقلّبات ومن انحلال وبعث، حتى ينصر الله كلمته، ويعود الدين كله لله .

ونادانى صاحبى فعُدنا الى السيّارة فارتدّت بنا صوب مكة . فلما بلغنا حراء كان الليل قد أرخى سدوله، وكان القمر يحبو من ناحية المشرق ، وكان النسيم صفوا عليلا . وقضينا ساعة نتحدّث ثم تواعدنا أن نزور وادى نَعْمان عصر اليوم التالى .

ووادى نَعْمان يقع بعد عَرَفة، والذاهب اليه يسلك طريق مِنًى الى المزدلفة فعرفات، وكذلك فعلنا . فلمّا جاوزت السيّارة بنا قصر الملك قال صاحبى : هَلُمَّ بنا نقف عند مسجد البيعة فإنى لأظن العقبة الكبرى كانت عنده ولم تكن عند جمرة العقبة . ووقفت بنا السيّارة الى يسار الطريق قُبالة المسجد، فسرنا بضع عشرات من الأمتار حتى بلغناه، وألفيناه مقفلا، فدُرْنا حوله فدلّتنا جدرانه على أنه مسقوف كله أو أكثره على خلاف مساجد مكة، ورأينا شيئا يشبه الكتابة بظاهر محرابه فحاولنا عبثا أن نقرأه . ويقع المسجد الآن فى فسيح من الأرض، تحيط الجبال بكل نواحيه إلا ناحية الطريق ، مما يدلّ على أن هذه الجبال نُسفت نسفا ، أو دُكّت دكا، لينكشف المسجد لمن يريد زيارته . لذلك يتعذّر على الإنسان أن يجد الشِّعب الذى تسلّل اليه الأنصار جوف الليل من أيام التشريق حين بايعوا النبيّ بحضرة عمه العباس بيعة العقبة الكبرى . وأغلب الظن أن يكون هذا الشِّعب قد نُسف فيما نُسف من الجبل، وأن مسجد البيعة قام مكانه .

يرجّح هذا الرأى ذهابُ المسجد فى القدم الى القرن الثانى للهجرة ؛ فقد ذكره الأزرقىّ فى كتابه (تاريخ مكة) وإن لم يصفه . وفى كتاب قطب الدين النهروانىّ (الإعلام بأعلام بيت الله الحرام) ذكرٌ لمسجد البيعة وبنائه . قال : «ومسجد البيعة مسجد على يسار الذاهب الى منًى، بينه وبين العقبة التى هى حدّ منًى غَلْوة أو أكثر، وهو مسجد متهدِّم فيه حجران مكتوب فيهما ما يدلّ على ذلك . فى أحدهما :

"أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله تعالى ببناء هذا المسجد مسجد البيعة التى كانت أوّل بيعة بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقدها العباس بن عبد المطلب. وإنه بنى فى سنة ١٤٤ هـ" والمشار إليه أبو جعفر المنصور العباسى. وعمّره أيضا المستنصر العباسى، كما فى حجر آخر: بناه فى سنة ٦٣٩. وتلك الأحجار ملقاة بهذا المحل الخراب يخشى عليها الضياع فيندثر هذا المسجد. وكان المرحوم ابراهيم دفتر دار مصر سابقا أمين عرفات رحمه الله شرع فى تجديد هذا المسجد وأسّسه وبنى بعض طاقاته وجدرانه، وتُوُفِّىَ إلى رحمة الله قبل أن يُتمّه، وما وفّق أحد بعده إلى الآن لإتمامه».

وهذا الذى ذكره النّهروانى وذكره غيره ممن أرّخوا مكة هو حجة القائلين بأن هذا المسجد يقوم حيث كانت البيعة، وأن جمرة العقبة لا تؤرّخ العقبة الكبرى، وإن أمكن أن تؤرّخ العقبة الصغرى أو العقبة الأولى. يؤيّد ذلك أن البيعة الكبرى وقعت فى أواسط أيام التشريق بمنًى حيث يجتمع الناس من مختلف بلاد شبه الجزيرة وهم لمّا يؤمنوا برسالة محمد، ويرون مثل هذه البيعة حِلْفًا لحربهم. ولقد حدث بالفعل بعد أن تمّت هذه البيعة أن سمع المسلمون صائحا يصيح بقريش: إن محمدا والصُّباء معه قد اجتمعوا على حربكم. وفى رواية أخرى: إن الأوس والخزرج بايعوا محمدا على أن ينصروه. وقد فزعت قريش لما بلغها من ذلك. وفزعُها هو الذى جعلها تحسب لهجرة محمد من مكة ألف حساب. فمن الحق إذًا أن تكون البيعة قد تمّت بعيدا عن مجتمع الناس بمنًى، وذلك حيث يقوم اليوم مسجد البيعة.

تقوم مساكن منًى بعد هذا المسجد؛ ولقد تابعنا السير إليها ونحن نعلم أنها لم يبق بها من ضجة الحج كثير ولا قليل؛ لكننى لم أكن أحسبها موحشة بمقدار ما رأيتها حين دخلناها. لقد خلتها بلدا أثريًّا كمدينة «حابو» وما إليها من مدن الآثار بالأقصر؛ خيّم عليها سكون عميق كسكون البادية حيث لا حياة ولا أنيس. لا تسير فيها الإبل كما تسير فى طريق الجِعْرانة، فليس فيها للإبل مرعى؛ ولا تؤنسها القوافل إيناسها طريق المدينة، فلم يبق للقوافل بعد أيام التشريق بها من حاجة.

وكل ما بقى بها من أثر أيام النحر بعضُ مناضد معدودة فى مكان كان مُقْهًى فى الأيام المذكورة وهو اليوم صفصف لا ترى فيه إنسا .

وقفت السيّارة أمام هذا المكان، ونادى صاحبى نداء من يطلب المعونة . وجاء غلام لا أدرى من أين خرج، فطلب إليـه أن يجيئنا بمحمد علىّ . وآنطلق الغلام، فذكر لى صاحبى أن محمدا علياً هـذا من أهل منًى ، وأن نسـبه يرجع إلى قريش أجداد النبىّ ، وأن قبيلته تقيم هاهنـا ، ولعلها البقية الباقيـة حول مكة من هؤلاء العرب الأقدمين . وأضاف : وتقيم قبائل بالطائف وبغير الطائف من أرض الحجاز تُسمّى باسم قريش ، ولست أدرى مبلغ الصحة فى انتسابها إلى أجداد الرسول .

وأقبـل محمد علىّ فلم أشك إذ رأيتـه فى أنى أرى قرشيا صميما تبدو العروبة الخالصة على محيّاه ؛ أسمر السَّحْنة ذو عينين سوداوين شديدتى البريق، وشعرٍ كَثٍّ فاحم ، وأنفٍ أقنى ، وشـفاهٍ رقيقةٍ ؛ معتـدل القامة، عريض الأكتاف، ينبيء مظهره عن رجوليّـة بدويّة لا تعرف الإذعان ولم تعرف الحضارة . ترى أهو مَثَلٌ لأهل قبيلته فصورتُهم صـورته، ورجوليّتهم رُجوليته ؟ . أما النساء، فلم أر منهن ما أحكم به على جمال كان فتنة لشعراء العرب الغَزِلين .

وتقدّمنا محمد علىّ مصعدا فى الجبـل القائم عن يسـار الذاهب الى عرفات، ووقف عند صخرة مفلوقة من وسطها قال : إنها مَجَـزُّ الكبش، وإن سكين أبينا الخليل إبراهيم عليه السـلام أخطأت ابنـه إسماعيل لمـا تلّه للجبين ليذبحه فمسّت الصخرةَ ففلقتها . وتقوم على مقربة من هذه الصخرة صخرة أخرى أضخم منها يدور حولها طريق هو الذى تسلّقنا منه ؛ هـذا الطريق هو مجز الكبش حيث سار الى إبراهيم ليذبحه فداء لإسماعيل . وكان فى هذا المكان مسجد عليه قبة يقال له مسجد الكبش يؤمّه الحجّاج، فهدمه الإخوان الوهابيون .

ورافقنا محمد علىّ إلى مسجد الكوثر ثم إلى مسجد الخَيْف، وذكر أن القبة التى تتخذ مكبرية (مبلغة) بالخيف تقوم فى موضع الخيمة التى صلّى بها النبىّ فى حجّة الوداع .

والتاريخ لا ينفى هذه الرواية ، والثابت فيه أن المسجد لم يكن يومئذ كما هو اليوم، بل كان خلاء تحيط به جدران بسيطة ؛ وإنما استُحدثت عمارته فى القرن الثالث للهجرة بأمر المعتمد الخليفة العباسى، ثم جُدّد بعد ذلك فى القرن السادس، وأنفق أهل التقوى من المسلمين مبالغ طائلة لصيانته . وفى القرن التاسع أمر سلطان مصر قايتباى فبُنى المسجد كله من أساسه بناء محكما، وأقيمت القبّة موضع مصلّى النبىّ، وبُنيت الى جانبها مئذنة من طراز مآذن مصر، كما بنيت مئذنة أخرى على باب المسجد . وقد عمّر بعد ذلك مع بقاء بناء قايتباى على أصله .

ويقع غار المرسلات بجبل ثَبِير الى الجنوب من مسجد الخيف . وهذا الغار يسمى اليوم غار الكوفية أو الطاقيّة ؛ ويقص المطوِّفون أن النبىّ اختفى به فلانَ الحجر موضعَ رأسه فدخلت طاقيته أو كوفيته فيه . وإنما سمّى من قبلُ غار المرسلات لما يذكرون من أن الله أوحى الى النبىّ سورة المرسلات فيه . وكان الحجاج يؤمّونه للتبرك به ، ويزدحمون عنده حتى يبلغ ازدحامهم أشدّه ؛ أمّا اليوم فقد قلّوا نزولا على مذهب حكام الحجاز فى التبرّك .

والمَشْعَر الحرام يقع بالمزدلفة بين مِنًى وعرفات . ويمرّ الإنسان فى مسيره من منًى الى المشعر بواد اشتهر الآن باسم وادى النار، وكان يدعى من قبلُ وادى مُحَسِّر. ويقع هذا الوادى الأجرد بين جبلين يدعى أحدهما جبل قُزَح ، ويزعمون أن واقعة الفيل المشار اليها فى القرآن وقعت فيه . والتاريخ المعروف لا يروى أن واقعة حدثت فى عام الفيل، إنما يروى أن أبْرهةَ حاكم اليمن جاء على فيله ومن ورائه جيشُه لهدم البيت بمكة بعد أن رأى انصراف الناس عن البيت الذى أقامه وزخرفه بصَنْعاء، وأنه نزل بظاهر مكة ودعا اليه قوما من أهلها وعلى رأسهم عبد المطلب جدّ النبىّ؛ ورأى أهل مكة أنهم لا يُطيقون قتاله فأخلوا مكة عشيّة اعتزم دخولها لهدم البيت . فلما أصبح أبرهة وجد الجُدَرِىّ تفشّى بجيشه تفشيًا أفزع الناس وأفزعه فارتدّ عن مكة، وما إن بلغ اليمن حتى مات . ولعل هذا الذى أصاب أبرهةَ وجيشَه

هو الذى دعا الى تسمية هذا الوادى باسم وادى النار، ووادى الحسرة أو مُحَسِّر، لأن نار المرض أصابت القوم فانقلبوا الى قومهم فى حسرة خاسئين .

أمّا المشعر الحرام بالمزدلفة فمسجدٌ صغير، إن صحّ أن يسمّى الفضاء من الأرض مسجدا اذا أحيط بجُدُر قصيرة تحدّه . وكل ما يدل على المشعر الحرام مئذنة وسط هذا الفضاء تضاء أثناء الحج . وفى جوار المسجد بازانُ مياه حسن البناء ذو فوّهة يستق الناس منها، ويتّصل بمجرى الماء المنحدر من نَعْمان الى مكة والمعروف بعين زُبَيْدة . وللبازان درج ينزل الإنسان فيه الى حيث يصل الى فوّهة الماء، فأمّا ما حول ذلك ففضاء المزدلفة تحيط به جبال أحدها قُزَح الممتد من قُبالة جبل المحسِّر .

ولم يكن بهذا المكان مسجد على عهد الرسول، بل كان المشعر جبلا فى هذه الأودية اعتادت العرب فى حجّها أن تُشعر جمالها عنده (أى تضربها فى صفحة سنامها حتى يسيل منها الدم) . وكان العرب قبل الإسلام يوقدون النار فوق قزح عند المزدلفة كى يهتدى بها الصاعد من منًى إلى عرفات ، والمُفيض من عرفات الى منًى . وأوقدت هذه النار فى عهد النبىّ وفى الصدر الأوّل من الإسلام إلى عهد عثمان . أمّا المنارة القائمة اليوم فلم تشيّد إلا بعد ذلك بقرون . ويذكر النهروانى أن أحدث بناء لها كان سنة تسع وخمسين وسبعمائة أو السنة التى بعدها فيما علم . وبناء المشعر الحرام من البساطة بما رأيت مما يتّفق مع هذه البيئة البدويّة المحيطة به . ولو أن هذا البناء فى غير الحجاز وورد ذكر مكانه فى كتاب مقدّس كما ورد ذكر المشعر الحرام فى القرآن، لشاده أهله فى أضخم عمارة وأجملها .

كان الطريق ما بين المزدلفة وعرفة ضيّقا فى قرون الإسلام الأولى ، فكان من السنّة المستحبة أن يَفْسَحَ الإنسان لغيره ما استطاع ؛ أمّا الآن فقد انفسح بما لا تخشى معه الزحمة إلا فيما ندر فى بعض سويعات الإفاضة . وهو يمرّ بجبلين متقاربين هما مَأْزِمَا عرفة ؛ ويمر بنَمِرةَ حيث يقوم المسجد بالمكان الذى وقف

فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتطيا ناقته القصواء نخطب الناس فى حِجّة الوَداع. ويطلق على هذا المسجد أسماء مسجد نمرة، ومسجد عُرَنَة، وجامع إبراهيم، ومصلّى عرفة. ونَمِرة جزء من بطن عُرَنة، فالتسمية بهما نسبة الى المكان. أمّا اسم مسجد ابراهيم فيرجع الى ما يقال من أن جبريل علّم إبراهيم أبا الأنبياء شعائر الحج وهما فى هذا المكان. فأمّا مصلّى عرفة فاسم يطلق لأن الحاجّ بعرفة يجمعون فيه بين صلاة الظهر وصلاة العصر جمع تقديم تأسّيا بالرسول فى حجة الوداع. ويقع المسجد على مقربة من عَلَمَى عرفة. وهو فسيح مترامى الأطراف، كما تقدّم القول، له محراب يرتفع ثلاثة أمتار وقد أحاطت الأروقة به من جميع جوانبه. وصحنه مكشوف تقوم فيه مكبرية لصلاة يوم عرفة. ويرجع إنشاء هذا المسجد الى القرن الثانى بعد الهجرة. وقد عمّره ملوك المسلمين فى مصر وفى غير مصر بعد ذلك غير مرة.

تقع بطحاء عرفة على يسار الصاعد اليها من المزدلفة مارًّا بمسجد نمرة. وفى الجانب الآخر من هذه البطحاء يقع مسجد الصُّخَيرات؛ وهو اليوم أثر متهدّم كما شهدتُ. وقد تخطتْ بنا السيّارة بعده أثناء وادى نَعْمان والجبال تنفسح عنّا تارة وتقترب منا أخرى، حتى بلغت بنا مصدر عين زُبَيْدة التى تُروى مكة وتروى الحجيج اليوم، والتى تعتبر عملًا من الأعمال الهندسيّة الخالدة الأسم على التاريخ، وإن تغيّرت من بعدُ وتطوّر رسمها مع تقدُّم العلم.

وسميت هذه العين باسم زبيدة زوج أمير المؤمنين هارون الرشيد لأنها أوّل من أجراها؛ فقد كانت مكة قبلها تستقى من الآبار والعيون، وكانت الآبار كثيرا ما تغيض والعيون كثيرا ما تُطَمّ. وقد كان معاوية بن أبى سفيان أجرى الماء الى مكة من العيون والآبار فى قنوات واتخذ حياضا بعرفة لسقيا الحجيج منها، بَيْدَ أنّ هذه القنوات والحياض لم تلبث أن تخرّبت وأصاب الناس بذلك جهد شديد. هنالك أمرت زُبَيدة بإجراء عين حُنَيْن بوادى نَخْلة الى مكة بعد أن اشترت الأراضى التى كانت مياه العين تسقيها، كما أمرت بإجراء عين من وادى نَعْمان الى عرفة. وتتبع

عين نعمان من جبل كَرَاء الذى يصل بين عرفة والطائف . وقد أجريت مياه نَعْمان حتى بلغت منًى، وتعذّر إجراؤها بعد ذلك الى مكة لشدّة صلابة الأرض . وتعرّض هذا العمل العظيم لأفاعيل الزمن، فكان يتخرّب أحيانا وينقطع منه الماء عن مكة وعن عرفات أحيانا . ولقد أمر كثيرون من أمراء المؤمنين بإصلاحه فى عصور وأزمان مختلفة، وأنفقوا عليه نفقات طائلة؛ لكن ذلك لم يحل دون تخرّبه واضطراب مسيل الماء الى مكة والى عرفة . ففى النصف الأخير من القرن العاشر الهجرى طلبت الأميرة فاطمة هانم كريمة السلطان سليمان الإذن فى تعمير العيون وفى القيام بعمل جديد عظيم هو إيصال ماء نَعْمان الى مكة . وكان المال المطلوب لذلك ثلاثين ألف دينار . وأذن لها أبوها وتمّ هذا العمل العظيم فى عشر سنوات . وكان يوم تمامه من أعياد مكة الكبرى؛ تصدّق الناس فيه وأجروا الخيرات وقاموا من أعمال البرّ بما أعاد الى ذاكرتهم ما فعله أسلافهم يوم أتمّ عبد الله بن الزبير بناء الكعبة .

ولقد طغت السيول بعد ذلك غير مرّة على مجارى هذه المياه تحت الأرض ودخلت الأتربة من البازانات اليها ومسّت الحاجة الى إصلاحها . وكان والى مصر محمد علىّ ممن أصلحوها . وما يزال المهندسون يرون تعديل نظام المجرى الحالى تعديلًا يجعل مياهه أبعد عن التلوّث وعن أن تفسدها الأتربة والرمال التى تدفعها السيول .

ولقد دهشت أيّما دَهَش ونحن نسير فى هضاب نعمان حين ذكر لى صاحبى أننا بلغنا مبدأ العين . فهذا المبدأ أشبه ببئر تحدر اليها المياه لتسرى خلال الجبال ولا يبدو للناظر منها شىء، وليس يبدو من المجرى غير البازانات المختلفة يراها الإنسان فى الطريق من مكة الى عرفة ويراها فى أماكن مختلفة من مكة . ولست أدرى لعل صاحبى لا يعرف أين تبدأ العين حقًّا، وإن أكّد لنا رجل لقيناه هناك ما قاله صاحبى رغم إلحاحى فى السؤال وإظهار التردّد فى تصديق هذا النبأ .

يسير الطريق بعد نَعمان الى شدّاد على سفح جبل كَرَاء . ومن هناك يبدأ الصاعد الى الطائف صعوده حتى يبلغ جبل كُرًّ ثم ينحدر منه حتى يبلغ الطائف . ولم نجاوز نحن نعمان الى ما بعده ، بل قفلنا منه راجعين الى مكة .

هذا الطريق الذى سرنا فيه كثيرا ما طرقه الرسول عليه السلام فى حياته ، وإن كان مسيره فيه فى حجة الوداع أشهر ما يذكر التاريخ . كثيراً ما سلكه فى السنوات الأولى من بعثه والى حين هاجر من أُمّ القرى ؛ فهو قد كان يذهب فى موسم الحج يبادئ القبائل بالدعوة الى دين الله . وخير مكان كان يلقاهم فيه عرفة ومِنًى . فى تلك الأيام النائية منذ أربعة عشر قرنا كان الرسول يخرج وحيدا أو فى نفر ممن آتبعوه ؛ فاذا أنِس الى قوم من القبائل الآتية الى الحج آتّصل بهم وتحدّث اليهم وجادلهم بالتى هى أحسن ودعاهم الى دينه ؛ ومن هؤلاء من كان يردّه ردّا غير جميل ، ومنهم من كان يُنصت اليه ثم ينصرف عنه مفكرا ، ومنهم من لم يكن الرسول يكاد يتركه حتى يجيئه من قريش من يحذّره مغبّة دعوة فرّقت أهل مكة شِيَعا . ويرى الرسول إعراض الناس عنه وتحذير قومه إيّاهم منه فلا يصدّه ذلك عن دعوته ، بل يزيده استمساكا بالدعوة وحرصا عليها . وتُؤذيه قريش بمساءتها ويؤذيه شعراؤها بهجائهم فلا يَهِن ولا يتردّد . وينقضى العام ويتلوه العام وهو أشدّ على الدعوة حرصا . والناس ينأون عنه ، وقريش تحارب دعوته ، فلا يصرفه عنها صارف وقد أمره ربه أن يبلّغ رسالته . لقد كنت أتصوّر هذه المواقف ونحن نمرّ بهذه الأماكن ، ثم أتصوّر موقف الرسول الذى صدّقه العرب جميعا فى حجة الوداع ، فيشيع الإكبار فى نفسى وأكاد أسمع بأذنى قوله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ .

وهذا الطريق الذى رأى محمدا يطارده قومه وتزورّ القبائل عنه ثم رآه من بعد ذلك وقد فتح الله له فانضوى العرب كلهم تحت لوائه ، هو الطريق الذى رآه وليدا يوم حملته حليمة السعديّة معها من مكة ذاهبة الى الطائف فى طريقها الى قبيلة

بنى سعد بن بكر . نعم ! فى هـذا الطريق سار الرضيع تحمله مرضعته الفقيرة على حمارها تتخطى به بين الجبال ثم تصعد به سفوح كُرًّا وكراء، وتتخطى به بوادى الطائف حتى تصل الى قومها !! .

أليس هذا عجبا ! الطريق الذى سار فيه محمد طفلا لأول ما ولد هو الطريق الذى سار فيه شيخا يعلن الى الناس أن رسالة ربه بلغت غايتها، إذ يبلغهم قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

+ + +

هذه أعلام الحرم التى قصدت اليها . ولم يسعدنى الحظ بالذهاب الى عَلَمَىْ أضاءة فى طريق اليمن ، وإنما قطعت من هذا الطريق ما بلغ بى الى غار ثور .

أما عَلَمَا نخلة فى طريق الطائف فكانا فى الطريق اليها . ولقد قصدتها وأقمت بها أيامًا كانت أيام نشاط وسعادة . لقيت فيها من أثر الرسول ما اطمأن له قلبى ورضيه تفكيرى، ولقيت فيها من تاريخ العرب بعد الإسلام ما أثار ألمى وأحرج صدرى ، لولا رجاء يخالج نفسى أن تكون هذه البلاد فى المستقبل خيرا مما كانت فى الماضى بعد أن انتقلت منها عاصمة الإسلام .

الكتاب الثالث

الطائف وآثارها

طـــريق الطائف

بينَا أنا بالتكيّة المصرية ظهر السبت الرابع عشر من مارس لقيت الحاج عبد الله فلبي – أو سينت چون فلبي كما تشاء – فبادلته الحديث فى أمور بلاد العرب حاضرها وباديها . وأدّى بنا الحديث إلى لغة القوم بمكة و بعد ما بينها و بين اللغة العربية الفصحى ، وسألت الجوّالة البريطانى : أيوجد فى شبه الجزيرة عرب يتكلّمون هـذه اللغة الفصحى ؟ قال فلبي : " إنما يوجد هؤلاء فى الجبال وفى البادية . وأنت إذا ذهبت إلى شَدَاد فى طريقك إلى الطائف عثرت ثمّ على طَلِبَتِك " . ولما علم أنى ذهبت إلى عرفات و إلى وادى نَعْمان حيث تبدأ عين زُبَيدة قال : " إن بين شـداد و وادى نعمان أمدا قريبا ؛ فإذا بلغت بك السيّارة شدادا على سفح جبل كُرًّ وجدت مَحَلَّةً بها قوم من الأعراب عندهم الدوابّ التى تصعد بك كُرًّا وكراء وتذهب بك الى الطائف ؛ وهناك تسمع العربية التى تتوق الى سماعها " .

لم يعترض أحد من الحاضرين على هـذا الكلام فملت الى تصـديقه . وكان لى بزيارة الطائف شغف ؛ ففيها من أثر الرسول قُبَيـل هجرته وفى أعقاب غزوة حنين مايدعو الى زيارتها . لكنى تصـوّرت ركوب الدوابّ فى صـعود الجبال فذكرت يوما من سـنة ١٩٢٤ كنت فيه بلُبنان وصعدت فيه الى الأَرْز مع رِفاقٍ كثيرين . ولم تكن طريق الأرز قـد عبِّدت للسيّـارات حينذاك ؛ فاكترينـا الدوابّ من بلدة " بْشَرِّى " وامتطيناها لتصعد بنا فى طريق فيه سعة ونظام . مع ذلك بقيت أذكر ذلك اليوم والصعود على الدوابّ فيـه فتمتلئ نفسى من صعودها مخافة ورهبـة . فهى تأبى إلّا أن تسـير على حافة الطريق المتصلة بالهـاوية حتى ليشعر الإنسـان أنه مُوفٍ فى كل خطـوة على حتفه . وعبثًا يحـاول الإنسان أن يُلزمها السير فى منتصف الطريق فإنهـا لاتلبث أن تعود الى حافتـه وتلزمها . وما أغنانى عن كُرٍّ وكَرَاء وصـعود سـفوحهما على الدوابّ إذا كان للطائف طريق غير هـذا

الطريق ! أمّا ولهـا طريق تسلكه السيّارة هو الطريق المعبّد ، وما دام مقصدى من زيارتهـا أن أسمع العـربية فى صفائهـا ، فلأترك طريق شـدّاد لمن شاء أن يسلكه ، وحسبى ما قرأته عنـه فى كتب الرحلات ؛ فهو لا يغرى بركوب المشقة المضنية لاجتيازه .

ولم يَدُرْ بخاطرى أن الدوابّ ستصادفنى حين تجوالى بجبال الطائف ، وستجعلنى أحمد للقادير عدولى عن مشورة " فلبى " إلى طريق السيّارة لتقطع الطريق ما بين مكة والطائف فى بضع ساعات .

ولقد آستشرت مُضيفى أمين العاصمة فى الذهاب إلى الطائف وسألته عن خير طريق إليها ، وذكرت له ما أشار به فلبى ؛ فقال : هذا رجل ألف البادية ومتاعبها ؛ فما لك أنت وما ألفه ، وفى وسعك أن تسلك الطريق الذى نسلكه كلنا حين نصعد من مكة لقضاء الصيف بالطائف ! . ثم ذكر لى أنه مخبر وزير المـالية الشيخ عبد الله ابن سليمان الحمدان بعزمى على السفر بعـد ظهر يوم الاثنين ١٦ مارس . وفى الغد أخبرنى أن وزير المـالية سرّه عزمى على زيارة الطائف ، وأنه سيضع تحت تصرّفى عربة "بكسفورد" تكون جنيبا للسيّارة التى خُصِّصَت لنُقَلى منذ نزلت مكة ، وأنه سيختار من يصاحبنى فى هذه الرحلة ويكون دليلى فيها .

وفى صباح يوم الاثنين زرت فلبى بمنزله على موعد بيننا ، وأفضيت اليه بأنى ذاهب الى الطائف بعد الظهر . ويقع منزل فلبى بحىّ جَرْوَل فى أطراف مكة فوق ربوة يسيرة الارتفاع . وقفت السيّارة أمام بابه فصعدنا درجة كان من الخير أن تكون درجتين أو ثلاثا . وتخطّينا الباب الى حديقة تبدو أشجارها الباسقة من فوق السور ولا تحجب الدار القائمة بعدها . وليست الحديقة بالفسيحة ولا بالضيقة ، تتراوح مساحتها بين المـائة والخمسين والمـائتين من الأمتار المربعـة . وهى أدنى الى أن تكون مهملة قلّ أن تمتـدّ اليها يد بتنظيم ؛ لكنها مع ذلك متعـة للنظر فى مكة حيث لا تقع العين على حديقة إلا فى الدور التى تشبه القصور . ويسير الإنسان من باب المنزل

خلال الحديقـة فى طريق صاعد يكاد يكون مسـتقيما . فاذا دخل المنزل وجده أقرب الى البداوة من كثير من منازل أهـل مكة . وقابلنا فلبى على باب غرفة الى يسار الداخل من باب الدار مرتديا جلبـابا أبيض ونعلين، مكشوف الرأس، ينم شعره الأحمر وذقنـه الحمراء المحيطة بكل وجهه الأبيض المشرب حمرةً كما تنم عيناه الزرقاوان عن أصله الانجليزى الذى يختفى تماما حين يرتدى المشلح والعقال، فيبدو نجديّا وسيما أنيق الملبس . وتقدّمنا الى داخل الغرفة فخلع نعليـه حين بلغ البساط الذى يفرش أرضها . وتبعته وجلست الى جانبه أسمعه وأجيبه وهو يحيينى بكلمات قليلة كلها الرّقة والظَّرف . ولقـد اعتذر عن موعدين سبقا بيننا ولم نلتق فيهما بأنه يقضى من النهـار فى حضرة ابن السعود ما لا يدع له من وقته إلّا الصباح الباكر يعمل فيـه أو يلقى من يريد لقاءه أثناءه . فاذا أضحى النهار ذهب الى القصر فقضى فيه الى الظهر، ثم عاد اليه بعـد العصر فلم يغادره حتى تتم القراءة للملك بعـد العشاء فينفضّ المجلس .

وفيما نتحدّث سمعت تصفيقا ورأيت الرجل خفّ بنفسـه الى خارج الغرفة ولم يلبس نعليه ثم عاد يحمل صينية الشاى وعليها أدواته . وتناولنا الشاى، وسألته أثناء تناولنا إياه : " ألّا تكتب حياة محمد وقد عرفت بلاده وسرت فى خطاه ودرست دراسـة المدقق كل مكان له اتصال بسـيرته ؟ " . وكان جوابه : " أنا لا أريد الاختـلاف مع العلماء المسلمين فى أمر لا يفيد الخلاف فيـه ، وكثيرا ما يضرّ . وليست كتابة التاريخ من عملى العلمىّ ؛ فانما عملى وضع الخرائط للأماكن التى أمرّ بها والتى لم يسبقنى معاصر الى وضع خرائطها " . فلما تحدّثت وإياه عن الإسلام، ذكر أنه مقتنع تمـام الاقتناع بأن الديمقراطية الإسـلامية والحكومة الإسلاميـة خير أنواع الديمقراطيات والحكومات .

ولمـا فرغنا من تناول الشاى قال فلبى : " سأُطلعك على بعض الخـرائط التى أضعها " . وقام فأعاد أدوات الشاى الى داخل الدار وعاد بمجموعة كبيرة من

الخرائط . وبدأ فأرانى الطريقة التى يسير عليها فى وضع الخرائط وكيف يتخذ مكة مركز الدائرة فيها، وكيف يحقق موضع كل محلّة أو مكان على الخريطة تحقيقا علميا دقيقا، بأن يسلك اليه عدّة طرق من مكة ويجرى فى التحديد على قياس الزوايا . ولقـد سألته أثناء ذلك : أوَضَعَ لمكة خريطة تفصيلية ؟ فذكر أنه شرع فيها ولمّا يتمّها . وأطلعنى على خريطتـه عن الربع الخـالى وهى الموجودة فى كتابه الذى يحمل هـذا الاسم (The Empty Quarter) ، كما أطلعنى على خرائط الطريق بين مكة وجدّة والمدينة، وبين مكة والطائف والخُرْمة . ولمـا كانت هذه الخرائط مطبوعة فقد أهداها إلىّ لأستعين بها فى رحلتى إلى الطائف و إلى المدينة . وقد استعنت بها فكانت نعم العون ؛ وآستعنت بهـا فى رسم غير واحدة من خرائط هـذا الكتاب . ولقد شكرته يومئذ وأشكر له اليوم فضـله فى هذه المعونة القيمة ، كما أشكر له جميل استقباله إياى وما أمدّنى به من معلومات أفادت مباحثى فى أماكن عدّة .

وآنصرفت من عنده فمررت بالتكيّة المصرية، ثم عدت الى دار مضيفى فتناولنا طعام الغداء، وأقمت أنتظر رفاق السفر الى الطائف . وأقبل السيّد محمد صالح القزّاز أمين أموال الدولة بالطائف . وهو شاب وسيم حلو الحـديث، أحدث مضيفى التعارف بينى و بينه ، وذكر أنه سيصحبنى فى رحلتى الى الطائف وسيدلّنى على كل ما فيها مما تصبو اليه نفسى، فهو بكل ما فيها خبير . وأضاف الشيخ صالح أنه سعيد أن وقع اختيار الحكومة عليه ليصحبنى . وفيما تحدّث أقبل الشيخ محمد سرور الصبّان القائم بأمر المواصلات فى المملكة . ولم يطل مكثه معنا لأنه لم يكن مسافرا وإنمـا جاء يودّعنى من مكة ويرحّب بى ضيفا بمنزله بالطائف . وأقبل الشيخ عبد الحميد حديدى الذى أزمع معاونتى فى هـذه الرحلة كما كان لى نعم العون بمـكة فى بحثى وفى إقامتى وفى حِلّى وترحالى . وجعـل الشيخ عبـاس قطّان كل همّـه أن يبعث الطمأنينة الى نفسى و يزيد أواصر المودّة بينى و بين رفاقى . وسمعنا نفير سيّارة كانت "البكسفورد" الذى بعثت به الحكومة ليصحبنى . و بعد سويعة أقبلت سيارتى

وأعلن السائق حسن عن مَقْدَمها بصوت النفير . إذ ذاك نزلنا اليها وصحبنا مضيفنا حتى ودّعنى فى جماعة من أصحابه عندها .

وانطلقت السيّارة فى طرق مكة ، حتى اذا كانت عنـد قصر الملك تياسرت فى طريق الجِعْـرانة دائرة حول حراء . وقبيـل منتصف الطريق الى الجعـرانة تيامنت منطلقة فى واد فسـيح بين الجبال حتى وقفت فى محلّة الشرائع أمام كوخ هو وحده مظهر الحياة الإنسانية فى هـذا الوادى . وأهل هـذا الكوخ يستقون من عين جارية تُروى أشجارا قليلة ، وقد جعلوا من كوخهم مُقْهًى يتناول فيه السائر الشاى ، ويجد به شربة من ماء وفنجانا من القهوة النجديّة . وسألنى الشيخ صالح أأريد النزول ؟ فلمـا علمت أن ليس بالمكان غير المقهى آثرت أن ننطلق الى المحلة التى تلى الشرائع . على أن الشـيخ عبد الحميد حديدى آستوقف حسـنا السائق هنيهة ليقصّ علىّ من نبأ التاريخ عن هذا المكان ماله آتصال بالسيرة النبوية . ومن موقفنا أشار الى الجبل القائم عن يميننا والى مكان منخفض بعض الشئ عند قمه وقال : " هذا شِعْب الثَّنِيَّـة الذى تخطّى منـه النبيّ الى مكة حين عودته من الطائف منفردا بعد أن أساء أهلها لقاءه وردّوه بشرٍّ جواب . قلت : من أين إذًا ذهب الى الطائف؟ قال : من طريق كُرًّ وكَرَاء بعد اجتياز عرفات وشدّاد . وحدّقتُ فى شِعْب الثنيّة بهذا الجبل المرتفع عن اليمين ، وصوّرت لنفسى ما كان يلقاه محمد من المشـقّة فى سبيل الدعوة الى الحق الذى بعثـه الله به . فهـذه جبال جرداء قاحلة لا أنيس بهـا وتغشاها السـباع كما تغشى جبـل كراء ؛ مع ذلك لم يكن محمد يخشى وحشتها ، بل كان يسير خِلاَلَها مطمئنا الى رسالات ربه يبلّغها للناس . وقد بلّغها الى العرب أثناء الحج حين مُقامهم بمكة ومنًى وعرفات فلم يسمعوا له . وقد ذهب الى غير واحدة من القبائل فى منازلهـا فردّوه منكرين . وهو يعلم أن ثقيفا بالطائف من أمنع قبائل العرب وأعزّها جوارا . لذلك ذهب اليهـا سالكا طريق الجبـل الوعر ، فردّته بشر ما ردّته به قبيلة ، وأغرت به صبيانها فقذفوه بالحجارة ؛ فآنصرف

عنهـم من طريق آخر فى الجبل الوعر متخطيًا هــذه الثنيّة القائمة قُبالة الشرائع ، لم يغير الأذى من عزمه ولم يضعضع من قُدْس إيمــانه وجلال يقينه . وأية قوة أو مشــقة تضعضع من هــذا الإيمــان المتصل بالله الواحد الأحد، المســتمدّ من روح الله ووحيــه ! أمره ربه أن يبلّغ رسالته فانطلق يبلّغها مطمئنا الى ربه واثقا من نصره .

وتخطّت الســيّارة مَحَلّة الشرائع فى مضــيق بين جبلين، وتابعت ســيرها حتى بلغت الزَّيْمَة . ووقفت السيّارة هناك عند منظر يستوقف النظر فى تهامة كلها؛ ذلك منظر المــاء والشجر الأخضر .

لقد رأينا بالشرائع أغراسًا دعوها بستانا فلم نحفل به . أمّا هاهنا فقد رأينــا المــاء ينهمر منحدرا من الجبال يسق بساتين عدّة، ورأينا أشجار الموز تكظّ بعض هــذه البساتين؛ والنفس مبتهجة ما رأت المــاء والخضرة . لذلك قضينا فى هــذه المحلّة زمنًا ما كان أحوجنا اليــه والوقت يسرع نحو المغيب، وبيننا وبين الطائف طريق ما يزال طويلا .

قال صاحبي : ” يذهب بعضهــم الى أن وادى حُنَيْن ، حيث وقعت غزوة حنــين بين المســلمين وبين هوازن وثقيف فى أعقاب فتح مكة ، إنمــا يقع بين الشرائع والزَّيمة ، وأن جيوش المســلمين قضت الليــل على أبواب الوادى الذى تخطّيناه الآن بين هاتين المحلّتين ، والذى كان يسمى يومئــذ وادى حنين . فلمــا كانت بُكْرة الفجر تحرّكوا والنبيّ على بغلته البيضاء فى مؤخّرتهم يريدون أن يأخذوا عدوّهم على غِرّة . وإنهــم لمنحطّون الى الوادى إذ شدّت عليهــم القبائل بإمرة مالك بن عوف النَّصْرىّ شَــدّة رجل واحد ، وأصــلوْهم وابلًا من النّبال . هنالك اضطرب أمر المسلمين فولّوا الأدبار منهــزمين وقد زُلزلوا زلزالا شــديدا . ورأى محمد فرار أصحــابه فلم يتزحزح من مكانه ، بل ثبت وجعــل ينادى فى النــاس وهم يمرّون به منهزمين: ” أين أيها الناس أين! “ . ووقف عمه العباس بن عبد المطلب

الى جانبه يصيح فى الناس بصوت جَهْوَرِىٍّ أسمعهم جميعا : " يا معشر الأنصار الذين آوَوْا ونصروا ! يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ! إن محمدا حىّ فهلُمّوا " . وكشفت تباشير النهار عن عَمَاية الفجر ورأى الناس موقف رسول الله وعظيم ثباته ، فتنادى القريبون منه يجيبون نداء العبّاس : لَبَّيْك لبيك ! وارتدُّوا الى المعركة ، وتبعهم من لاذ قبلهم بالفرار ، وذكروا جميعا ماضيهم فى النصر ، فخاضوا غمار الموت لا يبالونه ، فتمّ لهم النصر وولّى عدوّهم مدبرا ولم يعقِّب ، تاركا وراءه النساء والأبناء والأموال غنيمة للمسلمين " .

قلت : فما بال اسم حنين المجيد فى تاريخ الإسلام قد عُفِّىَ على أثره فلم يبق عَلَمًا على مكان من هذه الأماكن ؟ أتراه قد اختلف فيه من بعدُ وأن من الناس من يرى أن الواقعة وقعت فى مكان غير هذا المكان الذى تحدّثنى عنه ؟ .

قال صاحبى : " حقٌّ ما تقول ؛ وإن من الناس لمن يحسبها وقعت بعد الزَّيمة فى مكان بينها وبين السيل الكبير ، وهى المحلّة التى تليها . أمّا أنا فأميل الى اعتقاد أنها وقعت حيث ذكرتُ . ويحملنى على ذلك أن المسلمين قاموا من مكة للقاء عدوّهم فقضَوْا فى طريقهم بياض النهار ولم يزيدوا عليه ، أو بياض النهار وبعض الليل . وما بين مكة والزيمة يستغرق بمسير الإبل هذا الزمن كله . ثم إن المسلمين ذهبوا بالفىء الذى غنموا الى الجِعْرانة وجعلوه بواديها حين أجمعوا حصار الطائف . والجعرانة تقع الى شمال الشرائع وتبعد عن السيل . فلو أن حُنَيْنًا وقعت حيث يذكرون لترك المسلمون الفىء بوادى السيل الفسيح أو لعادوا به الى وادى الشرائع ، أقرب مكان منهم الى مكة .

" ولعلك تسألنى : وما لهم لم يفعلوا إن كانت حنين قد وقعت حيث تذكر والشرائع أدنى اليهم من الجعرانة ؟ ولهذا السؤال لا ريب موضعه . ولقد ألقيته على نفسى والتمست الجواب عنه ، فكان ذلك أن الناس يميلون الى النزول حيث ألِفوا ؛ وقد ألِف العرب فى عهد الرسول ومن قبله مواضع الأسواق التى كانت

تقام حول مكة قبيل الحج فى عُكَاظ ومَجَنّة وذى المَجَاز . وليس من اليسير أن تحدّد اليوم مكان هذه الأسواق . ولكن الراجح فى شأن مَجَنّة أنها كانت تقام بين الشرائع والجعـرانة الى شمالهـا ؛ ومن ثمّ سلك المسـلمون طريق الشرائع الى السوق التى تقع بينها وبين الجعرانة ثم تخطّوْها الى وادى الجعرانة الفسيح الذى يسع الفىء ومن يقوم على حراسته " .

وأبديت الميل الى تصديق صاحبى ، وإنى لإخاله اليوم صادقا . فقـد ذكر الأزرقى فى تاريخ مكة أن العرب كانوا يذهبون الى عكاظ يوم هلال ذى القعدة . وعكاظ تقع عند السيل الكبير أو بعده على خلاف فى الأقوال سنتناوله من بعد . فاذا قضوا بعكاظ عشرين يوما انصرفوا الى مَجَنّة فأقاموا أسواقهم بها عشرة أيام ، وإذا رأوا هلال ذى الحجة انصرفوا الى ذى المجاز فأقاموا به أسواقهم ثمـانية أيام ، ثم خرجوا يوم التروية من ذى المجاز الى عرفة . وإنمـا سمّى الثامن من ذى الحجة يوم التروية لأن الناس كانوا يأخذون فيه المـاء من ذى المجـاز ليترَوّوْا منه بعرفة وبالمزدلفة حيث لا يوجد المـاء . فالظن الغالب إذًا أن يكون الطريق بين الشرائع والجعرانة طريق مَجَنّة .

السيل الكبير هو المحلّة الثالثة فى طريق الطائف . والطريق بينه وبين الزيمة طويل يقارب ما بين مكة والزيمة . ويبدؤه من الزيمة درب اليمانية . وهـذا الدرب مشورة فيـه أحجار كثيرة تحدر اليه مع السـيل من أعالى الجبال القائمة عن جانبيه . لكنها أحجار لا تعوق السيّارة فى انطلاقها وإن اضطرتها الى عدم الإسراع . وعجيب أن تظل هـذه الجبال جرداء على رغم ما ينحطّ عليها من سـيول وأمطار ، فلا تنبت الأشجار فى قُنَنها وعلى سفوحها . أيرجع السرّ فى ذلك الى أنه لم يُعْنَ أحد باستنبات هـذه القنن والسفوح فظلّت جرداء أن لم تُبْذَرْ فيها بذور ولم يُغْرَس بها شجر ؟ ما أظن ! ففى صحارى تهـامة وأوديتها ألوان من الشجر تنبت بذاتها ، منها السَّلَم والعُشَر والطَّلْح . ولعل هذه الألوان لا ترقى الى سفوح الجبال وقُنَنها ، ولذلك ظلّت جبال اليمانية جرداء رغم المياه التى تحدر عنها .

ينتهى درب اليمانية حيث تنتهى هذه الأحجار المنثورة خلاله . ويقوم على جانبيه عند نهايته جبلان متقابلان يطلق عليهما اسم السُّومان . ويحسب صاحبي أن هذا الاسم محرف أصله التوءمان .

بعد هذين الجبلين ينفرج الوادى ويصلح الطريق وينفسح ويصبح فى سعته وصلاحه كأنه بعض طرق برلين الكبرى . فهو طريق حجرىٌّ أصفر اللون فى صفرة الرمل ، تنطلق فيه السيارة بما يشاء لها سائقها من سرعة . وهذا الطريق يدعى البهيتة بلغة البدو ، والبُهَيْتاء بالعربيـة فيما ذكر صاحبي . وقد أضاف أنه سمّى كذلك لأنه يبهت الإبل أى يجهـدها . ذلك أنه متدرّج فى الارتفاع من الزيمة الى السـيل الكبير تدرّجا لا يحسه راكب السـيّارة فى انطلاقها ، لكنه يراه بعينـه اذا نظر الى الطريق أمامه وارتد ينظر فيما وراءه . وصَدَق . وقد فعلت ، فذكرت طرق الجبال فى لُبْنان وفى أوربا ، لا يقدر الإنسان ذهابها فى الارتفاع أو الانخفاض أثناء انطلاق السيّارة حتى يجعل نظره فيما أمامه وفيما خلفه منها . والبهيتاء تظلّ ذاهبة فى ارتفاعها منذ تبدأ من اليمانية حتى تبلغ السيل الكبير .

علمت بأنا بلغنا السـيل الكبير حين رأيت جبـالا تقوم فى الطريق فتسدّه . ولقد رأيت بأسفل سفحها دورا من الحجر أدنى الى الأكواخ منها الى الدور ، ورأيت المياه تجرى أمام هذه الأكواخ . وقد عبرتها سيّارتنا ووقفت فى فنـاء فسيح تحيط الأكواخ به . وهبطنا منها ، وأقبل علينا بعض ساكنى هذا السيل ، فطلب أصحابى اليهم أن يُعِدّوا لنا شايا . وفى انتظار إعداد الشاى صلّينا العصر والشمس توشك أن تغيب . وتناولنا الشاى جلوسا على الفراش الذى مدّ لنا وصاحبي يقول : " من هذا الطريق الذى جئنا منه جاء جيش المسلمين الذين أرادوا حصار الطائف . ويذهب بعضهم الى أن هـذا المكان الذى نقيم الآن به هو الذى وقعت به غزوة حُنَـيْن ، وإن كانت الشواهد كلها تُدْحِض هذا القول . وهذا المكان هو فى المشهور وادى نخلة ؛ ولذلك كان وما يزال ميقات أهل نجد والعراق . وبُعْد ما بين حنين ونخلة ؛ ولذلك أميل كما قدمت الى أن حنينا تقع بين الشرائع والزيمة " .

وأجلت بصرى فى هذه الدور التى حولى والتى تتكوّن منها هذه المحلة، فذكرت الدّساكر (العِزَبَ) فى الريف المصرى . وزادنى ذكرا إياها أنى قمت أدور فى أنحاء المحلّة، فألفيت بعض الخيـل والدوابّ فى أحد جوانبها ، وألفيت المـاء ها هنـا وهناك فيما أمامها . ولم أعجب لوجود المـاء وآسم المكان عَلَمٌ عليه ؛ بل عجبت لقلّته . قال الشيخ صالح : هو قليل الآن لانتهاء فصل السيول . لكنه يكثر حين الأمطار حتى يجعل السير فى هذا المكان متعذّرا . وكذلك تراه يتبع فى قلته وكثرته ما تنحدر عنه الجبال من مياه المطر .

ولم يكن عجبي من هـذا المكان لقلة المـاء ولا لكثرته فيـه ، بل لهذا الجبل الذى يسدّ الطريق ولا سبيل لاجتيازه . فمن أين تُرى تتخذ سيّارتنا طريقها! وإذا كان قد قدّ لها فى الصخر طريق فمن أين سار جيش حُنَين لحصار الطائف ؟ ! لقد كانوا اثنى عشر ألفا ومعهم من الإبل ما يكفى لحملهم وحمل مئونتهم؟ أفتسلّقوا الجبل خفافًا وتسلّقت إبلهم معهم، أم داروا حوله وستدور سيّارتنا الآن كذلك حوله؟!.

ثم ألقيت نظرة الى الطريق الذى جئنا منه، الى هذه البهيتاء المنحدرة نحو اليمانية فالزيمة ، الجامعة بين فسـحة الوادى وصمت الصحراء ، وقد ألقت عليها الشمس المنحدرة الى مغيبها أشعّة ندية أوحت الى صمتها معانى ينشرح لها الصدر وينفتح لها القلب وتسبغ عليها الروح ما يفيض عنهـا من صور ومُثُـل . وما أبهى ما يفيض عن الروح فى هـذه الساعة وما أشدّ صفاءه ! . إنها الطمأنينة الى الطبيعة الفسيحة المترامية الى ما وراء الأفق حيث لا يتصوّر خيالنا للكون نهاية، طمأنينة تضمّنا الى أحضان الطبيعة وتجعلنا نضم الطبيعة الى أحضاننا . إنها سكينة الفؤاد الى هذا الصمت المهيب العـذب، لا تفسده ضجة الحياة ولا تغشّيه مشاغلها بسحب الهموم حرصا على المـال والسلطان . إنه التأمل فى هذا الكون العظيم وفى بارئه الأكبر ، تعالى جل شأنه، تأملا يثير أمام الذهن صورة المـاضى مجتمعة فى النفس الى أول الخلق، وصورة جهاد الإنسان أثناء هـذا المـاضى ليبلغ الكمال . ومن هـذا الجهاد مسيرة

جيش حُنَين فى ذلك الطريق مترنّما بأُغنيات الفوز والظفر رافعا عقيرته الى السماء مناديا : لَبَّيْكَ اللهم وسَعْدَيْك . ومن هذا الجهاد مسيرة الرسول فى عزلة يريد الطائف كما أريدها أنا اليوم ، لكنه يريدها لغاية أسمى وغرض أرفع من غرض الدرس وغاية المعرفة ، يريدها ليدعو أهلها الى الحق ولينقذهم من ظلمات الضلال .

ودعانى أصحابى لنتابع سيرنا . وتخطّت السيّارة الماء عائدة الى الطريق ثم سارت الى صدر الجبل كأنما تريد أن تقتحمه ، وهى تتخطى أثناء سيرها مياها تجرى ها هنا وهناك منحدرة على هون من أعالى القُنن . وما لبثتْ حين استدارت بين صخور الجبل حتى ابتلعها الجبل فى جوفه ، فهى تشقّ خلالَه طريقا وَعْرًا ماتكاد تتقدم أثناءه ؛ ترتفع آنا على حجر وتهبط آنا الى طريق لا يستوى بضعة أمتار حتى تكظه الأحجار فيضطر السائق الى أن يعنُف بالسيّارة كيما تتخطاها . والجبل تقوم قممه عن يميننا وقممه الأخرى عن يسارنا قد حجب عنا كلّ شىء إلا طريقا فى السماء تدلّنا زرقته على أن الشمس لمّا تغرب . وأبديت لصاحبىَّ عجبى لوعورة الطريق بما لم أر قطّ مثله ، وخشيت أن يكون ذلك شأننا فيما بقى أمامنا منه الى الطائف . قالا : ” لا عليك ! فإنما هذه ذات عِرْق ، وهذا الرِّيع الذى تصعد بنا السيّارة خلاله لا يزيد على بضع كيلو مترات هى وحدها كل ما فى الطريق من مشقة . فإذا اجتزناها عدنا الى مثل طريق اليمانية وطريق البهيتاء تداولا بينهما حتى الطائف . ولطالما حاولت الحكومة أن تصلح هذا الجزء من الطريق فغلبتها السيول تخريبا إياه وإلقاء للاحجار من قنن الجبال أثناءه “ . وبينما نتحدّث كانت السيّارة تبذل مجهودا أشق مجهود وأعسره ؛ مجهود الحبلى تريد أن تقذف بمن فى جوفها سليما الى الحياة : أتنجح وتنجو بجنينها ، أم يروح مجهودها سدًى فتذهب هى وجنينها ضحيته ، أم يخرج مَنْ فى جوفها وتكون هى الضحية ! والسائق يعاونها فى هذا المجهود ويفادى بها الصخر حينا ويدفع الى محرّكها مزيدا من البنزين حينا آخر ، وهى بين هذا وذاك تئن تارة كأنما تتأوه ، وتقف أخرى مستسلمة للمقادير وقد بدا منها اليأس . وإنها لتندفع بين الصخور وفوقها وقد قاربت نهاية الريع إذ آرتطم بطنها بصخرة اشتدّت

من هول صدمتها صيحتها . وسألنا حسنًا ما بالها ؟ فهوّن الأمر . لكنه نزل من مكانه يفحصها ثم انبطح أرضا يحاول أن يعالجها . ونزلنا نحن منهـا وتخطّينا ما بقى من الرَّيع ، فانكشف أمامنا سهل فسيح تبينّا أثناءه أن الشمس قد انحدرت فى هوّة المغيب . ولم يبطئ السائق بل أدركنا بالسيّارة وأنبأنا أن عَطَبًا غير ذى بال أصابها ، وأنهـا قديرة على أن تبلُغ بنا الطائف . وقد اقتضاه عطبها ألّا يسرع بهـا كما كان يود أن يسرع .

وسرنا نشـق سهلا فسيحا تمشّت بشائر الليـل فى جوفه فأكسبته رقة وجمالا وإن حجبت عن النظر الكثير مما وددت لو استمتعت به . ويطلق السائق للسيارة العِنانـ إذا رأى الطريق صالحا فتسرع ، ولكن لا كما كانت تسرع فى البهيتاء . ويبعث أضواء فناره الساطعة ما بين آن وآن لتكشف له الطريق كلمـا غُمّ عليه . وقليلا ما يغمّ الطريق على هؤلاء البدو الذين اعتادت أعينهم أن ترى خلال الظلام . وسألت عن أشجار تبدّت أطيافا إذ نمرّ بها فقيل لى إنها الطلح النابت فى الصحراء .

قال صاحبي : " أنسانى ما عانت السيّارة ساعة ارتطمت بالريع أن أذكرلك أن المكان الذى وقفنا عنده بعد خروجنا من ريع ذات عرق ، والذى يتصل بهذا الطريق الذى نسير فيـه الآن ، هو مفرق الطريق بين الطائف والعُشَيرة . فنحن قد سرنا الى يمين ذات عِرْق نقصد الطائف . فأما الذين يقصدون العشيرة ونجدا فيسيرون الى اليسار . وقد تواضع الناس على تسميته مَفْرَق العُشَيْرة " .

وبعد هنيهة أردف يقول : "ونحن الآن نقترب من السيل الصغير . وتقع ديار القُثَمَة بين مَفْرَق الطريق والسيل الصغير ، فهى التى تمر السيّارة بها الآن . والقُثَمَة قبيـلة من هوازن لعلها اشتركت فى غزوة حُنَيْن مع سائر هوازن وثقيف . وسنمر الآن عند السيل الصغير بمكان اشتهر باسم القهاوى . ولو أن النهار أسعدنا بضوئه لرأيت آثارها . وانمـا يعنيك من ذلك ما يدور على أفواه الكثيرين من أن سـوق عكاظ كانت تعقد عندها ، وما يؤكده بعضهم من صحة هذا القول . لكنك قد سمعت

أنها كانت تعقد عند السيل الكبير، وستسمع كذلك أنها كانت تعقد فى وادى عُشَيْرة مما يلى رُكْبة، وهو المشهور قديما بوادى العقيق . ويذهب غير هؤلاء وأولئك الى أن هذه السوق كانت تعقد على مقـربة من الطائف بواد يقال له وادى عَقْرَب . ولقد حاول بعضهم تحقيق هـذه الأقوال والقطع برأى فيها . فلعل ما تقوم به من البحوث يصـل بك الى مالم يصل اليـه غيرك . فلقد كان لعكاظ ذكر فى سـيرة الرسول عليه السلام قبل أن يبعثه الله نبيًا " .

وهدأت السيارة من جريها، وقال السائق : "هذه القهاوى . وهنا المكان الذى يقولون إنه عكاظ" . أمّا أنا فلم أر شيئا أستطيع أن أتبيّنه . فقد هبطت كِسَفُ الظلام وانطوى الوجود فى دُجُنَّة الليل . وكنا فى الثلث الأخير من ذى الحجة، فلم يكن للقمر فى السماء أثر؛ ولم تكن النجوم لتكشف من غِطاء الليل شيئا . وهذه الأودية الصامتة فى رابعة النهار هى الساعةَ أشدّ صمتا ومهابة . فالنهار يجلو أمام النظر ما فيها من حزون وبطون . أمّا الآن فالعين لاترى إلا ظلاما . فاذا تبيّنت خلال الظلام شيئا فأطياف لا تدرى أهى أطياف الشـجر أم مَرَدَةٌ من الجنّ تسـبَح الليـل فى مهامه هذا القفر الموحش . وما لهـا لا تكون أطيافَ أولئك الأعراب الذين يقطعون على النـاس الطريق وينزعون عنهـم ما يملكون، إن رضـوا كرمًا منهم أن يَهَبُوهم حياتهم! . هـذه أخيلة تدور بخاطرى الساعة وأنا أصـف الطريق . أمّا والسيّارة تسرى بنـا الليل أثناءه فـلم يمرّ بى طيفها؛ بل كنت مطمئنا كل الطمأنينة . ولم يكن مرجع طمأنينتى الى أننا كنا أربعة بالسيّارة، وأننـا كانت تتبعنا عربة "البكسفورد"، فلا خوف علينا من مردة الجن ولا من مردة الإنس؛ بل كان مرجعها إلى حال نفسيّة أَلِفتها فى حياتى؛ وكنت فى الحجاز أشدّ إلفًا لها . فأنا قلّمـا يساورنى الخوف من شىء . لكنّنى كنت فى الحجـاز أشعر كأنمـا تضاعفت قوّة الحياة فى نفسى؛ لأنى تضاعفتْ ثقتى بالله وتضاعف إسلامى له .

وتكلّم صاحبى بعـد زمن من عود السيّارة الى انطلاقها كأنمـا يريد أن يقطع الصمت الذى سادنا خلال هذا الليل الذى يشتملنا : "لقـد صرنا على مقربة من

الطائف ، وهــذا الوادى الذى يسبقها تعمره قرى كثيرة ؛ فعلى مقربة منـا الآن أم الحمض ، ويجيء بعدها وادى لُقَيْم ، ثم المُلَيْساء ، ثم هَضْبة الزوّار ، ثم شـبرة ، ثم الطائف . وقد لا نحتاج فى اجتياز هــذه جميعا الى غير ساعة أو أكثر قليلا " .

شعرت من لهجة هذا الحديث أن صاحبى يريد أن يهوّن علىّ مشقة الطريق ؛ فقلت له : " إن الجوّ الآن جميل يبعث الى النفس الغبطة والمرح ؛ ولا حاجة بنـا أن نعجّل غايتنا . وما دامت السيّارة لا تسرع بنا فليت " البُكْس " يدركنا لندخل الطائف معا " .

قال الشيخ صالح : " أحسبنى أسمع صوت نفير لعله نفيره . وأحسبه على خمسة أميال منّـا . وهو لا ريب قد تخطّى الربع دون أن يلحقــه أذًى . فعجلاته عالية تيسّر على السائق تفادى الصخور التى تعترض سبيله ، وسائقه جرىء لا يخاف . وأكبر ظنى أنه مدركنا قبل نصف ساعة من وقتنا هذا . بذلك ندخل معًا الطائف حيث ينتظرنا الناس ، فلا نضطر نحن ولا غيرنا الى انتظاره هناك " .

ولم يخطئ ظن الشيخ صالح . فبعد دقائق سمعنا جميعا صوت نفير قرّر سائقنا أنه نفير " البكس " ، ثم قرّر وقد التفت وراءه أنه يرى ضوء فناره . فنحن إذًا بمأمن إن أصاب سيّارتنا عطب يحول دون بلوغها الطائف إذ نستطيع أن نركب البكس ونتم الطريق .

وأدركنا البكس بعد نصف ساعة ، وكانت الساعة قد جاوزت الثامنة مساء ، بل لعلها قاربت التاسعة . وانطلقت العربتان تجريان فى طريق معتدل قدر ما يكون طريق السيّارة فوق رمال البادية معتدلا . وشعر الشيخ صالح أنى أضم الىّ ردائى ومشلحى فقال : " هذا جوّ الطائف . والطائف ترتفع عن سطح البحر ألفا وسبعمائة متر أو تزيد ، وهى لذلك مَصِيف أهل مكة . فلا عجب إن أدركك من جوّها شىء من البرد . ولكن لا تخف فهى مَصَحّ لا يضرّ جوّه " .

انتهز الشيخ عبد الحميد فرصة هذ القول فأردف : " إذا كنت تضم اليك رداءك من البرد فما كان عسى أن يصنع جيش حُنَيْن ولم يكن يحول بينهم وبين هواء البادية

زجاج كالذى يحول بينك و بينه!". وتبسّمت ضاحكا من قوله وأجبت : "لقد كانوا فى دفء بالظفر والغنيمة ، وكانوا كذلك فى دفء بالسير على أقدامهم أو على ظهور إبلهم . ولعلهم كانوا يقطعون هذا الطريق فى الربيع أو الصيف فكان لهم نعيما وغبطة".

انقضت الساعة التاسعة وتنصّفت الساعة العاشرة والظلمة المحيطة بنا دَرْدَبِيس لا يرى الانسان أثناءها كفه . والسيّارتان تجريان على هُون حتى لا يزيد ما بسيّارتنا من العطب . ونتحدّث آنا ونلزم الصمت آخر وقد حُجب عنا كل ما حولنا فلا نرى إلا ما يضيئه فنار السيّارة من الطريق . وإنّا لكذلك إذ بدا من ناحية الشرق ضياء وخَط سوادَ السماء ، ثم أضاء القمر الأرجاء . ومددت البصر ذات اليمين وذات الشمال فرأيت ما حولى سهلا فسيحًا لا تقف الجبال البعيدة دون تجوال النظر فيه . وبدت الجبال لبعدها عنّا أشباحًا مهولة لانميّز منها إلا ارتفاعها وضخامتها . وفى هنيهة صمتٍ قال السائق : هذه الطائف . وحدّقت أرجو أن أرى بناء فارتدّ بصرى ولم أر شيئا . وإنما تعزّيت بالمثل العربىّ : "القول ما قالت حَذَامِ". ولئن كانت حزام تبصر الى مسيرة ثلاثة أيام لقد عوّدنا حسنُ الصدقَ حين يتحدّث عما يرى .

هذه الطائف . فى هذا السهل الفسيح حولنا كانت إذًا جنود النبيّ العربىّ منتشرة حين جاءت من حُنَيْن لحصار المدينة الحصينة وأهلها ذوى البأس والمَنَعة . وفى مكان منه ضربت خيمتان من أديم أحمر لمقام أمّ سلمة و زينب أمّي المؤمنين . ترى أين يكون هذا المكان ؟ أكان هاهنا على مقربة منا فنحن نسير حيث نزلوا ! إنهم جاءوا الى الطائف من ناحية لِيَّة . وهى لاريب قريبة من هنا . ولكن أين كانت مضارب خيامهم ؟ لعلى لو سألت لمَا أجابنى أحد . فتحديد المواقع التى مرّ بها الرسول أمر لا يعرفه الناس من أهل هذه البلاد إلا ظنًّا ، إلا من يكون قد عُنِي منهم بدرس السيرة درسا تطبيقيًّا . ولقد كنت سمعت أن الشيخ عبد الله بن بليهد

عالم نجد قد قام بشيء من هذا الدرس ، فلأُحَاوِل بعـد عودتى الى مكة أن أراه ، وإن كنت لا أثق كثيرا بأننى سأجد طَلِبتى عنده . فأمّا الحاج عبد الله فلبي — أو سير سنت چون فلبي — فلم يجعل من هـذا الأمر موضع عنايته مخافة الخلاف مع علماء الشريعة على قـوله ، أو لأنه أكثر عنـاية برسم خرائط بلاد العرب الحالية كما يبدو من عمـــله .

قال صاحبي : هـذه شُبْرة . وعجبت كمصرى لسماع اسم يتـداوله سمعى أثناء مُقامى بعاصمة بلادى . وفطن صاحبي لعجبي فقال : "وهذا قصر الملك هنا . ولقد بناه الشريف عبد الله بن عون وأحاطه بالبساتين ، وسمّى هذا المكان شبرة باسم شبرا المجاورة للقاهرة ، لمجاورة هـذا المكان للطائف . وهـذا القصر من أفخم قصور الحجاز ، بل لعله أفخمها جميعا " .

كان صاحبي يقول هـذا الكلام والسيّارة تتخطّى على هُون بين جدرانٍ أغلبُ الظن أنهـا من الحجر الأبيض ألقى عليهـا القمر أشعّته البيضاء فزادها بياضًا . فأمّا ماوراء هذه الجدران من قصور و بساتين يتحدّث عنها صاحبي فلم يلفتنى إليه ولم يوقظ إليـه انتباهى . لقـد أزِفت الساعة على الحادية عشرة مساء ، أو الخامسة بالوقت العربى إن شئت ، وقد كنت مجهودا غاية الجهد . ولعـلّ لو رآنى فى هذه الساعة أحد من أهلى أو من أصدقائى بمصر لذكر لفوره قول عمر بن أبى ربيعة :

أخا سَفَرٍ جَوّابَ أرضٍ تقاذفت ... به فَلَوَاتٌ فهو أشْـعَثُ أغــبرُ

اجتازت بنا السيّارة شبرة ثم تيامنت فتياسرت فمرّت ، بعد فضاء يبدو إلى جانبه سور لم أدر ما هو ، بمنازل أشبه شئ بالأطلال ، لكن بناءها يبدو جديدا لم يتمّ بعد ، فلم توضع أبوابه ونوافذه . وتيامنت السيارة ثم تياسرت ثم وقفت بباب لقينا عنده من ينتظرنا . وهبطنا من السيارة واجتزنا البـاب إلى حديقة لمع تحت ضوء القمر نباتها ، ثم سرنا إلى بهو فسيح مطل على نافورة ماء لم أقف عندها . وفى يمين البهو باب دخلنا منـه إلى غرفة بها مقاعد وثيرة دعانى القوم إلى الجلوس فيها ، فجلست

سعيدا أن قطعنا رحلتنا هـذه وبلغنا غايتنا منها بعد الذى أصاب السيّارة سالمين . وجىء لنا بالقهوة فشربناها، وتبادلنا من الحديث ماردّ إلينا بعض الطمأنينة. وغاب عنا الشيخ محمد صالح القزّاز زمنا ثم عاد فجلس يحيّينا . وكان ما تمثل به :

يا ضـيفنا لو جئتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وشِمتُ فيه إذ تمثّل بهـذا البيت الرُّوحَ العربى القديم ، روح الكرامة والكرم والشهامة والنخوة، فشكرت له وبادلته تحيّة بتحيّة . وأقمنا بمجلسنا حتى دُعينا لتناول الطعام . وتناولناه وٱعتذرتُ عن القهوة وتحدّثنا حينًا ثم أوينا إلى فراشنا . وكان فراشى فى غرفةٍ بابها يقابل باب غرفة الجلوس فى الجدار الموازى من البهو ؛ ومن داخل هذه الغرفة حمّام به صنابير للماء ساخنا وباردًا. ونمت ملء جفونى ثم استيقظت بكرة الصباح ممتلئا نشاطا . وأقمت أنظر كيف أعدّ السيد صالح القزّاز برنامج يومنا . وإنى لكذلك إذ جاءنى بصحبة الشيخ عبد الحميد حديدى ومعهما ورقة كتبا فيها برنامجا لكل يوم من أيام مُقامنا بالطائف . وكان برنامج يومنا الأوّل مدينة الطائف وماحولها .

الطائف

الطائف مدينة من أقدم المدن فى بلاد العرب . ولعله لا يغلو من يحسبها أقدم من مكة أو من المدينة ، وإن كانت الأساطير تذهب إلى أن بقعة الأرض التى تقوم منطقة الطائف عليها لم توجد ببلاد العرب إلا بعد أن أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . فقد ذكروا أن إبراهيم لما جاء بهاجر وبإسماعيل إلى وادى مكة فأقام قواعد البيت توجه إلى الله بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِم ﴾ ، عند ذلك أمر الله الملائكة فانتزعوا قطعة من أرض الشام ووضعوها فى المكان الذى تقوم الطائف به . وعلماء الجغرافيا وعلماء طبقات الأرض يُنكرون لا ريب هذا الكلام وإن رُوى فيه حديثٌ للنبىّ صلى الله عليه وسلم . وهم يُنكرون هذا الحديث ويؤكدون أن النبىّ لم يقله لأن الطائف وباديتها وأوديتها وجبالها وجدت مع بلاد العرب ومع الشام جميعا، فلم يُنقَل منها إلى الشام شىء ولم يُنقل من الشام إليها شىء .

والتسليم برأى هؤلاء العلماء لا يَنْفى ما تصوّره هذه الأسطورة من تباين بين طبيعة الطائف وطبيعة مكة ، يتجلّى لكل من قرأ كتب الأدب العربى القديم ، وقرأ سيرة النبىّ العربىّ ، ومن عُنى بتاريخ بلاد العرب بوجه عام . وأقلّ مظاهر هذا التباين مما تحدّث عنه الكتب خِصْبُ الطائف وإمحال مكة ، وما ترتّب على هذا الخصب وهذا الإمحال فى الطبيعة من أثر فى الرجال . فالعرب الذين تركوا على التاريخ الإسلامى ذكرًا أكثرهم من ثَقِيف وَهَوازِن ، وأقلُّهم من مكة والحجاز . ولولا بيت الله بمكة ولولا أنها مسقط رأس النبىّ العربىّ ، لكانت الطائف صاحبة الأمر فى الحجاز ، وخاصّة بعد أن فقدت مكة مكانتها التجارية حين تحوّل من ذلك اليوم البعيد طريق التجارة من البرّ إلى البحر ، ومن سفينة الصحراء إلى

سفينة الماء . وأقول اليوم البعيد لأنه يبدأ قبل الإسلام ، ولأن طريق القوافل المار بمكة فقد كل خطره منذ صدر الإسلام وحين انتقلت العاصمة الإسلامية من بلاد العرب إلى الشام والعراق ومصر .

وليس هذا التباين فى الطبيعة هو وحده الذى يجعل للطائف هذه المكانة المرموقة ؛ فتاريخها يكفل لها مكانة مثلها . وليس يستطيع الباحث فى سيرة النبىّ العربى أن يمرّ بالطائف دون أن يقف عندها . فمنازل بنى سعد الذين استرضع النبىّ فيهم قريبة من الطائف بل هى من باديتها . وإذا لم يكن يسيرًا أن يقطع الإنسان بأن حَليمةَ السعديّة ظِئْر النبىّ مرّت بالطائف فى ذهابها الى مكة أو فى عودتها منها ، فإن طبيعة الطائف وباديتها الخِصْبة الكثيرة الأودية والجبال قد كانت أوّل ما وقعت عليه عينا محمد الطفل المترعرع فى هذه البيئة البدويّة ، الناعم بهوائها وبين أهلها ذوى النفوس الحرّة الطليقة من كل قيد . ولمّا بُعث النبىّ وقضى من السنين ما قضى بمكة فلم تُثمر دعوته الثمرةَ التى تُهَيّئ له التغلّبَ على ضلال قومه ، كانت الطائف فى مقدّمة البلاد التى اتّجه نظرُه للامتناع بها وببأس أهلها . صحيح أنهم لم يسمعوا له ، وأنّهم كانوا أشدّ حرصا على عبادة اللّات منهم على اتّباع هذا الذى جاء يصرفهم عن دينهم كما حاول عبثًا أن يصرف أكابر قومه عن دينهم ؛ لكن تفكير محمد فى أمرهم ، وذهابه وحيدًا اليهم ، وتعريضه نفسَه لِما تعرّض له منهم ، وهو لا يملك فى وَحْدته دفاعًا عن نفسه ، كلّ ذلك يدلّ على أنه رآهم أرجح عقلا وأدنى الى إجابة داعى الحق من غيرهم . فأمّا ما كان من صدّهم إياه ومن تحرّش صبيانهم به ، ثم ما كان بعد ذلك بينه وبين عَدّاس النَّصْرانى ، فتلك آية الله على أنّ الحقّ فى حاجة الى صلابة فى النفس وقوّة فى الخُلُق لينتصر ، فاذا دعا اليه القوىّ الأمين الذى يُخْلص فى الدعوة تمّ له النصر ولو بعد حين .

ذهب محمد يومئذ الى الطائف وحيدا بعد أن تولّاه اليأس من قومه لِما اشتهر عن الطائف وأهلها من رجاحة الحكم وسعة الصدر وقوّة البيان ؛ وجعل يصعد

الجبال وينحدر الى السهول ثم يصعد ثم ينحدر ، حتى اذا بلغ القومَ فى ديارهم قصد الى دار أبناء عمرو بن عُمَيْر بن عوف الثقفى وهم يومئذ سادات قومهم ؛ أولئك عبدياليل ومسعود وحبيب . وجلس اليهم يحدّثهم عن رسالته ويدعوهم الى القيام معه على من خالفه من قومه ويَعِدُهم النصرَ والجنة . لكنهم كانوا كغيرهم من أهل شبه الجزيرة ، يُريدون العاجلة ، ويَجِدون فى أصنامهم الوسيلةَ إلى ربهم ، ثم كانوا يرون مخالفته على قريش أمرًا قليل النفع مخشىّ الضرر ؛ وهو كذلك بخاصة لأن الخلاف يتّصل بعبادة الأصنام ، على حين لم تنازعهم قريش عبادةَ اللّات ولا نازعتهم قدسيّة بيتها ، كما أنهم لم ينازعوها حرمة البيت العتيق وأصنامه . جال هذا كله بخاطر القوم ومحمد يحدّثهم ، فلم يجدوا لمجادلته موضعًا ، بل أنكروا عليه رسالته فى غلظة وفظاظة . قال أحدهم : "هو يَمْرُطُ ثيابَ الكعبة إن كان أرسلك" . وقال الثانى : "ماوجد الله أحدا يرسله غيرك !" . ورأى الثالث ما فى هاتين العبارتين من قسوة فلجأ الى التهكم وقال : "والله لا أكلمك أبدا . إن كنت رسولا من الله كما تقول فأنت أعظم خطرا من أن أردّ عليك ؛ وإن كنت تكذب على الله فما ينبغى أن أكلّمك" .

حزن النبى لما سمع منهم وأيقن أنه ملاق من سائر ثقيف مثل ردّهم . لقد كان يطمع فى معونتهم لحكمتهم وسيادتهم ونزول قومهم على حكمهم ؛ أمّا وذلك جوابهم فلا خير فى التحدّث إلى غيرهم . لكن قريشًا بمكة لن يفوتها أن تسمع بما أصابه اذا تناقل أهل الطائف روايته ، فيزداد محمد والمسلمون هوانًا عليها وتزداد إيذاء لهم وقسوة بهم . لذلك ألح محمد على محدِّثيه الثلاثة أن يكتموا ما دار بينه وبينهم حتى لا تصيبه قريش بأذى . أما عبدُ ياليل وأخواه فخافوا مغبّة الكتمان وما يمكن أن تؤوّل به زيارة محمد إيّاهم فلم يسمعوا له ، بل أغرَوْا به سفهاءهم حين خرج من عندهم . وتعقّبه السفهاء يقذفونه بالحجارة ، فالتجأ منهم الى حائط لشَيْبة وعُتْبة ابنى ربيعة وجلس الى ظلّ شجرة فيه ورفع طرفه الى السماء يشكو

الى ربّه سوء ما حلّ به . ورآه ابنا ربيعة ورأيا ضراعته وما هو فيه من سوء الحال، وبعثا اليه مع غلامهما عدّاس النصرانى بقِطْف من عنب يُروى به ظماه ويرفّه به عن نفسه؛ ومدّ النبيّ يده الى العنب .قال : باسم الله، ثم أكل . ودهش عدّاس لِما رأى وسأل محمدا عن شأنه؛ فلما علم أنه نبيّ أقبل عليه يقبّل رأسه ويديه. وحذر صاحبا الكَرْم غلامهما من أن يؤمن به؛ فنصرانيةُ عدّاس خير عندهما من هذا الذى يدعو محمد اليه . وانصرف محمد عن الطائف كسيرَ الخاطر، وعاد يصعد فى الجبال وينحدر فى السهول ثم يصعد ثم ينحدر حتى بلغ مكة، فإذا الأنباء سبقته اليها، واذا قريش تستقبله بالسخرية وتناله وأصحابه من الأذى بأكثر مما نالته ونالتهم به من قبل .

لو أن محمدا كان رجلا كالرجال لفَتّ ما صنع أهل الطائف فى عَضُده ولآثر السلامة بين قومه، فعاد اليهم وانضوى تحت لوائهم . لكنّه أقام يدعو الى هذا الحقّ الذى لم تأبه له ثقيف، قويّة بالحقّ نفسُه، عامرًا بالله قلبه، حتى نصر الله هذا الحقّ بعد حين . فعاد محمد بعد عشر سنوات أخرى الى الطائف قويًّا بلواء هذا الحق الذى أظلّ بلاد العرب كلها، فتحصّن أهلُها منه ولم يُذْعنوا لدعوته كرّة أخرى . لكنهم ما لبثوا حين رأَوْا أن لا ملجأ من الحقّ إلاّ اليه أن بعثوا الى محمد من تلقاء أنفسهم يلتمسون الانضواء الى دينه والأخذ بناصره . أوَليس عجيبا أن يأبى الناس الحق إذا دُعوا اليه بالحسنى وأن يحاربوا الرسولَ الذى يدعوهم اليه، فاذا تولّى عنهم ورأوا أن لا قِبَلَ لهم باعتزال الحق بعد أن آمن الناس به أقبلوا طائعين يلتمسون رضوان من سخروا منه من قبل وأغرَوْا به سفهاءهم، ثم حاربوه ومنعوا منه وطَنهم ! . فلقد تحصّنت الطائفُ من المسلمين بعد انتصارهم فى حُنَين فلم يستطيعوا فتحها وانصرفوا عنها، ثم بعثت هذه الطائف سادات ثقيف يُعلنون الى محمد إسلامَهم ويَكِلون اليه أن يبعث معهم من يفقّههم فى الدّين ويرشدهم الى عظمة الحقّ فيه . هذه آية خالدة على الزمن تشهد بأن للحقّ لا محالة

النصر آخر الأمر ما آستمسك به صاحبه عن إيمان ويقين ، وبأن النفس الإنسانية تهفو الى الحقّ ما آطمأنت الى آقتناع الدّاعى إليه والى إيمـانه به .

خرجت مع أصحابى أزور هذه الطائف ذات التاريخ المجيد، وصحبنا فى زيارتنا رجل من أهل الطائف هو الشريف حمزة الغالبىّ . ولقد أقبـل هذا الرجل علينا منذ الصباح، وقدّمه إلىّ السـيّد صالح القزّاز؛ فبادر الرجل فحيّانى ضَيْفاً للطائف أجمل تحيّة . وهو بدوىّ فى سَحْنته وفى حديثه وفى لباسه وفى تحيّته وفى كل ما يبدو من مظهره . أسمر السَّحْنة، عربىّ التقاطيع، تلمع عيناه السوداوان ببريق من ذكاء فطرى، وتدلّ لهجة حديثـه اللّينة على دهاء وسَعَة حيـلة . يلبس الصّمادة والعقال الصوف على رأسه، وجلباباً يتمنطق فوقه بقماشة حمراء أشبه شىء بالفوطة، تتدلّى من خصره الى أسـفل ظهره حتى تحاذى الركبتين فى مثلّث لا يبدو منه من الأمام غير انحدار القماش من حيث يربط حتى يستدير ليبـدو فى صورة المثلّث وراء ظهره . وهو يلبس فى قدميه نعلين حجازيتين لا شىء فيهما من زخرف النعال التى يلبسها اليوم أهل مكة، والتى زُخرفت منـذ الفتح الوهابىّ الأخير على طـراز النعال النجدية . ولمـا ذكر السـيّد صالح القزّاز وهو يقدّمه أنه سيكون دليلنا فى بادية الطائف وما حولهـا أبدىَ الرجل من الاغتباط بذلك ومن تفتّح قلبِـه له ما زادنا آغتباطاً برفقته وأُنْساً به .

يقع منزل السيد محمد سرور الصبّان، حيث أقمنا، فى أقصى الطائف بضاحية تدعى قَرْوة . وبهذه الضاحية عدّة آبار أشهرها بئر عَجْلَان المعروفة بعذوبة مائها . ومكان هذه البئر منها على مقربة من جبل السّكارى فى جنوب الطائف . ويطلق هذا الاسم على الجبـل الذى تسـمّى به منـذ العصور الأولى ، وأنت لذلك تجده فى الكتب القديمة . وسبب إطلاقه فيما يذكرون أن أهل الطائف كانوا يذهبون إليه فى أعيادهم الأهلية يسمُرون ويسكرون . ومنازل قروة قليلة ، وبها مبان لم تتم، وبها آثار منازل مهدّمة ؛ هـذا مع وفرة مائهـا وكثرة آبارها وصـلاحها للسكنى

والاصطياف . ويذكر أهل الطائف، وتؤيدهم كتب الرّحلات اليها، أن قروة كانت عامرة كثيرة الدُّور مقصودة من المصطافين من أهل مكة وغيرهم، وأنه كان بها خمسة عشر بستانا . فلما وقعت الحوادث الأخيرة ودخل الوهابيّون الطائف دُمّرت أكثر منازلها وهجرها أهلها وصارت الى ما رأيتُها عليه من قلّة المنازل، وآنعدمت بساتينها .

غادرت المنزل مع أصحابى ومعنا الشريف حمزة وركبنا السيّارة نبتغى زيارةَ الطائف ذات التاريخ المجيد . فلنذهبْ إذًا الى البقعة التى تُفاخر بها الطائف كل مكان آخر فى بلاد العرب، تلك حيث دفن أصحاب الرسول الذين قُتلوا حين حصار الطائف، والذين بقى آسمهم علما على التضحية بالحياة فى سبيل الحقّ، كما بقى أبناء الطائف المثل الأعلى لاستماتة أبناء الوطن فى الدّفاع عن وطنهم . وذهبتْ بنا السيّارة الى مسجد آبن عبّاس القائم حيث كان جيش المسلمين الذين حاصروا الطائف على عهد النبىّ، والمجاور لقبور الصحابة الذين آستُشهدوا فى هذا الحصار، إذ تقع القبور فى مكان مسوَّر بجوار المسجد من ناحية الشمال . وقد سلكت السيارة الى المسجد طرقًا خارج المدينة ثم آنحدرت من طريق ينتهى الى ميدان المسجد . ولم يكن ذلك عسيرا والمسجد يقع من المدينة فى الطرف الذى يقابل موقع قروة، فلا حاجة بالذاهب اليه أن يجوس خلال مساكنها . وبين الميدان وباب المسجد ممرٌّ يبلغ طوله بين الخمسة عشر مترا والعشرين، وعرضه نحو ستة أمتار أو سبعة . والى يسار السائر فى هذا الممر متجها الى المسجد مبانٍ يذكرون أنها مدرسة ومكتبة . وهى على نظام المبانى المتّصلة بالمساجد القديمة فى مصر، والتى كانت مكاتبَ ومدارس الى أوّل القرن العشرين . لها نوافذ واسعة تتقاطع فيها قُضب الحديد لتحول بين داخلها والخارج . ويتعرّج الممرّ عند باب المسجد، فاذا سار الإنسان فيه ألفى بابا مقفلا بالحجر؛ ذلك باب قبر آبن عباس الذى كان يزار فيما مضى ولا يسمح لأحد اليوم بزيارته . وكانت على هذا القبر قبة هدمها الإخوان فيما هدموا من القباب حين دخلوا الطائف والحجاز كلّه .

وباب المسجد يقابل الميدان ؛ ويتخطى الإنسان منه الى فِناء مكشوف لاتقام فيه صلاة . فاذا وقف فيه متّجها الى ناحية القبر كان المسجد أمامه والمحراب فى صدره . والمسـجد مسقوف كله ، قائم سقفه على عمد فوقها عقود ، مفروش كله ، بعضـه بالسجّاد وبعضه بالحصـير ، فسيح الجنبات يتسـع لبضعة آلاف من المصلّين . وللقـبر باب من ناحية المسـجد غير بابه المطلّ على الخارج والذى أُقفـل بالحجر . وقد أقفلت أبواب مقصورة القبر من ناحية المسـجد إقفالا محكما لا سبيل معه الى دخول أحد عند القبر للتبرّك به أو لاتخاذ صاحبه الى الله زلفى ؛ فمذهب الإخوان فى هذا الأمر حاسم لا يقبل هوادة .

وكان الناس فيما مضى يصلّون الجمعة فى مساجد الطائف الأخرى ولا يقصدون الى هذا المســجد العبّاسى . ذلك بأن أهل المدينة وما حولهـا اتخذوه مقبرة تيمنا بدفن موتاهم الى جانب الصحابة ورجاء أن يلتقوا فى الآخرة بهم فيكونوا لهم شفعاء عند الله . وقد كثرت القبور فى المســجد فى بعض العهود حتى امتلأ نصف صحنه بها . فلمـا كان مستهل القرن الحادى عشر الهجرى نهى الشريف زيد بن محسن عن الدفن فيه خيفــة أن يصير مقبرة كله ، وأمر بأن يصلّى الناس الجمعة فيه بعـد أن كانوا يعتبرونه مقبرة لا تقام فيها صلاة .

ولم يكن المسجد يومئذ على ما هو اليوم عليه من سعة . ولعله لم يُبْنَ إلّا بعد زمن غير قليل من حكم العباسيّين إكراما لقبر ابن عباس ؛ على أنه كان موضع التجلّة والإكرام فى مختلف العصور ، فكان كلما تخرّب منه جانب عُمّر . وقد تضافر أمراء المسلمين من أهل اليمن والحجاز ومصر على عمارته . كذلك كان شأنه ، حتى لقد عهد والى الشام محمد باشا العظم الى أحد المعماريين المشهود لهم بالتفوق بأن يزيد فى عمارته فزاد فيه ثنتين وثلاثين ذراعا فى الطول ومثلها فى العرض وذلك فى سنة ١١٩٣ هجرية .

وابن عباس صاحب هذا القبر والذى سمّى المسجد باسمه ، أو الحبر ابن عباس كما يسميه بعضهم ، هو عبد الله بن عبـاس بن عبد المطلب ابن عم النبىّ العربىّ ،

وجد الخلفاء العباسيين . وليس أحد قرأ علوم الإسلام إلا يعرفه كل المعرفة . فهو من رُواة الحديث المعروفين، وهو من أكثر أهل زمانه ذكاء وعلما . وكان أبيض وسيما جسيما مُشْرَبًا صفرةً طويلا صبيحَ الوجه له وفرة يخضب بالحنّاء ويلبَس الخزّ ويعتم بعمامة سوداء يُرخيها شبرا . توفى سنة ٨٨ هجرية بعد أن كُفَّ بصره .

أمّا قبور الصحابة الواقعــة الى جوار المسـجد من ناحية الشمال فيبلغ عددها اثنى عشر قبرا ويحيط بها مكان مسوَّر ويقوم فوقها زرع أخضر. وليس يعرف أحد ممن تحدّثتُ اليهم لمن من الصحابة الذين آستُشهدوا فى الحصار هذا القبر أو ذاك، مع أنهـم جميعا معروفة أسماؤهم . ولقد سألت : أيعرف أحد قبر عُرْوة بن مسـعود الثقفى، فلم أجد من يعرفه أو يدلّنى عليه . هذا مع ما كان لعروة من مكانة وسؤدد فى الطائف على عهد الرسول . صحيح أنه لم يكن ممن آستُشهد مع المسلمين فى حصار الطائف ؛ فقـد كان عروة يومئـذ على دين قومه ولم يكن قـد مات . لكن له فى تاريخ النبىّ العربى مواقف تجعل له من المكانة فى النفوس ما يخلّد به ذكر قبره، وما يخلع عليه أسطورة من مثـل الأساطير الكثيرة التى يسمعها الإنسان بمكة عن مساجدها وقبورها وآبارها . فقد كان عروة سفير قريش الى النبىّ عام الحديبية . هو الذى خرج اليه يذكّره بأن مكة بيضته، وأنه إن يفضضها على أهله المقيمين بها كان العارَ الخـالد لقريش عارًا لا يرضـاه محمد لأهله وإن آتّصلت الحرب بينـه وبينهم ما آتصلت . فلما عاد الى قريش قال لهم : "يا معشر قريش ! إنى جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشىّ فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قطُّ مثل محمد فى أصحابه، لا يتوضأ إلا آبتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه، وإنهم لن يُسلموه لشىء أبدا". وكان عروة هو الذى أسرع الى محمد بعد غزوة تبُوك يُعْلن إسلامه وحرصه على دعوة قومه للدخول فى دين الله. فلما حذّره النبىّ قومه وقال له : "إنهم قاتِلوك"، كان جواب عروة جواب المعتزّ بمكانه منهم أن قال : "يا رسـول الله أنا أحبّ اليهم من أبصـارهم" . وعاد عروة الى قومه فدعاهم الى الإسلام؛ فتشاوروا بينهم وعزّ عليهم أن يتركوا عبادة اللّات . فلما

أصبح عروةُ قام على عِلّيَة له ينادى للصلاة ، فضاق قومُه به ذرعا فرموه بالنّبل ، فقال وهو يُسلم الروح : "كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم" . ثم طلب أن يُدفن مع هؤلاء الشهداء فدفن معهم .

هـذه بعض مواقف عروة بن مسعود الثقفىّ ؛ ومع ذلك لا يعرف أحد من ثقيف قبره بين هذه القبور لشهداء المسلمين . ولقد دعانى ذلك الى كثير من التدبر وأنا بموقفى أستذكر صورة اليوم الذى استُشهد فيه أولئك الشهداء ، واليوم الذى استُشهد فيه عروة بن مسعود من رمية النّبل وهو ينادى "الله أكبر الله أكبر" ويدعو الناس للصلاة [1] .

وعدتُ وأصحابى من مسجد آبن عباس ندور فى المدينة . وقد مررنا على مقربة من مسجد ابن عباس بمسجد للسنوسىّ ، يسمّيه بعضهم مسجد الطرابلسى ، فألفيناه مُغْلَقا ؛ فنظرت من ثَقْب فى أعلى بابه فاذا هو على طراز مساجد مكة بسيط العمارة غير فسيح ، يتقدّمه لدى الباب صحن مكشوف ويقوم المحراب قُبالة الباب ، ويعتمد سقفه على عمد فوقها عقود تفصل بين الصحن والمسجد . فلما تخطّينا سوق المدينة منحدرين غربًا آستوقفنا مسجد الهادى ، وهو مسجد فسيح من مساجد الطائف السبعة التى يصلى أهلُ الطائف بها كل أوقاتهم ، ما خلا صلاة الجمعة فهم يجتمعون لها فى مسجد ابن عباس .

من هـذه المساجد بالطائف مسجد له قصّة طريفة جديرة بالرّواية ؛ ذلك مسجد المحجوب الواقع فى سفح جبل السّكارى بقروة . وتتّصل قصة هذا المسجد

---

(١) المأثور أن هـذه القبور لسعيد بن سعيد بن العاص ، وعرفطة بن عبد الله بن أمية ، والسائب بن الحارث بن قيس القرشى ، وعبد الله بن الحارث بن قيس ، وطلحة بن عبد الله بن ربيعة ، وثابت بن الجزع ويسمى ثعلبة ، والأنصارى الخزرجى السلمى ، والحارث بن سهيل بن أبى صعصعة الأنصارى ، والمنذر ابن عبد الله الأنصارى الخزرجى ، ورقيم الأنصارى ، وعبد الله بن عامر بن أبى ربيعة . أما عبد الله بن أبى بكر الصدّيق فقد جرح فى حصار الطائف ثم اندمل جرحه ؛ لكنه نغر عليه حين بلغ المدينة فتوفى متأثرا به .

بمحرابه المشهور بأنه محرر على القبلة بدقة لا تعادلها دقة تحرير المحاريب فى سائر مساجد الطائف . وقصة هذا المحراب أن السيد محجوب الميرغنى السودانى أمر ببنائه . فلما أقام البناءون المحراب آشتبه فى دقة آستقباله القبلة وقال لرئيس البنائين : "أصلح قبلتك"، ثم مدّ كُمّ جبته أمام هذا المعلم فنظر فيها فرأى الكعبة من كمّ الجبة وبذلك حرّر المحراب على عين القبلة . وأنا أضع هذه الرواية تحت نظر القارئ، وليس لى منها إلا حظ الناقل .

مررنا بسوق الطائف فى آنحدارنا من مسجد ابن عباس الى مسجد الهادى . وسوق الطائف كما رأيت أشبه شيء بما نراه فى حوانيت القاهرة إذ نمر بالفحامين والمُغربلين وتحت الربع . ولقد عادت بى ذاكرتى وأنا أجتازها الى أسواق أم درمان . وإن بينها وبين أكثر الأسواق بمكة لشبها عظيما . وهى تشبه أسواق دمشق كما رأيتها فى سنة ١٩١٤ اذا لم تخنى الذاكرة . وهذا كله يدل على أنه طراز السوق المعروفة فى بلادنا الشرقية قبل أن تغزونا حضارة الغرب وأن تجعل من أسواقنا ما نراه اليوم بالقاهرة والإسكندرية ودمشق والخرطوم فى الأحياء الجديدة . فالحوانيت صغيرة ضيقة لا تُعنى بعرض ما فيها عناية تلفت النظر . والجالسون فيها هم أصحابها . وهم يرتبطون بصلة المودة حتى ليدع أحدُهم عميله جالسا الى باب حانوته ليقوم بنفسه فيبتاع له من الحوانيت الأخرى ما ليس عنده . وتمتلئ هذه الحوانيت الصغيرة الضيقة بركة من الله وفضلا لقيام أصحابها بأنفسهم على تصريف تجارتها .

اذا اعتبرت الطائف هذه المدينة التى تتوسطها السوق ويقع فيها مسجد ابن عباس والمساجد الستة الأخرى فهى لا ريب مدينة صغيرة لا تزيد على مدن المراكز فى مصر . لذلك تُضاف اليها الضواحى المتصلة بها والتى يتخذها أهل مكة مَصيفا ويعتبرونها من الطائف ، كما يتخذ أهل مصر رمل الإسكندرية مَصيفًا ويعتبرونه من الإسكندرية . وقد أشرت الى ضاحية قروة حيث يقع منزل مضيفنا

الشيخ محمد الصبّان . وثَمّ الى جوار الطائف من ناحية الشمال بستان اسمه نجمة، جميل الموقع غاية الجمال، وبه قصر تمنّيت إذ رأيته أن يكون لى . فموقع نجمة بديع حقا. يقع من خلفه واد يُطلقون عليه اسم وادى العقيق، وإن أنكر الشريف حمزة الغالبى قِدَم هذا الاسم . ويقوم من وراء هــذا الوادى جبل أبى صَحْفَة . وهذا كله يحيط نجمة بهالة طبيعية بارعة تبلغ روعتها ساعة المغيب حين تنحدر الشمس وراء الجبل وتُلق بأشعّتها على وادى العقيق مبلغا تتعلّق به النفس ويأخذ الفؤاد منه البَهر . لذلك آختارها الشريف عون الرفيــق أمير مكة السابق لبناء هــذا القصر الذى بها والذى أريد بالبستان أن يحيط به . لكن تصاريف القدر أقوى من إرادة الإنسان، وله فيها العبرة البالغة ؛ فقــد بغتتْ حوادثُ النهضة فى بدء الحرب الكبرى بناة هذا القصر فلم يتمّوه، وبقى لذلك بناءً قائمًا من الآجُرّ الجميل لم يجصّص ولم توضع له أبوابه ونوافذه . لكن متانة البناء حفظته مدى هذين العقدين من السنين اللذين آنقضيا منذ بنائه؛ فهو اليوم قائم كأنه ينتظر بُناته يستأنفون عملهم فيه صبح الغداة. أمّا البستان فصار اسما لا مسمّى له . وهلَك عون الرفيق وتركت ذريّته الحجازَ وهى تقيم بمصر الآن، ولا يفكر أحد فى استئناف هذا البناء البديع فى ذلك الموقع الساحر، ولا فى غرس البستان حوله ليكون مَصيفا بارعا قلّ نظيره .

أمّا وهذا شأن نجمة فهى أدنى الى الأثر منها الى الضاحية ، وإن تكن أثرا يسهل بعثه الى الحياة ليكون قصرا فخما وبستانا جميــلا . فأمّا الضاحية البديعة حقا فتلك شــبرة التى مررنا بها فى طريقنا من مكة الى الطائف ، والتى تقع على أبواب الطائف . ولم تقف السيّارة بنــا إذ ذاك عنــدها ، ولم ألتفت يومئذ اليها رغم آنبساط ضوء القمر عليهــا ، لتقدُّم الليل ، وشــدّة الجهد ، وطول الشُّــقة التى قطعناها . لكنى عدت اليها قبيل المغيب ذات يوم من أيام مُقامنا بالطائف فخُيّلَ لى إذ دخلت قصرها وآخترقت بساتينها كأنمــا انتقلت من بلاد العرب كلها الى جزيرة الرّوضة بالقاهرة أو الى بعض الجوانب النضرة من سويسرا . هــذا مع أنى كنت

قد مررت قبل ذلك ببساتين عدّة فى بادية الطائف ، وكنت قد نسيت الجدب والإمحال المحيطين بمكة واللذين ينتشران فى تِهامة إلا فى قليل من أوديتها .

وشبرة ليست مع ذلك بالضاحية القديمة ؛ فقصورها و بساتينها من بناء آل عون فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن العشرين . بنى الشريف عبد الله بن عون القصر الأول ، أو شبرة القديمة كما يسمّونها ، و بنى الشريف علىّ ولده القصر الثانى أو شبرة الجديدة . وغُرست حول القصرين بساتين فخمة يقصر دونها الطرف ، بها من أشجار الفاكهة النادرة والأزهار البالغة فى البهجة ما جلبه بُناة القصرين من مختلف بلاد الأرض ، كما جلبوا رُخام القصرين من إيطاليا ، وأخشابهما من تركيا . وقد آل هذان القصران الى الملك ابن السعود بعد جلاء الأشراف عن الحجاز ، فاتّخذهما مصطافا له ولعائلته . أمّا وحريم ابن السعود من زوجات ومِلك يمين يفُقْنَ فى العدّ ما يتصوّره ذهننا المصرىّ ، أمّا وأبناؤه منهن يجاوزون العشرات ، أمّا ولكل زوجة فى القصر جَناح ، فالقصران جميعا لا يَسعان الأُسرة الملكية السعوديّة كلها . لذلك يضطر الأمير فيصل ، وزير خارجية ابن السعود ونائب الملك بالحجاز ، أن ينزل بالطائف اذا اصطاف بها ، لأن قصرَىْ شبرة و بساتينهما تضيق به .

و بينما يصطاف ابن السعود وأهله بشبرة الطائف اذا الشريف علىّ باشا الذى أقام شبرة الجديدة بعد أن أقام أبوه الشريف عبد الله بن عون شبرة القديمة يقيم بمصر يستعيد ذكريات عهد سلف و يتطلّع بآماله الى هذه البادية التى شهدت عظمة سلطانه ثم نسيته كما نسيت عُتاة سبقوه وكان لهم فيها السلطان ، و إن حفظت ذكر الذين عطّروا جوّها من عهد رسول الله بالتضحية بحياتهم جهادا فى سبيل الله .

عدت الى شبرة قبيل المغيب ذات يوم من أيام مُقامنا بالطائف بعد أن قضينا نهارنا بالبادية نصعد فى الجبال وننحدر عنها . وكان السيد محمد صالح القزّاز قد أبلغ حارس القصر أن يلقانا عنده وأن يفتح لنا بابه أوّل وصولنا اليه . ووقفتُ قُباله القصر أحدّق فى عمارته . ولم يدهشنى ألّا ينمّ شىء منه عن الطراز العربىّ فى قليل

ولا كثير رغم قيامه فى قلب بلاد العرب ؛ فقد شاده الأشراف فى عصر كانت صفة العربية تدلّ على الانحطاط والتأخر فى كل ما تنسب اليـه، وكان سلطان الحضارة الغربيـة متغلغلا فى كل نواحى الحيـاة فى ربوع العالم جميعا . إنمـا بُنى القصر على طراز أدنى الى الرومانى . فتح حارسه لنا بابه فصعدنا اليـه درجات فسيحة مريحة تبلغ عرض الباب، أى نحو المترين . ومصراعا الباب من خشب جميل النقش ثمين . وطالَعنا سُـلّم القصر من وراء الباب وهو فى مثل عرضه ، صُنع من رُخام إيطالى جميـل ، وقام عن جانبيه درابزون من الحـديد الدقيق الصناعة . وتدل آثار من النّحاس باقية بأعلى الدرابزون على عناية بنقشه و زخرفته . وقد قيل لنا إن الوهابيين لمـا وصلوا الطائف واقتحم جندهم القصر حسـبوا النّحاس ذهبا فنزعوه واعتبروه من الغنائم الثمينة . ويفضى هـذا السلّم الى الطابق الأوّل للقصر فيفضى بذلك الى أبهـاء فسـيحة وغرف تُذكرك سعتها بأبهـاء الفنادق ؛ وزادها سـعة خلوُّها من الأثاث . وأردت أن أعرف هـذا الأثاث ما يكون حين نزول الأُسرة المـالكة أثناء الصيف بالقصر فلم أجد إقبالا على إجابتى، فحسبت القوم غلبهـم الحياء دون الحـديث فى أمر ملكى ذلك مبلغـه من الاتصال بالحياة البيتيّة فى الليـل والنهار . وأردت أن أشجّعهـم فذكرت ما يراه الإنسان بالقصـور الملكية فى انجلـترا وأوربا من الطنافس وأدوات الزينة وأسِرّة النوم ، فنظر أحدهم إلىّ فى دهشة وقفتنى عن المُضِىّ فى القول وذكّرتنى أنى فى بلاد العرب ولست بأوربا .

ولم نصعد الى الطابق الثانى من القصر إذ قيـل إنه على نظام الطابق الأوّل . وعدنا من الغرف الى السلّم لنهبطه، فأشار اليـنا الشيخ صالح القزّاز فدخلنا من باب قُبالة السلّم يؤدى الى طُنُف (بلكون) مطلّ على بساتين القصر ؛ فجلسنا حتى تناولنا القهوة ، ثم هبطنا الى البساتين نسير فيها متنقّلين من بستان شبرة القديمة الى بستان شـبرة الجديدة نقضى من الوقت أثنـاء سيرنا بهما و وقوفنا أمام أشجار مختلفة فيهما ما يُشـيع فى النفس المسرّة ويذهب عنها نَصَب النهار فى متاعها بمنظر شجرة باسقة

لفاكهة نادرة ، وأخرى متشعّبة الفروع لزهر ذكى عَطِر ، وإن لم يكن الفصل بالطائف بعدُ فصل جنى الفاكهة أو تضوّع أريج الزهر .

وهذه البساتين ، على ما فيها من أشجار ثمينة نادرة ، لم يُعْنَ أحد بتنسيقها أو بتنظيم الطريق خلالها لتيسير المرور بها والوقوف عند محاسنها والمتاع بعطر زهرها وأريج فاكهتها ، هى أدنى الى أن تكون غابة مستوحشة ألقت المصادفة اليها بهذه الأشجار فنمّتها تربتُها الخِصْبة فى نضرة وبهاء دون أن تجمع بين المتشابه منها أو تُعْنَى باتّساق ألوان الزهر فيما يجتمع من أشجاره . يشير لك البستانى الى شجرة من الورد ويصف لك بهاء لون زهرها ، ثم يذكر لك أن شجرة مثلها تقع فى ناحية من البستان نائية أو قريبة ، وأن شجرة من فصيلتها تقع فى الطرف الآخر منه . وما سوى الورد والفاكهة مبعثر فى هذه البساتين كالورد سواء . فسبيلك الى معرفتها أن تدرس مواقعها من هذه الغابة وأن تقتحم طريقك اليها خلال الأشجار الباسقة البارعة النمو المتشابكة الغصون .

وبلغنا بابا صغيرا بآخر البساتين فيما وراء القصور واتّجه أصحابى يريدون الخروج منه . وإنى لعلى أهبة اتّباعهم إذ وقف إلى جانبى الشريف حمزة الغالبى وقال :

— أتعلم أن لهذه البساتين كرامة لن ينساها أهل الطائف ولا أهل مكة !

وعجبت أن تكون البساتين أولياء أولى كرامات ؛ فقال :

— لا تعجب ! فقد كان أهل مكة يصطافون بالطائف حين أغار الوهابيّون عليها ، ولم تكن بالطائف حامية تصدّ غارتهم . فلما سلّمت المدينة ودخلها الإخوان أخذوا مَنْ بها أسرى ، وبحثوا عن محلّة تتسع لهم جميعا فلم يجدوا إلا هذه البساتين فحشروهم فيها زُمَرا ولم يدفعوا اليهم بطعام ولا بشراب . وكان الفصل فصل الفاكهة ، فوجد هؤلاء الأسرى فيها طعامهم وفى العيون التى تستقى منها البساتين شرابهم ، ولولا ذلك لهلكوا جوعا وعطشا . ألا ترى هذه كرامة لهذه البساتين تسجّل لها مع ما ينسب لبعض الآبار والآثار من الكرامات ! .

وألقيت على هذه البساتين كأنها الغابات قبل خروجنا من بابها الصغير نظرة أحاطت بها، ثم سرت وأصحابى بعد أن انحدرت الشمس الى المغيب تاركة وراءها بقية من الضوء تنير الطريق للسالكين . وأفضيت إلى أصحابى والسيّارة تجرى بنا إلى الدار بما رأيت من عدم تنسيق البساتين وتركِها غابةً غير ذات نظام ؛ فقال أحدهم : "لعلها كذلك أجمل . ولعل ذلك رأى الأشراف الذين نسّقوها " .

وبلغنا الدار فعلمنا أن شعراء البادية سيحضرون الينا فى المساء . ودخلت غرفتى أزيل غبار النهار، ثم توضّأت وصلّيت وأقمت على سجّادة الصلاة أذكر ما رأيت . وتمثّلتْ لى البساتين فى غاباتها وسألت نفسى : أهى حقًّا كذلك أجمل مما لو نُسّقت ونظّمت وخطّطت فيها الطرق وجُمع فيها كلّ ضريب من الأشجار الى ضريبه وكل لون من الزهر إلى نظيره ! أم هى كذلك أجمـل لأنها فى بلاد العرب بين أحضان الطبيعة البكر لم تنظّمها يد الإنسان، وأنها لو نظّمت لكانت نابيـة فى هذه البيئة؛ فالبـدوىّ المتنقّل من مكة أو من نجـد الى الطائف ، والذى قضى فى البـادية ما قضى يَخُبّ به الجمل تتقاذفه الفلوات ، أو تجرى به السيّارة منذ غزت السيّارة هـذه الربوع جريًا مضطربا بين المرتفعات والمنخفضات، لا يألف نظره البستان المنظّم ما يألف هـذه الغابة الموحشـة فى روعة جمالها البارع ! أم يرجع عدم تنظيمها الى بقاء الخُلُق البدوىّ متأصلا فى النفس العربيّة فهى لمّا تألف الحضارة ونظامها، وهى لاتحتمل هذه الحضارة ولا تُسيغها إلّا أن تُحمل على ذلك حملا وتُكره عليه إكراهًا ! . والحقّ أن أهل هذه البلاد ما يزالون متردّدين بين الاعتزاز ببدويّتهم والإعجاب بالحضارة الحاكمة . فهم يتمنّون أن يتـاح لهم المتاع بكلّ ماتيسّره هـذه الحضارة من متاع بالحياة، وهم يخشون ألا تُطيق نفوسهم هذا المتاع، أولا تطيقه بلادهم وبيئتهم لو أنه جُلِب اليها ، كما يخشون أن يُضيع ما تجلب هـذه الحضارة اليهم ما ينعمون به من حريّة البداوة ؛ فهم يعتزّون بهـا ويذكرون ماضى مجـدها ويرجون لو يستطيعون الجمع بينها وبين ما فى الحضارة من خير ، ناسين أو متناسين

أن الخير وحده لا وجود له ، وأن الشرّ وحده لا وجود له ، وأن اجتماعهما طبيعى فلا مفرّ منه ولا معدّى عنه ، وأن غاية ما نستطيعه أن نستر الشرّ عن الأعين ، كما يتوارى المريض أثناء مرضه عن أعين الناس .

وأقبل المساء وأقبل شعراء البادية الى بهو الدار يبلغون الخمسة عشر عدّا ، وجلس كلّ منهم فى المكان الذى تؤهله له مكانته . جلس فى الصدر رجل منهم يناهز الستين ، تحدّث سِيماه ويحدّث لباسه عن وجاهة فى قومه وتقدّم على أبناء قبيلته . وجلس على مقربة منه من لا يبلغ الثلاثين ولكنه فصيح القول فى نبرة صوته أمارة الرياسة . وجلس الباقون وقد اختار كلّ منهم مكانا لاينازعه اليه غيره . وألقى كثير من هؤلاء مشالحهم عن أكتافهم ؛ أمّا أولو الصدارة فقد احتفظوا بها وكأنها بعض أمارات الصدارة . وبادلتُهم التحيّة جميعا ثم فَسَحوا لى فى الصدر مكانا وسألونى عما شهدتُ بالطائف وعن رأيى فيه . واتّصل بيننا حديث سرعان ما خالطه ذلك الودّ الفيّاض من ميراثنا المشترَك فى اللغة والتاريخ والعقيدة ؛ ذلك الودّ الذى يجعلنا نشعر حيث كنا من بلاد هذا العالم العربىّ أننا بين أهلنا وذوى قربانا ؛ التقى أجدادنا وأجدادهم ، وجرى فى عروقنا وعروقهم عن طريق النسب دمٌ مشترك ، فأصبحنا أمة واحدة وإن تباعدت البلاد وتباينت العادات .

ولم أكن أطمع فى أن أسمع من شعراء العرب هؤلاء شعرا عربيًّا كالذى انتهى الينا عن الجاهلية وعن شعراء العرب أيام سلطانهم وازدهار حضارتهم . فلقد طمعت فى أن أسمع بالبادية حديثا عربيًّا فى صفاء اللغة التى درسناها ، فلم أسمع فى الأودية ولا فى أعالى الجبال من ذلك شيئا ، وإنما هى لهجات تعذّر علىّ فهم بعضها كما يتعذّر علىّ فهم لغة أهل الصعيد الأعلى فى مصر ، وفهمت بعضها فى عسر كما لو كنت أسمع بعض اللّهجات فى سوريا ولُبنان . وليس فى البادية مدارس يتعلّم أبناء البادية العربيّةَ الصحيحة فيها ويدرسون الشعر القديم كما يدرسه أبناؤنا

ليقولوا الشـعر متأثرين ببيئتهم محاكين الأقدمين فى نظمهـم . ولم يُخلِف هؤلاء الشعراء ظنّى ؛ فقـد بدءوا يُلقون مقاطيع فى الغزل وفى ذكر الأيام ، أيام البـادية المجيـدة، هى أشبه شىء بالمواويل الحمر فى صعيدنا الأعلى . ولقـد كانت طريقة الإلقاء تبعث إلى النفس من معانى مايقولون أكثر ممـا تبعثه الألفاظ الغريبة عنى والتى تنطوى عليها لهجاتهم المختلفة . وكثيرا ماحاول الشريف حمزة الغالبىّ أو الشيخ صالح القزّاز أن يترجم لى هذه المقاطيع باللغة التى نتفاهم بها ، لغة أهل مكة الجامعة بين خليط من لغات المسلمين فى أقطار العربية المختلفة . وكنت أقف من هـذه الترجمة على صورة بدويّة بديعة فى هذا الشعر الساذَج أكاد أذكر بها معانى العرب الأقدمين .

وجاءت نوبة الشريف حمـزة الغالبى فألقى قصيدة باللغـة العربية الفصحى، وكأنما أراد أن يرفّه عنى بلغة يتيسّر علىّ فهمها . وعاد أصحابه الى مقاطيعهم، ثم عاد هو فألقى قصيدة أخرى ، وعاد فى نوبته فألقى قصيدة ثالثـة . إذ ذاك ضاق القوم به ذرعًا أن رأونى أُسرع الى فهم ما يقول . فحدّثه أسنُّهم يعيب عليه أن يحاول إبداء تفوّقه عليهم أو ازدراءه لغتهم ولغة آبائهم . واعتذر الشريف فى تأدّب بأنه إنما يريد أن يُطلعنى على شىء ممـا يقولونه ولم يعد بعدها الى إلقاء شىء من شعره .

وكان الطريف فى هذه القصائد الثلاث التى أنشدها أنه يمدح بأولها حكم الترك، وبالثانية حكم الأشراف،ويُشيد فى الثالثة بحكم ابن السعود، دون أن يرى فى ذلك ما يعاب به أو يقدح فيه . ألم يكن هؤلاء جميعا حكّاما لبلاده، فهم سواسية عنده، يقول فيهم جميعا قولا واحدا، ويتخذ إزاءهم من شعره ما يتّقى به ظلمهم وما يصل به الى رضاهم والى ما يُسبغه هذا الرضا على من يناله من خير ونعيم .

ومدّت لشعراء العرب الموائد وقدّم لهم العشاء، فالتفوا حوله بعـد تمنّع ونالوا منه شبعهم . وبعد أن تناولوا القهوة وتحدّثوا استأنفوا قول الشعر . لكنهم لم يقولوه مقاطيع كما فعلوا قبل العشاء، بل بدءوا بالمطارحة : يرتجل أحدهم فى أمر

فيجيبه آخر ارتجالا فى هذا الأمر . وما كان لى أن أحكم بينهم ولم أكن أفهم مما يقولون إلا قليلا . لكننى رأيت بعضهم يتحمّس لما يسمع من جانب، ورأيت آخرين يتحمسون لما يسمعون من الجانب الآخر . وذكرت شيئا من هذه المطارحة سمعته فى لبنان ورأيت هناك ما رأيت بالطائف من تحمس لهذا ولذاك من المرتجلين، فأيقنت أن الشعر شعبيّ يثير الحماسة وأن قائله يتوخّى فى قوله أن يثيرها فى النفوس لُيذكى فيها من ضرام هذه الحماسة غاية ما يستطيع إذكاءه .

وانتهى القوم من هذه المطارحة يتبادلونها جلوسا ثم قاموا فريقين يواجه كل منهما الآخر، وقد أمسك الزعيم من كل فريق عصا، واندفعوا يتطارحون فى حماسة أشدّ من الأولى وأنا لا أكاد أفهم مما يقولون شيئا، لبعد ما بين لهجتهم وما عرفت من لهجات البلاد التى تتكلّم العربية الفصحى . وحمى وطيس المطارحة وأخذت الحماسة من نفوس الفريقين أعظم مأخذ . ولم يصبح الأمر بينهم أنهم يريدون إظهارى على شعر البادية ما هو، بل أصبح منافسة واستعلاء، يريد كل فريق أن يكون له التفوّق والغَلَب . وهل بقى من أمرى ما يعنيهم وقد رأونى لا أفهم ما يقولون ! لكنهم يفهم بعضهم بعضا، ولكنهم رأوا حديقة الدار قد امتلأت بأهل الطائف كبارا وصغارا يُلقون اليهم السمع ويتحمّسون لهم فيزيدونهم حرصا على الإجادة والتفوّق . وامتلأت حديقة الدار منذ بدأت هذه المنافسة ولم يكن بها أول المساء إلا القليل؛ فلا عجب أن يحرص كل فريق على أن يحكم النظّارة بتفوّقه، وإن امتدّ به القول، وإن أقام مكانه حتى الصباح يتلقّى الهجمات ويدفعها حتى يبلغ من ذلك الى إخفات صوت خَصْمه .

وأدرك الشيخ صالح القزّاز أنى أقيم معهم مجاملة لهم ما دمت لا أفهمهم، وأنى فى حاجة الى الراحة والنوم . وكان الليل قد انتصف ولا بدّ لنا من التبكير فى اليقظة صبحَ الغد لنخرج الى جبال الشَّفَا؛ لذلك أخذ يشكر القوم علامة الإذن بانتهاء الحَفل . إذ ذاك سمعت زمجرة استياء من ناحية الحديقة وبدا على المتنافسين

الضجر مما سمعوا ، وكأنما كان كل فريق يحسب النصر قد دنا . أو أن فريقا طرِب للانتهاء لأنه كان وشيك الخذلان ، فى حين كان الفريق المنتصر هو المزمجر استياء لهذا التبكير بفضّ الحفل قبل تمـام انتصاره ! على أن حركة الاستياء لم تلبث غير ثوان جلس القوم بعدها ثم استأذنوا وانصرفوا . وقمت الى مضجعى مكدودا فلم تك إلا لحظات حتى اشتملنى عالم النوم .

واستيقظت بكرة الصـباح وصور هؤلاء الشعراء ما تزال ماثلة أمام عينـى . وساءلت نفسى عن هذه المطارحة وهذا التفاخر: أهما صورة ما كان يقع عند العرب من سكان هذه البادية فى العصور القديمة حين كانت الفصحى ماتزال فى سلامتها ، وأن ضياع الفصحى لم يحل دون انتقال هـذه الصورة على العصور من الآباء الى الأبناء ؟ ولم أُعنّ نفسى بالوقوف عند هـذا السؤال والتماس الجواب عنه ، مكتفيا بمـا علِقتـه الذاكرة من كتب الأدب عن المطارحة ارتجالا وذيوعها عنـد العرب الأقدمين . فأمّا هذه المفاخرة فى صَفّين يقف أحدهما قُبالة الآخر فقد تكون صورة من المطارحة فى الفخر لم تُطل كتب الأدب الحديثَ عما كان يقع منها فيما مضى ، وقد لا تكون ممـا ورثه عرب البادية اليوم عن أسلافهم ، وإنمـا هى بدعة انتقلت إليهم من بعض البلاد التى غزاها هؤلاء الأسلاف بعد الفتح الإسلامىّ بزمن قصير أو طويل .

وسألت الشيخ عبد الحميد حديدى ، ونحن نتناول طعام الإفطار ، عن المكان الذى لقى النبيّ فيه عدّاسا النصرانىّ النّينوىّ حيـن جاء الطائف مستنصرا أهلها فخذلوه وأغرَوْا به صبيانهم فوجد فى عدّاس هذا عزاءً وسلوى عن تحرّش الصبيان به وتنكّر الرجال له . وأجاب الشيخ عبد الحميد : أن مسجد عدّاس يقع بالْمَثْناة إحدى قرى بادية الطائف ، ولا يقع بالطائف المعروفة اليوم . أمّا وكتب السـيرة جميعا تشير الى أن عدّاسا لقى النبيّ بالطائف حين احتمى بحائط شيبة وعتبة ابنى ربيعة ، كما تشـير الى أن مضارب المسلمين حين حصارهم الطائف كانت تقع على مرمى

النّبل منها ، والى أن قبور الشهداء الذين أسلموا الروح أثناء هذا الحصار ، وهى القبور الواقعة الى جانب مسجد ابن عباس ، تقع حيث كانت تقوم هذه المضارب ، ففى هـذا كله ما يدلّ على أن الطائف لا تقوم اليـوم حيث كانت تقوم على عهد الرسول ، وأنها نقلت من مكانها ، حيث كانت تحيط بهذه المثناة التى يشـير الشيخ عبد الحميد اليها والى وجود مسجد عدّاس بها ، وشيّدت حولها قبور هؤلاء الشهداء تبركا بهم وتيمّنا بهذا المكان الذى أقام النبيّ به أثناء حصار الطائف . وقد أقنعنى تجوالى ببادية الطائف ووقوفى بالمثناة من قراها بصحّة هـذا الرأى وبأن موقع الطائف اليوم غير موقعها القـديم ، وأن إحاطتها بمسجد ابن عباس وقبور الشهداء من المسلمين إنمـا يرجع الى هذه الاعتبارات التاريخيّة التى رواها صاحبى .

وبادية الطائف فسيحة مترامية الأطراف تجعل من الطائف قطرا كاملا ومملكة لو أنهـا عُمِّرت لكانت كبعض الممـالك الصغرى بأوربا . وحسبُك أن تعـلم أننا أقمنـا أربعة أيام نجوب أنحاءها بالسـيّارة من بُكرة الصباح الى سـاعة متأخرة من المساء أحيانا والى ما بعـد مغيب الشمس دائمـا ، ما خلا يوم زرنا شبرة ، ولم نبلغ من هذه البادية بعد ذلك إلّا بعضها . وأقرب بادية الطائف اليها بستانان يضيفهما بعضهم اليها لأنهما يقعان حيث كانت تقع الطائف على عهد الرسول ، ولأن موقعهما يختلف فى طبيعته عن البادية . فبادية الطائف تقتضـيك لكى تبلغها تسنّم هضاب وتسلّق جبـال وجَوْب أودية ليست فى شىء من طبيعـة الطائف ولا من موقعها فى سهلها المترامى الأطراف بين الجبال المحيطة به . وهذان البستانان يقعان فى هذا السهل كما تقع فيه قروة وشبرة ونجمة وسائر ضواحى الطائف . وهذا ما يؤيّد رواية الرواة أن الطائف القديمة كانت تقع حول هذين البستانين . فالمشهور أن مسجد ابن عباس كان يقع على بعد من أسفل المدينة القديمة من الجهة الشمالية . أمّا اليوم فهو يقع فى أعلى المدينـة من الجهة المذكورة ، وهـذان البستانان يقعان جنوب الطائف الحالية .

البستانان هما حَوايا وشِهار . وهما واحتان خصيبتان بين هضاب قليلة الأرتفاع مليئة بالأحجار التى قذف بها السيل من أعالى الجبال . وفى كل بستان منهما مياه جارية تسق أشجاره الباسقة الجميلة . ويتوسط حوايا بناء يقيم به أهله وقد بنيت أمام أبوابه بِركة ماء فسيحة يرتفع الماء فيها فوق مستوى الأرض لتيسير ريِّها منه . وماء البِركة يؤتى به من بئر يسهل مَتح الماء منها لقربه من سطحها . ويوجد على مقربة من هذه البئر بئر أخرى يُشيدون بصلاح مياهها لشفاء رمل الكلى ، ويتحدثون متعجبين عن مجاورتها للبئر الأخرى مع آختلاف خواصّ مياههما بحيث يكون ماء هذه البئر شافيا صالحا للشرب ولا تكون الأخرى كذلك .

ويريد بعضهم أن يجعل آسم حوايا تحريفا لأسم سبقه هو هوايا ؛ ويذكر أن هذا الأسم قد أطلقه على هذا المكان من وجد فى مياه بئره الشافى مايرضى هواه . وعندى أن هذا خيال لاسند له فى كتاب من الكتب التى يصح الأعتماد عليها والتى ذكرت آسم هذا المكان .

أما البستان الآخر فشهار . وهو يشبه حوايا ، غير أنه لا بناء فيه ولا بئر ، وبه شجرة نبق هندىّ لذيذة الثمر ، وآلة رافعة للمياه يديرها الهواء . وقد دُقّت هذه الآلة فى البستان من زمن قريب على سبيل التجربة . وأهل الطائف ينتظرون نتيجة هذه التجربة قبل أن يُقدموا على الأستعانة بمثل هذه الآلة فى آستنباط مياههم من العيون .

حول هذين البستانين إذًا ، وبين التلال الواقعة أمامهما من الجهة الغربية ، كانت تقوم الطائف القديمة فيما يروى بعض أهلها اليوم . وفى هذا المكان إذًا كانت تقوم اللّات صنم ثَقيف حتى عفّى الإسلام على أثره إذ هدمه المُغيرة بن شُعْبة ونساءُ ثقيف حُسَّرًا يبكين ، وكان يقوم بيت اللّات ضَريبًا لبيت الله بمكة ، كما كانت تقوم دار عُروة بن مسعود أوّل من أسلم من ثقيف ، ودار عمرو بن عُمَيْر بن عوف التى قصدها النبىّ يوم نزل الطائف وحيدا فردّه أبناء عمرو ردًّا غير جميل . وفى هذا المكان

كانت تقوم المدينة التى حاصرها النبيّ على رأس جيش الفتح فآعتصمت بحصونها وآمتنعت من هؤلاء الذين لم تمتنع عليهم مكة ولم يمتنع عليهم فى بلاد العرب كلّها بلد ولا حصن . أين يومنا اليوم من تلك الأيام العظيمة التى شهدت عزّ الطائف وعزّ العرب جميعا ببطولة العرب ومجد الإسلام ! . وأين تلك الطائف القوية ذات الأَيْد والمَنَعة والحصون التى لا تُقْهَر ، من هذه الطائف التى يمتنع بها الترك أوّل الحرب الكبرى فيحاصرهم الأشراف فيها ويأخذونهم أسرى ، ويمتنع بها الأشراف فى سنة ١٩٢٥ فيحاصرهم النجديّون فيها ويقتحمونها عليهم ويأسرونهم بها ! بل أين بلاد العرب كلّها اليوم من بلاد العرب تلك حين كانت الطائف قطعة من الجنّة أو قطعة من الشام نقلها الملائكة إلى شبه الجزيرة ، وحين كانت ثروة الطائف وخِصْبها مضرب المثل ! .

وتمثّل لى جيش المسلمين أيام النبيّ مقبلا من ناحية الجبال الواقعة شرق الطائف بعد أن آنتصر فى حُنَين وخلّف أسراها فى الجِعْرَانة . تمثّل لى هذا الجيش يزيد رجاله على عشرة آلاف كلهم إيمان بالنّصر ، وكلّهم حرص على الآستشهاد فى سبيل الله ، وقد أحاطوا بالطائف ، فرماهم أهلها بالنبل من أعلى الحصون وآضطرّوهم للانزواء بعيدًا عن مرمى النّبل . وهناك عند مسجد آبن عباس أقام الجيش وضربت للنبيّ خيمتان بعيدًا عن هذا المرمى . ويطول حصار القوم وهم متحصّنون بمدينتهم الغنيّة لا يسلّمون ، وهم فيها كالثعلب فى جُحره لا سبيل إلى إخراجه منه إلا بطول المكث ، ثم يدهَمهم المسلمون فيرمونهم بالمَنْجَنيق ويبعثون إليهم بالدبّابات وقد دخل تحتها نفر منهم ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه ؛ فيُكْرِه رجال الطائف هؤلاء الزاحفين على الفرار بأن يُلْقوا الحديد المصهور على الدبّابات فيحرقها . ويأمر النبيّ بإحراق كروم الطائف ، ويبدأ المسلمون ينفّذون ، فيبعث أهلها إلى النبيّ أن يأخذه لنفسه إن شاء ، وأن يدعه لهم وللرَّحِم لما بينهم من قرابة إذا أراد . وينتهى الأمر بأن يرفع المسلمون الحصار وأن ينصرفوا عن

الطائف ليبعث الثقفيّون بعـد قليل من ذلك يطلبون إلى النبيّ أن ينضمّوا إلى لوائه .

كيف صـارت الطائف إلى ما صارت اليوم إليـه ؟ وكيف هوت من تلك المكانة التي كانت لها والتي كانت تنافس بهـا مكة حتى أقامت للّات بيتا جعلتـه منافسا للبيت الحرام !؟ لعلّ ما حوّل الطائف ممـا تحدّث عنه باديتها يجلو لنـا من ذلك ما يزيدنا فهمًا لمـا يحدّثنا به التاريخ وما تنطوي عليـه الكتب . فلنَزُرْ بادية الطائف، ولنحاول أن نقف منها عند كل ما نستطيع الوقوف عنده .

بادية الطائف

كانت الطائف القديمة تقع بين التلال القائمة أمام البستانين حَوايا وشَهار من الجهة الغربية على رواية أهلها اليوم . أمّا فى هذا الزمن الحاضر فالبستانان يقعان خارج الطائف ويبعدان عنها بضعة أميال . لذلك يحسبهما البعض بحقّ باب بادية الطائف ؛ فأنت لا تكاد تراهما بالمنظار المقرّب ، وإن رآهما البدو بالعين المجرّدة . فإذا أنت جاوزت البستانين إلى الجهة المقابلة للطائف لقيتك البادية مترامية أمام نظرك ، منطلقة كأنها السهل حينا ، منثورة فيها الأحجار التى حطّها السيل من أعالى الجبال حينا آخر ، ناتئة جبالها المتباينة الآرتفاع على مقربة من النظر أو عند مرماه .

آثر أصحابى يوم زرنا بستانى حوايا وشهار أن نُمعن بعض الشيء فى البادية ، وأغرونى على الإمعان بما ذكروا من أنّا سنلقَى على مقربة منهما آثارا تنير أمامى السبيل لما أبحث عنه من تاريخ هذه البقاع . وآنطلقت بنا السيّارة تؤمّ وادى السَّداد حيث تقع هضاب الرِّدْف . وفيما تجرى السيّارة مسرعة حينا ، متعثرة بالأحجار المنثورة فى الطريق حينا آخر ، لفت رفيقى نظرى إلى واد تخطّاه وذكر لى أنه وادى وَجّ ، وأنه يمرّ بقرية المُثَنَّاة منحدرا إلى ناحية الطائف ، وأن الماء الذى يسيل به فى فصول الأمطار ينحدر من جبل بَرَد ومن جبال الطَّلَحات حيث تقيم بعض قبائل هُذَيْل . وعجبت أن لفت نظرى إلى هذا الوادى ولا شيء فيه يلفت النظر ؛ لكنه آستطرد قائلا : إنه من الأودية المأثورة ؛ فقد رُوى أن النبيّ عليه السلام حرّم صيده ، وإن تكن هذه الرواية موضع خلاف . ولم أُرد أن أناقشه فى الأمر أو أذكر أولئك الذين دعاهم الرسول إلى الإسلام فأبوا إلا أن يحرّم واديهم كما حرّم مكة فلم يجبهم إلى ما طلبوا ، لأن حرمة مكة من أمر الله ومرجعها إلى البيت العتيق الذى جعله الله مثابةً للناس وأمنا .

وبلغت السيّارة وادى السَّداد وقد أحاطت به هضاب الرُّدَّف ، ووقفت على مقربة من صخور ضخمة مركومة بعضها فوق بعض فهى وحدها هضبة مستقلة ناتئة أثناء الوادى . وهبطتُ منها فى لباس البدوى وجعلت أُجيل النظر فيما حولى فلا أرى إلا جبالا قليلة الارتفاع تحجب ما وراءها وأحجارا متفاوتة الأحجام قذف بها السيل فى أنحاء الوادى . أين ترى تكون الآثار التى حدّثنى أصحابى عنها ؟ وسألتهم فأشاروا إلى هذه الهضبة المستقلّة وقالوا : إنها رموز وعبارات كتبت على الصخور العليا منها . وتسلّقنا الهضبة ، ودار أحدهم فوقها ثم دعانى إليه ، فعلوت صخرا وهبطت آخر وتسلّقت ثالثا ، ثم وقفت إلى جانبه أحاول وإيّاه أن نحلّ رموز خطوط أدنى إلى الكوفى نقشت على صفحة الحجر ، وأحدّق وإيّاه فى صخور أخرى فنرى رموزا لم ندر ماهى ، ولعلها خط للغة من لغات البلاد الإسلامية فى آسيا أو أمريكا لم يبلغنا علمه ولم تبلغنا رسالته . وأراد بعض الحاضرين أن يردّ هذه الكتابات إلى عصور قديمة ، فاعترضه آخر بأنها قد لا ترجع إلى أكثر من بضع عشرات من السنين ، وقد ترجع إلى بضعة قرون ، وأنها على الأرجح لجماعة ممّن زاروا هذه المِنْطَقة من أزمان غير بعيدة جذبهم وادى وجّ إليها ، فجعلوا على أحجارها عبارات متداولة من مثل : الحمد لله وحده ، وآمن بالله فلان ، أو خطّوا عليها صورا استعاضوا بها عن الكتابة لأنهم لا يعرفون الكتابة .

وما رأيت من كتابات ونقوش يجعلنى أميل إلى هذا الرأى الأخير . ووجود الكتابة الكوفية لا ينهض بذاته دليلا على قِدَم العصر الذى كتبت فيه . فالكتابة الكوفية تعتبر فى يومنا الحاضر زخرفًا يجيد تصويره كثيرون ، وهى قد كانت أكثر ذيوعا منذ بضع عشرات من السنين خلت . وإنما يدعونى لترجيح هذا الرأى تشابه العبارة فى هذه الجُمَل المنقوشة على الصخر وعدم دلالتها على شىء يتصل بالطائف أو بالعرب أو بشىء من حوادث الماضى ذات الجسامة والخطر . ولو أنها كانت قديمة بمعنى أنها ترجع إلى العصور الإسلامية الأولى لبدا فيها طابع تلك العصور ولأشارت إلى ما حدث فيها من حروب وما تمّ فيها من أعمال عظيمة . أمّا وهى

كما رأيت فإنما هى عبارات تقليدية ينسج فيها زوار هذا المكان كلٌّ على طراز مَنْ سبقه . ولو أننى فكرت فى أن أصنع صنيعهم وأن أنقش على هذه الصخور المرقومة ما أستجل به وقوفى عندها لنقشت عليها أغلبَ الأمر عبارة كعبارة " آمن بالله فلان " مقلدا بذلك من سبقنى ؛ فالتقليد أيسر مشقة ، والعبارة التى اختارها أولئك السابقون أيسر نقشا على الحجر من سواها .

وليس يعدل بى عن ترجيح هذا الرأى ما يروى عن قدم بعض النقوش حتى ليقال إنه كان من زمن الجاهلية ، وإنه من الخطّ الكوفىّ القديم الذى لم نألفه ؛ اللهم إلا أن تكون نقوش على جبال أو صخور أخرى كالنقوش التى يذكرون وجودها بجبل السّكارى مما لم أقف عنده ولم أفكر فى أمره . على أن القائلين بقدم هذه النقوش يذكرون أنها خالية من التاريخ ، وأن الباحث لا يستطيع لذلك أن يستنبط منها ما يقوم عليه حكم من الأحكام ، أو تحقّق به حادثة من الحوادث .

فأما وادى وجّ الذى أشار صاحبى إلى أنه من الأودية المأثورة لقوله عليه السلام " صيد وجّ وعِضَاهه حرام محرّم " فقد آختلُف فى أمره . يقول ابن منظور فى لسان العرب : " وجّ موضع بالبادية ، وقيل : هو بلد بالطائف ، وقيل : هى الطائف " . وبعد أن روى حديث تحريمه قال : ويحتمل أن يكون حرّمه فى وقت معلوم ثم نسخ . وفى حديث كعب أن وجًّا مقدّس ، منه عَرَج الربُّ الى السماء . وفى الحديث أن آخر وطأة وطئها الله بوجّ . قال : وَجٌّ هو الطائف . وأراد بالوطأة الغَزاة هاهنا ، وكانت غزوة الطائف آخر غزواته صلى الله عليه وسلم " . ويذهب غير واحد من الذين كتبوا فى تقويم البلدان الى أن وجًّا آسم للطائف قبل أن تسمّى الطائف . وروى الفاسىّ فى كتاب " شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام " رواية مستندة الى الزبير بن العوّام أنه قال : " أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من ليلة حتى إذا كنا عند السِّدرة وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عند طَرَف القرن الأسود — والقرن : جبل صغير ورأسه مشرف على الهدّة — فآستقبل نَخِبًا

ووقف حتى آتفق الناس ثم قال : "إن صيد وَجّ وعضاهه حرام محرم لله عز وجل" وذلك قبل نزوله الطائف وحصاره ثقيفا . وقد ورد هذا الحديث فى سنن أبي داود ومسند آبن حنبل ، وإسناده ضعيف على ما قال النّووى . وقال البخارى : لا يصحّ . وذكرآبن عبد ربّه أن ثقيفا جاءوا الى النبيّ بعد مقتل عروة آبن مسعود فعرضوا عليه إسلامهم ، فكتب لهم بحرمة واديهم .

لم أُعْنَ كثيرا بما قيل عن تحريم وادى وَجّ ومدى هذا التحريم . وكيف لى أن أعنى به وهذا الخلاف واقع عليه ، والبخارى يُنكره ! . وإنما عنيت من أمره بأنه على أبواب الطائف من ناحية لِيَّة عند آنحدار المسلمين منها الى الطائف . وكل ما أستطيع أن أستخلصه من الروايات التى سبقت أن الرسول عليه السلام وقف بهذا الوادى حين بلغه ، وأنه جمع المسلمين هناك حوله ، وأنه هيّأ صفوفهم لحصار الطائف ، وأنه حرّم عليهم ، وكانوا من قبائل مختلفة ، أن يثيروا بينهم شقاقا أو أن يستبيحوا بينهم ما ليس مباحا لهم فى البلد الحرام . فلما انصرفوا عن الطائف لم تبق لوَجّ حرمة أكثر مما لغيرها من الآفاق .

قمت وأصحابى صبح الغد من ذلك اليوم مبكّرين بعد أن نلنا بالنوم راحتنا ليوم جهد ومشقة . فقد رأى الشيخ صالح القزّاز أن نتناول إفطارنا فوق السدّ السَّمَلَّجِيّ ، وأن نتناول طعام الغداء فوق سطح جبال الهَدَة ضيوفا على محمود المغربى . والسدّ السَّمَلَّجِيُّ يقع شمال الطائف ، وجبال الهَدَة تقوم فى جنوبها الغربىّ . فلا سبيل الى الجمع بينهما إلّا أن نستقلّ سيّارة البُكْس بكرة الصباح لنشهد السدّ وموقعه ولنعود بعد ذلك الى جبال الهدة فنرتقيها الى دار مضيفنا نتناول الغال ونشرب القهوة ونذّره ينحر الضأن ويُنضجه ، فإذا عدنا تناولنا العقال وهو قائم فى خدمتنا لا يقرَب الطعام ولا ينظر إلينا ونحن نأكل .

والغال هو ما نسميه فى مصر "التصبيرة" . أما العقال فطعام الغداء ، وهو الذى يعقل به الرجل معدته فلا تحرك الى طلب الطعام . والبدو لا يُعدّون العقال ولا ينحرون إلا بعد أن يصل اليهم ضيفهم .

غدونا إذًا مصبحين وتناولنا قدحا من الشاى وآخر من القهوة ثم ركبنا السيارة فٱنطلقتْ بنا قاصدة السدّ السَّملَّجى . وكما مررنا أمس بوادى وَجّ فى طريقنا الى هضاب الرُّدَف فقد مررنا أوّل ما تبدّت البادية أمامنا بواد لفت صاحبى نظرى إليه قائلا : إنه وادى نَخِب ، والمأثور أنه وادى النمـل الذى ذكره القرآن فى قصـة سليمان إذ يقول تعـالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وسألت صاحبى : وأين سليمان من الطائف وقد كان ملكه بالشام؟ . قال : « لقد جنّد الله لسليمان الوحش والطير فكان يسيّرهم الى حيث شاء من بقاع الأرض ، وكانت الطائف بعض ما مرّ به من البقاع فى ذهابه الى اليمن . وقد ٱختلف الرواة : أَمَرّ الجيشُ بهـا طائرا فى الهواء بأمر سليمان و بإذن الله أم مرّ بهـا سائرا على الأرض؟ . والقائلون بالسير يستندون الى ما ورد فى الآيات السابقة . فلو كان الجيش طائرا لمـا حذّرتْ النملة قومها منهم . أمّا القائلون بالطيران فقـد ذهبوا الى أن جيش سليمان أتى على وادى النّمل ولم يحطم منه نملة ، ولو كان سائرا لقضى على النمل وقريته . و إنمـا قالت النملة لأصحابها ماقالت يدفعها الحذر والحرص على الحياة .

ولم يذكر صاحبى أن وادى النمل حُرّم كما حرّم وادى وَجّ وإن على خلاف ، ولم يُشر كذلك إلى ما أوردته الروايات المختلفة فى وادى النّمل وموقعه . فقد ذهب قوم إلى أنه بالشام ، وذهب آخرون إلى أنه باليمن . وتوسّـط الذين قالوا إنه بالطائف بين الشام واليمن . ولغير هؤلاء جميعا مذهب فى النمل ووادیه لا ٱتصال له بالطائف ولا بوادى نَخِب بها ولا بالسِّدْر منها . ولم أر مايدعو لمناقشة هذه الأقوال

جميعا إذ كنت لا أقصد من تحقيق ما أرى إلى معرفة شيء فيما قبـل عهد النبيّ ، وقد كان سليمان قبل عهده بأكثر من خمسة عشر قرنا . فليكن وادى النّمل بالطائف أو بالشام أو باليمن ، فليس تحقيقه مما يدخل فى نطاق بحثى .

وقيل لى : إذا تخطّت السيّارة هذا الوادى فإنها تجتازه الى وادى لِيّة . وأنا أعلم أن الرســول جاء من حُنَين الى الطائف على رأس جيش المسلمين فآجتازوا لِيّــة . لذلك شاقنى أن أقف على هــذا الوادى وأن أرى بعينى طريقا مرّ به الرســول . وزادنى شوقا اليه ما قيل من أنه يمثّل خِصْب الطائف وثمـارها الشهيّة ، وإن لم يكن الفصلُ فصل ثمار تُجتنى وإن آشتُهِيتْ . ومددت بصرى الى ما أمامى لعلّى أرى طلائعه ، فإذا الجبال تحيط بنا من كل جانب ، واذا السيّارة تندفع نحوها كأنما تريد أن تقتحمها آقتحاما أو تتسلّقها تسلّقا . وبدأتْ تتيامن وتتياسر تتقى الأحجار المنثورة حولها مصعدة أثناء ذلك على هُون كأنمـا تريد أن تتخير سَرَبًا خلال الجبال القائمة أمامها تصدّها . ولم يخطئ حَدْسى ؛ فلقــد وجدت السَّرب الذى تنفذ منه خلال السلتين القائمتــين عن جانبها ؛ ذلك عِرْقٌ فى الجبل حُطّم لتمرّ السيارات من خلاله فى رِيع ليس آجتيازه فوق الجنادل المكدّسة فيه بأقل من تسلّق الجبل عسرا ومشقة . وسائق "البُكْس" يدفعه بكل قوّة الوقود وآحتراقه ، وهو مع ذلك يسير متعثرا كالطفل أوّل مشــيه ، يترجّح الى اليمين تارة والى اليسار طورا ، ويكاد يهوى فى كل لحظة إلى هذا الجانب أو ذاك . والسفحان عن الجانبين يحصراننا ولا يزيلان مخاوفنا أن تهوى الســيّارة بينهما وأن تتحطّم على جنادلها الصمّ الصِّلاب . ووقفت السيارة هنيهةً لا تتقدّم ولا تتأخر . ويريد أحدهم أن يبدى للسائق رأيا لعلّه يعينه ؛ فيثور ثائر السائق بهــذا الذى يتدخل فيما لا يعنيه ، يدعوه إن شاء أن يجلس مكانه ليرينا من معجزاته ما عجز السائق عنه . والرِّيع ممتدّ لا يتنهى ، والسفحان لا ينفرجان عن سطح أو واد يبعث الى النفس الأمل أن قد بلغنا مأمنا . وكلّنا واجم لا تنفرج شفتاه إلا عن كلمة تشجيع للسائق وإعجاب بمهارته مخافة أن يثور ثائره كرّة أخرى ؛ وكلنا مع ذلك مطمئن راض باسم الثغر لهذا النهار المشرق الوضّاح السماء ، ولهذا الجوّ

الصفو الرقيق الذى يُنعش الفؤاد ويُشيع المسرّة فى كل أنحائه . وترتق السيّارة خلال هذا الريع ثم تنحدر بعض الطريق لتعود الى الارتقاء من جديد ، وهى فى انحدارها أشدّ حذرا منها فى تسلّقها . والسائق مُلْقٍ بكل آنتباهه الى كل حجر أمامه، والى كل حركة من حركات السيّارة فى تيامنها وتياسرها، وقد جمدت يداه على مدارها فلا تتركانه . وخفّت حركة رجله على معيار الوقود يُنفق منه مدقّقا فى حسابه ألّا يزيد ما يُنفقه وألّا ينقص عن حاجة السيارة فى حركتها أثناء هذا الوقت الدقيق .

ربّنا لك الحمد! . ها نحن أولاء قد سمونا الى القمّة وتكشّف الأفق عن يميننا ويسارنا، وآنكشف أمامنا الوادى منبسطا أسفل منّا، تحيط الجبال على مرمى النظر بأطرافه . وها هو ذا السائق يتنفّس الصُّعَداء كمن كَرَبه أمرٌ ثم غلَبه وغلب كَرْبَه. وآنحدرت السيارة متجهة صوبَ دار قامت فى عزلة هذا الوادى وآنبسط أمامها زرع أخضر ذو رُوَاء وبهجة . هنالك تحدّثنا، وذكر أصحابنا هذا الوادى، وادى لِيّة، وجمال حدائقه وأعنابه وفاكهته اللذيذة الجميلة ، وأشادوا بجودة رمّانه وسَفَرْجله ، وتمنّوا لو أتاح لنا الفصل أن ننال منها طعام إفطارنا؛ لكنّ فصل الفاكهة لم يأنِ بعدُ، فلنَطِبْ نفسًا بما حملنا للإفطار من الطائف .

ودارت السيّارة حول هذا الزرع البهيج ثم آنطلقت مسرعة فى الوادى . وما لبث ما حولنا أن تغير: اِزداد الجوّ صفوا، والنسيم رقّة وعذوبة، وسرَت الى الصدور غبطة مسعدة ضاعفت نَعمة الحياة . ذلك أثر الماء فى مسيله والسيّارة تُحاذيه حينا وتجتازه حيناً، ثم تعود الى محاذاته ثم الى آجتيازه . ونهبط منها بين آن وآخر حين يخاف السائق غوصها فى الرمال ثم نعود اليها فرِحين مطمئنين كما هبطنا منها . وتغوص فى الرمل فيدفعها أصحابنا متضامنين خاضعين لأمر السائق الجالس على عرشه قابضًا على مدارها؛ فإذا خلصت وآن لها أن تعود سيرتَها قفزنا إليها فى مرح دونه أىّ مرح . وآنطلقت تسير فى أرض خِصبة خالية من الزرع إلا ما ندر .

ويذكر صاحبي أن وادى لِيّة يمتدّ مستطيلا مدى خمسة وعشرين ميلا تقريباً وأنه يبتدئ من ديار بنى سُفيان الثقفيّين من الجهة الجنوبية وينتهى بجَـدّ الحاجّ من الجهة الشمالية ، وأن أعلاه يسكنه الأشراف ، ويسكن الزوران وعوف أسفله . والزوران قبيلة من هوازن، وعوف فخذ من ثقيف .

وسألت : كم بقى لنا لندرك السد السَّمَلَّجى"؟ فعلمت أنا نتخطى وادى صُخَيرة الى وادى ثُمَـالَةَ حيث يقوم هذا السدّ . قال صاحبي : "ويقيم بنو صخر بوادى صخيرة الذى نجتازه الآن، وهم بطن من ثقيف، ومنهم الحجّاج بن يوسف الثقفى" عامل عبد الملك بن مروان ، ومَنْ بقى ٱسمه علمًا على القسوة والفتك والتلذُّذ بمنظر الدماء . فقد كان يرى فى كل جماعة يتولّى أمرهم رءوسًا أينعت وحان قِطافها،لا فرق عنده بين صَحابى" وتابعى" وأعجمى أسلم ولمّا يدخل الإيمانُ فى قلبه . وذكرت وأنا أسمع لصاحبي ما للبيئة فى الناس من أثر، فأدرت طرفى يَمْنةً ويسرةً لعلّى أستشف من خلال وادى صخيرة سرّ ما ركّب فى الحجاج من هذه الخلال . وخيِّل إلىّ أنى أرى فى طبيعة الوادى قسوةً لم يكن شىء من مثلها فى وادى ليّـة ؛ فقد ٱنقطعت المياه وغاض مسيلُها، ونتأتْ أحجارٌ صم" جلاميد، وخيّم على الكون صمت ثَقُلت وطأته، لم أدر أهو الذى صاغ روح الحجّاج من بطش وقسوة، أم أن مبعثه روح الحجاج وحديثنا عنه، وأنا لو لم نتحدّث عن الحجاج لما نتأت صُم" الجلاميد فى هذا المكان أكثر منها فى أى مكان غيره، ولَمَا ثقُلت وطأة الصمت المخيم" على الكون فى أنحاء البادية جميعا ، ولمَـا كان ٱنقطاع المياه وغَيض مسيلها آية غيض الرحمة من قلب الحجّاج وٱنقطاع مسيلها إلى نفسه .

ونسينا صُخَيرة والحجّاج وبنيه وآباءه حين وقفت السيّارة بنا فى منقطع من الوادى، وأعلن سائقها أن وقودها وشيك النفاد ، وأنا إن لم نتداركه بالرأى لم يعد يدرى كيف السبيل الى بلوغ السدّ ثم العود الى الطائف . ولم يكن بيننا الجرىء الذى يُلقى عليه تَبِعةَ الإهمال فى الخروج من المدينة الى رحلة كرحلتنا هذه دون التزوّد من الوقود

بأكثر من حاجته، فنحن الآن أحوج ماتكون الى رضاه وآتقاء غضبه، وهو رجل حادّ المزاج قد تدفعه حدّته فيذرنا حيث نحن ساعات وساعات . وماعسى أن يجدى تحميله التبعة فى بلوغ غايتنا والعود لتتم رحلتنا! . قال السيّد صالح القزّاز: "لا عليك! فهاهنا على مقربة منا كوخ لا يأبى أصحابُه أن يبيعونا ما لديهم من بترول . وأحسبه يصلُح مع ما بقى من بتزين السيّارة لنطمئن به حتى عودتنا الى الطائف . وأشرقت أسارير الرجل، فانطلق بالسيّارة غير بعيد ثم وقف عند كوخ قائم فوق ربوة بعيدة عن مسيل الوادى، ونادى بأعلى صوته لعلّ أحدًا يسمعه ويجيئنا بالبترول الذى نبتغيه . وأجاب النداء صبىّ، فسألنا : مانبغى؟ ثم أطلق ساقيه للريح يلتمس أهله حين علم أن فى الأمر تجارة وربحا . وجلست وأصحابى فوق الصخور الناتئة حول السيّارة حتى جاء أهل الصبىّ بصفيحة البترول وبكوز صغير معها هو الكيل الذى يبيعون به . وآنطلقت السيّارة الضخمة فى طريقها فوق الصخور مطمئنة الى وقودها وكفايته، تمتّعُ معنا بجوّ الصبح الجميل، حتى بلغت السدّ السملجىّ ولمّا تكتمل الساعة التاسعة . وكنا إذ بلغناه قد تجاوزنا وادى صُخَيرة الى وادى ثُمالة، وتجاوزنا قسوة الطبيعة الى ابتسامها بالزرع النَّضر والخضرة الباسمة، وآن لنا أن نطمئن الى مكان نتناول فيه إفطارنا وقد زادت بكرةُ اليقظة وجمال الهواء وجهد الرحلة فى شوقنا اليه وحِرْصِنا على تناوله .

ولم نتردّد فى آختيار المكان، فهذا السدّ أمامنا ضخم عريض السّطح مرتفع يشرف على ما حوله . وهو فيما يبدو من أمره أثر تاريخىّ كان له فى حياة هذه البلاد أثر بالغ؛ فلنصعد اليه ولنتخذ من سطحه مائدتنا . وتسلّقنا أحجاره الضخمة كما يتسلّق الناس الأهرام فى مصر حتى آستوينا فوقه، ثم سرنا حتى توسّطنا سطحه . ونظرت عن يمينى فاذا مجرى أشبه بمجرى النهر قد حُصِر بين شاطئين ولا ماء فيه، وعن يَسارى فإذا أرض مستوية آستوت فيها الحنطة على سوقها ولما تُحْصِدْ بعدُ[1]؛ ومن أمامى ومن خلفى قام جبلان يحصران هذا الوادى

(١) أحصد البر والزرع : حان له أن يحصد .

المرع الفسيح تحدث أرضه بمعانى الخصب وقوة الإثمار ، وإن لم يكن به من زرع إلا هذه الحنطة التى أرى . وجلسنا على الحجر ونشرنا عليه ما معنا من الزاد، ما كان أحلاه وأشهاه على بساطته وبداوته! . أستغفر الله! لم يكن بدويا وقد كان بعضه "بسكوت" ومُرَبّى مجلوبين من انجلترا . واشتركنا جميعا فى تناوله ، فكان فى ذلك من مظهر الديمقراطية البدوية ما تستريح له النفس ويشعر المرء فى أثنائه بالإخاء الإنسانى الذى لا يعرف الطبقات ولا يعرف الحاكم ولا المحكوم، والذى يكمل به إيمان المرء إذ يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويدرك إدراكا عميقا صادقا أنا جميعا سواسية أمام الله وأنا جميعا عباده، لا فضل لأحد منا على صاحبه إلا بالتقوى .

اطمأنت معداتنا فقمنا نستأنف حديث السد والقبائل التى حوله : قال صاحبي : تقع ديار بنى سعد حيث آسترضع النبيّ على عشرة أميال من هذا المكان . وأغلب الظن أن قد جاء النبيّ فى طفولته الى هنا مع الرعاة من بنى سعد بن بكر؛ فالرعاة لا يذرون مكانا به كلأ أو مرعى أيًّا كان نوعه دون أن يطرقوه . قال آخر: هذا آحتمال قد يكون وقد لا يكون . وربما آعترض عليه بحق من يذكر أن رُعاة بنى ثُمَالة ما كانوا ليدعوا رُعاة بنى سعد يطئون أرضهم موفورين عن رضا منهم وطواعية ؛ فقبائل البادية شديدة الحرص على حُرمات أرضها ، وهى أشد حرصا إذا كانت الأرض خصبة وكان فيها لذلك مطمع . قال السيد صالح : دعوا عنكم هذا الحديث وتعالَوا بنا نهبط إلى حيث الحنطة لنواجه السد، فيرى ضيفنا منه ما هو أجدى فى بحوثه من كلام لا يتيسر لنا ها هنا تحقيقُه . وأومأ صاحبي إيماءة الرضا عما قال السيد وتقدمنا كى نهبط السد، وسار الشريف حمزة الغالبيّ إلى جانبي كيما يعاوننى إن آحتجت إلى معونة .

وهبطنا إلى مزرعة الحنطة وآستقبلنا السد ، فأخذتْ بنظرنا الأحجار الضخمة التى شيد منها ، كما أخذ بنظرنا إحكام بنائه على عظمته وضخامته . فهو يبلغ نحو الثمانين مترا فى طوله ، والخمسة والعشرين مترا فى آرتفاعه . أما عرض سطحه فيزيد على عشرة أمتار،

وسألت عن تاريخ بنائه فقيل إنه يرجع إلى عهد معاوية بن أبى سفيان فى صدر الإسلام، وإن الحجة فى ذلك هذه الكتابة المنقوشة على أحد أحجاره والتى لا تكاد تتضح؛ فقد نقلها عبد الله باشا باناجى بالفوتغرافيا فى أوائل هذا القرن وبعث بها إلى مصر حيث حلّت رموزها فإذا فيها: «أمر ببنائه عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان» . هو يرجع إذاً إلى ثلاثمائة وألف سنة خلت . لم يكن بناة الأهرام وحدهم إذًا هم الذين عرفوا العظيم والضخم فى العمارة؛ بل عرف أبناء بلاد العرب من ذلك ما عرف قدماء المصريين، فأقام أهل الطائف هذا السدّ كما أقيم سدّ مأرب فى بلاد اليمن؛ وأقيم هذا السدّ فى مسيل الوادى بين الجبلين كما أقيم سدّ مأرب لينتفع الناس بالمياه ولا يدعوها تذهب هدرا . كانت الغايات الاقتصادية والعمرانية هى التى أدّت إلى إقامة هذا السدّ إذًا كما أدّت إلى إقامة سدّ مأرب . وهذه الغايات هى التى دعت بُناته ليقيموه بالقوة والمتانة التى أقاموه بها من أحجار ضخمة يمسكها المِلاطُ[1] القوىّ على مجابهة الزمان . لا بدّ إذًا أنْ قد كان فى هذه البادية من أسباب العمران ما لا نرى له اليوم أثرًا ؛ ولا بدّ أن قد كان العرب فى صدر الإسلام ينعمون بحضارة ننكرها اليوم عليهم ؛ لأن أبناءهم أنكروها عليهم بإهمالهم إياها . بل أرانى أميل إلى الظن بأن هذه الحضارة كانت قائمة ينعم بها أهل هذه البلاد قبل الإسلام ، وأن الدين القيّم قد نزل على قوم لهم من الحضارة هذا الحظ الأوفى .

وأدليت بما جال بخاطرى من ذلك؛ فذكر السيّد صالح القزّاز : أنّ هذا السدّ أضخم سدود الطائف المعروفة؛ لكن بالطائف سبعين سدّا غيره، ومنها ما يكاد يدانيه ضخامة وعظمة . من ذلك سدّ واقع فى حمى سَيْسَد المعروف بشرق الطائف، يقال إن يزيد بن معاوية هو الذى أمر ببنائه؛ وآخر واقع بوادى ثنيّة بين الطائف ووادى مَحْرِم . وهذه السدود جميعها مخرّبة منذ أزمان بعيدة لا يعرف

(١) الملاط : الطين يجعل بين سافى البناء ويملط به الحائط .

أحد من أبناء هذا الجيل عنها شيئا . ولم يخامرنى ريب فى أن تخريب هذه السدود هو الذى هوَى بالطائف الى حيث هى اليوم بعد أن كانت مضرب المثل فى الخِصْب والمنعة . فقد كانت هـذه السدود جميعا خزّانات تحجز مياه المطر لفائدة الزّراعة ؛ فكانت المساحات الواسـعة تُستغل مَزَارِعَ للحنطة والغلال والفاكهة وما إليها ممّا ترويه الكتب عن ثروة الطـائف وعن مكانتهـا الاقتصادية ، وكان ذلك سـببا فى العمران وانتشار السكان فى هـذه الأودية الكثيرة التى مررنا والتى لم نمر بهـا . أمّا اليوم فأنت لا ترى فى هذه الأودية أثرا ظاهراً للعمران . وما يذكرونه عن ثُمالة وصخر وثقيف وهُذَيْل وأفخاذها وبطونها لا يزيد على أسماء تُحيي فى النفس ذكريات تاريخيّة ترجع إلى أيام الإسـلام الأولى ، وترجع الى ما قبل الإسـلام . فاذا أردنا أن نلتمسها اليوم لم نجـد إلّا نجوعًا منثورة ها هنا وهناك يقيم فيهـا من الأعراب مَنْ لا يزيدون عن البدو الرّحل رُقيّا ولا تحضُّرا ، ومن جَنَوْا بتأخرهم على ما كان لهذه الحضارة الزاهرة فى صدر الإسلام من مكانة لا ينكرها أحد .

وأردف السيّد صالح : ولم تكن مياه هـذه السدود مقصورة فائدتها على إمداد الزراعة المتّصلة بهـا ، بل كان لهـا فائدة أخرى لا تقلّ عن حجز المـاء وقد تربو عليـه ؛ ذلك أنهـا ترفع مياه العيون والآبار فى المناطق التى لا تصلها مياه السدود ، فتجعل الرىّ من هـذه الآبار والعيون هيّنـا ميسورا . والعمران يزدهر حيثما وجد المـاء فجعـل كلّ ما حوله حيّا . لذلك كانت بادية الطائف عامرة كلّها ، وكانت الدور والقصور قائمة فى هـذه الأماكن التى نسمع اليوم أسماءها ولا نجد لهـا أثرا . وسترى مصـداق ذلك اليوم حين نذهب الى الهَدّة وغدا حين نذهب الى الشّفا ، إذ نسمع أسماء وردت فى الشعر القديم على أنهـا موضع حضارة وأماكن عمران ، وهى اليوم بادية ممتدّة أمام النظر ليس فيها أثر لحضارة أو عمران ، إلّا ما يكون من رسم دارس يثير بقاؤه فى النفس الأسى وفى القلب الحسرة .

علونا مزرعة الحنطة إلى الطريق لنستقلّ السيّارة عائدين إلى الطائف فى طريقنا إلى الهدة ، ووقفنا إلى جانب السدّ ريثما يجتمع رفاقُنا . وسألنى صاحبى عن هذا السدّ

ورأيي فيه . وسألته بدورى عن صحة آسمه : أهو السدّ السَّمَلَجِىّ أم السدّ السَّمَلَقِىّ ؟ فهم ينطقونه جيما بجيم أهل القاهرة ، وقافا كقاف أهل الريف فى مصر ؛ وكنت أميل إلى الظن بأنه السملق ، لا أدرى لم . وآختلف القوم وأصرّ أكثرهم على أنه السملجى ، وآحتجوا بمقال نشره الأستاذ إبراهيم مصطفى أحد أساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وكان قد جاء إلى هذه المِنْطَقة وزار هذا السدّ . وقال صاحبي حسْمًا للخلاف : ليكن هذا أو ذاك فله آسمان آخران لا خلاف عليهما : سدّ ثُمَالَة ، وسدّ بنى هلال . ولقد أعجبنى هـذا الرأى وصرفنى عن الإمعان فى تحقيق اللفظ ما عسى أن يكون الوجه الصحيح فيه .

وآنطلقت بنا السيّارة نحو الطائف سالكة طُرُقا أكثر يسرا من الطريق الذى جاءت فيه . ورأى أصحابنا طمأنينة السائق فى مجلسه ، فسأله أحدهم : أكان قد ضلّ فلم يسلك هـذا الدرب المعبَّد ، أم أنه شبع بعد تناول إفطاره فقويت ذاكرتُه فسلك السبيل السوىّ ؟ ولم يغضب الرجل ولم تغلبه حدّته . وفيم الغضب وكلّ شىء ميسّر أمامه . وبلغ الطائف ووقف عند مخزن البنزين فأخذ صفيحة وأفرغ فى السيارة أخرى وعاود آنطلاقه لنبلغ الهدّة قبل الظهر .

وآتجهنا غرب الطائف فى أودية جرداء حينًا ومزدانة بالشجر النامى الذى يبعث فيها روح الحياة حينا آخر . وكان وادى مسرّة أدنى الأودية إلى الطائف من هذه الناحية . وهو يقع على مقربة من بستان الشريف الشهيد آبن عون الذى يعرف اليوم باسم "مِعَشّى" على قول صاحبي . ولقـد جاوزته السيّارة إلى ما بعده من أودية وهى ترتفع على هضابها حينا ، وتهوى إلى بطونها آخر ، مطمئنا سائقها إلى طريق سلكه قبل اليوم غير مرة . وبعد ساعة ونصف ساعة من الطائف آنفسح أمامنا سهل يجاور جبلا رفيع الذُّرَا . أمّا السهل فوادى مِحْرِم الذى كان يعرف أيام السلف بآسم قَرْن المنازل . وأما الجبل فهو الهدّة المتصل بجبل كَرَاء .

ووادى محرم ، أو قرن المنازل إن شئت ، مَفْرَق طرق تَصل بين بادية الطائف ومكة . ولاثنين من هذه الطرق شهرة ؛ يتجه أحدهما من وادى محرم الى حمى الـ‍نور

فالثنيّة المقـابلة للشرائع فمكة . ويتجـه الآخر صاعدا من وادى محرم خلال النقب الأحمر الى الهدّة . والهدّة : سطح جبل كَرَاء . ومن هـذا السطح ينحدر الإنسان الى جبل كراء المتّصل بشدّاد فخريق نَعْمان فعرفات فمكة . وهذا الطريق هو الذى سلكه الرسول عليه السلام حين جاء من مكة الى الطائف قبيل الهجرة . والطريق الأول هو الذى سلكه فى العودة من الطائف الى مكة بعد أن ردّه أهلها وآذوه . وهذان الطريقان ما يزالان مسلوكين الى اليوم للسائرين على أقدامهم وللمتطين الزوامل التى مرَنت على تسلّق الجبال؛ فهما أقصر من طريق الشرائع فالزّيمة فالسيل الكبير بمراحل . وأهل البادية أشـدّ ميلا لاتّباع الطريق الموجز وإن شقّ السـير فيه. وليس يدفعهم إلى ذلك حرصهم على الوقت وكسبه، أو تقديرهم أن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ، بل يدفعهم اليه ميـل طبيعى الى المجهود الأقلّ . ومشقة الطريق لا قيمة لها عندهم ما يسّر قصره للإنسان أن ينال بعده راحةً كاملة تعوّضه عن كل جهد وكل مشقة .

وتقع الدّار البيضاء بأسـفل وادى مِحْرم . وحَذَارِ أن يثـير اسم الدار البيضاء فى نفسك ما أثاره فى نفسى من صورة البيت الذى أنشأه الأمريكيون لمقام رئيس الولايات المتحدة بواشنجتن . فلقـد خُدِعت حين سمعت هـذا الاسم وجعلت إذ وصلنا وادى مِحْرِم أُدير بصرى يمنةً ويسرةً أُريد أن أرى هذه الدار البيضاء أين هى، فيرتدّ إلىّ البصر ولم تأخذ به دار بيضاء ولا دار حمراء . وما كان أكثر تردّدى دون السؤال عنها مخافة أن أُثير العجب إن لم أثر الإشفاق فى نفس أصحابى كيف لا أرى هذا القصر المنيف يخرّ دونه قصر الرئيس الأمريكى ساجدًا ! . فلما جازفت بكل جرأتى وسألت القوم ، اذا الدّار البيضاء قرية من قرى البـادية قامت بهـا بعضُ منازل صـغيرة حقيرة ، واذا أنا الذى يثـور عجبى بل إشـفاقى ذهبت ألتمس للقوم عذرا عن هـذه التسمية الفخمة للعزبة الحقيرة ، أنها ربمـا كانت دارا بيضاء ذات بهاء وجلال فى المـاضى ؛ فلمـا هوت الى حيث هى اليوم بقى لهـا هذا الاسمِ الذى لا يتناسب معهـا ، كما تبقى لأشخاص ضـعاف ضئيلة فى الحيـاة قيمتهم هين بين

الناس قدرهم ، أسماء أجداد ٱهتزت بأسمائهم عصورهم ؛ فلما ثوى الأجداد فى الثرى وأورثوا أسماءهم مَنْ بعدهم عبثت يد الزمن بالأسماء لعبثها بوارثيها .

ووقفنا هنيهة ننتظر المطى التى تصعد بنا خلال النَّقب الأحمر الى الهدّة . وأقبل فتيان من البدو تسبقهم حمر تلهث مسرعة كأنها مستنفرة فرّت من قسْورة . ووقف الفتيانُ الحُمُرَ على مقربة منا ، وٱختار أصحابى أحدها لركوبى . ولم أعرف لٱختيارهم سرّا ؛ فبين الحمر وبراذعها من الشبه ما يثبت اليقين بديمقراطية الحمر فى البادية كديمقراطية كل شىء فيها . على أنى شكرت للقوم حسن الٱختيار وعلوت مطيّتى كما عَلَوْا مطيهم ، وٱنطلقنا نُغِذّ السير فى طريق لا عِوَج فيه ولا أَمْت . وخيّل إلىّ أننا سنصعد كذلك فى هُون حتى نبلغ غايتنا . وما راعنى إلّا الجبل ٱنبعث صُعُدا فى السماء أمامنا ولم يدعْ لنا طريقًا نسلكه إلا نقبا أحمر يتلوّى صاعدا مع الجبل بين صخور كأنما صُهرت فى أتُّون خلع عليها لونَ النّار . ووقفت المطىّ أمام هذا النقب وألقت برءوسها وآذانها الى الأرض وفحصت بأرجلها الصخرَ تبلو متانته ، ثم تقدّمت فى حذر تصعد الجبل ، تضع رجلا فوق صخرة وتنقل الثانية الى ما يليها ، وتقف هنيهةً حتى تتثبّت من موقفها ، ثم تنقل رجلها كرّة أخرى مُمْعنةً فى الصعود . وأمسكت أنفاسى وأمسك القوم أنفاسهم ورفعتُ طرفى فى لَمْح البصر الى أعلى الجبل ورددتُه الى موضع الخَطْو لهذا الحمار المختار الذى أركبه . وفى هذه اللحظات الأولى القليلة القصيرة مرّت بنفسى مئات الخواطر . وإنى لكذلك إذ زلقت رجل حمارى على صخرة فٱستردّها مسرعا . عندئذ دعوتُ الفتى البدوىّ صاحب هذا الحمار فٱستوقف دابّته وٱعتمدت على كتفه ونزلت فوق صخرة وتركت الحمار يتابع تصعيده .

قال أصحابى : "مالك ! ومِمّ تخاف ؟" . قلت : "أوثر أن أصعد هذا الجبل على قدمى كما صعدت حراء وثورا ، وما أحسبه أكثر ٱرتفاعا من أيّهما" . قالوا : "لا تخف ؛ فهذه الحمر قد مَرَنت على صعود الجبل مرانة البدو ، ونحن معك ،

يسبقك بعضنا ويلحقك بعض ". قلت : " لئن كانت الحمر قد مرنت على الصعود لقد مرنت أقدامى كذلك عليه، لكنّى فاتتنى هذه المرانة فى الصعود على ظهور الدوابّ". وذكرت لهم كيف صعدت أَرْز لُبنان فى سنة ١٩٢٤ ولمّا تكن طريق السيّارات قد مهّدت له، ثم أردفت : "ولقد آمتطيت يومئذ حمارا كهذا الذى تفضّلتم بآختياره لركوبى فإذا هو لا يطيب له السير إلا على حافة الجبل وحافة الهاوية، حتى لقد كان يخيّل إلىّ فى كل لحظة أنى على شفا جُرُف هار ؛ وذلك شأن الحمر جميعا، وهو شأنها اليوم، وسيظلّ شأنها أبد الآبدين ودهر الداهرين ؛ وقد مضت آثنتا عشرة سنة من ذلك اليوم وأنا مع ذلك لا أنساه . وما أحسبنى بعد هذا الزمن كله فى مثل ما كنت فيه من نشاط الشباب وإقدامه ؛ مع ذلك كنت يومذاك ممسكا قلبى بيدى حذَرَ الموت . وأين لى اليوم هذا القلب وتلك اليد التى كانت تمسكه ! فبالله عليكم إلّا ما تركتمونى أصعد راجلا ؛ فمشقة الأقدام والسير أهون من مشقة الأعصاب وخفق الفؤاد ".

وآبتسم السيد صالح القزّاز لروايتى وترجل عن حماره ولحق بى وقال : " إذًا نصعد راجلين معًا، وإن كنت لا أُشاركك فى مخاوفك ". وقال البدوىّ صاحب الحمار الذى أركبه : "جعلت فداك لا تخف . فهذا الحمار أبرّ بى وبراكبه من أن يُحدث أمرا . والأمر بعدُ لله، والله معنا". وترجّل صاحبى وجاء هو كذلك إلينا يسير معنا . فقافلة الحمر لا تقف أثناء الصعود إلا كارهة . ولقد رأيتها تتخطّى أمامى من صخرة الى صخرة فى حذر ليس كمثله حذر، ورأيتُنى تنزلق قدمى فوق الصخور حيث لا تنزلق حوافرها . وسمعت كأن هاتفا يهتف فى أطواء قلبى : " لِمَ تخاف ولكل أجل كتاب، ولن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا ! ". والأمر بعدُ أهون من أن أجعله موضع رجاء أصحابى، وآلتماس البدوىّ صاحب الحمار، ودقة الملاحظة لخطو الحمر، وهذه الفلسفة الجبريّة التى بدأت تهتف بى ؛ على أنى مع ذلك آثرت أن أجعل عودى الى آمتطاء الدابّة نزولًا منى على إرادة صاحبها . ووقف الرجل الحمارَ

فى بطن النَّقْب وعلوت صخرة آستويت منها الى مركبي ، وعادت القافلة تسير فى نظام مطمئن .

وآزددنا طمأنينة بعد ربع ساعة من مسيرنا ؛ فقد آستوى الجبل فى صعوده واستوى النقب طريقا تجرى الدوابّ فيه جريها فى السهل، لا تخاف شيئا ولا تخشى. وظللنا كذلك فترةً نسينا أثناءها ما آستولى علينا من الصمت فى الفترة الأولى : فهذا يقص أنباء كَرَاء، وذاك يقصّ أنباء كُرَّ ، وثالث يتحدّث عن الصخرة الضخمة على سطح الهَدّة وما عليها من كتابة ونقوش ، وآخر عن البركة الواقعة على منحدر كراء الى الكُرّ. ويشترك البدو أصحاب الدوابّ فى هذا الحديث بما يعرفونه من أنباء هذه الأماكن. وإنّا لفى مَرَحنا وفى قصصنا إذ آن للجبل أن يعتدل عمودياً فى آرتفاعه، وللنقب أن يعود شاقًّا مخوفًا، وآن لنا أن نستأنف الصمت الأول، وأن نشدّ أبصارنا إلى مواقع الخطو من هذه الدوابّ الحَذِرة المجازفة . ويقوّس الحمارُ ظهرَه إذ يعلو بقدميه الأماميتين صخرة نابية فى نتوئها، ويبلغ من تقوسه أن يكاد الإنسان ينزلق هاوياً وراء ذنبه لولا أن يشدّ اللجامَ بيد ويمسك البردعة بالأخرى . ويخفق القلب لهذه الحركات "البهلوانية" المتئدة خَفقًا شديدًا، وتتمتم الشفاه بعبارات الاستعانة بستر الله فى همس لا تسمعه إلّا أُذن قائله ، بل تتخيّله هذه الأذن تخيلا . ماذا عساى أصنع ! أأترجّل عن دابّتى كرّة أخرى أم أبقى متسنماً ظهرها ويفعل الله مايشاء ! ترى كم بقى الى غايتنا ! . ليكن ذلك بضعة أمتار، فآلسقوط عن الدابة ودقّ الرقبة يتمّان فيما دون الثانية الواحدة . وإذا ترجّلتُ وعاد القوم يخاطبوننى ويشجّعوننى وعاد البدوى صاحب الحمار يرجونى فيالَخجلا ! . فإن لم يكن بعد ذلك بدّ من أن أستجيب لرجائهم نخير ألّا أترجّل أو أُحدث فى القافلة ما لا مفرّ أن يحدث من هَرْج ونحن فى هذا المضيق الدقيق . ويستدير الحمار فوق صخرة يقف عليها بأربعه، وأكاد أرانى هاوياً متدحرجًا على الصخور إلى رحمة الله، فيثب قلبى فى صدرى ويتعطّل كل تفكيرى، وأشير إلى البدوى السائق ليدنو منى فأعتمد عليه وأهبط عن الدابة فى صمت، وأسير بضعة أمتار على قدمى لا أحدث أثناء ذلك ضجّة ولا جلبة، ولا يكاد يفطن أحد

ممّن معى لِما فعلت. ويسبقنا الحمار ويسير البدوى إلى جانبي، ثم يشير إلىّ بعد قليل أنّا صرنا على مقربة من القمّة، وأن الطريق آستقام أو كاد، وأنى أستطيع فى غير خوف أن أعود فأمتطى دابّته . ويمسكها وأعلوها، وتسير فى طريق ما يزال وعرا كما كان . لكننى كدت آلفه . ووعورته للسائر على القدم ليست دون خطره على ممتطى الدابّة؛ فأنت منه بين أمرين أحلاهما مرّ ؛ وأنا أداول بين الأمرين دِراكا. وما دمنا قاربنا الغـاية فَلأَنْ أبلغها فارسًا مع السادة خير من أن أبلغها ماشـيا مع قادة الدوابّ .

وكنّا على رأس النَّقب حين بدت لنا دار حمراء لم أدر أبُنيت من الآجُرّ أم من أحجار هذا النقب . دار قائمة فى عزلة الصومعة شيِّدت على قمّـة عالية ، وعلى صورة البرج. كيف الطريق اليها ! . انقطع النقب وآستدارت الحمر على سطح لجبل مخضرّ تجرى خلاله طرق ملتوية فى تصعيدها، حيل بينها وبين خضرة الزرع بأحجار رصفتها أيد حريصة على هذا الزرع حَذَرَ أن تدوسه أقدام المشاة أو حوافر الدوابّ وأخفافها . وتلوَّتْ قافلتنا فى هـذه الطرق تسـير صُعُدًا نحو الدار فى طمأنينة مَنْ أدرك غايته . قال صاحبي وهو يتبغى على أتانه حتى تكاد رأس الأتان تمسّ ساق: "هذه الهَدّة هى السطح من جبل كَراء، وهى ترتفع عن الطائف بستمائة متر، وعن سطح البحر بمائتين وألفين من الأمتار . أوَ ترى هـذا الجبل المصعدة قمّته فى الجوّ هناك فى الناحية الجنوبية ؟ إنه جبل سِـفَار ؛ وهو أعلى قمّـة فى هذه الناحية من جبال الطائف ؛ ويبلغ آرتفاعه عن سـطح الهَدّة خمسين ومائتى مـتر . والبـدو يرون البحر منه عند منحنى اللِّيث الواقع على مقربة من جُدّة ؛ وهم يرونه ساعة مغيب الشمس إذا كان الجوّ صفوًا فلم يحل دون آمتداد البصر الى غاية الأُفق حائل .

وكان الجوّ فى هـذه الساعة رقيقا صفوًا من كل شائبـة . وكان هواء الجبـل صحيحا منعشا يبعث الى النفس الغبطة وإلى القلب المسرّة . وكانت الشمس ترسل أشعّتها المحسنة تحيي بهـا الكون وتفيض منها الدفء والنور، فتزيد النفوس غبطة

والقلوب مسرّة. وكان زملاؤنا جميعا فرحين أن بلغنا الغاية بعد ساعات تنقّلنا أثناءها من الطائف الى سدّ ثُمالة ، فإلى الطائف كرّة أخرى ، فإلى هذا المكان الذى بلغناه بعد جهد ومشقّة . ولعلّى كنت أكثرهم آغتباطا ومرحا . فهذا كلّه جديد فى حياتى وهو متداول فى حياتهم ؛ فإن لم يكن بعضَ ما يزاولونه كل يوم فهو بعض ما يتعرّضون له الفَيْنة بعد الفينة ؛ ومنهم من تكاد تكون هذه المشقة بعضَ حياته ، كالشريف حمزة الغالبىّ . وربما كان فرح هذا الرجل أن بلغ بنا ما نبغى ، وأن حدّثنا عن كثير ممّا أُريد أن أسمع عنه ، أعظم من فرحه لمرأى دار مُضيفنا فى الهَدّة . ولقد رأيت السرور يلمع فى عينيه ونحن نترجّل عند دار هذا المضيف ، وهو يسألنى فى شوق من يريد أن يطمئنّ : "لعلّك لم يبلغ منك التعب"! .

ودلفنا الى بيت مُضيفنا محمود المغربىّ ، فدخلنا باباً وآرتقينا درجا وأوينا الى غرفة أذكرتنى بداوتها وسذاجتها منازل العِزَب فى مصر . ولقِينا أهل الدار مؤهِّلين فرِحين ، ودخل بعضهم معنا الغرفة الخالية ، وجاء أحدهم بحصير من هنا وآخر بسجّادة من نسج أيديهم من ها هنا ، وفرشوا ما آستطاعوا فرشه من جوانب الغرفة ، ثم جاءوا بوسادتين أتّكئ عليهما مبالغة فى إكرامى . وأعدّ لنا القوم الغال — وهو طعام "التصبيرة" كما أسلفت — بيضا وخبزا وتمرا . وقام ربّ الدار على قدميه عند الباب لا يتناول معنا طعاما ولا يلقى الينا نظرة ، وكل همّه أن يجىء بالماء للظامئين . وسمعته يتحدّث الى أهله .

جُزيت يا مسترفلبى ! أهذه اللغة العربية الفصحى الصميمة التى هديتنى الى موطنها ! ! إنها لهجة لا أكاد أفهمها إلا كما أفهم أهل لُبنان أو أهل المغرب إذ يتحدّث بعضهم الى بعض . يرحم الله شعراء ثقيف وخطباءها ! ويرحم الله الحجّاج ابن يوسف الثقفىّ يوم قال :

أنا آبنُ جَلا وطلّاع الثّنايا * متى أضع العمامةَ تعرفونى

ورحم الله أُميّة بن أبى الصَّلْت الثقفىّ فى الجاهلية ! ورحم الله المُغيرة بن شُعْبة ، وغَيْلان بن سَلَمة ، وعُروة بن مسعود ، والفارِعة بنت أبى الصّلت وغيرهم وغيرها من

رجال ثقيف ونسائها الشعراء والحكماء! أين شعر هؤلاء وأين حكمتهم! وأين هم من أولئك الذين أرى اليوم فلا أكاد أستبين لهم حديثا أو أفهم لهم قولا! ! . وأسأل السيد صالح القزّاز فى ذلك فيذكر لى أنه الجهل المطبق الذى خيّم على البلاد أجيالا بل قرونا ، والذى ألِفه الناس حتى ما يفهمون غيره . فإذا أنشأت لهم الحكومة الفاتحة اليوم مكاتب للتعليم تلكّئوا فى الإقبال عليها وآعتبروها عدوًّا لهم أىّ عدو، هذا على شعورهم بالحاجة إلى المعرفة بعد إذ رأوا السيّارة والبرق، وأيقنوا أن الحياة فى عصرنا الحديث بغير علم مستحيلة، وأن الجهل والبهيمية فيها سواء .

وخرجنا بعد "الغال" من دارُ مضيفنا ندور فى الهَدّة من سطح كَرَاء . وأطلقنا للدوابّ أزمّتها تجرى مرسلة العِنان لا تخاف وعرا ولا وعثا ، ويدفعها أصحابها البدو الفرِحون بجريها إلى مزيد منه ، فهى تستبق ما آنفسح الطريق أمامها، فاذا قام النبات عن جانبيها وضاق الطريق سارت بعضها فى إثر بعض . ونبات الحنطة المزروع فى هذا السطح من الجبل لا تجاوز مساحته المنثورة ها هنا وهناك بضعة الأفدنة لكل قطعة منها . وهى تقع أغلبها فى حضن سفح أو على رأس هاوية . فأمّا ما وراء ذلك من سطح الجبل فخلاء منثورة فيه الأحجار المتباينة الأشكال والأحجام . وقد مررنا بحجر ضخم قائم فى الفلاة يكاد آرتفاعه يبلغ ثلاثة الأمتار أو يزيد عليها؛ فذكرت لمرآه أحجارَ الهرم الأكبر بالجيزة ، وإن لم يهذّب ولم يسوَّ ما هُذِّبَتْ وسُوِّيَتْ . ووقف أصحابى أمام هذا الحجر فاذا عليه كتابة ونقوش، حاولوا قراءة ما يمكن قراءته منها ، وحاولوا أن يردّوه الى عصور قديمة ترجع الى صدر الإسلام وإلى ما قبل الإسلام . قال صاحبى وهو يحاورهم : "أوَ تحسبون صخرة كهذه الصخرة معرّضة للريح والمطر تحتفظ ألوف السنين أو مئاتها بكتابة لم يعمّق صاحبها نقرها ! لشد ما تغلون! وإنى لأظنكم تحرِصون فى غير موضع للحرص أن تخلقوا تاريخا منقوشا على صخور هذه الأماكن الغنيّة بما وعت من عهد الرسول فأغناها عن كل نقش . وحسب هذا المكان فخارا أنّه عليه السلام مرّ به فى مجيئه

من مكة إلى الطائف يستنصر أهلها . فأمّا ما ترونه منقوشًا على هذه الصخرة أو غيرها من الصخور فلا أحسبه يشفى غُلّة أو يروى ظمأ ، و إن ألفى الذين يحلّون طلاسمه تاريخ البشر مطويًّا فى ألفاظه ".

كانت غايتنا من سيرنا أن نبلُغ البركة القائمة عند منحدر جبل كَرَاء الى الكُرّ . فمن هذه البركة يرى الإنسان الطريق الى شدّاد فوادى نَعْمان فمكة ، وهو الطريق الذى يسلكه المشاة وتسلكه الدوابّ بين مكة والطائف ، وهو الطريق الأثرى الذى سلكه الرسول من ستين وثلثمائة وألف سنة مضت . وهو هذا الطريق الذى نصح الىّ الحاجّ عبد الله فلبى أن أسلكه لأسمع عربيّة البادية . أمّا ولم يتسنَّ لى أن أتعدّى ما بعد وادى نعمان يوم جئت اليه من مكة ، فلأذهبْ الى الكُرّ من ناحية الطائف فأكون قد قطعت من هذا الطريق أكثره . وآنطلقت الدوابّ بعد أن قرأ أصحابى ما استطاعوا وما لم يستطيعوا قراءته ممّا على الحجر الضخم حتى بَلَغَتْ منحدر الطريق على سفوح كَرَاء الى البركة ؛ هنالك عادت الى مجازفتها وحَذَرها . ولم يطل بنا الطريق فيرتاع القلب من خشية الخطر والانزلاق ، بل كنّا عند البركة بعد دقائق من بدء المنحدر ، وكان من البدو الذين معنا من سبقونا اليها ونادونا من عندها لنطمئن بندائهم الى قِصَر الطريق ويُسره .

والبركة مربّعة ، بُنيت بناء محكمًا ، ومهّد اليها انحدار الماء من الجبل فى قُنِيٍّ أُحسِنَ نظامها ، كما نظم انحدار الماء منها ليظلّ ماؤها جاريا ما نزلت السيول أو ذابت الثلوج . وشرب منها بعض رفقتنا تيمّنا وتبركا . وأدرت المنظار المقرب فيما حولى ، فألفيت انحدار السفح فيما دوننا وعرا عموديًّا أو يكاد ، فسألت أصحابى فى صعوده ، فابتسم أحدهم وقال : "إن من أهل شدّاد الواقعة فى السهل عند نهاية كُرّ من يطيب لهم المجىء الى هنا ليشربوا القهوة وليتحدّثوا ولينعموا بهواء الجبل ماطاب لهم وليعودوا بعد ذلك مغتبطين بنزهتهم لم يصبهم نصب ولم يمسسهم تعب ؛ وإنما تحسب أنت للأمر حسابه وترى فيه عسرًا لأنك لم تتعوّده ، والحياة عادة .

ولو كنت تصعد الجبل اليوم للمرّة الأولى ولم تكن قد سبقت الى صعود حِراء وثور لوجدت من المشقة أضعاف ما تجد " .

وحقٌّ ما قال . وإنى لأذكر يوما من سنة ١٩١٠ كنت فيه بلُوسِرن من أعمال سويسرا وقد قضيت الليل بفُندق فى قمّة جبل البِيلات . فلما تنفّس الفجر خرجت أشهد مشرق الشمس على قمم الجبال ، فألفيت جماعة من أهل الجبل فى هذه المنطقة سبقونى وقد تسلّقوا من أدنى السفح الى أعلاه فى بُكرة الصبح خفافاً يتغنّون أغانى الجبل ويتصايحون صيحاته ، وهم فى جذل ومرح دونهما مرح الطير الطليق من عشّه مع تباشير النور . وقديما ثقُل هواء السهل على أهل الجبل ، فكان تحنانهم الى السفوح والقمم ينساب فى شعرهم نغماتٍ كتغريد الطير حين أوبته الى عشّه وأفراخه .

وعدنا الى منزل مُضيفنا نتناول العِقَال ، فألفيناه ثَرَد الثريد وجعل عليه لحم الجَزور كلّه ، وهيأ بذلك لنا طعاما بدويّاً لذيذا . ولم يشاركنا فى العِقال كما وقف ساعة الغال بعيدا عنّا يجيب مطالبنا ولا يُلقِ علينا نظرة . ودارت القهوة بعد الطعام ، ثم خرجنا فركبنا دوابّنا ودرنا بها فى أنحاء الجبل نستبق . وبدأت الشمس تميل نحو الغرب كلّ الميل ، فعدنا الى النَّقب الأحمر نهبط خلاله الى وادى مُحرِم . ولقد آثرت أن أقطع جانبا من النقب على قدمىّ مخافة السقوط من فوق الدابّة وهى تنحدر فى حذرها ملقية الى الأمام برأسها وبكلّ جسمها . فلما استوينا بعد ذلك فى " البُكس " وأسرع يقطع بنا الطريق الى الطائف تنفّسنا الصُّعَداء ، وقدّرت صدق الدعوة التى يدعوها بنو وطننا للمسافر : " يكتب الله لك فى كل خطوة ألف سلامة " .

قال صاحبى ونحن نتناول طعام العشاء : سنذهب صبح غد الى الشَّفَا أرفع جبال الطائف ، وهناك ترى البادية كما خُلِقَت لم يَعْدُ عليها نظام ولم تعبث بها يد عابث . قلت : أوَ عبثت يد النظام بالهَدّة ؟ وهل يرتفع الشفا عن كَرَاء ؟ . وتبسّم الشيخ صالح القزّاز وقال : إنك سترى يوم غد ما يسرّك وستكون لك فرصة

نادرة المثال فى الموزانة بين بلادنا اليوم وما كانت عليه أيام الرسول وفى صدر الإسلام، وسترى فى أعالى الجبـال هناك من طبائع البداوة ما لم تره اليـوم، وما هو خليق ببحثك ودرسك .

قلت : أوَ نجد مكان اللّات طاغية ثقيف فى طريقنا الى الشفا ؟

وأجاب السـيد صالح : لا يعرف أحد اليوم أين كانت تقوم اللّات . وكل ما يذكرونه أن الصنم مُسِخ ونُقِل حجره أمام مسجد ابن عباس تدوسه أقدام الناس .

وذكرت لسماع هذا القول ما يذكره أهل مكة عن هُبَل وأن حجره وضع أمام باب الصفا من أبواب المسجد الحرام ليدوسه الناس .

قال صاحبى : تلك كلها روايات لم يحفِل التاريخ شيئا منها ولم يذكرها مؤرّخ جادّ فى كتاب من كتبه .

وقمنا صبح الغد نقصـد الشّفا ، وأقلّنا البُكس ، وآنطلقنا فى طريق مستوية حتى حاذينا قرية المَثْناة . قال صاحبى : سألتنى غير مرّة عن المكان الذى لقى فيه الرسـول عدّاسا النصرانىّ وحرَصت على أن تقف عنده . ففى المَثْناة مسجد سيِّدنا عدّاس . قلت : أوَلَا ننزل فنزوره ! . لكن الشيخ صالح آثر أن نرجئ هذه الزيارة الى حين العودة من رحلتنـا . وآنطلقت السيّارة متخطية وادى المثنـاة فى أرض مطمئنة يدلّ ظاهرها على خِصْبها ، وهى مع ذلك غامرة لا زرع فيها ولا نبات . وبلغنا زراعة مخضرّة ونباتا حسنا، فقيل : هذه الوَهْط . ورأينا بساتين تُسْقَى من عين تجاورها، وتقوم منازل على مقربة منهـا أدنى الى أن تكون ضـيّقة صغيرة، يتعهّد أهلها هذا الزرع القليل . قال الشيخ صالح : هذه الوهط التى لا تكاد تُغِلّ اليوم شيئا مذكورا كانت فى صـدر الإسلام مضرب المثـل فى الخصب والنماء . ذكروا أن عمرو بن العاص اشـترى فيها أملاكا أيّام إمارته فى عهـد معاوية وأن هـذه الأملاك كانت تغلّ من الكروم والنبيذ ما يتحدّث الناس عنه . جاء معاوية من الشام يوماً ومرّ بهذه النواحى؛ فلما كان على مقربة من الوهط رأى على البعد

ما ظنه أحجارا سوداء ناتئة فى كثرةٍ نتوءَ الحِرار فى مدينة الرسول ، فسأل : ما هذه الحِرار؟ وعلم أنها ليست حرارًا وأنها خوابى النبيذ التى تُعْصَر فيها كروم ابن العاص . فلما توسّط بساتين الوهط قال لعمرو مرة أُخرى : لى عنـدك يا عمرو طَلِبَةٌ لعلك لا تردّها . قال عمرو : لك ذلك يا أمير المؤمنين ، ولى عند أمير المؤمنين بعد ذلك طَلِبَـةٌ أرجو ألا يردّها . ووعده معاوية ما أراد . فأمّا الذى طلبـه معاوية إلى عمرو فأن يهبـه الوهْط . قال عمرو : هى خالصة لأمير المؤمنين . وٱبتسم معاوية ثم قال : فسـل يا عمرو ما بدالك فأنت مجاب إليـه . قال عمرو : أن تردّ الوهط يا أمير المؤمنين .

وأردف الشيخ صالح : وسواء أصحّت هـذه القصة أم لم تصحّ فهى تدلّ على ما كان لهـذه الأماكن القفرة اليوم من شهرة بخِصْبها وثمراتها ، وتؤيّد صحّـة رأيك فى هـذه البلاد وأنها لم تعد إلى مكانتها فى الحضارة والثروة منـذ ٱنتقل الملك إلى دمشق و بغداد والقاهرة .

ولعـلّ الشيخ صالح القزّاز لم يجزم بصحّة الرواية التى حدّث عنها لِما تختلف عليه الكتب أكانت أملاكُ الطائف لعمرو بن العاص أم لابنه عبد الله . فقد ذكر صاحب لسان العرب مانصّه : " الوهط مال كان لعمرو بن العاص ، وقيل : كان لعبـد الله بن عمرو بن العاص بالطائف . وقيـل : الوهط موضع ، وقيل : قرية بالطائف " .

وجاوزنا الوَهْط إلى الوُهَيْط القريبة منها والتى تشاركها فى أن أهلها من ثَقِيف . وبالوُهيط بستان كبير للشريف عون الرفيـق يكاد يكون خلاء من الزرع لولا شجيرة كبيرة من شجر "اليوكالبتس" كان عون الرفيق قد جاء بها إليه . وهو يسقى من عين جارية تنحدر إليها المياه من سفوح الجبال القائمة على مقربة من البستان ، والتى تميّز طبيعة الوُهَيط عن طبيعة الوهط السهلة الفسيحة الرِّحاب فى جوانب الوادى .

وٱنطلقت السيّارة فى طريق يقع أسفل جبل بَرَدٍ ويدور معه حتى يبلغا الموضع الذى يصعد منه الصاعد إلى الشفا . ووقفنا فى منتصف هذا الطريق عند صخرة تفصل

بين قريش وهُذيل وسُفْيان، سفيان فى الشرق وهذيل فى الجنوب وقريش فى الغرب. ونزل إخوانى وحاولوا قراءة ما على هذه الصخرة من آثار لم أُعْنَ بمشاركتهم فى قراءتها لأنى لا أثق بقدمها، ولأنها إن تكن قديمة فى حاجة إلى دراسة ليست فى نطاق ما أقصد إليه من بحوثى. فلمّا رأى أصحابى آنصرافى عن هذا الأثر عُدنا إلى السير حتى بلغنا مكانا آنفسح فيه الوادى، هنالك نزلنا، فاذا الدوابّ فى انتظارنا. على أننا رأينا على مقربة منّا خلايا للنحل زرناها، فاذا هى تذكّرنى تربية النحل عندنا فى أوائل هذا القرن المسيحى؛ ولعلها هى الطريقة التى كانت تتّبع فى تربيته منذ قرون ترجع الى أوائل الدهر.

ركبنا الدوابّ وسرنا فى دروب بدأتْ سهلة مريحة، ثم بلغ من وعثها ووعورتها أن صار النَّقب الأحمر جنّة بالقياس اليها. وطال الطريق، وبعُدت الشقة، ونالنى الجهد، وكدت أوقن أنّا لن ندرك لهذا الجبل غاية. وكم مرّةٍ جال بخاطرى أن ألوى عِنانَ دابتى لأعود من حيث أتيت لولا أن غلبنى الحياء. ويترجّل الشريف حمزة الغالبىّ عن دابته ويسير الى جانبى يشجّعنى إذا آستقام الطريق، ويعاوننى فى المنحدرات وفى المرتقَيات المخوفة، ويحاول أن يرفّه عنى ويهدئ ثائرة أعصابى. والطريق يطول ويزداد وعورة، ولا أجد فى كلمة من حمزة أملًا فى قرب الغاية، فتعود الى أعصابى ثورتها وأكاد أغالب حيائى وأتغلّب عليه وأعود أدراجى. وهممت أن أفعل لولا أن أكّد لى حمزة أنّ مابقى من الطريق دون ماقطعناه منه بمراحل. وآنتهى بى الأمر أن آستسلمت للأقدار وآثرت أن أنعَم حتى بالمشقّة، وأن أجنى منها خير ما فيها، وأن أنعم بهواء هذه الساعة فوق الجبل بلغ من الصفو والعذوبة مالعله سرّى عنى وجعلنى أستمتع بما حولى. وتكبّدت الشمس السماءَ وأرسلتْ الى الخليقة من باهر ضيائها مازادنى بما حولى متاعا. ثم آن لحمزة أن يزفّ إلىّ البشرى بأنّا لم نضلّ الطريق وأنّا أشرفنا على الغاية منه. وبعد نصف ساعة من ذلك تبدّت لنا دار مُضيفنا عامر الربعىّ قائمة وحدها فى هذا المنقطع من ظهر الجبل، ويقال مع ذلك إنها بقرية خُماس من قرى الطلحات إحدى قبائل هذيل.

وتلقانا عامر وبنوه مرحِّبين ، ودار بينهم وبين الشيخ صالح حديث سمعته ولم أفهم منه كلمة . وجلسنا فى فناء الدار عند باب غرفة لعلها الوحيدة فيها ، ثم انتقلنا الى مخزن بعيد عنها بضعة أمتار وهناك جىء لنا بالثَّريد صُبَّ عليه السَّمن بمقدار لم أستطع معه أن أتناول منه لقمة . ولم ينحر عامر جَزورًا لأنّا بلغنا داره بعد الظهيرة ، وسنعود الى الطائف قبل أن يُتاح لحم الجزور أن يَنْضَج . واكتفيت لطعامى ببعض ما جئنا به من الفاكهة والحلوى . وجَمَع من شاء بين صلاة الظهر والعصر ، ثم أقمنا هنيهة نستريح . وفيما نشرب القهوة أغمضت عينى ورحت أفكّر فيما رأيت . فهذه البادية ، التى جُسْت خلالَها أمس واليوم ، باديةُ الخِصْب غزيرة الماء بديعة الهواء فى الصيف غير قارسة القُرّ فى الشتاء . ونحن الآن فى شهر مارس والهواء فيها رقيق يُنعش النفس ويبعث النشاط إلى الحواسّ كلها . وما رأيت بها من سدود ضخمة لحجز المياه كى ينتفع بها الزارع وترتفع بها مياه الآبار يشهد بأن الذين عمّروها وأنشئوا هذه السدود كانوا ذوى حضارة وفنّ يعرفان كيف يُفيدان من خِصْب الطبيعة وقوتها على الإثمار . وتاريخ هذه البلاد وتراجم أبنائها الذين عاشوا فى عصور مختلفة منذ صدر الإسلام إلى آخر عهد بنى أُميّة يشهد بما كان لها من أدب رائع ومن فلسفة وشعر وحكمة ، كما يدل على أنها أخرجت أُولى مقدرة ودهاء فى الحكم وسياسة الشعوب . فماذا دهاها اليوم فصارت إلى ما أرى من اضمحلال الثروة وتهدّم المنشآت وجهل الناس وفساد الأمر فيها !! كيف هوت من مرتبة الحضارة الرفيعة الى هذه المراتب الأولى من البداوة ، وكيف تعطّل علمها وفنّها فتحطّمت فيها كل آثار العلم والفن ! وكيف ذهبت لغتها العربيّة الصميمة الصحيحة وحلّت محلها هذه الرطانة البدوية التى لا يصل بينها وبين العربيّة الأولى نسب ! .

ذهبت هذه الحضارة وذهب العلم والفنّ معها منذ تقلّص السلطان من هذه البلاد ومنذ هجرها أبناؤها ذوو السلطان إلى بلاد أخرى . فمن يوم انتقل الأمويّون الى دمشق ومنذ استقرّ العباسيّون ببغداد والفاطميّون بالقاهرة حُكِم على هذه البلاد العربيّة بالاضمحلال والانحلال . أغرقت أوّل عهد الأمويّين بأموال الفتح ، وفاتها

من أوّل عهد الأمويّين شرفُ الفتح ونخاره . ملك ثروتها أبناؤها العرب الذين آرتحلوا عنها وأقاموا بعواصم الإسلام دون تفكير فى العود اليها . وما يُغنى المال اذا ذهب السلطان ! وما يُغنى الماضى اذا تقلّص ظلّ الحاضر ! وكيف ينمو المال اذا غاب عنه ربّ المال ! لذلك لم تلبث تلك البلاد التى كانت حاكمة فانقلبت محكومة وكانت سيّدة فصارت مسودة إلا قليلا حتى تقلّص عنها ظلّ النّعْمة إلى غيرها وحتى انتقلت منها العُروبة الى الشام والى العراق والى مصر، وبقيت لها البداوة الساذجة والأعرابيّة التى فقدت كلّ مقوّمات الحضر العربىّ ، ثم كان الآنحلالُ الذى بدأ منذ الأيام الأخيرة من العهد العباسىّ والذى نقل السلطان من يد العرب الى يد الفرس والترك والمماليك . هنالك انحلّت اللغة وحلّت محلّها عُجْمة نَكْراء كانت بلاد العرب أوّل من آصطلى بنارها . فلما آل الأمر الى الأتراك العثمانيّين لم يبق لبلاد العرب من المكانة إلا أنها موطن البلاد المقدّسة ومكان بيت الله وقبر رسول الله . من ثمّ أصبحت أدنى فى نظر الحاكمين الى أن تكون بلادًا أثريّة ، فصار الرأى فيها أن تتجرّد من زخرف الحياة كما يتجرّد الحاجّ بيت الله من زينة هذه الحياة . بذلك غاضت قوّة الحياة فى البلاد العربيّة جميعا وأصبحت كَلًّا على غيرها فى كل مرافق الحياة . وماحاجة من أصبح كَلًّا على غيره الى السعى ! وما حاجة من لا يسعى الى العلم أو الفن أو الحضارة ! . وتعاقبت القرون ونفسيّةُ أهل هذه البلاد هذه النفسيّة، وروحهم هذا الروح، ونظرة المسلمين اليهم هذه النظرة . لا عجب وذلك شأنهم أن تتهدّم السدود ، وأن يغيض الماء ، وأن يرحل عنهم العلم، وأن يعودوا الى بداوة الجاهليّة الأولى . لقد أسِفت وآشتدّ أسفى لحال هذه البلاد . وما عسى أن يُغنى الأسف ! هل تراه ينهض يوما بأُمّة من ضعفها وآنحلالها الى مواطن البأس والقوّة ! إنما ينهض بالأمّة صائح من أبنائها يحرّك فيها معانى الإنسانية ويدفعها إلى الأمام تبتغى الكمال العقلىّ والكمال الرُّوحى . أمّا وقد تحرّك أبناء هذه البلاد يريدون الحياة مؤمنين بالله وبالرّوح وبالحقّ ، فما أجدرهم أن يعودوا إلى الحياة وأن يُعيدوا مجد الأجداد ! .

آن لنا أن نعود أدراجنا ، فامتطينا دوابّنا وسرنا فى الجبـل نصعد حينا وننحدر آخر، ونترجّل عن ظهور المطى إذا اشتدّت وعورة الطريق . وأدركنا سيّارتنا وأهبنا بالسائق أن يُسرع لنزور المثناة . وأسرع بنا السائق، وأدركنا المثناة والليل وشيك أن يمـدّ على الوجود رِواقه . وانحدرنا نتسـلّل خِلَالَ الأزقّة نريد مسجد عدّاس لنقف حيث وقف الرسول عليه السلام فى ساعة من أدقّ ساعات حياته ورسالته. ولو أنّى لم أقف هذا الموقف ولم أُدرك هذه الزيارة لخرجت من الطائف وكأن لم أحضر إليها ولم أقف بها . وما الطائف من غير زورة لمسجد عدّاس ! . فى المكان الذى يقوم هـذا المسجد اليوم عليه وقف رسول الله بعد أن أخرجه أهل الطائف من ديارهم وقد أبَوْا نصرته وأغرَوْا به سفهاءهم يسبّونه ويلقون عليه الأحجار، لاجئاً إلى حائط عُتْبـة وشيبة ابنى ربيعة يحتمى به من أذى هؤلاء السـفهاء . وهنـاك جلس إلى ظلّ شجرة من عنب يقلّب كفّيه ثم يرفع رأسه إلى السماء ضارعاً فى شكاية وألم ويقول : " اللهُمّ إليـك أشكو ضعف قوّتى وقلّة حيلتى وهوانى على النـاس يا أرحم الراحمين . أنت ربُّ المستضعَفين وأنت ربّى . إلى من تَكِلُنى! إلى بعيـد يتجهّمنى أو إلى عدو ملّكته أمرى ! . إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أُبالى . لكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظّلمات وصلح عليـه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك أو تُحِل علىّ سخطك . لك العُتْبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوّة إلا بالله " . ونظر إليـه ابنا ربيعة وهو فى هـذه الحال وطال تحديقهما به ، فتحرّكت نفساهما شفقةً عليـه فبعثا غلامهما النصرانى عدّاسا إليـه بقِطْف من عنب الحائط، وتناوله الرسول ووضع يده فيه وقال : " باسم الله " ثم أكل . ودهِش عدّاس لمـا سمع وقال : هـذا كلام لا يقوله أهل هـذه البلاد . وعلم محمد أنه نصرانى نِينَوىٌّ فقال له : " أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟ ". قال عدّاس : وما يُدريك ما يونس بن متّى ؟ قال محمد : " ذاك أخى كان نبياً وانا نبىّ " . فأقبل عدّاس على محمد يقبّل رأسه ويديه وقدميه .

وقام الرسول عليه السلام بعد أن طعِم العنب وآستراح فانصرف عنه عدّاس، فتوجّه إلى مكة سالكا طريق حِمَى الثُّمُور فوادى محرم فالثنيّة، لا أنيس له فى طريقه غير إيمانه بالله وعِياذه بنور وجهه الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، ولا حول له ولا قوة إلا بالله .

هـذا موقف من مواقف الرسول الكبرى . هو الموقف الذى سبق الهجرة وكان مقدّمة بيعة العقبـة ثم الاختفاء بغـار ثور ، والذى هيّأ الله به للرسول وجهة الدعوة إلى دين الحق . فلئن أجارت الحبشة المسلمين حين لجئوا اليها، ولئن أسلم بمكة عدد عظيم له قوّته وله مَنعته، لقد جعل الله يَثْرِبَ مدينـةَ الرسول ولم يكتب لغيرها من بلاد العرب أن يسبقها إلى نصرته؛ فلن يكون الأنصار إلا أبناءها الذين يؤوون رسول الله و يمهّدون للفتح ولكمال دين الله وتمام نعمته . أمّا الطائف فستظلّ آية الله فى الأرض أنّ الإيمان سبيلُنا الى الله لينصرنا . و إن ينصرنا الله فلا غالبَ لنا .

ما الطائف إذًا من غير زورة لمسـجد عدّاس ! . لقد كانت المثناة التى يقوم المسجد بها قطعة من الطائف فى عهد النبيّ، وأكبر الظن أنها كانت بعضَ أطرافها. فقبلها آنصرف صبيان الطائف عن محمد وآنقطعوا عن إيذائه ؛ وبها كانت بساتين الطائف وكرومها . أمّا اليـوم فتقع المثناة من الطائف على نحـو ثلاثة أميال الى الجنوب الغربيّ . ولا تزال الميـاه جارية فى أنحائها، ولا تزال بساتينها ذات بهـاء ونضرة ، والكثير من دورها تحيط به البساتين ، ويُسْقَى معظمها من عين يحـدر ماؤها من جبل بَرِدٍ من مساكن قُرَيش . أيّ قريش هذه؟ وما مبلغ صلتها بقريش مكة فى عهد الرسول ؟ هذا ما لم أقف عند تحقيقه .

وقفت السيّارةُ بنا فى ميدان فسيح أمام دور المثناة، وانحدرنا نتسلّل خلالَ الأزقّة نريد مسجد عدّاس . وهى أزقّة ضيّقة بدت فى هذه الساعة من مُوَلِّيات النهـار ومَقْـدم الليل موحشةً على ضـيقها ؛ فلم يكن بها إنسان يؤنس وحشتها . ولولا البساتين المحيطة بها على الجانبين لبدت أشدّ وحشة . وآسـتدرنا فى هذه الأزقّة غير

مرّة حتى بلغنا داراً خُيِّل إلينا أنّ بها إنسا . وسأل صاحبي مَنْ بها عن طريق المسجد، فتقدّمنا صبيّ تخطّى جداراً فتبعناه، ثم آستدار فاذا بنا أمام بناء ضيّق صورته صورة المساجد بمكة، ولكنّه بالغ فى الضيق حدّاً ضاق به الصدر حين علمنا أنّه مسجد عدّاس .

يا عجبا ! بل يا أسفا ! أيكون هذا الأثر الضئيل كل ما أقامه المسلمون ذكراً لهذا الموقف العظيم الجليل ! . مسجد لم يُقمه مقيمه ليذكر المؤمنون الله فيه، وإنما أقامه ذكراً لتوجّه الرسول الى ربّه بهذا الابتهال المضىء بنور الإيمان، والذى يملأ القلب جلالا وروعة . أين هذا الأثر الصغير من هذا الدعاء المنير! ألآ لو أن منارة آرتفعت ما آرتفعت الى كبد السماء، وكانت كل جوانبها محاريب تمثّل الركوع لله والسجود أمام وجهه لقصرتْ عن تمثيل هذا الموقف الفذّ من مواقف الرسول، موقف السموّ بالإيمان الى حيث يتضاءل كلّ سموّ ، والإسلام لله الى غاية حدود الإسلام . لكن! من ذا يُقيم هذه المنارة، ومن ذا يصوّر فيها هذه المحاريب، ومن ذا يفكّر فى أثر غير المنارة ومحاريبها يبعث فى النفس صورة هذا الموقف وما له من عظمة وجلال، وقد خَيّم الجهل على المسلمين فآنقلب الإسلام فى نفوسهم إذعاناً لعباد الله ، وآتخذ بعضُهم بعضا أرباباً من دون الله، وآمنوا لمن لم يتّبع دينَهم، وجعلوا عبادتهم مظهراً لأوضاع يتعصّبون لها ، وحقّت عليهم كلمة الله تعالى فى الأعراب : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ! .

وأين الحائط الذى كان لعُتْبة وشيبة ابنى ربيعة؟! أين هذا البستان الذى بعث الفتَيان منه بقِطْف العنب مع عدّاس الى النبيّ ! ؟ . سألت فى هذا حين رأيتُ أمام المسجد مكانا ضيّقاً مسوّرا به زرع لم أتبين فى هذه الساعة من إقبال الليل ما هو . وقيل لى إن البستان مملوك لرجل من أهل المثناة وإن كان فقيرا ، وكأنه بستان المسجد . وعجبت لهذا واشتدّ بى العجب . فاذا لم يكن هذا المكان وقفًا على تعبير

الفقهاء ، ومنفعة عامة على تعبير رجال القانون من أهل عصرنا ، فأين يكون الوقف وأين تكون المنافع العامة ! .

وعدنا الى الأزقة وسرنا خلالها حتى كنا بظاهر المَثناة فى ناحيتها المقابلة لميدان حيث وقفت السيارة . وتخطينا سدوداً وقُنِياً تجرى فيها المياه تسق هذه البساتين والزروع ، ودُرْنا حول القرية حتى وقفنا عند مسجد الكُوع ، وهو أفسح من مسجد عداس رقعة ويبدو خيراً منه حظًّا عند الذين يتعهدونه . ولست أدرى أيقيم أهلُ القرية فيه صلاتهم وهو على ما شهِدت من ضيق ! لكن الذى عرفته أنهم يعتبرونه مسجدا مأثورا لأن النبيّ استراح عنده بعد مطاردة ثقيف إياه . ولعلهم يريدون أن يخلوه هذه الصفة ليكون له ما لمسجد عداس من مكانة . فكتب السيرة كلها تقرر أن ثقيفا أبوْا نصرته وأغروا به صبيانهم ، وأنه فر منهم حتى بلغ حائط ابنى ربيعة فلجأ اليه واحتمى به ، وهناك وافاه عداس بالعنب . اللهمّ إلا أن يكون النبيّ وقف كرّة أخرى فى هذا المكان ، مكان مسجد الكوع قُبالة جبل المَدْهون ، قبل أن يسلك طريقه الى حمى النمور ووادى مَحْرِم عائدا الى مكة . وهذا قول لم أقف عليه ولا أعتقد صحته . وأغلب الظن عندى أن ما يذكر عن مسجد الكوع لا يزيد من ناحية الثبوت العلمى على ما يذكر عن أكثر مساجد مكة .

وعدنا الى الطائف وصاحبي يحاورنى فى مسجد الكوع ، ويكاد يُقرّنى على أن لا سند من التاريخ لما يذكر عنه . أما مسجد عداس فقد بقيت لدىّ منه صورة تبعث فى النفس الألم . ولو أن لى من الأمر فى هذه البلاد شيئا لحققتُ بكل وسائل العلم هذا المكان الذى لقى عداس النبيّ فيه ولأقمت به أثرا يفاخر أعظم الآثار على التاريخ . لكنما يكون ذلك بعد أن تصلح الطائف وباديتها ويعود لها من العمران والحضارة ما كان لها فى صدر الإسلام وفى عهده الأول . هنالك تقوم السدود ويجرى الماء ويرتفع فى الآبار ويعود الخصب ويكثر الثمر وترجع هذه البلاد كما كانت جنة شبه جزيرة العرب . عند ذلك يُدرك القوم هذه المعانى الخالدة

من مواقف الرسول الكريم وما لها من جلال وعظمة . وهنالك يقيمون لها من الآثار ما يتناسب يومئذ مع علمهم وحضارتهم من غير حاجة الى من ينبّههم الى هذا الواجب .

عدنا الى الطائف وقد أخذ منا التعب كلّ مأخذ، فتناولنا عشاءنا وأوينا الى مضاجعنا على أن نبرح الطائف عائدين الى مكة بكرة الغد . لكنّا لن نعود اليها من الطريق الذى جئنا منه؛ فقد سمعت روايات كثيرة عن سوق عُكاظ والمكان الذى كان العرب يقيمونها فيه . وتذهب بعض هذه الروايات الى أنها كانت تقام عند العُشَيْرة . فلنجعل طريقنا الى العشيرة، ولنعد منها الى ذات عِرْق فإلى السيل الكبير . فأكثر الرواة على أن عُكاظًا كانت بنخلة بين مكة والطائف . ونخلة هى السيل الكبير اليوم . ويزعم بعضهم أن آثارا قديمة باقية على مقربة من هذا السيل تؤكد هذه الرواية . فلعلنا إن مررنا بالأماكن التى اختلفت الروايات أيّها كان موضع عكاظ، أن نرجح رواية فى أمر هذه السوق وموضعها . ولئن لم يكن لدينا من أسباب التحقيق ومن فسحة الوقت ما يجعل ترجيحنا ذا قيمة من ناحية علميّة، لقد يكون مع ذلك ذا فائدة عند من تؤاتيهم فسحة الوقت وأسباب التحقيق بما لم تؤاتنا به .

أسواق العرب

لست أريد أن أتحدّث فى هذا الفصل عن أسواق العرب فى هذا العصر الحاضر . ولو أننى أردت لما وجدت غير ما قلته فى الفصل الذى تقدّم عن مكة الحديثة، وما ذكرته عن سوق مِنًى حين الحج، وعن سوق الطائف، وما سأجعله موضع حديثى عند الكلام عن مدينة الرسول . ولست أريد أن أتحدّث هنا عن أسواق العرب أيّام الجاهلية وفى صدر الإسلام بوجه عام ، وإنما أريد أن أتحدّث عمّا له آتصال منها بحياة النبيّ العربىّ ، وما يدخل لذلك فى منزل الوحى . وهذه الأسواق ثلاثة : عكاظ ومَجَنَّةُ وذو مجاز أو ذو المجاز .

وسوق عكاظ هى التى تلفت نظر كل مسلم وكل عربىّ إذا ذكرت هذه الأسواق الثلاث . فمجنّة وذو مجاز لم تذكرا فى كتب التاريخ والأدب ما ذكرت سوق عكاظ؛ وهما إنما تذكران عند الكلام عن الحج وشعائره وتكادان تتصلان بهذه الشعائر. أمّا عكاظ فلا يخلو كتاب من كتب الأدب العربى من الكلام عنها؛ وقد صار آسمها علما على كل مجتمع يضم الآلاف وعشرات الآلاف من الناس ، ويكون حديث الشعر والأدب مما يجرى فيه . وكثيرون يذكرون هذا الاسم كما يذكر غيرهم اسم بُرْج بَابِل على أنه مجتمع الأمم وملتقى الناس من مختلف أنحاء الأرض . من ثَمّ كان لهذا الاسم من ذيوع الشهرة ما يجعل كلَّ زائر بلادَ العرب وكلَّ متجوّل بأمّ القرى وما حولها حريصًا على أن يعرف أين كان مكانُه ، وماذا صار هذا المكان اليوم اليه ، ومتى بدأت سوق عكاظ تقام به ، ومتى عفت الحوادث عليه ؟

ومن عجبٍ أن ليس لعكاظ على آستفاضة شهرتها تاريخ مدوّن فى بطون الكتب على نحو يستطيع الإنسان أن يطمئن اليه . فلم يحقق أحد الزمنَ الذى بدأ العرب يقيمونها فيه . وأدق ما يروى عن ذلك أنها اتُّخذت سوقا فى الجاهليّة بعد عام

الفيل بخمس عشرة سنة . والخلاف على عام الفيل وتحديده مستفيض كشهرة عكاظ ؛ ولا أدلّ على ذلك من نسبة عام الفيل الى مولد الرسول . فقد قيل إنه عليه السلام ولد عام الفيل ؛ و يقول ابن عباس إنه ولد يوم الفيل ؛ والمشهور أنه ولد فى سنة ٥٧٠ ميلادية . و إذًا يكون عام الفيل كذلك سنة ٥٧٠ ميلادية . لكن آخرين يقولون: إنه ولد قبل الفيل بخمس عشرة سنة . و يذهب غير هؤلاء الى أنه ولد بعـد الفيل بأيام ، وبأشهر ، و بسنين يقدّرها قوم بثلاثين سنة ، و يقدّرها قوم بسبعين . فما هو التاريخ الصحيح لعام الفيل ؟ إن الذين يروون أن عكاظا أُقيمت بعد الفيل بخمس عشرة سـنة يذهبون إلى أنهـا أُقيمت سنة ٥٤٠ للميلاد . إذًا لقد كان عام الفيل فى رأيهم سـنة ٥٢٥ م وقد ولد محمد سنة ٥٧٠ م ، فهو إذًا قد ولد على قولهم بعـد عام الفيل بخمس وأربعين سـنة . وهذا كلام يقع عليه خلاف شديد ، ولا يسلم به إلا الأقلون .

وليس تحديد المكان الذى كانت عكاظ تقام به بأيسر من تحديد التاريخ الذى آتُّخِذ هذا المكان فيه سوقا . وأ كثر الأقوال فى هذا الشأن تواترا أن هـذه السوق كانت بين نَخْـلة والطائف . لكن ما بين نخلة والطائف يبلغ الخمسين ميلا أو يزيد عليها . فأين كانت السوق تقام من قُطْر هـذه الدائرة ؟ وهل كانت ثابتة فى مكان بذاته أو متنقِّلة فى أماكن مختلفة ؟ أ كثر الكتب على أنهـا كانت ثابتـة فى مكان بذاته . لكن تحديد هذا المكان أمر غير محقّق . وعدم تحقيقه يبدو واضحا و يبدو محيِّرا لمن سار بين مكة والطائف وحاول أن يعرف موضعه بشىء من الدقة. فهو يجد نفسه أمام روايات تزيد على الخمس : منها أن عكاظا تقع بآخر وادى رُكْبَة المتصل بوادى عُشَيْرة . ومنها أنها بوادى عَقْرَب فى شرق الطائف بعد قليل من أمّ الحَمْد أو أمّ الحمض . ومنها أنها عند السيل الصغير بالموضع المعروف باسم القَهَاوى . ومنها أنها بالسيل الكبير الى ناحية الشمال فى موضع يقال له الحُرّ ، فى وادى غَسَلة . وهذه الأماكن كلها يصدق عليها أنها بين نخلة والطائف . ومع ما كتبه المتقدّمون عن عكاظ وموضعها لا تستطيع أنت إذ تمر بهـذه الأماكن جميعا أن تُثبت رأيا

دون رأى ؛ فاذا رجّحت رأيا هداك اليه بحثك لم يزد ذلك على أنه ترجيح لا يمكن القطع بصحته . وهذا مافعلته بعد الذى قمت به من بحوث أعرضها فى هذا الفصل.

على أن الخلاف فى تحديد هـذا المكان الذى تقـوم به عكاظ والزمان الذى أنشئت فيـه لا يتصل بتصوير ما كان يقع بها أثناء إقامتها ولا بالموعد الذى كانت تقام فيه . فآتفاق المؤرخين على أن العرب كانوا اذا أزمعوا الحج الى مكة من أصقاع شبه الجزيرة جعلوا عكاظا موعدهم فى هلال ذى القعدة، فأقاموا بها عشرين يوما ثم آنصرفوا الى مَجَنَّة فأقاموا بها عشرا؛ فاذا رأوا هلال ذى الحجة آنصرفوا الى ذى المجاز فاقاموا أسواقهم به ثمانى ليال،ثم تروّوا من مائها فى اليوم الثامن وخرجوا الى عرفة. وبَدَهِىٌّ أن الذين كانوا يحضرون هـذه الأسواق هم الذين كانوا يريدون التجارة ؛ فأمّا من لم يكن له تجارة ولا بيع فانه يخرج من أهله متى أراد . وكان من لا يريد التجارة من أهل مكة يخرج من مكة يوم التروية . وظل الحال على ذلك حتى جاء الإسلام وخلع على الحج من الجلال ما تضاءل إزاءه جلال هذا الفرض فى الجاهلية . هنالك ظن قوم أن الحج والتجارة لا يجتمعان، وفكروا فى إبطال الأسواق؛ فنزل قوله تعـالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْـلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ عِنْدَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْـلِهِ لَمِنَ ٱلضَّالِّينَ ﴾ . فأباحت هذه الآية التجارة قبل الحج وأثناءه وبعده؛ وبذلك بقيت الأسواق ، وبقيت عكاظ حتى نهبها الثوار الذين خرجوا من مكة فى الثلث الأول للقرن الثانى من الهجرة .

وقلّ من أهـل مكة من لم يكن يخرج الى عكاظ . فأهـل مكة ذوو تجارة، بل كانت التجارة حياتهـم . ذلك بأن أمّ القرى وما حولهـا كانت ولا زالت بوادٍ غير ذى زرع . وقـد كانت فى تلك العصور طريق التجارة بين الشام واليمن كما كانت قوافلها تخرج فى رحلتى الشتاء والصيف الى الجنوب والشمال ، تنقل تجـارة الشرق الى الغرب وتجارة الغرب الى الشرق . ولعل أهلها كانوا أشدّ حرصا على شهود

الأسواق والخروج الى عرفة للتجارة منهم للحج . فالبيت الحرام فى بلدهم ، والطواف به ميسور لهم كلما أرادوا ، وأصنام الجاهلية التى كان الناس يحجون اليها كانت داخل البيت وفيما حوله ، ولم تكن بعَرَفةَ ولا بعكاظ ومَجَنَّة وذى المجاز . فالتجارة إذًا هى التى كانت تستنفر أهل مكة للخروج الى حيث يحدونها ليبادلوا قبائل العرب المختلفة ما شاءوا من العروض مقابل ما جاءوا به من الشام ومن اليمن . ولعل خروج أهل مكة زَرَافات الى عرفة حين الحج حتى يومنا هذا إنما يرجع الى ما اعتاده أسلافهم فى تلك الأيام الخوالى ، وإن يكن الدافعُ الذى يحفز أهل مكة لهذا الخروج اليوم لا يتصل بالتجارة كما كان يتصل فى ذلك العهد .

وقد تعوّد المؤرّخون إذ يذكرون عكاظا أن يقولوا إن الشعراء كانوا ينتهزون فرصة انعقادها فيعرضون حوليّات من نُخَب قصائدهم على الناقدين فى احتفال عظيم تشهده الجماهير ، وبذلك يذيع ما يُقرّه الناقدون وأولو الحكم من هذا الشعر فى أنحاء شبه الجزيرة جميعا ويتغنّى به العرب فى كل ناد ، وإن الخطباء كانوا يجعلون منها مثابة لعرض آرائهم وتعاليمهم . وصحيح أن الشعراء كانوا يُنشدون فى عكاظ وأن الخطباء كانوا يتحدّثون الى الناس فيها ، لكن ذلك لم يكن سببه أن هؤلاء وأولئك كانوا يتخذون من عكاظ حفلًا أدبيا ومجتمعا خاصًّا بألوان البلاغة فى الشعر والخطابة ، بل كان يرجع الى طبيعة الحياة فى بلاد العرب ، والى أن عكاظا كانت تضم من قبائلها من لا يجتمعون طيلةَ العام إلا أيام الحج . وقد كانت عكاظ تجمعهم لتبادل التجارة ابتغاء المنافع . وهذا التبادل فى التجارة وهذا التنافس فى ابتغاء المنافع وما كان يقع أثناء ذلك وبسببه من خصومات تتصل بعضَ الأحيان أعواما متتالية هو الذى كان يدعو الشعراء ليُنشدوا والخطباء ليقولوا . أمّا أنّ هؤلاء الشعراء كانوا يجيئون ليعرضوا شعرهم للنقد ، وأن هؤلاء الخطباء كانوا يتبارون بلاغة ليستعلى بعضهم على بعض فى البيان ، وأن ذلك كان يقع فى الجاهليّة أيام كانت لهجات العرب لا يزال بينها من التباين ما لم يُزله استعلاء لغة قريش إلا بعد أن أنزل الله القرآن بها ، فتجاوزٌ فى التصوّر يدعو إليه ما جُبل الناس عليه من توهم الحياة فى كل

العصور والأمكنة على صورة حياتهم فى البيئة المحيطة بهم . وقد ألِف العالم العربىّ إبّان ازدهار الأمبراطورية الإسلامية أن يرى الشعراء يتنافسون يبتغون الزلفى الى ملك أو أمير، وأن يرى النقّاد يتناولون الشعر فى عهد قائليه أو بعد وفاتهم بالنقد والإبانة عن محاسنه ومساويه فى الفصاحة والبلاغة ، فذهبوا يصوّرون عكاظا وما كان يجرى فيها هذه الصورةَ الذهنيةَ التى ألِفوا، والتى تختلف وما تثبته أنباء الحياة العربية فى العهد الجاهلىّ اختلافا عظيما .

ولست أزعم أننى عثرت فى أثر قديم أو مخطوط غير معروف على صورة تصف ما كان يجرى بعكاظ على النحو الذى أُريد أن أسطِّره هنا ؛ لكننى انتزعتُ نفسى جهد الطاقة من بيئتنا الحاضرة وحملتها على تصوّر البيئة العربية قبيل الإسلام وفى بحره كما تصفها لنا أنباء التاريخ، وحاولت بذلك وفى حدود الطبيعة الإنسانية أن أرى ما كانت عليه عكاظ بالفعل وما كان يقع فيها . وأوّل ما وقفت عنده أن عكاظا تختلف بموقعها عن مَجَنَّةَ وذى المجاز؛ فهى تقع فى الآفاق من مكة فى حين تقع مجنّة وذو المجاز منها فى حدود مواقيت الإحرام . مِن ثَمّ كان يباح بعكاظ ما لم يكن يباح بمجنّة وذى المجاز من ألوان اللهو والمجون ومن ضروب التجارة والتبادل . هذا الى أن ذا القعدة الذى كانت عكاظ تعقد فيه لم يكن له من الحرمة ما كان لذى الحجة شهر المناسك . وكانت قبائل العرب تجتمع فى عكاظ عشرين يوما من كل سنة لتبادل التجارة ، وليس لها من الاجتماع غرض آخر . ولذلك يقول الأزرقىّ فى تاريخ مكة : "وانما كان يحضر هذه المواسم بعكاظ ومجنّة وذى المجاز التجار ومن كان يريد التجارة . ومن لم يكن له تجارة ولا بيع فإنه يخرج من أهله متى أراد . ومن كان من أهل مكة ممن لا يريد التجارة خرج من مكة يوم التروية" . وهذا صريح فى أن هذه الأسواق التجارية التى كانت تجمع قبائل العرب جميعا فى مجيئهم لمناسكهم قد كانت أشبه بالمعارض العامة لتجارة شبه الجزيرة . والتطلّع فى طبيعة الناس من أهل الأمم كلها والعصور جميعا . وهم لذلك يقصدون هذه المعارض العامة ليروا فيها الجديد الذى لم يروه من قبل، وليقتنوا منها خير ما يريدون

اقتناءه بأثمـان تنزل بها المنافسة الشـديدة فى المعارض العامة الى ما يفوق مثـله فى غيرها . وحيثما آجتمع الناس وتنافسـوا آختلفوا وتخاصموا . أمّا و بلاد العرب كانت الى أن ألّف الإسلام بينها وجمعها فى سلطان واحد قبائل وحواضر تستقلّ كل واحدة منها عن الأخرى، وتعتزّ كل واحدة منها باستقلالها وتدافع عن كرامتها وكرامة أبنائها ، فقد كان هذا مثارَ الجدل والفخر ومثار النزاع والحرب فى كثير من الاحيان . فاذا آن للحرب أن تضع أوزارها وللخصومات أن تهدأ ثائرتها ، قام الحكماء يعظون المتخاصمين و يصلحون بين المختلفين ، لا متباهين ببلاغتهم ولا مقيمين سوقا لهـا ، بل عاملين لتهدئة الخواطر و إعادة السكينة والسـلم حتى تتصل التجارة ويعم الرخاء شبه الجزيرة .

هذه صورة بسيطة لعكاظ وما كان يجرى فيها . وهى عندى الصورة الطبيعية لهذه السوق التجارية العربية الجامعة . فأمّا ما يضاف اليها من صور محافل الشعر ومباريات الشعراء وتنافس الخطباء فخيال لا يصف الواقع أبدعه الأدباء والكتّاب بعد أن عفّى الزمن على عكاظ . وهو خيال لا يتفق مع ما يروى عن عكاظ وما كان يجرى فيها من التجارة وما يتصل بالتجارة من لهو وعبث ، وما يجرّ ذلك اليه من خصومات وحروب متّصلة . ذكروا أن شـباباً من قريش وبنى كنانة كانوا ذوى عُرام ، فرأوا امرأة من بنى عامر جميلة وسيمة جالسة بسوق عكاظ ، وقد ضمّت عليها أطراف ثوبها وتبرقعت ، وقد اكتنفها شباب من العرب وهى تحدّثهم . فجاء الشباب من بنى كنانة وقريش فأطافوا بهـا وسألوها أن تَسْـفِر فأبت ؛ فقام أحدهم فجلس خلفها وحلّ طَرَف ردائها وشـدّه بشوكة الى ما فوق خصرها وهى لا تعلم . فلمـا قامت انكشفت ، فضحكوا وقالوا : منعتِنا النظر الى وجهك وجُدْتِ لنا بالنظر الى ما وراءك . فنادت : يا لَعامرٍ ! فثاروا وحملوا السلاح ، وحملته كنانة ، وآقتتلوا قتالا شـديدًا ووقعت بينهم دماء . فتوسّط حرب بن أميّة وآحتمل دماء القوم وأرضى بنى عامر من مُثْلة صاحبتهم .

وكان لرجل من بنى جُشَم بن بكر دينٌ على آخر من بنى كنانة طال اقتضاؤه على غير جدوى . فلما أعياه وافاه الجشمىّ فى سوق عكاظ بقِرْد ثم جعل ينادى : "مَنْ يعطينى مثل هـذا بمالى على فلان الكنانىّ" رافعا بذلك صوته . فلما طال نداؤه وتعييره بنى كنانة مرَّ به رجل منهم فضرب القرد بسيفه فقتـله . فهتف الجشمىّ يا لَهوازن! وهتف الكنانىّ: يا لَكنانةَ! فتجمّع الحيّان للقتال، ثم كفّوا أن حمل ابن جُدْعان ما له بين الفريقين .

وكان بدر بن معشر الغِفَارِىّ رجلا منيعا مستطيلا بمَنَعَته على من ورد عكاظا؛ فاتخذ مجلسا بها وقعد فيه باسطا رجليه وجعل يقول: "أنا أعزّ العرب، فمن زعم أنه أعزّ منّى فليضرب هـذه بالسيف فهو أعزّ منى" . فوثب رجل من بنى نَصْر بن معاوية يقال له الأحمر بن مازن فضربه بالسيف على ركبته؛ وقام رجل من هوازن فضربه كذلك؛ وفى هذه الضربة أشعار كثيرة روتها كتب الأدب .

هذه وأمثالها حوادث تقع فى كل سوق عامّة تعقد للتجارة أيا كانت المناسبة التى تدعو الى عقدها . والأسواق التى تعقد على مقربة من المناسك التى يقصد الناس اليها للعبادة أو التبرّك بعضُ ما يجده الإنسان فى بلاد العالم كله ؛ يجده فى الموالد فى مصر وفى فرنسا وفى انجلترا وفى غيرها . وهذا طبيعىّ؛ لخير مكان تعقد فيه سوق التجارة إنما هو حيث يجتمع الناس فى عدد عظيم . وحيثما اجتمع الناس فى عددٍ عظيم وتبادلوا المنافع تجاذبتهم دوافع الهوى، وفاخر بعضهم بعضا واختصموا وتحاربوا . أمّا وهذه الأسواق تنعقد فى موعد معين من السنة فالخصومات تتصـل فى كثير من الأحيان على السنين . والدعاية سلاح من أمضى أسلحة الخصومة . وأسباب الدعاية اليوم كثيرة منها الصحف والإذاعة الجويّة وألوان الأدب المختلفة؛ أمّا عند العرب فكان الشعر أقوى سلاح للدعاية، وكان يقوم مقام أسباب الإذاعة جميعا . وكانت الذاكرة العربية بالغة من القوّة حدّا فاخر به العرب؛ حتى لقد أعرض الكثيرون منهم عن الكتابة مخافة أن تجنى على هذه الملَكة فيهم . وكانت هذه الذاكرة تعى الشعر الجيّد

وتترنّم به وتُذيعه فى كل مكان . فاذا آختلف قوم فى عكاظ، وكان مَثَارُ هذا الخلاف حسناء آندفع الخيال العربى المتوثّب الفسيح فسحة البادية يصوّر من ذلك مايشاء، وقال الشعراء فيه، وتغنّوا بمـا قالوا؛ فإذا كانت عكاظ ذاع فيها هذا الشعر وتناقله الناس كما يتناقلون اليوم فى الأســواق أنباء الصحف وما تطيّره الإذاعة . فلم يكن شعراء العرب إذًا يعرضون شعرهم فى عكاظ ولا فى غيرها للنقــد ولا للحكم . وهى إذًا لم تكن سوقا للشــعر والخطابة والتنافس فيهما كما يصوّر بعضهم ؛ وإنمـا كان يجرى فيهـا من ذلك مايجرى فى الأسواق كلها من تناقل الحوادث ، وخاصّةً إذا آتصلت هذه الحوادث بالسوق وما وقع أو يقع فيها .

وإذ كان العرب الذين يفــدون فى الجاهليّة الى عكاظ لحج البيت لا يدينون لصنم واحد، بل تدين هذه القبيلة للّات، وتلك للعُزّى، وثالثة لمَنَاة، وأُخرى لصنم آخر، فقد كان خلافهم يجرّ فى كثير من الأحايين الى التنابز بالألقاب والتفاخر بالأصنام . فإذا هدأت الخصومة وآن للحكماء أن يحسموها حاول بعضهم أن يُقنع المتخاصمين بأنهم جميعا على حقّ فى عبادة أصنامهم وأنها تنفعهم ليتّخذوها الى الله زلفى، وحاول آخرون أن يهدّئوا من أمر هذا الخلاف على الأصنام ولو أدّى ذلك الى التهوين من أمر الأصنام ، دون طعن عليها، ودون إثارة لحفائظ النفوس بهذا الطعن . وهــذا عندى هو مادعا الى خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادىّ راهب نَجْران النصرانىّ حين خطب مَنْ حضر عكاظا فقال: " أيها الناس آسمعوا وعُوا! مَنْ عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحار تزخر، ونجوم تزهر، وضوء وظلام، وبِرٌ وآثام، ومَطْعَمٌ ومَشْرَب، ومَلْبَس ومَرْكَب. مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون! أرَضُوا بالمُقام فأقاموا، أو تُركوا فناموا!. وإلهِ قُسّ بن ساعدة ما على وجه الأرض دينٌ أفضــل من دين قد أظلّكم زمانه، وأدرككم أوانه، فطُوبَى لمن أدركه فآتّبعه، وويلٌ لمن خالفه" . فليس يحمل قُسًّا على أن يلقى هذا الخطاب فى سوق يتجر فيهـا الناس إلّا خلاف شَجَر بينهم وبلغ التفاخرَ بأصــنامهم . فلما هدءوا وآن لذوى الرأى أن يحسموه بالحكمة تحــدّث قُسٌّ هذا

الحديث متأثرا فيه لا ريب بعقيدته المسيحيّة ولكن من غير حرص على الدعوة اليها دعوةً قَلَّ أن تُؤتى فى مثل هـذا الجمع ثمرتها .

كان أهـل مكة يشهدون عكاظا كما قدمت؛ وكان أبناؤهم يخرجون معهـم اليها كما يخرجون اليوم معهم الى عرفات ومِنًى ؛ وكان محمد يشهدها مع أهله ويشهد ما يجرى فيها ، وكان يشهدها بعد ذلك فى سنين كثيرة : شهدها العامَ الذى خطب فيه قسّ هـذه الخطبة ، وسمعه يلقيها وأُعجب به غاية الإعجاب . فلما بعثه الله نبيّا وأكمل للسلمين دينَهم وآن لوفود العرب أن تجيء الى النبيّ تعلن اليه إسلامها ، قدِم عليه وفد إيَاد يومًا ؛ فقال لهم : " ما فعل قسّ بن ساعدة ؟ " . قالوا : " مات يا رسول الله " . قال : " كأنّى أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أوْرَق وهو يتكلم بكلام عليـه حلاوة ما أجدنى أحفظه " . قال رجل من القـوم : " أنا أحفظه يا رسول الله " وتلا عليه الخطبة . فقال رسول الله : " يرحم الله قُسّا إنى لأرجو أن يُبعث يومَ القيامة أمّةً وحده " .

ومن قبل ذلك حضر محمد عكاظا وشهد فيه حرب الفِجَار . وذلك حين عرض البَرّاض بن قيس الكِنَانى نفسـه على النُّعْمان بن المنـذر ليقود قافلة النعمان من الحِيرة الى الشام فى حماية قبيلته كِنَانة ، فآثر النعمان عليـه عُرْوة الرحّال الهوازنى ليتخطّى الى الحجاز عن طريق نجـد ؛ فأحفظ ذلك البرّاض فتبع عروة وغاله وأخذ قافلته ؛ ثم لقى بشرَ بن أبى خازم وقال له " هـذه القلاص لك على أن تأتى حرب بن أميّة وعبـد الله بن جُدْعان وهشاما والوليد بن المُغـيرة فتُخبرهم أن البرّاض قتـل عروة فإنى أخاف أن يسبق الخبر الى قيس فيكتموه حتى يقتلوا به رجلا من قومك عظيما " . وأجابه بشر : " وما يُؤمنك أن تكون أنت ذلك القتيل ! " . قال البرّاض : " إن هوازن لا ترضى أن تقتـل بسيّدها رجلا خليعا طريدا من بنى ضمرة " . وكانت العرب اذا قدمت عكاظا دفعت أسلحتها الى ابن جُدْعان اتّقاء للحرب حتى يفرغوا من أسواقهم ومن حجّهم ثم يردّها عليهم إذا ظعنوا . فلما أبلغ بشر رسالته قال حرب

ابن أميّـة لأبن جدعان : " احتبس قِبَلك سلاح هوازن " . وأجاب عبد الله : " أبالغـدر تأمرنى يا حرب ! والله لو أعلم أنه لا يبقى منها سـيف إلا ضُرِبت به ولا رمح إلا طُعنت به ما أبقيت منها شيئا . ولكن لكم مائة درع ومائة رمح ومائة سيف فى مالى تستعينون بها" . ثم نادى فى الناس : " مَنْ كان له قِبَلى سلاح فليأتِ وليأخذه" . وأخذ الناس أسلحتهم وسار حربٌ وهشام وأُميّة وآبن جُدْعان راجعين الى مكة آتقاء القتال مع هوازن . فلمّا بلغ أبا بَرَاء قتلُ البرّاض عُروةَ قال : خدعنى حربٌ وآبن جُدْعان ؛ وركب فيمن حضر عكاظا من هوازن فى أثر القوم فأدركوهم بنَخْلَةَ فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم ، وجنّ عليهم الليل فكفّوا ؛ ونادى منادى هوازن : يا معشر قريش! ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل بعكاظ .

وقـدم البرّاض بالقافلة مكّة . فلمـا آستدار العام ذهبت قريش وأشـياعها وهوازن وأشياعها الى عكاظ فالتقوا بشَمْطَةَ . وكان محمد مع قريش، وقد استحرّ القتل فيهم . فلما رأى ذلك بنو الحارث بن كِنَانة قاموا الى قريش وتركوا مكانهم فانتصرت قريش . وآسـتدار العام كرّة أخرى فكان اليوم الثالث من أيام الفِجَار بعكاظ وفيــه التقى القوم على قَرْن الحول بالعَبْلاء وآقتتلوا . أمّا اليـوم الرابع فكان بعكاظ ، وفيه آقتتل القوم قتالا شـديدا آنهزمت قيس كلها على أثره . وقد ذكر النبيّ صلى الله عليه وسـلم الفجار بعد رسالته فقال : " لقـد حضرته مع عُمُومتى ورميت فيه بأسهم وما أُحِبّ أنى لم أكن فعلت " .

ولقد قيل فى حروب الفِجَار هـذه شعر كثير على أثر كل يوم من أيامها ، وكان يذاع فى النـاس ويُنْشَد فى عكاظ ، ولا يبتغى قائلوه الاحتكام به الى نُقّـاد الشعر بل يقولونه تفاخرا ودعاية وتقوية للروح المعنوية فى قومهم . ولا تزال كتب الأدب القديمة وكتب السيرة تحفظ لنا من هذا الشعر الشىء الكثير .

ولم ينقطع النبيّ عن الذهاب الى عكاظ بعد بَعْثه . ولعلّه لم يكن يذهب إليها فى كل عام . لكن الثابت فى كتب السيرة جميعا أنه ذهب اليها بعد أن ضاقت

قريش به لحصرته وأصحابه فى الشِّعْب من جبال مكة . فلما نُقضت صحيفة المقاطعة والحِصَار وعاد المسلمون يتصلون بالناس ، فُجِع محمد بعد أشهر من ذلك فى عمه أبى طالب وفى زوجه خديجة ، فازدادت قريش له إيذاء ، حتى كان من أيسر ذلك أن آعترضه سفيه منها فرمى على رأسه ترابا . هنالك خرج الى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف . فلما ردّته بشرِّ جواب آزدادت قريش له أذًى . ولم يصرفه ذلك عن الدعوة الى دين الله ، بل جعل يَعْرِض نفسه فى المواسم ، وعكاظٌ أهمُّها ، على قبائل العرب يدعوهم الى الحق ويُنبئهم أنه نبيٌّ مرسل ويسألهم أن يصدّقوه . وكان عمه أبو لَهَب عبد العُزَّى بن عبد المطلب يتبعه أينما ذهب ويحرض الناس ألّا يسمعوا له . فهو لم يكن يقف فى هـذه السوق خطيبا يدعو الجموع ببلاغته ليتبعوه ، بل كان يتصل بهـذه القبيلة وبتلك ، يحدّثهـم ويحاول إقناعهم بالحجّـة والمنطق ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، رجاء أن يهديهم الى الحقّ وأن يجنبهم الضـلال .

موضع كان للرسـول الكريم به هذه المواقف : حضر فيـه حرب الفِجَار صبياً وآشترك فيها ، وسمع فيه الى قُسّ بن ساعدة قُبَيْل بعثه ، وعرض نفسه فيه على قبائل العرب يدعوهم الى الحق ، جديرٌ بأن يكون مأثورا وأن يظـلّ سوقا للحج على مرّ العصور . لكن ما قام بمكة وما حولها بعد وفاة النبيّ وصاحبيـه أبى بكر وعمر من الثـورات التى آنتهت بأن أصبحت الخلافة مُلْكًا عَضُودا ، وبأن آنتقلت العاصمة الإسلاميّـة من المدينـة الى دمشق فبغـداد فالقاهرة ، قد عفّى كثيراً من هـذه الآثار وذهب بكثير من العادات التى أقرّها الاسلام بعد الجاهلية .

وعكاظُ من المواضع التى عفّتهـا الثورات فصار من المتعذّر تحقيق موضعها . وكل ما ترويه الكتب عنها أنهـا كانت تعقد فى مكان بين نخلة والطائف . فأمّا موضع هذا المكان على التحقيق فيقع عليه اليوم خلاف عظيم وترد فيه روايات تزيد على الخمس ، كما قدّمنا . أفلا يستطيع الإنسان ترجيح واحدة من هذه الروايات

على الأخرى ؟ أوَلَا يستطيع أن يصــل من ترجيحه إلى القطع بصحة رواية ونفى ما ســواها ، وبذلك يتسنّى أن يقوم فى هذا المكان أثرلعل إقامته تعيد الى عكاظ مكانتها الأولى ؟!

دار ذلك بخاطرى حين مقامى بالطائف، وفكرت فى القيام ببعض البحث أثناء عودى منها الى مكة لعلى أهتدى الى شىء تطمئن له النفس . لقد ذكروا أن عكاظا تقع بين نخلة والطائف على يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة . يجب إذًا تقسيم الطريق أربعة أقسام، وأن يكون ما بين مكة وعكاظ منه ثلاثة أمثال ما بين الطائف وعكاظ . إذا صحّ هذا فقــد وجب أن نستبعد القول بأنهــا بوادى عقرب شرق الطائف بعــد قليل من أُمّ الحمض . فأُمّ الحمض لا يزيد ما بينها وبين الطائف على خمســة عشر ميلا . والطريق من الطائف الى مكة طوله مائة وثلاثون ؛ فما بين الطائف وأم الحمض دون الثمن من الطريق . ومهما يبعــد وادى عقرب عن أم الحمض، ووادى عقرب هو الذى يقولون إن عكاظا كانت تقام به، فهو لا يبعد عنها خمسة أميال . فنحن إذًا لا نزال دون السـدس من الطريق . وهذا المكان ليس بعدُ ملتقًى لطرق القوافل من أنحاء شبه الجزيرة بما يدعو الإنسان الى التجاوز عن الدقّة فى تقدير الأبعاد . فلنلتمس عكاظا إذًا فى مكان آخر بين نخلة والطائف .

ويجب أن نستبعد كذلك ما يقال من أن عكاظا كانت تعقد على حدود وادى رُكُبَةَ عند اتصاله بوادى عُشَيْرة . فالعشيرة لا تقع بين الطائف ومكة على الطريق الذى سلكنا أو على طريق غيره ، بل تقع شمال الطائف على مسافة تزيد على ستين ميــلا، وتقع شمال الســيل الكبير الواقع على طريق ما بين مكة والطائف بنصف هذه المسافة إذ يتوسّط مَفْرَق عُشَيْرة الواقع فى جوار السيل الكبير ما بين الطائف وعشــيرة .

لاحظت ذلك كله على إحدى الخرائط التى أهداها إلىّ المستر فلبى يوم رحيلى من مكة الى هذه البادية . لكننى لاحظت كذلك أن عُشَيْرَة تقع على طريق نجد،

وتقع على أحد طرق القوافل إلى المدينة حين اتجاه هذه القوافل الى وادى العقيق بدل أن تتجه الى ذى الحليفة أو إلى قُبَاء. إذ ذاك أزمعت الذهاب اليها لعلّى أرى عندها ما يرجح قيام عكاظ بها. وزاد فى إغرائى بهذا الذهاب ما دوّنته كتب السيرة من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب الى العشيرة فى إحدى غَزَواته. أمّا وقد عزمت على السير فى أثر الرسول فلتكن العُشيرة بعض ما أتجه اليه تنفيذا لهذا العزم.

وذكرت هـذا السبب الآخر لصاحبي، فأبدى من الشك فى ذهاب النبيّ الى العشيرة ما أثار عجبي. فأنا جدُّ واثق من ذهابه اليها فى إحدى غزواته. ورجعت الى كتب السيرة أُحقق، فألفيتُني غير مخطئ، وألفيت صاحبي غير مخطئ؛ لكنه مع ذلك أدنى الى الحق منى. فقد ذهب النبيّ الى العُشَيْرة من بطن يَنْبُع فى السنة الثانية من الهجرة فى أكثر من مائتين من المسلمين، فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الثانيـة (اكتوبر سنة ٦٣٣) ينتظر مرور قافلة من قريش على رأسها أبو سفيان ففاتته، وإن لم يفته أن وادع بنى مُدْلِج وحلفاءهم من بنى ضَمْرة المقيمين على طريق التجارة بين مكة والشام. ليست هـذه العشيرة إذًا هى القريبة من الطائف والمتصلة بوادى رُكْبة والتى يقال إن عكاظا كانت تعقد عندها؛ وإنما هى من بطن يَنْبُع على مقربة من البحر الأحمر؛ فشتان ما بينها وبين عُشَيْرة وادى رُكْبة.

وشكرت لصاحبي ما أبدى من ريب كان له فضل رجوعى إلى كتب السـيرة والأخبار. ولقد وقفت فيهـا على عشيرة أُخرى ذكرها الأزرقىّ فى آخر تاريخ مكة حين كلامه عن (شق مسفلة مكة الشامى وما فيه مما يعرف اسمه من المواضع والجبال والشعاب مما أحاط به الحرم)؛ فقد ذكر أن "العشيرة" حذاء أرض ابن أبى مليكة إذا جاوزت طرف الحُـدَيْبية على يسار الطريق. فهذه العشـيرة الثالثة ممـا يدخل إذًا فى حرم مكة. ولعلّ هـذا الحوار بيني وبين صاحبي ما كان يقع لو أن العامية لم تجعل أهل الحجاز ينطقون العُشَيْرة والعَشِيرة جميعا على أنها العِشِيرة. وهذا التشابه فى الأسماء كثير فى شبه الجزيرة. وأنت واجدٌ وادىَ العقيق ببادية الطائف، وبهذه

العُشَيْرة الواقعة على مقربة منها، وبالمدينة، كما أنك واجد الاسم الواحد تشترك فيه أمكنة كثيرة غير العشيرة ووادى العقيق على نحو ما يشترك فى الاسم الواحد أشخاص كثيرون .

لم يصدّنى ما عرفت من أن العُشَيْرة القريبة من الطائف ليست العشيرة التى نزلها النبىّ من بطن ينْبُع عن عزم الذهاب اليها لتحقيق ما يقال عن قيام عكاظ عندها . فلما تحدّثنا عشيّة العود من الطائف الى مكة اجتمعت كلمتنا على أن نسير بكرة الصباح من الطائف الى العُشَيْرة ثم نرتدّ منها الى السيل الكبير فالبُهَيْتاء فاليمانية فالزَّيمَة فالشرائع فمكة . والطريق الى العُشَيْرة هو بعينه الطريق الى السيل الصغير، لكنه ينفصل عنه قبل الوصول الى هــذا السيل وبعد المرور بالمُلَيْساء ووادى لُقَيْم وأُم الحمض . لذلك أتيح لى حين اجتازت السيّارة هــذا الجزء من البادية صبح يوم الجمعة المتمم للعشرين من شهر مارس أن أرى هــذا القدر من طريق الطائف وكان الليل قد حجبه عنّى حين مجيئنا اليه . وأشهد أنى لم أفد برؤيته شيئا جديدا . ودّعت الطائف ومن فيها، وانطلقت السيّارة أثناءه يتبعها "البكس" فلم نزحولنا غير الوادى تقوم الجبال عن جانبيه عند مرمى النظر أكثر الأمر . والوادى خلاء أجرد قلّ أن تجد فيــه للأشجار التى غرستها يد الانسان أثرا . وطريق السيّارة منخفض بعض الشىء متعرّج لا يستقيم . فلما آستوينا على طريق العُشَــيْرة آستوى الوادى وآنفسح وآختفت الجبال كأنما ابتلعها الأُفق . واخترقت أشعّة الشمس الرقيقة هواء الصبح المنعش وانبسطت على البادية فكستها جميعا ضوءا ودفــئا . والسيّارة منبعثة فى انطلاقها تطوى هذه المسافات المترامية من الأرض وليس يهدى سائقها الطريق أثناءها إلا حسّه المُرْهَف وعلمُه بأنه يجب أن يسير دائما صوب الشمال فى دروب من أثر دروب السيّارات التى سبقته فى هــذا المهمه المترامى الى ما وراء الخيال من آفاق النظر . وآختلط الأمر على صاحبى لمّــا رأى الدرب يتشعّب أمامه طريقين، يتيامن أحدهما ويظلّ الآخر فى استقامة انطلاقه ؛ وأشار على السائق أن يتيامن . لكن الشــيخ صالح القزّاز أمره أن يتــابع الدرب المستقيم . وآتبع السائق مشورة

الشيخ صالح لأنه أدرى بدروب هذه المِنْطقة، ولأن السائق يذكر يومًا منذ سنوات سار فيه فى هذا الطريق الى عُشَيْرة ولم يتيامن .

وانقضت ساعة وتنصّفت الأخرى ولم يلقَنا فى الطريق إنس ولا جانّ . وأغرانا صمت البادية بالحديث، فسألت أصحابى : أتنهمر السيول فى فصول منتظمة حيث نسير؟ وكان جوابهم أن السيول تنهمر أحيانا حتى لا ضابط لها، لكنها غير منتظمة الفصول؛ وقد تنقضى السنة ولا يبلغ ما ينهمر منها ربع الشبر، وقد يبلغ هَتْنُها فى بعض السنين ما تضيق به البادية ذرعا . قلت : فما بالكم إذًا لا تحاولون حكم الطبيعة بالعلم فتقيمون من السدود ما تدّخرون به الماء الى حين حاجتكم اليه؟ وتبسّم القوم ابتسامة مريرة وقالوا : "يجب قبل أن نحكم الطبيعة أن نبلُغ من العلم حظًا يطوّع لنا حكمها، وأن يكون لنا مع العلم حظٌ من المال لإنفاقه فيما يقضى العلم أن نُنفقه فيه ، وأن يكون فى البلاد مع العلم والمال استقرار ويد عاملة . وليس لدينا اليوم الى شىء من ذلك كله سبيل . وقد ألِف أهل هذه البلاد من حياة البادية ما لا يهون عليهم أن يستبدلوا به ما هو خير منه . ونَجْدٌ التى حكمت الحجاز ليست أحسن منه حالا فى العلم ولا فى المال ولا فى الرجال ولا فى الاستقرار. أمّا وهذا قضاء الله وقدره فى بلاد بها بيته الحرام وقبر نبيّه عليه الصلاة والسلام، فليس لنا إلا أن نُذْعِن لأمر قضاه ولا مردّ له من دونه . وحسبُنا أن تهوِى أفئدة من الناس الى البلد الأمين حتى يقضى الله بأمره وهو أحكم الحاكمين".

وبدت عن بعد صخور سوداء فى لون الجرانيت البركانى الفاحم؛ تلك حِرار عشيرة فيما قال صاحبى . إذًا فقد بلغنا غايتنا أو كدنا . ولوى السائق عِنان السيارة الى اليمين ثم انطلق بها ميمما نُصُبا قائما . وبدا فيما وراء النُّصب قوهتان لبئرين هما بئرا عُشَيْرة . أمّا القوهتان فبنتهما حكومة ابن السعود بناءً صالحا . وأمّا النُّصُب فتذكار لهذا البناء نقش عليه مانصه "بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بعمارة هذه الآبار صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن فيصل آل سعود ملك المملكة

السعودية العربية سنة ١٣٥٣ ". وعلى مقربة من هذا النُّصب ومن البئرين وقفت السيّارة وهبطنا منها نجوس خلال هذا المكان .

وقلت لصاحبي : " أمّا أنّ المكان صالح لقيام عكاظ به فأمرٌ لا ريب فيه ؛ فهذه البادية الفسيحة تتسع لسوق عالمية تقام بها فى عصرنا الحاضر . ووجود هذه الآبار يدل على أن الماء هنا يكفى حاجة الذين يقيمون السوق عشرين يوما أو يزيد . وهاهنا طريق لنجد وآخر للمدينة . لكن بُعْد المكان عن الطائف وعن طريقها الى مكة يجعلنى فى ريب من أن عكاظا كانت تقام به . ونحن ها هنا على مسيرة يومين من الطائف ؛ فقد كانت السيّارة أثناء مسيرنا تقطع ستين ميلا فى الساعة وتزيد على ذلك أحيانا ، وقد قضينا نحو الساعتين . فاذا قدرنا أن المسافة من الطائف الى العُشَيْرة مائة ميل ، بل ثمانين ، بل ستين ، لم تستطع الإبل أن تقطعها فى يوم واحد . ثم إن ما بين هذا المكان وميقات الإحرام لايجعل الفِرار منه الى الحرم فى سويعات ميسورا ؛ وقد فرّت قريش أوّل عام للفِجار واحتمت بالحرم من هوازن . ولو أن عكاظا كانت فى هذا المكان لَحِقَتْ بها هوازن قبل أن تلوذ بالحرم . أمّا والروايات متّفقة على أن الفِجار وقعت بعكاظ وأن بين الطائف وعكاظ مسيرة يوم بالإبل ، فالقول بأن عكاظا كانت تقام به مرجوح عندى ؛ وهو مرجوح أكثر من القول بأن عكاظا كانت تقام بوادى عقرب على مقربة من أم الحمض .

ولم يُبْدِ صاحبي اعتراضا على هذا الرأى وإن لم يَمِلْ الى ترجيح أمّ الحمض على عُشَيْرة . فاذا كانت أمّ الحمض فى طريق الطائف الى مكة ، وكان ما بينها وبين الطائف أدنى بمسيرة الإبل يوما مما بين الطائف وعُشَيْرة ، فإن وقوع عشيرة على طريق القوافل من المدينة ونجد الى مكة والطائف يجعلها أدنى الى الترجيح . هذا الى أن تقدير الأبعاد بمسيرة الإبل ليس مما يعتمد عليه أو يصلح حجة قاطعة فى رأيه .

وإنّا لَنُجيل الطَّرْف فى هذه الحِرار المحيطة بعُشَيْرة حينًا ونعود الى حوارنا آخر، إذ مرّت بنا قافلة من الأعراب يركبون الحُمُر يقصدون نجدا فيما ذكروا ؛ ولقد ترجّلت

امرأة منهم حين رأتنا وأقبلت تسألنى عن آلة التصوير واستوقفت قافلتها كيما أصورهم . ولما رأتنى أدخن طلبت الى سيجارة ؛ فأنكرت عليها أن تكون امرأة وتدخن ، وأن يدخن من يكون فى حكم النجديين ؛ فابتسمت فى خبث وقالت : إنها تريد أن تمضغ التبغ لتخفف بمضغه ألمًا بأسنانها . وسألتها : كم بينها وبين نجد ؟ فأجابت أن الأمر فى ذلك للسير والمرعى . وعادت شعثاء غبراء فركبت حمارها وتقدمت القافلة ، وسايرها كلب ظل ينبحنا حتى بعد القوم عنا .

وبينا نأخذ أهبتنا لتعود بنا السيارة الى مَفْرَق عُشَيْرة فالسيل الكبير لنسأل أهلها : أحقًّا أن لعكاظ مكانا معروفا عنده ، إذا سائق السيارة يذكر أنه سمع فى إحدى جولاته قوما من أهل اليمن يقولون إن عكاظا تقع فى جنوب الطائف ، وسألنا : أليس فى برنامجنا أن نحدر اليوم فنسأل عن موضعها هناك وهل يعرفها أحد ؟ وسخرت وسخر أصحابى من قوله وحسبناه يهذى ، وأمره الشيخ صالح فى لهجة حازمة أن يجعل السيل الكبير وجهته . وكيف يكون قد سمع شيئا من هذا الذى يقول والروايات مجمعة أن عكاظا تقع بنخلة بين مكة والطائف ، والطائف تقع الى الجنوب الشرقى من مكة ، فحتمٌ أن يكون ما بين مكة والطائف كله الى ناحية الشمال من الطائف . على أن السائق أصر على أنه سمع ما روى لنا وإن اتجه فى طريق السيل . وما كان أشد عجبي حين رجعت بعد ذلك الى الكتب القديمة فألفيت روايته واردة فى بعضها ، وأيقنت لذلك أن أهل اليمن لم يكذبوه حين قصوا عليه هذه الرواية . فقد ذكر ابن رستة صاحب كتاب "الأعلاق النفيسة" ، وهو من كتاب القرن الرابع ، وصفًا للطرق التى تصل بين مكة والطائف فقال فى تصوير أحدها : "تأخذ على بئر ابن المرتفع ثم الى قَرْن المنازل وهو ميقات أهل اليمن للاحرام — وقرن المنازل فى عصرنا الحاضر ميقات أهل نجد — ومنها تعدل الى الطائف . والطائف مخلاف من مخاليف مكة وعمل مكة مما يلى نجد نجران ، وقرن والفتيق وعكاظ

والطائف ... الخ " . وروى الأزرقى قال : " وقال أبو الوليد وعكاظ وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صَنْعاء فى عمل الطائف على بريد منها، وهى سوق لقيس ابن عَيلان وثقيف وأرضها لنصر " . وللإدريسى خريطة وضعها لبلاد العرب قد يتعذّر اليوم علينا أن نحـل رموزها وأن نعرف على التحقيق مواضع الأماكن المبيَّنة فيها ؛ على أن العالم المستشرق الألمـانى مولر قد عُنِى بدراستها ورسمها على النحو الذى ترسم به اليوم خرائطنا وحرّر عليها أسماء البلاد التى حررها الإدريسى على خريطته . وعكاظ تقع على هذه الخريطة الى الجنوب من الطائف مع ميلٍ قليـل الى ناحية الشرق . ووضعها هذا يصوّر ما أورده ابن رستة فى أعلاقه النفيسة . وهذا تصوير لا يتفق مع ما قيـل من وقوع عكاظ بين مكة والطائف، ويبعـد كل البعد عن الروايات التى صوّرت مكانهـا بينهـما سواء أكانت بوادى عقـرب أو بعُشَيْرة أو بالسيل الصغير أو بالسيل الكبير .

أما المسترفلبى فيرجِّح السـيل الصغير موضـعا لعكاظ . وهو قد وضعها على خريطته فى مكان هـذا السيل الى جانب موضع أسمـاه أُثَيْرِية . ولقـد سألت أصحابى عن هذا الاسم فلم يذكروه ، وإنمـا ذكروا المتواتر على ألسن النـاس من أن عكاظا كانت تقوم بالسيل الصـغير فى مكان يعرف الآن باسم القهاوى ، وهو فى هذا الموضع الذى حدّده المسترفلبى . ومسترفلبى إنمـا حدّد هذا المكان لتواتر الرواية عنه ، لا لأنه حقق مواضع عكاظ وحاول الترجيح بينها . وهو يعنى فى وضع خرائطه بالواقع اليوم ولا يعنى بروايات التاريخ ولا بما فيها من خلاف . وهذا السيل الصغير صالح لقيام عكاظ به لكثرة مياهه ولانفساح البادية عنـده . وهو يقع على مسـيرة يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة بسـير الإبل ؛ فلا جَرَمَ أن رجحت الرواية المتواترة عنـه غيرها من الروايات عن وادى عقرب وعُشَيْرة وطريق اليمن . لكن رواية أخيرة تكاد ترجُح عندى هذا التواتر، أوهى على الأقل تدعو الإخصائيين الى مزيد من العناية والبحث لعلهـم يهتدون الى الحق فى أمر هـذه السوق التى كانت تعقد فى الجاهلية والتى ظلّت تعقد أجيالا بعد الإسلام ، والتى لا تزال عَلَمًا

على حياة ونشاط فى التجارة والأدب يحملان أهل العربية يتناقلون جميعا أنباءها .

وهذه الرواية الأخيرة هى التى تذهب إلى أن عكاظا كانت بالسيل الكبير أو على مقربة منه . ولم أُقم لهذه الرواية كبير وزن حين سمعتها بعد الذى رأيته من تعدّد الروايات السابقة وتهافت بعضها ؛ غير أن الشيخ صالح القزّاز كان يبدى من الميل لتصديقها ما جعلنى أتطلّع لتحقيق أمرها . وزاد فى تطلّعى ما قصه علينا والسيّارة تنطلق متجهة الى ناحية السيل من أنباء ترامت اليه عن وجود آثار قديمة باقية يذكر الذين رووها أنها أبلغ دلالة على عكاظ من كل رواية أو نبأ . وبلغنا مَفْرَقَ عُشَيْرة عند ديار القُثَمَة على مقربة من السيل الصغير، وانحدرنا من رِيع ذات عِرْق، فاحتوتنا الجبال فى ذلك المضيق الذى أعاد الى ذاكرتى جبال أبواب الحديد على نهر الدانوب . وفى المضيق لَقِينا قطيع من الإبل قيل إنه للأمير سعود ولى عهد المملكة العربية السعودية، وإنه يقصد نجدا . وما كان أشدّ عَجَبَنَا أن تروع سيّارتنا قطيع ولى العهد حتى لَيُلْقِ بعير منها براكبه أرضا؛ وطالما مررنا بقوافل يملكها رجال من البدو فلم ترعها السيّارة ولم تزعجها عن اتئاد مسيرها . قال صاحبي: "لعل هذه الإبل الناعمة بمراعى نجد والحجاز لم تعوّد من يمرّ بها مقتحما طريقها ، فهى تفزع لمرأى من تحسبه يُغير عليها ، مثلُها فى ذلك مثل المُتْرَفِين الذين لم يروا فى الحياة عَنَتاً فهم يضطربون لأيسر مايفاجئهم منه". وانفرجت الجبال عن السيل الكبير فتخطّت السيّارة اليه ووقفت فى موقفها يوم مجيئنا من مكة الى الطائف .

وتناولنا الشاى و"البسكوت" ثم تناولنا شربة من ماء وجلسنا نتحدث فى حين أخذ السيد صالح القزّاز يسأل عن موقع عكاظ القريب من هذا السيل . وبعد لأيٍ دلّه القوم على عربى من بنى سعد اسمه بادى ويقيم بالسيل . ووعدناه رزقا حسنا؛ فانطلق معنا يدلّ السائق على الطريق الذى يسير فيه . واستدرنا بالسيّارة فيما وراء الجبل ثم اعتدلنا نقطع بطنا من الأرض كله حسك العُشَر وما اليه من شجر البادية

حتى خاف حسن أن يصيب السيّارة من الحسك أذًى . ووقفنا بإشارة بادى فى موضع يقال له "الخُرّ" من واد يقال له "غَسَلَة" وراء جبل يسمى دَمًا . وهبطنا من السيّارة وسرنا خطوات وراء بادى ، ثم وقفنا عند آثار بناء فى تخوم الأرض مستوية مع سطحها يدلّ وجودها على وجود عمارة قديمة فى المكان تتألف من ثمانى غرف حسنة البناء ليست فى شىء من منازل البدو . قال صاحبى بعد أن زرنا هذه الآثار : أشهد أنى أميل الى ترجيح قيام عكاظ بهذا المكان ، وأحسب هذه الغرف الفسيحة كانت مقام سادة السوق . قلت : لعلك لم تبالغ إذ رجّحتَ ، وإن كنت أوثر أن تقوم هيئة علمية بحفريّات تحقق بها تاريخ هذه الآثار والغرض الذى أُنشئت له .

عدنا نقصد الى مكة وأنا أفكر فى هذه الآثار ، فهى أول ما شهدت من نوعها فى هــذه البلاد . بنيت من الآجُرّ ومن حجر أحمر جىء به من هذه الجبال المجاورة بناءً يشهد ما بقى منه بإتقانه وحسن نظامه . ترى فى أى عصر كان تشييده؟ وأىّ بطن من بطون العرب أقامه هاهنا حيث لا يمر اليوم أحد؟ إنه يرجّح عنــدى قيام عكاظ بهذا المكان وإن لم يقم ســندًا علميًا على هذا الترجيح ، أم لعله رسم درس لمدينة قديمة عفّت الأنباء على ذكرها وظلمها التاريخ بنسيانها !

بلغنا حرم مكة وهذه الأنباء عن عكاظ وتاريخها وموقعها تداعب خيالى . فلما تخطّينا الشرائع وبلغنا مَفْرَق الطريق الى الجِعْرانة ذكرنا مَجَنّة وذا المجاز . ولم أنس حين ذكرتهما قول الكلبى : "كانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنّة وذى المجاز قائمة فى الإسلام حينا من الدهر . فأمّا عكاظ فإنمــا تركت عام خرجت الحَرُوريّة بمكة مع أبى حمزة المختار بن عوف الأزدىّ الأباضىّ فى سنة تسع وعشرين ومائة . خاف الناس أن يُنْهَبوا وخافوا الفتنة ، فتُرِكَتْ حتى الآن . ثم تُرِكت مَجَنّــة وذو المجاز بعد ذلك ، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمِنًى وبعرفة" . أين كانت تقع إذًا مجنة وأين كان يقع ذو المجاز؟ نقل الأزرقىّ قول الكلبى : "ومجنّة سوق بأسفل مكة على بريد منها ، وهى سوق لكنانة ، وأرضُها من أرض كنانة ، وهى التى يقول فيها بلال :

ألَا ليت شعرى هل أبيتنّ ليلةً * بفَخّ وحولى إذْخِرٌ وجَلِيلُ
وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مَجَنَّةٍ * وهل يَبْدُوَنْ لى شامةٌ وطَفِيلُ

وشامة وطفيل جبلان مشرفان على مجنة . وذو المجاز سوق لهُذَيل عن يمين الموقف من عرفة قريبة من كَبْكَب على فرسخ من عرفة ".

سألت أصحابى عن مواقع هذين السوقين فيما نعرفه مما حول مكة، فلم يجدوا فى تحديد موقع ذى المجاز مشقة؛ فهو على يمين الموقف من عرفة، وهو إذاً فى موضع سوق عرفة اليوم أو يكاد. أمّا مجنّة فاختلف القوم فى تحديدها: قال أحدهم إنها تقع عند الجِعْرانة؛ وقال الآخر إنها تقع فيما وراء التنعيم حيث الشهداء والزاهر اليوم .

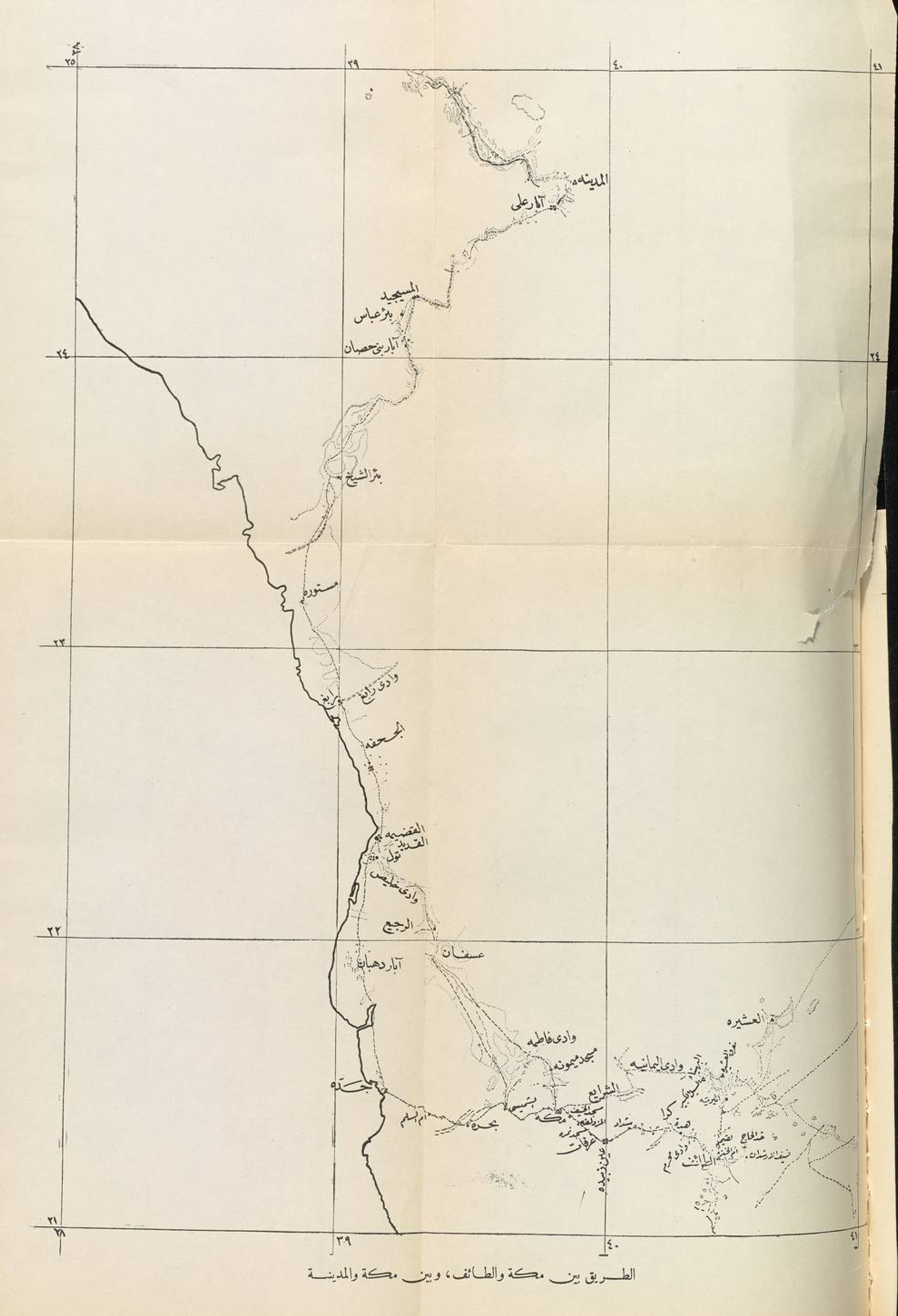
ولم يَثُرْ بى التطلّع الى تحقيق موضع مجنّة ما ثار بى الى تحقيق موضع عكاظ . فقد خشيت أن أعود من بحثى بمثل ما عدت به عن عكاظ من ترجيح رأى على رأى دون القطع بأىٍّ منها . ثم إن مجنة لم تكن يوما ذات أثر فى الأدب العربى ولا فى التاريخ العربى كما كانت عكاظ؛ فهى لم تزد على أنها سوق فى جوار مكة يجىء اليها الحاجّ بعد انصرافهم من عكاظ فى العشرين من ذى القعدة ويجيئون اليها مُحْرمين قد نسوا خصوماتهم ومفاخراتهم وتوجّهوا بقلوبهم الى ربهم . وهذا موقف تُنكِر النفس فيه التنافس والحسد، وترغب فيه عن الأذى والخصومة . وقد ألِف الناس ألّا يعرف تاريخُهم إلّا آثارَ الحسد والتنافس وما يجرّان اليه من حروب ومنازعات وما ينشأ عنهما من تطوُّر الى الكمال . فكأنما كُتِب على هذه الإنسانية ألّا تبلغ الكمال المنشود وألا تبلُغ الخير المحبَّب الى النفس الفاضلة إلا من طريق الشرّ والأذى . ولو عرف الناس التضامن وأقاموه مقام التنافس وبَنَوْا صِلَاتهم على الإخاء الحق، لكان خيرا لهم وأدنى الى ما توجبه كرامة بنى جنسهم .

أقمتُ بمكة بعد العود من الطائف أُعِدّ العُدة للرحيل الى المدينة أزورها قبر الرسول الكريم وأقف فيها على آثاره الخالدة . لم يبق لى إذاً غير يومين اثنين أقضيهما فى البلد الحرام؛ والله وحده يعلم أقُدِّرَ لى أن أعود اليه ! فلا أَنْهَلْ إذاً من

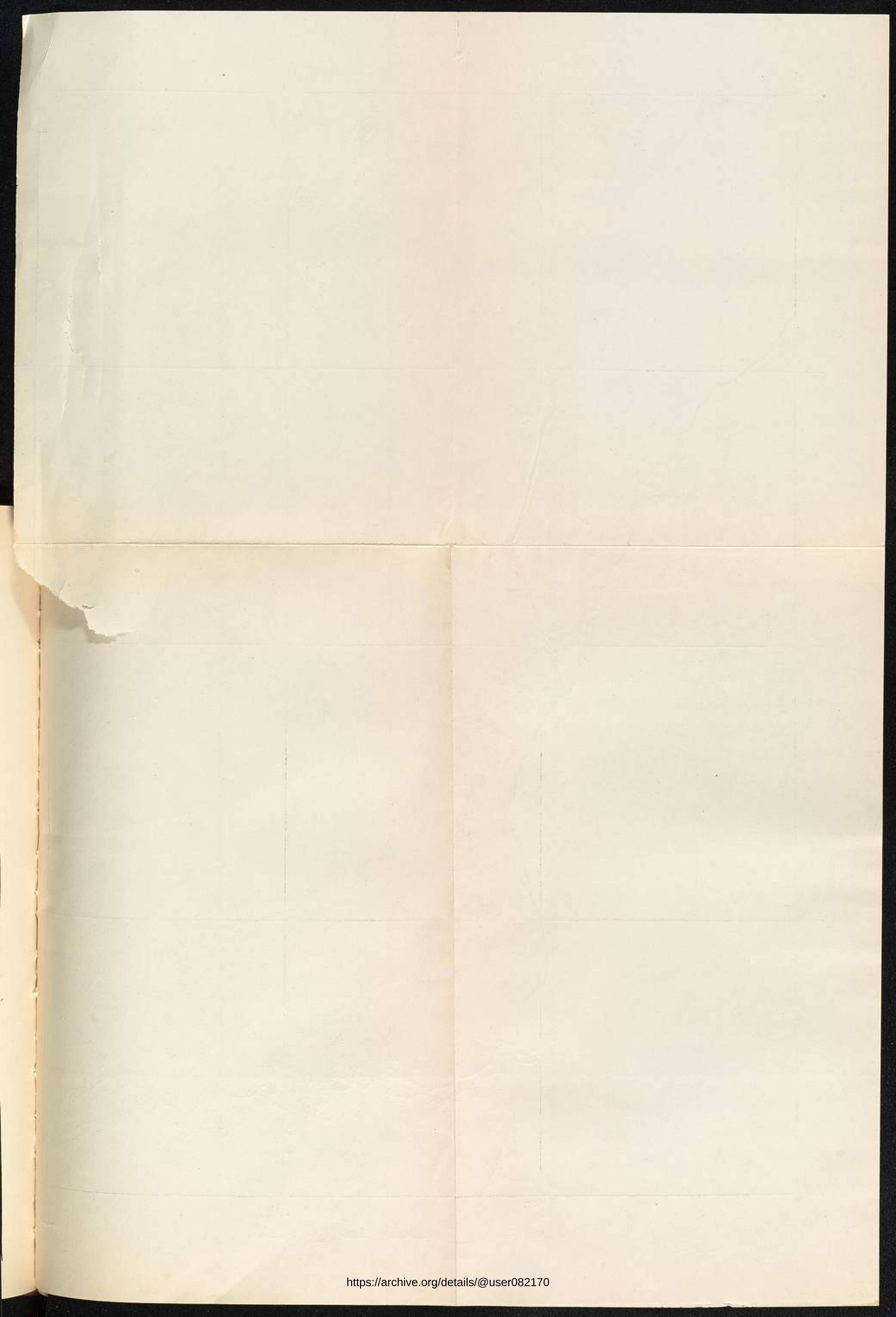
و رد ذلك الجو الروحى المصفّى ما استطعت النهلَ منه . ولأتزوّدْ منه ؛ وخير الزاد التقــوى .

وفى مساء اليوم الأوّل لقيت الملك ابن السعود، فاستأذنته فى مغادرة مكة وشكرت له معونته ومعونة حكومته إيّاى فى بحوثى . وصعِدت الى غارثور فى اليوم الثانى . فلما كان اليوم الثالث وكنت على أُهبة السفر ذهبت الى المسـجد الحرام أطوف بالكعبة طواف الوَداع ، وألقى على البيت العتيق نظرة رجاء أن أعود اليـه يوما ، لعله يكون قريبا ، لأنهل من نبعه الروحى كرّة أخرى ، ولأجد فى القرب منه تجرُّدا من الدنيا وتقرُّبا الى الله .

حقّق الله هذا الرجاء ، إنه على كل شيء قدير .



الطريق بين مكة والطائف، وبين مكة والمدينة



الكتاب الرابع

بين الحرمين

طواف الوداع

أمّا واليوم موعد الرحيل عن مكة فهلُمّ الى طواف الوداع . وخرجنا مع المطوِّف فطفنا ودعونا الله أن يغفر لنا وأن يجعل لنا من العود الى البلد الأمين والطواف ببيته المحرَّم قِسْما ونصيبا . وملتُ الى حِجْر إسماعيل بعد تمام الطواف فصلّيت فيه ، ثم صليت فى مقام إبراهيم . وبعد أن أقمت زمناً أدعو وأستغفر انتحيت ناحية الفىء ، وأقمت أُفكر فى هذا الرحيل من مكة وأستذكر أيامى السعيدة بها . وأيّة سعادة كهذا النعيم الرُّوحى الماثل فى كل رحابها ، يتضوع بأريجه هواؤها ، وتحدّث عنه أنباء الماضى فى تاريخها ، وينشر البيت العتيق شُذاه فى كل أرجائها ! .

وصرف التفكير فى هذه السعادة الروحية عنّى إحساسا طالما دبّ الى نفسى كلما ودّعت بلداً احتوانى وأنا فى شك من العودة اليه ، فقد كنت أشعر فى مثل هذه المواقف بأن ما أُفارقه ينهار بالنسبة لى فى لجّة ما لا نرى ولا نحس إلا خيالا وحدْسا ، كما أشعر بأن ما مضى من حياتى الى ساعة هذا الوداع ينهار فى لجة الزمن الذى لا يذر العالَم لحظة من غير مَوْر ولا تجدُّد . أمّا اليوم فكان إحساسى وتفكيرى ، وأنا بمجلسى من المسجد الحرام ، بعيدين كل البعد عن معانى الانهيار وعن تصوُّر الزمن لُجَّةً تبتلع الحياة والأحياء . لقد انبسط الزمن أمام بصيرتى وحدةً جمعت الماضى والمستقبل ، وانكشفت أمام الروح فى بساطةٍ دونها بساطة المكان ووحدته ، تدركها بل تراها اذا جلست فى غرفة ضيِّقة للإذاعة اللّاسلكية ، تسمع فيها وتشهد منها عن طريق "التِلفزيون" كل ماشئت أن تسمعه أو تشهده فى أنحاء العالم المختلفة . ليس للزمن ولا للمكان إذًا لجّة ، بل روحنا هى هذه اللجة التى تسع الزمان كله والمكان كله ، ما عرفنا أن نسمو بها فوق مادة الحياة الدنيا المحدودة بالزمان والمكان . وأين يتيسّر للإنسان هذا السموّ ما يتيسّر له امام البيت العتيق وفى هذا المسجد الحرام الذى جعله الله مثابةً للناس وأمنا ! .

فى الحق أنْ ليس فى العالم كله موقف يطوِّع للروح أن تسمو فوق حجب الزمان والمكان ما يطوِّعه لها هذا الموقف الذى أنا فيه . وليس ذلك لسرٍّ فى الحجارة التى بنى البيت العتيق منها ؛ فالحجارة مادة ، والمادة تنهار وتتجدد . ولقد جُدِّد بناء هذا البيت غير مرة . إنما يطوِّع للروح هذا السمو فكرة التوحيد التى قام البيت رمزًا لها مذ رفع إبراهيم القواعد منه وإسماعيل . وفكرة التوحيد هى الحقيقة السامية ، الحقيقة الأولى ، الحقيقة التى تتفرع عنها كل الحقائق ، والتى يهتدى بها العلم والفن ، وتهتدى بها الحياة كلها الى وجه الله الأكرم ، يسبِّح له جل شأنه من فى السماوات والأرض ، لا إله إلا هو الكبير المتعال . نعم ! فكرة التوحيد هى المركز الذى تنجذب اليه العوالم وسننها والكون وأطواره ، والذى تتجه اليه ذرّات هذا الوجود كلها مسبِّحة مقدِّسة . والفكرة روح وليست مادّة ، ومعنًى وليست جسدا ؛ وهى لذلك سامية فى خلودها فوق المادّة المصوَّرة والصورة المجسَّدة ؛ ولذلك يبقى رمزُها بيتُ الله العتيق لا تعدو عليه عادية ، ولا يصرف الإنسانية عنه صارف . وكيف تنصرف الإنسانية عنه وهو يمثِّل خير ما فيها وأسمى معانيها ! .

ولقد حاول غير واحد من أولى البأس والسلطان فى عصور مختلفة أن يصرفوا الناس عن هذا البيت فذهبت كل محاولاتهم هباء . ذلك بأن فكرة التوحيد تستقر فى أعمق الروح الإنسانية وإن اختلفت مظاهر العقائد التى تدين بها جماعاتها . وهذه المحاولات إنما دفع اليها التنافس التماسًا للغَلَب المادىّ فى الحياة الدنيا . والتوحيد لا يعرف التنافس ولا يرقى اليه الغلب ، لأنه يسمو بطبعه فوق كل غلب . والتنافس على المادّة من مظاهر هذه الحياة الدنيا وأعراضها الزائلة التى لا تتعلق الروح ولا الفكرة بها . بذلك بقى البيت العتيق رَمْزَ التوحيد ، لم تعدُ على الحقيقة العليا التى يصوِّرها أوهامُ الحياة ، ولم تُخفِها الأكداس التى رانت عليها زمنًا حين كانت الوثنية الجاهلية صاحبةَ الغَلَب ؛ لأنها تسمو على الزمن ولا تأبه لما يجىء وينقضى مما لا بقاء له ، ولأنها أزليّة خالدة ، فرمزُها باق لذلك بقاء الخلود .

كان تُبَّع بن حسّان ملك ملوك حِمْيَر عائدا من حرب شنّ غارتها على الأوس والخزرج بيَثْرِب . فلما كان على مقربة من مكة حدّثته نفسه بهدم الكعبة ؛ وكان يهوديًا ، فمنعه من كان معه من أحبار اليهود أن يهدم بيت التوحيد ؛ فكساه وعاد الى بلاده .

وبنتْ غَطَفَان فى القرن الأوّل قبل الهجرة حرمًا كحرم مكة وحاولت أن تصرف العرب اليه ، وبلغ ذلك ملكا على العرب اسمه زُهَيْر بن حُباب فقال : "لا والله لا يكون ذلك أبدا وأنا حى". واتّبعه قومه حين قال لهم : "إنّ أعظم مأثُرة ندّخرها عند العرب أن نمنع غَطَفانَ من غرضها" ؛ وقاتل غطفانَ وظفر بهم وأبطل حرمهم .

فلما استقلّ أَبْرَهَةُ الأشرَم قائد نجاشىّ الحبشة بأمر اليمن ، سوّلت له نفسه أن يُقيم بصنعاء بيتًا للنصرانية يصرف به العرب عن بيت مكة ؛ وبنى القُلَيْس بها وزخرفه وجلب اليه فاخر الأثاث ، وظن أنه صارف أهل مكة أنفسهم عن بيتها . فلما رأى العربَ جميعا لا يتّجهون إلا الى البيت العتيق ورأى أهلَ اليمن يَذَرون القُلَيْس ولا يعتبرون حجهم مقبولا إلا بمكة ، تهيّأ للحرب فى جيش من الحبشة تقدّمه على فيل عظيم وسار يريد هدم الكعبة . وبلغ مكةَ وأنذر أهلها أن يُخلُّوا بينه وبين البيت ليهدمَه . وأخلى أهل مكة مدينتهم ، وأصبح أبرهة يريد أن ينفّذ عزمه ، فاذا جيشه قد تفشّاه مرض الجدرىّ وبدأ يفتك به فتكا ذريعا ؛ وأُصيب أبرهة بما أَصيب به قومه ، فعاد أدراجَه الى اليمن فزعا ، وبلغ صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض ولم يقم إلا قليلًا حتى لحق بمن مات من جيشه ؛ وصدقت كلمة عبد المطلب جدّ النبىّ : "إن للبيت ربًّا يحميه" .

ولقد فشت الدعوة القَرْمَطِيّة بالعراق على عهد العباسيين ، وجعل أصحابها يرمون بالكفر من لم يكن على مذهبهم فى موالاة محمد بن الحنفيّة ابن علىّ بن أبى طالب . وكان أبو طاهر القرمطىّ أوّل من ظهر من هؤلاء الدعّاة فى أيام المقتدر العباسىّ . ولقد بنى أبو طاهر دارًا فى هَجَر ، من مدائن البحرين ، سمّاها دار الهِجْرة ، وأراد أن

ينقل الحج اليها . وكان يقصد الطرق المؤدية الى مكة ويفتك بحجاج البيت الحرام. بل سارت عساكر القرامطة فى جيش لجب الى مكة أيام الحج ودخل أبو طاهر الحرم ووضع السيف على بغتة من الناس فى الطائفين والعاكفين والركع السجود، وقتل نحو ثلاثين ألفا بمكة وشعابها، واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب . بذلك دب الرعب فى القلوب، وصار الناس لا يجدون الى الحج سبيلا آمنا فانقطعوا عنه ؛ لكنهم لم ينصرفوا الى دار هجر . فلما مات أبو طاهر ورأى قومه العبث فى محاولته تحويل الحج عن الكعبة أعادوا الحجر الأسود الى مكة، وكان أبو طاهر قد نزعه من الكعبة وأخذه معه؛ وعاد الحج الى بيت الله كما كان .

ولما اهتم عبد الملك بن مروان بعمارة قبة الصخرة فى جوار المسجد الأقصى وبالغ فى زخرفتها ظن بعضهم أنه يفعل ذلك ليصرف أهل مصر والشام الى حج القبة والمسجد الأقصى، وذلك اذا تمت الغلبة لابن الزبير فرد الملك الى الحجاز والى أهل بيت النبي . أما وقد تمت الغلبة لبنى أمية وبقى الناس يحجون البيت العتيق ويولون وجوههم شطره فالمسلمون فى ريب مما نسب الى عبد الملك بن مروان من هذه المقاصد . وهم كذلك فى ريب مما ظنه بعضهم من أن المنصور العباسى بنى القبة الخضراء الى جوار قصر الذهب الذى شاده ببغداد وأنه بالغ فى زخرفتها ليولى الناس وجوههم شطرها؛ إذ لم يرد فى التاريخ من أعماله ما يؤيد هذا الظن .

وانما باء أبرهة ومن سبقه ومن لحقه بالإخفاق فى مآربهم من صرف الناس عن بيت الله لأنهم كانوا يرمون من ورائه الى غاية سياسية . والغايات السياسية موقوتة مصيرها الى الزوال، وهى لذلك لا تستند الى أساس ثابت فى قرارة النفس الإنسانية، ولا تمثل المعنى الروحى ولا الحقيقة العليا التى يتعلق بها الفؤاد ويتوق اليها القلب، يستوى فى ذلك قلب الساذج وقلب العليم ونفس الغوى ونفس الطهور . أما فكرة التوحيد التى يقوم هذا البيت العتيق رمزا لها فهى الفكرة الخالدة المبرأة من الهوى والتى تمثل الحقيقة فى أسمى صورها ؛ ولذلك تحطم على جوانبها كل محاولة

ترمى الى إفسادها ثم يبقى رمزها خالدا تتعلق به القلوب وتتوجه اليـه الأبصار من أقطار الأرض جميعا .

دار ذلك بخاطرى وأنا بمجلسى من فىء المسجد أرنو بعينين سعيدتين الى هـذه البَنِيَّة التى رنا اليها خاتم الأنبياء والمرسلين، والتى رفع أبو الأنبياء خليلُ الله قواعدَها. وانقطعتُ عن التفكير هنيهـةً كأنمـا كنت أهضمه أثناءها وأُسيغه وأستمتع بجماله وسحره . وإنى لكذلك إذ أشرق أمام بصـيرتى نور خلتُه منبعثا من هـذه الكعبة المشرقة القائمة أمامى وخلتُنى أقرأ خلال هذا النور وأحدِّث نفسى بمـا يلى : —

" الآن أدركت لمـاذا حرّم الله مكة وجعلها مدينة السـلام لا يحل فيها القتل والغزو والأسر، ولا يحل فيها سفك الدم ولا التعرّض لصيدها أو نباتها أو حيوانها؛ وأدركت لمـاذا قال عليه الصلاة والسلام وهو يخطب النـاس يوم الفتح : " إن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهى حرام من حرام من حرام الى يوم القيامة؛ لا يحلّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفِك فيها دماً أو يعضِد فيهـا شجرا "، ذلك بأنها رمز التوحيد وبيتها هيكله . والتوحيد سلام لذاته؛ ولا سلام إلا أن يُجمع النـاس على الإيمـان به . فأمّا التعدُّد فتنافس ولو فى الخير . والتنافس نضال ، والنضال حرب . فاذا جاز لبلد فى العالم إذًا أن يكون مدينة السلام فذلك مدينة التوحيد . بالتوحيد تتوجه الإنسانية كلها الى وجه واحد هو وجه الله جلّ شأنه . فاذا صـدقت فى توجهها إليه تحابّ بنوها وسَمَوْا بالحب فوق المنافسات وما تجـر إليه المنافسات من حقد وبغضاء وتحاسد ، وبرأوا ممـا تدفع هذه العواطف الدنيا إليه من تنابز بالإلقاب وتكاثر بالأموال وتسابق الى الجاه والسلطان . وكيف يهوِى الى هذا الدرك من يبغى وجه الله وحده، ومن يجعـل تقوى الواحد الأحد رداءه فى أعماله وأقواله ودخائل نفسه! . وكيف يهوى الى هذا الدرك من يكمل إيمانه فيحب لأخيـه ما يحب لنفسه! وكيف لا تسمو الإنسانية الى مقام الحب والسـلام اذا آمنت بالتوحيـد وجعلته سُنَّتها وجعلت بيت الله رمز التوحيد قِبْلَتها! . ألَا ما أبلغ

هـذه العبارةَ التى يردّدها الإنسان من أعماق قلبـه أوّل ما يدخل الحرم و يستقبل الكعبة لطواف القدوم : " ربّنا منك السلام واليك السلام فحيّنا ربّنا بالسلام". ما أبلغ هذه العبارة وما أعمق معناها وما أعظمها سموًّا لقوم يعقلون! . اللّهم هُداكَ خَلقَك وزدنى تثبيتا وإيمـانا ! "

وانطلقتُ أفكر بعـد أن أتممت هـذا الحديث النفسىّ : لقـد أفضيت أوّل ما نزلت بالبلد الحرام الى وزير المـالية والى الملك ابن السعود برأيي أن تكون مكة مقرًّا لعصبة الأمم الإسلامية . وهذا واجب تقضى به حياة المسلمين فى عالَم اليوم. ولكن ! ترى لو أن الإنسانية كلها التمست يوما مقرًّا لعصبة السـلام ، أفتجد خيرا من مكة بلدا ليكون هـذا المقرّ ؟ لقد اختارت عصبة الأمم الأوربية چنيف من أعمـال سويسرا مقرّا لهـا ، لأن سويسرا محايدة . ولقـد طمعت عصبة الأمم الأوربية فى أن تُقرّ السـلام فيما بينها عن طريق التفاهم فى چنيف وإن لم تفـز بإقرار السلام فى ربوع العالم مما وراء أوربا ، إلا أن يهدّد اضطراب السـلام مصـالح هذه الأمم الأوربية . ولقد بذلت الدول المشتركة فى العصبة جهودا كبيرة فى سبيل السـلام ، فقرّرت وسائله فى عهد العصـبة وفى ميثاق التحكيم وفى محكمة العـدل الدوليّة ، وحاولت أن تجعـل من التفاهم المشترك بينها جميعا حينا ، ومن التفاهم الثنائى حينا آخر، سببا للاحتفاظ بالسلام . مع ذلك ذهبت جهودها هدرا ، وباءت من مقاصدها السلميّة بالخيبـة ، وارتدّت إلى سـياسة التسلّح والسلام المسلّح ، وإلى النظـرية القائلة بأنّ الاستعداد للحرب يمنع الحرب . ارتدّت الى هذه السياسة طوعا أو كرها وهى تعلم أنها سياسة كاذبة خاطئة . فلماذا؟ لأن فكرة السـلام ليست قائمة فى أنفس بنيها وساسـتها على أساس من الإيمـان بالسلام، وليست تصل السـلام بمبدأ أسمى يكون من أمر الله وسنّته فى الكون، ويجعـل السلام غرض الإنسانية فى توجّهها الى الكمال . إنمـا تحركت النفوس فى أوربا الى السلام رَهَبًا من أهوال الحرب، وفزعا ممـا تجنى الحرب على المصالح المـادّية،

اقتصادية ومالية . وأهوال الحرب تُنسيها مُتَعُ السلم . وكما تجنى الحرب على المنافع المادّية فالحرب تحقق هذه المنافع وتشحذ النفوس إلى طلب المزيد منها . طبيعىٌّ إذًا أن تخفق سياسة السلام اذا قامت على هذا الأساس . وإنما تنجح هذه السياسة وتستقر يوم تُجمع الإنسانية على التوحيد ويكمل إيمانها به ، ثم يكون الأساس لكمال هذا الايمان أن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يذكر الناس جميعا أن سعادتهم فى إيمانهم الحق بالله ، وأن يكون ذكرهم هذه الحقيقة عن علم ويقين ، لا عن ترويج ودعاية غايتهما تحكُّم طائفة فى طائفة أو استعلاء قوم على آخرين .

يوم تُجمع الإنسانية على هذا مؤمنة بأنه من أمر الله ، ويوم تؤوب به الى الله من خطاياها ، يومئذ تتم كلمة الله ويكون الدين كله لله ، ويؤمئذ تكون مكة ، رمزُ التوحيد ومقامُ هيكله ، مثابةَ الناس قاطبةً من أمم الأرض جميعا ، فتكون بذلك مقرّ السلام المطمئن طمأنينة الإيمان ، ومقرّ عصبة الأمم الإنسانية كلها .

تاقت نفسى حين بلغت من تفكيرى هذا المبلغ أن أقوم فأطوف بالبيت كرّةً أخرى شكرا لله وحمدا ، واستعانةً إياه على مزيد من الهدى وعلى معرفة الحقيقة من كل جوانبها لعلها أن تنكشف لى كاملة فأستطيع بعونه أن أحدّق بنورها وأن أبلُغ الرضا بالنهل من باهر ضيائها . وطوّقت ثغرى ابتسامة سعيدة حين هممت أن أفعل . فقد كنت أسأل نفسى عن الطواف ما حكمتُه ، فأقف عند قول بعضهم : إنما الحج ومناسكه أمور تعبُّدية تغيب عنا حكمتها ولا سبيل للعقل الى فهمها . لشدّ ما يخطئ أصحاب هذا القول ! . فنحن إنما نطوف بهيكل التوحيد لنرى حقيقة التوحيد من كل جوانبها . صحيح أن هذا الهيكل رمز وأن جوانبه كلها تتشابه . لكنا لا نستطيع أن نواجه الحقيقة لذاتها قبل أن نرى رمزها ، ولا نستطيع أن نحيط بها كاملة دون أن نطوف بها من كل جوانبها . فاذا فعلنا أتيح لنا أن نبلُغ لُبابها وصميمها ، كما أن الحاجّ لا يدخل الكعبة قبل أن يطوف بها ؛ فالطواف إذًا طريق الإحاطة بالحقيقة العليا التى يقوم البيت العتيق رمزًا لها وعَلَماً عليها .

على هذا النحو فكرت فى أمر الطواف وحكمته، وإن لم أر شيئا من مثله فيما قرأت من الكتب . ولعلى لا أجد فيها شيئا يُشبهه إلا أن يكون ذلك فى كتب الفلاسفة والمتصوّفة ومن اليهم ممن يرون الفكرة حقيقة ملموسة ؛ بل يرونها وحدها الحقيقة الملموسة دون سواها . فأما المادّة وأطوارها ومظاهرها فإلى مَوْرٍ دائم واستحالات متصلة لا يقرّ لها معها قرار . ونحن نعيش فى بيئة من المادة ، فنحن متأثرون بها وبأطوارها ، وتفكيرنا متصل بما حولنا منها اتصالا يحول بين الأكثرين والتجرُّد للسموّ الى ما فوق هذه البيئة التى تجعلنا نرى الأشياء فى ضوئها وبالنسبة لها، ولا نرى الحقائق الخالدة مما وراءها . ولئن كشف العلم اليوم عن حقيقة قرّرها القرآن وكرّرها وهى أن سُنَنَ الكون ثابتة وأنك لن تجد لسنّة الله تبديلا ولن تجد لسنّته تحويلا، لقد بقى التفكير الإنسانى متأثرا بنسبيّة البيئة المادّية تأثرًا لا يسهل التخلص منه والسموّ عليه . والأقلّون الذين يستطيعون هذا السموّ ممن عالجوه فى الماضى لم يعالجوه على طريقتنا العلمية الحديثة التى تقرّب الحقيقة الى العقل وإن دقّت واستعصت، بل على طريقة ذاتيّة فيها التجرُّد وفيها بلوغ مراتب الإشراق الروحى مما لا يتيسّر للجموع دَرَكُه . ولو أنّ طرائقنا العلمية استطاعت أن تقرِّب الحقائق التجريدية الى الأذهان على نحو من الثبوت يصوِّر الأمور المجرّدة للحس، كما قرّب الأثير الى الذهن وحدة المكان عن طريق الإذاعة، إذًا لهان أن يبلغ مجموع الإنسانية من إدراك الحقيقة العليا والحقائق المتصلة بها ما لم يصل الى إدراكه فى الماضى، وما كان وَقْفًا على طوائف قليلة من المثقّفين، بل على أفراد معدودين من هذه الطوائف .

أمّا والطوافُ رمزٌ للإحاطة بالتوحيد ابتغاء الوصول الى لُبّه ، أمّا وللتوحيد بوصفه عقيدةً ما رأيت من أثر فى حياة الإنسانية وسعادتها وسلامها ، فللطواف وهو ركن من أركان الحج حكمةٌ بالغة .

والطواف الواجب طواف العمرة، وهو طواف القدوم، وطواف الحج وطواف الإفاضة . ويجمع بعضهم بين طواف الإفاضة هذا وطواف الوداع . ذلك بأن

طواف الإفاضة لا موعد له بعد عرفة ومنًى . فمن الناس من يقوم به يوم النحر كما فعلت ، ومنهم من يُرجئه الى ما بعد أيام النحر . ولقد طاف النبي - طواف العمرة وطواف الإفاضة وطواف الوداع فى حِجّة الوداع ، فكانت هذه أسوة ثابتة يجرى عليها المسلمون يؤدّون بها الركن والواجب والسنّة . بل إنهم ليطوفون بالبيت طول مُقامهم بمكة ماستطاعوا الطواف ؛ فهم يطوفون قبل كل صلاة من الصلوات الخمس ، وهم يطوفون كلما دخلوا المسجد ، ويطوفون وهم فى المسجد مرات عدّة قبل الصلاة وبعدها . ولا عجب أن يفعلوا وقد رأى ابن بطوطة حين وجوده بمكة وزير غِرْناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الأزدى - يطوف كل يوم سبعين مرة .

خرجت من المسجد بعد طواف الوداع وبعد أن دعوت الله أثناءه أن يكتب لى العودة الى بلده الحرام والطواف ببيته العتيق ، أُعِدّ العدّة للخروج من مكة الى المدينة ، وأودّع بعد البيت أصدقاء كانوا أثناء مقامى عندهم خير ما أرجو كرَمَ ضيافة وحُسْنَ لُقْيَا ودوامَ تأهيل وترحيب ، كما كان الكثيرون منهم نعم العونُ لى فى بحوثى ، بما أسدى بعضهم من معلومات ، وما أهدى بعضهم من كتب ، وما أرشد اليه بعضهم من مصادر .

وقد ودّعتهم وودّعت مكة راجياً أن يكتب الله لى العودة اليها راضى النفس مطمئن القلب سعيدا أن فتح الله لى أثناء المقام بها آفاقا من الشعور والتفكير ما كان أحوجنى الى أن تنفتح أمامى لأرى من خلالها هذا العالم العظيم الجليل : عالم الحقيقة والرضا .

طريق المدينة

خرجت إذًا من مكة عصر يوم الاثنين الثالث والعشرين من شهر مارس بعد أن ودّعني بدار مُضيفي من أنِست اليهم وأنِسوا إلىّ من شباب مكة . وصحبنا مضيفي في السيّارة الى دار وزير المالية بجَرْوَل . واستقبلنا الشيخ عبد الله سليمان بترحاب وزوّدني بعد القهوة بخطابات من جلالة الملك الى أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم وإلى أمير خَيْبَر ليعاوناني فيما أُريد أن أقوم به من مباحث ، وأهدى إلىّ ساعةً ذهبية عليها اسم جلالة الملك ابن السعود ، وستارًا من كسوة الكعبة ؛ وخرج يصحبني ويصحب الشيخ عباس قطّان الى باب الدار . فلما أردت أن أستأذنه مودّعا وأشكره على جميل ضيافته ألفيته يشير إلىّ كي أركب معه سيّارته . ولقد تأثرت نفسي لهذا التلطُّف غاية التأثر ، وذكرت إذ ذاك هذا البيت الذي تمثّل به الشيخ محمد صالح القزّاز ساعة وصلنا الطائف :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا * نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وأبديت ما خالج فؤادي من عرفان الجميل لوزير المالية ، فردّ تحياتي بأحسن منها في لسان عربيّ بدويّ وقع من نفسي أبلغ موقع . وأقلّتنا سيّارته حتى جاوزنا أبواب مكة . هنالك نزلت منها وكرّرت آي الشكر له ولمضيفي الشيخ عباس قطّان ، وركبت سيّارتي مع والدتي والشيخ عبد الحميد حديدي ومطوّفنا الشيخ إبراهيم النُّوريّ . فلما بلغنا الشِّميسي وقفت السيّارة أمام فُنْدُقها ، وألفينا عنده جماعة من أصدقائي شبّان مكة ، كانوا قد سبقوني ليودّعوني على حدود موطنهم بالمدينة المقدّسة . وبعد أن تبادلنا التحية والشكر كرُّوا بسيّاراتهم راجعين الى مكة ، وعادت السيّارة تجري بنا في الطريق صوب جُدّة . لكننا ما نزال في وضح النهار . وهذه الشميسي هي الحُدَيْبِية حيث كانت بيعة الرضوان وحيث عقد الرسول أوّل عهد له مع قريش ، فنزل فيه الوحي بسورة الفتح . ولقد حال الجهد وتقدُّم الليل

والشوق الى دخول مكة دون وقوفى عندها يوم نزلت الحجاز . أمّا وفى مقدورى الآن أن أنزل بها وأقف عندها فهذه فرصة لن أُضيعها .

ولم يثنى عن ذلك ما قرأته أثناء وجودى بمكة فى (شفاء الغرام) للفاسى من أن مسجد الشجرة والحديبية لا يعرفان الآن . فلو أنّ مثل هذا القول صدّنى عن الوقوف عند أثر مأثور لولّيت وجهى عن الآثار المأثورة جميعا فيما خلا الحرم وحراء وثورا . لذلك نزلت بعد قليل من مغادرة السيّارة فُنْدُق الشّميسى قُبالة مسجد الرضوان فإذا هو مشيّد من حجر أزرق متين على طراز مساجد مكة ؛ لكن متانته وحسن عمارته يجعلانه يبدو للنظر أكثر اتصالا بالحياة منها . وهو أفسح رقعة من أكثرها ؛ لذلك قامت به ثلاثة عقود وضعت فوقها البواكى لتمسك سقفه . ومحرابه أدقّ فنًّا من محاريب تلك المساجد . ولا عجب فى ذلك وبناؤه لا يرجع الى أكثر من مائة سنة بشهادة ما نُقِش بأعلى هذا المحراب مما نقلته فى فصل (ظاهر مكة) .

والمشهور على رغم ما يقوله الفاسى أنّ هذا المسجد يقوم فى الموضع الذى كانت تقوم فيه شجرة الرضوان ؛ وهى الشجرة التى نزل فيها قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِىَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً » . ولم تبق هذه الشجرة فى موضعها بعد وفاة الرسول إلى أكثر من عهد عمر بن الخطاب حين خشى أن يتخذها المسلمون إلى الله زلفى كما كان يفعل الجاهليّون بأصنامهم ، فأمر بقطعها .

ولنزول هذه الآية فى المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة سمّيت البيعة بيعة الرضوان والشجرة شجرة الرضوان . ولا عجب أن يخشى عمر تقديس المسلمين هذه الشجرة . فقد كانت بيعة الرضوان من أروع ما عرفه التاريخ فى سيرة الرسول عليه السلام . ولقد تمثّل لى هذا المشهد فى كل روعته وأنا بموقفى فوق الهَضْبة التى قام المسجد عليها ، فازددت له إكبارا وبه إعجابا . فهاهو ذا محمد على رأس المسلمين قد خرجوا

جميعا من المدينـــة مُحرمين لا يحمل أحدٌ منهم سلاحا إلا ما يحمل المسافر من سـيف مغمد . وها هم أولاء قد انطلقوا فى طريق مكة يُلَبُّون وقد ساقوا الهَدْىَ أمامهـم سبعين بَدَنةً بعد أن مازوا جوانبها اليمنى . انظر اليهم . لقد قطعوا البيداء حتى بلغوا عُسْفان ، وهـذا رجل يجيب الرسول إذ سأله عن أنبـاء قريش : "قد سمعـوا بمسيرك فخرجوا معهم العُوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور ونزلوا بذى طُوًى يعاهدون الله لا تدخلُها عليهم أبدا . وهـذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدّموها الى كُرَاع الغَمِيم" ؛ ويعجب الرسول لأمر قريش ويقول : "ياويح قريش ! لقد أهلكتهم الحرب . ماذا عليهـم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب . فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسـلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهـم قوة . فما تظنّ قريش ! فوالله لا أزال أُجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة"[1] . إنه الآن يرى فرسان مكة على مرمى النظر فينادى فى الناس : "مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها" ؛ وهو يفعل إيمـاناً منه بحرمة مكة مدينة السلام وحرصًا منـه لذلك على أن يدخلها معتمرا لا مقاتلا . ويخرج رجل من المسلمين فيسلُك بهم طريقا وعرًا بين شعاب مُضنية حتى يبلغ بهم سهلا عند منقطع الوادى ، ثم يخرج بهم على ثنية المُرَار مَهْبِط الحُدَيْبية من أسفل مكة .

والان ماذا أرى ؟ لقـد كان ما شهدت حتى الساعة أدنى الى صورة ترتسم أمام الخيال ثم تتجسّم وتدبّ فيها حياة كحياة صور السينما . أمّا الآن ، فإننى أرى ! نعم ! أرى بعينى ، وأسمع بأذنى ، ويهـتز كل وجودى لمـا أرى وأسمع . فهؤلاء ألفان من المسـلمين مُقبلين علىّ وأنا بموقفى من هَضْبة الحُدَيبيـة ، محرمين كلهم ، يلبّون كلهـم ، وعلى رأسهم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ممتطيا ناقتـه القَصْواء يتقدّمهم ومن فوقه غمامة تظلّه . رُحْماك ربّى ! ماذا عسى أن أصنع ؟ أأتقـدّم

---

(١) السالفة : صفحة العنق ؛ وانفرادها كناية عن الموت .

من هذه الناقة وأمسك بخطامها وألتمس من الرسول الكريم دعوة صالحة تشفع لى عند ربى؟ أأجثو أمامه ضارعا اليه أن يبارك علىّ؟ أأسرع الى قدمه فأمسك بها وأوسعها تقبيلا؟ جالت هذه الخواطر برأسى وأنا مضطرب النفس شارد اللب لا أكاد أعِي أين أنا ، ولا مَنْ أنا ؛ ثم استجمعت كل قوّتى ورفعت بصرى فحدّقت فى معالم هذا الوجه، فإذا نور ينبعث من عينيه الوضّاءتين، وابتسامة عذبة راضية تطوّق ثغره الجميل ، واذا أذناى تسمع فى وضوح وجلاء : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ ؛ واذا هو يلتفت الىّ ويقول ما كان يقوله لأصحابه إذ يقومون حين يقدَم عليهم : "لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضا، ولا تُطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسوله" ؛ واذا أصحابه من حوله ينظرون اليه نظرة حب وإجلال وتقديس وإكبار ، لكنها نظرة أخوّة خالية من كل عبودية ، ونظرة إسلام لله وما يوحيه الى عبده ورسوله . لا ترى على سيما أحدهم مذلّة ولا تلمح فى نظر الذين ينظرون إلى النبيّ وجلا أو خوفا ، بل ترى محبة دونها كل محبة ؛ لا يتوضّأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وهم يتسابقون الى ذلك أمامه كما يتسابق الأبناء البَرَرة الى محبة أبيهم البَرّ الرحيم . هم إذًا لا يقبّلون قدمه ، ولا يفعلون شيئا مما يفعل الأعاجم الذين اعتادوا النظر الى كِسْرَى والى عمّاله كأنهم آلهة الشر يخشونهم كخشية الله أو أشدّ خشية ، بل يحبونه كما يحب أحدهم نفسه وأهله ، وأكثر مما يحب نفسه وأهله . هنا لك تراجعتُ ووقفت أحدّق فى هذا الجمع حول الرسول وأنتظر ما عساهم يصنعون .

وبدت آيات الغضب على سِيما بعضهم والتفكير فى منازلة قريش حتى يحكم الله بينها وبينهم . أمّا الرسول فاستمسك بخُطّة السلم والجنوح عن القتال إلا أن تهاجمه قريش وتستبيح حرمة مدينة السلام . وتُرسل قريش رسلَها فيحاولون صرف المسلمين بالحسنى عن دخول مكة ، ثم يعودون وقد رأوا بأعينهم أنّ المسلمين إنما

جاءوا زائرين للبيت معظّمين لحرمته، ثم يحاولون إقناع قريش بأن يُخَلُّوا بين هؤلاء المسلمين والبيت العتيق. ولم ترض قريش رأى رسلها. فبعث محمد إليها برسول من عنده، فأساءت إليه وعقرت بعيره. ولم ييأس محمد مما صنعوا، فبعث إليهم عثمان ابن عفان يفاوضهم. وطال احتباس عثمان عن المسلمين، فظنوا أن قريشا غدرت به فى الشهر الحرام عند المسلمين وعند العرب جميعا. ودخل فى رُوع النبىّ ما دار بأخلاد القوم جميعا فقال: "لا نبرح حتى نناجز القوم". ونادى فيهم ليبايعوه على ذلك. أُنظر! إنهم يتزاحفون إليه يريد كل أن يسبق صاحبه إلى البيعة. لقد امتلأت نفوسهم حماسة ونظراتهم حدّة وعزما، وهو واقف تحت الشجرة يتلقّ بيعتهم مغتبط النفس مطمئن القلب مما يرى. هاهم أولاء فرغوا من البيعة، وها هو ذا يضرب بإحدى يديه على اليد الأخرى بيعةً لعثمان كأنه حاضر معهم. والآن انصرف القوم ينظّمون صفوفهم ويُعِدّون للقتال عُدّتهم. يا لهم من جنود بواسل فى سبيل الله! ما أعذب ابتسامة أبى بكر! وما أحدَّ نظرة عمر! . ما هذا؟ إنهم يحدّقون إلى ناحية مكة كأنما يريدون أن يحرقوا أهلها بلهب نظراتهم. أم تراهم يلمحون عند الأفق شيئا أو شبحا؟ نعم! إنه رجل ... إنه عثمان بن عفّان مقبلا. لم تقتله قريش إذًا؛ بل هو يبلِّغ للنبىّ رسالتهم أنهم أيقنوا أنه وأصحابه إنما جاءوا حاجّين معظّمين للبيت، وأنهم لا يملكون منع أحد من العرب عن الحج والعمرة فى الأشهُر الحُرُم. لكن ماحدث من مناوشات بينهم وبينه يجعل العرب تتحدّث إذا خلّت قريش بينه وبين مكة بأن قريشا انهزموا أمامه؛ وفى هذا من تهوين أمرهم فى نظر العرب مالا طاقة لهم باحتماله. فليرجع المسلمون هذا العامَ وليعودوا عامهم المقبل، فلن تحول قريش بينهم وبين البيت.

ويرضى النبىّ عن سِفارة عثمان، وتوفد قريش سُهَيْل بن عمرو للمفاوضة وتدوين شروط الصلح. وتقع محادثات طويلة يغيظ بعضَ المسلمين أمرُها، ويبلغ من ذلك أن يقول عمر بن الخطاب لأبى بكر: "عَلامَ نُعطى الدنيّة فى ديننا!" ويجيبه

أبو بكر: "ياعمر الزم غرزك! فإنى أشهد أنه رسول الله". ويجيب عمر: "وأنا أشهد أنه رسول الله" وهو لا يرضى عما يرى. ويتم عهد الحديبية ويوقعه الرسول ويعود المسلمون منصرفين إلى المدينة وأكثرهم لهذا الصلح كارهون. وإنهم لفى طريقهم إذ نزل الوحى على الرسول يقول الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ إلى آخر سورة الفتح؛ وفيها يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. ويقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا. لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ، يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وسمع المسلمون إلى كلام الله فى سورة الفتح فاطمأنوا ورضُوا وذهب عن الغاضبين منهم الغضب، وعادوا إلى المدينة ينظرون اليوم الذى يعودون فيه إلى مكة العامَ المقبل.

لا عجبَ، وذلك ما حدث، أن يخشى عمر تقديس المسلمين شجرة الرضوان تقديسا يبلُغ عبادتَها وأن يأمر لذلك بقطعها. وماله لا يفعل وهو الذى قال وهو

يقبّـل الحجر الأسـود بالكعبة : " أنا أعلم أنك حجر لا تضرّ ولا تنفع . ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلك ماقبّلتك " ! وهو الذى لم يرض أن تُجمع أحاديث الرسول وسنّته اكتفاء بكتاب الله ، وهو الذى أراد أن يظلّ الإسـلام لله مطهّرا ، مظهره الإيمـان العقلى المبرأ من كل مظهر من مظاهر الوثنية ! .

وآن لنا أن نعود إلى السيّارة فى طريقنا الى جدّة . ولقد بلغناها والليـل ساج والأماكن القليـلة التى تضيئها الكهرباء هى وحدها المنيرة وسط الدُّجُنّـة المنتشرة لا يهوّن منهـا ضوء مصابيح الطرقات إلا قليلا . ولقينا أصحابنا المصريون بجُدّة ، ودعانى قنصـل مصر لتناول طعام العشاء عنـده مع جماعة أزمعوا ركوب البحر فى غدهم الى أرض الوطن . وأقمت لحظة عند صاحب الدعوة ، وغادرته الى منزل الشيخ عبـد الله سليمان بجدّة حيث تركت متاعى وعرفت مكان نومى ثم عدت إلى بنى وطنى وأنا مشوق أىّ شوق للقياهم . وتحدّثنا وتناولنا طعام العشاء ، ثم جلسنا نسمع الإذاعة من مصر ونلتمس فى مُوسيقيها وفى أغانى المغنّين من بنيهـا وبناتها النشوة والطرب . فالإذاعة محرّم سماعها بمكة لأن مذهب ابن عبد الوهاب يحرّم الطرب ، فلا أقلّ من أن يحرّمه الوهابيون فى الحرمين . أمّا جدّة فرفقاً يباح للناس من كل الأديان أن ينزلوا به ، فلا تثريب عليهم أن يسمعوا الإذاعة من مصر ومن باريس ومن لنـدن ومن حيث شاءوا . هـذا تصوّر قد يبدو عجيبا لأولى المنطق . فالحرام حرام حيث كان ، والحلال حلال حيث كان . لكن المنطق يجب أن يتّسع لمناطق الشك وأن يعتبرها حرما آمنا تتجاور فيه الحرمات . وجُدّة ومرافئ الحجاز كلها من مناطق الشك حيث تتجاور حرمات الشرق وحرمات الغرب ، وحرمات الله وحرمات حضارة هـذا الجيل ؛ فليتجاور فيهـا طرب المِذْياع الذى يسمعه النـاس جميعا مع الطرب المستور بين الجدران والطرب الحلال عند أهـل نجـد ؛ وليتسامح أهل هـذا الطرب وأهل ذاك . فالتسامح وحده سبيل اليسر فى عيش الجماعة .

وفى بكرة الصباح أقلّتنا السيّارة وتبعها "البُكس" نخرجا من جدّة فى طريق المدينة . وسألت صاحبي: أين نلتق بطريق القوافل الذاهبة من مكة ؟ فقال : إنما نلتق بها عند القَضِيمة بعد أن تتخطى القوافل وادى فاطمة فعُسْفان اليها . وسألت : أللمدينةِ طريق غيرهذه التى نسلكها اليوم وتسلكها القوافل؟ فعلمت أن لها طرقا أربعا : هذه التى نسلكها وتسمى الطريق السلطانى، والطريق الفرعى، وطريق الغابِر، والطريق الشرقى. وإنما غايتى من هذا السؤال أن أعرف الطريق التى سلكها الرسول فى هجرته ، وفى عمرته ، وفى فتح مكة . قال صاحبي : ليس التحديد الدقيق يسيرا ؛ فهذه الطرق تختلط بعضها ببعض كما تختلط طريق السيّارة وطريق القوافل؛ ومن اليسير على من شاء أن يعدل عن أى الطريقين الى الأخرى أثناء سيره . وسترى من أسماء الأماكن التى تمرّ بها ما تستطيع معه أن تعيّن ما مرّ به الرسول عليه السلام منها .

كانت السيّارة تنطلق مسرعة فوق أرض رملية خطتها دروب من عجل السيّارات التى تجرى طول أشهر الحج فيها . وإلى يميننا امتدّت الرمال الى الأفق فما تقف دون النظر هضبة ولا قمّة . وامتدّ البحر الأحمر عن يسارنا مطمئنا هادئ الموج يحول البعد عنه بيننا وبين صريف أمواجه . وحاذينا مَحَلّة قال صاحبي إنها الكراع فيما يسمونه اليوم، وكُرَاع الغَمِيم على عهد الرسول . هاهنا إذًا وقف فرسان مكة وعلى رأسهم خالد بن الوليد عام الحُديبية، ومن هنا اتّجه النبيّ على رأس أصحابه الى طريق الحديبية اتّقاء الالتقاء بخالد وجيشه حتى لايقاتل المسلمون وهم مُحرمون بعُمْرة . لكنا لم نبلغ القَضِيمة بعدُ . أفكانت الطريق على عهد الرسول غير الطريق اليوم؟ أم أن خالدا وفرسانه أرادوا أن يحصروا محمدا وأصحابه بينهم وبين مكة؟ . أغلَبُ الظن أن تكون الطريق قد تغيّرت إن صح ان هذه الكراع كُراع الغميم . فقد نادى الرسول فى أصحابه حين رأوا فرسان قريش : "مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريق غيرطريقهم التى هم بها". وقد سلك المسلمون الى الحديبية طريق ثنيّة المُرَار

فوجدوا فى سلوكها جهـدا ومشقة . هم إذاً خرجوا من الطريق المألوفة لهم والتى لم تصبح طريق القوافل فى يومنا الحاضر .

وتخطّينا بعد الكراع دَهبان ثم تُوَل وبلغنا القَضِيمة، وكنا أثناء ذلك على مقربة من الشاطئ لا يكاد يغيب عنا . وأغرانى ذلك بالسؤال عن القُدَيْد أين هى ؟ فالقُدَيْد فى نبأ هجرة الرسـول ذكر وأثر . عندها أدرك سُرَاقة بن جُعْشُم محمدا وأبا بكر ليعـود بهما الى مكة أسـيرين أو يقتلهما فيفوز فى الحالين بالإبل المـائة التى جعلتها قريش لمن يردّ محمدا إلى مكة حيّـا أو ميتا بعد فراره منها و إخفاق فتيانها فى العثور عليه . وعندها كبا جواد سراقة بفارسه كبوةً عنيفة طرحت الفارس أرضًا وجعلتـه يتطيّر ويؤمن بأن الآلهة مانعة منـه ضالّته . هنالك وقف ونادى المهاجرَ العظيمَ وصاحبـه : " أنا سراقة بن جُعْشُم . أنظرونى أكلّمكم ، فوالله لا أريبـكم ولا يأتيكم منى شىءٌ تكرهونه " . وطلب الى محمد فأمر أبا بكر فكتب له كتابا يكون آية بينه و بين النبيّ . وأخذ سُراقة الكتاب وعاد أدراجَه، وجعل يضلّل الذين يطاردون محمدا وصاحبه كيلا يلحق بهما منهم أحد .

وزاد فى إغرائى ما ذكره الأزرقىّ عن القُدَيْد عند كلامه عن مَنَاة صنم الأزد وغسّان . فقد ذكر أن عمرو بن لُحَىٍّ نصب مَنَاة على ساحل البحر ممـا يلى قُدَيدا . وقد أثبتت الخرائط قُدَيْدًا على مقربة من عُسْفان . على أن صاحبى لم يجد ما يجيبنى به، مما دلّنى على أن قُدَيْدا ليست معروفة عند أهل الحجاز من معاصرينا . هذا على أنهم أكثر الناس تعليقا على سيرة الرسول، حتى لتراهم يضيفون إليها مالم يرد فى رواية ولا كتاب . وتفسير إغضائهم عن قُدَيْد وغيرها من الأماكن المتصلة بالسِّيرة أن هذه الأماكن ليست مواضع لزيارة الحجاج وتبرّكهم ، فهى لا تدرّ أخلافُها من الرزق ما يدعو أهل الحجاز الى تحقيق أمرها و إضافة الروايات والأحاديث اليها .

انطلقت السيّارة من القَضِيمة ميممة رابغا بعد وقفة يسيرة فى (مُقْهًى) تناولنا فيه الشاى والقهوة، وانطلقت فى سرعة دونها سرعة البرق، لأن مياه البحر تغمر رمال

الشاطئ فى هذه المنطقة فتجعله صُلْباً صلابة الأسفلت ، وتجعله تحت عجل السيّارة أكثر ليناً ونعومة . ولولا أماكن فى الطريق بَعُدَ ما بينها و بين الشاطئ فلم يكسبها تسرّب المـاء اليها ما أكسب الرمالَ القريبة منه من تماسك وصلابة ، ولولا أماكن أخرى تعاون السيلُ والسيّارات الثقيلة فيها فقلبا رمالها ظهراً لبطن ، إذاً لبلغنا رابغا من القضيمة فيما دون الساعتين . لكن هــذه الأماكن المتقطعة فى الطريق كانت تضطر السائق ليسير الهُوَيْنَى بين حين وآخر ، فاذا استوى الى أرض صُــلبة أطلق لعجلات السيارة العنان فانطلقت تسبق الريح وتذرها وراءها تصفر من شدّة الغيظ . ولولا هذه الأماكن المتقطعة لـما أملّنا جدبُ الطريق ، جدب لا تقع العين فيه على شيء يلفت النظر . لكن هــذه الأماكن المضطربة بالرمال المتقلّبة ، وهذا الجدب الممحل الذى يمــل النظر ، جعلانا نشعر إذ نبلغ رابغا بحاجة الى الراحة لا تقل عن حاجتنا الى الطعام .

وزاد فى سأمنا الطريقَ منظر كان يتكرر كلما هوّن السائق الســير ووقف ليرى ما يصنع بالرمال المحيطة بعجلات السيّارة . ذلك منظر المتسوّلين من أهل البلاد . فهم يُعَدّون بالمئات و بالألوف ، بل هم يخطئهم العدّ . وأنت ترى الطريق خاليا منهم ، حتى اذا هدأ سير السيارة رأيتهم نبتوا على جانبيها ، وماتدرى أأنبتتهم الأرض أم قذفت بهم الهضاب من أعاليهـا كما تحط السيولُ الأحجار من القمم العاليــة . ومنظر هؤلاء المتسولين قلّ أن يُثـير فى النفس عاطفة الرحمــة ، و إن كانوا يجيئون اليك عُراة أغلبَ أمرهم ليس عليهم لباس إلا ما يستر العورة . فأمّا النساء والبنات فيتقدّمن كاسيات ولكنهن لسن دون الرجال والشبان إلحافًا ومسألة . وهم يُقبلون على السيّارة تسابقها سـيقانهم الدقيقة وقد مدّوا أيديهــم يصيحون : " يا حاجّ . يا بو يا . هلله . وحيـاة النبي . بالسلامة " الى آخر الأنشودة التى حفظوها على كر السنين عن ظهر قلب ، يتوارثها الأبنـاء عن الآباء ، والحَفَدة عن الأجداد . ولولا أن الحجـاج ، والحاجّات بنوع خاص ، يشـعرون بأن الإحسان الى هؤلاء

المتسوّلين من تمام الحج ، وأن فيه استجابة لقوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾، لرغب أكثرهم عن بذل الصدقة لهؤلاء المتسوّلين ، وأكثرهم أصحّاء مفتولو العَضَل أقوياء البنية، وأكثرهم يرى هذا التسوُّل صناعة مباحة للارتزاق ، ويرى فرضا على هؤلاء الحجاج أن يُحسنوا ويعطوهم . وإذا كان شيء فى هذه الظاهرة النفسية يثير الإشفاق فليس ذلك ما عليه هؤلاء المتسوّلون من فقر لا يعلم أحد مداه، بل ما هم عليه من جهل وتَدَنٍّ فى مراتب الإنسانية الى حضيض ما أجدر القائمين بالأمر فى الحجاز أن ينزّهوا أهل الحجاز عنه، سموًّا بالإنسانية عن المذلّة، وبالإسلام عن الهوان .

فهؤلاء المتسوّلون إنما هم بعدُ من بنى الإنسان، وهم بعد مسلمون . والإسلام يأبى على بنى الإنسان أن يبلغ التفاوت بينهم حتى يكون أحدهم حيوانا أو دون الحيوان مكانة ، فى حين ينعم الآخر بِلَهْنِية العيش ومُتَع الحياة وبأسباب التّرَف جميعا . وهؤلاء المتسوّلون دون الحيوان فى تصوُّرهم الحياةَ وفى إدراكهم ما حولهم، أقبل أحدهم يلهث نحو حاجّ ويقول مستجديا : "وحياة النبيّ" . فسأله الحاجّ: ما اسم النبيّ؟ فبُهت السائل فى بلَهٍ ولم يُحِرْ جوابا . هو إنما يكرر كلمتين — وحياة النبي — تكرارا آليًّا كما يكررها الببغاء أو "الفونوغراف" دون أن يعرف لهما معنى أو مدلولا؛ وهو يجرى سائلا يلتمس القوت كما يلتمسه الكلب، وقد كان صاحبه قاطعُ الطريق يجرى قبل عهد الوهابيين يلتمس القوت نَهْبًا كما يلتمسه الذئب . بل لعل هذا السائل أحط فى قدر الإنسانية من المجرم إن جاز أن تعقد مثل هذه الموازنة . فالمجرم حيوان مفترس ، والمتسوِّل حيوان مَهين . فاذا هما تساويا فى الحيوانية فالمفترس لا ريب خير مكانًا من الذليل المهين .

وأحسب هذه المراتب الإنسانية الدنيا منتشرة هاهنا حيث الجهل ضارب أطنابَه . لقد سمعنا جميعا اسم رَضْوَى يتكرر فى الشعر العربيّ القديم . ولا يزال الكثيرون منا يتغنّون بثَبِير ورضوى كما يتغنّون بجبلى نَعْمان . ولعل من شعرائنا

المصريين فى العصور المتأخرة من ورد اسم رَضْوى فى شعره، ذكره حين أراد أن يتخيّل جبلا أو يمتثل ما يدل الجبل عليه فكان اسمُ رضوى أقربَ الى ذاكرته من اسم سيناء . ذكر لى مَنْ عرفت بالحجاز حديثا عن رَضْوَى آثار منى كوامن الدهشة جميعا . فهذا الجبل يمتد فى طريق المدينة الى يَنْبُع . ومنطقة المدينة وما حاذاها أكثر اتصالا بالحضارة من كثير من مناطق بلاد العرب؛ لأنها أدناها الى الشمال وأيسرها اتصالا بالشام ومصر . كذلك كانت فى عهد النبي وفى صدر الاسلام ، وكذلك هى اليوم . ولقد زار وزير المالية الشيخ عبد الله سليمان رضوى منذ سنوات قليلة ، واستصحب معه أمين مكة الشيخ عباس قطّان كما استصحب قوة من الجند وعُدّة للمقام من خيام وأدوات للطهى وطُهاة ومن اليهم . وتسلّق القوم الى قمة رضوى فرأوا عجبا : رأوا قوما لم يتزلوا السهل حياتَهم ، ويرون فى نزوله المَعَرَّة الكبرى ، فاذا احتاجوا الى شىء مما فيه فأتباعهم وضعافهم هم الذين ينزلون . ورأوا هؤلاء القوم يعيشون فى الكهوف والغارات عيش الحيوان المفترس ، ورأوا أحدهم اذا ظفر بغنيمة مما كانوا يذبحون قربها الى كهفه وأوى اليه وانبعث ينهشها كما ينهش الحيوان المفترس فريسته ، وجعل يذبّ عنها من يحاول اقتحام الكهف عليه بأن يدفعه برجله كما يفعل الذئب أو النمر . أفيتصوّر أحد هذه الحياة فى بلاد العرب وعلى مقربة من المدينة؟ أمّا أنا فدهشت لها أوّل ما سمعت نبأها ، ثم خفّت دهشتى حين أذكّرت من رأيت من الأعراب بالشّفا من جبال الطائف . وما أحسب الفرق بين هؤلاء وأعراب رَضْوَى ببالغ أن يُثير الدهشة .

يأبى الإسلام أن يبلغ التفاوت بين بنى الإنسان حتى ينكر بعضهم بعضا . ذلك أساسه فى أمور الرزق ، وهو أساسه فى الحياة الروحية . فهو دين إخاء يرتفع بالإخاء الى أسمى مراتبه ، ويرى لذلك أن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وأين الإيمان فى أمة يتناكر بنوها فينكر أحدهم أمر صاحبه ، فاذا عرف أمره دهش له وأخذ منه العجب ! وأين الإخاء فى أمة يعيش نصف

أبنائها حُفاةً عراةً، رزقُهم من التسـوّل، وسعادتهم فى الجهـل، وطمأنينتهم الى العيش فى قُنَن الجبال، ويعيش النصف الآخر فى حضر أو ما يشـبه الحضر! ليس هذا من دين محمد فى شىء، بل الإسلام عدوّ لهذا التفاوت الظالم وهذا التناكر الذى يمقُت الإخاء ويمقته الإخاء . وإن ديناً يدعو عمر بن الخطاب ليقول لعلىّ بن أبى طالب وقد اقتضاه غريم أمرًا : "ساوِ خَصْمَك يا أبا الحسن"، فيساوى علىّ خصمه فى مجلس القضاء، وينكر على عمر أن يدعوه "أبا الحسن" لما فى الكنية من تعظيم لا يتفق مع المسـاواة، لأَثْبَتُ أساسًا من أن يُقِرّ تفاوتًا مبلغه من الجور ما ذكرت . ويأبى هـذا الدين أن يقرّ التفاوت الروحى؛ فهو لا يجعل لطائفة من الناس فضلا على طائفة إلا بالتقوى، ويجعل العلم وما يدعو اليـه من تحابٍّ فى الله وقضاء على غرور النفس ببلوغ المعرفة الحقة أساسَ الهدى ومنارةَ الإيمان . لذلك كان العلمـاء فيه وَرَثةَ الأنبياء . والعلمـاء الصادقون كالأنبياء الصادقين يُؤثرون هدى الناس على طمأنينـة أنفسهم بل على حياتهم، ويبـذلون من ثمّ للناس كل أسباب العلم حتى يبلغوا به غاية ما يستطيع المرء بلوغه من الهدى .

بلغنا رابغًا بعد زوال الشمس بساعة أو نحوها، فبلغنا بذلك حضرا لم نر شيئا منه مذ تركنا جُدّة . وهو على تواضعه حَضَرٌ يقف النظر عنده . فقد وقفت بنا السيّارة أمام بناء فسيح يشبه السوق، فى جانب منه مقاعد لمقهى يجلس الناس فيه يتناولون الطعام والشاى والقهوة . والى الجانب الآخر من الطريق قامت مبانٍ أحدها مخفر البوليس، وبعضها حوانيت تعرض للبيع ألوانا شتى من الطعام وغير الطعام. وسألت أصحابى: أين نلتمس الراحة ونتناول الطعام؟ فأشاروا الى بناء متصل بالسوق زعموه فُنْدُقا . ودرنا نلتمس فى هذا الفندق غرفة نأوى اليها، فإذ أنا أمام غرف حقيرة لا أدرى مِمّ بُنِيَتْ، وليس يغطى أرضها حصير ولا ما دون الحصير . على أن أصحاب المقهى توسّموا فينا الخير فجاءوا بحصير قديم نشروه فى إحدى الغرف، وجئنا من متاعنا بسجاجيد الصـلاة ففرشناها فوقه . وذكر أصحابى من أهـل مكة أن

برابغ سمكا صالحا للطعام يُطْهَى لساعته، فطلبت إليهم أن يجيئونا منه بما يكفينا. وإنا لنعِدّ لراحتنا ولطعامنا إذ أقبل علينا رجل الجندية فتقدّم بالتحية وعرض علىّ ضيافته. وشكرته وأبديت له أنى مطمئن حيث نزلت، وأن حاجتى الى الراحة تمسكنى دون القيام ودون اتباعه الى شاطئ البحر أو الى المخفـر أو الى أى مكان غير هذا المكان الذى أنا به. وابتسم الرجل و بادلنى من التحيات ما ضاعف شكرى، ثم تركنا وانصرف مكررا ساعة انصرافه أنه يود لو يكون فى خدمتنا فيكون بذلك سعيدا.

وبعد صلاة الظهر تناولنا السمك الذى جاءوا به. ما أشهى الطعام على جوع وما أطيبه وأصحه! . ومِلْتُ بعد أن نلت شبعى فتمطّيت على سجّادة الصلاة أبتغى الراحة، فاذا بى أُسرع الى عالم النوم. واستيقظت وقد عاد لى نشاطى، والتمست الخريطة أقيس عليها ما قطعنا من جدّة وما بقى لنا لنبلغ المدينـة. قال صاحبى: " وما تجدى الخريطة فى طريق شديد التفاوت بين الاستواء والوَعْث، وتستطيع السـيارة أن تقطع عشرات الفراسخ كل ساعة فى بعضـه، وهى تُعيى فى البعض عن قطع فرسخ واحد فى ساعة أو ساعات؛ وإنا لن نبلغ المدينة الليلة. والمُسَيْجِيد غاية ما نستطيع أن نبلغه اذا بلغ لطف الأقدار غايته، وقد نَبيت بآبار بنى حَصَان وقد لا ندركها. والأمر فى ذلك كله لله، بيده تصريف الأمور ".

لم يَثنِنى هذا الحديث عن الاطلاع على الخريطة. يا عجبا! كيف نسيت أن الجُحْفة على عهـد النبىّ هى رابغ اليوم، أو أنهما تتجاوران! ومذ رأيت اسم الجحفة على الخريطة الى جوار اسم رابغ نسيت حديث صاحبى وعدتُ بذاكرتى الى عهد الرسول، وذكرت حديثا لهند بنت عُتْبة زوج أبى سـفيان إذ يتشاور قومها من قريش قُبَيـل خروجهم الى غزوة أُحُد ويختلفون أتسـير النسوة معهم، فتصيح هند بمن يعترض خروج النساء: "إنك والله سلمتَ يوم بدر فرجعت الى نسائك. نعم! نخرج فنشهد القتال ولا يردّنا أحد كما رُدّت الفتيات فى سفرهم الى بدر حين

بلغوا الجُحفة فقُتلت الأحبة يومئذ". نحن هاهنا إذًا فى الطريق التى سلكته قريش الى بَدْر والى أُحُد . ونحن ها هنا فى الطريق الذى سلكه الرسول عام الفتح . فقد ترك العباس بن عبد المطلب قريشا وهى فى جَدَلٍ ماذا تصنع لاتقاء عَدْوة محمد على مكة ، وسار يريد المدينـــة ، فلقى جيش الفتح بالجحفـــة . هذا إذًا كان الطـــريق المسلوك بين مكة و يثرب الى الشام . وهذه الجحفة التى نقف الآن بها كانت موقعا ذا شهرة فيه . أمّا ولرابغ الشهرة اليوم فقد أنست الناسَ الجحفة وما وقع على عهـــد الرسول بها .

وقمنا بعد العصر ، فانطلقت بنا السيّارة الى مَسْتورةَ فى طريق مستوٍ يجاور البحر فهى تجرى فيـــه تخطَفه خطفا . وفى حذاء مستورة تيامنت السيّارة مُشَرِّقَة نحو بئر الشيخ . ومذ تيامنت بدأ الطريق يتعذّر السير فيه . ذلك أننا كنا نبعد عن البحر الى داخل تهامة ، وكانت الرمال التى تسـير السيّارة عليهـا خلال هذه الصحراء غير مستقرة لكثرة ما تقلّبها السيارات الثقيلة إذ يكثر مرورها بها فى موسم الحج . وحيثما تعذّر السير نبت المتسوِّلون من جوف الأرض أو انحطّوا من المرتفعات .

و بلغنا بئر الشيخ بعد غروب الشمس فجلسنا الى مقهى بها تناولنا فيه الشاى وأقمنا حتى سجا اللـــيل . فليس يضيق سائقو السيّارات بشىء ضيقهم بالسويعة التى تلى غروب الشمس حين تختلط موليّـــات النهار بإقبال الليـــل فيَنْبَهِم النور وتنبهم الظلمة و يضطرب ضوء السيّارة بينهما . وسأل السائق عن الطريق بين بئر الشيخ وآبار بنى حصان ومبلغ صلاحها للســير بها ، فاختلف أهـــل المقهى رأيا ، وأشار أحدهم الى أن طريقا منها لا يزال صالحا للسـير فيه ، وأن الطريق الآخر أفســدته السيول فلم يبق السير فيه مستطاعا .

ولم يكن الى المبيت ببئر الشيخ سبيل إلا أن نظلّ ليلتنا فى هذا المقهى . وإن أطقت أنا هـــذا المبيت وغامرت به فـــا عسى أن يكون أثره فى صحة والدتى ؟ ! ولقـــد ذكر القوم أن بالمحلّة التى تلينا ، محـــلّة آبار بنى حصان ، فُنْـدُقا للمبيت به .

فى ذلك استخرنا الله وقمنا الى سيارتنا . لكنها لم تَسِرْ بنا إلا قليلا حتى ساخت فى الرمل ولم تستطع حراكا . وأضاء السائق فنارها فإذا أمامنا ثلاث سيارات أصابها ما أصاب سيارتنا . ولقد جعل سائقوها يتعاونون ويعاونهم ركابها على دفعها للسير . واللوريات فى مثل هذه المواقف أسعد حظًّا ، لارتفاع جسمها فوق الأرض على عجلاتها الكبيرة ، وسموِّها لذلك عن أن يغوص بطنها فى الرمال . وأقمنا حيث نحن ، وذهب أصحابى يعاونون الذين تعطلت سياراتهم أمامنا ليقابلونا بالمثل فيعاونوا سيارتنا على الخروج من ورطتها . وقد أقمنا ساعة أو نحوها ، ثم أذن الله بالفرج وخرجت السيارات من هذه العُسرة التى أصابتها . وسرنا منطلقين فى طريقنا وكل رجائنا أن نبلغ آبار بنى حصان قبل منتصف الليل لعل النوم بفُندقها يعوضنا عن جهد هذا النهار .

وآنقضت ساعة أخرى والسيارة تجرى ونحن ننعم بنسيم ما أرقَّه وأعذبه ! . نسيم البيداء الطلق الجاف الصحيح الذى يبعث إلى النفس النشاط والغبطة ، والذى ينسى المسافر كل نصب وكل مشقة . وفيما نتحدث عن المدينة ومتى نبلغها غدًا إذ السيارة تغوص مرة أخرى فى الرمال . وحاول السائق مذ شعر باللُّجة الخطرة تحت مزالق العجلات أن ينجو منها بتحريك عجلة القيادة يمنةً ويسرة لعل فى تحرُّك العجلات ما يجنبُها الغوصَ العميق . لكن هذه المداورة لم تُفلح وساخت السيارة وجعلت عجلاتها تدور حول نفسها فى حركة رحوية غير مجدية . ونزل أصحابى يحاولون دفع السيارة إلى الأمام لعلها تجاوز منطقة الخطر . ومع مابذلوا فى ذلك من جهد شاق لقد ذهب جهدهم عبثا . وخيِّل إلىَّ أنى أستطيع معاونتهم ، ودفعت معهم ولكن على غير جدوى . وبعد ساعتين ذوى فيهما الرجاء وذهب ما أنفقنا خلالهما من جهد سُدًى رأيت أن أستريح إلى اليأس من السير هذه الليلة وأن أسلم الأمر لله وأن أنام فوق الرمل على مقربة من السيارة . وسحبت سجادة الصلاة فجعلتها فراشى ، وجئت بغطاء من الصوف التحفته وتمطيت وتغطيت راجيا أن تعيننا يقظة النهار على اجتياز هذه العقبة . وطاب لى هذا المقام وذكرت به عشية

عرفة لولا غياب القمر وانتشار الظلمة، وإن آنستنا نجوم السماء ببريقها الجذاب . وإنى لفى أحلام ما قبـل النوم ، أحلام حُلوة مسعدة زادها صفو السماء فى هـذه الساعة حلاوة وإسعادا، إذ جاء إلىّ من أصحابى من يخبرنى أن السيّارة خرجت من لجة الرمل وأنهـا وشيكة أن تسير . ولـما رأى منّى الريبـة فى قوله ذكر أن عربة كبرى بها مفتشٌ للطرق أدركتهم ، وأن بهـ داة خاصـة لإنقاذ العربات المنكوبة فى لجة الرمل، وأنها ردّت عربتنا إلى الحياة والسير. وقمت بين مصدّق ومكذّب. فلـما رأيت السيّارة انتقلت من مكانها أيقنت أنها خلّصت من براثن هذه الرمال، وأنها وشيكة أن تسير حقًّا ، فأسرعت إليها . وسارت بنا تقصـد آبار بنى حصان ونحن فى أشدّ الخوف أن يُنشب الرمل براثنه فى عجلاتها كرّة أخرى . ولم تهدأ ثائرة الخوف فى نفوسنا حتى رأينا أنواراً قيـل إنها أنوار آبار بنى حصان . فلما بلغناها نادى مناد أن نميل لننام عنده . لكن عنده مقهى لايفضل مقهى بئر الشيخ،ونحن نريد الفُندق، فندق آبار بنى حصان . وأهبنا بالسائق أن يقصد توًّا إليه وأنا أصوّر لنفسى غرفتى به وما سأناله بها من نوم مريح .

ووقفت السيّارة أمام بناء اشتملته الظلمة قيـل إنه " الأوتيل " . ودقّ أحد الرفاق بابه ونادى أهله وطال به الدقّ والنداء . ولئن كنا فى الثلث الأخير من الليل لقد عجبت كيف ينام الموكّلون بفندق يأوى إليه الناس ساعات الليل وقلما يقفون عنـده بالنهار . قال صاحبى : لا تعجب ؛ فالفنـدق للحكومة والموكّلون به عُمّالها وهم يقتضون منهـا لذلك مرتبا لا يزيد بزيادة من ينزلونه ولا ينقص بنقصهـم . وفتح الباب رجل عليه أمارات النوم؛ فلما عرف أمرنا جاء بمصباح ضئيل النور وتقدّم يهـدينا إلى غرف المنزل . وخطوت فى أثره من الفضاء الذى كنا به بين جدران البناء وغرفه . ووسوست لى نفسى أن أرجع أدراجى وأن ألتمس تحت العراء مبيتا . أين هذا الهواء الطلق اللذيذ السائغ ، هواء البادية الجاف الجميل ، من هواء حبيس راكد بين الجدران! . لكننى رأيت أحد أصحابى ينادى الخادم ليجىء

بالطعام من "البكس". وأحسست الجوع الشديد، فأهبتُ بالقوم أن يفتحوا نوافذ الغرف جميعا . ومددت بصرى خلال نور المصباح إلى داخل الغرف فارتدّ يدعونى أن أهم بالعودة إلى العراء وهوائه الحرّ الطليق . فهذه الغرف الخالية من كل أثاث وفراش إلا من رمل لا شك أن رمل العراء أنقى منه، لا تشجّع على المكث ولا على المبيت . لكن الجوع والجهد وما خافه أصحابى من أثر العراء فى الصحة ، كل ذلك ثنانى عن تنفيذ ما أردت . قال أحدهم : لو أن معنا خيمة نضربها لكان الخير فيما تشير به، وشقادف الجمال تُغنى عن الخيام . أمّا وليس معنا هذا ولا ذاك "فالأوتيل" خير مكان لمبيتنا .

وتناولنا طعامنا، وفرشت سجادتى على حصير أكرمنا القوم بإحضاره، وأغفيت السويعة التى تفصل بيننا وبين الفجر . فلما تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود قمنا جميعا إلى فرض الله ثم تناولنا الشاى وبعض الطعام وخرجنا الى الفضاء الطلق ننعم فيه بالهواء الحرّ والنور الوليد . وألفينا أمامنا واديا فسيحا تكتنفه الجبال وقد انحط بطنه عن الفندق بضعة أمتار ، فالفندق يقع منه على أكمة تتحكم فيه . وآنى رجل من أهل الفندق أميل منظارى المقرّب أهبط به إلى بطن الوادى تارة وأرتفع به إلى أعلى الجبل أخرى ، وسمع أثناء ذلك حديث صاحبى عما لقينا من عَنَتٍ أصابنا به غوص السيّارة فى الرمل، فقال: إنها سيول هذا العام أفسدت الطريق وكان من قبلُ صالحا ؛ فقد انهمرت وبلغ انهمارها حدّا لا عهد لنا به مذ عرفنا الحياة . وكان من ذلك أن ارتفعت المياه فى هذا الوادى حتى غمرت سيّارة من سيارات اللورى فمات بها اثنا عشر من راكبيها ، وأن بلغت هذا الفندق وكادت تُوهن جدرانه لولا متانة بنائه .

عجبت لما سمعت وقلت : وماذا كان يفعل آباؤكم الأوّلون وقد كان هذا طريقهم من مكة إلى يثرب وإلى الشام ؟

سكت رجل الفندق ولم يجب . إذ ذاك تولّى صاحبى الجوابَ فقال : قلّ أن تنهمر مثل هذه السيول الجارفة المخرّبة . فسيول هذه البلاد هتّانة حقّا ، لكنها

سريعة أن تُمسك سرعتها إلى أن تنهمر، فاذا أمسكت ابتلع الرمل المـاء فى دقائق. أمّا آباؤنا الأوّلون فلم يكونوا يعرفون السيّارات. فلو أن سيلا جارفا كسيل هذا العام نزل بهم لصعدوا بالإبل فى دروب الجبال حتى يبلغوا قُنَنها إن أعوزهم الأمر.

وأمسك صاحبي هنيهةً ثم قال: "هـذا طريق ما بين مكة ويثرب، وإنك لحريص مذ هبطتَ الحجاز على أن تمرّ ما استطعت حيثما مرّ الرسول عليه السلام. أفتذكر كم مرّةً مرّ بهذا الطريق؟".

قلت نعم! ووجمت هنيهة أفكر: لقـد مرّ بهذا الطريق ولا يزال طفلا فى السادسة من عمره حين ذهب مع أمه آمنة يزور قبر أبيـه بيثرب. فلما آن لهما أن يعودا منـه ماتت أمه ودُفنت بالأبواء. ومرّ به حين ذهب فى الثانيـة عشرة مع عمه أبى طالب الى الشام، كما مر به فى الخامسة والعشرين حين ذهب فى تجارة خديجة، وأقام بعد ذلك خمسا وعشرين سنة تِباعًا لا يقطعه. ولمـا هاجر من مكة والصدِّيق معه جاوزه الى طريق بساحل البحر خيفةَ أن تدركه قريش. لكنه عاد بعد ذلك منه عام الحُدَيبية، ثم عام عمرة القضاء، ثم عام الفتح، ثم فى حِجّة الوداع. ما أحفل هذا الطريق بالذكريات!! لقد رأى النبيَّ العربيّ طفلا، ورآه صبياً، ورآه شابًا، ورآه نبيًـا، ورآه مجاهدا، ورآه حاجًّا بيتَ ربه مستغفرا إياه ضارعا إليـه؛ ولقد رآه يوحى اليه ربه من كتابه هدًى ونورا. وأنا أسير اليوم فيـه ويسير عشرات الألوف من المسلمين فيه كل عام، وقلّ من يذكر منّا ما يحمِل به أو يذكر هذه الحوادث من أيام النبيّ، وكل واحدة منها عبرة وفى كل واحدة منهـا مُدَّكَر. أوَ ليس هذا نسيانا يجب أن نتنزه عنه إكبارا لذكرى الرسول الخالدة والتماسا لموضع العبرة والأسوة من سيرته وحياته؟!

ولو أن علم هذا العصر الذى سخّر لنا قوى الطبيعة، استطاع أن يحلّل ماينطوى عليـه المـاضى وأن ينقل الينا ما نشاء من ذكرياته على موج الزمن كما ينقل الينـا الأصوات التى نشاء من أقصى الأرض على موج الأثير، إذًا لرأينا فى هذا الطريق

ما تهتز له القلوب وما تطير له الأفئدة تقديسا و إعجابا . إذا لرأينا الصغير محمدا يجلس مع أمه آمنــة والبعير يسير بهما و بحاضنة الغلام أم أيمن قاصدا يثرب بخطاه الهادئة البطيئة ، وآمنة تقص على ابنها نبأ أصول أبيه من بنى النجّار بالبلد الذى إليه يقصدون، وتقص عليــه كيف ارتحل أبوه الى الشام فى تجارته ، وكيف عاد منها ، وكيف مرض ومات ودُفن عنــد أخواله . والصــغير يُنصت مأخوذا يدرى ولا يدرى . لقد رأى القوافل التى تذهب فى رحلتى الشتاء والصيف الى اليمن والى الشام ؛ فهذا الرجل الذى تحدّثه عنه أمه ، عبد الله بن عبد المطلب ، قد ذهب مع قافلة الصيف لا ريبـه . ترى كيف كان؟ وتُجيبه الأم الرءوم أنه كان جوادا شجاعا وشهما كريمـا ؛ بل كان الشهامة والجود صورًا رجلا . وتقص عليه الأم من أخبار عبد الله ما ترجو أن يكون أسوة للابن ومثلا . فما أكبر أملها أن ترى هــذا الصغير يكبَر ليكون كأبيه : محبوبا من قومه ، مقدَّرا منهم ، عزيزا عليهم ، حتى ليقفون دون إرادة جدّه حين أراد أن يذبحه وفاء لنــذره وبِرًا بقسمه . وماله لا يكون كأبيــه وفى نظرته من قوة البريق ما كان فى نظرة عبد الله ، وفى نبرة صوته من الرقة والقوّة ما كان فى نبرة صوت أبيــه ! . وينقضى اليوم ويتــلوه غده فينقضى كانقضائه ، وهم يقيمون ثم يسيرون لا يُعجلون بعيرهم ولا يسأمون طول الطريق . وكيف يسأمون حياةً هى حياتهم وبيئةً هى بيئتهم ! . وكيف تسأم آمنــة وهى تسير الى قبر حبيب وهبت له نفسها ، وكان لها فى الحياة منه أمل عريض ، فلم يمهله القدر أن اختطفه منها ؛ وهى تتعلّق ، على رغم القدر ، بأملها وتريد أن تصل بين الثاوى فى القبر وقلبها . ويبلغون يثرب ، وتزور آمنة القبر وتُزيره صغيرها وتحدّث و إيّاه عنه ، وتأوى معه الى دور بنى النجّار . وهى ترى فى الطفل محمد أحب صورة اليها من عبد الله ، وترى فيه الحياة و بهجتها ، والعزاء عن ألم الحياة وقسوتها ، ولا يجول بخاطرها أنها عما قريب ستلحق بعبد الله . لكنها لا تلبث حين تتحمل مع ابنهـا وحاضنته عائدة الى مكة أن يصيبها المرض وأن يخترم حياتهـا ؛ فيتعاون دليلها وأم أيمن على دفنها بالأبواء . ويلتمسها الصغير لتحدّثه عن عبــد الله فلا يجدها ، ويلتمس من يحدّثه

عنهـا فتسرّى عنه أم أيمن لوعة اليتم من أبيه وأمه، حتى اذا بلغ مكة وجد فى جدّه عبد المطلب وفى حنوّه وعطفه أبا وأمّا .

ثم لرأينا محمدا فى الثانية عشرة من عمره يسير مع عمه أبى طالب فى هذه الطريق التى كنا نسير فيها . لكنه يسير هــذه المرة فى قافلة ذاهبة فى رحلة الصيف كالقافلة التى سار فيها أبوه، ولا يسـير وحيدا بل معه عمه كما كان مع أمه . وتتخطى القافلة سَرِفَ وتتخطى وادى فاطمة وتُساحل البحر فتبلغ يثرب ثم تتخطاها متخذة دروب البادية الى الشام، وتحطّ القافلة رحالها هاهنا وهناك، ويسأل محمد حيثما سار وأينما نزل عما يحيط به، فيجيبه عمه حينا، ويجيبه رفاقه فى القافلة حينا آخر . وأية وسيلة يقطع بها راكب الجمل طول الطريق كالتحدّث وقصص المـاضى والتندُّر بالأنباء! . ولكل محـلّة تنزل بهـا القافلة حديث ونبأ ؛ ولكثير من الأماكن قصص تذهب فى بطون التاريخ إلى حيث يكاد التاريخ يضلّ فيها . ومحمد الصبىّ يُنصت وقلما يتكلم، ويقلّب ما يسـمع على أوتار فـؤاده ليرى مبلغ اتساقه مع ما يرى . وتبـلغ القافلة حدود فلسطين ويرى فيهـا قوما غير الذين ألِفهم فى البادية ؛ قوما عرفوا الحضر وصـناعته والاستقرار ونُظُمه، يتحـدّثون عن رُومِيـةَ وعن بزنطية وعن أديانهما ورُسلهما، ويذكرون اليـونان والرومان وحكمتهما وتشريعهما، ويذكرون موسى وعيسى والنبيين من قبلُ، وليس يشغله عن أمر التجارة التى جاء قومه بها ما يصرفه عن التفكير فيما يرى ويسمع وعن استذكاره . ثم ينصرف مع القوم قافلين الى مكة مارّين بيثرب وبوادى فاطمة،وهو لايفتأ يسأل عما يرى وإن كان أدنى فى عودته الى الصمت إمعاناً فى التفكير فيما رأى وسمع .

ويعود فى الخامسة والعشرين إلى مثل هــذه الرحلة فى تجارة خديجة مع قافلة الشام . وتربح تجارته ويتزوّج خديجـة . لكن الصحراء وطريق الشام لا يدعوه اليه كرّة أخرى . لقد رأى ما فيه وسمع أنباءه، وعرف الشام واتصل بأهلها، وفكر فيما وقع عليه من ذلك كله . وهو رجل تأمُّلٍ فى المثـل الأعلى، وليس تاجرا يغريه

المال والاستزادة منه . فلتُرسل خديجة فى تجارتها من تشاء وليُقِمْ هو بمكة على مقربة من البيت العتيق مفكرا متأملا منقطعا الى تفكيره وتأمله ، ثم ليتحنَّث فى غار حراء حتى يوحى اليه ربه الأكرم أنه علّم الإنسان بالقلم ما لم يعلم .

وينصرف محمد عن هذا الطريق سنوات متوالية حتى يأذن له ربه بالهجرة . فاذا ارتدّ من غار ثور سلك طريقا غير الذى نسلكه نحن اليوم نجاةً بنفسه وبصاحبه من مطاردة قريش إياهما واقتفائها أثرهما .

ويعود الى هذا الطريق بعد ذلك عام الحديبية . يعود اليه شيخا توجت الرسالة وتوجت السنون رأسه . ويعود مع أصحابه حتى يبلغ منه ذا طُوّى، ثم يُضطر الى الخروج الى طريق الحديبية حتى لا يصطدم بجيوش قريش .

ويسلك هذا الطريق بعد عام فى عمرة القضاء. يسلكه ملبِّيا نداء ربه مناديا مع أصحابه : "لبَّيْكَ اللّهم لبيك". وتجاوب أودية البادية وهضابها بهذا النداء تنفرج عنه شفاه ألفين من المسلمين يسيرون وراء نبيِّهم وكلُّهم شغف بهذا اليوم الذى انتظروه منذ سنين، فهو اليوم الذى يطوفون فيه ببيت الله ويؤدّون مناسك العمرة . والرسول فى مقدّمتهم على القصواء تسير به؛ وهو فى طمأنينته إلى نصر ربه أكثر من كل من معه شكرا لله وإذعانا . وتُنيخ القافلة ثم تستأنف سيرها حتى تبلغ مكة، فاذا هى خالية غادرها أهلها . ويجوس المسلمون خِلالَهَا طائفين مصلِّين مهللين مكبِّرين . أين هم اليوم منهم يوم أخرجتهم مكة منها وأقصتهم عنها وضنّت عليهم بدخولها وأنكرت حقهم من الوجود أو أداء شعائر دينهم ! لكنهم صبروا وصابروا فنصرهم الله من فضله؛ والعاقبة للصابرين .

وينقضى عامان من يومئذ، فيسلك محمد هذا الطريق على رأس عشرة آلاف من المسلمين ليفتحوا مكة . أين مسيرته اليوم من مسيرته صغيرا ، ومن مسيرته صبياً، ومن مسيرته تاجرا، ومن مجيئه حاجًّا! . لقد دانت له العرب وبقيت مكة

على عنادها . لكنها اليوم على أهبــة أن تدين وأن تُسلم مفاتحها وأن تؤمن بالله ورسوله وأن يطهر بيتها من الأوثان وأن تعود اليه قداسة التوحيد والإيمان .

فأمّا المرّة الأخيرة التى سلك محمد هــذا الطريق فيها فهى حِجّة الوداع حين سار من المدينــة على رأس مائة ألف من المسلمين الذين جاءوا من أنحاء شبه الجزيرة رجالًا وعلى كل ضامر يَنْسِــلون من كل حَدَب . وأقاموا ليلتهم بذى الحُلَيْفة، فلما أصبحوا أحرموا وانطلقوا جميعــا ينادون : "لَبَّيْكَ اللّهم لبيك" ؛ وتتصل روح الرسول بأرواحهم جميعا وهو يلبّي على رأسهم فيزدادون إمعانا فى توجُّهم الى ربهم وسُمُوًّا اليه . أين من هذا الرجل الذى أكمل الله له وللسلمين جميعا دينَهم وأتم عليهم نعمته، ذلك الطفل مع أمه، وذلك الصبيّ مع عمّه، يسير فى هذا الطريق لا يعرف فى المرّة الأولى أنه ذاهب الى قبر أبيــه يزوره ، ويسائل رفاقه فى المرة الثانية عن كل ما يرى ! . أين من هذا الرسول الذى نقل العالم من الضلال الى الهدى ومن الوثنيّة الى التوحيد، ذلك الصغير الذى كانت تنظر اليه أمّه نظرة الحب والإعزاز لوحيــدها اليتيم الذى فقــد أباه ، وغاية ما ترجو أن يكون كهذا الأب أيدًا وكرما ورجولة ! ! ويصل هذا الجمع الزاخر مكة فيُشاركه أهلها فى الإحرام بالج وأداء مناسكه متأسِّيا فى ذلك بمَثَل الرسول، سائرا فى خطاه، داعيا دعاءه، مستغفرا استغفاره ! . ألا إنها الحياة الإنسانيــة بلغت غاية السموّ من إنسانيتها، ثم سمت فوق الإنسانية الى حيث رفعتها مراتب النبوّة والرسالة، وبقيت مثلًا تحاول الأجيال أن تجعل منه أسوتها، وهيهات هيهات أن تبلغ من ذلك إلا يسيرا .

قال صاحبي : "ما أعظم العبرة وأبلغ الموعظة فيما تذكر! . ولو أن المسلمين الذين يسيرون كل عام فى هذا الطريق ذكروا من ذلك بعض ما ذكرت لازدادت نفوسهم بالج طهرا . وإنه فى الحق لطريق لو حدّثت رماله وحدّثت هضابه بما شهدتْ لأنصت العالم كله بأرضــه وبحاره لأروع ما شهد على التــاريخ من جلال الحق وانتصاره" .

كان رجالنا قد أعادوا رحالنا إلى " البُكس " وإلى السيّارة حين أتمّ صاحبي عبارته . وشكرنا لأهل (أوتيل آبار بنى حصان) ظَرْفهم ، وانطلقنا فى طريقنا نبغى المسيجيد، آخرَ محلة نقف بها قبل أن نبلغ المدينة . وبلغناها ونزلنا فندقاً بها يشبه فندق الابار ، فأخبرنا رجاله أن السيد عبد العزيز الخريجى مُضيفنا بالمدينة بعث مساء أمس وصبح اليوم من ينتظرنا . وأقمنا بالفُندق ريثما تناولنا الشاى والقهوة، وشكرنا أصحابه ثم انطلقنا كرّة أخرى فى طريقنا إلى غايتنا . يا عجبا ! لقد اختلفت طبيعة البيداء كرة أخرى . لقد كنا نسير من جُدّة إلى رابغ وإلى مَسْتورة على رمال شدّت مياه البحر بعضها إلى بعض فهى صلبة متينة . فلما استدرنا من مستورة مشرّقين إلى بئر الشيخ وآبار بنى حصان تفككت الرمال ولم تبق لها صلابتها، لذلك غاصت عجلات السيّارة ، وغاص بطن السيارة فيها غير مرّة . واطّرد الطريق على هذا النحو من الآبار إلى المسيجيد . فأمّا بعد المسيجيد فقد انقلبت البيداء صخرية على رغم ما يكسوها من الرمال . واطمأن السائق إلى أنّا لن نغوص فى الرمل فأطلق العنان لسيّارته . فلما قضينا بعض الساعة إذا الطبيعة تختلف من جديد وإذا جبالٌ سود تقف منا عند مرمى النظر . وأدركت السيّارة سفوح الجبال وتخطّت خلالها مرتقية حينا منحدرة آخر، ثم انطلقت من جديد فى بيداء تكتنفها الجبال .

ووقفنا عند محلّة أناخت بها قوافل للحجاج الذين يقصدون المدينة ، وجاء حسن بماء للسيارة احتياطا للجبال القريبة منا . وأثار منظر القوافل فى نفسى حنينا وذكرى : حنيناً لأيام الطفولة حين كنت أمتطى الجمل مع جدّتى وأسير فى القافلة الذاهبة فى صحبة جدّى إلى السيد البدوى بطنطا أو إلى مولد ابن العاص القريب من قريتنا، وذكرى أولئك الذين سبقونا من آبائنا وأهلينا إلى هذه الديار قبل أن تُغير السيارة على الجمل فيها، وحين كان الجمل وحده سفينة الصحراء . وفكرت حين ألحّ بى الحنين وألحت الذكرى فيما يكتبه الغربيون عن القاهرة وعن الآستانة وعن غيرها من بلاد الشرق، وما يبدون من أسف أشدّ الأسف أن أضاعت هذه البلاد

طابَعها الشرقىّ القديم الجميل . وتحدّثت إلى نفسى أسائلها : كم أضاع المجاز وأضاعت بلاد العرب بغزو السيارة إياها من طابعها ، وكم يضيع منه غدا حين تغزوها الطيارة ، فنجىء على متنها من مكة الى المدينة فى ساعتين كما فعلت الأميرة خديجة حليم هـذا العام ؟ ! . ترى ماذا كانت تترك فى نفسى رحلة القافلة من مكة الى المدينة فى الدرب الطويل أقضى فيها أسبوعين كاملين ؟ ! . لقد قرأت ما كتبه كثيرون عن مثل هذه الرحلة فى مختلف الدروب التى تنساب فى البادية . قرأت ما كتبه برتن الانجليزى ، وبورخارت السويسرى ، وإبراهيم باشـا رفعت ، وقرأت رحلة البتانونى . إنهم جميعا قـد أُتيح لهم أن يدرسوا من طبيعة البادية ونفسية أهلها ما لا يتسنّى لراكب السيّارة أن يعرف إلا القليل منه . وهم قد استمتعوا من حياة الصحراء وواحاتها ومن صحبة أهلها بمـا لم أستمتع أنا بشىء منه ، اللهم إلا حين نزلت رابغا ، وحين قضيت الليل بآبار بنى حصان . أمّا راكب الطيّارة فلن يرى من ذلك كله إلا ما يراه الطائر من علية سماواته ، ولن يستمتع منه بغير المنظر السريع التغيُّر السريع إلى الزوال . من الحق إذًا أن غزو السيّارة للجمل وتعريضها إياه للزوال وحلولها محلّه سفينةً للصحراء خسارةٌ يأسف لها رب الفنّ الحريص أن ينعم على هُونٍ بكل ما فى البادية من حياة ومعنى وجمال . أوَليس من الحق كذلك أن غزو الطيارة للسيارة يعرّض الإنسانية من ناحيـة الفن لمثل هـذه الخسارة ! أمْ أنا يجب علينا فى سبيل ما نسميه التقـدم ألاّ نقيم لهذه الخسارة وزنا ، وأن نغتبط أن عوّضنا الله خيرا منها وأعظم جدوى ؛ وإذا انقرض الجمل وبقيت السيّارة دابّة الحمل واختصت الطيّارة بالسفر فلا خسارة فى ذلك على الإنسانية ولا على الفن ؟ . ولم أجد جوابا على ذلك كله إلا أن محاولة الجواب لهو وعبث ما أشبَههما بالأسف لأن الطفل صار رجلا أو لأن الهِمّ الفانى مات ليخلفه غيره ، مع أن هذا وذاك سنّة الطبيعة . فما حدث اليوم لا مفرّ منه وهو لا بدّ كائن . ورجل الفن الصادق العاطفة والموهبة لا يأسف على ما فات ، ويجد من آثار الفن فيما حوله خير منزل لوحيه وإلهامه . وميراثنا ممـا خلّفه الأوّلون من آثار الفن بعض ما هو كائن ، شأنه فى ذلك شأن ما حولنا من آثار العلم . فإذا نحن

أسفنا على ما فات فلن يجدى أسفنا شيئا . ولئن دلّ على شيء لَعَلَى أنا كسالى فى الفن ، نريد أن ننهج نهج من سبقونا ونتأثر خطاهم ، بدل أن نُبدع جديدا من إلهام الحاضر وحياته . فأما الذين يريدون أن يبقى الشرق الحىّ متحفا لصور الماضى فأولئك يجهلون ما فى النفس الشرقية من توثُّب ونزوع الى الطَّفْرة ، وما تحرص عليه مع ذلك من توثيق عُرَى الحاضر بالماضى ، لأن الحاضر والماضى والمستقبل مرتسم فيها منذ الأزل ، مصوّر فى أطوائها على أنه وحدةٌ تتطوّر حياتها كما تتطوّر حياة الكائن الحىّ ، لا على أنه أجزاء منفصل بعضها عن بعض ، لا تتسق فى كلّ ولا تربطها وحدة الزمان والمكان .

وانطلقنا ، ولم يطل بنا السير حتى كنا ندور فى الجبال مُصعدين نسلك طريقا لا بأس بفسحتها . وإنا لفى إحدى استدارات السيارة إذ انطلق إلى السماء أمامنا جبلان عن اليمين وعن الشمال لَفَتَ انطلاقهما النظر . قال صاحبى : " هذه جبال المُفرِحَات ، وهى طلائع المدينة المنوَّرة " . هنا لك اتجهتُ بكل ذهنى وجنانى الى ناحية مدينة الرسول على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وجعلت أحدِّق بنظرى وحده تارة ، وأستعين بالمنظار المقرِّب أخرى ، أريد أن أجتلى بشائرها . وكأنما شعر السائق بأنا نستعجل بلوغها والدخول اليها ، فدفع بالسيارة فى طريق استقام حتى كأنه قد نُحِت فى الجبل نحتا ، ورصف فيه رصفا . فلما أوفى على غاية هذا الطريق استدار الى طريق آخر ، ثم وقف بغتة بعد استدارته فيه ومد أصبعه الى ناحية الشرق مشيرا وقال : هذه القبة الخضراء .

الله أكبر ولله الحمد ! . بلغنا إذًا مقصدنا . فالقبة الخضراء قبة الحرم النبوىّ . وهى الآن أمامى وعلى مرمى نظرى . فليُسرع حسنٌ إذًا حتى نقوم بزيارة الحجرة التى صارت قبر الرسول الكريم بعد أن كانت سكنه فى الحياة والمكان العزيز عليه فى دار عائشة . وليُسرِعْ حتى نمتِّع النفس والقلب بالوقوف خُشَّعا أمام هذه الحجرة ونسلِّم على صاحبها ، ونشهد أنه بلّغ رسالة ربه ، ونحاول أن نتصل

روحنا الضعيف الرازح تحت أعباء الحياة ومادّتها فى عالم الدنيا بروحه القوىّ الأمين الذى سما بفضـل من الله ومغفرة الى مقام الرسالة الأسنى ، فكان صاحبها الأسوة والمثل فى حياته ،وكان بعد مماته نور الجمال والكمال والسرّ والجلال والوحدة والضياء الوضّاء الذى غمر العالم فأنار له السبل وهداه مَحَجَّة الحق . ليُسْرِعْ فالنفس مشوقة والقلب يودّ أن يطير الى هذا الموقف و يشهد عن كثب منبع هذا النور وأن يتملّى من إشراق سناه . هذه لذّة كبرى بدأت أشعر بها وأريد أن أنهل منهـا وأبلغ الرىّ الروحى رِيًّا لا أظمأ بعده أبدا .

والسيّارة تجرى ، والقبة الخضراء تزداد وضوحا و يزداد النظر بها تعلّقا . وها هى ذى بشائر المدينة المنوّرة كلها تبدو . لقد صرنا إذًا منها قاب قوسين أو أدنى .

وحى المدينـــــة

وقف حسن بالسيّارة بغتة بعد أن آستدار صُعُدًا من الطريق المستقيم الى طريق يليـه، ثم مدّ أصبعه الى ناحية الشرق مشيرا وقال : " هذه القبـة الخضراء " . وقال صاحبي : "نعم ! قبّة الحرم النبوى" . ومددت بصرى فإذا هذه القبة أمامى تقوم حولها مآذن ترتفع فى الجو، وتحيط بها قِباب اصغر منها حجما . ولم يعلَق النظر بالمآذن ولا بالقِباب الصغرى إلا ريثما آرتسمت فى خاطرى صورة منها . أمّا القبّة الكبرى فقد شُدّ اليها نظرى ما يكاد يتركها، وقد آستدعى آنتباهى كل ما جلّ ودقّ من أمرها . ووجهت المنظار المقرِّب نحوها أريد أن أقف على تفاصيلها . ولم يكن ذلك حرصا منّى على آجتلاء ما بهـا من دقائق الزخرف فى عمارتها، ولا أملًا فى أن أستشفّ شيئا ممـا وراء النوافذ التى أحاطت بقاعدتها، وإنمـا دفعتْ إليـه حركة نفسـيّة مبعثها الشغف بكل ما يتصـل بالرسول وقبره، وشـدّة التوق إلى معـرفة كل آثاره .

وذكرت أن من وُلاة مصر من كان لهم حظ فى هذا الأثر . فقايتباى هو الذى أمر بإنشاء هذه القبّـة . ومن بنى وطنى رجالِ العمارة من شاركوا فى تشـييدها . وشـعرت لذلك بغبطـة أفعمت قلبى سرورا ورضا . على أنى مالبثت أن سألت نفسى : " فيمَ الغبطةُ أن يأمر والٍ مصرىٌّ بتشييدها ! وإنمـا شأنه فى ذلك شأن كثيرين من أمراء المسلمين وملوكهم ممن لهم فى عمارة هذا المسجد حظ وأثر " . لكن هاتفـا وجدانيًّا هتف بى : " الأقربون أولى بالمعروف ، وبنـو الوطن هم الأقربون الأوّلون ، وبينك وبينهـم مع إخاء العقيدة الروحى إخاء القـربى وإخاء التاريخ والشركة الوثيقة فى أرض الوطن ونهره وسمائه " .

وتنطلق القبّـة بشاهدها المدبّب فى السماء، ويلمع على سـطحها الأخضر وهج الشمس الوضّاء ، فيزيدنى منظرها تعلّقا بها حتى ما أكاد أجد لى منصرفًا عنهـا .

وتتقـدم السيارة فى الطريق وتتلوّى مع بعض أجزائه فتغيب القبّـة عن ناظرى وتقـوم أمامها أبنية متواضـعة حيناً وهضابٌ قليـلة الارتفاع حينا آخر. ويذكر صاحبي بعض ما يعرف من أمر هذه الأبنية وهذه الهضاب وأسمع له . لكن القبة تبقى مع ذلك مرتسمة أمام ذهنى وكأنْ لم تغب عن ناظرى . أليست القبة منارةَ القبر الذى يثوى فيه رسول الله ! أوَليست المدينة هى التى أوى اليها فنصرته من يوم هجرته الى أن آختار الرفيق الأعلى ! . فما الجبال وما الهضاب وما الأبنية التى يحدث عنها صاحبي الى جانب ما تحدِّث القبة عنه مما يملأ القلب روعة وهيبة وجلالا ! .

وذكرت ما دار بخاطرى من يومين وأنا بمجلسى من المسجد الحرام بعد طواف الوداع، وقلت فى نفسى : " إذا كانت مكة مدينة السلام فهـذه المدينة لاريب مدينة الجهاد . كذلك كانت يوم هاجر النبيّ اليها، وكذلك بقيت من بعده طيلة عهد خلفائه الراشدين. هذان وصفان أفاء الله أحدهما على مكة، والآخر على المدينة، فبقى لها على عهد النبيّ، لم يتغير ولم يتبـدّل؛ وكان حقًّا أن يبقى لها ما بقى للمسلمين على الأرض سلطان . ولقد فتح الله مكة على محمد وعلى المسلمين، نخشى الأنصار العاقبة وقال بعضهـم لبعض : أترون رسول الله إذ فتح الله عليـه أرضه وبلده يقيم بها ؟ وكان جواب النبيّ حين علم ماقالوا : " معاذَ الله! المَحْيَـا مَحْيَاكم والمماتُ مماتكم " . ولمـا قسم محمد فىء حُنَيْنٍ ورأى الأنصار كيف تألّف النبيّ أبناء مكة وكيف أجزل لهم العطاء، ظنوا أنه سيقيم بينهم وقال بعضهم لبعض : لقى والله رسولُ الله قومَهُ . فكان ممـا تحدّث به إليهم حين بلغته قالتهـم : " ألَا ترْضَوْنَ يامعشرَ الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ! " . ومن قبـلُ جنح الرسول إلى السلم عام الحديبية لم يثْنِه عنه تحرّش أوشابِ مكة بالمسلمين ولا غضب أصحابه من تجهُّز أهل مكة لقتالهم .

أمّا المدينة فبقيت بعـد الفتح كما كانت قبله مدينة الجهاد . منهـا وجه النبيّ قوّاده بعد الفتح إلى ناحية الروم فى غزوة تَبُوك ، ومنها جهّز جيش أُسامة بن زيد

كى يأخذ بثأر أبيـه من قتل الروم إياه فى غزوة مُؤْتة، ومنهـا كان قد جهز قواده قبل الفتح فى بَدْرٍ وأُحُد وقُرَيْظة وخَيْبَرٍ حتى ضم العرب جميعا فى دِين واحد وتحت لواء واحد . أمّا مكة فبقيت حراما كما كانت منذ أُقيمت قواعدها، لم يُسْفَك فيها دم ولم يُعْضَدْ فيها شجر، وبقى شعار الذين يدخلونها و يؤدّون التحية لبيت الله فيها : "رَبَّنا منك السلامُ و إليك السلام حَيِّنا رَبَّنا بالسلام" .

أدّت بى هذه الموازنة بين البلدين وما أفاء الله على كل منهما من حظ إلى التفكير فى الإسلام أدينُ سلامٍ هو أم دينُ جهاد ؟ . وأعاننى على التفكير ونحن على أبواب المدينة أنا وقفنا ننتظر "البُكْس" حتى لا يقفه الموكّلون بأسوار المدينة عند بابها . فللمدينة، فيما ذكر لى أصحابى، سورٌ وأبواب، ولا يتخطى أحد إليها إلا أن يُبرز جواز مروره لحرّاس أبوابها . وأدّى بى تفكيرى فى هـذه السويعة إلى أن الإسـلام دين سلام فى بدئه وغايتـه، وأنه مع ذلك دينُ جهادٍ متصـلٍ فى سبيل السلام . فقد نزل الوحى الأوّل فى بلد السلام على غار حراء، وقد أكمل الله للمسلمين دينَهم وأتمّ عليهم نعمته فى بلد السلام بعـد حِجّة الوداع . وكانت الدعوة إلى هـذا الدين عن طريق الجهاد السلمىّ فى بلد السـلام حتى الهجرة . فلما لم يجب أهـل مكة داعىَ السلام، وأعرض عنه رجال القبائل الذين يجيئون حاجّين بيتَها، هاجر النبىّ إلى يثرب جهادًا فى سبيل السلام . وكانت خُطّته أن يدعو إلى السلام وأن يذود عن حياضه من يريدون أن يصرفوا الناس عنه، و إن آقتضى ذيادُه نضالَهم وقتالَهم . ومن ثَمّ كان ما حدث من مَغَازٍ وسرايا أثناء مُقام الرسول بيثرب جهادا فى سبيل السلام لا يبلُغ غايته حتى يُظِلّ الناسَ كافّة بلوائه . فاذا آمنوا أصبحوا إخوة وتحابّوا بنور الله بينهـم وبلغوا بالإنسانية الكمال الذى تَنشده . وهـذا الكمال هو الإيمان عن علم بالله جلّ شأنه، والبلوغُ عن طريق العلم إلى معرفة سُنّته فى الكون . فهذه المعرفة هى التى تزيد الإيمان تثبيتا وتجعل طريق الإيمان ضياء ونورا .

الإسـلام إذًا هو الجهاد فى سبيل السلام : سـلام الروح للفرد من طريق الرضا عن علم ، وللجماعة من طريق التحابّ فى الله وبنور الله ، وللإنسانية كلها من

طريق الأخوّة التى تدعو المرء ليحب لأخيه ما يحب لنفسه . ذلك هو الكمال الذى يدعو الإسلام إليــه ، و إلى الجهاد فى سبيله . وطريق الجهاد شاقٌّ طو يل لمن يظنون الحياة تبدأ بميلادهم وتنتهى بموتهم ، وجيزٌ هيّن لمن يبتغون الدار الآخرة دار السلام والرضا ، و يرون للإنسانيــة كلها من الوحدة فى حياتها ما للفرد من الوحدة فى حياته . أولاء يرون فى الجهاد ما يرون فى السـعى والعمل من عبادة لله وتقوى إيّاه يثاب العامل عليها و يُجْزَى الجزاءَ الأوفى .

الإسلام جهادٌ فى سبيل السلام . وجهادُ المرء نفسَه لينعم رُوحه بالسلام ليس دون جهاد الجماعة من يحاول العـدوان عليها والحدّ من حريتها فى سعيها وعملها . فحياة الفرد موجز كامل من حياة الجماعة ومن حياة الإنسانيــة . والسعيد السـعيد من لم تخدعه المسرّة العاجلة ولم تحل بينه و بين إشراق الروح بالمسرّة الدائمة وضياء القلب بالمعرفة فى أكمل صورها . والجماعة السعيدة من عرفت طريق الحق والعدل المجرّد من الهوى ، ولم تخدعها المذاهب الزائفة ، ولم تدفعها الى طريق البطش المَغْرُورِ الذى يجعـل الحياة نضالًا على مُتَع العيش ولذاذاته ، والذى يسخّر الجيوش ويجنّد الجنود ليسلب القوىّ طعامَ صاحب الحق فى هذا الطعام .

تجلّى لى وأنا عند هذا الموضع من تفكيرى ما كان من جهاد الرسول بمكة ومن جهاده بالمدينة . إذ ذاك آدّكرت ما يعقده قوم من الموازنة بين هذا الجهاد وذاك ، ومن تفضيل أحدهما على الآخر ، وادّكرت ما ترويه كتب السِّيرة عن عهد مكة ومبلغه من الإيجاز بالقياس إلى ما ترويه عن عهد المدينة . وإن جماعة من المستشرقين ليعقدون الموازنة بين الجهادين ، فيُشـيدون بجهاد مكة ويرونه دعوة خالصة إلى عقيدة أيقن محمد أنها الحق ، وآمن فيما بينه وبين نفسه أن الله أمره أن يبلّغها الناس ، وهى لذلك دعوة جديرة بالاحترام ، والجهادُ فى سبيلها جهاد مبرأ من كل غاية ذاتية ، وفيه لذلك من مظهر السموّ الروحى ما هو جدير بالإكبار ؛ ولذلك سما بمحمد فى نظرهم إلى مرتبة العظماء الذين خلّد التاريخ ذكرهم . أمّا جهاد المدينة

فيراه هؤلاء المستشرقون جهاداً فى سبيل السلطان ، دفع إليه الحرص على الانتقام من قريش لأنها أخرجته ومن تبعه من ديارهم ، وأغرى الظفر فيه على الاستئثار بالقيادة والملك، وقد كان محمد يَعَفّ عنه ويتسامى عليه أيام مُقامه بمكة . وهذه غايةٌ ينزل الجهاد فى سبيلها منزلة مثلِه من جهاد ذوى الأطماع من القادة والغُزاة . وفوز محمد فى هذا الجهاد بالانتقام من قريش وببلوغ الملك والسلطان فى جزيرة العرب كلها هو الذى أضفى على تاريخه البريقَ وجعل الإنسانية تشخص إليه إجلالا وإعجابا . لكن فوزه فى هذا الجهاد المدنى قد ألقى على غاياته من دعوته المكية ألوانا من الشبهة ذهبت بالكثير من جلالها وجمالها وهوّن من مبلغ الإكبار لجهاده الشاق الطويل فى سبيلها .

ربما خدعت هذه الموازنة من تسحرهم الحجة المنمّقة عن تنطُّس الحقيقة وتصرفهم عن الإحاطة بها من كل نواحيها . وهى فى الحق موازنة خادعة ساحرة . ألم يكن محمد بمكة فقيرا ضعيفا عاجزا عن دفع الأذى عن نفسه معرّضا أن يغتاله خصوم دعوته لولا حماية أهله من بنى هاشم إياه ! وهو لم يهاجر إلى المدينة إلا بعد أن عقد حِلْفًا بينه وبين الأوس والخزرج أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . فهم بهذا الحلف قد عاهدوه على أن يقاتلوا دونه وأن يكونوا فى قيادته . وبعد أن هاجر وجه السرايا والغزوات الأولى ليقطع الطريق على قريش الى الشام، وليغنم وأصحابه ما تحمِل قريش فى رحلة الصيف من أموال وتجارة . وغزوة بدر التى أشاد القرآن بها وببلاء المؤمنين فيها، والتى يعتبرها المسلمون علَماً على الجهاد فى سبيل الله، فهم لذلك يذكرونها ويملئون مواضغهم فخرا بآثارها ، إنما تحرّك محمد وأصحابه اليها ليأخذوا على أبى سُفيان طريقَه من الشام الى مكة ولينهبوا تجارته . ولم يُخْفِ محمد ذلك إذ ندب المسلمين حين بلغه عود أبى سفيان من الشام وقال لهم : "هذه عِيرُ قريش فاخرُجوا اليها لعلّ الله يُنَفِّلُكموها" . وما حدث بعد ذلك فى أُحُد وفى الخَنْدَق وما كان من إجلاء اليهود عن المدينة تمهيدا لإجلائهم عن بلاد العرب، ذلك كله

إنما حدث دفاعًا عن العاصمة التى آتخذها محمد مقرًا لملكه . وفتح مكة وغزاة حُنَيْن وحصار الطائف، إنمـا حدثت بعد أن آستقرّ لمحمد الأمر وآستتبّ له السلطان . أمّا ما حدث بعد ذلك وأثناءه من تحطيم الأصنام ومن مداومة الدعوة للدين الجديد فشأنُ محمد فيــه شأن نابليون حين زعم وهو يدوّخ البـلاد و يفتح الأمصار أنه ينشر مبادئ الثورة الفرنسية ، وشأنُ الدول المستعمرة اليوم حين تقرّ النُّظُم القائمة عندها فى البلاد التى تغزوها وتفتحها مستعمرةً حاكمة ، زاعمة أنها تقيم الحضارة بين أهل هذه البلاد . فجهاد محمد بعد هجرته الى المدينة إنما كان جهاد آنتقام وغَلَب، دفعت اليــه العواطف الإنسانية القويّة فى هــذا الرجل الموهوب ، ولم يكن فى شىء من جهاده بمكة للدعوة إلى حقيقة آمن بها .

كذلك يقول جماعة من المستشرقين حين يوازنون بين الجهادين . وموازنتهـم كما ترى خادعة ساحرة ، لكنها خاطئة كاذبة . والحقيقة التى يلمسها من أخلص للتـاريخ ولله وجهــه أن غاية النبىّ العربىّ من جهاديه كانت واحدة . كان بمكة يجاهد للدعوة، وكان بالمدينة يجاهد لحمايتها والدفاع عنها . ولم يكن له من وراء هذا الجهاد بكلتا المدينتين غايةٌ إلا أن يبلّغ رسالة ربه للنـاس كاملة . ولم يُرد الله أن تشوب هذا الجهاد شائبة . فهو إذ هاجر الى يثرب بعد بيعتى العقبة إنمـا هاجر بعد سائر المسلمين إلا من آثر البقاء بمكة . وهو قد نصح للسلمين أن يهاجروا إلى يثرب كما نصح الى إخوانهم من قبل أن يهاجروا الى الحبشة ، فرارًا الى الله بدينهم حتى يجعل الله لهم فرجا مما هم فيه . وهو قد آختار الحبشة للهجرة الأولى؛ لأن بها ملكا لا يُظْلَمَ عنــده أحد، وقد آختار يثرب للهجرة الثانية لأن الإسلام آنتشر بين أهلها فآمن به منهم كثيرون كفلوا أن يمنعوا من كان على دينهــم أن يناله الأذى أو أن يُفْتَنَ عن دينه . وقد آنتشر الإسلام بيثرب بعــد العقبة الأولى حين بايع اليثربيون النبىّ على : ” ألّا يُشرك أحــدهم بالله شيئا ولا يسرق ولا يزنى ولا يقتــل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه و رجليــه ولا يعصيه فى معروف؛ فإن وفى ذلك فله الجنــة و إن غشى من ذلك شيئا فأمره إلى الله، إن شاء عذّب و إن شاء غفر“ .

ولمـا تمت بيعة العقبـة الكبرى ، وآختار الذين بايعوا النبيّ من الأوس والخزرج نقباءهم، قال النبيّ لهم : "أنتم على قومكم كُفَلاء ككفالة الحَوارِيّين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومى" . وكانت بيعتهم الثانية هذه أن قالوا : "بايعنا على السمع والطاعة فى عُسْرنا ويُسْرنا ومَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم" . لم تكن أى البيعتين إذاً بيعة حِلْف على حرب، بل عهد صدق على نشر الحق والدعوة اليـه، وإن لامهم اللائمون، أو أذاهم المشركون ، شأنهـم فى ذلك شأن من سبقوهم الى الإسلام من أهل مكة الذين أصلتهم قريش من ألوان العذاب ما تنهدّ له العزائم، فلم يَلِنْ لهم عود، ولم تَهِنْ منهم عزيمة .

وأراد الله ألّا تشوب جهاد المسلمين بيثرب شائبـة ؛ فهم لم يخرجوا الى بدر مقاتلين؛ وإنما خرجوا ليأخذوا عِير قريش من أبى سفيان جزاء ما فعلت قريش بهم حين أخرجتهم من ديارهم وآستصفت أموالهم . وأراد الله أن يفوتهم أبو سـفيان وعيره، وأن تخرج قريش لدفعهم بكل ما لديها من قوة. ولقد كان لهم مندوحة عن قتالها حين لم يبق لهم من وراء هذا القتال مطمع . وفى هذا فكر بعضهم حين رأى المسلمين أقل من قريش عددا وعُدّة . ولو أنهم عادوا الى المدينـة لمـا كان عليهم جُناح وهم لم يخرجوا الى قتال كما خرجت قريش ولم يأخذوا للحرب عُدّتها . أمّا وقد فاتت الغنيمة فقـد وقف الجيشان فى بدر أحدهمـا إزاء الآخر فى مثل موقف محمد وأصحابه من قريش حينما كانوا بمكة قبل الهجرة . وقفت الدعوةُ الى الدين الجديد تواجه الوثنيّة وأصنامها وحُماة هذه الأصنام . وقف الإيمان بالله وحده لا شريك له فى وجه الشرك والأصـنام يتخذها عُبّادها الى الله زُلْفَى . وعبّاد الأصـنام يومئذ أكثر عددا وأعزّ نفرا . أفيغلب الإيمان الشرك ، أم يغلب الشرك الإيمان؟ هذه كانت المسألة يوم بدر . لم تبق عِيرٌ ولم يبق مطمع فى غنيمة ، وإنما يلتقى الإيمـان والكفر يقتتلان، يريد الكفر العتيق أن يسحق الإيمان الناشئ بقوة عدده، ويرجو الإيمـان الناشئ أن يدفع بغى الكفر بقوة بأسه وسموّه بالنفس فوق دنيا الحيـاة .

والعشرون الصابرون من المؤمنين يغلبون مائتين من خصومهم ، والمـائة المؤمنون يغلبون ألفا . وكذلك تم الغَلَبُ للمؤمنين .

ويحاول الشرك من بعد ذلك أن يحطم الإيمان فى أُحُد، وأن يقضى على المسلمين بالحصار فى غزوة الخندق؛ والإيمانُ أثنـاء ذلك ينتشر وكلمة الله تعلو . ويحاول الشرك أن يصدّ الإيمان فى الحديبية، وأن يحول دون دخول المسلمين مكة، فلا يرضى الرسول أن يقتحم الحرم ويُؤثر أن ينتظر عامًا فيدخلها المسلمون آمنين ، وتبقى مكة حرمًا للسلام . ويزداد الإيمـان قوة ويسير جيشه لفتح مكة، فلا يرضى الرسول أن تهدر حرمتها، ويفتحها الله عليـه ولا يراق دم ولا تزهق فى حرب نفس ويعفـو الرسول عن خصومه جميعا . فلما آستتب للدين الجديد الأمر وآمن النـاس جميعا برسالة محمد ، لم يغيِّر محمد من حياته ولم يعرف الملك وسلطانه، بل ترك الأمر كما كان فى شبه الجزيرة : ترك كلَّ أمير على إمارته، وكلَّ رئيس على رياسـته ما آمن بالله وبرسالته على لسان نبيه ورسوله .

أين هذا كله مما يقوله أولئك المستشرقون ! وهم قوم أوتوا نصيبا من العلم وفى مقدورهم أن يميزوا الخبيث من الطيب والحق من الباطل؛ فما لهم يدعون إلى موازنة كاذبة خاطئة ، كَذِبُها بين وخطؤها صُرَاح! إنا لا نحسبهم نقموا من محمد أن يؤمن بالله العزيز الحميد ؛ لكنهم إذ يلتمسون أسرار الكون والحياة يلتمسونها فى الأحياء الدنيا وفيما أَلِف الناس من طبقات الإنسانية ، وهم يريدون أن تخضع القُوَى العليا لسنن هذه الكائنات، فهم لذلك يخطئون إن حسنت نيّتهم، ويكذبون إن ساءت هذه النية .

أمّا وهذا مبلغ الخطأ فى تلك الموازنة فمن عجب أن تكون بعض كتب السيرة مثارها . فقد أَلِف قوم أن يجعلوا من مغازى الرسول بعد الهجرة موضع عنايتهم كلها، وأن يظهروه صلى الله عليه وسلم مظهر القائد الذى يستنفره الظفر فى القتال إلى آبتغاء ظفر مثـله ، يريد بذلك أن يَخضع النـاس لجبروته رهبةً له . ولا شىء من ذلك

البتة فى مغازى الرسول وسراياه . فمن قبل بدر كانت المناوشات مقصودا بها إلى إقناع قريش ليرعووا عن غيهم ويكفوا عن الأذى ؛ وكانت بدر ما رأيت . ومن بعد بدر وقف المسلمون موقف المدافع عن بيضتهم وعن عقيدتهم وعن حرية الدعوة إليها . وكلما كانت لهم القوة وتم لهم الغلب جنح الرسول إلى السلم والعفو، وترك للناس أمور الحكم والسلطان فى حدود ما أمر الله به وما نهى عنه، جاعلا كل همه إلى بث تعاليمه السامية، و إلى أن يكون للناس الأسوة والمثل .

و إنما دعا بعض كتاب السيرة إلى الإفاضة فى المغازى والحديث عنها أن انتشرت جيوش المسلمين وامتد فتحهم بعد الرسول إلى حيث تضاءلت الامبراطوريتان الفارسية والرومية صاحبتا الحضارة إذ ذاك ؛ وكان سلطانهما قائما على الغزو والفتح للاستعمار لا للحضارة، على نحو مايحدث فى عالمنا الحاضر . وقد أراد هؤلاء الكتاب أن يقرنوا الفتوح الإسلامية إلى عمل الرسول فى نشر الدعوة . هذا إلى أن المؤرخين قد ألفوا إلى عهود ليست بالبعيدة ألا يذكروا من جهاد الإنسانية إلا ما أريقت فيه الدماء أثناء الحروب والثورات ابتغاء الحكم والغلب . أما الجهاد السلمى العظيم المتصل، والذى قطعت به الإنسانية ما قطعت من الخطا نحو الكمال، فذلك ما لم يألفه التاريخ ولا المؤرخون . من ثم رأيناهم يقولون : " إن الأمة السعيدة لا تاريخ لها". فكأنما تاريخ الإنسانية قصة بأسائها وشقوتها، وكأن ما قام به الأنبياء والمرسلون والعلماء وأرباب الفن والمكتشفون والمخترعون، وما مكنوا به من صلة الإنسان بالكون واجتلائه سننه وأسراره، غير جدير بأن يكون فصلا من تاريخ الإنسانية . وهذا هو الخطأ البالغ والضلال المبين . فالحروب ليست إلا نزوات طيش، أو جهادًا لمغالبة نزوات الطيش، أو مصرفا لما فضل عن جهاد الإنسانية لا تستطيع هضمه . أما الحق الذى يجب أن نعرفه وأن نعلمه أبناءنا و إخواننا فذلك أن الجهاد الحق فى سبيل الكمال هو الدأب فى ظلال السلم لمعرفة الحق والإيمان به . والحق هو ما دعا محمد إليه مخاطبا العقل والقلب، دافعا كل وهم

يحول دون إدراك العقـل والقلب لهذا الحق الذى دعا إليه بأمر ربه بالحجة البالغة والمجادلة بالتى هى أحسن .

مرّت هـذه الخواطر بنفسى فى مثل لمح البصر ونحن بموقفنا ننتظر البُكس ، وكان حسنٌ واقفا إذ ذاك إلى جانب السيّارة؛ فلما سمع ضجة البُكس فى سيره آستوى إلى مقعده ودفع السيّارة على هُون إلى ناحيـة باب العَنْبرية من أبواب المدينـة . ما العَنْبَرّية هذه؟ لا أدرى! ولكن كذلك قالوا . وتبدّت أمامنا القبّة الخضراء حين آستدرنا كرّة أخرى وبدأت مبانى المدينـة تنكشف كلها . هذا بناء منهـا بالغ من الجمال حتى لتحسبه من مبـانى القاهرة أو بعض المدن الجديدة . وسألت صاحبي عنه فقال : " هذه (الأستاسيون) القديمة " . فهمت إذًا السبب فى جمال بنائها . فهى المحطة الكبرى لسكة الحجاز الحديدية فى بلاد العرب . وقد تعطّلت سكة الحجاز الحديدية أثناء الحرب الكبرى وبقيت محطة المدينة أمامها السكة الحديدية تنتظر يوما تعود فيه اليها الحركة والحياة .

والسيّارة تتقدّم ومنازل المدينـة وطرقها تبدو أمام النظر . فأمّا هـذا الخلاء الفسيح أمامنا فتلك المُنَاخة . وأمّا ما بينها وبين محطة السكة الحديدية فجبال ومساجد وهضاب حاولت أن أعرف شيئا من أمرها فآعتذر صاحبي عن ذلك بأنها جميعها أثرية يجب أن تُزار، ويجب أن نقف عنـدها، وأن يتحدّث لى هو أو يتحدّث لى العارفون عنها . قلت : أين أُحُدٌ إذًا وأين سَلْعٌ ؟ . قال : هما فى الناحية الأخرى من المدينة، وستراهما غدا أو بعد غد؛ وسترى أثر الخَنْدَق وما شئت من آثار خالدة يذكرها المسلمون ويزورونها للتبرّك بها . وهـذه الهضاب والمساجد القائمة عليهـا والعيـون المجاورة لهـا ثابتة فى بطون الكتب القديمة ثبوتا يجعلها أصـدق نبأ عما تحدّث عنه مساجد مكة ، وأحسبها لذلك ستثير من عنايتك بها أكثر مما أثارت مساجد مكة .

وبلغنا باب العنبرية فآستوقفنا حرّاســه . وباب العنبرية بالمدينة كباب النصر بالقاهرة وباب الساهرة بالقدس وأمثالهـا من الأبواب التى كانت تحيط بالمدن

فى عصور خلت، والتى كانت تجعل منها حصونا منيعة تصدّ المغير عليها دون اقتحامها، وهى لذلك قد بُنيت من حجر متين .اء محكما، وقامت فوق جُدُرها السميكة عقود من الحجر تبعث إلى النفس المهابة و إلى القلب الرهبة . ولمّا عرف الحرّاس أمرنا بادلونا أحسن التحيات وأخبرونا أن مُضيفنا قـد أقام بنفسه ينتظرنا ، وأنه طلب إليهم أن يُرشـدوا السائق إلى داره . وآبتسم السائق حسن وذكر أنه يعرف الدار خير معرفة . ومن ذا الذى لا يعرف دار الخريجى بالمدينة أكبر تاجر وأعظم سَرِىّ فيها وصهر وزير المـالية! . وانبعث حسن بعـد أن تخطّى العنبرية فى طريق فسيح حتى بلغ بيتـا حديث البناء وقف قُبالته وقال : هذه دار الخريجى الجديدة ، لكن بناءها لم يتم بعدُ . وآستأنف سيره فمرّ بميدان أو مايشبه الميدان، ثم آستدار فى طريق ضيّق أدّى به الى زُقَاق أشدّ ضيقا، تنفّس عن رحبـة ليست بالفسيحة، ولكنها تبدو كذلك بالقياس الى ما يتفرّع عنها من الأزقّة؛ هنالك وقفت العـربة ووقف البُكس ونزلنا . وكأنما شعر أصحاب الدار بوقوفنا فخرجوا الينا وآستقبلونا بأجمل التحية.

عَجَبٌ أمرُ السفر فى هذه البلاد الإسلامية المقدّسة . إنّ لنا الآن لستا وأربعين ساعة مذ غادرنا مكة لم نذق أثنـاءها للراحة طعما . بلغنا جُدّة أمسية الاثنين ولم أنم بها خمس ساعات . وقضينا طِيلة يوم الثلاثاء بين جدّة وآبار بنى حصان . ولم نقض بـ (أوتيل آبار بنى حصان) سوى ثلاث ساعات كان المبيت بالعراء خيرا منها . وهانحن أولاء نبلغ المدينة والعصر وشيك أن يؤذن ، أو لعله قـد أذّن المؤذّن به . مع ذلك أرانى جمّ النشاط أودّ لو أخرج لِتوّى لزيارة المسجد النبوىّ والحجرة النبوية فأؤدّى بذلك تحية المسلم الى مقام الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام .

وأفضيت الى مُضـيفى برغبتى . قال : بل آسـترح قليلًا وأزل عنـك غبار السـفر، فإذا تناولنا الطعام خرجنا للزيارة . قلت : ما بى الان الى الطعام حاجة، وأوثر أن أتناوله بعد صلاة العشاء . وصعِدت مع ابن المضيف الكريم الى الطابق الأوّل حيث غرفنا ومتاعنا؛ هنالك أقمت ريثما آطمأننت إلى دار المقام وتوضّأت

وأخذت أهبتى للزيارة . ونزلت ونحن من صلاة المغرب على نحو نصف الساعة، وقمت مع مضـيفى فسرنا فى زُقاق ضـيِّق آستدرنا منه الى آخر والى طريق أكثر سعة ينتهى بعقد من البناء فوقه . وهبطنا درجة وآستدرنا الى اليمين فاذا بنا نستقبل باب السلام من أبواب المسجد .

وسرنا نحو الباب نقطع بضعة الأمتار التى بيننا و بينه . سرنا فى زحمة جمع جاء يؤم المسجد لصلاة المغرب يريد أن يقضى فيه الفرض والسنّة ويجلس فى الروضة النبويّة ليثاب عن صـلاته أضعاف ما يثاب عنها فى سائر أنحـاء المسجد . كذلك عرفت مذ كنت بمكة ، وكذلك ذكر أصحابى وأنا بمصر قبل أن أسافر الى الحجاز، وبذلك تجرى روايات كثيرة . أنا إذًا على خطوات من الروضة النبويّة، ومن الحجرة النبويّة . وفى هنيهة سأتخطّى باب السلام فأكون فى حِماها وحرمها .

يالجَلال الموقف ! أخذت به قبل أن أبلغه وأن أقف فيه ! . وبلغ من شغلى به أن لم أُعْنَ بما حولى؛ بل أطرقت إلى الأرض وغاب عنى كل شيء إلا ما أنا مقبل عليه . لقد حاولت وأنا بمكة أن أعرف أين وُلد الرسول وأين كان مقامه فلم أجد لشيء من ذلك أثرا ثابتا . فلمّا وقفت أمام الغار فى قمة حِرَاء حيث نزل عليه أوّل الوحى، ولما أويت إلى غار ثور حيث آختفى من قريش عنـد هجرته، آهتزّ كل وجودى ورأيت من أمرى عجبا . ترى ما عسى أن يكون من أمرى ساعة أقف أمام الحجرة ، وحين أقف فى الروضة أصلّى حيث خطب الرسول وحيث صلّى بالمسلمين الأوّلين؟ ! هأنذا سأرى . ولم يبق بينى و بين أن أراه غير لحظة .

الكتاب الخامس

مدينة الرسول

فى المسجد النبوى

تخطَّيت باب السلام أتبع مُضيفى وفى ذهنى من هذا المسجد النبوى صورة خيلتها فيه ما اطلعت عليه من كتب الرحلات إلى الحجاز وما فى هذه الكتب من أوصاف وصور شمسية . وتخطّيت باب السلام وكلى التَّوْقُ للوقوف أمام الحجرة النبويّة والسلام على صاحبها عليه أفضل الصلاة والسلام . وكنت أحسب بعد الذى رأيته بمكة والطائف وطريق المدينة من آثاره أنى ألِفت هذه الآثار، فلم يبق منها ما أخشى النظر إليه بعين الباحث، لا أستثنى من ذلك إلا قبره الكريم حين أقف أمامه . لذلك أقمت داخل الباب أنتظر "المزوِّر" الذى أومأ مضيفى إلىّ بانتظاره، وأكاد أحسب أنى لن أرى فى طريقى إلى الحجرة النبويّة إلا ما أعرف. لكننى ما لبثت حين تقدّمت فى المسجد خطوات فاشتملنى شَفَقُه الرهيب أن نسيت ما كان ماثلاً فى ذهنى من صورة المسجد والحجرة مما اطّلعت عليه فى الكتب أو سمعته من حديث من سبقونى إلى هذا المكان، فما كان من ذلك فى نفسى إنما كان صورة وعاها خيالى، وهأنذا الآن أواجه الحقيقة ذاتها، أشهدها بعينى وألمسها بجوارحى . وما عسى أن تغنى الصورة عن الحقيقة أو يغنى الخيال عن الحس ! . انجابت الصورة وانجاب الخيال وسرتُ أتبع مزورى نحو الحجرة، مأخوذا بما حولى، منصرفا مع ذلك عن كل ما حولى . امتدّت عن يسارى غابة من العمد الضخمة البديعة الصّقل ، وهبط من نوافذ المسجد الرفيعة فى جداره القائم عن يمينى ضوء مبهم لم يحجب الأشعّة المنبعثة من مصابيح الكهرباء منبسطة على السجاجيد الثمينة التى نسير عليها . مع ذلك لم يشخص بصرى إلى العمد ولا ارتفع إلى النوافذ ولا استقر على السجاجيد، بل سرتُ مندفعا أمامى كاسر الطرف خشوعا ورهبة، ممتلئ القلب من سيرة الرسول الكريم ؛ تتواتر فى نفسى دِراكًا مواقف العظمة والجلال مذ بعثه الله نبيًّا حتى اختار الرفيق الأعلى . ثم تقف النفس عند هذا المكان الذى أخطو فيه

والذى خطا صلى الله عليه وسلم فيـه سِنِي مُقامه بالمدينة، والذى شهد من أمر الله ووحيه إلى نبيّه ورسوله، ومن وقوف المسلمين الأوّلين حافّين من حوله، ما جعلنى أنسى كل شىء إلا هذه المواقف التى غيّرت وجه العالم بعظمتها وجلالها، وبفضل الله ومشيئته، وبإيمان المسلمين الأوّلين بالله وبرسول الله .

وبلغنا الحجرة النبويّة، ووقف مزوّرى واستوقفنى قُبالة قبر الرسول الشريف . فلما اطمأننت مكانى إزاء المقصورة الجميلة أشار إلى فتحة فيها هى شبّاكها ثم تلا وتلوت من بعده : " السلامُ عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته . نشهد أنّ نبىّ الله ورسولَه قد بلّغ رسالةَ ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه، وأنه وَفَى بوعده، وأمر ألّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له " . ثم تحرّكنا خطوة صغيرة وقفنا بها من المقصورة إزاء قبر الصدّيق أبى بكر وسلّمنا عليه، وتحرّكنا خطوة صغيرة أخرى وقفنا بها إزاء قبر الفاروق عمر بن الخطاب وسلّمنا عليه، ثم تلونا الفاتحة .

أقمت مكانى هنيهة شاخصا إلى هـذه الحجرة مأخوذ الذهن عن التفكير متّجها بقلبى إلى هذا الدليل الذى يتلو أمامى ما يقتضى الموقفُ تلاوته، حَذِرًا أن يفوتنى منه شىء، وكأننى فى حضرة ملك أؤدّى مراسم الإجلال والإكبار . كلّا ! بل كان الموقف أكبر من حضرة ملك ؛ فقد لقيت ملوكا وتحدثت اليهم، ولقيت بعضهم وما أزال فى صدر الشباب، فلم أجد للقياهم مثل هـذه المهابة ولا امتلأت نفسى أمامهم بشىء من هذا الإكبار . ووقفت أمام قبور لملوك وفراعين وبراطرة وعظماء فلم أشعر بشىء من الجـلال الروحىّ الذى أخذ على تفكيرى المسالك وأنا فى هـذا الموقف . وأشهد لقد كنت فى حيرة ما أصنع . وإنمـا أنقذنى من هذه الحيرة أن دعانى المزوِّر لأذهب إلى الروضة النبويّة فأؤدّى بالصلاة فيها تحيّة هذا الحرم وأصلّى فيها وراء الإمام فريضة المغرب . وتقدّمنى مضيفى عائدا نحو باب السلام ؛ فكان جدار المسجد الذى به محراب القبـلة إلى يسارى، وكان إلى يمينى حاجز يرتفع إلى ما فوق قامة الرجل صُنِـع من أعواد صفر لعلها من النحاس أو من حديد طُلِى بلون

النحاس ، واتصل بينها شبك من لونها . وهذا الحاجز يقوم على حدود الرواق الجنوبي الذي نسير فيه فيفصله عن الروضة النبوية ، ويمتد على طول الطريق من الحجرة إلى مقربة من باب السلام . على أنا لم نكد نتوسط هذا الطريق حتى دخلنا الروضة من باب فى الحاجز لم تُغنِ الفرصة على الوقوف عنده وإنعام النظر فى صنعه ، فقد ألفيتُنى وسط جمع زاخر جلس فى صفوف متراصة ليس بينها مكان لواقف . أأتخطى هذه الصفوف لعلّى أجد لى فيما وراءها مكانا ! . وهممت أن أفعل لولا أن أومأ إلىّ مُضيفى فوقفت ، وأسرّ حديثا إلى رجل من خدم المسجد فأرشدنى الرجل إلى مكان أقف به فى الصف الأول من الروضة إلى جوار منبر لم أشك أنه منبر الرسول . وهمّ يناولنى كتابا فى يده ، فألفانى أسرعت إلى إقامة الصلاة تحية للحرم وللروضة وسلاماً على صاحبها عليه السلام . فلمّا فرغت من الصلاة مدّ إلىّ يده بالكتاب ، وفتحته فإذا هو مصحف مخطوط مذهب جميل . والتفتُّ فرأيت فى يد جارى اليمين كتابا صغير الحجم أدركت أنه دلائل الخيرات ، لأننى عرفت من قبلُ أن بعضهم يتلوها حيناً ويتلو فى المصحف حينا آخر كلما جاء إلى الروضة . ومددت البصر إلى اليمين فوقع على مقعد فوقه عدد عظيم من المصاحف والدلائل ، وإلى جانبه كراسىّ من الخشب المطعّم يستعين بها بعضهم فيجعل عليها المصاحف أو الدلائل أثناء التلاوة فيها . وتستند المصاحف والدلائل الموضوعة فوق المقعد الى المنبر النبوى الذى تنتهى الروضة بعده . ولم أحاول التحديق فى المنبر تحديق الفاحص ، لأن حالى النفسية فى هذه اللحظة لم تكن حال فحص أو تحقيق ، بل كانت حال عبادة وتهجد وتوجُّه خالص إلى الله .

ونادى المؤذّن لصلاة المغرب ، فانتظم الناس صفوفا فى الروضة وفيما أمام الروضة من الرواق الذى به المحراب العثمانى وفيما وراء الروضة لا ريب . وصلّينا مع الإمام ركعات المغرب ، ثم صلّى السنّة من شاء ، وأقمت بعد ذلك وبى إلى أن أطيل المقام بالروضة هوًى ألحّ بى أن أبقى إلى صلاة العشاء لعلّى أجد فى هذه الفترة فرصة التأمل فيها

حولى وتدبره . لكن مُضيفى أقبل نحوى ودعانى فتبعته خلال الروضة نحو باب السلام ؛ على أنه انفتل قُبَيْلَه متجها إلى داخل المسجد مجاورا الجدار الغربى ، فلم تخامرنى الريبة فى حرصه على المرور بى فى أنحاء المسجد كله لأحيط به فى نظرة إحاطةً عامة . ووقف عند مكان من الجدار كأنه الباب عليه إطار وكتابة وقال : " هذه خوخة أبى بكر " ، وذكر معى ونحن نتلو الكتابة ونُعجَب بخطها الجميل ما كان لدور الصحابة على عهد النبىّ من أبواب تفتح على المسجد حتى أمر رسـول الله بسدّها وقال : " لا يبقين فى المسجد خوخةٌ إلا خوخة أبى بكر " ؛ فسُدّت وبقيت هذه الخوخة التى وقف مضيفى أمامها وقرأ معى هذا الحديث الذى كتب على بابها . على أنه لم يلبث أن قال : " إن هـذه الخوخة لا تقع حيث كانت خوخة أبى بكر على عهد الرسول عليـه السلام ؛ فقد وسّع المسجد مرّات بعد ذلك ورُدّ هذا الجدار الغربىّ إلى حيث هو الآن بعد أن كان هناك عند ذلك العمود الذى يحدّد مسجد النبىّ " . وبعد أن أشار إلى عمود عليـه إطار مذكور فيه أنه حدّ المسجد النبوىّ أضاف : " والخوخة الآن تقابل موضعها الأول تماما " .

وعدنا نسير بعـد الخوخة حتى بلغنا باب الرحمة الواقع فى الجدار الغربى كباب السلام . فلما رأيت مُضيفى اتّجه إليه لنغادر المسجد رميت ببصرى لعلّى أُحيط بالمسجد فى نظرة ، فإذا الناس حولى فى زحمة الخروج يدفعوننى نحو الباب ولا يجعلون لى إلى الإحاطة بالمسجد سبيلا ولا من الخروج بدًّا .

أكثرت التردّد من بعد ذلك على المسجد وأحطت بكثير مما فيه خُبْرا . ولقد أعاننى على ذلك أنى اتّصلت منذ نزلت المدينة بالأستاذ عبد القُدُّوس الأنصارىّ صاحب كتاب " آثار المدينـة المنوّرة " وأسـتاذ الأدب العربى بمدرسة العـلوم الشرعية ، كما اتّصلت بكثيرين كان لهم فى إرشادى ومعاونتى فضل أذكره لهم وأشكره اجمل الشكر .

أوّل ما يلفت النظر فى المسجد موقع الحجرة النبويّة ؛ فهى لا تتوسّطه كما تتوسط الكعبةُ الحرم المكىّ ، بل تقع فى ركنه الجنوبىّ الشرقىّ على مقربة من باب جبريل .

ولم تكن الكعبة تتوسّط الحرم المكى إلى عهد الوليد بن عبد الملك الذى أصرّ على أن تكون فى وسطه ولو أنفق فى ذلك ما فى خزائن بيت مال المسلمين . ولعله قد حَرَص على ذلك فى شأن الكعبة ولم يحرِص هو ولا حَرَص غيره عليه فى أمر الحجرة النبويّة لأن الكعبة قِبلة المسلمين من نواحيها جميعا، إليها يولون وجوههم حيثما كانوا، فمن الحق أن تتساوى جوانب المسجد الذى بُنى حولها . أمّا الحجرة النبويّة فلم تدخل المسجد إلا سنة ثمانٍ وثمانين من الهجرة، وكان للاعتبارات السياسية دخل فى ضمها إليه . وتقوم دور أثريّة على مقربة من الحجرة النبويّة كدار عثمان ودار أبى أيّوب وديار آل عمر، رئى لاعتبارات سياسية كذلك ألا تضم إلى المسجد . ويقع باب جبريل فى الجدار الشرقى للمسجد فى موضع ينحدر إلى الشمال بعض الشىء عن مكان الحجرة، ومكانه متوسط بين باب السلام وباب الرحمة فى الجدار الغربى . ويقع بعد باب جبريل باب النساء فى الجدار نفسه، وتقع فيما بينهما دكّة الأغوات . وباب النساء فى هذا الجدار يقابل باب الرحمة فى الجدار الغربىّ . وعلى الخط الموصل بين هذين البابين أو وراءه قليلا يقع حد المسجد كما أقام النبىّ بناءه الثانى . وفيما وراء ذلك يمتد المسجد فى مستطيل غير متوازى الأضلاع تزيد مساحته على ضعف مساحة مسجد النبىّ ويتناول زيادة عمر وزيادة عثمان وزيادة الوليد وزيادة المهدىّ . وهذا المستطيل مكشوف لا سقف له، ويسمى الحصوة، وكان به فيما مضى بعض أشجار من نخيل يطلقون عليها اسم بستان السيدة فاطمة، وبه الآن ساعة زَوَالِيّة دقيقة الصنع . وتقوم حول هذا المستطيل المكشوف عمد ضخمة فوقها قِبابٌ من طراز عمد المسجد وقِبابه تحيط بها سائر جدران المسجد . وهذا الإطار الذى يحيط بالحصوة تشمل ناحيته الشرقيّة زيادة الوليد وزيادة المهدىّ، وتتناول الناحية الغربية فضلا عن ذلك زيادةَ عمر وزيادة عثمان . وعمر وعثمان هما اللذان زادا الرواق الممتدّ من الحجرة إلى باب السلام فيما أمام الروضة .

والزخرف فى عمارة المسجد لا يقاس إليه شىء مما فى الحرم المكىّ، وقلّما يضاهيه زخرف فى غيره من مساجد العالم الإسلامىّ، سواء فى ذلك زخرف العمارة

وزخرف المحاريب ، وزخرف السجاجيد وزخرف الثُّرَيَّات . وما آجتمع بالروضة النبويّة من هذا الزخرف يُنسى ما سواه فى سائر أنحاء المسجد . ولا عجب ، فقد تبارى الملوك والسلاطين والأمراء ، بجلبوا إليها من ذلك ما يستهوى اللُّب وما يزيد الناظر إليها إكبارا وإجلالا . يقول برخارت فى وصفها حين رآها سنة ١٨١٥ ما ترجمته[1] : "يجرى حاجز من خشب يبلغ آرتفاعه ثمانى أقدام نقش نقشا عربياً بديعا مبتدئا من أعواد الحجرة الغربيّة موازياً الجدار الجنوبىّ على نحو خمس وعشرين قدما منه ، حتى يبلغ أدنى باب السلام ، ويمتد بذلك من الحجرة إلى عرض المسجد كله تقريبا . وفى هذا الحاجز أبواب عدّة ؛ وهو قد أُقيم ليفصل بين الروضة والرواق الذى يمر منه الزائرون حين دخولهم من باب السلام متخطّين إلى الحجرة خلال العمد القائمة بين هذا الحاجز والجدار الجنوبىّ . وهذا الجانب الذى تقوم فيه العمد الجنوبية مما يقع شمال الحاجز يعتبر أقدس مكان فى المسجد بعد الحجرة ويسمّى الروضة ؛ وهو آسم خلعه عليه محمد لقوله : « بين قبرى ومنبرِى روضةٌ من رياض الجنة » . ويقع منبر المسجد على مقربة من هذا الحاجز فى الوسط ما بين الحجرة والجدار الغربىّ . وآسم الروضة مقصور على المكان الذى بين المنبر والحجرة ، وإن غلب آعتبارُ المكان الذى تقوم به العمد الجنوبية جزءاً منها . ولقد نُقشت عمد الروضة بالأزهار إلى آرتفاع خمس أقدام أو ست ليعاون هذا النقش الخيال فلا يعجز عن إدراك الشبه بين هذا المكان ورياض جنّة عَدْن . ويقوم على جانبى المنبر محرابان هما كالمنبر آية فى دقة صناعة التطعيم وبراعة جمالها . وقد أهدى قايتباى أحد المحرابين من مصر إلى المسجد ، وبعث السلطان سليمان بن سليم بالآخر من الآستانة . وأرض الروضة مفروشة بعدد من السجاجيد الثمينة من صنع الآستانة ، وهى كمثيلاتها بمكة أثمن ما رأيت بالمسجد ، وقد تبلغ قيمتها جميعا نحو ألف من الجنيهات . ومدخل الروضة من ناحية باب السلام رائع المظهر . فالألوان المختلفة

---

(١) (Travels in Arabia : Burkhardt) الجزء الثانى صفحة ١٧٤ وما بعدها طبعة هنرى كلبرن بلندن سنة ١٨٢٩ .

المنبعثة من كل ناحيــة ، والعمد البرّاقة الصّقل كأنها البلّور ، والسجاجيد البديعة ، والرصف الثمين ، والكتابة الذهبيّة المنقوشــة على الحائط الجنوبى ، وتلماع أعواد الحجرة فيما وراء ذلك ، هــذا كله يبهر النظر لأوّل وهلة ، لكنه ما يلبث بعد هنيهة أن يبدو على حقيقته ظاهرًا من الزخرف البرّاق ليس فيه شىء من النفائس الصحيحة " .

ويضيف الحاج عبــد الله برخارت : « فإذا ذكرنا أن هذا المكان من أقدس أماكن العالم الإسلامى كله ، وأنه اشتهر بروعته وفخامته ونفاسة حليته ، وأنه زخرف بكل ما اجتمع من هدايا الغُلاة فى هذا الدين ، ازددنا دهشةً وعجبا أن يكون ذلك كل مظهره . فهو لا يقاس إلى مثوى بقيــة من رُفَات قِدِّيس ، وإن هان شأنُه ، فى أية كنيسة من كنائس أوربا الكاثوليكية . وهو بهذا ينهض دليلا مُقنعا على أن المسلمين لم يساووا المسيحيين الغُلاة فى هِبـاتهم الدينية فى أى عهــد من العهود . ودع عنك أحوالًا كثيرة أخرى تؤيد الاعتقاد أنه مهما يكن من تعصُّب المسلمين وأوهامهم فإنهم لم يُبدوا قط ميلًا للبذل والتضحية المـالية من أجل منشآتهم الدينية ، كما يضحِّى الكاثوليك بل كما يضحى المسيحيّون البروتستنتيّون من أجل منشآتهم » .

سقنا هذه الملاحظة الأخيرة للسويسرى المسلم المدفون بالقاهرة لموازنتها بما كتب غيره ممن ولدوا مسلمين . من هؤلاء صاحب الرحلة الحجازية محمد بك لبيب البتانونى الذى رأى الحجاز عام ١٩٠٧ فى صحبــة خديو مصر عبّاس حلمى الثانى . وهو قد تحــدّث عن الروضة حين حديثه عن المسجد النبوى ، فأشار إلى موضعها من المسجد وإلى أن درابزينا من النحاس الأصفر يبلغ ارتفاعه نحو متر يفصل بينها وبين زيادتى عمر وعثمان اللتين فى جنوبها ، ثم قال : " والروضة على الدوام غاصّة بالناس لشرف مكانتها ، وفيما يلى هذا الدرابزين ربعات قرآنيّة كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحرف الطبع ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، وإلى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئين من الزوّار . وفى غرب الروضة الشريفة قبلته صلّى الله عليه وسلم ، وهى آية من آيات

الله فى كمال بهجتها، وجمال صنعتها، وهى على ٱستقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسـلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانيـة للهجرة عند ما أمره الله تعالى بالصلاة إلى الكعبة المكرّمة . وإلى غرب القبلة المنـبر الشريف ، وهو من الرخام المنقوش باللّيقة الذهبيّة الفاخرة وعلى غاية فى الجمال ودقة الصناعة، أرسل هديةً من السلطان مراد الثالث العثمانى إلى الحرم سنة ثمان وتسعين وتسعمائة للهجرة، فوُضع فى مكان المنبر الذى كان به منبر قايتباى، وهو فى نفس المكان الذى كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

ويذكر إبراهيم رفعت باشـا فى كتابه مرآة الحرمين ما فى الروضـة من الأعمدة الجميلة المُفْرَغة ويذكر "نجفة" كبيرة، ويخص بالذكر نجفتين على أطرافهما تنانير يوقد منها الشمع أهداها إلى المسجد النبوى عباس باشا الأول ، والكبيرة منها معلّقة فى السقف القبلى مما يلى الروضة ، كما يذكر أن عبّاسا هذا أهدى الى المسجد أربع شجرات على أعمدة من البلّور مفرّعات بأغصان مائلة عليها تنانير صافية وُضعت بالروضة المطهّرة وما يليها من الغرب فى صف واحد من الأساطين .

ويصف عبد القُدّوس الأنصارى ٱثنتين من هذه الشجرات الأربع فيقول : " وبجـانبى المحراب نخلتا صفر، مثبتتان فى الأرض، ولكلٍّ جذْر وجذع وسـاق وغصون ، وهما مثمرتان وذواتا أكمام، ولكن ثمرهما قطع البلّور الصافى، وأكمامهما المصابيح الزجاجية الملوّنة" . أما وصف الروضة وما فيها فلم يتناوله صاحب "آثار المدينة المنوّرة" فى ٱتساق كما فعل السويسرى برخارت، بل تحدّث عن بعض مافيها فذكر المحراب النبوى وأنه فى شرقى المنبر : " تزينه الآيات المرقومة بماء الذهب، وقطع ملوّنة من الرخام . وناهيـك بجمال العمودين بجوانبه، فهما من الرخام الأحمر ذى اللون الإثمدى . وفى الجـانب الغربى من المحراب مكتوب : « هـذا مصلّى رسول الله صلى الله عليه وسـلم » . وشكل بناية هـذا المحراب ينبئ على أنه قرين المحـراب السليمانى فى تاريخ العمارة " . والمحـراب السليمانى يقع فى غربى المنـبر،

وبظهره كتابة تنبىء أنه بنى سنة ٩٣٨ هـ وأن بانيه السلطان سليمان. أما المنبر فيقع بين المحرابين ، "وبه اثنتا عشرة درجة، ثلاث بخارجه وتسع بالداخل، مصنوع من المرمر، وظاهره مغمور بالتذهيب وبالنقوش الفائقة، وفوقه قبّة لطيفة قائمة على اربعة أعمدة من المرمر، وفوق بابه شرفات آية فى الإبداع . وإن لماء الذهب لبريقًا حتى لكأن الصانع فرغ من صنعه بالأمس . وتاريخ عمارته وإرساله من قِبَل السلطان مراد هو سنة ٩٩٨هـ، كما تنطق به الأبيات المنقوشة على بابه . وأمام المنبر مقصورة المبلِّغين وتسمَّى المكبرية، وبينها وبينه الى الشمال نحو خمسة أمتار ومنها يقيم المبلِّغون الصلوات، وهى عبارة عن مربَّع رُخَامىّ قائم على ثمانية أعمدة رشيقة، ستة منها محلاة بصِبْغ أحمر عقيقىّ اللّون، واثنان أبيضان " .

سُقْتُ هذه الأوصاف لما فى الروضة اكتفاءً بها عن الوقوف أمام كل أثاث فيها أو زخرف . فهذا الوقوف يقتضى من أراد الإحاطة بجمال الفن فى دقة تفاصيله ساعات طويلة وعلمًا مستفيضا بفنون شتَّى، ما لم يكن ممن يكفيهم إبداء الإعجاب بهذا الجمال والبَهْر لمرآه . ثم إنى على كثرة تردُّدى على المسجد والروضة لم أكن حريصا على دراسة التفاصيل فى عمارته وزخرفه حرصى على دراسة ما تبعثه الروضة وما يبعثه المسجد كلُّه الى النفس الإسلامية فى عهدنا الحاضر من أثر فى خشوعها وتعبُّدها . فهذا الرجل الجالس الى جوار المحراب النبوىّ ملصقا نفسَه به حتى يكاد يصبح جزءا منه مخافة أن يزحزح عن مكانه، مؤمنا أنه يدنو بذلك من رياض جنة الخُلْد ، وهذا الآخر الذى ينفح خادم الحجرة بما ينفحه ليختصّه بمكان الى جوار منبر الرسول يجلس فيه كلما جاء الى الروضة ، وهذه الصفوف الأولى من الجالسين الذين يبدو عليهم أثر النعمة والوجاهة بالقياس الى الجالسين فى الصفوف التى وراءهم؛ هذه المظاهر وأمثالها هى التى عُنيت بملاحظتها ودرسها فى هذا الجانب الأقدس من مسجد النبىّ العربىّ الذى نادى فى الناس بكلمات من ربه : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . ومالى وتفاصيل

المنبر والمحاريب والنجف والسجاجيد وما طُعِّمت به ومِمّ صُنعت وأين نُسجت وهي كلها في نفاسة صنعها ترجمان حالات نفسية في الروح الإسلامي خلال تطوره على العصور ! وما تحاط به اليوم من تقديس ، وما تبعثه الى النفس من أثر في خشوعها وتهجدها، إنما هو صورة النفس الإسلامية في طورها الديني الحاضر. وهذا عندي أجدر بالدرس والعناية من الآثار الفنية لذاتها .

ومما لا ريب فيه أن الأكثرين ممن يجيئون الى الروضة ويختارون أما كنهم منها يحسبون أنها كانت على الصورة التي يشهدونها منذ برأ الله الأرض ومن عليها، أو أنها كانت كذلك على الأقل منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام، وقلّ منهم من يفكر في الأدوار التي مرّت بها من حيث العمارة والزخرف . ولا ريب كذلك في أن لعمارة الروضة ولزخرفها في نفوس هؤلاء الأكثرين اثراً تعبدياً يتغير إذا تغيرت هذه العمارة وهذا الزخرف، كتغيره حين انتقالهم من الروضة الى المكان المحيط بصحن المسجد مع شدة الشبه بين ما في هذا المكان وما في الروضة من عُمُد وما فوق هذه العمد من قِباب . ولو أن النفس الإسلامية كانت اليوم كما كانت في عهد الرسول وخلفائه الأولين صفاءً وطهارةً وقوةً لما تأثرت في خشوعها وتهجدها وتوجهها الى الله بمكان، وإن بلغت الذكريات التي يثيرها هذا المكان فيها غاية الطهر والسمو ، ولكان الاجتماع بمسجد الرسول أدنى أن يبعث فيها من معاني المحبة والقوة والجهاد أسوة بصاحب هذا المكان وأصحابه الأولين ما يزيدها على الحياة قوة، وما يجنبها أن تعبد إلا الله وحده لا شريك له .

يحسب الأكثرون أن الروضة كانت دائماً كما يشهدونها اليوم، أو أنها كانت كذلك منذ عهد النبي عليه الصلاة والسلام . والحق أنها لم تكن إلا في عصور متأخرة، وأن هذا المسجد النبوي قد مرّ به من الأدوار التي تمثل التفكير الإسلامي في تطوره أكثر مما مرّ بالحرم المكي . بل لقد كان هذا المسجد خاضعاً للتطور السياسي والديني أكثر من الحرم منذ صدر الإسلام وفي عهد الخلفاء الأولين .

فقد كان المكان الذى يقوم المسجد فيه مِرْبَدًا لغلامين يتيمين فى المدينة هما سهل وسهيل ابنا عمرو يوم جاء النبىّ مهاجرا اليها . والمشهور أنه صلى الله عليه وسلم انتهى من هجرته الى قُبَاء على فرسخين من المدينة فأقام بها ومعه أبو بكر أربعة أيام . وفى هذه الأيام الأربعة أسّس مسجدها . وكان آخر الأيام الأربعة يوم جمعة ، وفيه سار ومعه أبو بكر وعلىّ بن أبى طالب حتى دخل المدينة وأهلُها فى انتظاره يتحرقون شوقًا لمشاهدته . وهناك فى المسجد الذى ببطن وادى رَانُونَاء أقبل عليه مسلمو يثرب وكلهم الإيمان والمحبة الصادقة . وصلّى الجمعةَ معهم ، واعتذر لمن عرض عليه منهم أن يُقيم عندهم فى العَدَد والعُدَّة والمَنَعَة ، وامتطى ناقته القصواء وألقى لها خِطامها وتركها تسير وأهلُ المدينة من حولها فى حفل حافل . فلمّا كانت عند مِرْبَد سهل وسهيل ابنى عمرو بركت ، فقال رسول الله : "هذا إن شاء الله المنزل" . وتلا : (اللّهم أنْزِلْنَا مُنْزَلًا مُبارَكًا وأنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِينَ) ، وسأل عن المربد فأجابه مُعاذ ابن عفراء أنه ليتيمين فى رعايته ، وأنه سيرضيهما ، ورجاه أن يتخذه مسجدا ، وقبل محمد على أن يدفع ثمنه . وأقام أثناء بناء المسجد فى دار أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى ، وشارك أصحابه فى بناء المسجد وعمل فيه بيديه . وبنى المسجد يومئذ فناء فسيحا ، جدرانه الأربعة من الآجُرّ والتراب ، وسقف جزء منه بالجريد ، وترك الجزء الآخر مكشوفا ، وخصّصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لا يملكون مسكنا .

وقد أورد السمهودى فى كتابه "وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى" روايات لا تختلف عن هذه ولكنها تزيدها وضوحا وتفصيلا . فقد أحاط المسلمون بالناقة فى مسيرها حتى وقفت أمام المربد ، وكان يومئذ يصلّى فيه جماعة من المسلمين . وكان أبو أمامة سعد بن زُرَارة ذا آصرة قُرْبَى باليتيمين وكانا فى حجره ، وكان قد اتخذ بعض هذا المربد واتخذ أرضا له متصلة به مسجدا واتخذ عليه عريشا . وقد أقام النبى اثنى عشر يوما بعد وصوله الى المدينة و إقامته بدار أبى أيوب يصلّى فيه . ثم إنه سأل سعدا أن يبيعه أرضًا تجاور ذلك المسجد مملوكة لليتيمين سهل

وسهيل ليزيد فيه حتى يتسع للمسلمين حين صلاتهم . وكان هذا المربد للتمر يجفَّف فيه، وكان به نخل وغَرْقَد وقبور للجاهلية . فأمر الرسول بالنخل والغرقد فقطعت، وبالقبور فنُبِشت ، وبعظامها فغيِّبت . وكان به ماء فسيَّره فذهب . فلما تم ذلك بدأ بناءه كأبسط مايكون البناء باللَّبِن وسَقَفه بالجريد، وجعل عُمُدَه من خشب النخل.

وذكروا أن محمدا لمّا قدم المدينة قال : "أبنوا لى عريشا كعريش موسى ثُمَامات وخشبات، وظُلّة كظلة موسى والأمرُ أعجل من ذلك" . قيل وما ظلة موسى؟ قال : "كان اذا قام أصاب رأسه السقف" .

وبدءوا يبنون المسجد والرسول يبنى معهم ينقل اللَّبِن والبنَّاءون يبنون . لقيه رجل وهو يحمل لَبِنةً فأراد أن يخفّف عنه بأن يحملها وقال أعطنيها ؛ فأجابه : "اذهب فخذ غيرها فلستَ بأفقر الى الله منى" . وجاء رجل من حَضْرَمَوْتَ يحسن عجن الطين فنحى رسول الله غيره عن هذا العمل وقال للرجل : "آلزَمْ أنت هذا الشغل فإنى أراك تُحسنه، ورحم الله امرأً أحسن صنعته". ولمّا رأى كبارُ الصحابة إقبال رسول الله على العمل أقبلوا عليه جميعا ولم يكن لأغنيائهم قبل ذلك بهذا عهد . وكان علىّ بن أبى طالب يعمل ويرتجز :

لا يستوى من يَعْمُر المساجدا * يَدْأَبُ فيها قائمًا وقاعدا
* ومن يُرَى عن الغُبَارِ حائدا *

وكان عثمان بن عفّان على واسع ثروته وعظيم جاهه ، وعلى أنه كان رجلا نظيفا متنظِّفا، يحمل اللَّبِنة فيجافى بها عن ثوبه ، فإذا وضعها نفض كُمّه وما يكون قد أصاب ثوبه من التراب . وكان سائر المسلمين يعملون ويرتجزون :

لئن قعدنا والنبىّ يعملُ * ذاك إذًا للعَمَلُ المُضَلّلُ

وسرعان ما تمّ بناء المسجد، فقد كان بناء بسيطا جُدُره من اللبن وسقفه من الجريد وعمده من خشب النخل . وقيل إنهم صنعوا من النخل قبلة له الى ناحية المسجد الأقصى، وبقيت كذلك حتى عُدِل بها الى ناحية الكعبة .

وكان هـذا المسجد الأول كافيا على بساطته للغاية التى قصد اليها من بنائه . فقد كان الإسلام كما دعا اليه الرسول دين قوة على الحياة وزهد فيها مع السعى للرزق وجنى ثمراته لكيلا ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا . وكان المسلمون يومئذ يُدركون هـذه المعانى إدراكا دقيقا أن كان لهم فى رسول الله أسـوة حسنة . وأين يكون الزهـد فى الحياة الدنيـا وزخرفها إذا لم يكن فى مساجد الله ودور عبادته ! وكيف يقتـل المرءُ غرورَ النفس اذا لم يشعر ساعة وقوفه مصلّيا بين يدى ربه أنه يتصل بخالق الله لا حائل بينه و بينه؛ تشرق الشمس ويصفو الهواء، فينعمَ من هذا ومن ذاك بفضل الله ، ويقصف الرعد ويهتن المطر، فيحتمل هذا وذاك ساعة عبادته صابرا شاكرا . لهذا لم يكن فى مسجد النبيّ شيء من الزخرف ، ولم يكن فيـه وقاية من قسوة الجو وآنهمار السـيل . وكثيرا ما هَتَنت السماء والنبيّ يصلّى فى المسـجد والمسلمون من ورائه ، فلم يصدّهم هَتْنُها ولاصدّهم ما بالمسجد من طين عن صلاتهم؛ بل لقد رئى صلى الله عليه وسلم وبه من طين المسجد أثركان يُسرع بعـد الصلاة الى إزالته وتنظيفه .

وبقى المسجد على هـذه الحال وجدرانه من اللّبِن وسقفه من الجريد وأكثره غير مسقوف وعمده من جذوع النخل ست سنوات تباعا ، لم يغيّر منـه ما كان من انتشار الإسلام ولا غيّر منـه ازدياد الرخاء بالمدينة وما أفاء الله على أهلها من بسطة الرزق . فلمّـا غزا المسلمون خيبر فى السنة السابعة للهجرة وفتحها الله عليهم كانت المدينة قد أصبحت خالصة للمسلمين وكان أهلها قـد ازداد عددهم بمن سكنها ممن هداهم الله للإسلام ، فلم يكن من توسيع رقعة المسجد بدٌّ . عند ذلك زاد النبي فى مساحته مائة متر مربع . فقد كان الى يومئذ خمسا وثلاثين مترا فى ثلاثين فجعله النبيّ مربعا . وفى رواية أنه جعله خمسين مترا فى خمسين . لكنه لم يفعـل أكثر من ذلك ولم يغيّر من عمارته باللبن والجريد وجذوع النخل شيئا . وهذا المنبر الذى صار من بعـدُ آية فى الفن وإتقانه على ما رأيت ، والذى يسمّى منبر رسول الله ،

لم يفكر النبيّ حين وسّع المسجد فى تغييره ولا فى زخرفته . وما حاجته صلى الله عليه وسلم الى هذا الزخرف المادىّ وكلُّ دعوته الى كمال الروح وسموّها ودأبها للقربى من بارئها ! . وهو لم يتخذ لنفسه منبرا أوّل الأمر ، وما كان ليتخذه لولا أنه شعر بالحاجة اليه . فقد كان يخطب الناس الى جذع فى المسجد حتى شعر بأن القيام قد شقّ عليه . فلما عرف أصحابه ذلك منه ، قال تميم الدارىّ : أنا اعمل لك منبرا كما رأيت يُصْنع بالشام . وقال العبّاس بن عبد المطلب : إن لى غلاما يقال له كلاب أعْمَلُ الناس . قال النبيّ : مُرْه يعمل . فأرسله العباس الى أثلة بالغابة فقطعها ثم عملها درجتين ومجلسا .

وقد جعل النبيّ للمسجد حين بناه ثلاثة أبواب : باب بالجهة الغربية دعى باب عاتكة وهو باب الرحمة الآن ، وباب بالجهة الشرقية دعى باب آل عثمان وهو باب جبريل الآن ، وباب بالجهة الجنوبية بقى سبعة عشر شهرا حين كانت قبلة المسجد فى جداره الشمالىّ لتواجه المسجد الأقصى ؛ فلما تحوّلت القِبلة الى الكعبة سدّ الباب الجنوبى ووضعت القبلة مكانه ، وفتح فى الجدار الشمالى باب مكان القبلة الأولى .

وبقى بناء المسجد على ذلك حتى اختار النبيّ الرفيق الأعلى . ولم يحدُث فى خلافة أبى بكر إلا ما روى من أن سوارى المسجد نخِرت فبناها . فلما كان عهد عمر ابن الخطاب واطّردت الزيادة فى عدد المسلمين لم يكن من توسيع رقعة المسجد كرّةً أخرى بدٌّ . ولقد كان الشعور بضرورة الزيادة واضحا مذ دانت للإسلام بلاد العرب كلها فى عهد الرسول ، حتى لكان يقول : "ينبغى أن نزيد فى المسجد" . ولقد اعتمد عمر الى هذا الحديث حين استقرّ عزمه على الزيادة فكان يقول : لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ينبغى أن نزيد فى مسجدنا" ما زدت .

ودعا عمر كل من كان له الى جوار المسجد دار فقال لهم : اختاروا منّى بين ثلاث خصال : إما البيع فأُثَمّن ، وإما الهديّة فأشكر ، وإما الصدقة على مسجد

رسول الله ، فأجاب الناس . وكان للعباس بن عبد المطلب دار عن يمين المسجد ، فلما خيّره عمر بين هذه الخصال الثلاث رفض أن يجيبه الى شيء منها . قال عمر : إذًا أهدمها . قال العباس : مالَكَ ذلك . فآحتكما الى أُبَيّ بن كعب وآنطلقا اليه فقصا عليه القصّة ، فقال لهما : إن شئتما حدّثتكما بحديث عن رسول الله ، وذكر أنه سمعه صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله أوحى الى داود أن آبن لى بيتا أذْكَر فيه . فخطّ داود خُطّة بيت المقدس ، فاذا تربيعها ببيت رجل من بنى إسرائيل ، فساله داود أن يبيعه إياها فأبى . فحدّثتْ داودَ نفسُه أن يأخذها ، فأوحى الله إليه أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتا أذكَرُ فيه فأردتَ أن تدخل فى بيتى الغصب وليس من شأنى الغصب . إن عقوبتك ألّا تبنيه . قال : يا ربّ فمِنْ ولدى ؟ قال : فمِن ولدك ، وبناه سليمان بن داود . فلما سمع عمر حديث أُبَيّ أخذ بمجامعه وسار به حتى دخل المسجد فوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله فناشد أُبَيّ الحاضرين أن يذكر منهم من سمع هذا الحديث فشهد بعضهم أنه سمعه ، فأرسل عمر أُبَيًّا ، فالتفت إليه وقال : يا عمر ! أتتّهمنى على حديث رسول الله ! . قال عمر : والله يا أبا المنذر ما آتهمتك ولكنى أردت أن يكون الحديث عن رسول الله ظاهرا . وقال للعباس : اذهب فلا أعرِض لك فى دارك . قال العبّاس : أمّا إذ قلت ذلك فإنى قد تصدّقت بها على المسلمين أُوسع عليهم فى مسجدهم ، فأمّا وأنت تخاصمنى فلا . وبنى له عمر دارا بدلها من بيت مال المسلمين .

بدأ عمر توسيع المسجد فى السنة السابعة عشرة للهجرة ، فزاد فيه خمسة أمتار من الناحية الجنوبية ونقل القبلة اليها ، وزاد نحو ذلك من الناحية الغربية ، وزاد خمسة عشر مترا من الناحية الشمالية . ولم يزد شيئا من الناحية الشرقية إذ كانت بها بيوت أمهات المؤمنين ، وكن ما يزلن يقمن فيها ، وفى بيت عائشة منها كان قبرا النبي وأبى بكر . وقد دخلتْ دارُ أبى بكر فى هذه الزيادة لوقوعها فى ناحية المسجد الغربية . ويقال : إن هذه الدار خرجت من ملك أبى بكر فى حياته حين آحتاج الى

شيء يعطيه بعض من وفد عليه فباعها حفصةَ بنت عمر أمّ المؤمنين بأربعة آلاف درهم ، وإن جزءا منهـا أدخل فى زيادة المســجد أيام عمــر وأدخل جزء منهـا فى زيادة عثمان .

لم يُحْدِث عمر حين أنشأ هذه الزيادة فى عمارة المسجد أكثر من أنه زاد فى رُقعته وزاد فى عدد أبوابه . فقد بنى الجدر كما بناها رسول الله من قبله . جعل الأساس من الحجـارة ، وما فوقه من اللّبِن ، والعمد من الخشب ، والسقف من الجريد ؛ وجعل للسجد ستة أبواب : اثنين منها فى الجهة الغربية يحاذيان باب الرحمة وباب السلام الحـاليين ، واثنين فى الجهــة الشرقية يحاذيان باب جبريل وباب النساء ، وبابين فى الجهة الشمالية غُيِّرا من بعدُ فى الزيادات التى حدثت .

لم يكن بناء عمر المســجد على هذا النحو حرصًا منــه على احتذاء سنّة الرسول فى العمارة وكفى ، بل كان كذلك لأن الفكرة فى فن العمارة عند هؤلاء العرب الصميمين كانت مستمدّة من الحاجة أكثر مما كانت مستمدّة من المتانة أو الزخرف . وحاجة هؤلاء المسلمين الأوّلين كانت الى سعة المسجد كى يجمعهم للصلاة ؛ فلم يكن يدور بخَلَد عمر أمرٌ وراء ذلك . هذا ، ثم إنّ الصلاة عندهم كانت توجُّهًا خالصا الى الله يطَّهَّرُ الإنسان له بالوضوء ويأخذ زينتــه عند كل مسجد ، من غير أن يجعل منــه وســيلة تأنُّق أو سبيلا الى فخر أو كبرياء . لذلك لم يكن الزخرف معــروفا فى العمارة العربية قبل الإسلام ولا فى الصدر الأوّل منه . كان بناء الكعبة قبــل عهد النبيّ وقبــل بعثه أبسط صورة للبنــاء ؛ وكان مسجد النبيّ بالمدينــة كما كانت مساكنه ومساكن المسلمين جامعة الى النظافة التقشُّفَ ، والى الطهر الرغبةَ عن الحياة الدنيا وباطل غرورها . فاذا كان الفتح الإســلامى قد آمتد فى عهــد عمر وكانت غنائم المسلمين قد ملأت بيت المــال بمــا سهل معــه بناء بيت للعبادة له من الفخامة ما لكنائس الشام فى ذلك العهد ، فمــا كان الذهن العربى ليتّجه يوم ذاك إلى هذه الناحية ، ولا كان عمر ليبنى المسجد إلا فى هذه الصورة البسيطة البالغة فى تقشُّفها

والتى جعلها الرسول رمز المودّة الجامع للسلمين فى تحابّهم بنور الله بينهم حين قيامهم وركوعهم وسجودهم فى حضرة ذى الجلال والإكرام .

على أن تطوُّرًا حدث يومئـذ لا ينبغى أن نُغفله . ذلك أن عمر اتخذ مكانًا الى جانب المسجد يدعى البُطَيْحاء وقال : "من أراد أن يلغط أو يرفع صوتا أو يُنشد شعرا فليخرج اليـه" . وسبب ذلك أن عمر سمع ناسًا من التجار يذكرون تجارتهم والدنيا فى المسجد فقال لهم : "إنا بنينا هذه المساجد لذكر الله. فاذا ذكرتم تجاراتكم ودنياكم فاخرجوا إلى البقيع" . وسمع عمر رجلا يرفع الصوت فى المسجد فقـال له مغضبا : أتدرى أين أنت! كأنه كره الصوت . وتلاحى رجلان فى المسجد فقـال عمر : أفى مسـجد رسول الله تقولان الهُجْر وما لا يصح من القول ! . وبينما هو فى المسجد عشاءً إذ سمع رجلا يضحك، فأرسل إليه فقال: من أنت؟ قال: رجل من ثقيف من أهل الطائف . فتوعّده قائلا : لو كنت من أهل البلد لنكّلت بك ! إن مسجدنا هـذا لا ترفع فيه الأصوات . ومرّ بحسّان بن ثابت وهو يُنشد فى المسجد فلحظ إليه؛ فقال حسّان : قد كنت أُنشد وفيه من هو خير منك . فآنصرف عمر وقد عرف أنه يريد النبيّ . وكان ماقال حسّان حقّا . روت عائشة أن رسول الله كان ينصب له منبرا فى المسجد يقوم عليه فيهجو الكفّار . وذلك أن رسول الله حين نهى عن تناشد الأشعار فى المساجد لم ينْهَ عما لا يشغل مَنْ فيها مما يتصل بالإسلام ويزيد الشعور به قوّة . وفى المسجد أنشد كَعْب بن زُهَيْر رسول الله قصيدته : «بانت سعاد» .

هـذا التطوّر الذى أدّى بعمر ليأمر من أراد أن يلغط أو يرفع صوتا أو ينشد شـعرا أن يخرج من المسجد إلى البطيحاء يتفق مع روح الإسـلام ونص الكتاب وتعاليم الرسول . فإن يكن قد حدث فى عهد الرسول تجاوز بإنشاد الشعر، فلم يكن ذلك للإباحة وإطلاقها ، وإنمـا كان استثناء فى أحوال بذاتها . فكعبٌ إنما أنشد "بانت سعاد" يوم جاء مستجيرا بالنبيّ يُعلن إليـه إسلامه . وهجاءُ حسّان الكفّار بقصائده نوع من الجهاد فى سبيل الله جائز فى المساجد . والمسلمون فى عهد النبيّ

كانوا يتحدّثون فى غزواتهم وفى شؤون خصومهم حين وجودهم بالمسجد فلايعترض عليهم أحد، لأنهم يتحدّثون فى شؤونهم العامة . فلما كثر عددهم تجاوزوا الشؤون العامة، وأراد بعضهم أن يتخذ المسجد مجلسا لأحاديثهم الخاصة فى تجارتهم وشؤون دنياهم . وخشية عمر أن يغلب الحديث فى هذه الشؤون الخاصة هى السبب فى أنه أمر من شاء أن يلغط أو يتحدّث فى شؤونه الخاصة بالخروج إلى البطيحاء .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان بن عفّان سنة أربع وعشرين من الهجرة كلّمه الناس أن يزيد فى مسجدهم وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة؛ فشاور أهل الرأى من الصحابة فى ذلك ، فأجمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه . ولم يكن إحساس الناس بضرورة الزيادة فى المسجد عجيبا بعد أن امتدّ الفتح الاسلامى وازداد سكان المدينة بامتداده زيادة عظيمة. وصعِد عثمان المنبر يوما بعد أن صلّى الظهر بالناس، فحمِد الله وأثنى عليه وقال : " أيها الناس، إنى قد أردت أن أهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزيد فيه . وأشهد لقد سمعت رسول الله يقول : « من بنى لله مسجدا بنى له الله بيتا فى الجنة » . وقد كان لى فيه سَلَفٌ وإمام سبقنى وتقدّمنى عمر بن الخطاب، كان قد زاد فيه وبناه . وقد شاورت أهل الرأى من أصحاب رسول الله فأجمعوا على هدمه وبنائه وتوسيعه " .

وحسَّن الناسُ يومئذ ذلك ودعوا له ؛ فزاد عثمان بقدر زيادة عمر فى الناحية الجنوبية من المسجد، وكذلك فعل فى الناحية الغربية . أمّا فى الناحية الشمالية فكانت زيادته دون زيادة عمر، وكانت تزيد على ماأحدثه فى الناحيتين الجنوبية والغربية بما يعدل قرابة الضِّعْف من كل من هاتين الزيادتين . لكنه أحدث من التطوّر فى عمارته مالم يحدثه عمر . فهو لم يجدّده باللّبِن ولم يجعل عُمُدَه الخشب وسقفه الجريد أسوةً برسول الله، بل بنى جُدُره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة[1]، وجعل عمده من حجارة منقورة أدخل فيها عمد الحديد وصبّ فيها الرصاص ونقشها من

(١) القصة (بالفتح ويكسر) : الجصة :

خارجها؛ أمّا سقفه فقد جعله من الساج . وهذا تطوّر عظيم فى العمارة العربيّة، إن لم يخرج بها عن فكرة المسجد على ماصوّره رسول الله فقد أحدث فيها فكرة المتانة والبقاء . وقد أنكر جماعة من المسلمين يومئذ على عثمان ما فعل من ذلك ، وأرادوا أن يبنوا المسجد على نحو ما بناه رسول الله ؛ فلم يَحْفِلْ بقولهم .

ولم يزد عثمان فى المسجد من ناحية الشرق؛ لأن بيوت النبيّ كانت ما تزال قائمة، وكان من أزواجه من لا يزلن يُقمن بها . وكان أقرب هذه البيوت من المسجد بيت عائشة الذى دُفن به رسول الله وخليفتاه أبو بكر وعمر . لذلك لم تكن الحجرة النبوية فى المسجد، ولم يكن به موضع معين للروضة النبوية ، بل كان كله مسجد الرسول تتساوى جوانبه جميعا فى ثواب الصلاة فيه .

وبقى المسجد على مابناه عثمان إلى سنة ثمان وثمانين من الهجرة لم يُزَدْ فى نظامه وبناء عمر، إلا المقصورة التى اتخذها عثمان، والتى ما تزال تعرف بمحراب عثمان؛ وكانت صغيرة من لَبِنٍ وفيها كوّة ينظر الناس منها الى الإمام . وكذلك تعاقبت عهود علىّ ومعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والمسجد على بناء عثمان لا يفكر أحد فى الزيادة فيه ولا فى تغيير عمارته . وكان مرجع ذلك إلى قيام الثورات عند مقتل عثمان، وإلى آنتقاض أهل الحجاز على معاوية وخلفائه بالشام، وآستمرار الحرب لذلك بين الأمويين والعلويّين ومَنْ شايعهم من الصحابة وأهل بيت النبيّ ومَنْ آنضم إلى ممثلهم عبد الله بن الزبير من المسلمين حين لحق بمكة وتحصّن بها بعد مقتل الحسين بن علىّ بالعراق . فلمّا قُتل آبن الزبير فى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وتمّ الأمر لبنى أميّة فى عهد عبد الملك بن مروان آنصرف تفكيرهم إلى تقوية الوحدة الأمبراطورية للدولة الإسلامية بعد أن كانوا منصرفين إلى نضال خصومهم؛ حتى لقد فكّر عبد الملك زمنًا فى آتخاذ قبّة الصخرة مثابةً لحجّ المسلمين من أهل مصر والشام والعراق إذا بقى الأمر لآبن الزُّبير بمكة . ومنذ آنصرفوا إلى تقوية الأمبراطورية الإسلامية آمتدّ الفتح حتى بلغ الأندلس فى عهد الوليد بن عبد الملك .

لم يقض انتصار بنى أميّة الحاسم على اعتقاد العلويّين أنهم ، وهم أهل بيت النبيّ ، أصحاب الحق فى الخلافة . ومتى قضى ظفر ملك بخصومه على إيمان المغلوبين بحقهم ! ومتى قضى ظفر نظام بنظام على رجاء المغلوبين فى أن يكون الظفر لهم من بعدُ ! . إن انتصار الجمهورية فى فرنسا لم يقض الى اليوم على أنصار الملوكية فيها ، ولم ينتزع الرجاء من نفوسهم أن ينتصر اعتقادهم بحقهم على باطل غيرهم . والظافرون يعرفون هذا ويجعلون عيونهم لذلك على خصومهم لكى لا تقوم لهم قائمة . فاذا أبطرهم الظفر وغفلوا ، ثار هؤلاء الخصوم بهم وولّوا الأمر مكانهم .

كان ذلك شأن بنى أميّة مع بنى هاشم من العلويين والعباسيين . ظفِروا بهم ، فلم تُنسهم نشوة الظفر أنهم خصومهم وأنهم يتربّصون بهم الدوائر . كان أبناء فاطمة ابنة رسول الله وحَفَدَتُها يقيمون فى بيت جَدَّتهم الى جوار المسجد النبوىّ ، وذلك بعد مقتل الحسين ، وبعد أن آستقر الأمر لبنى أميّة . وكان الوليد بن عبد الملك قد آستعمل عمر بن عبد العزيز على المدينة . وقدِم الوليدُ حاجًّا بعد ولايته أمر المؤمنين ، فزار المدينة . وفيما هو يخطب الناس يومًا على قبر رسول الله حانت منه التفاتة الى ناحية بيت فاطمة ، فاذا بحسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب فى يده مرآة ينظر فيها . فلما نزل الوليد أرسل الى عمر بن عبد العزيز وقصّ عليه الأمر وقال : "لا أرى هذا قد بقى بعدُ . اِشتر هذه المواضع وأَدْخِلْ بيت النبيّ فى المسجد واسْدُدْه" . روى أن حسن بن حسن وفاطمة بنت الحسين وولدهما أبوا أن يخرجوا من البيت حين علموا بأمر الوليد ؛ فأرسل اليهم إن لم تخرجوا منه هدمته عليكم . فلمّا أصرّوا على إبائهم أمر بهدمه عليهم وفيه حسن وفاطمة وولدهما . ونزع العمّال أساس البيت وهم فيه وهدّدوهم قائلين : "إن لم تخرجوا قوّضناه عليكم" ، فخرجوا ونفّذ عمر بن عبد العزيز أمر الوليد بضم بيوت النبيّ الى المسجد .

وفى رواية أن الوليد كان يبعث كل عام رجلا الى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث بها . فقال له الرجل يوما : "لقد رأيت أمرًا لا والله مالك معه سلطان

ولا رأيت مثله قطّ". قال الوليد : ما هو ؟ قال : "كنت فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم، فاذا منزل عليه كِلّة؛ فلما أقيمت الصلاة رفعت الكلّة وصلّى صاحبه فيه بصلاة الإمام هو ومن معه؛ ثم أرخيت الكلة وأتى بالغداء فتغدّى هو وأصحابه. فلما أقيمت الصلاة فعل مثل ذلك، واذا هو يأخذ المرآة والكحل وأنا أنظر. فسألت فقيل: إن هذا حسن بن حسن". قال الوليد: "ويحك! فما أصنع؟ هو بيته وبيت أمه فما الحيلة فى ذلك؟". قال: "تزيد فى المسجد وتُدخل هذا البيت فيه". فكتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز يأمره بالزيادة فى المسجد وشراء هذا البيت وإدخاله فيه. وأبى حسن بن حسن أن يأخذ الثمن؛ فكتب عمر الى الوليد فى ذلك؛ فأمر بهدم البيت، وهُدِم وطرح الثمن فى بيت المال؛ وانتقل حسن وانتقلت فاطمة بنت الحسين الى دار بالحيرة فابتنتها.

قرر الوليد بن عبد الملك أن يزيد فى المسجد وأن يُدخل هذا البيت فيه. لكنه بعد أن فكر فى الأمر مليًّا رأى أن يدخل فيه بيوت النبيّ جميعا. وكانت هذه البيوت ممتدّة من شرق المسجد حيث الحجرة النبوية، متجهة نحو الشمال الى موضع ليس تعيينه اليوم بالأمر اليسير؛ وكانت موضع رعاية كبرى من المسلمين فى ذلك العهد. ومذ خلت كلها من ساكنيها بعد أن اختار الله عائشة أمّ المؤمنين كان الناس يهرعون لصلاة الجمعة فيها مؤتمّين بإمام المسجد، ثم يحيطونها فيما وراء ذلك برعايتهم على اعتبار أنها الآثار التاريخية الباقية للنبيّ الكريم وحياته فى المدينة. لذلك حزنوا أشد الحزن حين علموا بأمر هدمها. روى عن نصّار الخُراسانى قوله: "أدركتُ حُجرات النبيّ صلّى الله عليه وسلم من جريد على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ ويأمر بإدخال حُجرات أزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلم، فما رأيت يومًا كان أكثر باكيا من ذلك اليوم. وسمعنا سعيد بن المسيِّب يقول: والله لوددت أنهم تركوها على حالها". ولعل منهم من فطن الى أن الوليد أمر بهدم حجرة فاطمة غضبًا على أبنائها، ثم أمر بهدم سائر الحجرات حتى

لا يُتَّهم بأنه هـدم حجرة فاطمة انتقاماً من أبناء علىّ بَغْياً بغير حق متخذاً من توسيع المسجد حُجَّةً له . فقـد سبقه عثمان وعمر الى توسيعه فتركا حجرات أمهات المؤمنين لم يمسساها وزادا فى المسجد من سائر نواحيه .

كيف يُقيم الوليدُ المسجدَ : هل يكتفى بالزيادة فى نواحيـه الشرقية والشمالية والغربية، فقـد بقيت الناحية الجنوبية لم تمسسها زيادة من بعد عثمان؟ أم يهدمه ويعيد بناءه؟ لقد شاده عثمان بناء متينا قوياً على الزمن ، ولم يكن قد مضى على ذلك ستون سـنة . لكن الوليد كان بالشام ، وكان له فى العمارة وزخرفها رأى غير رأى العرب . لم يكن رأيه فى العمارة منتزعا من فكرة الحاجة كما كان عند العرب يوم بنى النبىّ المسجد، بل كانت العمارة عنده فناً جميلا مداره رضا النفس من طريق الحس والسمو بها فى درجات هذا الرضا الى حسن المتاع بالحياة . وقد تأثر الوليد كما تأثر أسلافه الذين أقاموا بالشام بما رأوا من الآثار المسيحية التى أقيمت على طراز ماسبقها من الآثار الوثنيـة إذ تأنّق مقيموها فى تجميلها إرضاء لآلهتهم وتقرباً بها اليهـم . وكان من أثر ذلك أن أقام عبـد الملك بن مروان قُبّة الصخرة ببيت المَقْدِس على نحو من البراعة فى الفن المعمارىّ عنت له كثير من الكنائس البارعة ، وذلك بعد أن رصد لعمارتها خراج مصر سبع سنين . أمّا والأمر كذلك فلا بدّ للوليد من هدم المسجد النبوىّ وإعادة بنـائه متأثراً بالفكرة الفنّيـة التى ملكت نفسه وكانت ذات سلطان عظيم عليها .

ولم يكن فى بلاد العرب ولا كان بين رجال المعمار المسلمين من يكفى لإرضاء هوى الوليد وذوقه الفنىّ فى عمارة المسجد . لذلك كتب إلى ملك الروم يقول له : " إنا نريد أن نعمر مسـجد نبيّنا الأعظم ، فأعِنّا فيه بعمّال وفسيفساء " . وبعث إليه ملك الروم بأحمال من فسيفساء وبعمال ٱختُلِف فى عددهم ، فقيل عشرة وقيل أربعون من الروم وأربعون من القِبْط ، وبأحمـال من سلاسل القناديل ، وبقدر كبير من الذهب، ذهب قوم إلى أنه ثمانون ألف دينار ، وذهب آخرون إلى أنه ألف مثقال .

وهدم عمر بن عبد العزيز المسجد فى سنة ثمان وثمانين أو فى سنة إحدى وتسعين على اختلاف فى الرواية، ثم أدخل فيه حجرات أزواج النبىّ وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرُّخام،ووشّى حوائطه بالفسيفساء ، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر . فلما صار إلى جدار القِبْلة دعا مشيخة من أهل المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالى وقال لهم : " تعالوا احضروا بنيان قِبْلتكم ، لا تقولوا غيَّر عمر قبلتنا " . وجعل لا ينزع حجرا إلا وضع مكانه حجرا . وقد بالغ عمر فى تجميل المسجد وعُنى بذلك حتى كان العامل إذا عمل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء فأحسن عملها نفّله عمر ثلاثين درهما . ولمّا تمّ بناء المسجد جاء الوليد وجعل يدور فى المسجد مغتبطا مُعْجَبا ويبدى لعمر ما يعنّ له من الملاحظات . وكان عمر قد عُنِى بسقف المقصورة النبويّة عنايةً جعلته بِدعًا فى الفن . فلما رآه الوليد قال لعمر : ألّا عملت السقف كله مثل هذا ! . قال عمر : إذًا يا أمير المؤمنين تعظم النفقة جدًّا — وكانت نفقة هذا السقف أربعين ألف دينار — قال الوليد : وإنْ . ولم يكن ما قاله الوليد من ذلك عجبًا بعد الذى زخرف عمر به المسجد فى هذه العمارة من المحراب والشرفات والمنابر مما لم يكن للعرب به عهد ، وإنما كان اقتباسا مما فى الكنائس أتمّه العمّال العرب بوحى ما رأوا فى الشام ، وعاونهم عمّال الروم والقِبط على إتقانه .

وكان أبَانُ بن عثمان يطوف بالمسجد مع الوليد . فلما استنفد الوليد النظر الى المسجد واطمأنّت نفسه الى عمارته نظر إلى أبَان وقال : " أين بناؤنا من بنائكم ! " . فكان جواب أبان : " إنا بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس " .

هذه الكلمة التى قالها أبان عميقة المغزى لمن يُنعم الرويّة فيها ؛ فهى تصوّر تطوّرا فى العمارة العربية يقابله تطوّر من نوعه فى التفكير الإسلامىّ . انتقلت العمارة فى بناء الوليد المسجد من طرازها البسيط الذى أوحته الحياة العربية فى بساطتها وقوّة اتصالها بالطبيعة ، وأوحته الفكرة الإسلامية فى دعوتها الى الصلة المباشرة بين

المرء وخالقه على أساس من الإيمان الذاتى وتحابّ المؤمنين بنور الله بينهم ، الى هذا الطراز المركّب الملىء بالزخرف ركّز الإنسان فيه صورةً من جمال الطبيعة آنتزعها خياله من كل ما يحس ويرى من مظاهر هذا الجمال، ثم تقرب بها إلى الآلهة فى العهود الوثنية إرضاءً لهم بجلالها وآتقاء غضبهم بجمالها. وقد أراد رجال الكنيسة المسيحية أن تقرِّب هيبة هذا الفن من النفوس صورة المعجزة التى تقوم المسيحية على أساسها . أمّا الإسلام فكان فى صفائه بريئا من هذه المظاهر ؛ فكان المسجد فى بساطته صورة لبساطة الإسلام وقوّته . وإنما كان هذا التطوّر مظهراً لتأثر المسلمين بالتفكير الكنسىّ الذى أحاط بهم فى الشام والذى تُسرع النفس الإنسانية الى مثله حين لا تجد سندًا من الإيمان بالله يعصمها من الضعف لسلطان الطبيعة . فالنفس الإنسانية محتاجة فى سذاجتها الى مظاهر قريبة منها يُدركها الحس وترى فيها صور الكون والحياة مجتمعين . وهى لا تستطيع السموّ الى الحقيقة المجرَّدة التى تمثّل هذا المعنى، ولا تستطيع آمتثالها فى كل صفائها، مالم تكن لها فى ذلك أسوة، كما كان للمسلمين الأوّلين فى رسول الله أسوة، أو تبلغ من المعرفة التى تؤهِّلها للاتصال بالكون حظًّا عظيما . أمّا وقد انتهى عهد الأسوة وآتصل المسلمون بجيرانهم من أهل الحضارات الأخرى ،فكان من الطبعىّ أن يتأثّروا بما آتصلوا به، وأن يُشْغَلوا عن تمحيصه بالمنازعات السياسيّة والثورات التى فرّقت كلمتهم من عهد عثمان بعد أن مهّدت لها أسباب سبقتها طوّعت للإسرائيليات وغير الإسرائيليات أن تندسّ الى الإسلام وأن تشوب صفاءه .

بقى المسجد بعد زيادة الوليد على حاله الى أن غلب العباسيّون الأمويين على الملك وقاموا مقامهم فى الخلافة . إذ ذاك فكر ثانى خلفائهم أبو جعفر المنصور فى أن يكون له من فضل الزيادة فى المسجد ما كان للأمويين . ودار يومئذ بأخلاد قوم أن يأخذ العباسيون بالثأر من بنى أُميّة فيهدموا دار عثمان ويُدخلوها فى المسجد، كما هدم الوليد حجرات أمّهات المؤمنين وأدخلها فى المسجد . من أجل ذلك كتب الحسن

ابن زيد الى المنصور ينصح له أن يزيد فى رقعة المسجد وأن يجعل القبر النبوىّ فى وسطه، و بذلك تدخل دار عثمان فى المسجد لمجاورتها للحجرة. لكن المنصور لم يقبل هذا الرأى وكتب الى الحسن بن زيد يقول: ”إنى قد عرفت الذى أردتَ، فٱكفُفْ عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفّان“. وتُوُفِّىَ أبو جعفر ولم يزد فى المسجد شيئا. ولمّا خلَفه ٱبنه المهدى على الملك حجّ سنة ستين ومائة للهجرة، وقدِم المدينة مُنْصَرَفه عن الحج، فٱستعمل عليها جعفر بن سليمان، وأمره بالزيادة فى المسجد. ولم يزد جعفر فى نواحى المسجد من الجنوب والغرب والشرق شيئا، وحصر الزيادة فى ناحيته الشماليّة حيث صحنه المعروف بالحصوة. وكانت الزيادة فى هذه الناحية فسيحة بلغت نحو الثلث من مساحة المسجد كله، وأحيطت بأروقة من العمد والقباب من طراز ما صنع الوليد. فأمّا ما خلا هذه الزيادة فقد ٱقتصر عامل المهدى على التعمير والتجميل، متخذًا طراز الوليد إمامه، متأثّرا فى الفن بفكرة كفكرته.

وٱستقرّت رُقعة المسجد على زيادة المهدى من بعدُ، لكن بناءه أعيد غير مرّة بعد ذلك، وٱستمر التعمير فيه الى يومنا هذا. فقد ٱحترق كله أوّل شهر رمضان من سنة ٦٥٤ للهجرة، إذ ترك مُوقِد المصابيح مشعلا فى مخازن المسجد فٱمتدّت النار منه الى ما حوله وتعلّقت بحصر و بسط وأقفاص وقصب كان فى المخزن، ثم ٱمتدّ اللهب الى سقف المسجد وسرى منه الى المسجد كلّه، فلم يُبق منه على خشبة واحدة كاملة. ونزل أمير المدينة وٱجتمع معه معظم أهلها فلم يقدروا على مقاومة الحريق، وأكلت النار جميع ما ٱحتوى عليه المسجد من المنبر النبوى والأبواب والخزائن والشبابيك والمقاصير وما ٱشتملت عليه من كتب، وٱمتدّت الى كسوة الحجرة. ولقد عَزَا القطب القسطلانى هذا الحريقَ الى أن الزخارف التى بالمسجد لم تُرضه صلى الله عليه وسلم، والى أنّ القلوب أحلّت المساجد الثلاثة: الحرامَ والأقصى والنبوىّ، منها فوق قدرها، ونسيت أنّ عظمته تعالى فوق الجميع، وأنه الواحد القهّار، فوقع الحريق فى الكعبة و بيت المقدس قديما، ووقع هذا الحريق فى المسجد

النبوى . وقيل فى هذا المعنى شعر وجد منه بعد الحريق بيتان على جدران المسجد هما :

لم يحترق حَرَمُ النبىّ لريبة * تُخْشَى عليه وما دهاه العار
لكنّها أيدى الروافض لامستْ * تلك الرسومَ فطهّرتها النار

ولم يسلم من هذا الحريق سوى قبّة كانت أقيمت بصحن المسجد فى القرن السادس الهجرىّ لحفظ ذخائر الحرم من مثل المصحف العثمانىّ وبعض صناديق أودعتها هذه الذخائر . أمّا عُمُد المسجد فبقيتْ قائمة كأنها جذوع النخل تمايل اذا هبّت الرياح . وذاب الرصاص من بعض الأساطين فسقطت، ووقع السقف الذى كان بأعلى الحجرة على سقف بيت النبىّ فوقعا جميعا فى الحجرة وعلى القبور التى بها . وكُتب بذلك الى الخليفة المستعصم وهو ببغداد فأرسل الآلات مع الصناع من العراق ولم يُبد رأيًا فيما يصنعون . فقد كان منصرفا الى صدّ التتار عن بغداد بعد أن استولوا على أعمالها؛ لذلك اضطرب الصنّاع وأهل المدينة واختلفوا ما يصنعون بالحجرة، وهل يذرون بها ما سقط فيها أم يرفعونه جميعا حتى يبلغوا سطح الأرض الى التراب الذى فوق القبر . وقد انتهوا الى ترك ما سقط ولم يُزيلوه مهابةً لساكن الحجرة عليه الصلاة والسلام . يقول السمهودىّ : إنه كان يرى " أن الواجب فى سلوك الأدب مع هذا النبىّ العظيم والقيام بما وجب على الأمّة من تعظيمه وتعظيم قبره الشريف هو إزالة ذلك عنه وقَمّه من حجرته الشريفة " . فلما حضر العمارة الثانية للمسجد شاهد بين الجدارين فى الفضاء الذى خلف الحجرة أمرا مهولا من الهدم نحو القامة، فعلم أن القوم لم يتركوه إلّا لعلمهم بأن إزالته لا تتأتّى إلّا بانتهاك الحرمة فتوقفوا عنه ومدّوا سقفًا فوقه على رءوس السوارى التى حول الحجرة.

لم تكن بغداد ولا كان المستعصم شرًّا مكانًا من سائر أنحاء الدولة الإسلامية فى ذلك العصر؛ فقد انتشر فيها الاضطراب واستولى عليها القلق ، فلم تُبْدِ أىٌّ منها فى عمارة المسجد رأيا ، وإن بعث أكثرها من موادّ العمارة ما أرضى به هوى عقيدته.

وصلت الآلات من مصر بأمر المتولّى عليها الملك المنصور نور الدين علىّ ابن الملك المعز عز الدين أيبك الصالحى، ووصلت الآلات والأخشاب كذلك من صاحب اليمن الملك المظفّر شمس الدين يوسف بن منصور، وجعل أهل المدينة والعمّال فيها يقومون من العمارة بما يستطيعون القيام به ولا يلبثون إذ يتقدّمون فيها حتى تبلغهم الأنباء بقتل هذا أو هزيمة ذاك من ملوك المسلمين وأمرائهم . استولى التتار على بغداد وقتلوا المستعصم، ثم عُزل صاحب مصر وقام فيها مملوك ابن الملك المظفر سيف الدين قُطُز المُعزّى، وقتل هذا فيما دون السنة من ولايته . وكان لهذه الأحداث أثرٌ واضح فى عمارة المسجد، فكانت تتقدّم حينا، وتقف حينا، وتسير دائما على غير خطة مرسومة . فلما تولّى الملك الظاهر بيبَرْس البُنْدُقدارىّ أمْرَ مصر بعد ست سنوات من الحريق جهّز الأخشاب والحديد والرصاص وجهّز الصنّاع وما يموّنهم وأرسلهم بذلك كله الى المدينة وصار يمدّهم بما يحتاجون اليه من الآلات والنفقات حتى أتموا المسجد كما كان قبل الحريق .

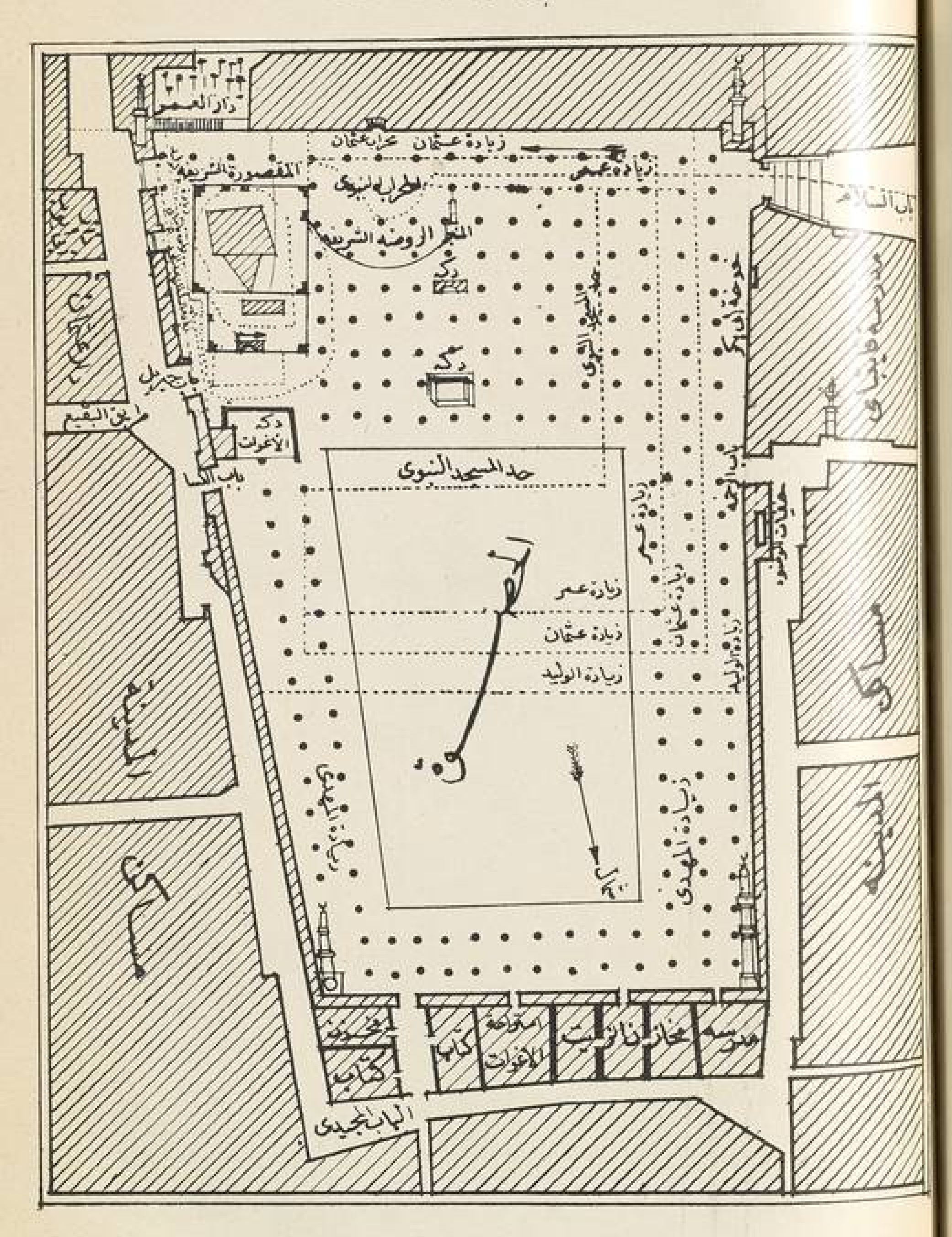
لم يزل المسجد على ذلك حتى جُدّد سقفه فى سنتى خمس وسبعمائة وست وسبعمائة بأمر ملك مصر الناصر محمد بن قلاوون الصالحىّ، ثم زيد فى السقف بأمره فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة . وقد أصلح الملك الأشرف بَرْسَبَاىْ هذه الزيادة فى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة حين طرأ الخلل عليها، كما جدّد الظاهر جُقْمُق بعض سُقُف أخرى فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة . وفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة قام الملك الأشرف قايتباى بعمارة فى المسجد تناولت بعض سُقُفه وعُمُده وجدرانه ومآذنه .

لم يبق من أثر هذه العمارات فى وقتنا الحاضر ؛ فقد انقضّتْ صاعقة على مئذنة المسجد الرئيسية فى سنة ست وثمانين وثمانمائة فلم تُبق منها شيئا، وانتقلت النار من المئذنة إلى سقف المسجد فالتهمته، وتخطّت من السقف إلى المسجد فتهدّمت جدرانه وتداعت أكثر أساطينه، واحترقت المقصورة والمنبر والكتب والمصاحف، ولم يسلم من الحريق إلا الحجرة والقبّة التى بالصحن . لكن ما بقى من أنباء هذه العمارات

يشهد بأن التطور الذى بدأ من عهد الوليد بن عبد الملك آستمر مطّردا فى العمارة ، وأكثر اطّرادا فى التفكير . لم تكن للحجرة النبوية قبّة قبل القرن السابع ، فأقامها المنصور قلاوون سنة ثمان وسبعين وستمائة . ولم يكن ما بين الحجرة والمنبر النبوى يمتاز فى عمارته عن سائر المسجد؛ فلما حدث الحريق فى هذا القرن السابع ، وأعيدت عمارة المسجد بعده ، بدأ هذا الجزء من المسجد ، وهو الروضة ، يلقى من العناية حظًّا تزايد على الزمان . وبعد أن كانت الخصومات السياسية بين الأمويين والعباسيين ذات أثر ظاهر فى تعديل رقعة المسجد والزيادة فيها ، آنصرف التفكير فى عمارة المسجد عن السياسة إلى ناحية أخرى يقصد منها إلى المثوبة والزلفى وإلى تصفيد التفكير الإسلامى على الإيمان بهذه المثوبة وهذه الزلفى من غير تمحيص أو اجتهاد .

وقد وقع الخلاف على ما حدث من هذا التطور : أهو يتفق مع روح الإسلام؟ وبلغ هذا الخلاف من الشدة فى بعض الأحيان ما اقتضى تدخُّل ولىِّ الأمر لقمعه. لما بنى المنصور قلاوون القبّة على القبر النبوى آختلف الناس رأيا؛ فقال بعضهم: "قصد خيرا وحصّل ثوابا" . وقال آخرون : "أساء الأدب بعلو النجّارين القبر ودق الحطب" ، وتفاقم هذا الخلاف حتى جعل الوالى عقوبةً على من يقول أساء الأدب . وذهب بعض أولى الرأى يومئذ إلى تحريم إقامة القبّة لما رواه أبو داود فى سُنَنه عن أنس بن مالك أن رسول الله خرج فرأى قبّة مشرفة أجابه أصحابه بأنها لرجل من الأنصار ، فأعرض عن الرجل مرارًا حتى عرف الرجل الغضب فيه والانصراف عنه . ولما شكا إلى أصحابه إعراض رسول الله عنه وسأل عن السبب فى ذلك قالوا : "خرج فرأى قُبّتك" ، فرجع الرجل إلى قبّته فهدمها حتى سوّاها بالأرض . وخرج رسول الله يومًا فلم ير القبّة فسأل عنها فقال من حوله : شكا صاحبها إلينا إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها . فقال صلى الله عليه وسلم : "كل بناء وبال على صاحبه إلا ما لا بدّ منه" . وهذا الخلاف هو الذى لا يزال قائما إلى يومنا هذا بين الوهابيين وغيرهم من سائر المسلمين . وقد كان النصر فى القرون الخمسة الهجرية الأخيرة حليف الذين يقولون بإنشاء القباب تبرّكًا وآلتماسا للمثوبة ؛ لأن هذا الرأى أدنى إلى إدراك

الحرم النبوي



الجمهور . ولعل النصر يظل حليف هذا الرأى لاعتبار آخر، ذلك أن العمارة العربية بلغت من دقة الفن وبراعته فى إقامة هذه القباب مبلغاً يدعو حماة الفن الجميل إلى نصرها من غير نظر إلى اعتبار المثوبة أو التبرك .

كان التطور الذى أشرنا إليه أكثر وضوحا فى عمارة المسجد بعد حريق الصاعقة . لما بلغ خبر هذا الحريق الملك الأشرف قايتباى بمصر وجه الأمير سُنْقُر الجمالى إلى المدينة ومعه أكثر من مائة صانع وما يلزم للعمارة، فبدءوا بالمئذنة ووسّعوا المحراب العثمانى وجعلوا فوقه قبة أقاموها على رءوس الأساطين التى حوله، وجعلوا على جُدُر الحجرة النبوية وفوق السقف الذى كان عليها قبة شادوا فوقها قبة أخرى أقيمت على الأساطين والدعائم التى زخرفوها، وبنوا باب السلام بالرخام الأسود والأبيض وزخرفوه، كما زخرفوا محرابا مجوّفا للرسول فى دعامة أقاموها بين المنبر والقبر على حدّ مسجده الأصلىّ، وزخرفوا هذا المحراب بالرخام الملوّن، وأعادوا ما سوى ذلك من بناء المسجد على صور تأنقوا فيها غاية التأنق، حتى بلغ ما أنفقه قايتباى على هذه العمارة نحو ستين ألفا من الجنيهات . والله أعلم كم يعادل هذا المبلغ من نقدنا فى الزمن الحاضر .

كانت مصر فى الفترة التى انقضت بين حريق المسجد فى القرن السابع إلى حريقه بالصاعقة فى القرن التاسع هى القائمة بأمر عمارته . فلما انتقلت الخلافة إلى آل عثمان بالآستانة ودخلت بلاد العرب كما دخلت مصر فى سلطانهم خَلَفُوا ملوك مصر فى القيام على المسجد وعمارته . ففى سنة ثمانين وتسعمائة من الهجرة عمّره السلطان سليم الثانى وشيّد به محرابا جميلا هو القبلة القائمة اليوم غرب المنبر النبوى . وقد وشّى هذا المحراب بالفسيفساء المنقوشة بماء الذهب، وكتب اسم السلطان سليم على ظاهره بخط الثلث الجميل . وفى سنة ١٢٣٢ بنى السلطان محمود القبة ثم أمر بترميمها فى سنة ١٢٥٥ فرممت ودُهنت باللون الأخضر . على أن العمارة الكبرى التى قام بها سلاطين آل عثمان هى عمارة السلطان عبد المجيد . فقد كتب إليه شيخ المسجد داود باشا بأن المسجد

قد انقضى على عمارته أربعة قرون لم تحدُث به أثناءها عمارة هامة حتى آل كثير منه إلى التخريب . فأرسل السلطان من قِبَله مَنْ فحص المسجد وعرف حقيقة حاله ، ثم أمر بهدمه وعمارته . وتمّ ذلك بأن جعل المهندسون يهدمون جزءا من المسجد ويقيمون مكانه مايحلّ محلّه ، ثم يهدمون بعده جزءا غيره ويعيدون تشييده ، حتى أتموا عمارة المسجد كلّه فيما بين سنة ١٢٦٥ وسنة ١٢٧٧ هـ . وقد تناولت هذه العمارة المسجد كلّه خلا المقصورة وما فيها وبعض الجُدُر المتينة البناء القويّة الأساس . ولم يُنْقَض محراب عثمان لإتقانه وحسن صنعه . أما العمد القديمة فأبدل منها غيرها ، وأكثرها من قطعة واحدة ، وأقيمت عليها عقود من الحجر الأحمر المنحوت شيِّدت فوقها قباب جعلت فيها نوافذ يهبط النور خلال زجاجها الملوّن المحاط بشبك النحاس . وأعيد بناء باب السلام بناءً غاية فى الفخامة ، وجُعلت أمامه من الداخل قبّة عظيمة . أما الجدار الشمالى للمسجد فزيد فيه ما كفى لبناء مخازن ومكاتب ، وبنيت خارجه أحواض للوضوء بها صنابير . وشُيِّدت المئذنة المجيديّة على طراز بالغ غاية الروعة والإبداع . وعلى الجملة بذّت هذه العمارة كل ما سبقها حتى بلغت نفقاتها ثلاثة أرباع المليون من الجنيهات المجيدية .

ومن خير الآثار التى سجّلتها هذه العمارة وحافظت عليها ما كُتب على جدران المسجد من سورة الفتح وقصيدة البردة وأسماء الله الحسنى وأسماء النبي عليه السلام . فلقد نفى الإسلام عنه التماثيل والصور منذ حطم محمد تماثيل الكعبة ومحا صُوَرها فلم يكن الى بعثها بين الفنون الجميلة سبيل ، على رغم ما رآه المسلمون منها بكنائس الشام وبزنطية . فحرب الوثنيّة أساس العقيدة الإسلامية ، والتماثيل والصور أقدم آثار الوثنية وأبقاها . لذلك أنشأت الحضارة الإسلامية فنًّا جميلا يحل محلّ التماثيل والصُّوَر فى التعبير عن الجمال كما يبدو للنظر ، واستمدّت هذا الفن من التفكير الإسلامى . لذلك كان الخط العربى والتفنن فيه والبلوغ به غاية البراعة فى الجمال مما تفرّدت به هذه الحضارة . ولذلك تقدّم السلطان عبد المجيد الى الخطّاط العظيم عبد الله بك زهدى

فقضى عشر سنوات فى كتابة سورة الفتح وسائر ما كُتب على جدران المسجد مما لا يزال زينةَ جدرانه البديعة الأخّاذة بالنظر .

بقى المسجد النبوىّ على هذه العمارة الى اليوم . على أن محرابيه النبوىّ والسليمانىّ رُمِّمَا عام ١٣٣٦ كما رُمِّمت أرض المسجد بأمر الحكومة العربيــة السعودية الحاضرة عام ١٣٤٨ هـ . وتقوم الحكومة المصرية بتعمير المسجد فى هذا العهد الأخير منــذ عدّة سنوات .

حَرَصنا على استقصاء الأدوار التى مرّت بها عمارة المسجد لأنها تصوّر التطوّر الذى حدث فى العمارة الإسلامية وفى التفكير الاسلامى . وهى أدق تصويرا لهــذا التطوّر لأن المسلمين لم يبذلوا لمسجد من العناية ما بذلوا لمسجد المدينة ، ولم يجعلوا للمسجد الحرام بمكة إلا بعض هــذه العناية . كان ذلك شأنهم من عهــد الوليد بن عبد الملك ، وظل شأنهم فى ذلك يزداد على العصور ، حتى صار مسجد مكة لا يُنْظَر فى عمارته إلا لمــا تقضى به الضرورة ، ثم يخلع على مسجد المدينــة من الترف الفنّىّ ما رأيت . فإذا ذكرتَ ما أشرتُ اليه حين الحديث عن مسجد مكة ومغزى التطوّر فى عمــارته فى فصل " الجمعة فى الحرم " ، تبيّن لك هــذا التطوّر الآن فى مبلغ من الجسامة يلفت النظر ويستوقف الفكر لتدبّره والنظر فى أمره .

ربمــا وقف القارئ موقف الحَيْرة لذِكْرِى " العمارةَ الإســلاميّةَ " بديلًا من "العمارة العربية" حين الحديث عن المسجد النبوىّ . والواقع أنّ عمارة هذا المسجد لم تبق عمارة عربية بعد الوليد بن عبد الملك . فقد آحتفظت العمارة العربية بطابع من البساطة ما يزال الإنسان يراه فى الحرم المكىّ . أمّا مسجد المدينة فقد تعاقب عليه من ألوان العمارة ما آقتبسه المسلمون من مختلف الأنماط التى وجدوها فى الاثار القائمة بالبلاد التى فتحوها . ولقد رأوا من هذه الأنماط شيئا كثيرا فى الشام ومصر والروم والعراق وفارس منذ القرن الأوّل للهجرة ، ثم رأوا كذلك شيئا كثيرا فى الهند وصِقِلّيّة والأندلس وحيث آمتــدّ الفتح الإسلامىّ على توالى العصور . من هــذه الأنماط

آقتبس المسلمون طِرازًا ليس بالعربىّ المستمدّ من فكرة الحاجة، فشيّدوا العمد وقواعدها وتيجانها على طراز لا عهـد للعرب به، وأنشـوا المحاريب المجوّفة وكانت محرّمة فى الإسلام، حتى كره عبد الله بن مسعود الصلاة فيها نزولًا على قوله صلى الله عليه وسلم : " اِتّقُوا هـذه المذابح " يعنى المحاريب، وقوله : " ما تزال هذه الأمة بخير ما لم يتخـذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى"، وجعلوا زخرف المساجد وسيلةً إلى المثوبة بعد أن كان كَعْبٌ يقول لأسلافهم فى الصدر الأوّل : " يكون فى آخر الزمان قوم يزيّنون مساجدهم ويتخذون بهـا مذابح كمذابح النصارى، فاذا فعلوا ذلك صُبّ عليهم البلاء " . أمّا وذلك شأن هذه العمارة فلا حقّ فى أن تسمى العِمارة العربيّة .

وإنمـا تأثر المسلمون فى نمط بنائهم بمـا رأوا من هيا كل ومعابد، لأن الفكرة الاسلاميّـة تطوّرت بحكم الحوادث وتقلّبها فسارت من البساطة التجريديّة الأولى إلى تركيب وتعقيد مادّيين أدّى إليهما الاختلاط بالروم والفرس والنظر فى عقائدهما. وما أكبر الفرق بين هذا التركيب وهذا التعقيد المـادّيين وبين بساطة الإيمـان بالله وحده إيمـانا مصدره القلب والعقل . الأعمال فى هـذا الإيمـان بالنيّات، ونيّـة المؤمن فيـه خير من عمله، لأن النيّة متعلّقة بالذات الإنسانيّـة ، والعمل خاضع لأحداث الحياة وأهوائهـا . أمّا التركيب والتعقيد المـادّيين فيجعلان من المظاهر المـادّية كل شىء فى الحياة . قيامُ المرء وقعودُه، ركوعه وسجوده، لباسه ومظهره، هـذه وأمثالها من الأمور المحسوسة هى التى يقيم لها هـذا التفكير من الوزن أكثر ممـا يقيم للنيّة التى صدرت عنهـا . ومن ثمّ كان البناء المزخرف أدعى إلى التقرّب إلى الله فى رأى ذوى التفكير المـادّى، وإن أدّت إليه نيّة الظفر بخصوم سياسيين، كما كان شأن الوليد يوم ضمّ بيوت النبى الى المسجد، أو دفعت إليه سياسة مرماها شـغل المسلمين عن التفكير والاجتهاد لخيرهم وغايتهـا حبسهم فى حدود التفكير المـادّى حتى يسهل حكمهم حكم بغى وآستبداد، كما كان شأن الملوك والسـلاطين منذ بدأت فى العالم الإسلامى عصور الانحلال .

أين هذا من التفكير الصّريح يدعو إليه الإيمان الصادق فى مسجد بسيط العمارة مثل مسجد النبيّ كما بناه هو، وكما بناه عمر وعثمان! . أين هذا من تفكير خالص لله يتصل فيه الإنسان ببارئه من غير وساطة إلا إيمانه الصادق به، وحرصه الخالص على التقرُّب منه بالعمل الصالح و بالتقوى! . وحدّثتنى نفسى : أفكنت أفكر فيما تلا القارئُ من هذا الفصل لو أن المسجد بقى بناؤه على نمط بناء النبيّ يجاور قبره ويستضىء الناس فيه بنور الوحى الذى نزل عليه ؟ وهل كنت ألتمس المغفرة لذنوبى بالعكوف على مكان فى المسجد أعتقده أدنى إلى مغفرة الله ذنوبَ عباده؟ أم كنت أشعر بروحه الكريم يملأُ المكان مهابةً وجلالا وقوة ، ويمدّ المؤمنين من قوته بما يجعلهم يلتمسون المغفرة فى العمل الصالح أكثر مما يلتمسونها فى دعاء لا يعقبه عمل؟ .

اللّهم إنى أعوذ بك من الزلل، وأتوب إليك من الخطأ ، أنت العليم بأنى إلى وجهك الكريم أقصِد، ومن حب إخوانى المؤمنين حقًّا أستمدّ رضاك وأرجو عفوك، فاغفرلى وارحمنى ولا تجعلنى من القوم الخاطئين .

المدينــة الحديثــة

ما ذا بالمدينــة غير المسـجد النبوى؟ أما الآثار المتصـلة بالرسـول وأهـله وبالصحابة والتابعين فكثيرة نتناولها بالحديث من بعـدُ. لكننى لم أقصد إلى هذه الآثار حين ألقيت سؤالى إلى أهل المدينة الذين أقبلوا إلى دار مُضيفى فى المساء، وإنما قصدت إلى المدينة الحديثة. فماذا بهـا من مظاهر نشاط أهلها؟ وماذا بها من أثر الحيـاة الحديثة التى يصبو شـباب مكة إليهـا بوجدانهم؟ قال أحدهم: "وما ذا كنت ترجو أن يكون لنـا من ذلك وسكان المدينة لا يزيدون على ثلاثة عشر ألفا!". دهشت إذ سمعت هذا الجواب. فهذا العدد من السكان متداول فى كثير من قرى مصر، وهو لا يبلغ السدس من سكان مكة. فكيف يكون عدداً لسكان هذا البلد الذى يجذب إليه عشرات الألوف من المسلمين فى كل عام!. أو يجد أهل المدينة كل رزقهم إلا فى موسم الزيارة، ولولا هذا الموسم خلت من ساكنيها!. لقد قرأت فى "الرحلة الحجازية" للبتانونى أن عدد سكان المدينة يزيد على ستين ألفا؛ فكيف هوى هذا العدد إلى خُمسه. أفأصاب المدينة وباء أهلكها، أم أن حرب الوهابيين أتت على خمسين ألفا من سكانها رجالا ونساء وأطفالا؟.

وأجاب الذى حدثنى: "بل هوى سكان المدينة إلى هـذا العدد الذى تراه ضئيلا منذ عُطِّلت سكة الحجاز الحديدية أثناء الحرب الكبرى. ولو أن هذه السكة عادت سيرتها لصارت المدينة فى عداد مدائن الشرق الكبرى. لقـد كان سكانها عشرين ألفا قبل إنشاء سكة الحجاز الحديدية. فلما افتتحت هذه السكة عام ١٩٠٧ ووصلت بين المدينــة والشام، وقربت ما بين المدينة ومصر، أسرع عدد السكان إلى الزيادة فى سرعة تثير العجب، إذ ارتفع من عشرين ألفـا عام ١٩٠٧ إلى ثمانين ألفا أول الحرب، أى عام ١٩١٤، وبذلك زاد إلى أربعة أضـعافه فى سبع سنوات. فلما حدثت ثورة النهضة فى هذه البلاد بزعامة الحسين بن على على تركيا

خُرِّبت السكة الحديدية وبقيت مخربة إلى الآن . من ثم عاد سكان المدينة يهوى عددهم إلى ثلاثة عشر ألفا . ولو أن هذه السكة بقيت لم تخرَّب لأربى سكان المدينة على مائة ألف . ولا عجب ، فهذه السكة شريان حيوى لهذا البلد لا تقل قيمتها بالنسبة لنا عن قناة السويس عندكم لإنجلترا . وحسبُك أن تعلم أنا كنا نصرِّف حاصلاتنا فى الشام ونبادلها حاصلاتها ، ونتَّجر مع مصر ونتصل من ثَمَّ بالعالم ، لتقدر الأمر قدره الصحيح . لقد كانت خُضَر المدينة تُرسل إلى الشام ، وكانت فاكهة الشام تجىء إلينا ، وكانت صِلاتنا التجاريّة قد نمت نمواً جلب من الرخاء ما لا يسهل اليوم تصوُّره ؛ وكثر التعامل وارتفعت الأسعار ؛ فبلغ ثمن قطعة الأرض التى كانت تباع بثلاثة جنيهات قبل السكة الحديدية عشرة جنيهات بعد سيرها ؛ واليوم هبط هذا الثمن إلى جنيهين ولا تجد مَنْ يشترى .

” هذا والسكة الحديدية لا تزال أكثر أجزائها صالحة ، ولا يحتاج تعميرها إلى مجهود كبير أو نفقة طائلة . وقد فاوضتْ حكومة البلاد كلًّا من انجلترا فى فلسطين وفرنسا فى سورية للاشتراك مع البلاد العربية فى تعميرها كى تعيدها سيرتها الأولى ، فقامت فى سبيل المفاوضة عقبات سياسية يتصل بعضها بملكية السكة لمن تكون ، وبنفقات التعمير من يتحمّلها ، ومن يتحمل نفقات التعهد والصيانة ؛ ويجىء وراء ذلك اعتبارات حربية لا نسمو إلى إدراكها . ولو أنّ هذه الصعاب ذُللت لعاد إلى مدينة الرسول من البهجة ما يعيد إلى الذهن صورة العاصمة الإسلامية الأولى . أمّا ما بقيت فى هذه العزلة المفروضة اليوم عليها فستظل كما هى ، وكما ستراها حين تجوس خلالَها ، فقيرة إلى العون الذى يأتيها من الخارج ، مهدّدة بمثل المجاعة التى هدّدتها منذ سنين والتى جعلت الحياة فيها بؤسا وضنكا لولا تبرُّع المحسنين من المسلمين “ .

ألقيت بكل سمعى إلى هذا الحديث الذى حزّ فى نفسى وأثار شجنى . مدينة رسول الله يكون ذلك شأنها والمسلمون ساهون لاهون ! . يا لَلْعار ويا لَلْهوان كل نفس مؤمنة ! أوَ لا يرى المسلمون فى هذا نذيرا من الله لهم كيما يغيّروا ما بأنفسهم ليغيّر

ما بهم! وليس هذا النذير ابن أمس؛ فقد سمت المدينة شأنا فى كثير من الأحيان، ثم أصابها مثل هذا الذى أصابها ولمّا تكن السكة الحديدية هذه قد أُنشئت ولمّا يكن التفكير فيها قد بدأ . يقول برخارت فى كتابه الذى وضعه عام ١٨١٥ عن جولاته فى بلاد العرب : " المدينة حسنة البناء، فكل مبانيها من الحجر . وتتألف منازلها فى أكثر الأمر من طابقين عاليين، وسقفها مسطّح . وهى ليست مُبيَّضة . والحجر الذى شيِّدت به قاتم اللون؛ ولذلك كانت طرقاتها أدنى إلى العبوسة . وأكثر هذه الطرقات بالغة فى الضيق حتى لاتزيد على ذراعين أوثلاث أذرع . وقليل من طرقاتها الرئيسية مرصوف بأحجار مستديرة كبيرة . وهـذا تَرَفٌ قلّما يتوقعه السائح فى بلاد العرب . وهى على العموم من خير البلاد التى شهدت فى الشرق بناء، وتجىء لذلك فى هذا المضمار ثانيـةً لِحَلَب . على أن مظهرها اليوم يبعث إلى النفس الأسى لما يهدّد منازلها من الدمار . ذلك بأن ملّاك هذه المنازل كانوا يحصلون على أرباح طائلة من أحشاد الزوار الذين يجيئون إليها على اختلاف فصول السنة . أمّا الآن وقد نقصت مواردهم فإنهم لا يُقدمون على ما يكلّفه البناء من عظيم النفقة وهم يعلمون أنهم لن يستردوا نفقاتهم بتأجير منازلهم . لذلك ترى المنازل الخربة والجـدران التى توشك أن تنقضّ فى كل مكان؛ ومن ثم كان منظر المدينة كأكثر مدن الشرق مما يبعث إلى القلب الحسرة ولا يعيد إلى الذهن من بهائها القديم إلا صورة ذابلة[1]" .

ليست السكة الحديدية وسيرها وانقطاعها كل السبب إذًا فيما أصاب المدينة من تفاوت الحظ . أفأصاب هـذا التفاوتُ غيرها من مدن الشرق جميعا ، أم أنها خُصّت منه بنصيب تفردت به؟ . وإن يكن ذلك حقًّا فما سببه؟ أمسيت أفكر فى هذا أحاول ردّه إلى موقع المدينة حيناً وإلى تأثير هذا الموقع فى طباع أهلها حينا آخر . ولقـد بدا لى أثناء تفكيرى ما زادنى حرصا عليـه وإمعانا فيه . فقد كانت يثرب حتى هجرة النبى إليها مقام الأوس والخزرج من أهلها، واليهود الذين سبقوهم

(١) برخارت . الجزء الثانى صفحة ١٥٠ .

إليها وأقاموا بها . وكان الأوس والخزرج إلى يومئذ ما يفتئون يقتتلون ، فيزيد قتالهم وتناحرهم ما لليهود بالمدينة من سلطان بقدر ما يصيبهم هم من ضعف وانحلال . فلمّا جمع الدين الجديد الأوس والخزرج بعد أن هاجر إليهم الرسول وأصحابه من مكة وصاروا معهم بفضل الله إخوانا متحابين متضافرين آنحلّ سلطان اليهود وضعفت شوكتهم ثم آنتهوا إلى الجلاء عن المدينة بقضهم وقضيضهم. لكن الأمر فى المدينة لم يعد إلى الأوس والخزرج من أبناء الأنصار منذ الهجرة . وما كان هذا الأمر ليعود إليهم و رسول الله بينهم وقد آمنوا به وآتّبعوه ونصروه . ثم إنه لم يعد إليهم بعد أن آختار الرسول الرفيق الأعلى ، على ما كان لهم فيه من مطمع . فقد آنحاز حىٌّ من الأنصار عقب وفاة الرسول إلى سقيفة بنى ساعدة يتمالئون على الأمر يريدونه لأنفسهم ؛ فلما ذهب إليهم أبو بكر وعمر على رأس المهاجرين قام خطيب الأنصار فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : " أمّا بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام . وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا ، قد دفّت دافّة من قومكم ، واذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر " . لكن أبا بكر لم يرضَ هذا القول فتحدّث وختم حديثه بهذه العبارة القويّة : " فأمّا العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحىّ من قريش . فمنّا الأمراء ومنكم الوزراء " . ولم يُغن عن الأنصارَ ما طلبوا من أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير ، بل آنتهى آجتماع السقيفة ببيعة أبى بكر بالخلافة . وقُبَيْل وفاته عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب ، فبايعه الناس بها ولم ينازعه أحد من الأنصار فيها . وتولّى عثمان الخلافة بعد عمر وقد آطمأن الأنصار إلى أن العرب لن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحىّ من قريش . فلمّا قُتل عثمان وبدأ النزاع على الخلافة بين القرشيين من بنى أمية وبنى هاشم لم يكن لأحد من أهل المدينة فيه مطمع .

وقُتِل علىّ بن أبى طالب بالكوفة ، فجعلها أبناؤه موضع نشاطهم على بنى أمية ، وجعل بنو أمية عاصمتهم دِمَشْق ، ثم جعل عبد الله بن الزُّبير مكة عاصمة ثورته ؛ وانحلّت بذلك عن المدينة صفة العاصمة . مع ذلك لم يقم من يطالب بأن تظل

المدينة عاصمة المملكة الإسلامية كما كانت فى عهد النبيّ ؛ وكان لمن يطالب بذلك الحجة البالغة . فقد تخوّف آباؤهم بعد فتح مكة أن يعود النبيّ إلى أهله وبلده ، فكان جوابه إذ بلغته قالتُهم : "معاذ الله ! المحيا محياكم والممات مماتكم" . وقد نزل بالمدينة من وحى الله إلى رسوله أكثر مما نزل بمكة وبأى بلد آخر . ولئن يكن بمكة بيت الله لقد مات رسول الله بالمدينة ودُفن بها . لكن الأنصار آثروا العافية من يوم سقيفة بنى ساعدة ، وتركوا الأمر لتصريف غيرهم ؛ لذلك جعلت مدينتهم تزدهر حينًا وتبتئس حينا . فأين ترى موضع السر فى ذلك ؟ .

لعل هذا السرْد الوجيز السريع قد كشف عن شىء من هذا السرّ . فليس موقع المدينة وما له من أثر فى أخلاق بنيها هو الذى أدّى إلى ما أصابها من تفاوت الحظ . ولو أنّ الموقع كان أعظم أثرا من أحداث التاريخ لكانت المدينة ــ طِيبة الحجاز ــ أسعد على الزمان حظًّا . فهى ترتفع على سطح البحر أكثر من ستمائة متر ، وجوّها لذلك أدنى إلى الاعتدال على رغم وقوعها على خط العرض الذى تقع عليه الأقصر طيبة مصر الفراعنة . من ثَمّ لا ترتفع الحرارة فيها صيفًا إلى ما ترتفع إليه فى القاهرة أو فى الإسكندرية ، وتصل برودة الشتاء إلى القدر الذى يتجمد فيه الماء فى الآنية ساعة الصباح . وسلسلة الجبال التى تنحدر من الشام إلى اليمن تمرّ شرقيّها ويخرج منها جبل أُحُد فيكاد يجاور ضواحيها . لكن الشمال والغرب والجنوب منبسطة كلها تنبع فيها مياه الآبار وتجرى إليها مياه العيون فتُخصبها وتحيطها بحدائق ونخيل وخُضرة يانعة منوّرة فى ابتسامها للحياة . وفى هذه الجبال الواقعة حول المدينة وفى الحِرَار المحيطة بها يتوسّم الكثيرون وجود أحجار نفيسة ومعادن مختلفة . ومهد الذهب الذى استُغِلّ إلى عهد العباسيين والذى يستغلّ اليوم يقع على مقربة منها . أمّا وذلك خِصْبُ الأرض وثراؤها ، فالطبيعىّ أن تكون المدينة مُتَطَلَّعَ الناس لسكناها . فإذا تفاوت حظها فى هذا الأمر على ما قدمنا فيجب أن نبحث عن السرّ فى غير الموقع الطبيعىّ من الأسباب .

وتاريخ يثرب قبل الإسلام و بعد العصور الأولى يؤيّد هذا الرأى . فهى قد كانت فى الجاهلية الأولى وحين هجرة النبيّ اليها مقصودة لحسن موقعها، وكانت ذات أسواق وأيّام . والسابقون إلى الإقامة بها هم اليهود، ولعلهم هبطوا اليها كما هبطوا إلى مدن الحجاز الواقعة فى شمالهـا فرارًا من حكم رُومِيَة و بِزَنْطية فى فِلَسْطِين . فلمّا حطم سيل العَرِمِ سدّ مَأرِب باليمن وهاجر أزد اليمن إلى الشمال، مالت قبيلتا الأوس والخزرج منها إلى يثرب وأقامتا بها . ورضيت القبيلتان حكم اليهود أوّل الأمر، ثم خرجتا عليهم وأوقعتا بهم بمعونة ملوك غسّان . وظلّ الأوس والخزرج يتنازعان السلطان على يثرب بعد ذلك وتقع بينهما حروب مايزال التاريخ يحدّث عنها، حتى كانت هجرة النبى اليها بعد بيعتى العقبة . من يومئذ بقيت يثرب عاصمةً إلى خلافة علىّ بن أبى طالب. هنالك ٱعتصم معاوية بالشام، وٱتخذ علىٌّ الكوفةَ عاصمته حتى قُتل بها . عند ذلك أتيحت للمدينة فرصة تسترد بها مكانتها . فكما أدّى مقتل عثمان إلى ٱنتقاض كثيرين على علىّ لعدم إسراعه إلى القصاص من قَتَلَةِ عثمان فقد أدّى مقتل علىٍّ ثم مقتل الحسين ٱبنـه إلى ٱنتقاض كثيرين على بنى أُمَيّة . ولقد كان عبد الله ابن الزُّبير من أشـد أعوان الحسين إلى يوم قتله بكربلاء . فلمّا وقعت هذه المأساة الفاجعـة ترك ٱبن الزبير الكوفة ولحق بمكة ودعا الناس لينضموا اليـه ؛ فخرجت مكة وخرجت المدينة على الأمويين وٱنضمتا إلى داعية بنى هاشم . وقد جرّد يزيد جيشا إلى المدينـة وآخر إلى مكة . أمّا جيش المدينة فغزاها فى وقعة الحَرّة وٱنتهك حرماتها وأخضع أهلها وحطّم أملَها فى أن تعود عاصمة الإسلام كما كانت فى عهـد النبيّ . وأمّا جيش مكة فظـل يحصر أهلها حتى مات يزيد، ثم فتحها الأمويون وقُتل ٱبن الزبير سنة ثلاث وسبعين للهجرة . من يومئذ أذعنت المدينة لحكم بنى أمية ومن قام بعدهم مقامهم، وكفى أهلَها أن يكونوا موضع عناية الخلفاء وأمراء المؤمنين. وزادهم قناعة بهذه العناية أن أفنت الحروب والثورات أكثر أبنائها العرب وأحلّت غيرهم من شتّى الأقطار الإسلامية محلهم فيها، فلم يكن من هؤلاء من يهتز لمجدها القديم أو يثور لإعادته . وبلغت هذه العناية بالمدينة فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة

مبلغا سما بها أثناءها الى مقام محسود من الرقى المادى والرقى الأدبى . ومن يومئذ بقيت تعتمد فى حياتها على حسن توجه الملوك والأمراء والمسلمين جميعا إليها بسبب مكانتها الدينية، وفقد أهلها الاعتماد على أنفسهم .

رأيتَ فى الفصل الأخير صورة واضحة من ذلك الاعتماد على الغير فى عمارة المسجد النبوىّ من بعد بناء عثمان . فلمّا بدأت عصور الاضطراب وتداعت أركان الدولة الإسلامية، كان أهل المدينة قد فقدوا ملَكة الاعتداد بالذات وأصبحوا يعيشون كَلًّا على غيرهم من المسلمين . ولهذا السبب بدأ حظ بلدهم يتفاوت من اليسار أيام الاستقرار فى البلاد الإسلامية، وكثرة زوّار المدينة تبعا لذلك، إلى الشدّة والإعسار أيام الاضطراب وانصراف المسلمين عن أداء فرض الحج وسُنّة الزيارة . وما حدث من انكماش سكّان المدينة بعد تعطيل السكة الحديدية منذ الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ للميلاد يرجع إلى انقطاع سيل الزوّار أكثر مما يرجع إلى قلّة التجارة . فقد انقطع الحج أو كاد أيام الحرب من خوف مفاجآت البحر، إذ كان يصيب «الطوربيد» السفن ؛ ولمّا كان من شغل العالم بالمجزرة المروّعة المنتشرة فيه عن كل شىء سواها . فلمّا انقطعت السكة الحديدية لم يكن عود الناس من أهل مصر والشام إلى الزيارة الرجبية ميسورا . ولمّا كانت الثروات التى حصّلها أهل المدينة فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب وحين سارت إليها السكة الحديدية لم تستقرّ، فقد أصابتها الحرب والأزمة التى أعقبت الحرب بصدمة عنيفة أحدثت هذا الانكماش الذى ردّ سكان المدينة من ثمانين ألفا إلى ثلاثة عشر ألفا . ولو أن أهلها أَلِفوا الاعتماد على أنفسهم ولم يجعلوا من موسم الزيارة ومن صدقات المسلمين مورد حياتهم، لمّا أصابهم من الجهد ما أصابهم، بل لاحتملوا الشدّة بالصبر والتمسوا الخروج منها بالحيلة . لكن الذين جاءوا إليها بعد سير السكة الحديدية إنما جاءوا يبتغون تجارة هيّنة ورزقا ميسورا . فلمّا تعذّرت أسباب الرزق فرّوا منصرفين إلى بلادهم آملين فيها رزقا أكثر بسطة وتجارة أوفر ربحا .

ومن عجبٍ أن الذين ظلوا مقيمين بالمدينة من أهلها لم يفيدوا من هذه الشدة عبرة ولم يذروا ما ألفوا من الاعتماد على الصدقات وما يُنفقه الزائرون لقبر النبى،

ولم يفكر أحد منهم فى أن ينزع بها منزع الاعتماد على مواردها الذاتيّة . ولقد رأيت ذلك بنفسى حين نزلت إليها وجست خلال أزقتها الضيّقة وسرت فى أسواقها أشهد حوانيتها الصغيرة، فلم أر فيها تجارة غير ما يحتاج اليه زوارها . وأعجب من ذلك أن هذه التجارة مجلوبة كلها من الخارج . فأمّا ما تُنبته المدينة فليس يتجر منه فى غير البلح الكثير الأصناف، والذى يبتاعه الناس تبرُّكا أكثر مما يبتاعونه لجودته؛ هذا على أن أصنافه الجيدة كثيرة وصالحة للتجارة كل الصلاح . لكنّ أهل المدينة لم يُعْنَ منهم أحدَ بأمر هذه الأصناف وحسن تهيئتها للتصدير، لا من حيث اختيارها، ولا من حيث عرضها فى عُلَبٍ أو صناديق تسترعى النظر، ولا من حيث الإعلان عنها، ولا من حيث نقلها للتجارة فى بلد آخر .

وليس يسترعى النظر فى أسواق المدينة شىء يقف الإنسان عنده . ولولا التبرُّك وما له على النفوس من سلطان لَمَا عاد إليها مَنْ مرّ بالأزقة الضيّقة التى تحويها . فهذه الأزقّة أكثر ضيقًا من مثلها فى أصغر القرى بأرياف مصر . وهى مكتَظة أثناء موسم الزيارة على نحوٍ يدعو إلى الفِرار منها حَذَرَ الاختناق بها . ولقد شُقّتْ بعض شوارع فسيحة فى المدينة أثناء الحرب، لكنها ليست مقصودة كتلك الأزقّة . ولعل الناس لا يرون فيها ما بالأزقّة من بركة ؛ أم لعل الحوانيت بها أعلى أجرًا وأهل المدينة أحرص على ألّا يبسطوا أيديهم كل البسط فى هذه السنين التى أصابت المجاعة فيها بلدهم المقدّس غير مرّة . وقد يفسّر لك بعضهم هذه الظاهرة من التمسك بالأزقّة والإقامة بها بقربها من المسجد النبوى؛ قربًا يحرِص كلٌّ على أن يبلُغ منه غاية ما يستطيع .

وضِيق الأزقّة بالمدينة مضرب للمثل ؛ فما يكاد يضاهيه مما بمكة شىء على ما أسلفنا من ضِيق طرقها . فمن أزقّة المدينة ما لا يتسع لأكثر من اثنين يسيران جنبًا إلى جنب، فإذا لقيهما غيرهما لم يكن بدٌّ من أن يتنحى أحدهما وأن يسير وراء صاحبه لِيَفْسَحَ للعابر بهما سبيلا . وهذا على سعة رُقعة الأرض فيما حول المدينة

سعةً تطوّع لعشرات الألوف حين الرخاء أن يُشيدوا المبانى بها . لكنما ألف الناس من أهل المدينة هذا النوع من العيش فى الأزقّة الضيّقة . فإذا عضّت سنو الشدّة بلدهم وغادرها من ليس أصيلاً بها ظل أبناؤها فى الدائرة المحيطة بالمسجد، لا يفكر أحد منهم فيما يفكر أهل هذا العصر فيه من توسيع الطرق لتهوية البلد كفالة لصحة أبنائه.

يذكر لبيب بك البتانونى فى رحلته الحجازية من أسماء أزقّة المدينة زُقَاق البقر، وزُقَاق الخياطين، وزقاق الحبس، وزقاق عنقيبى، وزقاق السماهيدى، وزقاق البدور، وزقاق الأغوات، وزقاق ياهو، وزقاق الكبريت، وزقاق القماشين، وزقاق الجامين، وزقاق مالك بن أَنَس، ثم يقول : " وعلى كل حال فحارات المدينة نظيفة وضيقها يساعد كثيرا على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف كما هو الشأن فى أغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يبتدئ من الباب المصرى إلى الحرم الشريف فى شارع ضيّق طوله خمسمائة متر تقريبا يقطعه على المارّة تقابل جملين فيه مع بعضهما . والحركة فيه تكاد تنحصر فى مدّة الحج والموسم الرجبى . وهو موسم الزيارة الرسمية فى بلاد العرب" . هذا ما كتبه لبيب بك من أكثر من ربع قرن تغيّر فيه وجه العالم بالحرب وحلول السيّارة محل الجمل وبتنظيم الطيران وبتغير نظام المدن . مع ذلك بقيت المدينة لم يتغيّر فيها شىء، وبقى سوق المدينة على ضيقه من أكثر أزقّة المدينة سعة ونشاطا، وبقى نشاطه ونشاط المدينة كلها محصورا فى مدّة الحج . أمّا الموسم الرجبىّ فلم يبق فى مثل نشاطه الأوّل .

ولقد أعانت عوامل كثيرة على بقاء الحال فى المدينة لم يُصبها تطوّر خلا حلول السيّارة محل الجمل بمقدار ماحدث فى بلاد العرب كلها، على حين أصابها أذًى وشرٌّ كثير . من هذه العوامل ماحدث أثناء الحرب وبعدها من قلق واضطراب فى هذا البلد المقدّس زاد على مثله فى سائر بلاد العرب . بدأ ذلك حين انتقض الشريف حسين على الأتراك واتفق مع انجلترا على استقلال العرب . إذ ذاك تحصّن الأتراك بالمدينة واتخذوا قلاعها ملاذهم . فلما رأوا الأمر وشيكا أن يخرج من أيديهم

أخذ فخرى باشا خيرَ مافيها من نفائس فبعث بها إلى الآستانة : أخذ الجواهر التى بالحجرة النبويّة ، وأخذ أنفس ما فى مكتبات المدينة من المخطوطات والكتب النادرة ، وتركها للأشراف يحتلّونها مجرّدة من هذه المفاخر التى كانت لها والتى كانت ذات أثر عظيم فى توجُّه العالم الإسلامى إليها . ولئن لم يكن هذا الأثر شيئا مذكورا إلى جانب المسجد النبوىّ وقبر الرسول فيه ، لقد كان للكوكب الدُّرّىّ ولهذه النفائس المتصلة بالحجرة وكان لكتب السلف المحفوظة بمكتبات المدينة سلطانٌ على النفوس لا سبيل إلى إنكاره . فلما آستقرّ الأمر للأشراف فى الحجاز بدءوا يفكرون فى الإصلاح . لكنهم لم يلبثوا أن دهمتهم الحرب السعودية التى أصابت المدينة بمثل ما أصابتها ثورة النهضة بل بشرٍّ مما أصابتها به . كانت المدينة من ناحية العمارة الأثريّة متحفا نفيسا بالغًا غاية الجمال . كانت القِباب المقامة على قبور أُمّهات المؤمنين وعلى قبور الصحابة بالبَقيع بعضَ ما يشهد لفنّ العمارة الإسلامية بسبق يغبطه عليه أكثر الناس تقدّما فى العمارة ، حتى لقد كان الأتراك يُطلقون على هذه المجموعة البديعة فى فنّ المعمار اسم «جَنّة البَقيع» . وكان على قبر سيّد الشهداء حمزة عم الرسول مسجدٌ وقبّة تهوِى إليهما النفوس ويفاخر بهما الفنّ . وكان ثمّة من هذه العمارة الفنّية كثير كان يشغل النّاس عن ضِيق الأزقّة بالمدينة وعن كثير مما لا يجارى العصرَ فيها . جاء الوهّابيون من أشياع آبن السعود على هذه الآثار الفنية هدماً وتحطيما ؛ لأنها لا تتفق مع عقيدتهم الإسلامية من وجوب تسوية القبور بالأرض ومن تحريم التبرُّك بالقبور وقِبابها أو آتخاذ أصحابها إلى الله شفعاء وزُلْفَى ، لِمَا فى ذلك من إشراك بالله لا يُقرّه التوحيد ولا يرضاه الإسلام فى رأيهم .

وقف أهل المدينة إزاء هاتين الحركتين : حركة الأتراك ، وحركة الوهابيين ، مشدوهين حيارى لا يعرفون مايصنعون . وأنّى لهم أن يعرفوا ومدينتهم تضمحلّ مذ عطّلت الحرب مواصلاتها مع الشام ، والرخاء يزايلهم بآنقطاع الزيارة أثناء الحرب وبعدها ، وأحوالهم تنحدر سراعًا إلى أسوأ ما يتصوّر الإنسان ! . لا عجب إذًا أن تقف المدينة دون التطوّر الذى أعقب الحرب فى العالم كله ، وأن يكون

بقاؤها حتى اليوم عامرةً بمن ظلوا مقيمين بها رغم القحط والمجاعة وسوء الحال معجزةٌ من المعجزات لا يفسّرها إلا ما يملأ قلوب هؤلاء الناس من إيمان بالرسول ورسالته وإعزازٍ لقبره وحِرْص شديد على المُقام فى جواره .

لأهل المدينة العذر وهذا ما نزل ببلدهم إذا هم لم يجاروا تطوّر العالم بعد الحرب. لكن من الواجب ألّا ننسى عوامل أخرى كانت فى هذه الأحوال وفيما سبقتها سببا فى وقوف المدينة دون مجاراة العالم فى تطوّره . وفى مقدّمة هذه العوامل رُوح الاعتماد على الغير بآسم التوكّل على الله، وروحُ الإذعان بآسم الإسلام لقضاء الله. فقد بقيت المدينة تعتمد، وقد زالت عنها صفة العاصمة للملكة الإسلامية، على حسن توجّه الملوك والأمراء اليها بسبب مكانتها الدينيّة لوجود القبر النبوىّ بها أكثر من اعتمادها على جهود أبنائها وحسن سعيهم لخيرها، وترى فيما يبذله المسلمون فى مختلف بقاع الأرض لها من هِبَات وأوقاف مصدرَ حياتها ورزقها . وليتها آستعانت بذلك على تنمية مواردها أو المزيد من جمالها أو حسن تنظيمها ، بل أمسك الجهل أهلها دون القيام بشىء من ذلك كله وحبسهم فى حدود هذه المعونة الواردة إليهم من غير أن يكون لهم أىّ فضل فى الإبقاء عليها بلَهْ المزيد فيها .

من الظلم أن نُلقى كل التَّبِعة عن هذه الحال على أهل المدينة وحدهم . ولعل الحظ الأوفى منها يقع على أولى الأمر فى عواصم الإسلام ممن كان لهم على المدينة الحكم والسلطان . هؤلاء حرَصوا على أن يظل أهل المدينة فى غَيَابات الجهل حتى لا يكون لهم من العلم قوة تضاعف بأسهم بمجاورتهم قبر الرسول . فلو أنهم تعلّموا وعلموا الحق الذى جاء محمدًا من ربه مُبَرَّأً من كل شائبة لكان لهم شأن غير شأنهم منذ آنحلّ سلطان العاصمة عن مدينتهم . إذًا لعلموا أن الإسلام لله والتوكل عليه أولُ شرائطهما السعى وبذل غاية الجهد لدَرَكِ الغاية التى يجعلها الإنسان هدف حياته ، ولأيقنوا أن الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون نفسه وفى عون أخيه، ولأدركوا أن هذه الحياة الدنيا فترة هيّأها القدر ليقوم المرء فيها بواجبه لنفسه ولإخوانه،

فإن هو قصّر فى أداء هــذا الواجب فقد قصّر فى أداء حق الله ولم يبلغ الحظ الذى يُتيح له الرضا فى الحياة . لكنهم إن أدركوا هــذا وآمنوا به أصبح حكم الاستبداد إيّاهم محالا ؛ لذلك حجب الحكام المستبدون عنهم نور العلم وغَشَّوْا دونهم ضياءه .

يدلّك على ذلك أن أرقى مدرسة بالمدينة اليوم هى مدرســة العلوم الشرعيّة . واسم هــذه المدرسة ضخم يُكبر حقيقتها . ولقــد حسبتها أول ما سمعت هذا الاسم من نوع مدرسة القضاء الشرعى بمصر . فلمّا زرتها ألفيتها مدرسة ابتدائية تدرس أحكام الشريعة فى الفصول العليا منها . وزرت مدارس أخرى فإذا هى دون هذا الطراز مكانة ، وإذا هى تعنى بالصناعات اليدويّة الأوّلية كصناعة الجلود والنسيج البسيط أكثر من عنايتها بأمور العلم . وهــذه المدارس كلها تجرى عليها النفقة من هِبَات وأموال تجىء من الهند ، وغاية مطمعها من ناحية الحكومة القائمة أن تنال عطفها . فكثيرا ما لَقِيتْ أمثال هذه المدارس العَنَتَ فى العهد العثمانىّ ، وكثيرا ما اتهمت بأنهــا أُقيمت لأغراض سياسـيّة تناوئ مرامى الدولة ولم تقم لوجه الله ورســوله .

وثَمّ مدرسة أنشئت فى عهد هذه الحكومة الحاضرة ، ولهــا من رعايتها الحظ الأوفى ، تلك مدرسة الأيتام . ولقد دُعيت الى حفلة أقيمت لخيرها حضرها أمير المدينة وأعيانها ، عُرِضتْ فيها مصنوعاتها لمن يشتريها ، وألقى فيها تلاميذها مقطوعات وخطبا دُرِّبوا عليها . ولقــد لمحت فى هؤلاء التلاميــذ ، ومنهم بَدْوٌ لم يألَفوا الحَضَرَ قبل التحاقهم بهذه المدرسة ، نجابةً واستعدادًا للعلم يدلّان على أن المستبدّين لم يخطئوا حين خافوا مغبّة العلم على سلطانهم فى هــذه البلاد . لكن ما يتعلّمه تلاميــذ هذه المدرسة لا يزيد على المعلومات الأوّلية التى تُلْقَى فى غيرها ، ولا يُقْصَد منه إلى أكثر من المعلومات العملية ذات النفع البُدَائى فى الحياة .

ماذا عسى أن ينشأ عن هذه الحال من ألوان التفكير وألوان العيش ؟ . يذكر الذين زاروا المدينــة وعاشروا أهلها أنهم قوم على جانب عظيم من دماثة الطبع ورقة

الخُلق . وهذا طبيعيٌّ فى البلاد التى تعيش على السياحة والسائحين أيًّا كان سبب السياحة . ويزيد بعضهم أن فى مجاورة أهل المدينة قبر الرسول ومسجده مَا يُثُّ فى نفوسهم هذه الدماثة وهذه الرقة . ولست أدرى مبلغ الصحة فى هذه الحجة بعد ما ذكر لى غير واحد ممن اتصلت بهم أن كثيرين من أهل المدينة ينظرون الى الحياة بعين مستهترة بالحياة مشغوفة بمُتَعها المادّية ولذاذاتها الدنيا، وأن منهم من يُنفق ما يكسبه فى موسم الحج والزيارة فى هذه المُتَع واللذاذات غير حاسب للغد حسابا، مطمئنا إلى الموسم المقبل وما تدُرّه عليه أخلافه من رزق . ولست أتهم الذين حدّثونى بهذا الحديث وقد دُعيت إلى غَداء فى بستان المَصْرَع على مقربة من قبر حمزة، فكان مما أراده إخواننا أن يدعو مُضيفُنا مُغَنّيا أو قَينةً وضاربَ عُود . ولم يتردّد مُضيفنا فى الأمر بادئ الرأى، لكنه خشى من بعدُ غضب أمير المدينة النجدىّ الوهابىّ المترمّت عبد العزيز بن ابراهيم، وذلك حين علم أن الأمير أتاه نبأ من هذه الدعوة وأسماء المدعوين فيها ، وأنه سيقف أغلب الأمر على حديثها وعلى كل ما يجرى أثناءها .

ولقد أذكرتنى هذه الوليمة ببستان المصرع قول البتانونى فى رحلته : "ومن عادات أهل المدينة الرياضة والتنزّه فى البساتين خارج المدينة، فيخرجون إليها فى يوم الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعاتٍ جماعاتٍ ويعودون فى المساء؛ وقد يخرجون إلى هذه الرياضة من أوّل اليوم ومعهم غداؤهم فيمضون نهارَهم بأحد البساتين التى بضواحى المدينة فى سرور وحبور . ويسمون هذه الفسحة مقيالا" .

والطبيعة المحيطة بالمدينة تعاون على هذا اللون من الحياة . فالبساتين حولها كثيرة والخضرة بسّامة والحياة ضحوك . ولولا أحداث الزمن وما أصاب هذا البلد الطيِّب من بأساء وما تركه ذلك فى نفوس أهله من أثر لَمَا تعرّضوا لما يصيبهم من تفاوت الحظ . ومُقام أهل المدينة إلى جوار الرسول والمجرة النبوية، وتأثُّرهم بالتطوّر الذى حدث فى التفكير الإسلامى أكثر من سواهم، وهذا التوكُّل المطلق

الذى أصبح بعض خُلُقهم، يجعلهم أدنى إلى الصبر والرضا وأقلّ جَزَعًا لكوارث الدهر . من ذلك ما لاحظه غير واحد من أنهم لا ينوحون على موتاهم ولا يبكونهم، وأنهم يسرفون فى التجلّد والصبر إسراف المصريين فى الجَزَع لدى الفاجعة والحزن لها . وهم فى توكّلهم لا يحسبون لغدٍ حسابا . وماذا ينفعهم أن يحسبوا وقد ألِفوا من فُجَاءات الدهر بالسرّاء والضرّاء ما يضلّ معه كل حساب، وقد علّمهم تعاقبُ الأجيال أن الأمر فى مدينتهم ليس لهم بل للحاكم الأجنبى عنهم، والذى يُعْنَى بسياسته وتطبيقها عندهم أكثر من عنايته برقيّهم ورخائهم ! .

ولقد كان من أثر ذيوع الأمّيّة والجهل بالمدينة أن لم يُعْنَ أحد من أهلها بتنظيم المكتبات العامّة الموجودة بها . فبالمدينة مكتباتٌ عامّة تحتوى من المخطوطات والكتب المطبوعة على ألوف المجلّدات . ومكتبة السلطان محمود ومكتبة السلطان عبد الحميد ومكتبة بشير أغا من المكتبات التى يتحدّث الناس فى المدينة عنها . فأمّا أكبر مكتبة بها فمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت . وفى وصف هذه المكتبة يقول البتانونى : "هى قريبة من باب جبريل الى جهة القبلة . وهذه الكتبخانة آية فى نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها، وأرضُها مفروشة بالسجّاد العجمى الفاخر، وفى وسط حوشها نافورة من الرخام فيها صنابير للوضوء وفيها كتب ثمينة جدًّا لا يقلّ عددها عن أربعة وأربعمائة وخمسة آلاف كتاب . ولقد رأيت بها شيئا من غرائب الصناعة النادرة فى بابها، وهو كتاب أسفار فارسيّة مكتوب بالخط الأبيض الجميل لِمِلّاشاهى . وبينا نحن نعجب من جودة الخط وإتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صغرها ودقّتها لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى أن حروف الكتابة إنما هى ملصوقة على الورق، فتأمّلناها فوجدنا شيئا يبهت الطرف لرؤيته ويعجز اللسان عن نعته خصوصا عند ما أخبرنا أنهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ثم يفصلونها عن ورقتها بظفرهم ثم يُلصقونها على ورقة أخرى" .

ولقد حرصت على زيارة هذه المكتبة لكثرة ما سمعت عنها بمكة . فلما زرتها أعجبت بالسجّاد العجمي ونافورة المياه التى ذكرها البتانونى . لكننى حرصت مع ذلك على أن أقف على نظامها ، فسألت أمينها عن فهارسها وعن طريقة القراءة والمراجعة فيها . ولم يثر دهشتى نقص الفهارس ولا أثارها عدمُ العناية بتنظيم الانتفاع بالمكتبة بعد الذى عرفته من انتشار الأُمّيّة بالمدينة . والواقع أن أمين الدار ، وهو شيخ حسن الحديث واسع الاطلاع على محتوياتها ، يكاد يكون هو الفهارس وهو المرشد إلى كل ما دقّ وجلّ فيها . وقد دلّنى حينئذ على قلّة روّاد المكتبة من أهل المدينة ومن الحجاج ، وأن الذين يجيئون اليها يجيئون يدفعهم التطلّع للاحاطة بها فى نظرة عامة أكثر ممـا يدفعهم الحرص على مراجعة كتبها أو الانتفاع بها . ومعظم ما يطمع الأمين فيه أن يجد من يُعْنَى بمخطوط من المخطوطات فينقله مأجورا . وهو لذلك جدُّ حريص على أن يؤكّد صحة المخطوطات التى بالمكتبة ودقّة اتفاقها مع الأصل التى نُقلت عنه إن لم تكن هى هذا الأصل بالفعل . وقد أطلعنى على "مُعْجِز أحمد"، وهو شرح أبى العلاء المَعَرّى لديوان المتنبى ، وأكّد لى صحة نسبته إلى الأصل ودقة نقله . وأوشكت أن أطلب اليه استنساخه لو لا أنى علمت من أحد أبناء المدينة حين طالعته بما دار من ذلك بخَلَدى أن هذه النسبة إلى المعرى موضع ريبة وأن القول بدقة النقل مبالغ فيه .

وتمنّيت مذ عرفت تعدُّد المكتبات بالمدينة أن يبنى لها جميعا دار واحدة تجمع كل ما فيها وتنظّم تنظيما حديثا يكفل الاستفادة منها . لكننى إذ عدت إلى نفسى ألفيت أن ما أطلبه من ذلك أدنى الى المُنَى التى لا تحقق . فأهل المدينة يحسبون هذه المكتبات زُخْرُفا وقلّ منهم من يقدُر ما تعود به المكتبات من فائدة إذا وجدت المنتفعين بها الحريصين على نشر كنوزها وتبويب ما فيها تبويبا علمياً صحيحا .

وكيف يتسنّى لبلد لا يزيد سكانه على ثلاثة عشر ألفا ، وهو ليس مركزا علميا ، أن يفكر فى مثل هذا الأمر ! وكيف يتسنى له أن يفكر فيه ومبلغُه من العلم ما رأيت ! .

حَسْبه أن يكون متحفا لآثار تظل محفوظة رجاء يوم يُسْعِد الحظ فيه المدينة فيكون أهلها من العلم أو فر نصيبا ويكون زائروها أكثر على البحث والدرس توفُّرا ليكون هذا التفكير بعضَ ما يدخل فى حيِّز الممكنات .

ولعل هذا اليوم يكون قريبا ! . فقد تعود سكة الحجاز سيرتها، فيعود إلى المدينة الرخاء ويكثر فيها السكان ويزداد النشاط ويطَّرد ذلك زمناً تستقر فيه الأمور وتصبح غير ما هى اليوم . ألا ما أكثر ما أتمنى ذلك! وما أكثر ما يتمناه كل محب لهذا البلد ! بل ما أكثر ما يتمناه كل محب للإنسانية! . لقد تنقلت خارج أسوار المدينة حيث كانت تقوم الدور والأحياء حين بلغ سكان المدينة ثمانين ألفا ، فأسِفت لحالها الحاضرة، وعجبت كيف تُطاوع ساسةَ الغرب أنفسُهم على التآمر لقتل بلد مثله من اليسير إحياؤه بما لا يضرّ أحداً وما يعود بالخير على الجميع . ولولا أنى أكبر هؤلاء الساسة وأحسبهم أسمى نفساً من أن يدفعهم التعصُّب الدينىّ إلى محاربة المدينة لوجود قبر نبىّ الإسلام بها لخِلتُ هذا الدافع أقوى ما تتأثر به نفوسهم . ومهما يكن من الأمر فما أرانى أُسيغ هذه الصعاب التى يُقيمونها دون تعمير السكة الحديدية وقد استطاعت السياسة بأوضاعها المَرِنة أن تحلّ ما هو أعسر منها وأشدّ تعقيدا .

والسور الذى كانت هذه المبانى قائمة فيما وراءه والذى يحيط بالمدينة القديمة ما يزال قائما إلى اليوم . ولقد كان عَضُد الدولة أبو شجاع وزير الطائع لله أول من أنشأه فى سنة ٣٦٠ هـ اتقاءً لغزو الأعراب المدينة ، ثم كان الأمراء يُقيمونه كلما تداعت أركانه ، حتى عمّره محمد على باشا بعد انتصار جيوشه على الوهابيين . وجدّده السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٥ هـ وبنى فيه أربعين بُرْجا تُشرف على ضواحى المدينة للدفاع عنها ؛ وما تزال القلاع قائمة فى بعض نواحيه اليوم على قلّة ما ينتظر من فائدتها فى الدفاع ضدّ الأسلحة الحديثة .

أوَ يصبو شبابُ المدينة كما يصبو شباب مكة إلى الحياة الحديثة فى التفكير والعيش؟ هذا أمر لا ريب فيه . لكن الناس من أهل المدينة لا تتفسح مطامعهم

لِمَا تنفسح إليـه مطامع المكيين وبلدُهم عاصمة الحجاز ومقرّ الحكم والسلطان . على أن طبيعة المدينة أدنى إلى الحَضَر ، وموقعها أدنى إلى مواطن الحضارة من مكة ، وشبان المدينة شديدو التَّوْق لذلك إلى المعرفة والتزيُّد منها ، لولا أنهم لا يجـدون إليها الوسـيلة . ولو أنهم وجدوها ، ولو أن المدينة آتصلت بالعالم آتصالها قُبَيـل الحرب ، لكان لها فى الأندفاع إلى الحياة الحديثة ما يزيد على ما لمكة فيما أظن .

أمّا وحالهـا الحاضرة ما رأيت والحكم فيها للنجديين القريبين من البـداوة ، فالحديث عن هذا التوق وعن آندفاع المدنيين إلى الحضارة أدنى الى أُمنيّة لا يدرى أحد ما كتب القدرُ لهـا فى لوحه . وإذا ذكرتَ حكم النجديين بالمدينة فلا تقس إليه حكمهم بمكة . هم بمكة فى عاصمةٍ أكثر الأمر فيها إلى أبنـاء الحجاز وليس للنجديين فيهـا إلا الرياسة العليـا . وهؤلاء النجديون لا يُقيمون بمكة إلا أيام الحج وبعض أيّام أخرى من السنة ؛ وفيما خلا ذلك تصفو مكة لأهلها . أمّا أمير المدينة النجدىّ فيقيم بها طول العـام ، وهو فيها الحاكم المباشر النافذ الكلمة المطاع . من ثَمّ يرتقب أهل المدينة إرادته وتدعوهم دماثة أخلاقهم إلى مصانعته . إنه يودّ من ناحيتـه لو آستطاع أن يُدرك الحيـاة الحديثة وأن يجمع بينها وبين عقائده وميوله النجديّة ، وهو بذلك يدنو منهـم بعضَ الشىء . لكن مكانته ، بوصفه ولىّ الأمر فى البلد ، وطبيعته البدويّة الصميمة ، تُمسكانه دون بلوغ الكثير من ذلك ، وتدعوان أهل المدينة إلى متابعته أكثر مما يتابعهم .

زرتُ الأمير عبد العزيز بن إبراهيم غير مرّة . زرته فى ديوان الحكم ، وزرته فى داره ، وتناولت طعام الغداء على مائدته ، وشاركته فى طعام خفيف آخر الأمسية دعانى اليه آبنه إبراهيم . ولم يُدهشنى ما رأيت من مظهر حياته النجديّة بدار الحكم ولا فى غرفة آستقباله بالمدينة . فقد أَلِفت أن أرى من ذلك فى مصر وفى غير مصر ما لا يدع للدهشة موضعا . وأنت لا ترى على باب الوزير من مظاهر البأس العسكرى المتبجّح ما تراه على باب مأمور المركز . وأنت كذلك لا ترى من مظاهر

هـذا البأس على باب قصر الملك أو دار وزير المـالية أو أمين العاصمة بمكة ما تراه فى مجلس أمير المدينة . ففى هـذا المجلس جندٌ من النجديين علّمهم الأمير الحرصَ على أن يُظهروا للناس بأسَه وبطشه . فإذا دعا أحدهم دعاه فى شدّة كما يدعو المأمور أحد جنود المركز، ولبّى الجندى فى اندفاع وتَطَلُّع واستعداد لتنفيذ أىّ أمر . ولقد تناولت على مائدته طعام الغداء فكانت مائدة بدويّة يجلس الناس حولها ويتناولون طعامهم بأيديهم، فيجدون منـه طعاماً لذيذا، فوق شبعهم . أمّا يوم دعانى ابنـه فى الأمسيّة فقد صعدنا الى دار الأمير وتناولنا "بسكويتا" ومرَبّات وحلوى، وقد حَرص الأمير على أن يتناول الطّعامَ بالشوكة ليدلّ بذلك على حسن استعداده لحيـاة العصر . وأهل المدينة يجارونه فى بداوته وفى محاولته الحضارة، وإن كان أكثرهم قد عرف أيام حكم العثمانيـين من مظاهر الحضارة ما لم تعـرف نجد البعيدة عن الحضارة العثمانية .

وإبراهيم ابن الأمير فتًى لم يجاوز الخامسة عشرة فيما أرى؛ وهو وسيم الطلعة فى زيّه العربىّ، حادّ النظرة من عينين سوداوين فيهما حَوَرٌ، ممشوق القوام، رقيق المظهر، ليس فيه شىء من هذه الخشونة وهذا البأس اللذين يبدوان فى نظرة أبيه وفى حديثه، واللذين جعلا منه مَثَلَ القسوة الباطشة فى الحجاز كله . ولم أسمع حديث الفتى لأقف على مبلغه من العلم وإن رأيت منه صرامةً فى توجيه الأوامر الى تابعيه هى لا ريب بعض ما ورث عن أبيـه وبعض ما يقضى به مركزه وهو ابن الأمير الباطش الشديد .

وتناولت طعام الغداء يوم سفرى من المدينـة على مائدة أحد أعيانها، فرأيت فيها من نظامنا الحديث ما لا يتفق مع هذا الذى رأيت عند الأمير وما أذكرنى أن القوم لم ينسوا بعدُ أيّامَ الأتراك . وهذا الرجل من أعيان المدينـة ليس فى سعةٍ من الثروة تُعاونه على المبالغة فى بسط العيش . هذا ما قصّه علىّ بعض من وثقت بهم ممن عرفت بالمدينة . وإنى لأقرأ يوما فى كتاب "برخارت" إذ وقفت فيـه على

ما يقال من أن أهل المدينة أحرص على التظاهر من أهل مكة ، وأنهم يميلون الى شظف المأكل فى حياتهم الخاصة، لكنهم يُنفقون على أثاث منازلهم وعلى ملابسهم التى يقابلون الناس بها نفقات طائلة .

ترى هل تطوّع الأقدار للمدينة أن تبلغ غايتها فيما تتوق اليه من الحياة الحديثة ومظاهرها؟ وما عسى أن يكون أمرها إذا بلغت هذه الغاية ؟ إنهم ليتحدّثون عن إعادة سكة الحجاز الحديديّة سيرتها الأولى . وأهل المدينة يشرئبون بأعناقهم الى هذا اليوم ويدعون الله من كل قلوبهم أن يكون قريبا . وإنى لأشاركهم فى هذا الدعاء، وأرجو أن تسمو تقديرات الساسة حين النظر فى هذا الأمر الى الاعتبارات الإنسانية، وألا تقف فى حدود التفكير الاستعمارى والتنظيم الحربىّ . ولئن تأثرت فى هذه الدعوة بأن المدينة من الأماكن الإسلامية المقدسة لأنها مُهَاجَرُ النبىّ العربى ولأن بها قبره، إنى لشديد الرجاء ألّا يبلغ تأثُّر ساسة الغرب بميولهم المسيحية حدًّا يحول دون بلوغ المدينة ما يمكن أن تبلغه من أسباب الرخاء والتقدّم مما يطوّع لأبنائها أن يشاركوا بجهودهم فى العمل المثمر لرخاء الإنسانية وتقدُّمها .

ما أشدّ شوقى أن يتحقق هذا الرجاء وأن يتاح لى إذ أعيد طبع هذا الكتاب أن أشير الى نجاح المسعى لإعادة السكة الحديدية التى تَعاون المسلمون من أقطار الأرض جميعا على إنشائها! . يومئذ يُتاح للمدينة أن تخطو نحو حضارة العصر خطوة واسعة، وأن تتصل بسائر أنحاء العالم كما اتصلت من قبل بها، وأن تجد فى موقعها الطبيعى عونًا على تقدّمها السريع فى الاضطلاع بأعباء الحضارة . فهذا الموقع الطبيعى على ما رأيت حَضَرُ كُلِّ الحضر لا يُدانيه موقع مكة من هذه الناحية ولا يقاس إليه ؛ وهو لذلك صالح لمُقام عدد عظيم جدًّا من السكان يستطيع التعاونَ والعمل المثمر، والاعتماد على خيرات هذه الطبيعة الخصبة الجواد، ومبادلةَ العالم مبادلة لا تقف عند المنتجات التى تجود بها هذه الطبيعة بل تتعدّاها الى نتاج العقل الإنسانى وآثار الفن والفكر، وتكون بذلك عظيمة الأثر جليلة الفائدة .

لم أشر الى شىء من ذلك وأنا أتحدث فى هذا الفصل عن المدينة الحديثة لأن حال المدينة وحظها ما رأيت . لكن رقعتها قد اتسعت حين ابتسم الدهر لها ثمانين ألفا يقيمون بها و يعيشون فيها عيش رخاء وسعة . لم ينقصها الغذاء يومئذ وقد كان حولها من البساتين والمزارع ما طوّع لأهلها أن يعيشوا عيش الترف، وأن يقيموا القصور الشاهقة وأن يحيطوها بالحدائق الغنّاء ؛ ولا يزال الأثر الباقى من قصر سعيد بن العاص شهيدًا بذلك . والتاريخ يذكر قصورا بوادى العقيق خلّد الشعر على حقب العصور أسماءها . ولم ينقص الماء المدينة والعيونُ والآبار فيها بالغة من الكثرة حدا يثير تطلّع "الجيولوچيين" الى معرفة طبقات الأرض وما تحتوى عليه فيها . ولئن بقيت العين الزرقاء مصدر الماء لسقيا أهل المدينة الى هذا الوقت الحاضر لقد يقف الإنسان أمام العيون والآبار المنثورة داخل المدينة وفيما حولها دهشا متسائلا عن منابع هذا الماء أين تكون وكيف تختلف كل هذا الاختلاف الذى يعيد الى الذاكرة صورة من بلاد المياه المعدنية بأوربا . وأنت تقف من هذه الآبار اليوم عند بئر أريس بجوار مسجد قُبَاء، وبئر رُومةَ الواقعة بالعقيق قريبة من مجمع الأسيال، وبئر غَرْس، وبئر حاء، وبئر بُضَاعة، وبئر السقيا، وبئر أبى أيوب، وبئر ذَرْوان، وبئر عُرْوة بن الزبير. ويذكر البتانونى فى رحلته بئر الأعواف، وبئر أنس بن مالك، وبئر القويم، وبئر العباسية، وبئر صفيّة، وبئر البويرة، وبئر فاطمة . ولعل من هذه الأسماء التى ذكرها البتانونى ما يتّفق فى مدلوله مع أسماء الآبار التى وقفت عندها، وإنما اختلفت التسمية باختلاف العصور .

وكانت المدينة تُسْقَى من هذه العيون إلى أن جرت فيها العين الزرقاء بأمر معاوية ابن أبى سفيان فى مستهلّ النصف الثانى من القرن الأوّل للهجرة . فى ذلك الوقت أمر معاوية عامله على المدينة مروان بن الحكم فأجرى هذه العين التى سمّيت الزرقاء لأنّ مروان كان أزرق العينين فيما يقول المؤرّخون . يقول الأستاذ عبد القُدُّوس الأنصارىّ فى كتابه آثار المدينة المنوّرة : "وأصل العين من بئر الأزرق فى بستان الجعفرية غربىّ مسجد قُبَاء . وقد أضيفت إليها آبار فى أوقات متفاوتة كبئر أريس

وبئر الرياض وبئر بويرة، كما أنها مُدّت بينابيع حُفرت فى جنو بى بئر الأزرق أيضا. وتسير من مصادرها المذكورة إلى بئر الشلالين فتفيض فيها ثم إلى بئر الغربال فبئر جديلة، وهنا تمدّها بئر السرارة وبئر القلعجية وبئر السيد عبد الرحيم السقاف، ومن هناك تأتى إلى المدينة ولها بها عدّة مناهل، وتخرج من المدينة إلى الشمال؛ وحذاء بستان داود باشا تتقطع ويسير فائضها مع المـاء الملح الآتى معها من بئر جديلة إلى البركة شمال الجُرف وهناك مغيضها ".

لم ينقص المـاء ولا نقص الغذاء المدينةَ فى أبهى عصورها وأكثرها سكانا. بل كان الأمر على الضدّ من ذلك؛ فكانت أيام الوفرة فى السكان أيام رخاء ونعيم. ولسنا فى حاجة إلى الإيغال فى التاريخ التماسا للدليـل على هذا وإن كان التاريخ خير دليل عليه. وحَسْبُنا ما يذكره أهل المدينة اليوم عن رخائها بين سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٤ حين سارت سكة الحجاز الحديدية. فهم يتحدّثون عن هـذه الأيام القريبة منا وملء قلوبهم الحسرة على ذهابها والرجاءُ الحـارّ فى عود مثلها لتعود لمدينـة الرسول بهجتها وللذين يجاورون الرسول ابتسامة الحياة.

وهم يتحدّثون كذلك عما كان لمصر فى عصور كثيرة من شرف المعـاونة لبلوغ مدينة الرسول غاية ما ترجو. فقـد كانت التكيّة المصرية بهـا مصدرًا من مصادر خيرها وتقدّمها. وهى تقوم اليوم بهذا الواجب كما تقوم تكيّة مكة بمثله. والمصريون القائمون بأمرها يشاركون أهل المدينـة فى رجائهم الحـارّ أن يعود إليها الرخاء وأن يعود اتصالها بالعالم.

وإنّا كرّة أخرى لنشاركهم جميعا فى هذا الرجاء. ولو أن العـالم الإسلامى كان مسموع الكلمة اليوم كما كان شأنه أيام معـاوية وفى العصور الإسـلامية الزاهرة الأولى، وكما كان شأنه أيام بنى عثمان حين كانت للسلمين عاصمة تتجه إليها أنظارهم، إذًا لمـَا أصاب مدينـة الرسول ما أصابها بعد أن تشتّت أهواء المسلمين وتفرقت كلمتهم بمـا أطمع فيهم الاستعمار إذ جعل قلوبهم شتَّى. أفيَجيب السميع العليم

رجاءنا ويعيد إلى مدينة الرسول مكانتها، أم أنه — جَلّت حكمته — يريد أن يُرِى المسلمين من آياته حتى يدركوا أنه لا تبديل لسنّته وأنه لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؟! .

إن لنا فى رحمة الله لأملًا أعظم الأمل . ومن رحمته أن يبعث المسلمين بعد طول رقدتهم إلى الحياة . لقد وعد رسوله ، ووعدُه الحقُّ، أنه سينصر دينه على الدين كله . والمسلمون يتوجّهون اليوم إلى ربهم من أقطار العالم جميعا تائبين منيبين يدعونه تضرُّعا أن يهديهم سبيل رضاه، وأن يُلهمهم الهدى، وأن يُفيض عليهم من فضله ، وأن يُسبغ على مدينة الرسول نعماءه، إنه سميع مجيب .

آثار المدينة

لما آختار رسولُ الله الرفيقَ الأعلى آختلف أصحابه أين يُدْفَنُ : قال جماعة من المهاجرين : يدفن فى مكة مسقط رأسه وبين أهله . وقال غيرهم : بل يدفن فى بيت المَقدِس حيث دُفن الأنبياء قبله . ثم رأوا أن يدفن بالمدينة التى آوته ونصرته والتى استظلّت قبل غيرها بلواء الإسلام . ترى لو رجح الرأى الأوّل ودفن بمكة إلى جوار البيت العتيق ، أو رجح الرأى الثانى ودفن ببيت المقدس ، أفكان النـاس يزورون المدينة اليوم ؟ وهل كان المسلمون يفكرون فى مدّ سكة حديدية تصل بين المدينة والشام ويكتتبون لها بمئات الألوف من الجنيهات وينشـئونها ، فإذا عطّلتها الحرب فى سنة ١٩١٤ عادوا إلى التفكير فى أمرها ؟ أم كانت المدينة تصير إلى ما صارت اليه الطائف وغير الطائف من مدائن بلاد العرب فلا يقيم بها إلا من تكفى مواردها لقوتهم ومُقامهم فى حدود قدرتهم البدوية على آستغلال هذه الموارد ، وقل أن يزورها أحد من غير أهلها ، وبذلك يبقى أهلها عربا خُلَّصا بدل أن يمتّوا بأصولهم إلى بلاد العالم الإسلامى المختلفة فى الهند والجاوة وفى مصر والشام وفى تركيا وأوربا وفى غير هذه من البلاد التى يقيم بها المسلمون شأن أهل المدينة اليوم ؟ .

لست فى حاجة إلى الإجابة عن هذا السؤال وليس يختلف فيه اثنان . على أن السؤال لذاته فرض جدلى . فدَفْنُ النبىّ بالمدينة كان أمرا مقدورا كما كانت هجرته اليها أمرا مقدورا . وأحدث الآراء فى العلم تُثبت هذا المقدور كما تثبته الآراء المقررة فى الدين . فما يحدث فى الكون أثر من سنّة الكون التى لا تبديل لها والتى تنتظم كل عوامل الحياة فيه . ولو أننا ذهبنا نتقصّى النتائج التى تترتب على هذا الفرض لطال بنا الجـدل . أفكانت الخلافة الإسلامية تقوم بالمدينة إذا دُفن النبىّ بمكة أم كانت العاصمة تنقل إلى أمّ القرى ؟ أفكان ما حدث من الفتح الإسـلامىّ يسير فى الاتجاه الذى سار فيه أم فى اتجاه غيره ؟ وإنمـا أردنا من هـذا السؤال فى أوّل حديثنا عن

آثار المدينة أن يذكر القارئ أن ما بهذه البقعة المباركة من الآثار يتصل كله بهجرة الرسول إليها ومقامه بها ودفنه فيها واتخاذ خلفائه الأولين إياها عاصمةً للإسلام كما اتخذها هو له منذ الهجرة مقرا .

والحق أن ما بالمدينة اليوم من آثار يتصل كله بالرسول ؛ فهو له ولأهله وأصحابه ، والقليل القليل منه لخصومه من اليهود الذين كانوا أولى ثروة وسلطان بالمدينة يوم هاجر إليها ثم لم يلبث أن أجلاهم عنها إلا من آمن به منهم واتّبعه . وأنت إذ تسير فى المدينة أو بظاهرها تشعر بأن الحياة الباقية فيها لهذه الآثار هى التى تقف نظرك وتسترعى انتباهك ويهتز لها قلبك ، وهى التى جذبتك إليها لتزورها ، وهى التى أمسكتك لتقيم حولها . أمّا حياة الحاضر بالمدينة فتتعلّق بآثارها وتكاد تكون حميلة عليها . من ثمّ كان تفكير الناس وحديثهم بالمدينة منصرفا إلى هذه الآثار الخالدة على الزمن لا يغيِّر منها تفاوت حظ المدينة بين الرخاء والشدّة والبؤس والنعمى .

أوَ تحسب أنّ لهذه الآثار شواهد عليها عُنِى الناس بإقامتها وأسبغوا عليها من صور الفنّ قوّة وفخامة تتفق مع ما تثيره فى النفس من ألوان الذكرى ؟! . لقد تحدّثت عن المسجد النبوى وعمارته وما أضيف من الزيادات إليه . والمسجد كل ما فى المدينة من أثر الفنّ فى العمارة والنقش ؛ فأمّا ما سواه من شواهد الآثار القديمة فلا يعدو أكثره هذا النمط للمساجد القائمة بمكة ، والتى لا تزيد على مربّع من الأرض تحيط به جدران غاية فى البساطة ، يعلوه من ناحية المحراب سقف ساذج يستند إلى عمد ليست دونه سذاجة فى بنائها . أمّا بعضها فخير من مساجد مكة بناء ؛ ولبعض هذه المساجد الحسنة البناء قباب ومآذن ، وفى بعضها تقام الصلاة أحياناً ، على حين تقام فى المسجد النبوى دائما ، لما أُثِر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه صلّى فى تلك المساجد . وبالمدينة كما بمكة آثار غير المساجد ؛ بها آبار وعيون ودور وأمكنة وجبال وأودية مأثورة . لكن هذه الآثار تختلف دلالتها جميعا عن دلائل

آثار مكة اختلافا ظاهرا . آثار مكة تتصل كلها بأيام الدعوة الأولى وما أصاب الرسول وأصحابه من الأذى والمساءة فى سبيلها . وليس يشذ عن ذلك من آثار مكة إلا ما اتصل بحياته صلى الله عليه وسلم فى المدينة، كمسجد الرضوان الذى أقيم ذكرى لعام الحُدَيْبِيَة حين ذهب المسلمون من المدينة إلى مكة حاجّين البيت معظّمين حرمته، ومسجد الراية الذى أُقيم حيث ركز الرسول رايته حين فتح مكة . فأمّا آثار المدينة فتكاد تتصل كلها بجهاد المسلمين فى سبيل الله . ولا غرابة فى ذلك والآثار إنما تصوّر الجلائل من أحداث العصر الذى وقعت فيه ، واتصالها بالعظيم الذى وجّه العالم فى ذلك العصر وجهته، ثم كان له بعد ذلك الأثر الباقى على الدهر . وقد كان محمد بمكة داعيا إلى الحق الذى بعثه الله به باذلًا حياته فى سبيل دعوته ، وكان بالمدينة مدافعا عن هذا الحق وحرية الدعوة إليه، مجاهدا فى سبيل انتشار هذه الدعوة ليظل الخافقين علمها .

ولست أجد فى العالم بلدًا يحوى من جلائل الآثار ما تحوى المدينة . فبيت المَقْدِس مثوى الأنبياء وبلد المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ومبكى اليهود ، وطيبة عاصمة مصر الفراعنة الأقدمين، والقاهرة عاصمة مصر الإسلامية، ورُومية التى شهدت قيام الأمبراطورية الرومانية العظيمة وسقوطها ، وباريس ولندن وسائر عواصم العالم تَقْصُر آثارها دون التعبير عما تعبّر عنه آثار المدينة من المعانى . هذا، على أن آثار المدينة لا شيء فيها من عظم العمارة إلا ما فى المسجد النبوى؛ أمّا سائرها فهو البساطة كل البساطة . ولست أدرى لعل أبسط الآثار عمارةً أعمقُها فى النفس أثرا . فجبل الزيتون وطريق الآلام فى بيت المَقْدِس يهزّان القلب بما يُحَدِّثان عنه من تاريخ المسيح أكثر مما تهزّه كنيسة المهد وكنيسة القيامة وما يحدِّث عنه هذان الأثران الفخمان فى العمارة من معجزات . والآثار القائمة فى المدينة والتى انمحى بعضها فما يكاد يبقى إلا اسمه ، تبعث أمام الذهن من صور الجهاد فى سبيل العقيدة والحق ما يهتز له وجود الإنسان كله إشفاقا تارةً وإعجاباً طورا ، وإيماناً بالله وثقة بنصره الحق فى كل حال .

من هذه الآثار طائفة تحيط بالمسجد النبوى لم تدخل فى عمارته حين زيادات عمر وعثمان والوليد والمهدى . وأكثر هذه الآثار كانت دورا لأصحاب النبى أو لجماعة من حكام المدينة تولَّوا أمورها فى عصر بنى أمية . وما بقى من هذه الآثار اليوم لا يشهد بما كانت عليه أيام أصحابها الذين تنسب إليهم ، بل أصابها من التحوّل على الزمن ما أصاب كل شىء فى المدينة؛ فبعضها اليوم أربطة محبوسة وقفًا على طوائف من الفقراء ، و بعضها أحيلت مدارس فى عصر ما ثم أصبحت مخازن أو ما إليها ، و بعضها تهدّم فما يجد الإنسان من أثره شيئا يقف عنده .

وأوّل ما يلفت الذهن من أسماء هذه الآثار دار أبى أيوب الأنصارى . لقد كانت منزلَ رسول الله أوّل ما بلغ المدينة فى أثر هجرته من مكة؛ على مقربة منها بركت ناقته إزاء مِرْبَد سهل وسُهيل ٱبنى عمرو حيث كان المسلمون يصلّون فى المسجد الذى أقامه ٱبن عفراء، وفيها نزل إذ كان صاحبها أبا أيوب أحد بنى النجّار من الخزرج ،وبنو النجار هم أخوال جدّه عبد المطلب . وقد أقام الرسول من هذه الدار بالسُّفْل ثم انتقل منه إلى العُلْو ، وظل بها زمنًا يتراوح بين سبعة أشهر وٱثنى عشر أوَى بعدها إلى مساكنه . فلا جَرَمَ وذلك تاريخها أن تكون أوّل ما يلفت الذهن من كل باحث فى آثار المدينة ومبلغ صلتها بالرسول الكريم .

وتقع دار أبى أيوب شرقىّ المسجد من ناحيته الجنوبية؛ فهى بذلك قبالة الحجرة النبوية لا يفصل بينهما إلا الطريق . وهى تلاصق دار جعفر الصادق الواقعة فى جنوبها ، ويفصل بينها و بين دار عثمان بن عفّان الواقعة فى شمالها زُقاق يعرف بزقاق الحبشة . ويقوم اليوم فى موضعها مسجد ذو قِبَاب ومحراب، وقد كتب على جداره الخارجى بحروف بارزة مذهبة : " هذا بيت أبى أيوب الأنصارى مَوْفد النبى عليه الصلاة والسلام — سنة ١٢٩١ " مما يدل على أنها بُنيت مسجدا فى هذا التاريخ . أما قبل ذلك فليس يعرف عنها إلا أن مدرسة أُقيمت فى موضعها سميت المدرسة الشِّهابيّة، نسبة الى بانيها الملك شهاب الدين غازى، وذلك بعد أن بقيت خربة زمنا طويلا .

أمّا تاريخها القـــديم فكل ما جاء عنه فى "الرّوض الأُنُف" للسُّهَيْلى أنها آلت بعد أبى أيوب الى مولاه أفلح، وهذا تركها حتى تخرّبت ثم باعها للمغيرة بن عبد الرحمن الذى قام بترميمها ثم تصـدّق بها على أهل بيت من فقراء المدينة أقاموا بها هم ومن بعدهم الى أن تهدّمت، ثم تركوها عرصةً ليس فيها أثر لبناء .

أين الشبه بين هذا المسجد القائم اليوم وتلك الدار التى أوى اليها رسول الله؟ لا شىء من الشبه البتة بينهما . ومع ذلك يثير هذا المكان فى النفس صورة ما حدث فى اليوم الأوّل لنزول الرســول دار أبى أيوب، وما حدث فى الأشهر التى عقبت ذلك اليوم . قف بنا أمام هذا المسجد الذى كان دارًا لأبى أيوب وانظر . لقـد كان ما حول هذه الدار خاليا من الجهات الأربع، وكان يجاورها الى الغرب مِرْبَد سهل وسهيل ٱبنى عمرو يجفف فيــه التمر، وليس به إلا قليل من النخيل والغَرْقَد وقبور جاهليّة تركد أثناءها مياه لا يُعْنَى أحد بتصريفها . وكان هذا المكان مقصودا من مسلمى المدينة الذين ٱتخذوه مصلًّى منذ جعل ٱبن عفراء فيه عريشا للصلاة . وكان هؤلاء المسلمون ما يزالون فى عدد قليل، لا يتجاوزون بضع المئات عدًّا، وهم على ذلك موضع إجلال أهل المدينة وٱحترامهم، إلا من أقفل التعصّب قلبه من اليهود أو من المشركين . وها نحن أولاء اليوم يوم الجمعـة الذى أقبل الرسول فيـه من قُبَاء ومعــه أبو بكر وحولهما جماعة من مسلمى المدينة رجالًا وفرسانا فى جُنوبهم السيوف . وهاهم أولاء أهل المدينــة جميعا قد خَفُّوا الى طرقاتها يريدون أن يروا هذا الرجل الذى يتحدّث أهلهم المسلمون عنه فى إكبار وإعظام ليس مثلهما إكبار ولا إعظام . أُنظر الى هذه اليهودية الواقفة هناك على ربوة بين صاحبات لها تسأل : «أىُّ الرجلين محمد؟» وٱسمع الى جارتها الخزرجيّة تجيبها : «كيف لا تحزرينه! أوَ تحسبينه هذا الأبيض النحيف الخفيف العارضين الناتئ الجبهة؟ كلا! فهـذا أبو بكر» . وتُردف اليهودية فى إعجاب : «هو الآخر إذًا؟ ما أبهى طلعتَه وما أعظم وقاره! . إن له لعينين نافذتى النظرة من حدقهما الأسود اللامع بين أهدابهما السود الطوال» . ورجال المدينة وفتيانها يسيرون حول النبى فى مظاهرة ٱبتهاج كلها الجلال؛ وهى

لا تخلو مع ذلك من حوارٍ أيهم يكون له شرف ضيافته . وكلما مر بقوم من أنصاره استوقفوا ناقته وعرضوا عليه أن ينزل عندهم فى العدد والعُدَّة والمَنَعة، فيقول لهم : " دعوها بارك الله فيكم إنها مأمورة " .

لقد أدركوا الجمعة إذ هو ببطن وادى رَانُونَاء من أودية المدينة، فنزل فصلّاها بالناس بعد أن خطبهم قائلا : " أيها الناس، أفشُوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام " . وها هى ذى ناقته تنطلق كرّة أخرى فيندفع أتباعه حوله، وأهل المدينة أشدّ لأمره عجبا، وبه إعجابا؛ وأصحابه الأنصار ما يزالون يتحاورون أيهم يكون منزله منزلا لرسول الله . والآن بركت الناقة عند مربد سهل وسهيل، واجتمع نجار الأنصار حول الرسول يحتكمون اليه أيهم ينزل عليه . قال رسول الله حسماً لنزاعهم : " إنى أنزل على أخوال عبد المُطَّلب أُكرمهم بذلك فأىّ بيوتهم أقرب؟ ". هذا أبو أيوب يُقبل فرحا مستبشرا يقول وهو يشير الى داره : " أنا يا رسول الله، هذه دارى وهذا بابى ! " ويأخذ رحل النبىّ الى داره وينطلق به ليهيىء للضيف الكريم مَقيلا .

ما لهؤلاء المتظاهرين لا ينصرفون ! إن عيونهم لا تدع النبىّ لحظة، كأنما يزداد شوقهم اليه وشغفهم به . والآن هاهم أولاء يتطلّعون الى ناحية الدور المجاورة. لقد طرق سمعهم صوت لفت نظرهم ؛ ذلك صوت فتيات من ربّات الخدور صعدن على الشُّرُفات يتغنّين :

طلع البَدْرُ علينا * من ثَنِيّات الوَدَاع
وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا * جئتَ بالأمر المطاع

ترى من ذا صاغ لهنّ هذا القول الحلو ولحّن لهنّ هذا النشيد العذب؟ لعله فتى من شعراء المدينة، أُولع بالنبىّ حبّا من قبل أن يراه ؛ ولعله أحد هؤلاء الفتيان المتظاهرين يتدافعون بالمناكب حوله وهم يتنادون نشوة وفرحا : " جاء رسول الله

صلى الله عليه وسلم"، والحبشة يلعبون أثناء ذلك بحرابهم فرحاً بقدومه ، فيطلق اسم الحبشة لذلك على الزُّقاق المجاور لدار أبى أيوب .

وأولئك جوارٍ من بنى النجّار يُقبلن يضربن بالدفوف ويقلن :

نحن جَوارٍ من بنى النَّجّارِ * يا حبذا محمدٌ من جارِ

ويبتسم لهنّ محمد ويقول : " أتحبِبْنَنى ؟ " فيجبن : نعم يا رسول الله . فيرُدُّ : " يعلم الله أنى أحبكنّ ! " .

أية غبطة هـذه الغبطة ! وأىّ فيض من السرور أضاء المدينة فى هـذا اليوم الخالد فى صحف التاريخ ! لقد نسى الناس طعامهم فما يريدون الانصراف اليـه . وهم لم ينصرفوا حتى قام النبىّ إلى بيت أبى أيوب يقيل فيـه من حرّ ذلك اليوم القائظ من الصيف . هنالك بدءوا ينصرفون ولا حديث لهم إلا مَقْدَم رسول الله وما آختار الله للمدينة من فضل بمهاجرته إليها .

لم يكن هذا اليوم على جلاله هو الذى خلّد لدار أبى أيوب كل مالها من جلال الذكرى ؛ إنمـا خلّد لها ذلك مُقام النبىّ بها شهوره الأولى بالمدينة ، وما أتم أثناء هذه الشهور من عمل كان له فى الإسـلام وسياسته الأثر الباقى على التاريخ . أثناء مُقامه بهـذه الدار آخى محمد بين المسلمين مهاجريهم والأنصار ، ووضع سياسة المعاهدة بينه وبين اليهود ، وأقام فى المدينة بذلك نظاماً لم يكن مألوفا من قبـل . ولم يَدُرْ بخَلَد أحدٍ يوم وُضع أنه يصوّر سياسة بعيدة المدى تنتهى بالمدينة الى وحدةٍ أساسُها الإخاء والتضامن ، وتنتهى باليهود إلى الجلاء عنها ، ثم تنتهى بالإسلام الى الانتشار فى بلاد العرب كلها لينتشر منها بعد ذلك فى أنحاء العالم وربوعه جميعا .

وهـذا نوع من التفكير السياسىّ كان جديدا يومئذ فى حياة محمد . فهو لم يرم حين مُقامه بمكة إلى تنظيم سياسىّ ، أو أن يجعـل من التنظيم السياسى وسـيلة إلى الدعوة للدّين الذى ألقى عليـه الله تبليغه للنـاس . لكنه ما لبث حين أقام بدار أبى أيوب واتصل بالمسلمين من أهـل المدينة أن قدّر ما بين العقيدة ونظام الحياة

من صلة ، وأن العبادات التى تدعو العقيدة اليها تتصل بنظام الحياة ويتصل بها هذا النظام أوثق اتصال . فالعقيدة أمرٌ فردىّ من حيث اتصالها بالرأى وتكييفه. فاذا انتقل الأمر إلى مظهرها العام و إلى العبادات المتصلة بها و إلى الفضائل التى يتحلّى بها صاحبها، أصبحت مسألة اجتماعية لا مفرّ من أن يتناولها التنظيم . وليس يقف تنظيمها عند فرائض العبادة من وضوء وصلاة وصوم و زكاة وحج، بل يتعدّى الأمر هذه الفرائض إلى صِلَاتِ الناس بعضهم ببعض . والأمر فى تفاصيل هذه الصِّلات أمر دنيا ، والناس فى كل عصر أعلم بحاجاتهم فيها . لكن المبادئ العامة التى يجب أن يقوم التنظيم عليها، كالمبادئ العامة التى تقوم عليها صِلات المسلمين بغيرهم من الناس ، يجب أن تتسق مع تنظيم هذه الفروض التعبُّدية ، ويجب أن تظل أبدًا على هـذا الاتساق وإن اختلف تصويرها واختلفت تفاصيلها باختلاف الزمان والمكان . هـذا ما اتجه اليه تفكير الرسول أثناء مُقامه بدار أبى أيّوب، وكان من أثره هذه المؤاخاة بين المسلمين وهذه الموادعة مع اليهود .

تقع دار عثمان بن عفّان إلى الشمال من دار أبى أيّوب لا يفصل بينهما إلا زُقاق الحبشة . والمعروف أن عثمان كان له فى هذا المكان داران متصلتان بناهما فى عهد الرسول عليـه السلام، دار صغرى ودار كبرى . أمّا الدار الصغرى فيقوم موضعَها اليوم رباط للمغاربة يدعى رباط سيِّدنا عثمان . وبهذا الرباط اليوم مكتبة تحوى كتب الفقه المـالكى وغيره موضوعة فى خِزَانات تدل نقوشها على أنها من مصنوعات الدولة العباسيّة . ويقال إن هـذه الخزانات كانت بالحرم وكانت مهداة الى الحجرة النبوية ثم أخرجت منه و وضعت فى هـذا الرباط . أمّا الدار الكبرى فموضعها اليوم رباط العجم، وهى مخصصة لشيخ الحرم النبوىّ؛ و بها قبر أَسَد الدين شِيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبىّ وقبر والد صلاح الدين الذى دُفن مع أخيه .

وقد روى ابن جُبَيْر فى رحلته أن عثمان استُشهد فى هذه الدار الكبرى . وذكر السمهودىّ : أن قَتَلة عثمان تسوّروا عليـه من الدار الصغرى الى الدار الكبرى

التى كان يقطنها يومئذ . ومن العسير أن يحقّق اليوم المكان الذى تسوّروا منـه أو الطريق الذى سلكوه فى آنتقالهم بين الدارين بعـد أن استحالت هـذه الدور غير صورتها الأولى، وبعد أن أصبح تعيين الموضع الذى قُتل عثمان فيه تعيينا دقيقا غير ميسور .

لشـدّ ما تختلف الذكريات التى تبعثها هـذه الدار إلى الذهن عما تبعثه دار أبى أيوب . كانت دار عثمان من أفخم دور المدينة فى ذلك العصر، على حين لم تكن دار أبى أيوب تختلف عن دور أوساط النـاس من الخزرج . مع ذلك تُوحى هـذه الدار الى النفس ما رأيت من ذكريات . فأمّا ما بقى من ذكر لدار عثمان فقتلُه بها وآختلافُ المسلمين بعده ثم آنقسامهم وآتخاذُ دمه ذريعة لهذا الآنقسام . ومع ما رأت دار عثمان فى عهد خلافتــه من فتح المسلمين بلاد الروم والفرس ومن آمتداد ملكهم إلى تونس وإلى قلب إيران ومن آستيلائهم على جزر البحر الأبيض المتوسّط لقد غشّى على ذلك كله ما حدث فى آخر هذا العهد حين آتخذ عثمان مروان ابن الحكم كاتب سرّه وحين آثر بنى أُميــة على قريش وعلى الأنصار وعلى سائر المسلمين ممـا أدى إلى الفتنة وآنتهى إلى قتـله . غشّى ذلك على هذا الفتح الذى آنفسحت به رُقعة المملكة الإسلامية، وبقيت صحف التاريخ تقلّب مقتل عثمان أمام الذهن فى صورة تثير النفس وتلذع بالألم كل مسلم لِمَـا ترتّب على هذا الحادث من آثار ما زال خَلَفُ المسلمين يتناقلونها عن سلفهم . وحقٌّ ما قيل : "إنمـا الأعمال بخواتيمها" . ولو أن أجل عثمان حُمّ قبـل أن تثور الفتنة لإيثاره بنى أميــة فمات ولم يقتل، لتغيّر وجه التاريخ أغلبَ الأمر، ولمَـا نجمت فى المسلمين هذه الشِّيَع التى أنشأها قتله والخلاف على دمه، وما أثاره هذا الخلاف من حفائظ قديمة بين بنى هاشم وبنى أميّة .

ألا إن فى هاتين الدارين المتجاورتين — دار أبى أيوب ودار عثمان — لعبرة أبلغ العبرة : عبرة الأخوّة بين المسلمين وما فى الأخوّة من قوّة يضاعفها الإيمان الصادق،

والخلافِ بينهم وقيامِ الحكم فيهم على التنازع والغلب يناجز به بعضهم بعضا . ولقد كان هذا التنازع فى صدر الاسلام وحين كانت أسوة الرسول حاضرة فى الأذهان. أفكُتِب على المسلمين أن يظل الانقسام دَيْدَنَهم، وألّا يذكروا مؤاخاة النبيّ بين المؤمنين أوّل ما جاء المدينة وقبل أن ينتقل من دار أبى أيوب الى منازله، وأن ينسوا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾؟ أم آن لدورة الزمن أن تدور وأن تُصبح للأمم الاسلامية عصبة تدعو الى الإسلام والسلام متآخية إخاء المسلمين فى الصدر الأوّل، يوم خرجوا من شبه الجزيرة فأضاءوا العالم بنور التوحيد ونشروا فيه أسمى المبادئ؟ .

تقع دار عثمان الى جوار المسجد من جهة الجنوب الشرقىّ، وتقع دار مروان ابن الحكم مقابلها من الجهة الجنوبية الغربية فى جوار باب السلام . ولقد ولى مروان بن الحكم إمارة المدينة فى عهد معاوية بن أبى سفيان بعد أن كان كاتبَ السرّ لعثمان بن عفّان، فأتم من أعمال الإصلاح فيها ما جعل أهلها يلهجون بحمده والثناء عليه وينسبون باب السلام اليه فيسمونه باب مروان ويظلون على ذلك الى عهد العباسيين . أجرى مروان العين الزرقاء، ورصف أطراف المسجد النبوىّ بالحجارة، وجعل للمدينة من أموال الفتح الأموىّ ما لعله أنساها مقتل علىّ بن أبى طالب بالكوفة لولا مقتلُ الحسين ابنه بعد ذلك بكربلاء . وسخاء مروان هو الذى جعل المدينة أقل مقاومة من مكة فى عهد معاوية وأول أيام يزيد . ومن يومئذ بدأ أهل المدينة من الأوس والخزرج يغادرون مدينتهم الى بلاد المملكة الإسلامية الفسيحة الأطراف ويُقيمون بها ليحل المسلمون من بلاد هذه المملكة محلهم فيها . ولم تنقض إلا أجيالٌ حتى لم يبق فيها إلّا الأقلون من أبنائها الأوّلين .

دار أبى أيوب هى التى نزل رسول الله بها أوّل مُهَاجَرِه الى المدينة . ويقابلها داخل المسجد موضع حجرات أزواج النبىّ التى ضُمّت اليه فى عهد الوليد بن عبد الملك، ويفصل زُقاق الحبشة بين دار أبى أيوب ودار عثمان، وتقع دار مروان

ابن الحكم فى جوار باب السلام . أليس لأبى بكر ولعمر وعلىّ آثار باقية اليوم حول المسجد تكمل بها سلسلة التاريخ فى هذه الفترة : فترة نصف القرن الأول من الهجرة؟ .
أمّا أبو بكر فله بجوار المسجد الغربىّ الخوخة التى أوردتُ عند الحديث عن المسجد بعضَ خبرها ؛ وله ، فيما تذهب اليـه الرواية ، دار تجـاور دار عثمان بن عفّان من الشمال ، ولا يفصــل بينهما إلا طريق البقيع ، وهــذه الدار هى التى مات بها .
وليس حول المسجد مكان ثابت النسب الى عمر بن الخطاب باعتباره موضع داره ، وإن حاول بعضهم أن ينسب اليــه دارًا فى شمال المسجد . لكنما تقع فى جنوب المسجد دار تُطِلّ على الحجرة النبويّة تعرف بدار آل عمر ، ويقول السمهودى : إنها دار عبد الله بن عمر بن الخطاب ، آلت إليه عن أخته حفصة أمّ المؤمنين . وكان لهذه الدار نَفَقٌ يصلها بالمسجد حتى سنة ٨٨٨ من الهجرة إذ سُدّ هذا النفق ورُدم بالـــتراب .

ولا تعرف بآسم علىّ بن أبى طالب دار ولا موضــع لدار فيما حول المســجد ، وإنما يعرف بآسم زوجه فاطمة آبنة رسول الله مكان من الحجرة النبوية يزعم بعضهم أنها مدفونة فيه ، والرواية الراجحة أنه موضع دارها التى كانت تقيم بها والتى أقام بها أبناء ابنيها الحسن والحسين من بعدهما حتى ضمها الوليد بن عبد الملك الى المسجد . أمّا قبرها فبالبقيع .

أمّا دار نائب الحرم اليوم ، وهى التى تلاصــق دار أبى أيوب من الجنوب ، فتنسب الى جعفر الصادق الحسينىّ . والمقيم اليوم بهــذه الدار بعد إلغــاء وظيفة «نائب الحرم» هو القائم بإدارة أوقاف الحرم النبوىّ .

ألَا ما أكثر ما تثير ذكريات هذه الدور من أثر فى النفس ! إنها تثير عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين كله . ويقع على مقربة منهـا أثرٌ يثير فى النفس من ذكريات البطولة والإقدام ويرسم أمام الذهن صورة من الفتح الإسلامى تهزّ القلب إعجابا وإكبارا . فقُبالة باب النساء من أبواب المسجد ، والى جانب الأثر البـاقى

من دار أبى بكر، قبة صغيرة مبنية باللبن والطين واقعة بمقدم رباط يدعونه رباط خالد بن الوليد . هذه القبة تقوم فى الموضع الذى كانت تقوم فيه دار بطل الإسلام خالد، وبعيد صغرها الى الذاكرة ضيق هذه الدار ضيقاً شكا خالد منه الى النبى؛ فقال له : "ارفع البناء فى السماء، وسل الله السعة" .

أو يظن أحد أن تكون هذه البقعة الضيقة دار خالد بن الوليد ، بطل قريش وفارسها المُعْلَم وصاحب لوائها قبل أن يُسلم ، وبطل الإسلام وسيف الله المسلول بعد إسلامه! خالد الذى ضاقت الأرض بفتوحه شرقاً وغرباً، فى فارس وفى بلاد الروم، والذى كان فى عهد الرسول بطل مُؤتة وقائدها بعد موت أصحابه، تكون داره بهذا الضيق! يا للنزاهة ويا للإباء ! حقّ أن هذا العرض من متاع الدنيا لا وزن ولا قيمة له ، ولا يساوى عند الله جناح بعوضة . كم من ملوك فى زماننا هذا وفيما سبقه من القرون يودّون لو حفظ التاريخ لهم قطرة من بحر مما حفظ لخالد من ذكرى فلا يُغنى عنهم مالهم من ذلك شيئا ولا يجدون اليه الوسيلة . ألا إنها عظمة النفس هى الباقية، وسلطان النفس على الحياة هو الخالد فى صحف الحياة .

تقع دار خالد الى جانب زاوية السمّان التى كانت دار رَيطة بنة أبى العبّاس السفّاح . وزاوية السمان واسعة فخمة، وكانت دار ريطة واسعة فخمة كذلك؛ فليست دار خالد شيئا بالقياس اليها . وإذ كانت دار ريطة تقع قُبالة باب النساء، وكان لريطة ما يجب لابنة أبى العباس السفّاح من مكانة ، فقد أطلق اسمها على هذا الباب من أبواب المسجد النبوى، فسمّى بابَ ريطة زمنًا غير قليل . فلمّا ماتت ريطة وتوالت القرون رُدّ الى باب النساء اسمه، وبنى "يازكوج" أحد أمراء الشام دارها من جديد وجعلها مدرسة للحنفيّة وجعل فيها قبره .

الى جوار المسجد مواضع يقال إن دور عمرو بن العاص وسُكَينة بنت الحسين كانت بها . وموضع دار سُكَينة ينسب الى تميم الدارى الصحابى المعروف . كذلك يروى أن الدار التى كان يُجْرِى عمر بن الخطاب فيها قضاءه كانت فى الموضع الذى

تقوم به المحمودية الآن . وهذه مجموعة من الدور كانت قائمة فى عهد النبي ؐ وفى العصر الذى تلاه تفاخر بها المدينــة كل مدينة سواها . ولعل أهلها إذ يذكرون من الدور ما كان بعد عهد النبي ؐ إنما يذكرون بها أيام كانت مدينتهم عاصمة عزيزة الجانب، تمثل القوة الإنسانية ذات الأثر الخالد فى العالم . فالمدائن كالأشخاص تتغنى بأيام مجدها وعزّها، وإن بُعد فى التاريخ عهد هــذا المجد، وإن أصبح هــذا العزّ الذى تربع الأجداد على عرشه أقصوصة يتحلّب لها ريق من فاته العزّ بعد أن طال التماسه إياه فى غير جدوى .

تقع هذه الدور كلها حول المسجد النبوى ؐ كما رأيت؛ وقلّما يحدثك أحد عن دورٍ أثريّة غيرها بالمدينة؛ إنما يحدّثونك عن أمكنة تاريخية وعن مساجد وحصون وآبار . ويقع بعض هــذه بالمدينة وبعضها بظاهرها، وإن تعــذّر عليك أن ترسم خطا واضحا يفصل بينهما . ويرجع تعذُّر ذلك الى أن المدينة انبسطت وانقبضت على التاريخ مما اقتضى أن يبنى لها سوران، أحدهما باق الى اليوم ولم يبق من الآخر إلا آثار تراها هاهنا وهناك . ولقد تخطّت المدينة السورين فى بعض العصور الزاهرة من أيام رخائها . ومن هذه الأيام ما قبل الحرب الكبرى (١٩٠٧م — ١٩١٤م)، حين سُيّرت السكة الحديدية الحجازية . من ثَمّ لا يقف أكثر المؤرّخين لآثارها عند تخطيط دقيق . ولم تُتِح لى الفرصة الضيِّقة التى قضيتها بها أن أرسم لآثارها حدودا دقيقة، وخاصةً أن ليست لها خريطة يمكن الاعتماد على دقتها .

ولقد فكرت أن أجعل الخندق الذى حفره المسلمون فى غزوة الأحزاب أيام النبي ؐ حدًّا يفصل ما بين المدينة وظاهرها . لكنى لم ألبث حين البحث أن رأيت تحديده الصحيح عسيرا . فقــد سألت الأستاذ عبد القُدُّوس الأنصارى ؐ يوما أن يرينى إياه، فلم يُخْفِ علىّ أنه يتوهمه ولا يعلمه علم اليقين . وله من العذر عن ذلك ما نقله فى كتابه (آثار المدينة المنوّرة) عن المطرى الذى أرّخها فى القرن الثامن الهجرى إذ قال : " وقد عفا أثر الخندق اليوم ولم يبق منــه شيء يعرف إلا ناصيته، لأن

الوادي وادى بُطْحان استولى على موضع الخنـدق وصار مسيله فى الخندق". على أنه حاول أن يقف بى عندما يعتقده أثره كما بيّنه على خريطة تقريبية ضمّنها كتابه . أما والتحديد الصحيح للخندق غير ميسور فلأجعل هذا التحديد التقريبي بديلاً منه للغرض الذى أتوخّاه، غرض الفصل ما بين المدينة وظاهرها .

والخنـدق كما صوّره الأستاذ عبد القُـدّوس يقع فى شمال المدينة بينها وبين أُحد ، وينحدر الى الشرق بينها وبين حَرّة واقم ، ويتصل من الجنوب بوادى بُطْحان ، ومن الغرب بحَرّة الوبرة . وفيما وراء الخندق من الشرق تقع منازل اليهود فى عهد الرسول : بنى قُرَيْظة وبنى النَّضير، وفيما وراءه من الغرب يقع وادى العقيق، وتقع قُبَاء فى جنوبه . وسنتناول ما هنالك فى هذه الجهات جميعا حين حديثنا عن ظاهر المدينة .

إخالنى غالياً حين أذكر ما ساورنى من أسف لإهمال أثرٍ كالخندق حفره المسلمون الأوّلون برأى سَلْمان الفارسىّ، ولم تكن الخنادق معروفة فى حربهم فكان له من الأثر أن حمى المسلمين وحمى الإسلام وكانا عرضةً لفتك المشركين بعد أن ألّبهم اليهود بإمرة حُيَيّ بن أخْطَب عليهم . وهل حافظ المسلمون على غير الخندق من الآثار فيلاموا على إهمالهم إياه! . واذا كانت غزوة حُنَيْن المجيـدة لا يُعْرَف موضعُها على وجه التحقيق فى جوار مكة ، فلا عجب أن يصيب الخندق ما أصابه . لقـد نزل فى حُنَيْن قرآن كما نزل فى الخندق قرآن . ففى غزوة الخندق وموقف الأحزاب من المسلمين فيها يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ . أَوَلم يكن حقًّا على المسلمين أن يقيموا لهذا الخندق أثرا باقيا يُذْكر به ! أوليس

حقًّا علينا اليوم أن نقوم بما لم يقوموا به ليكون لنا فى صبر المسلمين حين الخنـدق على البأساء وعلى مواجهة الموت عبرة! أم أنّا لا يعنينا من تاريخ السلف إلا بركته، وإن غابت عنا عبرته ! .

والآن، فماذا وراء الخندق فى داخل المدينة من آثار تذكر اليوم ؟ لا أحسب أثرًا لما بعد عهد النبيّ أبقى ذكرًا عنـد المسلمين من سقيفة بنى ساعدة . وهم لا يذكرونها لجلوس النبيّ فيها ما يذكرونها لوقوع بيعة أبى بكر بها، بعد ما وقع من خلاف بين الأنصار والمهاجرين أيّهم تكون له الإمارة . وقد ألِف الناس أن يذكروا تاريخ الخلاف بينهم أكثر مما يذكرون أسباب اتفاقهم وإخائهم . أترى مكان هذه السقيفة ثابتا مع ذلك لا يقع عليه خلاف ؟ . كلا ! فمن المؤرخين من يقول إنها داخل أسوار المدينة على مقربة من المسجد النبوىّ ، ومنهم من يقول إنها خارج الأسوار على مقربة من بئر بُضَاعة . وهذا الرأى الأخير رأى المطرىّ ، وقد انتهى السمهودىّ الى ترجيحه . وبذلك تكون السقيفة واقعـة عند البـاب الشامىّ من أبواب المدينة قبيل ملتقى الطريق الى الشام والطريق الى أُحُد .

ولا يزال أهل المدينة يحتفظون للسقيفة بأثر لم يُثِرْ عنايتى ؛ فهو فضلا عن عدم قِدَمه لا يصوِّر فى الذهن معنى من حياة الأنصار الأقدمين . وماقيمة الأثر أو النُّصُب اذا خلا من المعنى المقصود منه وفقد مزيّة القدم ! .

هذا ولقد كنت حريصا على الوقوف بالآثار التى تذكر عهد النبيّ بالمدينة أكثر من حرصى على سواها . وما تذكره سقيفة بنى ساعدة من ذلك قليل إذ كانت لا تذكره بأكثر من أن النبيّ جلس فيها . وما ذلك إلى جانبِ ما تذكره المُنَاخة الفسيحة التى ما تزال باقية فضاءً كما كانت فى العهد الأول، والتى تأوى قوافل الحجاج إليها إذ تتخذ منها مُناخةَ إبلها ومضارب خيامها، كما فعل العرب على عهد الرسول إذ جاءوا زرافاتٍ ووحدانا ملبّين الداعى لحِجّة الوَدَاع ! وليس يذكر الحجاج اليوم شيئا من حجة الوداع ومقْدَم المسلمين إلى المدينة لأداء فرضها مع رسول الله . هذا وحجة الوداع من أعلام

الإسلام التى لا تُنْسى إذ نزل فى أثرها قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ .

وكانت المناخة قبل حِجّة الوداع وأول ما جاء الرسول إلى المدينة سوقاً لبنى قَيْنُقاع من اليهود الذين ٱتخذوا منازلهم على مقربة منها ، وكانت سوقا للمدينة كلها حتى استحرّ الخلاف بين المسلمين واليهود ، فتحولت السوق عنها . وبنو قينقاع من اليهود هم أول من تحرّش بالمسلمين فى المدينة ، فنشبت العداوة والبغضاء بينهم وبين اليهود . فقد كان بنو النَّضِير وبنو قُرَيظة يُقيمون خارج المدينة فيما وراء موقع الخندق من قبل أن يحفر الخندق . أمّا بنو قينقاع فكانوا يُقيمون بين أهل المدينة ، وكان لهم فيها من سلطان المال ما لليهود حيث نزلوا من أقطار العالم . وكان أول ما بدأت الخصومة بين اليهود والمسلمين بعد ٱنتصار المسلمين فى غزوة بدر . أمّا قبل بدر فكان اليهود يدسّون بين المسلمين يحاولون الوقيعة بينهم لتبق لهم هم الكلمة العليا . فلما رأوا كلمة المسلمين تعلو ومكانتهم فى شبه الجزيرة تستقر وتُهاب خافوا المغبّة فأتمروا وجعلوا يُغْرون بمحمد وأصحابه ويرسلون الأشعار فى التحريض عليهم . ولم يطق المسلمون ذلك منهم ، فٱندفع شباب الأنصار فقتلوا أبا عَفَك وعَصْماء من المنافقين وكَعْب بن الأشرف من اليهود . عند ذلك اشتدّت مخاوف اليهود ولم يبق منهم من يأمن على نفسه . لكنهم شعب طويل الأناة كثير المكر ذو مِرّة فى العناد . أمّا وقد رأوا أن المسلمين لا ينجح معهم الدسّ والوقيعة فليرهبوهم بالسخر منهم لعلهم يرجعون . أرادوا ٱمرأة مسلمة جاءت سوقهم تُصلح حِلية لها عند صائغ منهم على كشف وجهها فأبت . وجاء يهودىّ من خلفها على غِرّة منها فأثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ؛ فصاحت . إذ ذاك وثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودىّ فقتله ، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه . وأراد رسول الله حسم الشر فطلب إلى اليهود أن يكفّوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة الذى عقده معهم أو ينزل بهم ما نزل بقريش . وكان جواب بنى قَيْنُقاع : "لا يغرنّك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم

فرصة . إنا والله لئن حار بناك لتعلمن أنا نحن الناس " . فلما سمع النبي ذلك منهم حاصرهم خمسة عشر يوما لم يخرج منهم أحد ولم يدخل عليهم بطعام أحد ، فلم يبق لهم إلا النزول على حكم محمد والتسليم بقضائه . وقام عبـد الله بن أبي ، وكان لليهود كما كان للمسلمين حليفـا ، فطلب إلى محمد أن يعفو عنهم وأن يُعفيهم من القتـل . وآنتهى الأمر بعـد خلاف أن غادروا المدينة إلى وادى القُرَى ثم إلى أذرعات على حدود الشام وعلى مقربة من أرض المَعَاد .

تذكِّرنا المُنَاخة بهذا الحادث فى حياة المدينة على عهد الرسول و بما ترتّب عليه من جلاء اليهود عن المدينة ، وما كان بعـد ذلك من جلاء اليهود عن بلاد العرب كلها . و يدعونا هـذا الحادث إلى التفكير : أيهما خير لحياة أمة من الأمم : أن تكون كلها على عقيدة واحدة ودين واحد، أم يترك فيها أمر العقيدة جانباً فلا بأس بأن تتعدّد فيها الأديان والمذاهب؟ والجواب أن الناس فى العصور كلها قد حرصوا على أن تكون الأمة رأياً واحدا فى دينها وعقيدتها كَفَالةً لأمنها وسـلامها . وحيثما تعدّدت الأديان وتشعّبت المذاهب كان ذلك مبعث الثورة والاضطراب . ولا يزال الناس من أهل عصرنا على هـذا الرأى ، وإن عبّروا عنه بما سمّوه حرية العقيدة . وهم إنمـا أرادوا بهذا التعبير أن يهوِّنوا من حِدّة التعصُّب وما كان يؤدى إليـه من سفك الدماء لاختلاف مذهبي قد يكون أهون أمراً من أن يختصم فيـه رجلان، بله أن تزهق بسببه أرواح وأن تضطرب له حياة الجماعة . والواقع أن تعدّد الأديان فى الأمة الواحدة قد كان أبدًا مثار منازعات دمويّة أو غير دموية لها فى حياة الأمم أسوأ الأثر . وليس ينسى أحد مذبحة "سان بارتلمى" فى فرنسـا ولا حروب البروتستنتية والكثلكة قبـلا . ولن ينسى أحد ما وقع فى عهـود كثيرة بين انجلترا واستكلندا بسبب الخلاف الديني . وعالمنا اليوم ومنذ عشرات من السنين يضطرب بنزعة العداوة لبنى إسرائيل مصوّرة فى صور عداوة الساميّة و يَصلَى من ذلك و يلات وأهوالا . ولقد عانت فرنسا من حادث "دريفُوس" وقضيته أشدّ العناء . وهذه ألمـانيا فى هـذا القرن المتمم للعشرين قد أجلت اليهود عنها وضربت بينهم و بينها

حجابا، وكانت فى شأنهم أشدّ تطرّفا مما كان محمد والمسلمون الأوّلون فى بلاد العرب. وما تحاوله انجلترا اليوم من إنشاء وطن قومىّ لليهود بفلسطين على كرهٍ من أهلها ليس إلا مقدّمة لإجلاء اليهود عن انجلترا، وهى مقدّمة يدركها تمام الإدراك مَنْ عرف السياسة الإنجليزية ومراميها البعيدة وأساليبها الخفية. وهذا كله ينهض دليلًا على أن العقيدة أساسًا للحياة الاجتماعية أكبرُ شأنا من الأساس الاقتصادى، وأن تفكيرنا الحاضر فى هذا الشأن لم يخالف تفكير من سبقنا، وأن ما نسميه حريّة العقيدة قد يصدُق بالنسبة للفرد فيما بينه وبين نفسه، لكنه لا يزيد فى أمر الجماعة على أنه ثوب رياء قد يوارى ما تحته وإن لم يخف الحقيقة التى لم تختلف على الأجيال.

والذين يُلبسون تفكيرهم ثوب الرياء يتّهمون غيرهم بالتعصّب، وهم علم الله أشدّ الناس تعصّبا لآرائهم وعقائدهم. وما نعيبهم بذلك وإنما نعيبهم بنفاقهم. ولو أنهم آثروا الصراحة وأنصفوا لقالوا الحق من أن وحدة العقيدة هى المظهر الأوّل للحياة الاجتماعية، وأن هذه الوحدة تكون أساسًا صالحا حقًّا ما قامت على إدراك وفهم، لا على تقليد جامد يمسك صاحبه فى ظُلَم الضلالة ويأبى أن يخرج به الى نور اليقين ليسلك سبله التى تؤدى إلى صراط الله المستقيم.

وإنما تقوم الحياة على هذا الأساس الصالح المتين يوم يسمو الإنسان فى صلته بالإنسان إلى التفاهم عن طريق المجادلة بالتى هى أحسن، والقصد إلى الحق بالدليل والحجة البالغة، مع الحرص على بلوغ هذا الحق والمصارحة بالاقتناع به متى حدث هذا الاقتناع. وماتزال الإنسانية، مع الشىء الكثير من الأسف، بعيدة عن أن تقيم صِلاتها على هذا الأساس، وهى ما تزال تلجأ إلى القوّة تعتبرها وسيلة مجادلة وسبيل إقناع. وما دام ذلك شأنها فلن يتهيأ لها من وحدة العقيدة بين أهل الأمة الواحدة ما يقيم علاقات الأفراد فيها على أساس من الإخاء الصحيح وحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه. وهذا ما فطن الإسلام له. ولهذا وضع القواعد لمعاملة أهل الذمة وأهل الكتاب وأجارهم وجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم فيما لا يتصل بالعقيدة

وما ترتبه على المؤمنين بها من جهاد فى سبيلها وما تنشئه لذلك من تكاليف وحقوق عامـــة .

تذكّرنا المناخة سياسةَ المسلمين واليهود بعضهم إزاء بعض، وتنشر المدينةُ القديمة أمامنا بمـا فيها من دُور ومساجد وآبار وأمكنة أثرية حياةَ المسلمين فى عهد النبيّ وخلفائه الراشـــدين وحياتهم أيام كان الإسلام يصوِّر للإنسانية حضارتها وينشرها فى الخافقين . وما تنشره من ذلك فى عهد النبيّ عظيم حقًّا، بالغ غاية الجلال . ولقد رأيتَ من حديث دورها حول المسجد ما قصصت عليك . وما تروى الكتب من مستفيض أنبـائه يزيد الصورة التى تنشرها المدنية أمام الذهن وضوحا ، ويزيدها لذلك جلالا ومهابة .

وأقرب هـــذه الآثار إلى المنـاخة مسجد الغَمَامة . فأنت ما تكاد تتخطى باب العَنْـبَرِيّة داخلا إلى المدينـــة حتى تراه أمامك؛ بل إنك لتراه وأنت ما تزال خارج المدينة . فهو اليوم مبنيّ بناء متقنا، وله قِباب ستّ تلفت النظر، ومئذنة قصـيرة يسترعى قصرها الأنتباه إذ يقرنها إلى مآذن المسجد النبوىّ السامقة فى السماء . ولهذا المسجد فضـــلا عن آسم الغمامة آسم المصلَّى . ذلك بأن رسول الله كان يصلِّى العيـــدين فى المكان الذى يقوم به وظل على ذلك إلى أن لاقى ربه . لكن هـــذا المكان لم يكن فى ذلك العهد مســـجدا ، بل كان فضاء من الأرض شأنه شأن سائر المناخة . ويذكر السمهودىّ رواية عن آبن شبّة عن أبى عثمان الكنانىّ أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس أن المصلَّى بُنِى مسجدًا فى القرن الثانى للهجرة .

وبداخل المدينة خلا مسجد المصلى : مسجد السُّقْيَا، ومسجد الفتح، ومسجد ذُبَاب ، ومسجد الإجابة ؛ هذا إلى مساجد أخرى ليس يذكرها أكثر المؤرخين . فأمّا المساجد القائمة بظاهر المدينة فستحدّث عنها من بعدُ .

ومسجد السُّـقْيَا أقرب المساجد التى ذكرنا إلى المناخة وإلى مسجد الغمامة . وهو لا يزيد اليوم عن قبة يسمّونها قبة الروس قائمة عند باب العنبرية فى جوار بئر

السقيا، وإنما يفصل بينهما طريق مكة . ويذكرون أن النبيّ صلّى بهذا المسجد ودعا فيه بالبركة لأهل المدينة وذكر أن بلدهم حرام كمكة . وهذا الذى يروونه من حرمة المدينة موضع جدل طويل أسهب السمهودىّ فى بيانه فى أول كتابه "وفاء الوفا" . والسمهودى هو الذى آكتشف هذا المسجد فى القرن التاسع وكان دارسا، ولما آكتشف أعيد بناؤه ثم تهدّم كرة أخرى وأقيمت قبة الروس موضعه .

أمّا مسجد الفتح فيقع شمال المدينة على قطعة من جبل سَلْع ؛ فهو بذلك أدنى إلى ظاهرها، وهو يقع حيث كان الخندق . وهو من المساجد التى بنيت فى عهد الرسول . ويروى أنه صلّى الله عليه وسلم دعا الله فيه ثلاث مرّات آستجاب له ربه فى الثالثة منها، فعُرِف البِشْر فى وجهه؛ وكان دعاؤه أن يصرف الله الأحزاب . فلمّا آستجاب الله له وصرف الأحزاب عاد النبىّ بالمسلمين إلى المدينة وكلهم حمد لله وثناء عليه . وقد جدّد الحسين بن أبى الهيجاء بناء هذا المسجد سنة ٥٧٥ للهجرة ثم جددته الدولة العثمانية بعد ذلك . ولقد كان فى عهد رسول الله مبنيا بالحجارة واللِّبن والجريد . أمّا اليوم فهو مبنىّ كله بالحجارة . وقاصده يرتق اليه على سفح سلع .

وعلى مقربة من مسجد الفتح يقع مسجد ذُبَاب على سفح جبل ذُبَاب فيما بين سلع وأُحد . وكل ما يؤثر عن هذا المسجد أن رسول الله صلّى فى موضعه وأنه ضرب قبّة له على جبل ذُبَاب فى غزوة الخندق .

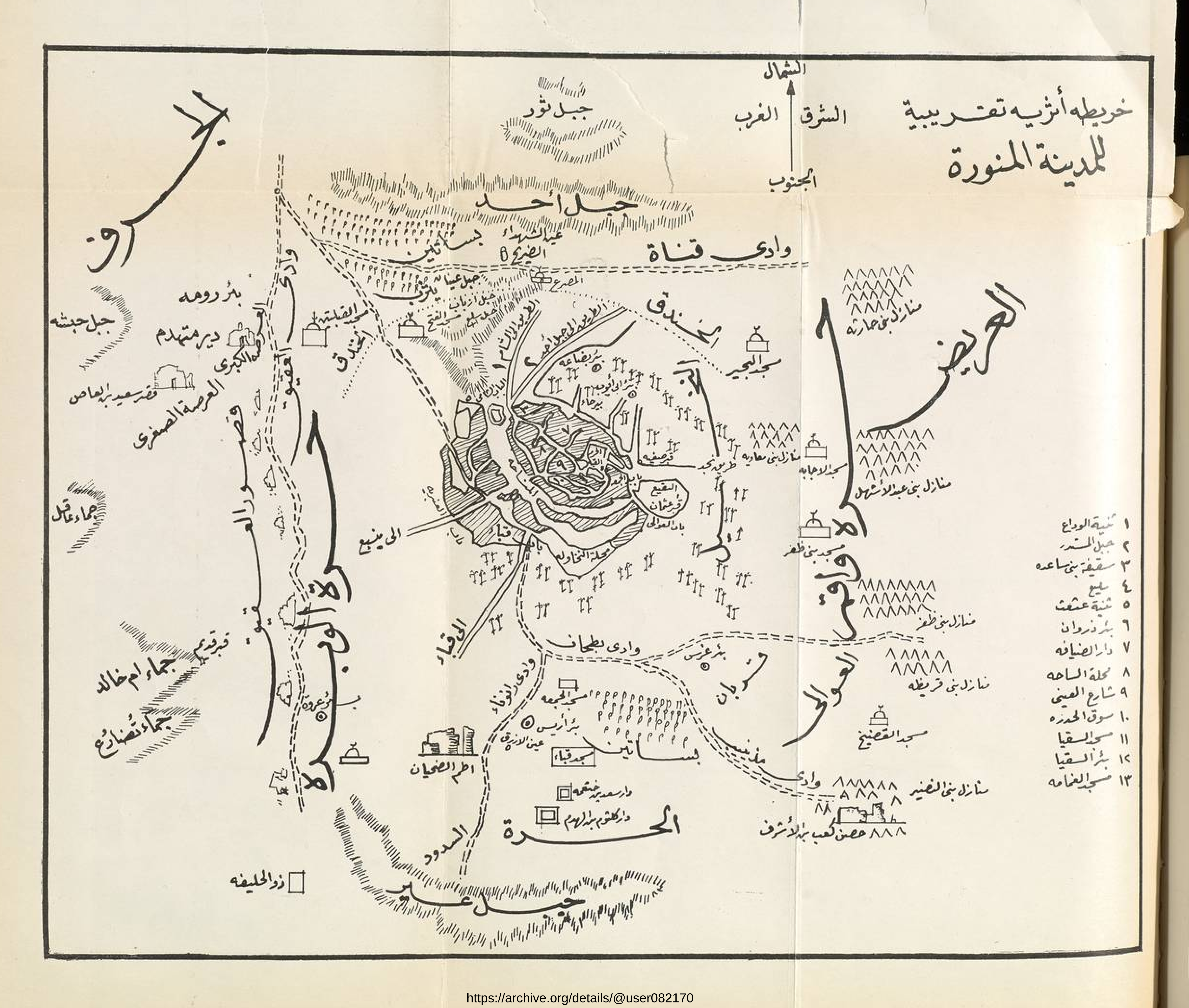
ويقع مسجد الإجابة شمال البقيع بضاحية المدينة الشرقيّة . وسمّى هذا المسجد مسجد الإجابة فيما يذكر السمهودىّ لأن رسول الله دعا ربه فيه وطلب إليه ألا يهلك أمته بالغرق، ولا بالجدب، وألا يجعل بأسهم بينهم، فأجاب الدعوتين الأولى والثانية ومنعه الثالثة .

هذه هى المساجد المأثورة بداخل المدينة . أوَيستطيع المؤرّخ أن يقطع بأنها تؤرّخ الحوادث التى أقيمت شاهدا عليها؟ لعله يستطيع ذلك فيما له آتصال بحوادث معينة كغزوة الخندق . وإنى لأوثر أن أرجئ الحديث فى هذا الأمر إلى أن أستكمل

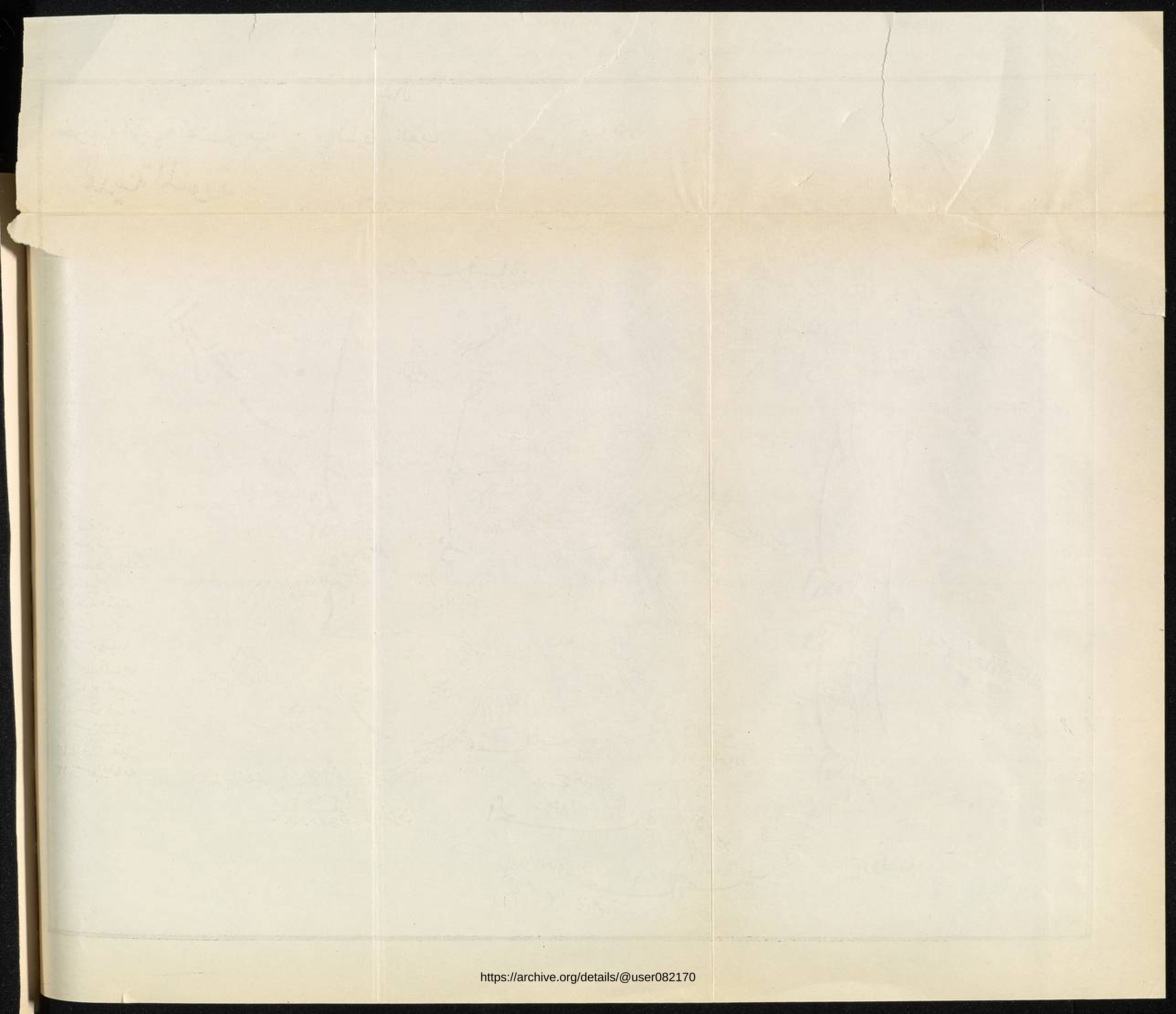
هذه الآثار حين الحديث عما يوجد منها بظاهر المدينة . فما بالمدينة وما بظاهرها يتصلان من حيث دلالتهما على حياة الرسول وأصحابه بالمدينة وما يرسمانه لهذه الحياة من صور .

تناولت من آثار المدينة دورها المحيطة بالمسجد النبوى ومساجدها التى تذكر حادثا بذاته ، وتناولت من الأمكنة سقيفة بنى ساعدة والمُنَاخة والخندق وسور المدينة . وثَمَّ من الأمكنة كذلك ثنيّة الوَدَاع التى دخل النبى منها المدينة . وهى ثنيّة فى الجبل كالثنية التى تقابل الشرائع فى طريق الذاهب من مكة إلى الطائف . والنَّقَا وحاجر كانا من متنزّهات المدينة فيما مضى ، وهما اليوم عامران بالدور الأنيقة . والمُنْحَنَى الذى يجرى اليوم طريقا أمام التكية المصرية وتقوم على جانبيه دور الحكومة .

ولست أستطيع أن أختم هذا الفصل دون الإشارة إلى أمر لعل له من الخطر عند علماء الحفريّات والتنقيب عن آثار المدينة أكثر مما يدور بخَلَد من لا عهد لهم بهذه الشؤون . ذلك أن المدينة الحاليّة تقوم فوق أطلال قديمة لمدينة سبقتها . صحيح أنه لم تجر حفريّات علمية لإثبات هذا الأمر ؛ لكن حفريّات قصد بها إلى تهيئة أسس المنازل أو الأنصاب شهدت به ودلّت عليه ، أو شهدت على الأقل بأن الشبهة عليه بالغة غاية القوّة . وقد روى الأستاذ عبد القدّوس الأنصارى فى كتابه " آثار المدينة المنوّرة " حوادث من ذلك جديرة بأن تسترعى نظر العلماء . فبينما كان العمّال يحفرون الأساس بالقسم الشمالى من مدرسة العلوم الشرعيّة الواقعة قرب باب النساء عثروا بمصباح زيت قديم على عمق أربعة أمتار من سطح الأرض ، كما عثروا ببركة صغيرة ومجارى مياه وقطع من فَخّار . وفى عام ١٣٣٥ كان العمّال يحفرون موضع الأساس لنصب تذكارى أمر حاكم المدينة التركى فخرى باشا بإقامته تذكارا لتولية الشريف على حيدر على إمارة مكة ، إذا هوّة انفتحت وكشفت عن بيوت سقفها تحت طبقة هذه الأرض . وقد نزل العمّال إليها ووجدوا بها ثيابا معلّقة على حبال محتفظة بهندامها . فلما مسّوها بعد دخول الهواء إليها



خريطه أثريه تقريبية
للمدينة المنورة
الشمال
الشرق
الغرب
الجنوب
جبل ثور
جبل أحد
وادى قناة
بساتين
الخندق
مسجد البحير
العريض
منازل بنى حارثه
منازل بنى معاويه
مسجد الاجابه
منازل بنى عبد الأشهل
مسجد بنى ظفر
منازل بنى ظفر
منازل بنى قريظه
العوالى
مسجد الفضيخ
منازل بنى النضير
حصن كعب بن الأشرف
البقيع
قبر عثمان
باب العوالى
محلة النخاوله
الى ينبع
الى قباء
وادى بطحان
بئر غرس
مسجد الجمعه
بئر أريس
عين الأزرق
مسجد قباء
أطم الضحيان
دار سعد بن خيثمه
دار كلثوم بن الهدم
الحرة
السدود
جبل عير
ذو الحليفه
بئر رومه
جبل جبشه
دير متهدم
قصر سعيد بن العاص
العرصة الكبرى
العرصة الصغرى
جماء عاقل
قبر قديم
جماء ام خالد
جماء تضارع
١ ثنية الوداع
٢ جبل المستدر
٣ سقيفة بنى ساعده
٤ سلع
٥ ثنية عثعث
٦ بئر ذروان
٧ دار الضيافه
٨ محلة الساحه
٩ شارع العينى
١٠ سوق الحذاء
١١ مسجد السقيا
١٢ بئر السقيا
١٣ مسجد الغمامه



تناثرت . وكان العمال يحفرون فى بستان لآل السيد محيي الدين بالطرناوية إذ انفتحت أمامهم هوّة واسعة عميقة متصلة بنفق واسع . وقد هبط إليه بعضهم وسار فيه ثم ارتدّ فزِعًا لظلمته . وعثروا فى هذا البستان كذلك بآثار لبناء قديم من الآجُرّ المربع الكبير . فإذا صحّ أن كانت لهذه الحفريات دلالة على أن المدينة قائمة فوق أطلال مدينة سبقتها كان ذلك جديرا بمباحث الأثريين والجيولوجيين لمعرفة التاريخ الذى ترجع إليه هذه الآثار والسبب الذى أدّى إلى طمرها .

وأكبر الظن عندى ، وإن لم أكن من رجال الآثار أو طبقات الأرض ، أنّ السبب فى ذلك يرجع إلى طبيعة هذه الأرض التى تقوم المدينة عليها . فكلّ ما حولها يشهد أنها طبيعة بركانية سكنت منذ أزمان بعيدة . وهذه الحِرار السوداء التى حولها إنما هى حُمَم اختلط بتراب الأرض ورمالها وارتفع إلى بعض الهضاب فيما يُخَيَّل لى . فإن يكن ذلك حقًّا ، والحكم به يحتاج إلى مباحث علمية دقيقة، فلا بد أن تكون البراكين قد ثارت بهذه البقعة فطمَرت الرمالُ والأتربة والحمم مساكنَها فى عصر سبَق ؛ وذلك عندى تفسير ما يقصُّه صاحب "آثار المدينة المنورة" من الأنباء .

ولكن متى حدث هذا؟ أحدث بعد عهد الرسول أم حدث قبله ؟ وهل كان وحده السبب فى أن طُمرت بالمدينة دور وآثار شتّى ؟ يتعذّر القولُ برأى حاسم فى هذا الأمر . فقد رأيت على مقربة من ذى الحُلَيْفة آثار مسجد ذكر لى الأستاذ عبد القدّوس أنه كان مطمورًا، وأنه كُشف عنه من عهد غير بعيد . أمّا والمساجد لم تُعرف إلّا بعد الإسلام فقد طُمِر هذا المسجد إذًا فى عصور متأخرة . لكن مؤرّخى المدينة لم يذكروا لنا شيئا عن البراكين والثورات البركانيّة، وإن ذكروا هذه الصاعقة التى أحرقت المسجد النبوى وامتدّ لهبها إلى بعض نواحى المدينة . فما اكتشف إذًا فيما حول المسجد وعلى مقربة منه لا بدّ أن يكون قد طُمِر قبل عهد الرسول . وهذا احتمال ليس بمستحيل حدوثه، وليس بمستحيل أن تكون الثورات البركانية سببه .

وقد يؤيد هـذا القول بقاء الآبار المأثورة منـذ عهد الرسول كبئر السُّقيا وبئر بُضَاعَة اللتين أشرنا اليهما، وكبئر حاء وبئر أبي أيوب وبئر ذَرْوَان وغيرها من الابار التي سردتُ أسماءها في فصل المدينة الحديثة . لكن هذا التأييد لا يعدو أن يكون ظنياً أقرب الى الحَـدْس المنطق . فأمّا السبيل الى الإجابة عما سألنا عنه وإثباته العلمى فالحفريّات الأثريّة والجيولوجيّة دون سواها .

وأ كرّر أنني أرجئ الحديث فيما تدل عليه هذه الآثار من حياة المسلمين بالمدينة في عهد النبيّ الى فصل " ظاهر المدينة " . فظاهر المدينة قد كان ميدانا لنشاط الرسول وأصحابه كالمدينة سواء، ولا سبيل لذلك الى حديث مستقلّ عن حياتهم في ناحية دون الأخرى من هاتين الناحيتين المتّصلتين . ونحن إنما جعلنا الخندق فاصلا بينهما تيسيراً لتقسيم البحث ولنيسّر للقارئ تكوين صورة من المدينـة أبعد ما تكون عن الاختلاط والاضطراب . أمّا الواقع من الأمر اليوم، كالواقع من الأمر في أعقاب الهجرة والى وفاة الرسول، فالمدينة وظاهرها كُلٌّ متصلٌ ليس من الميسور تجزئته .

جَنّــة البَقِيــع

إن تَعْجَبْ فقـد عجبتُ قبلك من عنوان هذا الفصـل . عجبت حين قرأتُ الكلمتين اللتين تؤلّفانه على صورة شمسيّة لِلقباب التى كانت قائمة بالبقيع ثم هدمها الوهابيّون . و إنمـا هوّن من عجبي أن الذى أطلق على المكان جنّة البقيع و وضعه على الصورة رجل من الأتراك فى عهـد بنى عثمان . فلمـا آنقضى العجب وعدت أتدبّر الكلمتين رأيتهما تعـبّران عن معنى دقيق ، فآخترتهما عنوانا لهذا الفصل من الكتاب .

فالبقيع ، أو بقيع الغَرْقَد كما تسمّيه كتب السيرة ، هو مقبرة المدينة . كان مقبرتها فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وما يزال مقبرتها الى اليوم . ولم يَعْنِ التركىّ صاحبُ الصورة الشمسيّة هذا البقيعَ كلّه فى جاهليّته و إسلامه ، وإنما عَنَى جزءا منه هو الذى بقى موضـع عناية الناس به و زيارتهم إياه ، وهو موضع حديثى الآن . ففى هـذا الجزء من البقيع مقابر أزواج النبىّ وقبر ابنه إبراهيم وقبور بناته ، وقبر عثمان بن عفّان ، وقبر جعفر الصّادق ، وقبر مالك بن أنس ، وقبور شهداء واقعة الحـرّة التى هاجمت فيها جيوشُ يزيد بن معاوية المدينةَ سنة ثلاث وستين من الهجرة . هـذا الى كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ذكرتِ المؤلّفات القديمة عددًا كبيرا من أسمائهم ، وأغفلت مع ذلك أسماء أكثرهم .

والمسلمون جميعا على آتفاق أنّ أصحاب هـذه الأسماء التى أسلفناها من أهـل الجنّة ، وأن كثيرين غيرهم ، لم أذكر أسماءهم ، من أهـل الجنة كذلك ؛ فمنهم جماعة من أهـل بَدْرٍ الذين قال فيهم رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "لعلّ الله قد آطّلع الى أهـل بدر يوم بدر فقال آصنعوا ما شئتم فإنى قد غفرتُ لكم" . ومنهم جماعة وهبوا حياتهم لله ولإخوانهم المسلمين فآستُشهدوا فى سبيل الحقّ وشهد النـاس لهم فى حياتهم بالتّقوى ، فلهم عند ربّهم مغفرة وأجر كريم . ومن بينهم جماعة من العلماء

الذين توفروا حياتهم على العلم مخلصين له وجوههم لا يبغون به غيرَ الحق مَرْضاةً لله. من هؤلاء مالك بن أنس صاحب المذهب المـالكى وعالم المدينـة العظيم . والعلماء ورثة الأنبياء ما أرادوا بعلمهم الحقّ وهـداية الناس له . أمّا وذلك شأن الثاوين فى هذا المكان فلم يَغْلُ من سمّاه جنّة البقيع ، ولم يَغْلُ من رفع القبابَ على قبور أصحابه لو أنه قصد منها الى الإشادة بذكرهم لتكون للناس على كرّ العصور مُذَّكَّراً وعبرة .

يقول "برخارت" فى كتابه وصفًا لهذا المكان[1] : "فى اليوم الذى يلى أداء الحاجّ واجباته للمسجد والحجرة تجرى العادة بذهابه الى مقبرة المدينة تكريما لذكرى القِدّيسين الكثيرين المدفونين بها . وهى تجاور أسوار البلد على مقربة من باب الجمعة وتسمّى البقيع . صورتها مربّع مكوّن من بضع مئات من الأذرع يحيط به جدار يتّصل من الجنوب بضاحية المدينة وتحيط به من سائر نواحيه مزارع النخيل . وهذا المكان حقير جدًّا بالنظر الى قداسـة الأشخاص الذين يحتوى رُفاتَهم . ولعـله أشدّ المقابر قذارةً وحقارة بالقياس الى مثله فى أيّة مدينة شرقية فى حجم المدينـة . فليس به قبر واحد حسن البناء ، كلا ! بل ليست به أحجار كبيرة عليهـا كتابة اتُّخذت غطاء للقبور ، إنمـا هى أكوام من تراب أُحيطت بأحجار غير ثابتة . وقد اتّهم الوهابيّون بأنهم الذين دمّروا القبور ، واتُّخذ الدليـل على ذلك من بقايا قباب ومبـان كانت على قـبر عثمان والعباس وفاطمة وعمّات محمد قيـل إن هؤلاء المتعصّبين دمّروها . لكنهم من غير شك ما كانوا ليزيلوا أى قبر بسيط مبنىّ من الحجر هاهنا وهم لم يصنعوا من ذلك شيئا بمكة ولا بغيرها من الأماكن . فمـا عليه هذه المقبرة من سوء الحال لا بدّ أن قد سبق عهد الغزوة الوهابيّة ، ويرجع سببه الى ضيق التفكير الذى جعل أهل المدينـة يَضَنّون بأى نوع من البـذل إكراما لرُفات العظماء من بنى موطنهم . فالمكان كله مُضْطَرب يجمع أكوام التراب الى جانب الحفر الواسعة والحثالة من غير أن يكون به حجـر قبرىّ واحد . ويُطَاف بالحاجّ لزيارة عدد من القبور ولتـلاوة

---

(١) واجع الأصل الانجليزى لجولاته فى بلاد العرب جزء ٢ صفحة ٢٢٢ وما بعدها .

الأدعية المألوفة حين وقوفه بكلّ قبر منها . و إن كثيرين ليقصرون أنفسهم على حرفة هى الوقوف طيلة النهار على مقربة من أحد القبور الهامّة وفى يدهم منديل منشور فى آنتظار الحجّاج الذين يجيئون للزيارة . وهذه الحرفة آمتياز خاصّ ببعض الفرّاشين من خدّام المسجد وأُسَرهم ، إذ قسموا المقابر فيما بينهم ليقف الواحد منهم عند أحدها أو يبعث خادمه بديلا منه" .

هذا ما يصف به الحاج عبد الله برخارت جنّة البقيع . ولقد زرتُها بعد خمس وعشرين ومائة سنة من زيارته إياها فلم أجد بها بقيّة لبناء أو قبّة على الأجداث ، مما حمل التركىّ على أن يسمى هذا المكان جنّة البقيع ؛ ولم أجد بها أكواماً من التراب ولا حُفَراً ولا حُثَالة ؛ إنما وجدت قبوراً مُسوّاة بالأرض يحيط بكل قبر منها أحجار صغيرة تُعْلِمه . فقد أزيل فى هذا العهد الحاضر كلّ ما بقى من أثر لقُبّة أو بناء وسُوِّيت القبور بالأرض . فلولا أنك تعرف أن هذا المكان هو البقيع وأن به رُفَاتاً خلّف أصحابُها على التاريخ أعظم الذكر ، ولولا هذه الأحجار المحيطة بكلّ قبر ، لخلتها فضاء مسوّراً لا شىء البتة فيه . لكن ما تعلمه عن الثّاوين بها يجعلك تقول مع برخارت " لقد بلغت المدينة من الغنى برُفات القدّيسين العظماء حتى لقد كاد كلٌّ من هؤلاء يفقد جلال العناية بذاته ، على حين تكفى بقيّة من رُفاتِ أىٍّ من المدفونين بالبقيع لتجعل لأيّة مدينة إسلاميّة أعظم الشهرة" .

زرت البقيع وتخطّيت أثناء القبور و وقفت على كلّ قبر وصلّيت على صاحبه وآستغفرت الله له ، ثم وقفتُ متأملا أتدبّر ما أمامى وتناجينى نفسى : "أوَ يموت الذين يسبقوننا الى القبور حقّاً ! أم إنهم يُنقلون من عالمنا هذا الى العالم الآخر فتنحلّ أجسامهم الى عناصرها الأولى وتبقى أرواحهم بين يدى بارئها يحاسبها على ماقدّمت . وما قدّم الذين قبلنا لا يزول بزوالهم بل ينتقل إلينا و يُصبح ميراثنا عنهم ، نتأثر به حياتنا حتى لكأنهم بيننا . وحسبى أن أذكر ما فى نفسى أنا المصرىّ من ميراث هؤلاء المؤمنين المدفونين بهذا البقيع ليثبُت يقينى بآتصال الوحدة بيننا و بين الذين

ســبقونا . ليكن مذهبي الإسلامى شافعياً أو حنفيّا أو حنبليّا فأنا قــد تأثّرت وتأثّر أمثالى لا ريب بمذهب هــذا الفقيه العظيم مالك بن أنس الرّاقد فى هــذا البقيع . وليكن هواى السياسىّ فى الحياة الإسلاميّة عَلَوِيّا أو أُمويّا فأنا قد تأثرت بلا ريب بهذا الخليفة الكبير عثمان بن عفّان ، وبزوج هذه الراقدة هاهنا فاطمة ابنة النبىّ وبابنيها الحسن والحسين . وهذه الأسرة الكريمة أسرة رسول الله ، وهاهنا منها رُفات زوجاته وبناته وعمّاته ، قد تركتْ من الأثر فى حياتى أبلغَه وأعمقَه . تغيّر اتّجاه تفكيرى على السّــنين غير مرّة ولم يتغــير ما ترك هؤلاء جميعا فى النفس من أثر آيتُــه أنّى كنت وبقيت أحنى الرأس إكبارًا وإجلالًا لدى ذكرهم وحين الحديث عنهم .

كم مرّةً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذا المكان ؟ عشرات المرّات . فقد كان يجيء اليه كلما مات صاحبٌ من أصحابه يصلّى عليه ويقف حتى يوارى جثمانه التراب . وكان يجيء وحده أحيانا ومع أصحاب له أحيانًا أخرى لغير شيء إلّا للصلاة على من فى البقيع والاســتغفار لهم ومناجاتهم . فقــد كان يرى الحقّ من أن الموت انتقال من حياة الدّنيا الى حياة الآخرة ، وأن الذين ينتقلون من بيننا يبقى اتصالهم بنا حتى ليسمعوننا وإن كانوا لا يتحدّثون فلا يستطيعون أن يجيبونا ؛ لذا سمعه أصحابه جوفَ الليل بعد أن نصر الله المسلمين ببدر يناجى المشركين الذين قتلوا فى المعــركة ودُفنوا فى القَليب الذى حفره المسلمون لهم وهو يقول : « يٰأهل القليب ! يا عُتْبة ابن ربيعــة ، يا أميّة بن خَلَف ، يا أبا جهل بن هشام ، يا . . (واستمرّ يذكرهم بأسمائهم) ، يٰأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ! فإنى وجدت ما وعدنى ربّى حقّا " . قال المسلمون : " يا رسول الله أتُنادى قوما جَيَّفوا " . فكان جوابه : " ما أنتم بأسمع لمــا أقوله منهم ، لكنهم لا يستطيعون أن يُجيبونى " . وكثيرًا ما ناجى أهل البقيع من أنصاره الذين آستُشهدوا فى سبيل الله . وكان آخر ذلك حين مرض مرضــه الذى آختار الرفيق الأعلى على أثره . فقد أرِق ليلةً أوّل ما بدأ يشكو فخرج ومعه مولاه أبو مُوَيْهِبــة وذهب الى البقيع فوقف بين المقابر وقال يخاطب أهلهــا " السلام عليكم يٰأهل المقابر . ليهنِئ لكم ما أصبحتم فيه ممــا أصبح الناس فيــه .

أقبلت الفِتَنُ كقِطَع الليل المظلم يتبع آخرُها أوّلَها، الآخرة شرٌّ من الأولى ... " ثم استغفر الله لهم . وهذه آية من رسول الله فى السموّ بالتفكير على الزمان والمكان، وفى مقدرة مَنْ وهبه الله ما وهب رسوله أن يتصل بما يشاء الله أن يتصل به مما يحجب الزمان والمكان . ولقد يسّر لنا العلم أن نُدرك اليوم شيئا من هذا حين يسّر لنا أن نتّصل على المكان بمن شئنا عن طريق الأثير والإذاعة . وما يزال علماء يحاولون حلّ مشكلة الزمان بالاتصال بأرواح الذين سبقونا . ومَنْ يدْرى ! فلعل العلم يطوّع لنا أن نتصل بهم يوما فى يُسْر كما نتصل اليوم بمن فى أَقْصى الأرض، وأن نراهم طىّ القرون كما نرى عن طريق «التلفزيون» من تحجب البحار والجبال والقارّات بيننا و بينهم .

ومع تسوية قبور البقيع بالأرض اليوم وعدم إعلامها إلّا بهذه الأحجار الموضوعة حولها، لقد شعرت إذ وقفت أمام بعضها بهزّة نفسيّة كأنما بينى و بين ساكنيها أقربُ الأواصر، وكأنهم دُفنوا لأَمْسهم ولمّا تجِفّ العبرة عليهم . من هذه القبور قبر إبراهيم ابن الرسول عليه الصلاة والسلام . فلقد وقفتُ لديه وأطلتُ الوقوف وذكرتُ عنده هذه الفترةَ الوجيزةَ من حياة محمد مذ وُلد هذا الطفلُ الى أن مات ولمّا تَنتصف السنة الثانية من عمره . كان الله قد فتح أُمّ القرى مثابةً بيته العتيق على المسلمين، وقد أمنهم جانبَ الروم؛ وكان النبىّ قد جاوز الستين بعد أن آطمأن الى نصر الله إياه، تفِد عليه القبائل من أنحاء الجزيرة كلّها تعلن اليه إسلامَها وتستظلّ بلوائه الروحى وبأُخوّة المؤمنين . وكان الى ذلك قد فقد أبناءه وبناته فلم يبق له منهم إلا فاطمة ، وقد أقام عشر سنوات بعد وفاة خديجة وبعد زواجه من عائشة وسائر أمهات المؤمنين لا يُعْقِبْ . فلمّا ولدت له مارية القبطيّة المصرية إبراهيم فاضت بالمسرّة نفسه ووجد فى هذا الطفل أُنْس قلبه وزينة حياته ؛ فجعل يمرّ كلّ يوم بدار أمّه يمتّع بابتسامة الطفل البريئة الطاهرة ويغذّى بضمّه الى صدره شعوره الإنسانىّ الذى بلغ من السموّ أن شمل الناس جميعا ، وهو يجد مع ذلك فى توفّره على هذا الطفل نعيماً وغبطة . وتأخذ الْغَيرةُ أمهات المؤمنين لهذا الحبّ

الذى رفع أمّ إبراهيم عن مقام السّرارى الى مقام الزّوجات، فيأتَمِرن بالنبىّ ويخرج بهنّ الغضب الى ما لم يعوِّدنه، فلا يصرفه ذلك عن الطفل، بل يزداد به تعلقا كلما آزداد نموًّا، وكلما رأى فى آبتسامته وفى ضحكته ما تَسْعَد به أبوّته وتستريح له نفسه من عملها العظيم المُضْنِى. ويترعرع الطّفـل وينمو ويزداد شبهه بمحمد وضـوحاً فيزداد محمد له حبّاً وبه تعلّقا ويرمقه من العطف بما لا عطف بعده. وإنّه لكذلك إذ مرِض الطفل وأسرع فيـه المرض، فذبلت نضارتُه وذهب لونه، ولم ينفعـه تمريض أُمّه، ولم يبعث عطف أبيـه الى جسمه النحيل الشفاء. ويشتدّ الألم بمحمد لِمـا يرى من حاله ويبلغ منه الألم أن يأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف يعتمد عليه فى مسيرته من المدينة الى النّخل بجوار العالية من ضواحى المدينـة حيث تقيم مارية تمِّرض آبنها، وتُعينها أختها سِيرِين فى تمريضه وتواسيها فى بأسائها. ويرى النبىّ الطفل فى حِجْر أمّه يجود بنفسه، فيملأ الألم قلبه وتَنْدَى بالدمع عينه، ويجلس الى جوار مارية الملهوفة وهو أشـدّ ما يكون وجلا وخوفا وجزعا، ويأخذ الطفلَ الى حجره وينظر اليه بعينين مُلِئتا ألمًـا ويقول: "إنا يا إبراهيم لا نُغْنِى عنك من الله شيئا"؛ فتصيح الأُمّ وتصيح أختها والطفل فى غيبوبة الموت لا يُوقظه صريخ أمّه ولا تنبهه الدّموع الحارّة المنهـلة من مآقى أبيه! . ويقبض هذا الروح البرىء وينطفئ بموته أَمَلٌ تفتّحت له نفس النبىّ زمناً، فتزداد عيناه تهتانا ويأخذ منه الحزن كلّ مأخذ، ويقول والجثّة الصغيرة الهامدة ما تزال فى حجره: "يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأوّلنـا، لَحَزِنّا عليك بأشدّ من هذا". ثم تخنقه العَبْرة فلا يستطيع أن يتابع القول فيعلوه الوجوم وقد آرتسم الحزن على قَسِمات محيّاه فى أبلغ صورة للّهفة اللاذعة العميقة. ويشعر بأنه مفارق هـذه الفلذة من كبده فيهز رأسـه ويقول: "تَدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الربّ، وإنّا يا إبراهيم عليك محزونون".

ويحسّ محمد مابه من جوى الحزن ومايلفحه من حُرْقته ويقدّر ما بمارية وأختها منه، فتأخذه الرأفة بهما فيكفكف من دمعه ويتوجّه اليهما يريد تعزيتهما فيذكر لهما

إن له لمرضعًا فى الجنّة . ويقوم ومعــه عمّه العباس وطائفة من المسلمين يشيّعون إبراهيم بعد ما غسّلوه وحملوه على سرير صغير . هاهم أولاء قد جاءوا به الى هنا ووقفوا به حيث أقف . ولعلّه صلّى الله عليه وسلم كان واقفًا مكانى حين صلّى عليه وحين سوّى على قبره بيده بعد دفنه وحين رشّ المـاء على القبر وأعلَم عليه بعلامة وقال : "إنها لا تضرّ ولا تنفع ، ولكنها تُقِرّ عين الحىّ . وإن العبد اذا عمل عملا أحبّ الله أن يُتْقِنه" .

وحدّثتنى نفسى وأنا بموقفى : كيف يبلغ الحزن من محمد هـذا المبلغ وقد حمل فى الحياة ما ينوء به من لم يؤته الله من فضله ما آتى نبيّه ورسوله ، وقد حمله قويًا صابرًا مستهينا بالأذى والألم والموت ! وذكرت إذ ذاك أنه صلّى الله عليه وسلم بشرٌ مثلنا ، وأنّ لنـا فيه الأسوة والمثل ، وأنّه فى حزنه على إبراهيم قد كان الأبوّة البرّة والعاطفة السامية التى ركّبها الله فى الناس إبقاءً على الحيـاة وصورة لوحدتها المتنقلة على الأجيال . وهـل فى الحياة كعاطفة الأبوّة البرّة نعمة وسعادة وزينة ! . وهذه العاطفة التى نسعد بها هى التى تبعث الى قلوبنا حبّ الغير وتخفّف من أثرتنا وتعلّمنا الإيثار وتدعونا اليــه ، وهى التى تدفعنا بذلك الى السعى فى الحياة ٱبتغاء الرزق لبنينا ومن يلوذ بنـا ، وٱبتغاء الخير بعد ذلك للناس جميعا . ولولا هذه العاطفة لقضت الأثَرة على الحياة ولأسرع الفساد الى الكون .

ويخرج الناس من البقيع بعــد موت إبراهيم فاذا الشمس تُكْسَف ، وإذا آية النهار تُمْحَى ، فيحسبون ذلك معجزة شارك الكونُ بها رسول الله فى حزنه . لكنّه صلى الله عليــه وسلم ما يلبث حين يسمعهم يتهامسون بذلك أن يقول لهم : "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحدٍ ولا لحيـاته . فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله بالصلاة" . ويهرع المسلمون الى المسجد يصلّون وقــد زادتهم كلمة رسول الله إيمانًا بأن الله جلّ شأنه لايغيّر سنّته ، وأن كل مايقع فى الحياة إنما هو من أمره .

وقفت على كل قبر بالبقيع وصلّيت على صاحبـه وآستغفرت الله له . وكذلك كان يفعل الذين رأيتهم يزورونه ساعة زيارتى إيّاه . على أنى عجبت لقوم رأيتهم يُطيلون الوقوف عند قبور أهل البيت ويبكون أحرّ البكاء، فإذا مرّوا بقبر عثمان بن عفان آستحثّوا الخُطا فلم يقفوا عنده . قال أصحابى حين سألتهم فى ذلك : أولئك جماعة الشّيعة، فهم ما يزالون يذكرون أن دم عثمان هو الذى أذكى الفتنة بين علىّ ومعاوية ، وبين بنى أُميـة وآل البيت، وأنه الذى أدّى إلى مقتل علىّ والحسين؛ وهم لذلك يمرون بهـذا القبر سِراعاً لا يصلّون على صاحبـه ولا يستغفرون الله له . وزاد فى عجبى أنّ أهل بيت النبىّ أنفسهم لم يبلغوا من الموجدة على عثمان بعد موته هـذا المبلغ . لقد رأيتَ كيف أراد الحسن بن زيد أن ينتقم من بنى أميّة لإدخالهم حُجرات أزواج النبىّ فى رُقعة المسجد، فكتب إلى المنصور أن يزيد فى رقعة المسجد وأن يجعـل الحجرة النبويّة فى وسطه لتـدخل دار عثمان فى رقعتـه ، وكيف أجابه المنصور: إنى قد عرفت الذى أردت فاكفُفْ عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفّان. ولم يخالف أحدٌ من العباسيين المنصور فى تفكيره هـذا على طول ملكهم . أفتبقى الموجدة فى نفوس الشّيعة أكثر مما بقيت فى نفوس بنى العباس وهم أقرب النـاس إلى علىّ وإلى الحسين نسـبا؛ أم أنها ليست المَوْجِدة ولكنّها العقيدة التى يتوارثها الآباء عن الأبنـاء من غير تفكير فى سببها ومنشئها ، والتى تنشأ أوّل أمرها متأثرة بأهواء شُعُوبية أو سياسيّة أغلب الأحيان ؟ .

ترى أفيبقى البقيع كما هو اليوم مسوّاة قبوره بالأرض لا يقوم على قبر منهـا قبّة ولا يقام للعظماء والصحابة المدفونين به أثر يذكرون به؟ لعـلك تحسب الأمر يبقى كذلك ما بقى الوهابيّون بالحجاز . وقد يكون فى التاريخ ما يرجّح ظنّك . فقـد غزا الوهابيّون الحجـاز فى أوائل القرن التاسـع عشر المسيحىّ فحطّموا قِبـاب البقيع كما حطّموا غيرها من القباب بمكة والمدينة وغيرها من بلاد الحجاز . فى هذا الوقت زار السويسرى "برخارت" الحجاز ووصف البقيع بمـا رأيت . فلما أُجْلَت جنود مصر الوهابيّين عن الحجـاز وعاد الأمر فيـه إلى بنى عثمان أعادوا بنـاء كثير من القباب

وشادوها على صورة من الفن تتفق مع ذوق العصر. ولقد ذكر صاحب مرآة الحرمين من هذه القباب ما لأهل بيت النبيّ، والقبة التى بناها السلطان محمود سنة ١٢٣٣ للهجرة على قبر عثمان ، ونشر صورها الشمسيّة . فلما عاد الوهابيّون إلى الحجاز بعد ذلك بأكثر من مائة سنة هدموا هذه القباب كرّة أخرى . أفيُعيد التاريخ نفسه ، فإذا جلا الوهابيّون من الحجاز ودخل فى حكم أهله أو فى حكم غيرهم ممن لا يرون بإقامة القباب فى الدّين بأسا أعادوا تشييدها ، وإذا عاد الوهابيون بعد ذلك إلى الحجاز هدموها ؛ أم يظل البقيع كما هو اليوم بَقِيَ الوهابيّون فى الحجاز أو جلَوْا عنه ؟ أم ترى يبلغ الأمر بين الوهابيّين وغيرهم من طوائف المسلمين إلى التفاهم على إقامة أثر يذكر به هؤلاء الأبطال الذين دُفِنوا بالبقيع ، على ألا يكون هذا الأثر موضع تبرُّك وألّا يتخذ إلى الله زُلْفَى ؟ .

لا أريد أن أجازف بحكم ؛ فأمر ذلك للمستقبل؛ والمستقبل غيب، والغيب لا يعلمه إلا الله . لكنى مع ذلك أرجو ألّا يظل هذا البقيع وليس به أثر يذكر به أصحابه، ويذكر به أعلام من دُفنوا طىَّ صفائحه . فلقد دفن به أكثر من عشرة آلاف من كرام الصحابة كان لهم فى الإسلام وتاريخه وتعاليمه أثر أىّ أثر . وإن قلت الإسلام وتاريخه وتعاليمه قلت الحضارة الإنسانية فى الشرق والغرب . ونحن لا نقيم الآثار لمن سبقونا متاعًا لهم بها ؛ فمتاعهم فى عالَمهم بما قدّموا من عمل صالح . وإنما نقيمها ذكرًا ومعتبرًا للأجيال فى تعاقبها حثًّا لأبنائها على أن يجدوا فى السابقين الأولين الأسوة والمثل . وإنّا إذ ندخل «البانتيون» فى باريس أو كنيسة «وستمنستر» فى لندن، أو أيًّا غير هذين من مدافن العظماء، لا تجول بخاطرنا عبادتهم، ولا يدور بخلَدنا تقديسهم؛ إنما يدفعنا ذكرهم الى الوقوف على أخبارهم وما خلّفوا من أثر جليل وعمل صالح . وفى هذا خير مشجّع على متابعة هذا العمل ؛ وهو خير مظهر للصلة بين الحاضر والماضى صلة لا قيام لأمة ولا قيام للإنسانية إلا بتوثّقها.

ومالنا نذكر باريس ولندن وبالمدينة من آثار الإسلام ما رأيت! . ما أعظم الأثر الذى تثيره دار أبى أيّوب الأنصارىّ فى النفس! وما أعظم الموعظة فى قبّة

خالد بن الوليـد وشهادتها على ضيق رقعة داره ! وما أشـد ما تهتز مشاعرنا حين نقف على قـبر حمزة عنـد سفح أُحد . دَعْ عنك موقفا كله الإجلال والعظـة أمام قبر الرسـول ومثوى صاحبيـه أبي بكر وعمر فى الحجرة النبويّة . أيّة نفس لا تحسّ فى هذه اللحظات الباقيـة الأثر على الحياة أصدقَ الرغبة فى السموّ الى غاية ما تؤهّلها ملكاتها أن تسمو اليه، تشبّها بهؤلاء الذين تركوا على الحيـاة أثرا أخلد الأثر وأبقاه! واذا صدقت الرغبة وآستقرّ العزم وآمتلأتْ به الإرادة لم يكن لقوّة أن تصدّنا عن بلوغ ما نبغى . فالإرادة الصـادقة أعظم قوّة فى الحيـاة . ومن عرَف كيف يريد قَدَر على بلوغ ما يريد .

وإنمـا قعد بالمسلمين عن إدراك هـذه المعانى ودعاهم أن يتّخذوا من القِباب مواضع للزُّلفى الى الله توسّلا اليه بأصحابها ما هوَوْا اليه من جهل حجَب عنهم جلالَ ما صنع الذين تخلّد القباب أو تخلّد الآثار ذكرهم . وماذا يذكر سوادُهم عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ! وماذا يذكر هذا السّواد عن خالد بن الوليد وأبى عُبيدة بن الجرّاح وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم من أبطال المسلمين ! ثم ماذا يذكر من عَمَلِ علمائهم وذوى الفضـل والكرامة منهم ! ليس يذكر من ذلك شيئا لأنه يجهل ذلك كلّه . وغاية ما يتصوّره أن هؤلاء رجال آصطفاهم الله بكرامته، أو نساء أكرمهن الله بمن أعقبن من ذرّية صالحة ، فهم بذلك أولياء الله ؛ ومن ثمّ يتّخذهم هذا السواد الى الله زُلْفَى ويَسْبِغ عليهم من صفات ما فوق الإنسانية ما يسوِّغ عنده هذه الزلفى .

فاذا أراد المسلمون ألّا يكون للقباب ولا لغـيرها ما يدعو الوهابيّين الى هـدمها وما يجعلهم يتّهمون غيرهم من المسلمين بعبادتها فليست الوسـيلة الى ذلك هدم هذه القِباب، وإنما الوسيلة اليه هدم ما فى النفوس من حجب الجهل وقبابه، وتفتيح مغالقها بإظهارها على ما صـنع السّلف وما خلّفوا من علم وفن وحضارة . فالعلم هو النور الكشّاف الذى يهتـك حجب الزمن ويُرينا ما خلّفه آباؤنا وأسلافنا للإنسانية من أسـباب المعرفة، وما تؤدّى اليه المعرفة من فضل وخير، وما تثير به

سبيل الإنسانيـة لمستقبلها على هدى المـاضى وما تمّ فيه . يومئذ لا يعبد الإنسانُ الإنسان ولا يتخـذه الى الله زُلْفَى ، وإنمـا يعبد الإنسانُ الله وحدَه لا شريك له ، ويتخذ من علمه ومن عمله ومن تقواه الزلفى الى الله .

فكرت فى هذا إذ عدتُ من البقيع مارًّا بدار عثمان ، فأويت الى غرفتى وجعلت أقلّب فى بعض كتب ألتمس فيهـا للبقيع وأهله ذكرا . ولم أجد من ذلك سوى أن الذين دفنـوا به يزيدون على عشرة آلاف من كبار الصّحابة ، لا تعرف قبوراً كثرهم وإنما يعرف من هذه القبور ما لإبراهيم ورقيّة وفاطمة أولاد النبى ، وفاطمة بنت أسد أمّ علىّ بن أبى طالب ، وعبـد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وسعد بن أبى وقّاص ، وأسـعد بن زُرارة ، وخُنَيْس بن حُذافة السَّهْمىّ ، والحسن بن علىّ ، وابن أخيه زين العابدين بن علىّ بن الحسين ، وأبى جعفر الباقر محمد بن زين العابدين ، وجعفر الصادق بن الباقر ، والعبّاس بن عبد المطلب ، وأخته صفيّة ، وابن أخيهما أبى سفيان بن الحـارث ، وعثمان بن عفّان ، وسـعد بن مُعاذ الأَشْهلىّ ، وأبى سعيد الخُـدْرىّ ، وزوجات رسول الله خلا خديجـة التى دفنت بمكة وميمونة التى دفنت بسَرِف . وهؤلاء جميعا وألوف الصحابة الذين دُفنوا معهم ، يثوون فى بقعة ضـيّقة من الأرض لا يزيد مسطحها على مائة وخمسين مترا فى الطول ، ومائة متر فى العرض ، ترتفع عما حولها ، ويحيط بها سور لا شىء من الجمال فى بنائه .

قلت فى نفسى : أوَلا يهـدى الله رجلا من المسلمين إلى كتابة تاريخ لهـذه البقعة والذين دفنوا بها ينشر فيه ما عمِلوا ويحلّله تحليلا علميًّا ويردّه الى أصوله ويبيّن ما كان له فى الوجود من أثر ! . إن فى قصص ما صنعوا وما كانوا عليه لأبلغ العبرة ؛ وهو بعدُ يكشف من تاريخ هذا العالَم عن شىء كثير ما أحوج العالم الى أن يقف عليه . فهؤلاء جميعا من أصحاب رسول الله ، وهم إذًا عرب من أبناء شبه الجزيرة ؛ فما اتّخذوه فى حياتهم من عمـل أدنى إلى تصوير الروح الحقّ لهـذا الدين الحنيف والى هداية الناس لهذا الروح . وما أشدَّ حاجة الناس الى هذه الهداية .

ألّا لو أنّ عمـلا ضخماً كهذا العمل أتمّه رجل أو رجال لأسـدَوْا الى الإسلام وإلى التاريخ وإلى الإنسانية خدمة جُلّى ، ولمهّدوا لأولى الفن أن يُقيموا فى هـذا المكان أثراً خالدا يصوّر هذا الروح روحَ الإقدام فى سبيل الحقّ والإرادة الصادقة فى سبيل الله .

ما أقصر سِنى الحياة ! . فلو أنّ لى من القدرة على القيام بشىء من هذا العمل الجليـل أمهّد به الطريق لإتمامه لأقدمتُ غير مبتغ إلّا رضا الله وحسنَ ثوابه . وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيرا .

ولكن ! مَنْ لى بأن أقوم أنا الضعيف العاجز فأجمع من شتيت الأسفار ما يؤرّخ البقيع ورجاله من أصحاب رسول الله ! . فلأَذَرْ هـذا الأمر يهيىء الله له من شاء من عباده . ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ .

على قبر حمزة

صَهْ ! فأنت هنا أمام عرينِ الأسد . وهذه الجبال والأودية مما حولك كلها مجاله . فيها كان يجول و يصول ، وأثناءها كان يصيح بفرائسه من شجعان قريش فإذا هى تنهد إلى الأرض رعبا وفزعا . هذا جبل أُحُد أمامك ، وهذا جبل سَلْع من خلفك ، وهذا وادى قَنَاة يجرى بينهما ، وهــذه البساتين تمتــدّ هاهنا وهناك عن يمين وعن شمال وراء هذا المَهْمَه الذى ظلّ خلاءً من هيبة صاحب العرين . مالى أراك الآن حاسر الرأس خاشعا ! وما يُبكيك ؟ ! أتُراك كأهل هذه المدينة لا يكون فقيدًا لهم إلا بكوا قبله حمزة أسَدَ الله وأسد رسوله ! أم تراك آذّكرت مصرعه على مقربة منك وهذا دمه الذكىّ تتراءى لعينيك فى كل قطرة منه معانى النّبل والكرامة والأستبسال والشجاعة ، فأنت تبكى لهذه الخصال غالَها وَحْشِىّ فى غير مصاولة أو مبارزة ! إِنْك ماطاب لك البكاء ، وآمتثل من صفات حمزة ومن شممه و إقدامه ومن إيمانه وسموّ نفسه ما شئت ، فما أنت ببالغ من بكائك ومن امتثالك إلا ما يزيدك شوقاً إلى هــذا القبر ، تعود إليه لتقف عنده فتبكى صاحبَه وتُمثّل فيه الأســد الذى صُرع فى غزوة أُحُد لا كما تُصرع الأبطال فى ميدان القتال ، بل كما يغتال الكرام فى حلك الظلام . وهل كان أحد من شجعان العرب جميعا يحسب نفسه كفؤًا لحمــزة ونزاله ! وهل كان يظن أحد أن يطالع الموت حمزة فى معركة على طول مامشى بين صفوف الموت مختالا ! ولكن ماعسى تُغنى الشجاعة والنّبل حين يختبئ الأغتيال فى حِندِس الليل فيورد صاحبهما حتفــه .

كان حمزة بن عبد المطلب عمُّ النبى وأخوه فى الرّضاع الاباءَ والشممَ ، وكان البطلَ المُعْلَم والمغوار الذى تهابه الشجعان منذ نشأته . لمّــا آفتدى عبد المطلب آبنه عبد الله من الآلهة بمائة من الإبل فكّر فى تزويجه . وكان عبد المطلب يومئذ فى السبعين من عمره ، فخرج بعبد الله حتى أتى به منازل بنى زُهْرة وخطب آمنة بنة وهب إلى أبيها

زوجًا لابنه، وخطب آبنة عمّها هالة زوجًا لنفسه . وولدت آمنة محمدا، وولدت هالة حمزة . والروايات تختلف أىّ الطفلين سبق صاحبه إلى الحياة و إن أرضعتهما جميعا ثُوَيْبة جارية أبى لهب . وشبّ محمد يهيئه الله لما أراد من رسالته ، وشبّ حمزة فتى أبيًا قويًا رضىّ الخلق وسيم الطّلعة مفتول العَضَل محبًا للقنص يخرج له فى الفلاة و يرميه بقوسه؛ فإذا عاد منه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، ثم لم يمرّ على ناد من قريش إلّا وقف وسلّم وتحدّث مع من فيه . وكانوا جميعًا يحبّونه ويَهابونه أن كان أعزّ قريش وأشدّها شكيمة .

ولمّا بعث الله آبن أخيه نبيًا و رسولا و بدأت قريش تناوئه وتؤذيه، لم يطب حمزة بما يصنعون نَفْسًا ؛ لكنّه ظلّ يكظِم غضبَه حتى لا يخرج على الجماعة فى عقيدتها . ولقد كان كلّما رأى من ذلك شيئا جعل يفكر فى أمر آبن أخيه ومايدعو إليه فيرى فيه الحقّ لا سبيل إلى إنكاره . لكنّ قومه من بنى هاشم لم يتابعوا محمدا، ولم يتابعه أخوه أبو طالب الذى كان من محمد فى مقام الأُبوّة ، والذى كان يحميه من قريش وأذاها . ولكن حمزة أخ لمحمد وليس عمًا له وكفى ؛ وهو بعدُ أصغر إخوته سنًا وأشدّهم بأسًا وأكثرهم لذلك صراحة ، وهو من ثمّ لا يُطيق أن يرى الحقّ فيما يقول محمد ولا يصارح الناسَ جميعا بتصديقه إيّاه و إيمانه به . و إنه يوما لفى قنصه غائب عن مكة إذ لقى أبو جهل محمدا جالسا عند الصَّفَا . وكان أبو جهل رجلا حديد الوجه واللّسان لا يفتأ ينكر على محمد دعوته و يتّهمه فيها . فلما لقيه فى مجلسه ذاك آذاه وشتَمه ونال منه بعضَ ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له . ولم يكلّمه محمد بل آنصرف عنه إلى بيته، وعمَد أبو جهل إلى جماعة من قريش عند الكعبة بجلس معهم . وكانت مولاة لعبد الله بن جُدْعان فى مسكن لها فوق الصَّفَا تسمع ما كان بين الرجلين ؛ فلم تلبث حين رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلًا من قنصه متوشّحا سيفه أن وجّهت إليه الحديثَ فسلّمت وقالت : يا أبا عمارة ! لو رأيت ما لقى آبن أخيك محمد آنفًا قبل أن تأتى من أبى الحكم ابن هشام ! وجده هاهنا جالسا فسبّه وآذاه و بلغ منه مايكره، ثم آنصرف عنه ولم يكلّمه

محمد . هنالك احتمل حمزةَ الغضبُ فخرج سريعًا لا يقف على أحد، كما كان يصنع، يريد الطواف بالكعبة ، مُعدّا لأبى جهل بن هشام إذا لقيه أن يقع به . فلما بلغ الكعبة نظر إليه جالسًا فى القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة فشجّه شجّة منكرة، وقال له : أتسبّه وأنا على دينه أقول ما يقول ! فرُدّ ذلك علىّ إن استطعت . وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل، فمنعهم حسمًا للشرّ ومخافة استفحاله بين عشيرته وقومه، واعترف أنه سبّ محمدا سبًّا قبيحا .

من يومئذ أصبح حمزة أسد الله وأسد رسوله، وحسبت قريش لمحمد وأصحابه حسابا لم يكن يدور لها بخلَدٍ من قبل .

لما اتخذ محمد دار الأرقم مجلسا له مع المسلمين وحمزة من بينهم ضرب الباب عليهم يوما رجل يبتغى الدخول . وقام أحد المسلمين ونظر من خلل الباب ثم عاد فزعًا يقول : هذا عمر بن الخطاب متوشّحا السيف . ولم يكن يودّ أن يأذن النبىّ له ؛ أمّا حمزة بن عبد المطلب فقال : بل ائذنْ له ! فإن كان جاء يريد خيرا بذلناه له، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه . وأذِن النبىّ لعمر فدخل وأسلم .

هذان حادثان يصفان لك حمزة بن عبد المطلب وخُلقه ، ويصوّران لك مبلغ جرأته وإقدامه واعتداده بنفسه .

ولمّا هاجر رسول الله إلى المدينة وآخى فيها بين المهاجرين والأنصار آخى بين حمزة وزيد بن حارثة مولى النبىّ . وكان لهذا الإخاء حكم إخاء النسب أوّل أمره. ومع ما حدث من عود الأمور إلى طبيعتها بعد أن استقرّ مقام المهاجرين بالمدينة لقد حفظ حمزة هذا العهد فأوصى إلى زيد يوم أُحُد . وفى هذا من الوفاء والكرم ما يصوّر لك ناحية أخرى من حياة حمزة .

ولقد كان حمزة أوّل من بعثه رسول الله على رأس أوّل سريّة قامت من المدينة لمناوأة قريش : بعث به فى ثلاثين راكبا من المهاجرين دون الأنصار، فلقىَ أبا جهل ابن هشام عند شاطئ البحر فى ثلثمائة راكب من أهل مكة . وكان حمزة على أهبة

مقاتلة قريش، على مابين الفريقين من تفاوت عظيم فى العدد، لولا أن حجز بينهم مَجْدِىّ بن عمرو الجُهَنِىّ وكان مُوادِعًا الفريقين جميعا . ولقد حدث ذلك على رأس ثمانية أشهر من هجرة النبىّ إلى المدينة . فلما كان شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة ووقعت غزوة بدر كان حمزة فارسَها المُعْلَمَ وبطلها المغوار، وكان مُعْلَماً يومئذ بريشة نعامة . ولقد كان المسلمون وكانت قريش تتردّدان أوّل المعركة فى خوض غمارها حتى وقف عامر بن الحضرمىّ يصيح : واعَمْرَاهْ ! يذكر قتل المسلمين أخاه عمرًا قبل ذلك بأسابيع فى سريّة عبد الله بن جحش ويطلب الثأر له . هنالك آندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومىّ من بين صفوف قريش الى صفوف المسلمين، فعاجله حمزة بضربة أطاحت بساقه فسقط الى الأرض تشخب رجله دما ؛ وأتبع حمزة الضربةَ بأخرى قضت عليه . بذلك بدأت المعركة . وأعجل الالتحامَ فيها أن خرج عُتْبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد وخرج إليهم من المسلمين حمزة وعلىّ بن أبى طالب وعُبَيْدة بن الحارث . ولم يُمْهِل حمزةُ شيبةَ ولا أمهل علىٌّ الوليد أن قتلاهما، ثم أعانا عُبَيدة وقد ثبت له عُتْبة . عند ذلك تزاحف الفريقان، لم يمنع المسلمين منه أنّ قريشا ثلاثة أمثالهم عددا وعدّة . وخاض حمزة الغمار يضرب بسيفه عن يمينه وشماله يقُطّ الرقاب ويُطيح برءوس الشجعان، ولا يجرؤ سيف أن يمتدّ ناحيته ولا يدٌ أن ترتفع اليه . ومتى آستطاع الفرسان أن يحدّقوا فى وجه هذا الأسد الكاسر، أسد الله ورسوله ! .

فلما أتم الله النصر للمسلمين ببدر وعادوا إلى المدينة فتحرّش بهم اليهود وأزمع محمد محاصرة بنى قَيْنُقاع، كان حمزة حاملَ لوائه . ولمّا آستدار العام وخرجت قريش تريد الثأر من بدر، كان حمزة الموتَ الذى تخشى، والنقمةَ التى تريد أن تتخلص منها . وكانت هند بنت عُتْبة أشد قريش كراهية له ورغبة فى موته . لقد قتل فى بدرٍ أباها وأخاها ونكّل بكثيرين من الأعزّة عليها . لكنها كانت تعلم أنّ قتله مواجهة ليس بالأمر الهين . ومَنْ ذا فى قريش بل فى بلاد العرب كلها يستطيع أن يواجهه! لذلك وعدت وحشيًّا الحبشىّ خيرا كثيرا إن هو آغتال حمزة. وكان وحشىٌّ مولى لجُبَيْر

ابن مُطْعِم . وكان حمزة قد قتل عم جُبَيْر ببدر . فلمّا عرف ما وعدت هند مولاه قال له : إن قتلت حمزة عمّ محمد فأنت عتيق . والتقى الجيشان بأُحُد فإذا حمزة يخوض الغمار كيوم بدر ، يَهُدّ كل من لقى بسيفه فتفيض من جسده روحه . قتل سِبَاع بن عبد العُزى الغُبْشانيّ ، وقتل أرطاة بن شُرَحْبيل ، وقتل كل قرشيّ لقيه . ولم يكفِه سيف بيمينه ، بل أمسك بيساره سيفا آخر وجعل يُقْبِل ويُدبر ويُصيب بسيفيه فى إقباله وإدباره . وإنه لكذلك وأبطال قريش يولّون منه فِرارا إذ عثر عثرة فوقع على ظهره فانكشفت درعه عن بطنه . وانتهز وحشيٌّ هذه الفرصة فهزّ حربته حتى رضى عنها ثم دفعها عليه فوقعت فى ثُنَّته وخرجت من بين رجليه ، وتركه وإياها حتى مات . روى وحشيّ قال : ثم أتيته فأخذتُ حربتى ورجعتُ بها إلى المعسكر وقعدت فيه ، ولم يكن لى بغيره حاجة ، إنما قتلته لأعتق . فلما قدمت مكة أعتقت .

وأقبلت هند بنت عُتْبة فى أعقاب المعركة ، فلما رأته مبقورا بطنه لم يكفِها أنه مات بل مثّلت به ما لم يمثّل بأحد فى غزاة : جدعت أنفه ، وقطعت أذنيه ، وشقّت بطنه وأخرجت كبده تمضغها وتلوكها تشفّيا وسخيمة . وبلغ من فظاعة ما صنعت أن خجِل أبو سفيان زوجها ورئيس قريش فقال : إنه كانت فى القوم مُثْلة ، وإن كانت على غير ملأ منى . ما أمرتُ ولا نهيت ، ولا رضِيت ولا كرِهت ، ولا ساءنى ولا سرّنى .

ولقد أحزن قتل حمزة النبيَّ وحزّ فى فؤاده . فقد عاد المسلمون إلى الميدان بعد المعركة وخرج محمد يلتمس عمه ، فلما رآه قد بُقِر بطنه ومثّل به غلبه الحزن وقال : "لن أصاب بمثلك أبداً ، وما وقفت موقفا قطُّ أغيظ إلىّ من هذا" . وأمسك هنيهة مُوجَع القلب ثم اردف : "يرحمك الله ياعم ! لقد كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات" . وغلبه الحزن فأمسك مرّة أخرى ، وهو أثناء ذلك ينظر لما أصاب حمزة من مُثْلة شنعاء . فلما سكن عنه الحزن قال وما زال مغضبا : "والله لئن أظفرنى الله بالقوم يوما من الدهر لأمثّلن بهم مُثْلةً لم يمثّلها أحد من العرب" وفى رواية : "لأمثّلن

https://archive.org/details/@user082170

بسبعين منهم". وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾. وفى حمزة وفى قتلى أُحُد نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾. فلما نزلت هذه الآيات قال رسول الله: "بل الصبر"، وكفّر عن يمينه.

ولم يكن المسلمون أقلّ جزعا لمقتل حمزة من رسول الله. أقبلت أخته صفيّة بنت عبد المطلب بعد الموقعة تطلبه لا تدرى ما صنع. ورآها علىّ والزُّبير مقبلة فخشيا لُقياها. قال علىّ للزبير: اذكر لأمك. وقال الزُّبير: بل اذكر أنت لعمّتك. ولما بلغتهما سألت: ما صنع حمزة؟ فأرياها أنهما لا يدريان، إشفاقا عليها وعلى نفسيهما من حزنها. ورآها النبىّ مقبلة عليه فقال: إنى أخاف على عقلها. ثم وضع يده على صدرها ودعا لها فاسترجعت وبكت وقد رأت المصاب فى صوته. فلما انصرفت قال: "لولا جزع النساء لتركته يحشر من حواصل الطير وبطون السباع".

ولما أراد المسلمون دفن القتلى وقف النبىّ على جثمان حمزة، وجعلوا يجيئون بالقتلى واحدا بعد الآخر فيضعونهم الى جانب حمزة فيصلى النبىّ عليهم؛ وكذلك صلى على حمزة سبعين مرة.

وبكت نساء المدينة القتلى، وسمع رسول الله نساء بنى عبد الأشهل يبكين قتلاهن، فقال متوجّعا: «لكن حمزة لا بواكى له»، فسمع ذلك معاذ بن عبد الأشهل فساقهن الى باب رسول الله فبكين على حمزة، فدعا لهنّ وردّهنّ. فلم تبك امرأة من الأنصار بعد ذلك الى اليوم على ميت إلا بدأت بالبكاء على حمزة ثم بكت ميتها.

هذا حمزة الذى نقف الآن على قبره تُجاه أُحُد، والذى يؤمّه كل من قصد المدينة للزيارة. وقبر حمزة ليس كغيره من القبور فى هذا العهد الوهابى. فهو ليس مسوًّى بالأرض، بل يقوم فوقه بناء أسطوانى من حجر ضارب الى السواد يرتفع

عن الأرض نحو الذراع . ولم أعجب إذ عرفت أن الحكومة الحاضرة أقامت هذا البناء بعد أن هدمت القبّة التى كانت قائمة على القبر . فهذه الصفات فى حمزة : صفات البطولة والإباء والاستشهاد فى سبيل الله، تثير فى كل نفس أسمى المعانى وتقفها أمام صاحب هذه الصفات موقف الإجلال والاكبار . ذلك ما يتفق فيه الناس جميعا، لا تفاوت بين البدوىّ الذى يقضى حياته مرتحلا فى البيداء، ومن بلغ من الحضارة والعلم وتهذيب النفس كل غاية . ولم يختلف اثنان على ما كان لحمزة من هذه الصفات، ولم يكن حمزة يوما موضعا لدعاية سياسية طمعًا فى حكم أو سلطان. لذلك كانت المعانى المتصلة بصفاته طاهرة مبرّأة من كل غاية، ولذلك أثارت الإعجاب من كل نفس والإكبار فى كل قلب، وكانت شفيعا لقبره حتى عند الوهابيين .

وذهبت أمتثل حمزة وهذه الصفات فيه وأنا واقف على القبر أَجيل بصرى فى الميدان الفسيح حولى . هذا رجل آتاه الله من فضله بسطة فى القوة ومهابة فى القلوب ونعيما بالحياة ومحبة من الناس ؛ وكان له أن يستمتع وهذه صفاته برفه العيش وطمأنينة البأس، وأن يستريح الى مكانته من قومه واحترامه فيهم . لكنه لم يطب نفسا بعبادة قومه الأصنام، ولم يُطق أن يسبّ أبو جهل الوثنىّ ابن أخيه الداعى إلى الله. فضرب أبا جهل فشجّه وأعلن على ملإ الناس إيمانه . ولا يقولن أحد إن النعرة العصبيّة والعزة العربية هى التى دفعته الى ما صنع . فلقد كان أعمام النبىّ جميعا عربًا لهم عزّة وفيهم نعرة ، وطالما آذت قريش ابن أخيهم فغضبوا ومنعوه ولم يؤمن مع ذلك منهم أحد . لكنه الإيمان الذى امتثلته نفس حمزة هو الذى دفعه الى ما صنع . وهل مثلُ حمزة فى بسالته واستهانته بالموت من يقول لأبى جهل وهو مَنْ هو مكانةً فى قومه بعد أن شجه لسبّه محمدا : أتسبّه وأنا على دينه أقول ما يقول، إلا أن يكون صادق الإيمان، بلغ من امتثال قلبه رسالة الله إلى نبيه ألّا يطيق تعريض أحد به ! ومن يومئذ وهب حمزة حياته لله وللدفاع عن دينه ؛ لأنه أيقن أن هذا الدين هو المثل الأعلى الذى توهب الحياة فى سبيله .

وكل يفتدى بحياته مثله الأعلى فى الحياة . فالبخيل الذى يعبد المال يضحّى

بحياته دفاعا عن ماله . والمدلَّه بالعشق يضحِّى بحياته دفاعا عن محبوبته . والفلاح أو الصانع يضحى بحياته دفاعا عن رزقه . والأب البار يضحى بحياته لأبنائه ، والحيوان يضحّى بحياته دفاعا عنها وعن كل ما يُقيمها . وإنما يتفاوت الناس فى درجات السمو بتفاوت مثلهم الأعلى فى درجاته . فما اتصل بالطعام والشراب وكل ما يقيم الحياة مَثَلٌ أعلى للحيوان ولمن لم يسمُ على مرتبته إلا قليلا من بنى الإنسان . وكلما ازداد المرء سموًّا ازداد مثله الأعلى تنزُّها عن الأثرة واتصالا بالغايات الاجتماعية والوطنية والروحية . والإيمان الصادق أسمى صورة للمثل الأعلى . فلله المَثَلُ الأعلى ؛ بنوره يتحابّ الناس بينهم ، لا تفرقهم الألوان ولا الأوطان ولا اللغات ولا الأجناس ولا الأديان . والاستشهاد فى سبيل الله استشهاد فى سبيل هذا المثل الأعلى ، يريد صاحبه أن تبلغ الإنسانية غاية ما يستطاع من السمو الروحى ، وأن يبلغ بها تبادل الحب غاية الرضا ، وأن تصبح بذلك وحدة تعمل لغاية مشتركة وإن اختلفت أممها وأجناسها ، كما تعمل أعضاء الجسم كلها لغاية واحدة وإن اختلف شكلها واختلفت وظائفها . أين مَنْ يدرك هذا المعنى ثم لا يستشهد فى سبيله ! وقد أدركه حمزة بن عبد المطلب فاستُشهد فى سبيله .

والموت فى سبيل هذا المثل الأعلى هو وحده الاستشهاد ، والذين يهبون أنفسهم له هم دون غيرهم الشهداء . ذلك بأن الملأ جميعا يشهدهم ويشهد أنهم يؤثرونه على أنفسهم وعلى هذه الحياة الدنيا . والله يرضى عنهم ويقول لهم : " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ " . وحياة هؤلاء عند ربهم ليست كحياة هذه الدنيا : طعام وشراب وأثَرة وشحناء ، بل حياة روحيّة راضية مرضية ، مضيئة بالحب متصلة بالله ، مشرقة بنور وجهه الكريم . أليست حياةً سبيلها وغايتها للمثل الأعلى ؟ أوليس المثل الأعلى لله ؟ وأولئك الشهداء رضى الله عنهم ورضوا عنه . ذلك لمن خشى ربه .

قلّ من الناس من يذكر هذا أو يدركه حين يزور قبر حمزة ويقف عليه ؛ بل إن منهم لمن يشرك حمزة فى قدرة الله ، أو يتخذه وسيلة اليه . كان لحمزة قبر ومسجد

هدمهما الوهّابيون . ولقد كان على القبر الذى بالمسجد لوحة فيها هذان البيتان :

قِفْ على أبوابنا فى كلّ ضِيقٍ * وَٱطلُبِ الحاجاتِ وَٱبشِرْ بالمُنَى
فحِمَانا ملجأ للطالبين * وبنا تجلى الكروب والعنا

وضعف هذين البيتين يصف قائلهما ومبلغ ثقافته . لكن هذه العقلية تصوّر عقيدة كثيرين من زوّار قبر حمزة ، وعقيدة كثيرين من المسلمين فى أنحاء الأرض المختلفة . ولهؤلاء جميعا من العذر أن الذين ختّم على عقولهم الجهل قد طبعوا على عبادة القوّة ، وعلى عبادة البطولة ؛ فهم يخلعون على أبطال الماضى من صفات العبادة ما يجعلهم فى حكم الأرباب ، وما يدعو هؤلاء الضعفاء أن يتخذوهم الى الله زلفى . وهذا أمر يُنكره الإسلام حين ينكر على الناس أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ؛ الأموات والأحياء فى ذلك سواء . والإسلام ينكره لأنه ينكر أن يتجه إنسان بالعبادة لغير الله . ليكن غيره من الناس بطلا وليبلغ من البطولة كل ما يصوّره الخيال ، فهو إنسان مثلنا ، عبدٌ لله كعبوديّتنا له ، ونحن وهو أمام الله سواء ، أكرمُنا عند الله أتقانا . بل ليكن الإنسان أعظم من بطل ؛ ليكن نبيا ورسولا وداعيا الى الخير بإذن الله وسراجا منيرا ، فهو بعدُ إنسان ، له إكبارنا وإكرامنا واحترامنا ، وعليه صلواتنا ، لكنه بشر مثلنا ، عبدٌ لله كعبوديّتنا له ، وهو أقرب الى الله الذى اصطفاه ، لكنه فى حاجة الى مغفرة الله له كحاجة الإنسان الى مغفرة الله له .

ينكر الإسلام إذًا عبادة القوّة وعبادة البطولة ، وكل عبادة لغير الله . وإنما يدعو الإسلام الى الأسوة . والله تعالى إذ يتحدّث عن رسوله صلى الله عليه وسلم يقول : "وَلَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" . والإسلام إذ يدعو الى الأسوة إنما يدعو الى مجاهدة المرء ضعفَ نفسه والى دأبه للسمو بها كى تبلغ مكانة القدّيسين والأولياء المقرّبين ، وتطهيرها لذلك من كل أسباب الحوبة والإثم . والإسلام يفتح الباب واسعا لكل من أخلص لله وجهه أن يصل بالتقوى الى هذه المكانة ، حرًّا قرشيًا كان أو عبدا

حبشيًّا . ومعرفة الله معرفة حقّة هى باب التقوى . والمعرفة لا تجعل التقوى فى الضعف ولا فى الخوف، بل فى العلم بسنّة الكون والوقوف على أسراره والاتصال بما جل ودقّ منه وإدراك حكمة الله لذلك فيه . ولنا فى الذين بلغوا من هذه المعرفة أسمى درجاتها الأسوة . فإن أضلّهم علمُهم فلن يُضِلّ العلم مسلما عرف أن سنّة الله لا تبديل لها، وأن معرفتها عبادة له هى خير أنواع العبادة . وذلك ما كان يفهمه المسلمون الأوّلون من الأسوة الحسنة . لذلك لم يلبثوا حين طوّع لهم إيمانهم فتح الأمصار وحكم الأمم أن اتخذوا من علمائها أساتذة عهدوا اليهم بنقل علوم الطبّ والفلك وتقويم البلدان ونقل كتب الفلسفة اليونانية والوقوف من ذلك كله على كل ما وصلت إليه المعرفة الإنسانية فى عصرهم . بذلك أقاموا منارة الحضارة فى العالَم، وعملوا لهدى الإنسانية الى نور العلم وما يهدى هذا النور اليه من توحيد الله الحق .

أمّا والإسلام ينكر عبادة القوّة وعبادة البطولة وكل عبادة لغير الله، ويدعو الى الأسوة الحسنة، فمن الواجب على الذين يزورون قبر حمزة أن يلتمسوا فيه هذه الأسوة، وأن يعلموا أن الله يجزيهم بجهادهم لبلوغ الغاية منها، ولا يجزيهم لمجرّد الزيارة والتبرك والدعاء . فانما يجزى الله العامل بعمله ؛ فمن يعمل صالحا يُجْزَ به . وأسوة حمزة هى الجهاد فى سبيل الله، له المثل الأعلى، وبذل الحياة لدفع من يصدّ عن سبيل الله ابتغاء العاجلة من حكم أو سلطان .

نسى المسلمون هذا المعنى فى كثير من العصور، ولا يزال أكثرهم ينساه . واتّخذت بعض الأمم الإسلامية ملوكها أربابا ، وجعلت من بعض الصالحين فيها أولياء اتخذتهم الى الله زلفى . ولهؤلاء وأولئك بنت القبابَ وأقامت عليها المساجد، لا تقصد تخليد ذكراهم ليكون فى الذكرى للأجيال أسوة ومثل ؛ بل تقصد أن تكون القباب والمساجد محاريب لعبادتهم والتوسل بهم الى الله . الى ذلك قصد الذين أقاموا على قبر حمزة قبّة ومسجدا، وكتبوا عليه من الشعر ما أثبتنا هنا بعضه

وتركنا سائره . ولو أنهم أقاموا القبّة والمسجد للأسوة والذكرى لكان ذلك خيراً ، ولحق لهم الثناء على نيّتهم وعملهم . وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .

لم يبق لقبّة حمزة ولا لمسجده اليوم أثر . فقد عفّى الوهابيون عليهما ثم أقاموا مكانهما القبر الذى وصفت . وكان المسجد قبل هدمه مُحكم البناء خاليا من الزخارف ، به قبة فوق مقصورة أسدل عليها ستر من أستار الكعبة . كذلك يقول صاحب مرآة الحرمين فى وصفه . وأمّ الخليفة الناصر العباسى هى التى شيّدت مسجد حمزة عام ٥٩٠ للهجرة . وقد أمر الأشرف قايتباى فزاد شاهين الجمّالى فى جهته الغربية وحفر له بئرا يرتفق بها المارّة وجعل لها درجا ، وأتم ذلك فى سنة ٨٩٣ . وكان المسجد قائما فوق القبر حيث يقوم البناء الأسطوانى الوهابى اليوم .

وقد اختلف فى موضع القبر : أهو اليوم فى المكان الذى دُفِن به حمزة بعد مصرعه فى أُحُد أم هو فى مكان غيره ؟ وتذهب رواية إلى أن حمزة دُفن فى المكان الذى صُرِع به ، حتى إذا كان القرن الرابع انحط من جبال الطائف سيل جارف اجتاز المدينة ومرّ بقبر حمزة وكشف عن ساقيه ، فنقل إلى الربوة التى بها القبر اليوم وكان عليها المسجد حتى هُدِم . وتذهب رواية أخرى إلى أنه صُرِع تحت جبل الرماة ، وهو جبل عينين ، وأن النبى أمر بجثمانه فنُقِل من بطن الوادى إلى الربوة التى عليها القبر الآن ؛ فالمدفن غير المصرع . ويريد بعضهم التوفيق بين الروايتين فيذكر أن الربوة التى نقل الجثمان إليها فى أعقاب الغزوة قد تكون غير الربوة التى نقلت إليها الرفات فى أوائل القرن الرابع . وهذا التوفيق ليس له عندى ما يقتضيه . فلئن كان جثمان حمزة قد نقل فى أعقاب الغزوة لهو اليوم فى المكان الذى نقل إليه يومئذ ، فهو قريب من المقبرة التى دفن بها سائر شهداء أُحُد . وهم قد دُفنوا فى ميْدان المعركة . وليس بين مقبرتهم والمكان الذى يقال إنه مصرع حمزة ما يدعو إلى نقل جثمانه غير مرّة .

كنت أُحاور الأستاذ عبد القدّوس الأنصارى فى هذا كله ونحن وقوف على الهضْبة التى اشتهرت باسم جبل الرماة ، نسبة إلى رماة المسلمين فى أحد ، والتى تسمى

جبل عينين. فقد أشار لى إلى مكان بأسفل هذا الجبل قال: إنه موضع المصرع، وأشار إلى موضع من أُحُد وقال: إنه المِهْراس الذى احتمى به رسول الله بعد فِرار المسلمين حين خالف الرُّماة أمره وبرحوا مكانهم، فحلّ خالد بن الوليد على رأس فرسان قريش محلَّهم فيه. وعجبت أن يكون المصرع بأسفل هذا الجبل، إلا أن يكون وحشيٌّ اغتال حمزة بعد أن أخلاه المسلمون وأسرعت إليه خيل قريش فسار وحشيٌّ على أثرهم.

و وقفت أصوّر ميدان المعركة كيف كان. فقد جاءت قريش من مكة إلى المدينة فى الطريق الموازى لشاطئ البحر الأحمر، ثم انعطفت مشرِّقة إلى ناحية قُبَاء وذى الحُلَيْفة من جنوب المدينة، واتخذت طريق وادى العقيق إلى شمالها، حتى كانت عند البساتين والزروع القائمة أسفل أُحُدٍ فعسكرت. وخرج المسلمون من المدينة بعد الذى كان بينهم من جدل: أيتحصّنون بها أم يلقَوْن المشركين فى الميدان الذى اختاروه. ونزلوا قُبالة قريش عند أُحُد وجعلوه إلى ظهورهم. وأمر النبىّ خمسين من الرُّماة أن يلزموا هذا النتوء من سَلْع و يصدّوا فرسان قريش وقال لهم: "اِحْمُوا لنا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئونا من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه. وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تُفارقوا مكانكم. وإن رأيتمونا نُقْتَل فلا تُعينونا ولا تدفعوا عنا. إنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنَّبْل؛ فإن الخيل لا تقدم على النبل". فلما دارت المعركة وحالف النصر المسلمين فى أولها بعد أن قُتِل أصحاب اللواء من المشركين، تبع المسلمون عدوّهم فى فِراره يضعون فيه السلاح و ينتهبون ما خلّف من غنيمة. هنالك برِح الرُّماة مكانهم ليكون لهم من الغنيمة نصيبهم؛ فاهتبل خالد بن الوليد الفرصة فشدّ برجاله على مكان الرماة فأجلى من بقى منهم وصاح صيحة أدركت قريش معها ما فعل. إذ ذاك عاد منهم كل منهزم فأثخنوا فى المسلمين ضرباً وقتلا، وتمزّقت صفوف المسلمين وصاح صائح بالناس: "إن محمدا قد قُتِل!". وتشجع المشركون حين سمعوا نبأ قتله. وكان رسول الله قد أصابه حجر رماه عُتْبة بن أبى وقّاص فوقع لِشِقّه فأصيبت رَبَاعِيَتُه و شُجّ فى وجهه وكُلِمتْ شفته

ودخلت حَلْقتان من المِغفَر الذى يستر به وجهه فى وجنته؛ وسار كبار المسلمين من حوله يدفعون عنه، فصعِد أُحُدًا واحتمى بِشِعْب من شعابه فى جوار المِهْراس الذى كانت تقوم عليه قبّــة اشتهرت باسم قبة الثنيّة ثم هدمهــا الوهّابيون . وقد سميت تلك القبة بقبة الثنيّة لمــا قيل من أن ثنيّة رسول الله وقعت عندها .

وألقيت نظرة إلى ناحيــة أُحُد فذكرت قول رسول الله عنه : " هــذا جبل يحبّنا ونحبّه " ، واستقرّ نظرى على صخوره الحمراء وعلى الرءوس الكثيرة الناتئــة على سطحه . قال الأستاذ عبد القدّوس : "يخيّــل إليك أن أُحُدًا أحمــر اللون كله . أمّا أنا فقــد وجدت فيــه حين تنقّلت بين شعابه وقُنَنه وهضابه صخورا وعروقا مختلفــة الألوان يضرب بعضها إلى الزرقة، وبعضها إلى الخضرة، ومنهــا الأسود الإثمدىّ والرّمادىّ لون التراب . وقد ذكر لى صديق أنه عثر فيه بحجر من الإثمد زنته مثقالان، وآخر زنته سبعة مثاقيل، وأن صديقا له عثر بحجر كبير كسره فانفلق عن زبرجدة عظيمة الحجم. ولطالمــا تساءلت : أكُشِف عن شىء من هذه النفائس بأُحُد فى عصر خلا ؟ ولم أجد جوابًا فيما قرأت من كتب تاريخ المدينــة . ولست أدرى أتيسِّر الأقدار لأهل هذا الجيل أن يقوموا من ذلك بما لم يقم به أسلافهم" .

لم أقف طويلا عند هــذا الحديث عن طبيعة الصخور فى جبــل أُحد ؛ فلقد كنت أحرص على معرفة الطريق الذى سار فيــه النبىّ نجاةً بنفسه من أعدائه بعد أن خالف الرماة أمره . ونزلنا عن جبل الرماة ومررنا على مقربة من قبر حمزة وقبور الشهداء وتخطّينا إلى أُحد وسرنا أثناءه بين صخور ضخمة تلوّينا خلالَها هنيهةً فاذا نحن قد ابتلعنا الجبل فحجبنا عن كل ما وراءه . لم يبق أمامنا وادى قناة ولا جبل سَلْع ولا هضبة الرُّماة، بل كنا خلالَ جبل تتلوّى الطرق على سفوحه إلى حيث لا أدرى .

قال عبد القدّوس بعد أن سرنا زمنا : هذا المهراس الشرقىّ الذى جىء للنبىّ صلى الله عليــه وسلم بالمــاء منه يوم أُحُد . قلت : وما المِهْراس؟ فكان جوابه : تلك نُقَرٌ كبار وصغار يجتمع فيها ماء المطر . وكان النبىّ فى الشِّعْب القريب من هذا المهراس حين جاءه علىّ بن أبى طالب بمــاء يُروِى به ظمأه؛ ووجد بالمــاء ريحا فكرهه ولم

يشرب منه، و إن غسل به الدم الذى أصابه أثناء المعركة . وصمتَ هنيهة ثم أردف: وهذا، هنا، المهراس الشرقىّ. وثمّ مهراس غربى طريقه وَعْرٌ لاسبيل إلى ارتقائه إلا بتسلّق بعض الصخور . ولم يرد فى أنباء التاريخ أىّ المهراسين جىء منه بالماء لرسول الله . لكن بيتا من الشعر لعبد الله بن الزِّبَعْرَى يدلّ على أنه هـذا المهراس الشرقىّ، ذلك قوله :

فَسَلِ المِهْراسَ مَنْ ساكنُهُ * بين أَقْحَافٍ وهامٍ كالحَجَلْ

والمهراس الغـربى لا سبيل إلى أن ترتقيـه الأفراس لوعورته وملاسـة صخوره . أما وابن الزبعرى يشـير إلى المهراس الذى جىء بالمـاء للنبى منـه فهو إذًا هـذا المهراس الشرقىّ لا ريب .

عدنا بعد ذلك أدراجَنا نقصد الوادى لنستقلّ سيّارتنا إلى المدينة . واستوقفنَا جند من النجديين يقيمون بِنْية موضعها بين القبور والمصرع، فدعونا إلى قهوة وشاى عندهم . وتناول الحديث أثناء ذلك فى كلمات مقتضبة هؤلاء الذين مررنا بهم من زوّار حمزة وشهداء أُحُد . فهم اليوم يقفون يصلّون و يستغفرون، وكانوا قبل العهد النجدىّ يحدون فى القبّة وفى المسجد وسيلة للزلفى وللعبادة و يقيمون لذلك مع من يخرجون إلى هذا المكان من أهل المدينة ثلاثة أيام تنصب فيها سوق وتجرى فيها تجارة، ولا بأس بأن يقع أثناءها لهو ومجون . وآنطلقنا بعد الشاى والقهوة نلتمس سيّارتنا، فلم يَحُلِ آنطلاقُنا بينى و بين الالتفات إلى وراء لألقى نظرة أخيرة على قبر حمزة ولأُحيط كرّة أخرى بهذا الوادى المترامى الأطراف إلى جوار عرين الأسد، ولأرى فيه المسجد الذى يسمّونه المستراح، و يذكرون أن النبىّ كان يستريح موضعه إذ كان يزور مثوى الأسد . وعدت من بعدُ إلى التفكير فى الاستشهاد والشهداء، وفى حمزة الذى مات فداءً لدين الله وللمسلمين إخوانه فيه . وناجتنى نفسى : لماذا يذكر الناس هؤلاء الشهداء فى تقديس و إجلال و إن بعُد بهم العهد وحجبهم المـاضى فى غيابات الدهور؟ فكلُّنا نذكرهم فى تقديس و إجلال، و إنما يتفاوت مظهر إكبارنا إياهم بين العبادة وما هو منها بسبب من الجاهل، والإعظام الحق من المهذّب النفس ذى العلم . ونحن

إنما نُكبرهم لأنهم وهبوا أنفسهم وحياتهم للإنسانية كلها وتمنَّوا الموت صادقين ليبلغوا بالإنسانية أسمى الأغراض التى تصبو اليها . لم يفكر حمزة فى نفسه ولا فى أبنائه يوم خاض الغمار فى بَدْر ويوم حاصر بنى قَيْنُقاع ويوم ٱستُشهد فى أُحُد، ولم يُرِدْ من أحد من الناس جزاء ولا شكورا . إنما كان تفكيره فى الله وجزائه ، وفى نصر الله دينه الحق لتهتدى الإنسانية إلى الصراط المستقيم وتُشرق روحها بنور ربها. هو إذًا قد آثر إخوانه على نفسه، وحرص على الموت ليهب لهم الحياة، فوهبه إخوانُه الحياة الخالدة على الأجيال جزاء وِفاقا . وأية حياة باقيــة على الدهر كحياة المرء فى قلب الإنسانية ما تعاقبت أجيالهـا وما نسخ الليل فيها النهار! وأىّ جزاء للمرء عن عمــله أكبر من ٱعتراف الناس له على تعاقب الأجيال بالفضل عليهم، وما يكون له بسبب ذلك من حسن الأُحدوثة فيهم! . هؤلاء الذين وهبوا حياتهم فى سبيل الحق لهدى إخوانهم إنمــا وهبوها لله ربِّهم فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ وهم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .

أَجَلْ ! هؤلاء حرصوا على الموت ليهبوا للناس الحياة ، فوهب الله لهم الحياة . وقديمًا قيل : "اِحْرِصْ على الموت تُوهَبْ لك الحياة". وهى كلمة حق لم تتغير على القرون، ولن تتغير وهى من ســنّة الله التى لا تبديل لهــا . فمَنْ تمنَّى الموت صادقا بمــا قدّمت يداه فاختاره الله إلى جواره فهو حىّ عند ربه . ومن تمنَّى الموت وبقى حيًا ضاعف الله له أجره فى هــذه الحياة الدنيــا . ذلك شأن الأفراد ، وهو شأن الأمم؛ حياتها فى أن تهب الحياة لمن بعــدها وإن ضحّت بحياة آخر فرد منها إذا هى أريدت على نقص فى مقوّمات حياتهــا : فى كرامتهــا ، فى عزتها ، فى ســيادتها ، فى استقلالها ، فى حرّيتها التامّة أن تنظّم كما تشاء شؤونها . والأمم التى يعرف أبناؤها كيف يموتون أعزّة كراما هى الأمم التى تحيا أبدا عزيزة كريمة .

هــذه الأمم التى تحيا عزيزة كريمــة ، والتى يعرف أبناؤها الحقّ والاستشهاد فى سبيل الله ، هى الأمم التى رفعت فى الإنســانية منار الهــدى وبيّنت لها طريق

الحضارة فى أسمى صورها . وذلك ما فعله خلفاء حمزة من شهداء المسلمين . وإنما آفة الإنسان أن يطغَى أن رآه آستغنى . هى آفة الأفراد وآفة الأمم . وكم أمة عزّت وكُرمت ورفعت منار الحق والعدل وهَدَتِ الإنسانيةَ سبيلَها فآمنت بها الإنسانية، وسارت فى خُطاها، وجزتها بذلك خير ما يجزى المعترف الشكور، ثم استغنت هذه الأمة فطغت بجزت الإنسانية بطشا وظلما واستعمارا . يومئذ يمدّ الله لهذه الأمة بحكم سنّته فى طغيانها، ثم ينالها بعد ذلك من جزائه ما ينال كل طاغية كفور .

ربّنا إننا آمنا بك ما آمن بك عبدُك حمزة بن عبد المطلب . ربنا فهب لنا من فضلك بعض ما وهبت له ! هَبْ لنا الإيثار على أنفسنا وأن نحب بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات إخوانَنا، وأن نتمنّى الموت بما قدّمت ايدينا، وأدخِلْنا ربّنا فى عبادك الصالحين ! ربنا آهدِنا صراطك المستقيم ! ربّنا إنك مَنْ تَهْدِ لا يضلّ، وخير ما نرجو من هداك أن توجّهنا وأن توجّه الإنسانية بفضلك إلى الحق والخير والسلام .

أمام الحجرة النبويّة

السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ! نشهد أن نبيّ الله ورسوله قد بلغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتمّ الله النصرَ لدينه ، وأنه وَفَى بوعده ، وأمر ألّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له .

وقفتُ أمام الحجرة النبويّة وتلوت هذه التحيّة يوم دخلت المدينة وذهبت مع مُضيفى إلى المسجد وتبعت مزوِّرى من باب السلام إلى حيث وقفت مأخوذا لا أدرى ما الله صانع بى . وسلّمت على الصدّيق أبى بكر وعلى الفاروق عمر المدفونين فى هذه الحجرة إلى جوار رسول الله وتلوت الفاتحة ، ثم أقمت مكانى شاخصا إلى الحجرة وإلى عمدها النحاسية الدقيقة الصنع ، وإلى النسيج الأصفر الذى يصل بين هذه العمد ، وإلى الطاقات الثلاث المفتوحة فيها إزاء القبور الثلاثة ، كأنما كل طاقة منها عين تحدّق فى كل زائر وتنفذ إلى أعماق نفسه وطيّات قلبه . أقمتُ مكانى مأخوذ الذهن عن التفكير متوجِّها بكل انتباهى إلى كل ما يجب أن أقوم به من الشعائر حَذَرَ أن يفوتنى شىء منها ، وكأننى فى حضرة ملك أؤدِّى فروض الإكبار والإجلال . وشعرت بنفسى تحيط بها هالة من الجلال الروحىّ الذى أخذ على تفكيرى المسالك وجعلنى فى حيرة ما أصنع . وكذلك بقيت حتى تقدّمنى مزوِّرى إلى ناحية الروضة النبويّة لأؤدِّى فيها تحيّة الحرم وأصلِّى وراء الإمام صلاة المغرب .

وعجبت حين غادرت موقفى من الحجرة وأتممت صلاتى بالروضة . لقد امتلأت روحى إكبارا وتقديسا وإجلالا ، ولقد شعرت بما لم أشعر قطُّ من قبل به . لكنى لم أبكِ ولم تَفِضْ عَبَراتى . وكنت قد سألت قبيل سفرى من مصر إلى الحجاز بعض من سبقونى إلى الحج والزيارة عن موقفهم أمام قبر الرسول ، فحدّثنى بعضهم عن اهتزاز أنفسهم وانهمار الدمع من أعينهم ، ولم يأبوا أن يذكروا أنهم كانوا أشد تأثُّرا حين

وقوفهم أمام الحجرة منهم حين وقوفهم امام الكعبة وحين طوافهم بها . وهؤلاءالذين حدثونى هم من خير من أعرف ثقافةً وأكثرهم بعدًا عن الغلوّ فى الدين أو الترمّت فيه . مالى إذًا لم تنهمل عبراتى كما انهملت عبراتهم ، ولم يزد تأثّرى أمام قبر الرسول عن تأثّرى أمام بيت الله ، وما أحسبنى دون أحد منهـم إيمانًا بالله وتصديقا لرسوله صلى الله عليه وسلم وحبّا إياه ! أتراهم أرهف منى حسًّا وأدق شعورا ، أم أنا نختلف رأيا وتفكيرا ؟ ولم أطِل تقليب النظـر فى هذه الأمـور بادئ الرأى ، وكفانى أن ذكرت أنّى توجّهت إلى الله بالحج مخلصـا ، فلى فى مغفرته ذنوبى أعظمُ الرجاء ، وأنى جئت ألتمس بزيارة نبيـه الكريم الذكرِ والأسـوةِ مزيدًا فى الرجاء أن يهدينى الله سبيلَهَ الذى دعا إليه محمد عبـده ورسوله . هـذا إلى أنى خُلِقت عَصِىّ الدمع لا تُسعفنى العبرات ما تُسعف غيرى ، فإن أوشكت ضننت بهـا ضنًّا بكرامتى وإبائى . وما أدرى لعلى كذلك خشيت أن يكون فى البكاء مظهر عبادة وقد قال عليه السلام : (اللّهُمّ لا تجعل قبرى وثنًا يُعبَد) ؛ وإنمـا تفيض دموع المؤمن من خشية الله .

عدت بعد ذلك مرّات إلى المسجد ووقفت أمام الحجرة . لَشَدّ ما يبعث هذا الموقف إلى النفس من آى الحكمة ومعانى الجلال ! إنه ينشر أمامها حياة الرسول وحياة صاحبيه وجهادهما معه فى سبيل الدعوة إلى دين الله ، وجهادهما من بعـده لتثبيت دعائم هـذه الدعوة ونشرها فى الخافقَيْن . إنه يصوّر أمام الذهن من حياته وحياتهما بساطة فى العيش ، بل خشونة فيـه اتخذوها لهم سـنّة وشعارا مذ تولّوا أمر الناس ، فآثروا الناس على أنفسهم وأهليهم ، وعافوا مُتَعَ الحياة وما لهَـا حذَرَ أن يدخل عليهم منـه ما ليس لهم بحق ، وضربوا بذلك للنـاس مثلا فيما يجب أن يكون عليه من يلى أمر غيره . وهم قد اتّخذوها شعارا وكان لهم فى أموالهم سـعة ، وفيما رزقهم الله متاع . كان محمد غنيًّا بتجارة خديجة ومالهـا الكثير . وكان أبو بكر

غنياً بتجارته وإلف الناس إياه . وكان عمر غنياً بسعيه واتصال كدّه . فلما بعث الله رسوله هدًى للناس ونورا أنفق مال خديجة ولم يُبْقِ منه على شيء . ولما آلت خلافة رسول الله إلى أبي بكر كان الزهدَ في الدنيا والرغبة عنها ، وكان التقوى وخوفَ الله أن يُصيب ظلمٌ رجلا ممن ولى أمرهم . أمّا عمر فكان مثال العدل الصارم لا يعرف الهوادة مع غيره ، وهو أشدّ قسوة على نفسه وأهله . أليس عجيبا أن يكون ذلك شأنهم وأن تكون هذه سيرتهم وعبرتهم ، ثم تكون هذه الحجرة النبويّة وهي ما هي اليوم جمالًا وتأنقا في النقش والزخرف والعمارة حتى لتُزرى بأكثر الحجر في أبهى القصور فخامة وروعة ، وحتى لكانت تُزرى إلى عصر قريب بكل قصرٍ ثراءً ونَعْمةً ، لما اجتمع فيها من نفائس قدّرها بعضهم بسبعة ملايين من الجنيهات !

بذلك حدّثتني نفسي يوما وأنا بمجلسي من المسجد بعد وقفة طويلة أمام الحجرة . وذكرت لهذا الحديث ما كانت الحجرة عليه قبل أن تضاف إلى المسجد يوم دُفن بها رسول الله ، ويوم دفن بها أبو بكر ، ثم يوم دفن بها عمر . كانت هذه الحجرة في بيت عائشة أمّ المؤمنين . فلمّا مرِض النبي انتقل إليها ومرّضه أزواجه فيها حتى اختار الرفيقَ الأعلى . وكانت هذه الحجرة كالبيت كله من جريد مستور بمسوح الشعر ، أو كان البيت في قولٍ من اللّبن له حُجَرٌ من جريد . فلمّا تُوُفِّيَ رسول الله وانتهى المسلمون بعد خلاف إلى دفنه حيث قُبِض حفروا له في هذه الغرفة مكان السرير الذي كان يمرّض عليه ، ودفنوه بعد أن ودّع المسلمون جثمانه رجالًا ونساء وأطفالا . ودفن أبو بكر بعد سنتين وثلاثة أشهر من موت الرسول ، والحجرة على حالها لم يغير فيها شيء ، ولم يقم على القبر قبة ولا مقام . وبعد عشر سنين من موت أبي بكر دفن عمر بالحجرة وهي على حالها لم يزد عليها إلا جدار أقامه عمر بينها وبين سائر الدار التي كانت عائشة تقيم بها . ذكروا أن ابن الخطاب أرسل إلى عائشة لما طعنه المغيرة يسألها أن يُدْفَنَ مع صاحبيه ؛ فقالت : كنت أريده لنفسي ، لأوثرنّه اليوم به .

وأوصت أن تدفن مع صواحبها بالبقيع . ولعلها إنما فعلت بعـد دفن عمر حتى لا تدفن إلى جواره وهو منها غير ذى رحم مَحْرَم . فهى قد كانت تزور حجرة القبر سافرة حين لم يكن بها غير زوجها وأبيها ؛ فلما دفن عمر إلى جانبهما لم تكن تدخلها إلا محتجبة لابسة كامل ثيابها .

وبقيت حجرة القبر على بساطتها إلى أن أمر الوليد بن عبـد الملك عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة أن يزيد فى المسجد وأن يضم حُجرات أزواج النبىّ إليه . وكل ما قيل إنه حدث قبل ذلك أن وضعت على القبور الثلاثة حجارة مسنّمة وكانت فى العهـد الأول مسوّاة بالأرض . وانقضّ جدار من الحجرة حين أمر عمر بن عبد العـزيز ببنائها، فانكشف أحد القبور عن ساق وركبة ، فتولى عمرَ الفزعُ أن تكون ساق رسول الله وركبتـه . فلمّـا تبيّن أنها ساق عمر و ركبته زايله الفزع وهدأ رَوْعهُ، وأمر مولاه مزاحم فقام فسترها وسوّى التراب عليهـا . وبعـد ذلك أُقيمت الحجرة بخيمة البناء بخامة أعجبت الوليد بن عبد الملك ودعته أن يقول لأبان ابن عثمان : "أين بناؤنا من بنائكم!". وكان جواب أبان : "بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس" .

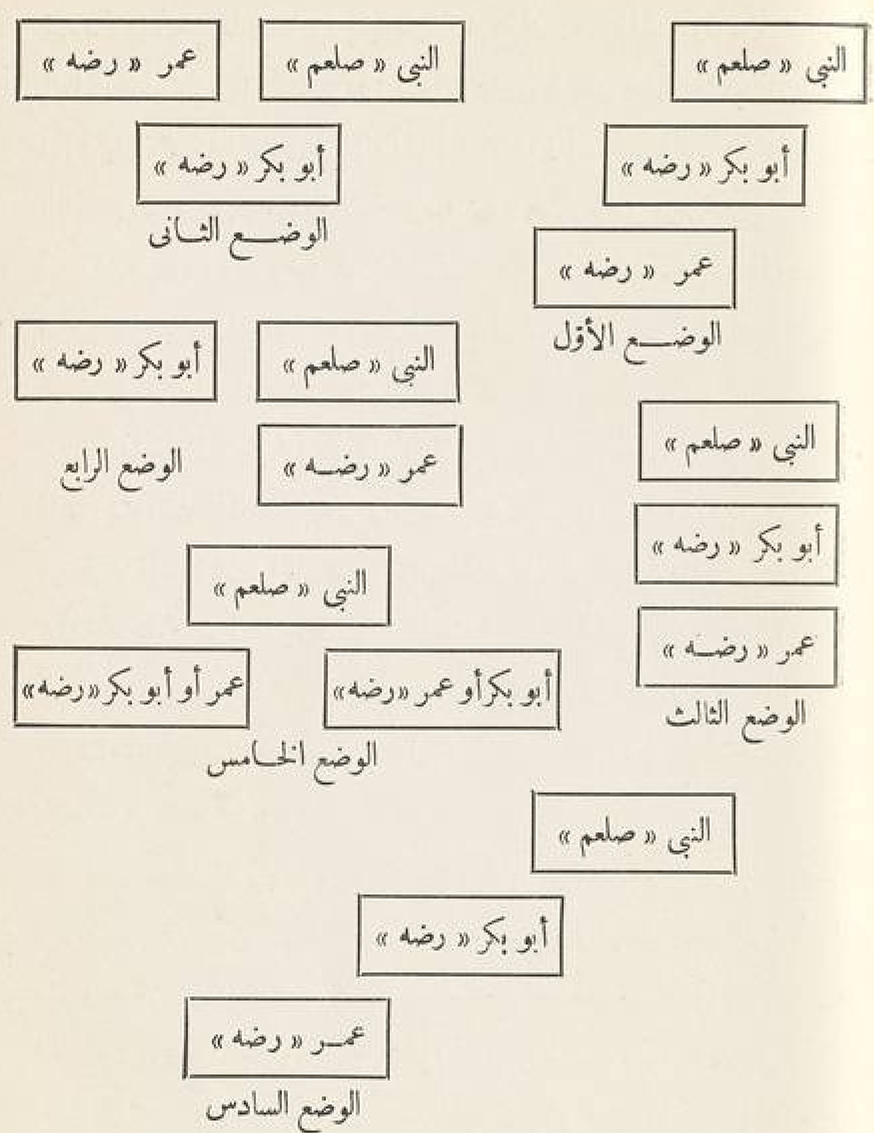
بنى عمر بن عبد العزيز الحجرة سنة ثمان وثمـانين، وقيل سـنة إحدى وتسعين للهجرة . هى إذاً قد ظلّت ثمانى وسبعين أو ثمـانين سنة بعد وفاة الرسول فى مثل بساطتها حين وفاته لم يُزَدْ عليهـا إلا ما قيـل عن هذه الأحجار المسنّمة . ولم يكن الناس إذ ذاك أقل إكبارا لها وذكرا لصاحبها عليه السلام ممـا كانوا بعد أن بُنيت وأُقيم عليها سقف أنفق عمر أربعين ألف دينار ذهبا فى إقامته وتزيينه . ولئن تفاوت تقدير الناس إياها ، لقد كان المسلمون الأوّلون فى عهـد الخلفاء الراشدين والأيام الأولى لعهد بنى أمية أدنى إلى التقدير الصحيح . أولئك كانوا الصحابة والتابعين ، وكانوا لذلك يُدركون روح الرسالة وأغراضها إدراكا سليما . لم يكن الخيال ولا كان الهوى السياسىّ قد عبث بأفئدتهم ولا بمنطق عقولهم ،ولم يكونوا لذلك قد اضطربوا

بين الإفراط والتفريط، والغلوّ فى ناحية أو العكوف على نقيضها . كانت حياة الرسول وصاحبيه ماثلة أمامهم على حقيقتها التى رأوها، وكانوا لذلك يُكبرونها و يلتمسون فيها الأسوة ، ولم تكن نفس أحدهم لتطاوعه على عبادة غير الله مما ينكر الإسلام . لذلك لم يتحمّس أحد من أهل المدينة لِما صنع الوليد من بناء الحجرة ، بل أنكره كثيرون من أتقيائهم ، و برئوا منه ، ورأوا فيه خروجا على الأسوة الحسنة . وحقّ لهم يومئذ أن يفعلوا وقد أنكر بعض إخوانهم وآبائهم على عثمان بن عفان أن يبنى المسجد بالحجارة وأن يخرج به لذلك عن بناء النبى إياه باللَّبِنِ والجريد وخشب النخل يجعلها له عمدا .

أرانى أشدّ ميلا لرأى هؤلاء المسلمين الأوّلين فيما صنع الوليد بن عبد الملك . فلو أنّ الحجرة بقيت كما كانت يوم دُفن بها رسول الله لكان منظرها أقوى إلهامًا من منظر الحجـرة المزخرفة البديعة النقش الجميلة العمد الثمينة الأثاث ، والتى تبعث إلى النفس من الروعة أكثر ممـا تدعو اليه من الأُسوة والعبرة . كانت تلك الحجرة الأولى صورة حية من حياة رسول الله ، ومن جهاده ، ومن آلامه ، ومن مرضه ، ومن دفنه . أين يرى الإنسان اليوم حجرة الرسول التى كانت مَثَلَ التقشُّف ومظهر الخشونة فى العيش والبراءة من كل زينة و بهرج ! أين موضع فراشه فيها ، وكان أدَمًا حَشْوُه ليف ! أين هذه الصورة التى تملأ النفس روعةً ، صورة الرسول فى بيته وفى مَهْنَة أهله ، ينظِّف ثوبه و يرقِّعه ويحلُب شاته ويخصِف نعلَه ويخدُم نفسه و يأكل مع الخادم ! أين هذا المكان الساذَج يجلس محمد فيه إلى أهله وهو أَلْطَفُ بهم والدّعابة معهم، والبرّ والرأفة والرحمة ! أين هذا الباب الذى لم يكن عليه قُفْلٌ، والذى كان محمد يفتحه لديك مريض فيترفّق به و يمرِّضه ! ترى أين كانت الغرفة التى أقام بهـا رسـول الله حين هجر نساءه شهراً لمـا لجّت الغيرة بهن بعـد أن ولدت مارية ابنه إبراهيم ! وأين من حجرات أزواجه كان مجلسه المفضل للتفكير والتأمُّل ، ولتنظيم سياسة المسلمين وتوجيههم فى مختلف شؤونهم ! وأين من هذه الحجرات نزل عليه

الوحى ! وأين فيها سرير مرضه وحيث كان به من لهب الحُمَّى ما يعانى منه أشـد الكرب! وأين منهـا المكان الذى مرَّ به المسلمون بعد موته وغسله، رجالا ونساء وأطفالا، يودِّعون جثمان نبى الله و رسوله، و يشهدون أنه بلّغ رسالة ر به وجاهـد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه ! لم يبق من ذلك كله أثر بعد أن ضُمّت الحجرات إلى المسجد، فلم يبق لزائر المدينة أن يقف على تفصيله أو أن يستمدّ إلهامه ، وقد كان له فى الإسـلام وفى حياة المسلمين أبلغ الأثر . ألَا لو أن ذلك كله بقى إلى اليوم لألهم المؤرّخين والكتّاب والشعراء ورجال الفن ما لم تُلهمهم الحجرة البديعة الزخرف مذ شادها عمر بن عبـد العزيز . لم يفكر الوليد فى شىء من هـذا يوم أمر بهـدم الحجرات وإدخالها فى المسجد، وإنما فكر فى حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب وفاطمة بنت الحسين وفى الدعوة العـلويّة وفى هذه الخصومة التى استحرّت بين بنى هاشم وبنى أُميّة بعد مقتل عثمان . ولو أنه فكر فى شىء مما ذكرتُ أو وجد من يذكِّره به لمَا عدل أغلبَ الأمر عن رأيه ؛ فالهوى السياسى أعنف من أن يذرنا نفكر فى أمر سواه ؛ وهو كذلك خاصة إذا اتصل بالمُلْك وما يحيط به من شهوات وأهـــواء .

بذلك حدّثتنى نفسى يومًا وأنا بمجلسى من المسجد بعـد وقفـة طويلة أمام الحجـرة . وذكرت لذلك ما حدث من عمارة الحجرة بعـد الوليد، وكيف نهج غيره نهجه فى البناء والزخرف ، وكيف نسى المسلمون العهد الأوّل ووقر فى نفوسهم أن كل زخرف يُضيفونه إلى الحجرة يقرِّبهم إلى الله . ولقـد بلغ أمرهم من ذلك أن اختلفوا على موضع المدفونين بالحجـرة بعضهم من بعض . هـذا وأبو بكر وعمر وزيرا رسول الله فى حيـاته وخليفتاه بعد موته ، وهمـا اللذان ثبّتا قواعد الإسلام ونشرا فى الخافقين لواءه . ولقـد بلغ من اختلافهم على هذه المواضع أن روى السمهودىّ عنها سبع روايات اعتمد فى كل واحدة منها على راوية لروايته مبلغها من القوّة أو الضعف . ونقل السمهودىّ ما صوّرت به هـذه المواضع فى مختلف الروايات على النحو الآتى :



هذه هى الأوضاع التى ذكرها السمهودى، وهى سبع يمكن أن ترد إلى ست. وأنت تستطيع كما ترى أن تعتبرها ثمانيا . على أن الوضع الأول منها هو المأثور. والرواية فيه أن رأس النبي وضعت إلى ناحية الغرب ، وأن رأس أبى بكر وضعت إزاء منكبي النبي، وأن رأس عمر وضعت إزاء منكبي أبى بكر . وهذا الخلاف على وضع أبى بكر وعمر من النبي يقع مثله على بناء الحجرة حين شادها عمر بن عبد العزيز.

فقد ذكروا أنه بناها مخمّسة ولم يبنها مربعة خيفة أن يتخذها المسلمون قبلة يتوجهون إليها فى صلواتهم . أمّا السمهودى فيقول : إنه رآها حين عمارة المسجد فى عصره، أى فى القرن التاسع الهجرى، و إنه ألفاها مربّعة، و إن تخميسها كان بعد ذلك . وقبر النبي مُعلم اليوم بمسمار من الفضّـة موضوع فى الجدار القبلى من الخارج . والمأثور أنه قُبالة الرأس . وقد وضع هـذا المسمار فى عهد متأخر . لكنه يشير إلى موضع الرأس لا ريب؛ فالمسلمون قد حرصوا على الدقّة فى تحديد قبر النبي و إن لم يحرِصوا على مثلها فى تحديد قبرى صاحبيه .

وهذا الخلاف على تحديد مواضع القبور من الحجرة إنما حدث فى عهد متأخر . فقد رأيتَ أنه لمـا انقضّ جدار وانكشفت بذلك ساق وركبة فى ولاية عمر بن عبدالعزيز المدينة عرفوا أنها ساق عمر وركبته، مما يدل على أن مواضع القبور كانت محدّدة يومئذ أدّق التحديد . فلمّـا أُقيمت الحجرة حولها ولم يكن يدخل إليهـا إلا الموكلون بها، وقلّ منهم العلماء، بدأ هذا الخلاف، ولا نعرف من الذى بدأ بإثارته . ولو أن الحجرة بقيت على صورتها الأولى لَمَـا حدث خلاف ؛ ولمـا ترتّب على هذا الخلاف ما ترتّب عليه من جدل طويل .

فاتنى أن أشـير إلى ما يذكرونه عن قبر رابع موجود بالحجرة إلى جانب القبور الثلاثة، وما يروى من أن هذا القبر لعيسى بن مريم، وما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث تؤيّد أن المسيح سيدفن به . ولست أريد أن أخوض مع الخائضين فى هذا الأمر . وكل ما أذكره أن النبي لم يعيّن مكانا يدفن فيه، ولذلك اختلف أصحابه : أيدفن بمكة أم ببيت المَقْدِس ؟ ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة حين قال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول : "ما قُبِض نبيٌّ إلا دُفن حيث يقبض" . ولم يكن بدار عائشة يومئذ قبر، ولم يحفر بها قبر غير قبر النبي إلا بعد أن دفن بها أبو بكر وعمر؛ ولم يذكر رسول الله أنهمـا سيدفنان بها ، ولم يكن أحد يعـلم ذلك . بل لقد دفن عمر بها بعـد أن سأل عائشة أن تأذن به، وبعد أن آثرته عائشة على نفسها فأذِنت أن يدفن فى دارها .

تجدد بنـاء الحجرة بعد ذلك غير مرّة . ولقد أشرت إلى شيء من ذلك حين الحديث عن المسجد النبوى وتجديد بنـائه على أثر الحريق الذى أصـابه فى القرن السابع وامتدّ إلى الحجرة كما امتدّ إلى المسجد كله ، وعلى أثر الصـاعقة التى نزلت به فى أواخر القرن التاسع الهجرى . ولقد عدّل بناء الحجرة أثناء ذلك فخمّست بعد أن كانت مربّعة وزيد عليها ما لم يكن منهـا حين بناها عمر بن عبـد العزيز . يقول السمهودىّ فى حديثه عن عمارة القرن التـاسع : "إن متولى العمارة ومن كان معه خبّرونى أنهم وجدوا عند نقض جدار البيت الشامىّ — أى الشمالى — من داخله رأس جدار فى محاذاة الأسطوانة المذكورة يشهد الحال أنه كان آخذا من الشامىّ إلى ما يحاذيه من القبلة ، فكأنه كان نهاية الحجرة الشريفة من جهة الشرق ، وكأنه لمـّا انهدم زيد فيها ذلك القدر . قالوا : ولا يخفى على الناظر أن بقية الجدار الشامى مما يلى الشرق لم يبن مع الجانب الآخر منه ، بل هى ملصقة إلى رأس الجدار المذكور بحيث لم تدخل أحجار أحدهما فى الآخر ولا هى مرتبطة كما هى عادة البناء الواحد . ورأيت أنا ما يقابل هذا الجانب من الجدار القبلى ممـا يلى الشرق ، فرأيت ما يشهد بإحداث بنائه بحيث إنه مبنىّ بالحجـارة غير الوجوه كنسبة الجدار الشرقى بخلاف بقية جدارات الحجرة الشريفة فإنها كلها من داخلها وخارجها مبنية بالحجارة الموجودة المنحوتة . وأنا لم أشاهد ما قدّمته مما حُكِى لى فى أمر الجدار الشامى لأننى اجتنبت حضور الهدم احتياطا لنفسى[1]" .

ويقص السمهودىّ فى فصل عقده وجعل عنوانه "فيما تجدّد من عمارة الحجرة الشريفة فى زماننا على وجه لم يخطر قط بأذهاننا ، وما حصل بسببه من إزالة هدم الحريق الأوّل من ذلك المحل الشريف ومشاهدة وضعه المنيف وتصوير ما استقر عليه أمر الحجرة فى هذه العمارة" — يقص صورة ما حدث فى عهده حين جاء شاهين الجمالىّ إلى المدينة مُنْصَرَفَه من جُدّة فأراه وجوهُها ما تكسّر من أخشاب المسجد، وأروه

(١) السمهودى : وفاء الوفا . جزء أوّل . صفحة ٤٠١ .

مافى الحجرة من تصدُّع قديم فى جدارها الشمالى ، رأى معه إصلاح عمدها و إعادة بنائها . وقد اختلف يومئذ فى ضرورة ذلك و رأى كثيرون الخير فى عدم التعرّض له ما دامت الحاجة لا تدعو إليه . لكن شاهينا وزير سلطان مصر الأشرف قايتباى ، كان له غرام بإصلاح الحرمين لا يعـدله غرام . لذلك كان دائبا على تعمير ما يرى الخير فى تعميره منهما . فلما اسـتقر الرأى على تعمير المسجد والحجرة بدءوا بإزالة ما كان من تراب الهـدم الذى سقط بهـا حين الحريق الذى وقع فى القرن السابع . يقول السمهودى : "بعث إلى متولى العمارة لأتبرّك بمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها ، وصار قائل يقول : ظهر القبر الشريف ، وقائل يقول : لم يجدوا لجميع القبور الشريفة أثرا . فحثنى داعى الشوق وغَلَبة الوجد ، واستحضرت ماوقع لبعض السلف من سؤاله عائشة رضى الله عنها أن تريه القبور الشريفة ... فعزمت على الإقدام وتمثّلت بقول بعضهـــم :

ولو قيل للمجنون أرضٌ أصابها * غُبَـارُ ثرى ليلى لجـدَّ وأسرعا

لعل يرى شـيئا له نسبةٌ بهـا * يعلّل قلباً كاد أنـ يتصدّعا

فتطهّرت وتوجّهت لذلك مستحضرا عظيم ما توجهت إليـه ، وموقع المثول ببيت أوسع الخلق كرما وعفوا ، وذلك هو المعوَّل عليه ، واستحضرت قول بعضهم :

عصيت فقل لى كيف ألقى محمدا * ووجهى بأثواب المعاصى مبرقعُ

ثم أنشدت الذى يليه :

عسى الله من أجل الحبيب وقُرْبِه * يُداركنى بالعفو فالعفوُ أوســعُ

وسألت الله أن يمنحنى حسن الأدب فى ذلك المحل العظيم ، ويلهمنى ما يستحقه من الإجلال والتعظيم ، وأن يرزقنى منه القبول والرضا ، والتجاوز عما سلف ومضى . فاستأذنت ودخلت من مؤخَّر الحجرة ولم أتجاوز ذلك المحل ، فشممت رائحةً ما شممت فى عمرى أطيب منها ، ثم سلّمت بوجل وحياء ، على أشرف الأنبياء ، ثم على ضجيعيه خلاصة الأصفياء......ودعوت بما تيسّر من الدعوات ، وتشفّعت بسيد أهل الأرض

والسماوات ، واستنزلت به فى بيته من الأزمات ، واغتنمت هذه الفرصة فى جميع الحالات ...... فلمّا قضيت من ذلك الوطر ، متّعت عينى من تلك الساحة بالنظر ، لأتحف بوصفها المشتاقين ، وأنشر من طيب أخبارها فى المحبين . فتأملت الحجرة الشريفة فاذا هى أرض مستوية ، وتناولت من ترابها بيدى فاذا به نداوة وحصباء... ولم أجد للقبور الشريفــة أثرا غير أنّ بأوسط الحجرة موضعا فيــه ارتفاع يسير جدًّا توهّموا أنه القبر الشريف النبوى ؛ فأخذوا من ترابه للتــبرك فيما زعموا . ومنشأ ذلك الوهم جهل من كان هناك بأخبار الحجرة الشريفة . وذلك المحل ليس هو القبر النبوى قطعا ، ولعله قبر عمر رضى الله عنه ... لأن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قريبا من الجدار وكان اللحد تحت الجدار»[1] .

وكان مَهَرَةُ الصنّاع قد نقضوا قبــل تنظيف المكان ماراأوا حاجة لنقضــه من العمد ، ثم أعادوها بعد صب الرصاص فيها وجعلوها قوية قوّة دهش لها السمهودىّ . وبعد التنظيف أقاموا بناء الحجرة حول مربّعها الذى كان عمر بن عبد العزيز أقامه ، وجعلوا عليها قبــة مكان القبة التى سبقتها والتى لم تقاوم عمل الزمن لأنها كانت من خشب . أمّا فى هذه العمارة فقد بنيت من الحجر الأسود وكملت من الحجر الأبيض .

وبعــد زمن من تمــام بناء الحجرة سقطت الصاعقة التى ذكرنا نبأها فى فصــل المسجد النبوى على مئذنتــه الرئيسية فامتــدّ الحريق إلى المسجد كله . أمّا الحجرة فلم تحترق . على أن هذا الحريق قد ترك أثرا فى القبة إذ تشققت أعاليها . وقد أُعيد بناؤها محكما بعد أن أخذ لها الجبس الأبيض من مصر ، وتم ذلك فى سنة ٨٩٢ هجرية . وكتب على طرازها من الناحية الغربية : ” أنشأ هذه القبة الشريفة العالية المعترف بالتقصير ، الراجى عفو ربه القدير ، قايتباى “ . وبقيت القبــة من ذلك العهد إلى أن جدّدها السلطان محمود بعــد أن هدم أعاليها فى ســنة ١٢٣٣ ، وهو الذى أمر بصبغها باللون الأخضر .

(١) السمهودى : الجزء الأوّل صفحة ٤٤٨ .

ليس يسعنا وقد تحدثنا عن عمارة الحجرة أن نُغفل أمرا حدث أثناء ذلك له بهذه العمارة اتصـال . ذلك ما تذكره الروايات وتنسـبه إلى نور الدين الشهيد محمود بن زَنْكِي الذى كان يحارب الصليبيين فى القرن السادس الهجرى . فقد ذكروا من أنباء سنة ٥٥٧ هـ أنه رأى فى نومه رؤيا أفزعته : رأى النبي صلى الله عليه وسلم يشير إلى رجلين أشقرين وهو يقول : أنْجِدْنى، أنقذنى من هذين! ثم توضأ نور الدين وصلى ونام فرأى ما رأى من قبل وقام فزعا ؛ وتوضأ وصلّى ونام فرأى ذلك مرة ثالثة . وكان له وزير من الصالحين يقال له جمال الدين الموصلى، أرسل فى طلبه وقص عليه ما رأى . قال الوزير : وما قعودك! أُخرج الآن إلى المدينة النبوية وآكتم ما رأيت . وتجهّز الملك بقية ليلته وخرج على رواحل خفيفة ومعه وزيره وعشرون رجلا فوصلوا المدينة فى ستة عشر يوما . وبعد أن اغتسل الملك وتوضأ وصلّى بالروضـة جلس لا يدرى ما يصنع . وآستدعى أهل المدينة وأخبرهم أنه جاء للزيارة ومعه مال كثير للصدقة، وسألهم بعد أن وزّع المـال أبقى أحدٌ لم يأخذ منه حظه ؟ قالوا : لم يبق إلا رجلان مغربيان صالحان غنيّان لا يأخذان من أحد شيئا، ويكثران الصدقة على المحاويج . وجىء بالرجلين فرآهما يشبهان من أشار اليهما النبى صلى الله عليـه وسلم فى المنام .

وتظاهر الرجلان بالصلاح وبأنهما جاءا المدينة يجاوران القبر النبوى . وشهد أهل المدينة بأنهما صائمان الدهر، ملازمان الصلوات فى الروضة ، وزيارة الحجرة كل صلاة، وزيارة البقيع كل يوم بكرة ، وزيارة قُبَاء كل سبت ، وأنهما لا يردّان سائلا . لكن نور الدين لم يطمئن إليهما وذهب إلى بيتهما فرأى فيـه مالا كثيرا . ثم إنه جعل يجوس خلاله إذ رفع حصيرا فيـه فرأى سردابا محفورا متّجها صوب الحجـرة . وارتاع النـاس حين علموا ذلك وأحاطوا بالرجلين لمـا جىء بهـما إلى نور الدين يسائلهما أن يصدُقاه . وضربهما ضربا مبرِّحا فاعترفا بأنهما نصرانيـان بعثهما الصليبيون فى زى حجاج المغاربة وأمالوهما بأموال عظيمة وأمروهما بالتحيل لسرقة جثّة النبي. هنالك أمر نور الدين فضُرِب عنقاهما، ثم أمر بحفر خندق عظيم

حول الحجرة من كل جوانبهـا حتى بلغ الحفر المـاء ، وأمر بإذابة رصاص ملأ به الخندق، فصار منه حول الحجرة إلى المـاء سور متين لا يستطيع أحد اجتيازه .

هذه رواية السمهودى عن هذا البناء . ويروى البتانونى فى الرحلة الحجازية أن نور الدين زنكى بلغه أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة، فأمر بإحاطة الجثة ببناء آخر نزل بأساسه إلى منابع المـاء، ثم صبّ الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تنـال منه يد الزمان . وذكر صاحب مرآة الحرمين مثل هذا . وقد وضع على هذا البناء على ماذكر البتانونى ستر من الحرير الأخضر مكتوب فيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى : "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ" . وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليـه وسلم، ويحيط بهذا الستر المنسدل على بناء الحجرة حزام من الحرير الأحمر مكتوب فيه اسم السلطان الذى أمر بعمل الستر.

وقد تُخَيِّل الطريقة التى سرد بهـا صاحب الرحلة الحجازية نبأ كسوة الحجرة أن لهذه الكسوة آتصالا بمـا صنع نور الدين الشهيد . والواقع أن كسوة الحجرة أقـدم عهـدا من نور الدين ؛ والرحلة الحجـازية نفسها تشير إلى هـذا . فأول من كساها الخَيْزُران أم هارون الرشيد حين حجّت ، كستها الزنانير وشبائك الحرير، ثم كساها ابن أبى الهيجاء وزير ملك مصر الديبـاجَ الأبيض عليه الطُّرُز والجامات المرقومة، وجعل عليها زنارا من الحرير الأحمر كتبت عليه سورة يس . وأرسل المستضىء بعد سنتين من ذلك كسوة من الديبـاج البنفسجى مُطَرَّزًا عليهـا آسمه ووضعت مكان كسوة أبى الهيجاء . وكساها الخليفة الناصر بالديبـاج الأسود . ثم صارت كسـوة الحجرة ترسل من مصر كل ست سنوات، كما كانت ترسل منها كسوة الكعبة كل عام. وكانت هذه الكسوة من الديباج الأسود المرقوم بالحرير الأبيض وعليها طراز منسوج بالذهب والفضة . فلما آستقرت الخلافة فى بنى عثمان بالآستانة صارت كسوة الحجرة ترسل منها كلمـا جلس سلطان على العرش ، وبقيت كسوة الكعبة ترسل من مصر

كل عام . فلمـا انتقضت بلاد العرب على سلطان الأتراك، ثم لمـّا زالت الخلافة بعد ذلك، تولّت حكومة البلاد الإسلامية المقدّسة أمر هذه الكسوة . وقد جرى التقليد من زمان بعيد كلمـا وردت كسوة جديدة أن تقسم القديمة، شأنها فى ذلك شأن كسوة الكعبة .

كنا نودّ أن نقف عنـد ما حدث من التطوّر فى بنـاء الحجرة قبل أن نتنـاول بالحديث أمر كسوتها . فهذا التطوّر أوضح دلالة على تطوّر التفكير الإسلامى مما حدث فى بناء المسجد . أمّا وقد تتبعنا (الرحلة الحجازية) فى استطرادها إلى حديث الكسوة فإنا نؤثر أن نتم أنباء الحجرة بحديث الهبات التى قدّمها الملوك والأثرياء إليها ، والتى تتضاءل الهبات التى قدِّمت إلى المسجد بجانبها . فحديث هذه الهبات يزيد التطوّر الذى حدث فى التفكير الإســلامى وضوحا . ولعله كذلك أبلغ ما يقـال فى نقض ما رواه الحاج عبد الله برخرت السويسرى عن رغبة المسلمين عن التبرُّع لمنشآتهم الدينية إذ قال تعليقا على وصفه الروضة : " إذا ذكرنا أن هذا المكان من أقدس الأماكن فى العـالم الإسلامى كله وأنه اشتهر بروعته ونخامته ونفاسـة حليته ، وأنه زخرف بكل ما اجتمع من هبات الغلاة فى هذا الدين،ازددنا دهشة وعجبا أن يكون ذلك كل مظهره . فهو لا يقاس إلى مثوى بقية من رُفات قديس ، وإن هان شأنه، فى أية كنيسة من كنائس أوربا الكاثوليكية . وهو بهذا ينهض دليلا مقنعا على أن المسلمين لم يساووا المسيحيين الغُلاة فى هبـاتهم الدينية فى أى عهد من العهود . ودع عنك أحوالا كثيرة أخرى تؤيد الاعتقاد بأنه مهما يكن من تعصب المسلمين وأوهامهم فإنهم لم يبدوا قط ميلا إلى البذل والتضحية المـالية من أجل منشآتهـم الدينيـة ، كما يضحِّى الكاثوليك بل كما يضحى المسيحيون البروتستنتيون من أجل منشآتهـــم"[١] .

(١) راجع ما نقلناه من كتاب برخرت " جولات فى بلاد العرب " فى فصل المسجد النبوى ، صـــفحة ٤٤٣

وإنه مع ذلك ليجمل بى قبل تناول هذه الهبات بالحديث أن أشير إلى خلاف وقع بين علماء المسلمين فى عصور مختلفة على جواز تحلية الحجرة بالذهب والجواهر النفيسة ، مع العلم بأنها مكروهة شرعا حلية للأفراد ولمنازلهم وللمساجد . أمّا الذين يقولون بالجواز فيستندون إلى ما كان يوهب للكعبة ، وأن رسول الله لم ينكره ، وأن أبا بكر لم يفكر فى التصرف فيه ، وأن عمر فكر فى ذلك ثم عدل عنه تأسّيا برسول الله . وأمّا الذين يقولون بعدم الجواز فيذكرون حديث النبي لعائشة : " لولا أن قومك حديثو عهد بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ". فهو عليه السلام لم يفعل وما منعه اعتبار من الشرع وإنما منعته اعتبارات السياسة . ويذهب قوم إلى أن المسجد النبوى لا يجوز تحليته بالذهب والفضة أسوة بالمساجد جميعا . ويذهب آخرون إلى أن الحجرة غير المسجد ويبلغون حدّ القول بأنّ المدفن الشريف بالحجرة له شرف على جميع المساجد وعلى الكعبة ؛ فلا يلزم من المنع فى المساجد والكعبة المنع هنا[1] ! . وقد كان لهذا الخلاف أثره فى الهبات ونوعها فى القرون الأولى من الإسلام ، وله اليوم أثره والمجاز فى حكم الوهابيين ؛ أما ما بين ذلك فقد بلغ التفانى فى الهبات حدًّا سترى شيئا منه فيما نقصّ الآن عليك ، وسترى منه مبلغ خطأ الحاج عبد الله بُرْخَرْت .

فقد ظلّت الحجرة وليس بها من الزينة إلا دفن الرسول وصاحبيه بها إلى أن ضُمّت للمسجد فى سنة ثمان وثمانين للهجرة ، ثم بقيت وليس بها إلا هذه الزينة ومن حولها زخرف البناء البديع بعد أن ضمت للمسجد وبناها عمر بن عبد العزيز بالحجارة السود القوية زمنا طويلا . بعد ذلك أَلِف الناس أن يروا قناديل الذهب والفضة المعلّقة حول الحجرة ؛ وفى ذلك يقول السمهودى ما نصه : " لم أر فى كلام أحد ذكر ابتداء حدوث ذلك إلا أن ابن النجار قال ما لفظه : « وفى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزوّار إذا وقفوا معلّق نيف وأربعون قنديلا كبارا

(١) السمهودى : وفاء الوفا . الجزء الأوّل صفحة ٤٢٥ .

وصغارا من الفضة المنقوشة والسادة وفيها اثنان بلور وواحد ذهب وفيها قمر من فضة مغموس فى الذهب وهـذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال »" . وقد بقيت القناديل ومعاليقها ترسل إلى الحجرة أجيالا متعاقبة حتى بلغ من كثرتها أن رفع خدم المسجد بعضها ووضعوه بالقبة التى فى صحن المسجد حتى اجتمع فيها منه شىء كثير . وظل الأمر كذلك إلى أن كان القرن التاسع الهجرى إذ كان جَمَّاز بن هِبَة أمير المدينة عام ٨١١ هجرية . فى هذا الحين صدرت المراسيم بتولية ثابت بن نُعَير إمرة المدينة وأن يكون أمر الحجاز لحسن بن عجلان . ومات ثابت قبل توليته وشعر جماز بأن الأمر يفـر من يده فأعلن العصيان ، وأباح نهب بعض بيوت المدينـة ، وأهان شيخ خدام الحرم ورفع عليه وعلى من معه السيف ، وكسر باب القبة وأخذ جميع مافيها من قناديل الذهب والفضـة التى اجتمعت على تعاقب السنين من جميع الآفاق وفر بها ثم أخفاها وقتل . وقد وضع بعض علماء ذلك العصر قائمة بما نهبه جماز جاء فيها أن وزن ما كان بالحجرة من قناديل الذهب تسعة قناطير . وقد شجع جماز هذا غيره من المعتدين ، فأخذ الأمير غُرَير بن هيازع ابن هبـة الحسينى الجمازى جانبا مما وضع بالقبة زنتـه سبعة عشر ومائة رطل من الفضـة زاعما أنه على سبيل القرض ثم فر به الى القاهرة حيث مات مسـجونا . وفى آخر سنة ستين وثمانمائة عدا عليها بُرغوث ابن بُتَير بن جُريس الحسينى إذ تسوّر جدار المسجد ودخل بين سقفيه ونهب منه ما استطاع فى ليال متكررة .

على أن ما حدث من ذلك لم يصرف المؤمنين عن إرسال الهـدايا من الذهب والفضة من جميع أقطار العالم الاسلامى .

ولما آل الأمر الى بنى عثمان زادت هذه الهدايا نفاسة وقيمة . يقول البتانونى فى "الرحلة الحجازية" : "فى مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر من الماس البرلنتى فى حجم بيضـة الحمام الصغيرة ، يحيـط به إطار من الذهب المرصع ويقدرون ثمنه فى ذاته بثمانمائة ألف جنيه ، أما فى شرف نسبته الى الحجرة النبوية

فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن ، ويسمونه بالكوكب الدرّىّ لشدّة تألّقه وعظيم سنائه وبهائه . وهو مثبت فى لوحة من الذهب ، ورصع محيطه بمائتين وسبع وعشرين قطعة من الجواهر الثمنية . وهذا الكوكب أهداه للحجرة الشريفة السلطان أحمد خان الأوّل ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان فى مبادئ القرن الحادى عشر الهجرى . وقد علّق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر ، فى وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرى ، أهداه إليه السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الأوّل فى سنة سبع وأربعين وألف للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جدا بحجارة الماس البيرلانتى : لااله الاالله محمد رسول الله ، أهدته اليها صاحبة السمو والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة ألف ومائتين وإحدى وتسعين هجرية . وفى هذه الحجرة الشريفة غير هذا كثير من الجواهر الفاخرة التى لا تقدّر بثمن . منها قطعة كبيرة على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة فاطمة الزهراء " . وبعد أن ذكر البتانونى ما هنالك من نفائس أخرى كمصاحف مجوهرة وشمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ومكانس من اللؤلؤ قال : " وبالجملة فقد قدّر ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات " .

لم تبق هذه النفائس اليوم بالحجرة . وليس يرجع ذلك الى ما أخذه الوهابيون منها فى غزوتهم الأولى للحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر المسيحى . فقد ردّ محمد على باشا والى مصر الشيء الكثير مما أخذوا ، وبقيت هذه النفائس التى ذكرها البتانونى ، والتى رآها فى أوّل العقد الثانى لهذا القرن العشرين . فلما كانت الحرب الكبرى وثار العرب بسلطان آل عثمان نقل الأتراك الكوكب الدرى وقطعة الماس التى كانت معلّقة تحته وأنفس نفائس الحجرة الى الآستانة ولم تُردّ الى الآن .

كنت واقفا أمام الحجرة يوما وأحد أصحابى يقص علىّ نبأ هذه النفائس وما سلب منها ويبدى لذلك أسفا ولوعة . وأطرقت مليًّا أسمع له ، فلما أتم

حديثـه قلت : وهل أغنت هذه النفائس قبر النبيّ الكريم شيئا؟ ونظر إلىّ الرجل بعينين واسعتين فتحهما وكأنما ملئتا مما أقول عجبا . ولم يصدّقنى عجبه ولا صدّتنى نظرته عن الاستطراد فى بيان فكرتى فأردفت : "ماكان قبر محمد النبيّ العربيّ بحاجة الى جواهر تضىء جوانبـه وهو مضىء بالحقيقة العليا التى جاء بها صاحبـه من عند الله هدى للناس ونورا . وليس البهرج الذى يُخدع الناس به هو العبرة التى تلتمس فى هذه الحجرة . وما سلب من جواهرها ولآلئها إنمـا سلب يوم أراد الله لدينه أن يعود فيملأ النفوس سموًّا على كل زينـة وبهرج؛ وإنمـا العبرة الكبرى التى تملأ النفوس رهبـة وجلالا ، ويخشـع أمامها القلب مهابة وإكبارا ، فتلك ما تحدّث هذه الحجرة عنه من سيرة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصـلاة والسلام، ومن سيرة صاحبيه ووزيريه وخليفتيه أبى بكروعمر . ومن وقف أمام الحجرة وشُغِل عن سيرة صاحب الرسالة وبلاغه إياها الناس ، وعن سيرة صاحبيه وجهادهما فى سبيل الله لِيُظِلَّ لواءُ الإسـلام العالم كله ، وكان شـغله عن ذلك بزخرف البناء وماكان فيها من تحف وجواهر ، فقد فاتتـه العبرة ولم يبلغ من زيارة قبر الرسول ما يجب أن يجعله كل مسلم غايته من هذه الزيارة" .

وخلوت يوما الى نفسى، وعدت أفكر فى هذه الجواهر وفى إهداء أصحابها إياها الى الحجرة وفى قوله عليـه السلام لعائشـة : " لولا أن قومك حديثو عهـد بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله " . أترى المسلمين اليوم ما يزالون حديثى عهـد بكفر فلا يُنفق أحد كنز الحجـرة فى سبيل الله ! أوَ ليس إنفاقه فى هـذه السبيل الكريمة خيرا من تركه تعدو عليه الأيدى ولا يفيد منه أحد شيئا ! إن الذين وهبوه للحجرة التماسا للقربى قد بلغوا من هبتهم غايتهم . فَحَسْبُ المرء أن ينفِّذ صادقا ما نواه مخلصا لتتم له نيّته . فاذا خرج عمله أو ماله من يده وأصبح ملكا عاما فقد أصبح حقا لبيت مال المسلمين، يتصرّف فيه صاحب الأمر ما يتصرّف فى بيت مال المسلمين : يجعل منه للحجرة وزينتها ما يتفق مع كتاب الله وسنّة رسوله وإجماع المسلمين، ويُنفق سائره فى سبيل الله .

ولو عُرِض الكوكب الدرى بعد أن بقى فى الحجرة النبوية زمنًا ليحوزه من يقدِر على ثمنه لأقبل أصحاب الملايين من أمراء الهند وغيرهم يتنافسون فى اقتنائه ويبذلون فيه أضعاف قيمته . و يومئذ يُنفق هذا المال فى سبيل الله تيسيرا للحج أو إعلاء لكلمة الله و رفعًا لمنار الاسلام . وما كان لأحد أن يغضب لذلك بعد إذ تكرر الاعتداء على نفائس الحجرة فسُلِبت غير مرة . هذا وما دار بخَلَد النبى عليه السلام أن يكون قبره يوما من الأيام متحفا للجواهر ، وهو الذى نهى عن التحلى بالجواهر ، وهو الذى أراد أن يُنفق كنز الكعبة فى سبيل الله . لكن قوما رأوا هذه الهبات وقفًا على الحجرة لا يجوز التصرف فيها بحال . فشرط الواقف عندهم كنص الشارع . وليس يجوز فى رأيهم صرف شىء من قناديل الحجرة فى عمارتها وعمارة المسجد . وعند كثيرين أن هذا غلوٌّ فى تقديس إرادة الفرد بعد موته ، والشرع الإسلامى الحنيف لا يجيز إرادة الانسان إلا فى حدود حياته .

ومهما يكن الرأى فى ذلك كله فهذه الهبات أوضح شاهد على تطوُّر التفكير الإسلامى الى ناحية الأثَرَة ، مع أن كتاب الله وأسوة رسوله كلاهما الدعوة الخالصة للإيثار . وماذا يبتغى من يهب القناديل أو الجواهر للحجرة؟ إنه لا يريد بذلك سدّ حاجة للمسلمين . وآية ذلك أن القناديل كانت تبلغ من الكثرة أنْ تخزن قناطير الذهب منها فى القبة التى تتوسّط المسجد، وأنّ إضاءة الحجرة لا تقتضى هذا الذهب ولا هذه النفائس . إنما يهب الواهبون يبتغون القربى الى رسول الله وشفاعته لهم عند ربه . هم لا يفكرون فى المسلمين ولا فى أُخوّتهم ومحبتهم حين يفتنّون فى زخرف هذه الهبات وإنما يفكرون فى أنفسهم . وكم من ملك أو أمير وهب النفائس ثم لم يصرفه ما وهب عن الاستبداد بغيره وابتزاز حقه والطمع فى ماله ، والطمع مع ذلك فى شفاعة رسول الله من أجل ما قدّم من قناديل الذهب أو نفيس الجوهر ! هذه عقيدة تدهور اليها المسلمون مذ نسوا أن المرء مجزىٌّ بعمله ، وأن قيمة العمل بالنية التى تبعث عليه ، وأن هذا العمل أقرب الى الله ما كان البِرَّ والتقوى والجهادَ فى سبيل الله .

عدت الى التفكير فى هذا التطوّر يوما إذ كنت بموقفى من الحجرة أستعيد أمام ذهنى هذه الصورة الأخّاذة بالنفس لأيام مرض الرسول ووفاته ودفنه . فقد أقبل رجل مندفعا نحو الحجرة كأنما أراد أن يُلقى بنفسه على أبوابها وأن يقبِّل أعتابها . ودهشت لمرآه فى اندفاعه بعد إذ حالت حكومة الوهابيين بين زوّار الحجرة وما وراء السلام على ساكنها عليه السلام، ومَنَعت أن يقبِّل الناس الأعتاب أو أن يتمسّحوا بالمقصورة كما كانوا يفعلون من قبل، لما تراه فى هذه الأعمال من مخالفة قواعد الاسلام الصحيح . دهشت حين رأيت هذا الرجل فى تحمُّسه وفى اندفاعه وأيقنت أن خدّام الحجرة لا ريب مانعوه من غرضه . لكن الرجل لم يُلق بنفسه الى الأرض ولم يقبِّل الأعتاب، بل اندفع يدعو ويبتهل ويستغفر، ويطلب الى رسول الله الشفاعة يوم الحساب . وكان يطلب ذلك فى صوت مسموع وفى ضراعة وإنابة انهمل لها دمعه وفاضت معهما عبراته . فلمّا فرغ من دعائه وتضرُّعه وابتهاله اقترب منه رجل يقول له : ألم تقرأ قوله تعالى ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ؟ أولست تعرف أن الحسنات يذهبن السيئات ؟ فعليك بالحسنات يغفر لك الله من ذنوبك وتكن أعمالك خير شفيع لك . ووقف المستشفع مأخوذا لأنه لم يكن يتوقّع أن يسمع ما سمع ؛ لكنه مع ذلك صاح حين أتم صاحبه كلامه : الشفاعة يا رسول الله! وانطلق إلى الروضة النبوية يلتمس أقرب مكان من منبر الرسول .

عدت إلى التفكير فى تطوُّر النفسية الإسلامية على أثر هذا المشهد . قلت فى نفسى : ألَا يغلو الذين يحولون بين زائر الحجرة وماسوى السلام على نبي الله ورسوله غلوّ الذين يتمرّغون على أعتاب المقصورة يلتمسون العفو والمغفره؟ إن هذا الموقف ليبعث فى النفس من العبرة والذكرى ويثير فيها من معانى الحكمة العليا ومن أسباب الأسوة الحسنة ما لا يثيره موقف سواه . إننا نقف أمام قبور العظماء من فلاسفة وقوّاد وملوك وكتّاب وحكماء فتحدِّثنا صفائحها بأبلغ ما تحدِّثنا عنه أكثر الكتب بلاغة وأدقّها منطقا . مابالك بهذا الموقف أمام قبر النبي العربي ومايبعثه إلى النفس من دواعى الحكمة والإيمان وحسن الرأى وجميل الأسوة! حَسْبُك أنه منارة الهدى

إلى التوحيد فى قوة بساطته وصفاء جوهره، وإلى الإيمان بهذا التوحيد عن معرفة وبصيرة، وإلى سلوك سبيل العلم لبلوغ أسمى مراتب الإيمان بملاحظة خلق الله واستنباط سنته جل شأنه فى الكون، ليكون لهذه الوقفة أمام الحجرة أبلغ الأثر فى الحياة، أثرٍ يجعلنا نسمو بأنفسنا فوق الزائل من المنافع العاجلة لهذه الحياة الدنيا لنحدّق فى الوجود وجها لوجه نبتغى فيه آية الله ونرى خلالَه أسرار عظمته جلّ شأنه. أليس غلوًّا أن نمنع الناس من هذه الوقفة مخافة أن يغلوا فى تقديس هذا القبر إلى حد العبادة! والذين يعبدون القبر أو صاحب القبر هم غُلاة كذلك ينكرون تعاليم صاحبه وما جاء به من عند الله فيشوبون صفاء التوحيد بما يصنعون، ويشوّهون جلاله بما لا يرضى الله ورسوله، تعالى الله عما يصفون.

ومثلت أمام ذهنى صورة هذا الرسول الكريم يوم دُفن بهذه الحجرة، فرأيته فى أكفانه، ورأيت أبواب هذه الحجرة تفتح للمسلمين من ناحية المسجد فيدخلون فيُلقون على نبيهم نظرة الوداع ويصلّون عليه. هذا أبو بكر وهذا عمر يدخلان وقد امتلأت الحجرة بالمسلمين وهم يصلّون صلاة الجنازة كما كان يصلّيها رسول الله على موتاهم، لا يؤمّهم فى صلاتهم أحد. ويتمّ القوم جميعا صلاتهم ويقفون صموتا كأن على رءوسهم الطير حتى يسمعوا أبا بكر يقول: "السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته! نشهد أن نبى الله ورسوله قد بلّغ رسالة ربه وجاهد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه، وأنه وفى بوعده وأمر ألّا نعبد إلا الله وحده لا شريك له". وأبو بكر يتلو هذا السلام جملة جملة، والمسلمون يجيبون عند كل جملة آمين! آمين! فى هيبة وخشوع. ويفرغ الرجال من صلاتهم ويدخل النساء ثم الصبيان من بعدهم. وهؤلاء وأولئك جميعا كلٌّ واجف قلبه محزون فؤاده يفرِى الأسى كبده لفراق رسول الله خاتم النبيين ويساوره على دين الله أشد الخشية من بعده.

ترى كيف كان دفن أبى بكر إلى جانب النبى، وكيف كان دفن عمر إلى جانب أبى بكر؟ لقد مات أبو بكر فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى للسنة الثالثة

عشرة من الهجرة ، فتولّت غسله ابنته أسماء يعاونها ابنه عبد الرحمن إجابة لرغبته قُبَيل وفاته . ثم إنه كفِّن فى الأثواب التى مات فيها ، لأنه أبى أن يكفَّن فى جديد من الثياب ، فالثياب الجديدة تنفع الحىّ . ونقله الصحابة من بيته إلى بيت ابنته عائشة ، وصلّى عليه عمر والمسلمون من حوله ، ودفن إلى جوار رسول الله ، رأسه عند منكبى صاحب الرسالة . ولقد مات عمر فى السادس والعشرين من ذى الحجة فى السنة السادسة والعشرين من الهجرة ؛ فتولّى صُهَيْب والصحابة نقله من داره إلى دار عائشة حيث دفن فى جوار صاحبيه ، ورأسه إلى منكبى أبى بكر ، فصلّى صُهَيْب عليه وأنزل عبد الله بن عمر جثمانه إلى مقرّه الأخير .

ما أبلغ العبرة فى دفن خليفتى رسول الله الأولين فى حجرته ! وأول ما يدل ذلك عليه إجماع المسلمين على أنهما تأسّيا بالرسول وسارا على نهجه وسنّته ، فحق لهما أن يكونا فى جواره . وهما قد سارا على نهج الرسول وسنّته فى سياسة المسلمين ، فنسى كل منهما نفسه وجعل وحدة المسلمين وعظمة الإسلام والجهاد فى سبيل الله غرضه . لم يفكر أحد منهما حين خلافته فى مال أو جاه أو سلطان يكون له أو لذويه وأهله ، بل رأى فيما ولى من أمر المسلمين عبئا وواجبا ألقاه الله على عاتقه ؛ فكان كل همه ألا نعلق به فيما ولى من ذلك ريبة من الناس ولا من نفسه ، وأن يؤدّى فى ولايته لكل مسلم حقه . كان الفقر فخر كل منهما كما كان فخر صاحب الرسالة . وكانت التقوى لباسهما ويجب أن تكون لباس كل مؤمن . وكان الحرص على رضا الله بطاعته غاية رجائهما . بذلك استقر الإسلام بعد أن قمع أبو بكر كل من حدّثته نفسه بالخروج عليه ، ثم مدّ عمر راية الإيمان على بلاد الروم والفرس بعد أن حسب الروم والفرس أن الله أورثهم إياها إلى يوم الدين ، ونسوا أن الله إنما يورث الأرض من يشاء من عباده الصالحين .

بهذا سما أبو بكر وسما عمر ، فحق لهما أن يجاورا رسول الله فى جوار الله ، فكانت للمؤمنين فى ذلك عبرة أن من أطاع الله ورسوله وجاهد فى سبيله التماسا للمثل الأعلى

كان جديرا أن يسمو إلى مكانة المقربين وأن يرقد رقدته الأخيرة فى جوارهم . لقد سأل الوليد بن عبد الملك عن قبر عثمان يوم زار المدينة بعد أن ضمت الحجرة إلى المسجد فقيل له : "إنه مات فى فتنة" ولولا ذلك لدفن فى الحجرة كما دفن أبو بكر وعمر . وقد يكون عجيبا ألا ترى عائشة دفنه بها وقد كانت مع معاوية بين المطالبين بدمه . ولكن لا عجب . فلم يُجمِع المسلمون على تأسِّى عثمان بالرسول ما أجمعوا على تأسِّى الخليفتين الأوَّلين به ، ولم يتخذ عثمان من سنّة رسول الله سنّته ما اتخذها صاحباه . ولو أنه فعل لسما سموّهما ولحقّ له أن يرقد معهما فى جوار رسول الله .

وما كان المسلمون ليأبوا عليه ذلك يومئذ لو أنهم أقاموا على سنّة الرسول يؤثرون على أنفسهم ، ويحرصون على العدل ولا يميل بهم الهوى . لكن سيرة الرسول تقتضى من يبتغى الأسوة فيها مجهودا إنسانيا كبيرا . تقتضيه أن يسمو على المادة ، وأن يمحو من آثارها كل ما يغشى ضياء الروح ، وأن يعالج ذلك بالمعرفة والعلم ، وأن يثابر فى هذه السبيل غير وانٍ ولا قانع . فالقناعة فضيلة فى طلب المادّة ، والوَنا دون الطمع فى هذا الطلب خير . لكن أجواء السموّ الروحى لا حدود لها ؛ ودوام السموّ فيها يقتضينا ألّا نقنع بما بلغنا وألّا نَنى عن مواصلة الجهد لبلوغ غاية ما نستطيعه منه . وهذا ماشُغِل المسلمون عنه من عهد عثمان بما شجَر بينهم من خلاف .

اللّهم إنى أضرع إليك أن تهيِّئ لى وللمؤمنين فى هذا السبيل ، سبيل السموّ الروحى ، ماهيأت لمن ارتضيت من عبادك ، وأن تيسِّر لنا اتِّباع رسولك الكريم ؛ نتأسّى به ، ونتّبع سنّته ، ونسير فى خُطاه ! اللّهم إن هذه الحجرة التى أقف أمامها ألتمس فيها المثل والعبرة لتلهمنى من ذلك ما أرجو أن تهدينى صراطه ، فهو صراطك المستقيم ! اللهم بك العون فأعِنِّى ، ومنك الرضا فارضَ عنى ! ربنا لا تحمِّلنى ولا تحمِّل إخوانى المؤمنين ما لا طاقة لنا به ! ربَّنا واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا وأنت نعم المولى ونعم النصير ! .

ظاهر المدينـــة

عُدْ بذاكرتك إلى اليوم الثامن والعشرين من شهر يونيه سنة ٦٢٢ م . ففى ذلك اليوم كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم قد بلغ من هجرته أن أصبح على أبواب يثرب لم يبق بينه وبينها غير ثلاثة فراسخ . أفيدخلها وليس يعلم ما أعده أهلها لمقدمه، وهو بعدُ متعب كصاحبه ودليله بعد إذ قضوا ثمـانية أيام يحفّ بهم الخطر أثنـاء مسيرهم فى الصحراء خلا ثلاثة الأيام التى قضاها مع أبى بكر فى غار ثور ؟ أيستريح إلى ظلّ جبل عَيْر الذى يفصل بين البادية وبينها ؟ هـذا بُرَيْدَةُ شيخ قبيلة بنى سهم قد جاء يحيّيه ويذكر له أن أهل يثرب على أحرّ من الجمر فى انتظاره، وأنهم يخرجون إلى أعالى الجبال والحِرار كل يوم يتلمسونه بظاهر مدينتهم حتى تغلبهـم الشمس على الظلال فى هذه الأيام التى بلغ فيها القيظ حَمَارَّته . خير له مع ذلك أن يعدل الى قُبَـاء على فرسخين من يثرب حتى يرى ما الله صانع به، وحتى يستطلع بنفسه جلية الأمر فيما هو مقبل عليه .

وتخطّى الرجال الثـلاثة جبل عير على رواحلهم فى موضع تستـطيع الإبل أن تخطاه . فلمّـا بلغوا ذروته وتنسّموا نسيم أعاليــه انكشف أمامهم سفحه المواجه يثرب ، وامتدّت أمام أبصارهم جنّات النخيــل والبساتين ذات الرواء والبهجة . ما أكرمك ربى ! أية طمأنينة يبعثها هــذا المنظر الساحر لنفوس أجهدتهـا المشقة وقلوب لولا يقينُهـا أن الله معها لانقبضت من الفزع طول هذه الرحلة! . هـذا وادى العقيق عن يسارَ عَيْرٍ تبدو فيه أمام النظر منازل هى للنظر أنس وسكينة ، وتفصل بينه وبين يثرب حَرّة الوبرة . وهذه حَرّة راقم عن اليمين تفصل بين يثرب والعُرَيْض، وتقوم منازل بنى قُرَيْظة وبنى النَّضِير أسفلها . وهذه قُبَاء على مقربة من سفح عَيْرٍ تحيط بهـا البساتين تجرى خلالها الميـاه متفجرة من الآبار فتزيدها رواء وبهجة . وأنِس الرسول إلى هذا المنظر وودّ لو يطيل المكث فوق الجبل لولا حرصه

على أن يتحرّى أنباء بُرَيْدَة وأن يعرف مبلغ الحق فيها . وانحرف القوم عن غير متجهين إلى قُبَاء، فلما بلغوها ألفَوْا عددا غير قليل من المسلمين أسرعوا إليها يستقبلون نبيّ الله ورسوله وكلهم النشوة والجذل . لقد انتظروه يومَهم هذا كما انتظروه فى الأيام التى سبقت، فلما غلبهم القيظ عادوا إلى منازلهم . وإنهم لكذلك إذ سمعوا يهوديا على أُطُم له يصيح بهم : يابنى قيلة هذا صاحبكم قد جاء . إذ ذاك أسرعوا إليه يسألونه : أين رآه ؟ فأشار إلى ناحية قُبَاء . وحثّ القوم إليها المسير حتى بلغوها قبل أن يبلغها محمد وأبو بكر . فلما رأوهما أحاطوا بهما إلى دار كُلْثوم بن الهِدْم إذ نزل رسول الله كما نزل بها قبله كثيرون من المسلمين الذين سبقوه إلى الهجرة من مكة . ولما استقرّ به المقام ذهب أبو بكر إلى السُّنْح على مقربة من قُبَاء فنزل بدار خارجة أحد زعماء الأوس . وفى قُباء قضى رسول الله أربعة أيام يقيم الليل بدار كلثوم ويجلس معظم النهار بدار سعد بن خَيْثَمة الأوسىّ، فيستقبل أنصار الله بيثرب يسألهم عن حالها ويفكر وإياهم فى الانتقال إليها . وبينما هو فى قُباء بلغها علىّ بن أبى طالب قادما من مكة بعد أن أدّى إلى أهلها ما كان لهم عند ابن عمه من ودائع . وفى أربعة الأيام التى أقامها النبيّ بقُباء بنى مسجدها، وكان يعمل فيه بيده ويشاركه المسلمون . فلما اطمأن إلى أنباء يثرب دخلها وأهلها فى لهفة وشوق لرؤيته بينهم، ودخلها على النحو الذى تعرفه والذى قصصته عليك فى فصل (آثار المدينة) .

هذا المسجد الذى بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقُباء هو أوّل بناء أقيم فى الإسلام ليكون مسجدا . ولذلك اتفق جمهور المفسرين على أنه المسجد المقصود بقوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾، وإن ذكر بعضهم أن هذه الآية تتناول كذلك مسجد المدينة ، واستند إلى أحاديث رواها تؤيد رأيه . وأوّلية هذا المسجد فى الإسلام وقيامه بقُباء أوّل منزل للنبى بعد هجرته من مكة يجعل لضاحية قُباء ولمسجدها من المكانة فى نفوس المسلمين ما يجعل زيارتها مستحبة يوم السبت من كل أسبوع . وكان الناس من أهل المدينة وزوّارها يقومون بهذه

الزيارة منذ قرون ، وما زالوا كذلك يفعلون . وهم كانوا لا ريب ولن يزالوا يفعلونه تبرّكا بالمسجد والآثار النبوية التى به أو التماسا للعبرة فى آثاره .

والأثر النبوىّ الذى يذكرونه فى مسجد قُباء ولا يختلفون عليه هو مَبْرَك الناقة . فالمتواتر أن هذا المسجد أقيم حيث بركت ناقة النبي أوّل ما بلغ قباء، والراجح أن يكون هـذا صحيحا . ومؤرخو المدينة متفقون على أن دار كلثوم بن الهِدْم التى كانت منزل الرسول ودار سعد بن خَيْثَمة التى كانت مجلسه كانتا تجاوران المسجد ، وكانت الداران موجودتين ومعروفتين فى عهـد المطرىّ فى القرن الثامن والسمهودىّ فى القرن التاسع . ويذهب الأستاذ عبد القدّوس الأنصارى فى تعليل زوالهما وعفاء آثارهما الآن إلى أنهما بنيتا قبّتين إشادةً بهما وإبقاء لذكرهما، وأنهما كانتا تقومان حيث تقوم القبّتان البَيْضيّتان الواقعتان اليـوم على آثنى عشر مترا من جنوب المسجد . ورقعة المسجد كانت فضاء مجاورا لدار كلثوم بن الهدم مملوكا له ، وكان قد جعله مِرْبَدًا يجفف فيه التمر، فأخذه رسول الله وبنى به هذا المسجد الذى أُسّس على التقوى من أوّل يوم، والذى ظل رسول الله يذهب إليه طول مُقـامه بالمدينة يذكر فيه هجرته وبلوغه منها مأمنه، ويذكر فيـه دخول يثرب ونصر الله إياه فيها وإعلاء كلمة الله بانتشار الإسلام بين أهلها .

زرت قُبـاء صبح السبت الثـامن والعشرين من شهر مارس فى صحبـة بينهم الأستاذ عبد القدّوس الأنصارى . وإن السيارة لتجرى بنا فى طريق واسع مستو إذ قال عبد القدّوس : هذا طريق استحدثه فخرى باشا عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٥ م) لكنه سدّ بعد الغزوة الوهابية وظل مسدودا حتى اشتراه أمير المدينة اليوم عبد العزيز ابن ابراهيم فوقفه طريقا لقُباء . أمّا قبل ذلك فكان طريقها معوجّا يتعرج من الشرق إلى الغرب وتحيط به نخيل صغار كثيرا ما اختبأ فيها الأشرار فآذوا سالكيه . وأغلب الظن أن يكون رسول الله قد سلك هذا الطريق المتعرّج بين قباء والمدينة وأن يكون قد استمتع بجمال نضرته ومرأى المياه الجارية خلاله وبهوائه العذب الرقيق .

وبلغنا قباء ونزلنا أمام المسجد . ما أفسح رقعته ! فهو مربّع ضلعه أربعون مترا . وما أعلى جدرانه وأمتنها ! . فهى تعلو الأرض قُرابة ستة أمتار ، وتدعمها دعائم مبنية وراءها تزيدها قوة . وتخطّينا باب المسجد فإذا صحن مكشوف فُرِش بالحصباء تتوسّطه قبة يقابلها محراب قيل إنها أُقيمت حيث بركت ناقة النبي ، ويسمونها لذلك مَبْرَك الناقة . وزوّار المسجد يقفون عندها يعيدون من الأدعية ما يتلوه (المزوّرون) عليهم . وفى جانب من الصحن بئر تنسب لأبى أيوب الأنصارى لم أعرف لنسبتها له سببا مذكورا فى التاريخ وإن روى عنها المزوّرون الروايات المختلفة . وعلى يمين الداخل من الباب جانب مسقوف ممتد طولَ ضلع المسجد ويزيد عَرْضه على عشرة أمتار . فى هذا الجانب يقيم الناس الصلاة ، وفيه تقوم عمد وقِباب ويفرشه حصير نظيف ويتوسّطه محراب هو قبلة المصلّين . وفى نهاية الجدار الذى يقوم فيه هذا المحراب محراب آخر يقال له طاقة الكشف . والمزوّرون يذكرون أن النبى رأى الكعبة من موضعه . وهذا قول يُنكره الحس وبين قباء والكعبة أكثر من ثلاثمائة ميل . ولذلك يقول صاحب (مرآة الحرمين) : "وفى المسجد موضع يقال إنه طاقة الكشف يزوره الناس ولا أدرى كشف أىّ شىء" .

ليس يشبه هذا البناء الذى نراه اليوم ذلك المسجد الذى بناه الرسول بقُباء . فقد كان ذلك المسجد الأوّل من اللَّبِن والجريد . فلما كانت خلافة عثمان بن عفّان جدّده وزاد فيه على نحو ما جدّد المسجد النبوى وزاد فيه . وكما هدم عمر بن عبد العزيز المسجد النبوى وشيّده بناءً بالغا غاية الروعة ، هدم كذلك مسجد قباء ووسّعه وبالغ فى تنميقه وأقام له مئذنة وجعل له رحبة وأروقة . وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة عمّره أبو يَعْلَى الحسينى وكتب على حجر يوجد اليوم فوق محراب طاقة الكشف « بسم الله الرحمن الرحيم . إنّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ... الآية . أمر بعمارة مسجد قباء الشريف أبو يعلى أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن رضى الله عنه ابتغاء ثواب الله وجزيل عطائه فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة » . وأحدث عمارة فى هذا المسجد

أجراها السلطان محمود الثانى سنة ألف ومائتين وخمس وأربعين ونُقش تاريخها فى حجر لا يزال على بابه .

على مقربة من المسجد مقبرة يزعمون أن مسجد الضِرار الذى ورد ذكره فى القرآن كان يقوم موضعها، ويذكرون أنها اليوم مقبرة الشِّيعة والرافضة والنخاولة. ونسبة مسجد الضِّرار الى هذا المكان وَهَمَ . وحَسْبُك أن تعلم أن مسجد الضرار الذى أحرقه رسول الله كان بذى أَوَان شمال المدينة، وأن قُباء فى أقصى جنوبها، لتدفع هذا الوهم .

قلّ من يُعْنَى بهذه المقبرة وما يروى عنها ؛ وإنما يُعْنَى الزائرون ببناء مظلم يجاور مسجد قُباء ويسميه بعضهم مسجد على، ويروى الأكثرون أنه دار زوجه فاطمة ابنة الرسول، ويزيرون الناس حجرًا فى داخله يقولون إنه الرحا التى كانت فاطمة تطحن بها الحنطة . وليس لهذا الكلام سند من الثبوت العلمى وإن كان فى روايته من الخير أنه يعلّم الناس شرف العمل اليدوىّ وخدمة المرء نفسه والمرأةِ بيتَها .

فأمّا الأثر الثابت بقُباء ثبوت المسجد، والذى يسترعى لذلك الانتباه والعناية ، فبئر أَرِيس ومنبع العين الزرقاء . وهما يقعان قُبالة باب المسجد وعلى مقربة منه، ويلفتان مثله نظر الباحث المحقق كما يلفتان نظر الزائر المتبرك . فأنت ترى أمامك قبة تحسبها مزار ولىّ أو صحابىّ، وتعجب كيف لم يهدِمها الوهّابيون؛ ثم تسمع حين تسأل عنها أنها قائمة على بئر أريس، وترى الى جانبها قُبة أخرى ذات محراب بها طاقة تطلّ على البئر ويستقى منها . فماء البئر عذب سائغ، والزائرون يشربونه تبركا لما يقال لهم من أنه كان أَجاجا فتفَل النبى فيه فعَذُب . وهذه رواية لم يُثبتها ثِقات المحدِّثين، ونفاها نقّاد الحديث ولم يتجاوز عنها إلا أقلّهم .

ولهذا القول الضعيف تسمّى بئرُ أريس بئر التَّفْلة. وهى تسمّى كذلك بئر الخاتم لما يقال من أن خاتم رسول الله سقط فيها . ورواية سقوط الخاتم ليست منسوبة

إلى النبي . فقد بقي هـذا الخاتم فى حياته وطول خلافة أبى بكر وعمر . وفى السـنة السادسة من خلافة عثمان سقط الخاتم من يده فى هذه البئر ، بئر أريس ، وعبثا بحث الباحثون عنه لاستخراجه منها .

وقد أضيفت بئر أريس بعد ذلك إلى العين الزرقاء الواقعة فى جوارها كما أضيفت إليها بئر الرباط وبئر بويرة . ومياه الآبار تُحْدث حين انحدارها فى العين الزرقاء دويًّا كدوىّ الشلّالات ، ولذلك يسميها أهل المدينة شلّالات العين الزرقاء .

هذه هى البقعة التى نزل بها رسول الله أول ما بلغ يثرب حين مُهَاجَره من مكة . وتحيط بها إلى مرمى النظـر من كل جانب طبيعـة متفاوتة الألوان تصف ظاهر المدينة وتعيد إلى الذاكرة صورة من تفاوت حظها . ذكرنا ما يراه القائم بأعلى عَيْر من هذا المحيط إذ يرى يثرب أمامه ووادى العقيق إلى يساره ممتـدا غرب المدينة فيما وراء حَرّة الوَبَرة إلى ما بعد بئر رُومة فى شمالها ، والعُرَيْض وعوالى المدينة إلى يمينه من شرق حَرّة واقم ، وهناك فى الشمال من أقصى المدينـة أُحُد . وتبدو هـذه الأودية منحدرة من الجنوب إلى الشمال تسيل فى انحدارها مياه الأمطار فتجعل منها جنـات ذات زرع زاهى الخضرة وبسـاتين تنبت من الفاكهة مالذّ وطاب ، إلا التفاح والكُمَّثرى مما لا يجود فى البلاد الحارّة . لقد كان وادى العقيق حتى هاجر رسول الله الى المدينة ممرعا بالمزارع ذات البهجة ، فلما انتشر الإسلام وآمتدّ لواء عاصمته الى مصر والروم والفرس وانهالت الأموال الى المدينـة أصبح العقيق قصورا كله ، يفاخر فى تَرَف الحضارة قصور بزنطية ورُومِيَة . ولقد كانت عوالى المدينة زاهرة عامرة بعد أن أُجلى اليهود عنها وأصبحت خالصة للمسلمين ، بها منازل بنى عبد الأشهل وبنى معاوية ، حولها البهاء والنضارة والرواء . فلما تنكّر الحظ للمدينة بعد أن تركها أبناؤها الأوّلون ليقيموا بدمشق وبغداد والقاهرة ولينعموا فى رياض الأندلس بما حسبه آباؤهم فى العهـد الأوّل حُلما من الأحلام ، بدأت قصور العقيق تندك وبدأت نذر التدهور تمديدها القاسـية المدمّرة الى كل ناحية من المدينـة . وأنت

اليوم لا ترى فى طريقك الى قُباء من غراس أو بساتين تلفت النظر بعض ما ترى من يَبَابٍ بَلْقَع لا زرع به ولا ثمار . ومتى كانت الأرض تأخذ زخرفها وتزدان لقوم هجروها فلم يعكفوا على استغلالها والإفادة من خِصْبها مكتفين بأن يعيشوا كلًّا على غيرهم لا يأتون بخير من سعيهم ودأبهم .

وهذه المِنْطَقَةُ بين قُباء والمدينة من أخصب مناطقها، بل لعلها أخصبها، وهى لذلك تمرجل فاكهتها وخُضْرها . من ثَمّ كانت مُتَنَزَّه المدينة ومصحّها فى مختلف العصور، يخرج اليها الناس للتروُّض ويقيم بها الناقهون آستعادةً للنشاط والقوّة . ولقد كان رسول الله كثيرا ما يخرج فى أصحابه اليها؛ فهى قد تركت فى نفسه أجمل الأثر مذ نزل أول مُهَاجَره بها . فلما أزمع إذ ذاك الانصراف إلى المدينة سار فى مظاهرة من المسلمين متخطيا بئر أرِيس بوادى رانُونَاء متّجها إلى وادى بُطْحان فنخيل يثرب . وإنه لبوادى رانوناء إذ أذنت صلاة الجمعة، فنزل فصلاها بمن معه . وذكرا لهذا الحادث أقيم على طريق قباء مسجد هو مسجد الجمعة يقوم اليوم على يمين الذاهب من قباء الى المدينة . وكان موضع هذا المسجد يوم صلى به النبي واقعا فى منازل بنى سالم من الأنصار . ولا تذكر كتب التاريخ المدونة أول من بنى هذا المسجد . أمّا بناؤه الحالى فأقامه بايزيد السلطان العثمانى الذى تولى السلطنة من سنة ٨٨٦ إلى سنة ٩١٨ هجرية . يدل على ذلك نقش لا يزال موجودا على حجرين من الرخام الأبيض مثبتين فى جداره . وقد عفت الأيام على منازل بنى سالم وتركت المسجد يقوم اليوم فى أرض مهملة إلا من بستانين قلت العناية بهما، يقع أحدهما فى شماله والآخر فى جنوبه .

ذكرت فى فصل "آثار المدينة" ما حدث حين دخول النبي اليها بعد صلاة هذه الجمعة وخطبته فيها، فلا حاجة الى العود لذكره . وإنما أقف هنا فيما بين قُباء ومسجد الجمعة ليحدّثنى الأستاذ عبد القدّوس عن أُطُم الضُّحيان وحصن كعب ابن الأشرف . يقع أوّلها على مقربة من قُباء الى ناحية الغرب، ويقع الآخر الى ناحية

الشرق وبينه وبين قُباء أربعة أمثال ما بين الضحيان وبينها . وذكرت لحديث الأستاذ عبد القدّوس ما كان بيثرب حين هجرة الرسول اليها من آطام وحصون تحميها غائلةَ المعتدين عليها ، وتجعل عبد الله بن أبى بن سَلُول يقول إذ يتحدّث القوم فى أمر قُرَيش قبيل غزوة أُحُد : «لقد كنّا يا رسول الله نقاتل فيها ، ونجعل النساء والأطفال فى هذه الصَّيَاصِى ، ونجعل معهم الحجارة ، ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية . فإذا أقبل العدوّ رمته النساء والأطفال بالحجارة وقاتلناه بأسيافنا فى السكك . إنّ مدينتنا يا رسول الله عذراء ما فُضَّتْ علينا قطُّ وما دخل علينا عدوّ فيها إلا أصبناه» . وشاقنى أن أرى هذه الحصون والآطام كيف كانت. وانطلقت بنا السيّارة حتى كنّا عند أُطُم الضحيان ، فاذا أحجار سود من حجارة الحِرَار مركوم بعضها فوق بعض ، ولم يبق من الأُطُم إلا جدار هو القائم يحدّث سمكه وارتفاعه عما كان عليه من عظمة وقوة ومَنَعة . وهو بالغ الدلالة على ذلك كله ، يبعث ما بقى منه الى النفس رهبةً ومهابة . تسلّقنا بعض هذا الجدار السميك ورميت بنظرى الى الفضاء حولى ، تخلتُنى أرى ما كان عليه من قبلُ بما تبيّنت من نوع عمارته ، تدلّ عليها الآثار القليلة الباقية منه . وهبطت أسأل عن حصن كعب بن الأشرف ، فعلمت أنه ليس خيرا من هذا الأُطُم صيانةً وأن ما بقى من آثاره لا يزيد عما بقى من الضحيان . على أن كعبا وحصنه أثارا فى ذاكرتى مقتل الرجل على عهد الرسول ، فى حين لم يثر الضحيان شيئا أعرفه . فقد كان كعب عدوًّا للمسلمين شديد اللّدَد فى عداوته ، يهجوهم ويُرسل فيهم الأشعار ويعيبهم بمُقْذِع القول . هنالك ائتمر به جماعة من شبّان المدينة فاحتالوا عليه واستدرجوه ليلًا من حصنه وقتلوه . وكعب هو الذى قال بعد غزوة بدر ومقتل سادات قريش بها : "والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرض خير من ظهرها" ؛ وهو الذى ذهب الى مكة يحرّض على رسول الله ويُنشد الأشعار ويبكى أصحاب القليب ، قليب بدر ؛ وهو الذى رجع بعد ذلك الى المدينة وجعل يتشبب بنساء المسلمين . ومقتل كعب هو الذى أدّى الى حصار بنى قَيْنُقاع والى تجويعهم فتسليمهم وإجلائهم عن المدينة .

وليس يسعنى وأنا الان فى طريق قُباء الى المدينة أن أغفل الحديث عن مشربة أم إبراهيم . ولست أخفى ما كان بى من شوق الى زيارة هذه المشربة والوقوف بها مذ نزلت المدينة . ولا عجب فأمّ إبراهيم هى مَارِيةُ القبطيّة ، وهى المصرية التى بعث المُقَوْقِس بها وبأختها سِيرِين هديّة لرسول الله حين بعث رسول الله اليه يدعوه الى الإسلام . أمّا وهى ابنة وطنى مصر ، وهى التى وصلت بين وطنى ونبينا عليه أفضل الصلاة والسلام بصلة خالدة على التاريخ إذ ولدت له ابنه إبراهيم ، وهى التى أبقت لذلك فى مدينة الرسول آثارا يزور الناس جميعا منها قبر إبراهيم بالبقيع ؛ فلا جَرَمَ أن أحرص أنا المصرىّ الصميم على زيارة المكان الذى اختاره الرسول مقاما لمارية ، والذى كان مقامه كلما ذهب اليها ، والذى شهد عَبَراته تتساقط يوم موت إبراهيم حزنا وجزعا ؛ ولا جرم أن يكون بى الى هذا المكان هوًى لا يشعر به غيرى ما أشعر به .

ومشربة أم إبراهيم تقع بالعالية من ضواحى المدينة . وقد يكون تجوُّزا نسبتها الى قُباء وطريقها ؛ فأنت تسير اليها من المدينة سالكا طريق قُباء حتى تبلغ ملتقى وادى بُطْحان بوادى رَانُوناء ؛ إذ ذاك تتياسر مع وادى بطحان متجها الى شرق المدينة ميمّما وادى مُذَيْنِب ووادى مَهْزُور . والعوالى تقع بين هذين الواديين . هناك يأخذ بنظرك مسجد قائم بين خضرة نضرة وزرع بهيج وبيئة طبيعية تثير فى النفس ذكرى البيئة المصرية . وهذا المسجد يقوم اليوم حيث كانت تقوم المشربة فى عهد رسول الله .

أفأقامت مارية بالمشربة مذ أهداها المقوقس الى رسول الله ، أم أقامت بها بعد مولد إبراهيم أو على الأقل بعد الحمل به ؟ لم يرد عن ذلك نبأ صريح . وكتّاب السيرة الذين يجيبون عن هذه المسائل يذهبون فى جوابهم مذهب الظنون . وأحسب مارية أقامت بالمشربة بعد قليل من مجيئها من مصر وأنها ظلّت بعد ذلك بها . وأحسبها أقامت بها قبل أن تُسلم . فهى إنما أسلمت بعد حملها أو بعد

مولد إبراهـيم ، ولذلك لم تضم الى أزواج النبيّ ولم تكن أوّل أمرها بين أمهـات المؤمنين ، فلم تُبْنَ لها حجرة الى جانب حجراتهن . ولعل النبي حباها بها إكراما لهـا لأنه صلى الله عليه وسلم كان كريم الطبع، ولأن مارية كانت يومئذ نصرانية، وأقرب الناس مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ولعله اختار لها هذا المكان مُقاماً لأنها ألِفَتْ فيه شبها بطبيعة بلادها .

ونمط مسـجد المشربة كنمط مسـاجد مكة والمدينـة التى أقيمت للذكرى لا للصـلاة . وهو خير فى بنائه وفى صيانته من كثير من المساجد التى من نوعه . وفى صحنــه الى جوار الجـدار المقابل للمحراب بئر ما يزال المـاء بها ، لكنها لم تُبْنَ فوهتها، ولم تعلق عليها دلوٌ، ممـا يدل على أن ماءها غير مأثور للشرب ولا للتبرّك .

أقمت طويلا عند مسجد المشربة، ودرت حوله من نواحيه جميعا، وحاولت أن أصوِّر لنفسى تلك المصريّة التى سكنت هـذا المكان كيف كانت، وهل كانت تعيش هاهنا كما كانت تعيش فى مصر، أم أنها آثرت حياة أهل المدينة فسارت سيرتهم ونسجت على منوالهم ؟ وإن المؤرّخين ليذكرون أنهـا كانت جميلة حلوة القَسَمات قمحيّة اللون يتوِّج رأسها شعر أسـود متموِّج ، وأنهـا كانت تعيش فى مشربتها بين الحدائق التى أهداها مُخَيْرِيق الى الرسول بعـد جلاء بنى النَّضِير عن المدينة ، عيش طمأنينة ونَعْمة . أمّا بعضهم فيذكر أنها أقامت أوّل عهدها فى دار بالمدينة تجاور حجرات النبيّ، وأنها لم تنقل الى المشربة إلا بعـد مولد إبراهيم ، وحين ظاهرت حفصة وعائشة على النبى بعد أن عادت حفصة يوما من دار أبيها فوجدت مارية بيتها مع النبى . وهذا قول مرجوح؛ لأن مارية لم يعرف لهـا بالمدينة بيت قط، ولأن مظاهرة حفصة وعائشة لا ترجع الى سبب واحد[(١)] .

على مقربة من مسجد المشربة يقع مسجد الفَضِيخ شرق قرية العوالى . وهو أوسع رقعة من مسجد مارية ومن كثير من المساجد الأثرية . له شُرُفات وخمس

(١) راجع « حياة محمد » فصل (إبراهيم ونساء النبى) صفحة ٤٧٩ وما بعدها من الطبعة الثانية .

قباب ومحراب يجاوره منبر من حجارة يرتفع عن الأرض درجتين. وقد سُمّي هذا المسجد الفضيخ لما يروى من أن أبا أيوب أراق به الفَضِيخ، وهو خمر التمر، إذ بلغه وهو فى نفر من أصحابه نزول تحريمها. ويسمى هذا المسجد كذلك مسجد الشمس لأن الشمس تطلع عليه أوّل شروقها. وهو مسجد مأثور لصلاة النبيّ بموضعه ست ليال حين حصاره بنى النضير.

ليس يقابلك إذ تسير شرق الخندق من ظاهر المدينة أثر غير ما قدّمنا خلا مسجد بنى ظَفَر ومسجد الإجابة. وقد ذكرنا مسجد الاجابة حين تحدثنا عن آثار المدينة. أمّا مسجد بنى ظفر فيقع شرق البقيع ويؤثر عنه أن رسول الله أتى بنى ظفر فجلس على الصخرة التى فى مسجدهم فى جماعة من أصحابه وأنه أمر قارئا فقرأ حتى أتى على هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ اذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فبكى رسول الله وقال: "أىْ ربِّ! شهيد على من أنا بين ظهرانيّه! فكيف بمن لم أره!". ويذكر صاحب مرآة الحرمين أن هذا المسجد يسمى كذلك مسجد البغلة لوجود أثر بجوار المسجد فى حَرّة واقم يزعم المزوِّرون أنه لحافر بغلة النبيّ، كما يزعمون فى تأويل انخفاض فى حجر هناك أن رسول الله اتكأ فى هذا المكان بمرفقه فترك فى الحجر هذا الأثر، كما تركت أصابعه أثرا فى حجر آخر. ويُضيف إبراهيم باشا رفعت: "ولم يثبت شىء من ذلك وإنما هو محض افتراء زوّره المرشدون للآثار ليستدرّوا بذلك أموال الدهماء".

تقع هذه الآثار كلها بحَرّة واقم. والحرّة كما أسلفنا مِنْطَقة سوداء من الحجارة المحترقة اختلط بها أكثر الأمر حُمَمٌ بركانىّ. وحرة واقم تحدّ المدينة من الشرق كما تحدها حرة الوَبَرة من الغرب. ولقد كانت واقم أكثر عمرانا من الوبرة أوّل ماجاء رسول الله إلى المدينة. كانت منازل اليهود من بنى النضير تقع فى جنوبها ويليها إلى الشمال منازل بنى قُرَيظة منهم؛ ثم كان بها ثلاثة منازل للأوس: منازل بنى ظفر واقعة الى الشمال من وادى مهزور، ومنازل بنى عبد الأشهل فى أوسط الحرّة،

ومنازل بنى حارثة فى شمالها . وفى منازل بنى عبد الأشهل كان يقوم حصنهم واقم الذى سمّيت الحَرّة باسمه . وقد ترك أصحاب هذه المنازل من اليهود والأوس آثارا فى الحرّة تدل على حضارة ونظام : تركوا بها آثار مصانع وصهاريج مياه لم يبق منها اليوم إلا أطلال دوارس . ولا عجب وقد كانت هذه الحرّة ميدان حرب مذ استقر الإسلام بالمدينة . حاصر رسول الله بنى النضير فى منازلهم بها وقد ائتمروا به ليقتلوه، وذلك حين خرج إليهم بعد مقتل كعب بن الأشرف يريد أن يُقرّ السلم باحترام عهد الموادعة بينه و بينهم . وقد أدرك ائتمارهم فانسحب من ديارهم، وأرسل إليهم محمد ابن مَسْلَمة يبلغهم : "أن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . لقد أجّلتكم عشرا . فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه" . وتحيّرت بنو النضير ماتصنع، ثم انتهت بتحريض عبد الله ابن أبىّ إلى عدم النزول على حكم هـذا الإنذار النهائى الذى أُبلغ إليهم . هنالك حاصرهم المسلمون وقاتلوهم عشرين ليـلة وقطعوا نخيلهم . فلما بدا لهم اليأس من المقاومة سألوا محمدا أن يؤمّنهم حتى يخرجوا من المدينة، وخرجوا منها تاركين وراءهم مغـانم كثيرة . وحاصر رسول الله بنى قُرَيظة بعد أن نقضوا عهده وغدروا به وانضموا إلى الأحزاب فى غزوة الخندق . فلما تولّى الأحزاب عن المدينة بعد أن خلع الإعصار خيامهم وقلوبهم، قاتل المسلمون بنى قريظة فى منازلهم خمسا وعشرين ليلة حتى سلّموا وحكّموا سعد بن مُعاذ فى مصيرهم، فحكم بأن تقتل المقاتلة، وتُقسم الأموال، وتسبى الذرّية والنساء ؛ وكذلك كان . من بعد ذلك ظلّت المدينة آمنة إلى مقتل عثمان؛ ثم بدأت الثورات والحروب الداخلية بين علىّ ومعاوية . فلما قُتل علىّ بالكوفة وآنقضى عهد معاوية وتولّى يزيد آبنه إمارة المؤمنين آنتقض عبد الله آبن الزبير والحسين بن علىّ . وأقام عبد الله بن الزبير بمكة و بايعه الهاشميون؛ فجهز يزيد لمحاربتـه جيشا مؤلّفا من اثنى عشر ألفا من الفرسان وخمسة آلاف من المشاة وجعل على رأسهم مسلم بن عُقْبـة المزى . وبلغ مسلم المدينة سـنة ثلاث وستين فوجدها محصّنة حولها الخندق ، لكنها لم تقاوم غير أربعة أيام ثم سلّمت . وكانت

هـذه وقعة الحَرّة المشهورة فى التاريخ الإسلامى . وإنما سمّيت هذه الوقعة الحرّة لأن جيوش يزيد جاءت من حَرّة واقم .

تحدّ هـذه الحرّة المدينة من الشرق وتحدّها حرّة الوَبَرَة من الغرب . وتبـدأ حرّة الوبرة قُبالة قُباء من الجنوب عند ذى الحُلَيفة ، ميقات الاحرام لأهل المدينة، وأوّل الطريق منها إلى مكة . وليس بذى الحُلَيفة اليوم غير بئر ومسجد : بئر توضّأ منها رسول الله وتوضأ منهـا المسلمون للإحرام للعمرة والحج عام الحُدَيبية وعام حجة الوداع . ومسجدها قائم بالمكان الذى كانوا يصلّون فيه للإحرام . والمسجد القائم اليوم أثرى لا يتّسع لمـائة أو لمـائتين من المصلّين، وبه محراب كتب أعلاه :

بمسجد سيِّد الأبرار كرِّر * سجودك بالغداة وبالعشيّ
لعلك أن تَمَسّ بحُرّ وجهٍ * مكانًا مسّــه قدمُ النبيّ

وكتب كذلك : "بات رسول الله صلى الله عليه وسلم مبـدأه وصلّى بمسجدها" . فى صحيح مسلم عن ابن عمر . وفى الصحيح أن مبدأه أى فى أوّل حجة له .

وأغلب الظنّ أن تكون هـذه الكتابة قد نُقشت بأعلى المحراب فى عصر متأخر من عصور الانحلال؛ فهذان البيتان من الشعر يدلّان على ذلك بلفظهما ومعناهما .

وعلى مقربة من مسجد ذى الحليفة آثار لجدران ذكر لى الأستاذ عبد القدّوس الأنصارىّ أنها جدران مسجد المعرَّس ، وأن هذه الجدران بقيت مطمورة إلى أن كشف عنها السيل عام ١٣٥٢ هـ، وأن المأثور أن هذا المسجد كان يعرِّس به النبيّ؛ أى يبيت به عند عوده من مكة . ولم أُعَنِّ نفسى بالبحث فى صحة هذه الرواية .

وطريق المدينـة إلى ذى الحليفة مستو يحاذى حَرّة الوبرة، يبتعد عنهـا حينا ويقترب منها حينا آخر، ويقف الكثيرون أثناءه عند بئر عُروة يستقون من مائها العذب الرقيق، بلغ من عذوبته ورقته أن كان حكام المدينة يُهدون منه للملوك والأمراء وكبار المسلمين . ويقال : إن مياه هذه البئر تُصلح الكُلَى . ولعلهم فى ذلك غير مخطئين . وهى تنسب إلى عروة بن الزبير ، وإن ذكر الأستاذ عبد القدّوس

فى كتابه آثار المدينة المنورة : أن رجلا له مُقْهَى إلى جانبها يذكر جهلا منه أن عُروة امرأة يهودية هى التى حفرت البئر .

بأعلى حَرّة الوبرة من ناحية الشمال مسجد وبئر مأثوران، ومأثوران بحق . ذلك مسجد القبلتين، وتلك بئر رُومة . أمّا مسجد القبلتين فيقع على ربوة مرتفعة من الوبرة، وهو من طراز مساجد مكة التى لا يصلىً فيها . وبه محرابان، محراب داخل الجانب المسقوف منه يتجه إلى الكعبة ، أى إلى الجنوب ، ومحراب فى الجانب المكشوف يتجه إلى بيت المقدس ، أى إلى الشمال . والمأثور أنه صلى الله عليه وسلم صلى فى هذا المسجد إلى بيت المقدس حتى أمره الله أن يجعل الكعبة قِبلته، وذلك على رأس سبعة عشر شهرا من هجرته إلى المدينة ، وحين نزل قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ . وقد كان تحوّل القبلة إلى الكعبة بعضَ ما زاد فى خصومة اليهود والمسلمين ؛ حتى لقد ذهبت يهود إلى محمد يسألونه أن يعود إلى قبلتهم فيتّبعوه فأبى ؛ فهو لم يحوّل الكعبة عن هوًى منه بل إجابة لأمر ربه .

أمّا بئر رُومة فكانت ليهودى تسمّت باسمه وكان يبيع ماءها للمسلمين، فاشتراها منه عثمان بن عفّان إجابة لرغبة رسول الله ، ودفع له فيها عشرين ألف درهم . وهى تقع بمجتمع أسيال المدينة إذ تلتق بطحان ورانُوناء فى مسيل العقيق ثم يتصل بها مسيل قناة .

وهذه البئر مقصودة حتى اليوم . أقيم عليها بناء أمامه بركة يسير فيها ماؤها عذبا سائغا للشاربين ، وتتدفق إلى حيث تُروى المزرعة المحيطة بالبئر و بالبناء القائم فى جواره . وقد يكون تجوُّزا أن يسمى هذا البناء مسجدا و إن كان الناس يصلّون فيه ؛ فهو ليس كهيئة المساجد فى عمارته؛ بل هو أدنى إلى أن يكون إيوانا مشرفا على البركة والبئر والمزارع حولها .

تفصل حَرّة الوبرة بين المدينة ووادى العقيق . وإذا ذكر العقيق من أودية المدينة نسى الناس كل واد للعقيق سواه . فقد كان له فى أنباء التاريخ من الذكر ما جعله وادي النَّعْمة وخفض العيش والترف ، يترنَّم الشعراء بمحاسنه ويقص الرواة أنباء ما انطوت عليه قصوره . كان هـذا الوادى الخِصْب الدافق بجداول المياه وبالعيون والآبار خاليا من البناء لمّا قدم النبىّ المدينة . وقد أقطعه بلالاً بن الحارث المُزَنى بحجة نصُّها : " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى محمد رسولُ الله بلالَ بن الحارث ، أعطاه من العقيق ما أَصْلَح فيه معتملا . وكتب معاوية " . ولم يُصلح بلال من العقيق شيئا . فلما كانت خلافة عمر نزعه منه وأقطعه للناس ، وترك له قسما صغيرا لعله يصلحه . ولم يكد عمر يفعل حتى تنافس الذين ملكوا العقيق فى غرسه بساتين وجنّات جعلته بهجة للناظرين . وتدفّقت أموال الفتح فى عصر الدولة الأموية ، فبدأت القصور تقوم فى عَرَصاته تُزرى بقصور الشام وما افتنّ الرومان فى تشييده منها ، وأصبح العقيق بذلك ضاحية الكبراء والمُتْرَفين . وما تزال آثار قصر سعيد بن العاص القائم بالشمال الغربى منه تشهد بذلك وتدلّ عليه . وكان هـذا القصر مبنيا بالحجارة المطلية بالجصّ من الداخل والخارج بناء أبقت متانته من آثاره ما نرى منه اليوم . وكانت تحيط به بساتين غنّاء ورياض ممرعة ونعمة وارفة الظلّ ، حتى لقد قال أبو قَطِيفَةَ الشاعر يصفه ويفضّله على قصور دمشق وبساتينها ورياضها :

القصـرُ فالنخـل فالجمّاء بينهما * أشهى إلى النفس من أبواب جَيْرُونِ

وجيرون : دمشق . وسعيد بن العاص صاحب هذا القصر كان أميرا للمدينة فى عهد معاوية . فهذا القصر يرجع إذاً إلى أكثر من ثلاثمائة وألف من السنين . وقد جعله سعيد موضع رياضته ونزهته وكان يدعو إليه أصحابه وندماءَه ينعَمون فيه بالحياة كخير ما ينعم إنسان بين الرياض الفيحاء والبساتين الغنّاء ومفاتن الفن المختلفـة التى نافس بها أجمل قصور الشام .

وإنما كان قصر سعيد واحدا من قصور العقيق الكثيرة التى جعلها أصحابها مرابع تَرَف وجنّات نعيم . كان به قصر عُروة بن الزبير على مقربة من بئره ، وقصر

سُكَيْنة بنت الحسين وكان يسمّى الزينبيّ، وقصر مروان بن الحكم وقصر عبد الله بن عامر، وقصر جعفر بن سليمان، وقصر إبراهيم بن هشام، وغيرها من القصور الكثيرة القائمة بين بساتينه وآباره ومزارعه وجمّاواته . وجمّاوات العقيق مرتفعات سود كبار قائمة على شفيره الغربى دون الجبال وفوق الهضاب . وأقرب هذه الجمّاوات إلى المدينة جمّاء تُضَارِع القريبة من بئر عُرْوة . وتجاورها جمّاء ام خالد وتكاد تتصل بها من ناحية الشمال . أمّا جمّاء عاقل فتبعد عنها إلى الشمال كذلك، وهى أقرب الجمّاوات إلى قصر سعيد بن العاص .

بدأنا الحديث عن ظاهر المدينة من جنوبها حيث تقع قُباء فى سفح عَيْرٍ، وتناولنا الشرق موقع حَرّة واقم، والغرب موقع حَرّة الوبرة ووادى العقيق . ونحن فى غنى عن أن نتناول بالقول شمال المدينة، فشمالها أُحُد يفصل بينها وبينه وادى قناة، وقد تحدّثنا عنهما حين حديثنا عن قبر حمزة . وهذا التحديد لظاهر المدينة يرسم أمامنا صورة منها ومما يحيط بها من نواحيها الأربع، ويفسر لنا الأحاديث المنسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى تحريمها كحرمة مكة . فقد روى أنه قال : " إن إبراهيم حَرّم مكة ودعا لأهلها، وإنى حرّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة " أو قال " إن إبراهيم حرّم مكة وإنى حرّمت المدينة ما بين لابَتَيْها لا تُقْطَعُ عضاهها ولا يُصاد صيدها " أو قال " إنى أحرِّم ما بين جبليها مثل ما حرّم إبراهيم مكة " .
وجبلا المدينة المقصودان هنا هما عَيْرٌ وأُحُد، أو عَيْرٌ وثور الواقع وراء أُحُد ليدخل أُحُد فى الحرم . ولابتا المدينة هما الحَرّتان واقم والوبرة . ولسنا نقف بطبيعة بحثنا عند مناقشة ما قيل فى إثبات هذه الأحاديث أو نفيها، وفى حرمة المدينة أو عدم حرمتها، ولا نريد أن نضع هذه الأحاديث إلى جانب خطاب النبى على أثر فتح مكة إذ قال : "إن الله حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة " لنقول إن حرمة مكة مرجعها إلى البيت العتيق . إنما أردنا أن نُظهر القارئ على ما يراد بجبلى المدينة وبلابَتَيْها لتكمل أمامه

صورتها، وليرى أن العقيق الواقع امام لابة الوبرة يقع بعد ظاهر المدينة على التحديد الذى آخترناه حين جعلنا الخندق الحدّ الفاصل بينها و بين ظاهرها .

هَبْ هذه الأحاديث صحّت وكان رسول الله قد حرّم المدينة كما حرّم إبراهيم مكة ، أفيجدر بنا أن نستنبط من ذلك أن الذين شيّدوا قصورهم بالعقيق إنما تخطّوا حرم المدينة ليكون لهم من الحرية ما ليس للمقيم داخل هذا الحرم ؟ أم أن الأمر لا شيء من ذلك فيه ، و إنما بنى ذوو الثراء بالعقيق لجودة جوّه وعذو بة مائه و جمال مناظره ولما يوحيه ذلك إلى النفس من معانى النّعمة فى الحياة ؟ أم أن الأمر لم يكن هذا ولا ذاك و إنما بنى بالعقيق من بنى لأن المدينة انفسحت رُقعتها وكثر أهلها حين كانت عاصمةَ الإسلام وحاملة لوائه، فلم يكن بدٌّ من تجاوز حدودها إلى ماوراءها لمن أراد الأبتعاد عن ضجة الحاضرة وجلبة الحياة فيها ؟.

لا إخالنا قادرين على أن نقطع أىّ هذه الأسباب الصحيح . وربما كانت كلها قد تضافرت فأخرجت الناس من حرم المدينة الى وادى العقيق . فلما انحلّت الحضارة الإسلامية ولم تبق المدينة عاصمة الإسلام وحاملة لوائه عاد العقيق فأقفرت عرصاته ، وكشرت جمّاواته ، واضطرب مسيل الماء فيه، فارتد اليوم قفرا كما كان قبل أن يُعطيه رسول الله بلال بن الحارث المزنىّ ويوم كانت يثرب موضع نزاع دائم ودسائس متصلة بين الأوس والخزرج واليهود .

أرجأنا الحديث عن حياة رسول الله وأصحابه بالمدينة حين حديثنا عن آثارها حتى تُتم الحديث عن ظاهرها . أمّا وقد أتممناه فحقّ علينا أن نصف طرفا من هذه الحياة الإسلامية الأولى فى عاصمة الإسلام . ولعلك قد صوّرت لنفسك طرفا من هذه الحياة بما قصصنا عليك من أمر المدينة وطبيعتها وآثارها وظاهرها . فقد بلغ رسول الله المدينة أوّل هجرته اليها وأهلُها من الأوس والخزرج مشوقون لحياة روحية جديدة تسمو بهم على الأصنام وعبادتها مما كان اليهود المقيمون بين أظهرهم يعيبونهم عليه ،وتقيم لمدينتهم وحدةً طالما جنت عليها المنازعات والحروب الداخلية

جناية دعتهم الى التفكير فى إقامة رجل منهم أميرا عليهم جميعا . فلما جاء النبى اليهم وأقام بين أظهرهم والتف حوله من الأوس والخزرج كثيرون بدأت الحياة فى المدينة تتجه اتجاها جديدا ، وبدأ الأوس والخزرج الذين أقاموا على شركهم ينظرون الى هذا التطور الجديد بعين الريبة والحذر، وينسون لذلك ما كان بينهم وبين اليهود من عداوة وبغضاء . وبدأ رسول الله حياته السياسيّة فى المدينة ، وجعل سياسته فيها سياسة قوة لا يتطرّق اليها الضعف ، وان لم تشبها شوائب العدوان على الغير . وسياسة القوة هذه كانت مقدّمة حياة الجهاد الذى اندفع اليه المسلمون من يومئذ الى أن بدأت نُذُر الانحلال أيام الدولة العباسية . وأنت إذ تعود بذاكرتك الى ما قصصنا من أمر الآثار بالمدينة وبظاهرها ترى هذا المعنى واضحا جليا . ذلك حديث المساجد والآطام والقصور، بل هو حديث الجبال والآبار والعيون . لم أذكر مسجد السبق بين المساجد التى تحدّثت عنها لأنى لم أقف له على أثر . لكن الروايات تجرى بأن هذا المسجد أُقيم شاهدا على المكان الذى اعتاد المسلمون الاستباق فى ميدانه الفسيح رجالا وعلى الجياد وفى هذا مظهر قوة وإقدام . ومسجد القبلتين يذكر حادثا روحيا استقلّ به المسلمون عن غيرهم من أهل الأديان التى تتجه الى بيت المقدس، ويحدّث لذلك عن استهانة المسلمين باليهود ودسائسهم التى جعلت أهل المدينة قبل هجرة الرسول عليهم يخشونهم ويحسبون لهم ألف حساب . ومسجد الفتح ومسجد الإجابة والمساجد الواقعة على مقربة من أُحُد والقائمة حول الخندق تحدّث كلها عن غزوات اشتبك المسلمون فيها واستهانوا بالموت أثناءها ثم كانوا أبدا الغالبين . وكثير من الآبار يحدّث عن إيثار المسلم إخوانه على نفسه . فبئر رُومة اشتراها عثمان بن عفّان بعشرين ألف درهم لتكون خالصة للمسلمين ولم يكن له منها إلا حظ رجل منهم . والعيون التى ضُمّت للعين الزرقاء كانت كلها مملوكة لأفراد من المسلمين، فنزل كثيرون منهم عن مالهم لله وفى سبيل الله . وما كان لنفس تعرف الجهاد فى سبيل الله وتقبل عليه راضية مرضية أن تعرف الأثَرة أو ترضاها ، أو أن تعرف الضعف

فتذل له . والقوّة والإيثار لا يجتمعان فى نفس ما يجتمعان فى نفس المجاهد . وليس يسمو أحد الى ما يسمو اليه المجاهد المُؤْثِر من أمثال الحياة العليا . فاذا بلغ المُؤْثِر من إيثاره أن نسى نفسه فى إخوانه وأن أحب إخوانه فى الله لم تغلبه قوة فى الأرض حيًّا ؛ فان مات بقى من ذكر جهاده ما يكفل لمثله الأعلى النصر لا محالة .

هذا اللون من حياة المسلمين فى المدينة وما كان لهم فى رسول الله من أسوة حسنة هو الذى طوّع للمسلمين فتح الأمصار وحكم الأمم ونشر لواء إيمانهم فى الخافقين . وفى ذلك الدليل على أن الحياة فكرة أوّلا وآخرا ، وأن قوّة المرء وضعفه ، كقوّة الأمة وضعفها ، رهن بقوّة فكرته فى الحياة أو ضعفها . فمن آثر الحياة خوفا من الموت ، راضيا من الحياة بما تريد الحياة منه لا بما يريده هو منها يبلغه أو يموت دونه ، فهو ضعيف وان بلغ من الجاه والسلطان أعظم مبلغ . ومن غرّته الحياة بزينتها نخدعته عن المثل الأعلى من الجهاد فى سبيل الله ، فقد ذل للحياة ابتغاء عَرَض زائل وأوهام خاطئة كاذبة . فأمّا من أراد الحياة لمثل أعلى يبتغى تحقيقه لخير إخوانه فهو سيّد الحياة العزيز الجناب ، وإن كان بين الناس الفقير الضعيف الذى يُحاربه الناس .

هذه كانت حياة المسلمين الأوّلين فى المدينة ، وبهذا تُحدّث آثارها ويشهد ظاهرها . فلما نسى المسلمون ما لله من المثل الأعلى وعكفوا على أنعم الحياة وتوهّموها الغاية من الحياة ، بدأت نُذُر الانحلال يدبّ دبيبها فيهم وتسرى جراثيمها اليهم . وغرّهم ما فعل أسلافهم وما أورثوهم من قوّة ، كما يغتر القوىّ العَضَل بقوّة عضله فيُقْبِل على اللهو مستهينا بالنُّذُر ، ناسيا أن لليوم غدَه ، وأن للشباب كهولةً وشيبا . ولو أن المسلمين فطنوا الى النُّذُر من أوّل عهد الانحلال لأغنتهم ولمّا أصابهم من الهوان ما أورثوه ابناءهم ، فما يزالون حتى اليوم يَصْلَوْن من أثره ذلة تَرْهَقُهم وتجعلهم أسوأ عنوان لدين هو دين الكمال والمثل الأعلى .

إن يرد المسلمون خروجا من هذا الهوان فليعيدوا سيرة السلف الأولين فى القوة على الحياة والإيثار على النفس وفى البر والتقوى وليذكروا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ . وقوله جل شأنه : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

إنهم إن فعلوا فآثروا على أنفسهم ، وذكروا الجهاد فى سبيل الله ، وتحابّوا بنور الله بينهم ، واتخذوا من مثل السلف الأول أسوتهم ، غفر الله لهم وغيّر ما بهم ، وأنزلهم مكان العزّة ، ورفع عنهم مقته . تلك سنّته فى الكون . فمن تدبّرها فاز فى الآخرة والأولى ، ورفعه الله مكانا عليّا .

زيارة الـــــــوداع

فى غدٍ نبرح المدينة لأزور بدرًا وشهداءها، ولأدرك الباخرة التى تُبحر من يَنْبُع الى السويس . فغـدُ الجمعة ، والباخرة تُبحـر ظهر الأحد . ولست آمن إن بقيت الى صبح السبت بالمدينـة أن يبغتنى الوقت فتفـوتنى زيارةُ بدر وأنا عليهـا جِدُّ حريص . كفى أن فاتتنى زيارة خَيْبَر بعد إذ يسّر لى الملك ابن السعود الوسيلة اليها . فقد دفع الىّ كتابا برسم أمير المدينة ليعاوننى فى سلوك طريقها والوقوف بها؛ وأظهر لى الأمير عبد العزيز بن إبراهيم رغبته فى المعاونة؛ لكنه ذكر أن الطريق الى خيبر ليس ممهدا كله للسيّارة، وأن الإنسان يبلغ بها منتصفه فى يوم، ولا بدّ له بعد ذلك من امتطاء رِكاب يومين كاملين؛ والعودُ يقتضينى مثل هذه المشقّة وهذا الوقت . أمّا ولم يكن بين بلوغى المدينـة وإبحار "زمزم" من ينبع غير اثنى عشر يوما يقضى الإنسان اثنين منهـا فى الذهاب من المدينـة الى مرفأ السفر، أمّا وآثار المدينـة وما بظاهرها يقتضى الإنسان أسبوعا كاملا للطواف به والوقوف عنـده، فلا مفرّ من إرجاء زيارة خيبر الى فرصة أخرى أرجو ألّا تَضَنَّ الأقدار علىّ بها .

غد الجمعة، فلأجعلْ زيارة الوَداع للحجرة النبويّة عقب صلاة الجمعة، ولأبْرَح المدينة بعد صلاة العصر، ولأؤدِّ سائر اليوم بالمدينة واجب الشكر لأميرها عبد العزيز ابن ابراهيم، ولمُضيفى الشيخ عبـد العزيز الخريجى وأخيه الشيخ محمد، وللكثيرين من أهل المدينـة وشبّانها الذين كانوا اللطفَ بى طول مُقامى بينهم، والذين بذلوا من معاونتى فيما سألتهم المعاونة فيـه غاية ما يستطاع بذله . وشكرُهم حَسْبِى ؛ فهو كل ما أستطيع أن أجزيهم به عن جميل طوّقوا به عنق ولن أنساه .

وأصبحت فأعددت للرحيـل متاعى . ولمـا دنا موعد الجمعـة قصدت الى المسجد فألفيتـه امتلأً بالمصلّين . ولقـد كنت على ثقة من أننى لن أجد بالروضة منه مكانا، فالكثيرون يقصـدون اليها قبل موعد الصلاة بساعات ولا يبرحونها ،

ومنهم من يقصد اليها من بكرة الصباح ليؤدّى فيها فرض الفجر و يظلّ بها الى صلاة الجمعة . وتخيّرت مكانا قريبا من باب الرحمة، فاذا جار يمينى رجل ممن عرفت بالمدينة، وجار يسارى حاجٌّ مغربىٌّ من أبناء مَرَّاكُش عرفت من جار اليمين أنه يتردّد على المدينة إذ يجىء اليها مرّة كل عام أو كل عامين فى أشهر الحج . وقد حيّانى الرجل بتحية الإسلام بعد أن أتممت ركعتى السنّة أوّل مقدمى، ثم جلسنا جميعا ننتظر الأذان لصلاة الجمعة كى نؤدّى فرضها مع الإمام .

وذكرت، وأنا بمجلسى أنتظر الأذان والصلاة ، أوّلَ جمعة صلّيتهما فى المسجد الحرام بمكة . ذكرت عشرات الألوف الذين أحاطوا بالكعبة من جهاتها الأربع، وما أثارته فى نفسى موازنتهم بالمسلمين الأوّلين الذين جاءوا مع رسول الله فى حَجّة الوداع، وما بدا لى من فرق عظيم بين هؤلاء وأولئك فى تصوُّر الحياة. كان المسلمون الأوّلون يُقبلون على صلاة الجماعة يدعوهم اليها روحٌ مبعثه الإيمان ونظامٌ قِوامه الأخوّة . وكانت الحياة لذلك عندهم فكرةً يستهينون فى سبيلها بالموت و يرونه استشهادا فى سبيل الله . وكانوا يدركون إدراكا عميقا معنى كلمتين هما أبلغ وأقوى ماعرفت الإنسانية مذ وُجدت: « الله أكبر » . وكانت صلاتهم لذلك ابتهالا خالصا لله جل شأنه وتوجُّها اليه ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ويسمو بالنفس على غرور الحياة الدنيا . أمّا اليوم فقد غاض الروح من هذا المجتمع وصار الإيمان فيه تقليديّا، يكتفى صاحبه بأن يقول ألفاظ الإيمان وإن لم يؤمن منها بشىء ، ثم يحسب بعد ذلك أنه أرضى الله و رسوله . فاذا طمع فى مزيد من الرضَا خُيِّل إليه أنه بالغ من ذلك مطمعه بألوان من الزلفى لا تتصل بالعمل الصالح فى شىء ، وليس فيها من حب المؤمن إخوانَه و إيثارِه إيّاهم على نفسه كثير ولا قليل . بل إن كثرة المصلِّين اليوم لا يفكر أحدهم فى أخيه ولا يحب إلا نفسه . وهو إنما يحضر صلاة الجماعة ابتغاءَ المغفرة لنفسه والثوابِ لنفسه دون تفكير فى المؤمنين ممن حوله . وهذه الأَثَرَةُ التى فتكت بالجماعات الإسلامية هى التى جعلتها تتعلق بالحياة لذاتها، ولا تعرف المثل الأعلى فيها، وتُذعن لذلك خاضعة لكل سلطان

يملك عليها أسباب المـادّة فى الحياة . وهذه الأثَرةُ هى التى أبقتها فى غيابات الجهل، لأن كبراءها وسادتها أمسكتهم الأثَرة فى دنيا مراتب الحياة فحجبوا عن إخوانهم نور العلم وما يدعو إليه العلم من إيمـان حق، وبذلك أضلّوهم السبيل .

ذكرت ماساورنى من هذا التفكير بحرم مكة وأنا بمجلسى من المسجد النبوىّ أنتظر الأذان والصلاة، وأجلتُ طرفى فى هذه الجموع الجالسة حولى فحزّ مرآها فى نفسى. فهـذه الجموع تمثّل العالم الإسلامىّ بمئات ملايينه المنتشرة فى أطراف العـالم كله، وهى على ضخامة عددها كمّية مهملة أو فى حكم المهملة . مصر . بلاد المغرب كلها. بلاد العرب . العراق . مسلمو الهند . مسلمو الملايا . مسلمو الصين . المسلمون فى أوربا . أىّ أثر لهـؤلاء جميعا فى عالمنـا الحاضر ؟ ! . أرقام ضخمة لا تعـدو أن تكون أرقاما . واليهود لا يزيدون فى العالم كله على خمسة عشر مليونا . مع ذلك يتلفت العالم اذا ذكروا يريد أن يعرف ما يريدون . تهتز لمطالبهم جوانب البرلمـان البريطانى، وأرجاء عالم المـال فى أمريكا، وتقوم عصبة الأمم لمطالبهم وتقعـد . وكان العـالم أشدّ تلفُّتا لمـا يريده المسـلمون فى عهـدهم الأول حين لم يكونوا يبلغون ثلاثة الملايين عدًّا . أمّا اليـوم فمئات الملايين من المسـلمين أرقام لا يقام لهـا وزن ولا يُحْسَب لهـا حساب . واذا قيـل العالم الإسلامى سخِر النـاس وقالوا : مايزالون متعصّبين، يحسبون الأديان وحدةً تُقيم أمّة أو أممـا . فاذا قيل: شعب صهيون أو قيل بنو إسرائيل، سمعت الأصداء تتجاوب من أنحاء العـالم : شعبٌ مضطهد يجب على العـالم أن يبحث له عن وطن يلجأ إليـه احتماءً من مضـطهديه . أى شىء يحزّ فى كبد المسـلم ما يحـزّ هـذا الجمع الذى أراه أمامى فى المسـجد النبوىّ يمثّل المسلمين جميعـا وهم يعانون الذلّة والهوان صابرين! وقد كان المسلمون الذين يحضرون الصلاة فى هذا المسجد أيّام بساطته الأولى حين كان قائما من اللَّبِن وجذوع النخل يهزّون العـالم كله، لفتةٌ منهم تُزعزع العروش، فإذا تَنادَوْا "الله أكبر" تفزّعت الأفلاك والتفت الدهر .

أذن المؤذّن للصلاة وخطب الخطيب هناك عنـد محراب عثمان ، فلم نسمع مما قال كلمة لبعدنا عنـه ، ولأنّ الروضة تحجب ما بيننا و بينه . وصلّينا الجمعـة وصلّى السنّة من شاء، و بدأ الناس ينصرفون من المسجد. وأقمت مكانى، حتى إذا خلت أروقة المسـجد أو كادت ذهبت أؤدّى للحجرة النبـوية ولقبر الرسول زيارة الوداع . ووقفت أمام شبآك التو بة ورفعت صوتى قائلا : "السلام عليك يارسول الله ورحمة الله و بركاته . أشهد أن نبيّ الله ورسوله قد بلّغ رسالة ربه وجاهـد فى سبيله حتى أتم الله النصر لدينه، وأنه وفَى بوعده وأمر ألّا نعبد إلا الله وحده لاشريك له".

ومكثت هنيهة واقفا أحدِّق فى هـذه الحجرة ، وأذكر من تحوى قبورها رُفاتَهم : محمد بن عبـد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأبا بكر الصدِّيق صَفِى النبيّ وخليـله ، وعمر الفاروق من أعزّ الله به الإسلام يوم أسلم، ومن نشر لواء الإسلام فى الخافقين أيام خلافته ، وأذكر ما حدث بعدهم بين المسلمين من حروب أهلية وما تطوّرت إليـه العقلية الإسلامية بعـد ذلك حتى هوت إلى دَرَك الانحلال فأصبحت مقلِّدة تفرّ من الاجتهـاد وتحاربه ، أَثِرَةً لا تعرف أخوّة المؤمنين وتنزوى لذلك أمام كل قوة . وإنى لأقلِّب فى صحف نفسى وأنا حسير الطرف كسير القلب حيـاء وخجلا إذ آنفرجت شفتاى عن هذه النجوى :

"السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته! أشهد أنك رسولُ الله الواحد الأحد حقّا وصدقا، وأنه بعثك للنـاس كافّة بالهدى ودين الحق . هديتهم بأمره ألّا يعبدوا إلا إياه مخلصين له الدين حُنَفاء، وألّا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله . سمّاك ربك عبدَه قبل أن يسميك رسوله، حتى لا يضلّ قوم فيحرِّفوا كلام الله عن مواضعـه فيؤلّهوك أو يعبدوك كما أُله رسلٌ من قبلك وعُبدوا ، وبلّغتنا من وحى ربك أنك بشرٌ مثلنا يوحى إليك أنما إلهُنا إلهٌ واحد، ليعلم الناس أن الله يصطفى لرسالاته من يشاء من عباده ، فيظـلّ من اصطفاه عبـده وإن فضّله على الناس إذ جعل بعضهم فوق بعض درجات . والله وحده، جلّ شأنه لا شريك له،

هو الذى تجب على الناس جميعا عبادته . لذلك خلقهم، وإليه مرجعهم، وعليه حسابهم. فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره .

"أشهد أنك رسول الله بعثك بالهدى ودين الحق . علّمتنا بأمره ووحيه أن عبادة الله ليست ذلاً وليست خضوعا ؛ إنما هى إسلام لله عن إيمان صادق ابتغاء رضاه عن صالح ما نعمل، والتماسا لعفوه عما نضلّ فيه السبيل، أوتحدّثنا به النفس الأمّارة بالسوء . فمن أسلم لدعوتك مذعنًا غير مؤمن لم يُدرك ما تدعونا إليه، ومن أسلم وجهه لله وهو مؤمن فأولئك الذين رضىالله عنهم ورَضُوا عنه والذين يخشون ربهم بالغداة والعشىّ ،فإذا ذُكِر الله وجِلت قلوبهم ، وإذا رأوا آياته زادتهم إيمانا . ينظرون فى خلقه يريدون أن يعرفوا من طريق العلم سنّته ، ويسعون فى مناكب الأرض ليزدادوا علما، وليزدادوا إيمانا .

"أشهد أنك رسول الله حقًّا وصدقا . علَّمتنا أنّ المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن المؤمنين إخوة حقّ عليهم أن يتحابّوا بنور الله بينهم ، وأن نور وجهه الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة هادينا إلى البرّ والرضا ؛ وأن الحياة محبّة أساسها الإيثار على النفس ، وقِوامها إنكار الذات ، وغرضها المثل الأعلى،ووسيلتها الأُسوة الحسنة ؛ خير رداء فيها الصبرُ،وخير سلاح فيها العلم ، وخير شفيع فيها الصدق ، وخير كنز فيها الثقة بالنفس، وخير أنيس فيها ذكر الله .

" أشهد أنك رسول الله القوىّ الأمين . علّمتنا أن المثل الأعلى لله ، وأن الجهاد فى سبيل الله سبيلُنا إليه، وأن الاستهانة بالموت من خُلق الجهاد ، وأن ما فى الحياة مما دون المثل الأعلى لن يبلغ أن يصدّ عنه أو يقف دونه، وأن الخوالف والقواعد دون الجهاد هم الذين يبتغون بإيمانهم ثمنا قليلا، يُؤْثرون العاجلة وإن هانت، ويرضون من أجلها أن يبيعوا آخرتهم بدنياهم . أولئك نسوا الله فأنساهم أنفسهم ؛ أما الذين جاهدوا فى سبيله فقُتِلوا فليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون .

" أشهد أنك رسول الله أوحى اليك الكتابَ بالحق، لا ريب فيه هدى للمتقين . فيه آيات بيّنات يذكر بها الذين آمنوا وتزيدهم إيمانا، هو يهدى للتى هى أقوم و يبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجرا كبيرا ، فيه شفاء ونور للذين آمنوا ، يدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل الذين آرتابوا بالتى هى أحسن، ويُنذر الظالمين والمعاندين عذابا عظيما . نزّله عليك ربك بالحق ، فبلّغتَ رسالته ، وكنت فيها الأسوة الحسنة للذين يريدون وجه ربهم مخلصين .

"وأشهد أنْ لا اله إلا الله لا نشرك به شيئا ولا نعبد من دونه أحدا، وأن محمداً رسولُ الله، بلّغ رسالات ربه وجاهد فى سبيله، حتى أتم الله النصر لدينه، صلى الله عليه وسلم .

" السلام عليك يارسول الله ! السلام عليك يا أبا بكر ! السلام عليك يا عمر ! "

أتممت نجواى و بقيت مكانى مأخوذا يهتز قلبي وتضطرب مشاعرى و يضىء بصيرتى نور أحسّه فى أعماق نفسى فأرانى أسمو فوق ما أَلِفت، وأذكر موقفى من حِراء ويتمثّل أمامى كرّة أخرى يوم الوحى الأوّل فى سناه وبهائه ، ثم أذكر موقفى من غار ثور وتَمثّل لى هجرة النبيّ إلى هذه المدينة التى أقف الآن بها أمام قبره . وتمثّلتْ أمامى غزواته، وحياته، وأصحابه، وكأنما تَتَابَعُ هذه المواقف جميعا أمام باصرتى مليئة بالحياة ، مضيئة بالإيمان ، وبما يدفع الإيمان إليه من جهاد فى سبيله . وانقضت فترةٌ آن للنفس فيها أن تهدأ؛ فانسحبت من موقفى أمام الحجرة فى إكبار وإجلال، وسرت خافض الرأس حتى بلغت منبر رسول الله فى الروضة، فصلّيت ركعتين واستغفرت الله لى وللمؤمنين، وانصرفت من المسجد راضيا عن نفسى، طامعا فى مغفرة الغفور الرحيم ذنبي؛ هو غافرُ الذنب قابلُ التوبِ شديدُ العقاب .

وعدت إلى الدار وتناولت طعامى وأتممت عُدّة سفرى، ثم ذهبت إلى التكية المصرية أؤدّى لأصحابى المصريين فيها وأؤدّى لناظرها حق الشكر للطفهم كلطف أهل المدينة بى . وسرّنى ماذكروا من قيام طائفة من بنى وطنى فى هذا الوقت الذى أزمعت

القيام فيه لقضاء ليلهم بالمُسَيْجِيد مثلي . فلما تنصف الوقت بين العصر والمغرب كنت بالدار أودّع أهلها وأودّع الذين جاءوا لوداعي من أهل هذه المدينة المباركة، مدينة النبيّ العربيّ، وأرجو الله لي ولهم أن يجمعنا بها كرّة أخرى عما قريب . وسبقنا البُكس بعد أن حمل متاعنا، وأقلّتني السيارة وأقلّت أصحابي معي، وانطلقت تبتغي المُسَيْجِيد لتنطلق منها بكرةَ الصباح في طريق بدر .

وداعاً مدينةَ رسول الله ! وداعاً قبرَ النبيّ الكريم ! وهَبْ لي ربِّ من لدن برّك ورحمتك أن أعود إلى هــذه المدينة فأزور هذه الحجرة المباركة أذكر فيها أشــدّ الناس حبًّا لهدى الناس ، وأُشهدك على حبِّي إياه أكثر من حبي نفسي . لقد اصطفيتَه وفضّلته وجعلته أُسوتنا إلى رضاك وعطفك؛ فهب لنا من فضلك مايسمو بنفوسنا إلى هــذه الأسوة ، وهيِّئ لنــا ربّنا من أمرنا رشــدا ! لك العُتْبَى حتى ترضى ، ولاحول ولا قوّة إلا بالله !

الكِتابُ السّادس

أوبة الرضا

بدر وشـــــهداؤها

خرجنا إذاً من المدينة عصر الجمعة، الحادى عشر من شهر المحرّم، الثالث من شهر إبريل، نقصد المُسَيْجيد لقضاء الليل بـ"أوتيلها" والقيام بكرَة الصباح الى بدر. لقد فاتنى السير فى أثر الرسول الى خَيْبَر، ولم يكن فى المقدور أن أذهب الى حيث ذهبت جيوش المسلمين بأمره الى مُؤْتة والى تَبُوك ما دامت سكة الحجاز الحديدية معطّلة، وسير القوافل الى هذه الجهات غير منتظم، وصحبة القوافل التى تَطّرِدُ أحيانا اليها مغامرة لا أُطيقها. فلأَختمْ جولاتى خلالَ الحجاز بزيارة بَدْرٍ والوقوف على آثارها وعلى قبور شهدائها. فبَدْرٌ هى الغزوة الأولى فى الإسلام، التقى فيها الإيمان والشرك، فنصر الله الإيمان بجنده، وعزّزه بأيده، ووقف فيها رسول الله يستنجز ربه النصر الذى وعده ويقول فى دعاء وابتهال: "اللّهمَ هذه قريش قد أتت بخُيَلائها تحاول أن تكذّب رسولك. اللّهم فنَصْرَك الذى وعدتنى! اللّهم إنْ تهلِكْ هذه العصابةُ اليوم لا تُعْبَدْ". فلمّا أتم الله النصر للمسلمين فيها على خصومهم كان ذلك الفتحَ الأول الذى استقر به الأمر للمسلمين من بعدُ، فكان مقدّمة الوحدة الإسلامية فى شبه الجزيرة العربية، ومقدّمة الأمبراطورية الإسلامية فى العالم كله.

ومررنا إذ خرجنا من المدينة ببئر عُرْوة فملأنا من مائها (ترامسى)؛ وافتقدت فى هذه اللحظة الخرائط التى أهداها إلىّ المستر فلبى، فإذا بى نسيتها بدار مُضيفى ففكّرت فى العود لأحضرها. لكن صاحبى آثر أن نبقى حيث نحن وأن يعود حسن بالسيّارة فيردّها علىّ. وبقينا نتفيأ ظل الجبل بظاهر المدينة، وننعم من هواء الصحراء الجاف الرقيق بما كنت فى حاجة اليه أشدّ الحاجة بعد أن قضينا بالمدينة عشرة أيام كاملة.

وعاد حسن بالخرائط وعدنا الى انطلاقنا فبلغنا المسيجيد بعد العشاء، فألفينا جماعة من مواطنينا قد سبقونا اليها. أولئك أعضاء البَعْثة الطبية المصريّة الذين

غادروا المدينــة يبتغون يُنْبُع ليُـدركوا الباخرة المصرية الأخيرة العـائدة الى أرض الوطن. وقضينا شطرا من الليل أتحدث وإياهم عن الحج والحجاز. وسألت بعضهم: ألَا يريدون أن يروا بَدْرًا معى ؟ وكان جوابهم أن ابتسموا معتذرين . فما حاجتهم الى احتمال مشقة الطريق اليها وقد قضوا حجهم وقنعوا بجزيل ثوابه. قال أحدهم: " لو أن الطـريق الى بدر كان معبدًا لفكرنا فى الاستجابة الى صحبتك! . أما وأنت أدنى الى أن تكون مكتشفا فى ذهابك اليها فاَعذِرْنا . وسنقرأ يوما ما تكتبه عنها، فيكون لك ثواب المشقة ولنا متاع القراءة، وسنجد فى وصفك بدرًا غِنًى عن الضرب فى تيهاء الطريق اليها .

إذ ذاك ناجيت نفسى : أين نحن اليوم من المسلمين الأولين ! أولئـك كانوا يذهبون الى بدر وغير بدر لا تصدهم مشقة ولا يقعد بهم تكاسل . وكانوا يذهبون لا يَعْنِيهم أوَاجههم الموت فواجهوه، أم أقاموا حين موسم بدر — وكانت من مواسم العرب — فنحروا الجُزُر وسَقوا الخمر وعزفت عليهم القِيان . أما نحن فنرغب عن بَدْرٍ وزيارتها حَذَرَ مشقة الطريق، وإن ذهبنا إليها فى السـيارة؛ لأن بدرا لم تبق موسما ، ولأن الكتب لا تذكر لزيارة شهداء بدر والسلام عليهـم، اِدِّكارا لعِـبْرتهم وتأَسِّيا بمثلهم، ثوابا نقتضيه كما يقتضى المرابى ربا ماله . والفرق فى ذلك بيننا وبين السلف الأول أنهم كانوا ينفقون من جهدهم ويبذلون حياتهم ابتغاء رضا ربهم ، يرجون ثوابه ويخشون عقابه، وعند الله حسن الثواب، وأننا لانبذل جهدا، ونضنّ بحياتنا إلا على أهوائنا؛ فإذا دُعينا لخير أو برّ اقتضينا المثوبة عنه معجلة ، أو اقتضينا بهذه المثوبة على الله صكًّا يسجله عالم فى كتاب من كتبه ، نزعم أنه يكون حجتنا على الله يوم الحساب .

وقضينا بفُنْدُق المُسَيْجيد ليلة كليلتنا بفندق آبار بنى حَصَان؛ فلما تنفس الصبح قمنا وقام أصحابنا، فاعاد كل متاعه الى سيارته. وذرّ قرن الشمس ونحن على الطريق الى الحمراء . والطريق يجرى فى واد فسيح تنبت فيه بين حين وحين أغراس من

أشجار شتى . تلك خيوف منثورة بين المدينة وينبع على طريق بدر . (وقد تواضع القوم فى بلاد العـرب اليوم على أن الخيف مجموع بساتين تأخذ وجبتها من المـاء كل أربع وعشرين ساعة ثم يقطع المـاء عنها ليصرف الى خيف غيرها . والخيف فيما تروى المعجمات : ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مسيل المـاء). ويمر الإنسان فى ذهابه الى الحمراء بخيف الحزامى وأم ديان .

ومن الحمراء يسير الذين يقصـدون يَنْبُع فى طريق عُبِّـد للسيارات يؤدّى الى منطقة جبلية هى منطقة نقب الفار ؛ وقد سمّى الطريق باسمها . أمّا ونحن نقصـد بدرًا فلنا طريق آخر . أين هو ؟ وكيف يتّجه؟ سألت الجندى الدليل الذى أوفده أمير المدينـة معنا فلم يكن أ كثر علمًا بالأمر منّى . لا سبيل اذًا إلا أن نسأل أهل المنطقة . وفى أمثالنا المصرية : "من سأل لا يضلّ" . وسألنا صغيرا هناك هدانا طريقا لم نلبث حين سرنا فيه أن رأينا من موج رماله ما ذكّرنا بليلتنا بين بئر الشيخ وآبار بنى حصان . ولم يَكْذِبْنا حَدْسُنا ؛ فسرعان ما غاصت السيارة واضطررنا الى النزول منهـا والى التعاون على دفعها . وفيما نفعـل مرّ بنا بدوىّ خاطبه الجنـدى النجدىّ فى لهجة الآمر فجاء يعاوننا ، ثم ذكر لنا أن هذه الطريق تؤدّى الى بدر حقّا ، ولكنها طريق أفسدها السيل ولم تمرّ بها طول العام سيّارة واحدة .

نبتت فى هـذه الرمال أشجار وحشائش دلّتنا على أن المـاء منها قريب . لكن ماعسى يجدى المـاء وآقترابه إذا لم يستعن به الإنسان على حاجاته ، ومنهـا تعبيد الطرق ! . على أن للحكومة العذر ألا تعبّد طريقا قلّ من يمرّ به . وإنا لنتبادل هذه الملاحظات ونتعاون على دفع السيّارة إذ مرّ بدوى يتبع بعيرا له . فلما علم أنا نقصد بدرًا بدت على وجهه الأشعث شبهة آبتسامة ، ثم قال فى لهجة غريبة قولا لم أفهم إلا قليلا منه ، فسّره أصحابى بأنا نغامر باختيار هذا الطريق للسيّارة وللبُكْس . ووقعت عينُ بعيره على نبات فى الأرض فأقام يرعاه ؛ ووقف البدوىّ فى جانبه صامتا لا يشترك فى معاونتنا ولا يدفع بعيره ليسير . وعجبت لأمره ، ورأى صاحبى عجبى . فابتسم وقال :

وما يعجبك ومرعى بعيره أثمن ما فى الحياة عنـده! فهو يحمل عليـه الحاج ومتاعهم ويرتزق من حمله ، وهو يقف إلى جانبه كلما وجد البعيرُ مرعى ينال منه رزقه . وأمسك صاحبي هنيهة ثم أردف : تلك حياة البادية .

"تلك حياة البادية"! أثارت هذه الكلمة فى نفسى صورة العيش فى هذه البلاد منذ القدم، وصورة العيش فى البادية حيثما وجدت من أرض الله . ولطالما رأيت البدو فى مصر يجيئون إليها من الشام أو من المغرب ويرتحلون عنها أو يقيمون بها ولا تتغيّر فى الحالين عاداتهم ما بقى الارتحال فى طبعهم . فالجلوس فى خيامهم إذا أقاموا ، والارتحال وراء دوابّهم إذا تحملوا ، والحديث المتصل ما اجتمعوا ، يقص كلٌّ أثناءه من مبالغات الخيال مالا يحد فى الطبيعة المترامية أمامه حدًا . أليست الطبيعة المترامية مصدر الإلهام الوجدانى للمهذَّب؛ وهى مصدر المبالغة الحمقاء للجاهل الذى يرى بعين خياله من الجنّ فى أطوائها مالا تقع عليه عين بصير ! . وفيم عسى أن يفكر هذا البدوىّ الواقف الآن الى جوارنا إذ يقضى الأيام وحيدا مع بعيره ثم لا يجد من يخاطبه إلا أن يلقى إنسانًا مصادفة كما لقينا ؟ إنه لا ريب يدع لهواجس خياله العنان تُسعده حينا فتمدّ أمامه حبال الأمل، وتشقيه آخر فتضيِّق عليه نطاق اليأس، ثم لا يجد متنفَّسا ليأسـه ولا لأمله إلا فى مناجاة نفسه والتحدّث فى خياله إلى من لا يراهم من أحبّته وأعدائه؛ وذلك هو الشعر عند أهل البادية الأقدمين، وهو هذه المقاطيع التى سمعت منها بالطائف الشىء الكثير، والتى تصوّر النظم الشعرى عنـد أهل هذا الجيل فى شبه الجزيرة .

وأنقذ تعاوننا السيّارة من ورطتها فى الرمال كى تقف بعد قليل من مسيرها أمام أشجار متشابكة فى الطريق . وقطع أصحابى من فروع الأشجار ما أتاح لنـا المرور، ثم إذا بنا نقف بعـد دقائق أمام غدير لا مفرّ للسـيّارة من عبوره علّها تسير بعـده فى طريق خلناه مستقيما . وخاض دليلنا مياه الغدير وجعل يتحسس قاعه ليرسم للسيّارة المكان الذى تمرّ به. وبعد لأْيٍ قذفنا فى الأمكنة التى أشار إليها أحجارا ترتكز عجلات

السيارة عليها حين انحدارها إلى الغدير. بذلك نجحنا فى التغلّب على هذه العقبة الثالثة، وانطلقنا نسير فوق أرض صُلْبة لقربهـا من الجبال . ويرى الدليل ما بى من سخط لهـذه العقبات التى تصادفنا والتى كنت أعزوها لجهله الطريق، فلا يضيق ذرعاً ولا يبدو عليـه التأثُّر، بل يهوّن علىّ الأمر فيذكر أنا اجتزنا أشق الطريق ولم يبق أمامنا إلا أيسره . ونمرّ بين آن وآن بخَيْف من الخيـوف وبخُضرته الناضرة وشجره النامى، فيهدأ لمرأى الخضرة والمـاء سخطى، وأكاد أصدّق الدليل وأقتنع بأن المشقة انتهت . وزاد فى أملى أن طال بالسـيّارة المسير دون أن يقفها موج الرمال أو أن يعترضها شجر أو غدير . وإنا لكذلك فى واد بين جبلين إذا السيّارة تغوص إلى بطنها ولا يبق لها إلى حركة من سبيل . وما أدرى لمـاذا استشطت غيظًا هـذه المرّة . وبلغ الغيظ منى أن قلت : فَلْنَعُـدْ إلى المُسَيْجيد أو إلى الحمراء لنسلك طريق نقب الغار إلى ينبُع حتى لا تفوتنا الباخرة بعـد غد . فلما رأيت الدليـل ورأيت أصحابى منهمكين فى إخراج السيّارة من مَغْرَزها أمسكت عن القول وإن استمسكت بعزمى على العودة من حيث أتينا . فقد زالت الشمس ومالت إلى الغرب ومازال نضرب فى طرق لا يعلم إلا الله أيّان منتهاها . وقضى القوم ما يزيد على نصف ساعة حتى أخرجوا السيّارة، ثم التفت إلىّ الدليل فى هدوئه وقال : لم يبق من الطريق إلا أقلّه، وبلوغ بدر أيسر من العودة إلى الحمراء . وكنت قد سكن رَوْعى وقد حمدت للقوم مابذلوا من جهد شاقّ فلم أجادل . وانطلقنا فاذا بنـا بعد قليل أمام منحدر وَعْر لم أُدرك كيف يهبط السائق بالسيّارة منـه ، وكيف يتبعه صاحبه بالبُكْس . على أن حسنًا لم يتردّد . وكل ما طلبه إلينا أن نغادر السيّارة وأن نهبط هـذا المنحدر على أقدامنا مخافة أن ترتطم رءوسنا بسقف السيارة فيصيبنا من ذلك أذى . وفعلنا وهبط بعدنا والسـيّارة تكاد تنقلب به ظهـرًا لبطن . وعدنا وإيّاه، فاذا نحن على طريق صخرىّ معتدل، وإذا أمامنا أشجار عاليـة ما لبث حسن حين رآها أن دفع بالسيارة إلى غاية سرعتها وخلّفنا البكس وراءنا . فلما طال بنـا السير ولم نبلغ بدرًا بدأت المخاوف تعـاودنا . ووقفنا متردّدين عند أشجار عالية، ثم تخطّينا خلالَها فاذا ضيعة

مطمئنة بينها. وسألنا أهلها عن بدر فقالوا : إنها منّا قريب ؛ فرجوناهم إذا ما رأوا البكس أن يهـدوه السبيل ، وعدنا منطلقين حتى اجتزنا منطقة الأشجار إلى البادية الجرداء . آنذاك بدا لنا عن بعد سراب لم أحسبه شيئا ؛ لكن الدليل أشار بأصبعه إلى ناحيته وقال : هذه بدر .

وهـدأ حسن السير لعـل البُكْس يدركنا . ورميت ببصرى إلى الناحيـة التى أشار الدليل إليهـا أتمس فى أطواء جوّها صورة غزاة بدر من المسلمين الأوّلين ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسهم ؛ وأتمس كذلك جمع المشركين بجحفله وبعديده وعُدّته . وقلت لصاحبي : " ترى هل سلك النبيّ عليـه السلام بجيش المؤمنين هذه الطريق التى سلكنا من المدينة الى هنـا؟ " . وسكت صاحبي هنيهة يفكر ثم قال : " لا أدرى ! ولكنى لا أحسبهم سلكوها . وأكبر ظنى أنهم جاءوا من ناحية آبار بنى حَصان وبئر الشيخ . على أنى لا أقطع بشىء من ذلك ، بل لا أرجحه ؛ فالطرق فى هذه البادية بين المدينة وينبع كثيرة ؛ وقد اختلفت فى الأزمان الأخيرة غير مرة . فتعيين الطـريق الذى سلكه رجال بدر الكبرى ليس أمرا ميسـورا " . وأجبت بعد أن فكرت مليًّا : " إنك لعلى حق . ورواية التاريخ تشهد بأن هـذه المنطقة من الحجاز كانت كثيرة التمر على عهد الرسول ، وكانت لذلك مقام قبائل كثيرة اتخذت منها حضرا وموئلا . وما أحسبنا نصادف اليوم فيها هذه البطون والقبائل التى كان النبيّ يوادعها أو يحالفها كلما خرج الى سريّة من سراياه أوّل عهده بالمدينة . فقـد جنت الأحوال السياسية والاجتماعية على هذه البلاد وحضارتها وطُرقها ، فما يكاد شىء مما بها اليوم يشبه ما كان بها فى صدر الإسلام . أمّا وذاك شأنها فحسبُنا أننا بلغنا بدرًا ، ولعلنا نجد بها للاستشهاد الحق فى سبيل الله ذكرا حسنا " .

وبدأت منـازل بدر تتّضح معالمها للنظر ، فلم أصدّق من أمرها ما رأيت . لقد أحيينا بمصر ذكرى بَدْرٍ منذ عام ، فبدت لنـا يحيطها التاريخ بهالة من جلال وإكبار . هذا الى أنها كانت قبل الغزوة الكبرى سوقا من اسواق العرب وموسما

من مواسمهم . وفى غزوة بدر نزل قوله تعالى : " إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَآئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ " . ألا يجدر بمكان ذلك شأنه فى الإسلام ، وكان فى الجاهلية سوقا وموسما ، أن تهوى اليه الأفئدة وأن يجتمع الناس حوله وأن يكون مدينة ذات شأن ! . فما هــذه المنازل التى نرى ، وهى أدنى الى الأكواخ منها الى المنازل ، بل الى الآثار الدارسة منها الى الربوع المأهولة ! .

لم تضنّ الطبيعة على بدر بمـا يُصلحها للمقام والحضر . فالمـاء بها وعلى مقربة منها وفير . وهذه المنطقة بين بدر وبين المدينة تكاد تعدل منطقة الطائف خِصْبا . لقــد مررنا بين الحمراء وبدر بخَيْف الحرمان ، وخيف الواسطى ، وخيف دُغْبَج ، وخيف الحسينية . وخيف الفارعة ، والخيف الجديد ، وكلها ذات ميـاه ونبات وشجر ، وبها ضياع تحدِّث عن شىء من النعمة وخفض العيش . فما بال بدر تبدو دونها جميعا حياة ونضارة ! . أم بلغ من إكبار الناس للغزوة الكبرى أن آثروا ترك المكان الذى حدثت به لا يقرَبونه ؟ ! إن يكن ذلك فلعل لهم فيــه بعض العذر . فللاستشهاد مهابة وقداسة . وفى طبيعــة المهابة أن تباعد بيننـا وبين ما تمتلئ له نفوسنا إعظاما وإكبارا .

وناجيت نفسى : " ترى أية صورة لذكرى بدر أقامها أهل هذه البلاد حيث وقعت " . وأراد خيالى أن يمثّل هــذه الصورة . لكننى ما لبثت أن ابتسمت حين ذكرت ما مررت به من المواقف الجليلة فى تاريخ الرسول ممـا لم يخلِّد سوى التاريخ ذكرَها . أم ترى أقام الخلفاء والملوك ببــدر مسجدا تحدِّث قبابه ومآذنه الذاهبة فى السماء عن بعض ما حدث يوم التقى الجمعان : جمع المؤمنين وجمع المشركين ! إنى لا أرى أمامى قِبابا ولا مآذن . فلأنتظر ففى هنيهة سأرى .

اِستدارت السيّـارة حول المنـازل المبعثرة هاهنـا وهناك ، فهى بذلك أدنى فى نظامها الى الآثار الدوارس منها الى مقام الأحياء . ولم يطل بنا السـير إذ وقفنا

أمام بناء متواضع قيل لنا إنه زاوية السنوسى . ولقينا هناك رجلا عرفنا أنه سادن الزاوية والموكَّل بأمورها جميعا . فسأله صاحبي عن أمير بدر، وعلمنا منه أنه غائب عنها . وعجبت لاسم الأمير يطلق على رجل فى قرية بل ضـيعة شأنها ما رأيت . لكن عجبي زال حين علمت أن كلمة الأمير تطلق فى بلاد العرب على كل والٍ لمدينة أو قرية أو ضيعة . لو أن هـذه التسمية طبِّقت فى مصر لقيـل لعمدة القرية إنه أميرها، ولشيخ العـزبة إنه أميرها، ولكان فى مصر ألوف وعشرات الألوف من الأمراء، ولَفَقد هـذا اللقب ما له فى نفوس المصريين اليوم من إجلال ! وهـل للألقاب والأسماء قيمة إلا بقيمة مسمياتها وما تبعثه فى النفس من أثر ! .

وسألَنا سادنُ الزاوية : " أتبغى وكيل الأمير؟ " وأرسل فى طلبه حين أجابه أصحابى بالإيجاب، وألحّ على الرسول فى استعجاله حين رأى دليلنا الجندى الوهابى ينبهه إلى واجب أمير بدر ووكيله . وفتح السادن زاوية السنوسى فتخطّينا باباً فى مثل تواضع البناء وقلة ارتفاعه الى فنـاء ضيّق امتدّ بهو الزاوية عن يمين الداخل اليـه . وبهو الزاوية مستطيل يكاد يبلغ طوله خمسـة عشر مترا ، وعرضه خمسة أمتار ، وقد فرش بحصير قديم هو أكثر ما فى المكان تواضعا .

وجلسنا أول ما رأينا الحصير وطلبت الى أصحابى أن يجيئونا بالطعام . فقد أذّن العصر ولم نتناول مذ تركنا المُسَيْجِيد وجَبَةً، وقد أجهدنا ما لقينا فى سيرنا من مشقة مرهقة . ولا شيء ألذ من طعام السـفر البسيط ولا أصحّ منه . ثم توضّأنا وصلّينا بالزاوية . وقمت أدور حولها لعلى أجد فى ناحية منها ما يصلح رمزًا لهـا أُوجّه اليه عدسة " الفوتوغرافيا " . فلما لم أجد ما يصلح لذلك وقفت عند ركن أسرّح الطرف منه الى ما حولى، وأفكر وأنا بموقفى فى هذه الزاوية ومَنْ بناها، وفى تصوّره وأمثاله الرواقيّين المسلمين للحياة، وفى بُعْد هذا التصوّر عما أفهم من روح الإسلام. فهذا الدين يدعو الى عدم الاكتراث بالدنيا ومادّتها، لكنه لا يدعو الى الرغبة عنها والزهد فيها ؛ بل هو يدعو الى السعى للرزق والى الجـدّ فى العمل . يقول الله جلّ

شأنه فى كتابه العزيز: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ﴾. فالذين يبتغون الدار الآخرة وينقطعون لذلك عن الحياة وما فيها ينسون نصيبهم من الدنيا ولا يسعون فى مناكب الأرض ليأكلوا من رزق الله وليحسنوا كما أحسن الله اليهم. أم ترى الذين ينقطعون الى العبادة ويدعون الى الفقر يبتغون بهما التطهّر إنما يفعلون ذلك على أنه خير نصيب يناله الإنسان من الدنيا، وأن إحسان هؤلاء الى الناس كإحسان الله اليهم إنما يكون بدعوة الناس الى الفقر والعبادة؟. هذا رأى له قدره واحترامه؛ لكنّى أراه بعيدا عن روح الإسلام كما أفهمه من كتاب الله الكريم.

وانطلقنا نبتغى ميدان بَدْرٍ وقبور شهدائها. وليس يحول بين الزاوية وهذا المكان حائل من بناء، بل يفصل بينهما فضاء فسيح منبسط هبطت عليه فى هذه الساعة من موليّات النهار ظلالٌ لم أُعَنِّ نفسى أكان سببها غمام حجب الشمس، أم أن الشمس توارت وراء الآكام. وفيما نسير فى هذا الفضاء الفسيح نبتت أمام النظر أحجار قائمة فى صفوف متراصّة. قال صاحبى: "هذه قبور الذين قُتِلوا هاهنا فى الموقعة التى حدثت بين الأشراف والسعوديّين من عشر سنوات". فجاءنى هذا النبأ فوقفت هنيهة مشدوها أسائل: "أغزوةٌ فى هذا المكان بين طائفتين من المسلمين! يا للعار! إن بدراً لحريّة أن تكون حراما على المسلمين جميعا كحرمة مكة وكحرمة البيت العتيق. وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ولم يجدوا من يصلح بينهما ويقاتل التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله، فحق عليهما أن يجتنبوا القتال فى مكان له على التاريخ من الحرمة أنه أول مكان انتصر فيه الإيمان على الشرك وحقّت فيه كلمة الله على الكافرين". قلت هذا والغضب لما فعل الوهابيّون والأشراف آخذَ منى مأخذه، فلم يجد صاحبى بدًّا من أن يُقِرّ رأيى، وإن كنت أحسبه قد تولّاه العجب أن يثير الأمر من حماستى ومن غضبى ما أثار.

وزاد فى عجبى وفى غضبى أنهم يطلقون على هذه الغزوة بين الأشراف والنجديّين اسم غزوة بدر، وكأنها وقعت كما وقعت بدر الكبرى بين المؤمنين والمشركين.

قال صاحبي : " هوّن عليك ! فالوهابيّون الغُلاة الذين غزوا الحجاز غزوه باسم العقيدة ، مدعين أن من خالف مذهبهم مشرك كافر . أمّا وذاك رأيهم فلا تثريب عليهم أن يغزوا فى بدر وأن يذهبوا الى أن الله نصرهم فيها كما نصر الرسول على أعدائه " . وصمت هنيهةً ثم أردف : " ولم يكن بدٌّ أن يدافع أبناء الحجاز عن أنفسهم وقد هاجمهم خصومهم فى هذا المكان وشنوا عليهم الغارة فيه " .

وتخطينا مصعدين هضابًا تقع عندها قبور الشهداء الأوّلين ، شهداء بدر الكبرى . وما لبثت حين آقتربت من هذا المكان أن نسيت الوهابيّين والأشراف وغزوتهم وأن هان عندى أمرها ؛ فقد تعلّق كل حسّى بهذا المكان الذى طالما رسمته من قبل أمام ذهنى ، وآستيقظتْ فى ذاكرتى أدقّ التفاصيل من هذه الغزوة الأولى بين محمد وخصومه ، وكدت أرى أبا بكر وعمر وحمزة وعليًّا حافّين من حول الرسول . وتابعنا تقدُّمنا وتصعيدنا حتى كنا عند هَضْبة حُفرت أمامها فى الأرض فجوة أُحيطت بسياج من بناء . هنالك وقف القوم جميعا حول السياج ، وقال سادن زاوية السنوسىّ : " هنا قبور شهداء بدر رضى الله عنهم " . وسادَنا لسماع هذه الكلمات صمت رهيب شعرت من هيبته بأن قلبى يزداد خفقا ، وأن جوارحى كلها تزداد تنبُّها ، ثم رأيتنى أحدّق فى قاع الفجوة ، كأنما أرى هؤلاء الشهداء رأى العين وأقول : "السلام عليكم شهداء بدر ، رضى الله عنكم ، وغفر لنا ولكم ! " . وانطلقت أتلو الفاتحة ويتلوها أصحابى جميعا . ثم انطلقت ألسنتنا بالدعاء والآستغفار صادرين من قلوب صادقة فى دعائها ، مخلصة فى آستغفارها ، أُشْرِبتْ للراقدين فى هذا المكان حبًّا وإعظاما ، وللذين جاهدوا معهم فى سبيل الله إكبارا وتكريما .

وبعد فترة لا أدرى أطالت أم قصرت تحدّث أحد أصحابى مشيرا الى لوحة ثبِّتت فى الصخر حيث كان يقف وقد كتبت عليها هذه الآية الكريمة : ﴿ يَالَيْتَنِى كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

يا للعجب ! لقد سمعنا هذه الكلمات قبل اليوم عشرات المرّات ، وكنا فى كل مرّة نسمعها فى إكبار وتقديس كإكبارنا وتقديسنا كلما سمعنا آى الذكر الحكيم .

أمّا اليوم فكان لها فى نفوسنا من عظيم الأثر ما اهتزله كل وجودى من شعر رأسى الى أخمص قدمى . وتمنّيت صادقا لو كنت قد أبليت مع الذين أبلوا فى بدر فاستشهدت مثلهم وثويت فى قبر من هذه القبور معهم . ما أعظمه فى الحقّ فوزا ونخرا! وما أجلّها غاية يهنأ الإنسان بها أن يستشهد فى سبيل إيمانه بالله . فما الحياة اذا غاض منها الإيمان وتضعضعت فيها العقيدة! إنها تفقد إنسانيّتها ويُصبح الشخص فيها حيوانا شأنه شأن سائر الحيوان ، همّه أن يأكل ويشرب ويتناسل إجابة لدواعى الغريزة ودوافع الاحتفاظ بالنوع . واذا آستوى الإنسان والحيوان فلا خير فى الحياة . فانما يتميز الإنسان على الحيوان بحياته المعنويّة . والعقيدة والإيمان هما سرّ هذه الحياة المعنوية وقِوامها . فاذا غاض هذا السرّ وضمر ضمرت إنسانيّتنا حتى تغيض ، ورُدِدنا بذلك حيواناً كل الفرق بينها وبين غيرها من الحيوان أنها تنطق ، ولكن كنطق الببغاء ، نطق تقليدى لا آجتهاد فيه ، وأنها تسير على قدمين بدلًا من أن تزحف أو تسير على أربع .

العقيدة والإيمان سرّ الحياة الإنسانية وروحها ومظهرها ، بل هما الحياة الإنسانية وسبب وجودها ، ولولاهما لما كان لهذا الكون بالإنسان حاجة ، ولما كان لوجود الإنسان فيه سبب . وقيمة الحياة الإنسانية أن يتحققا فيها ، أو تصبح هذه الحياة عبثا يجب أن يتنزّه مبدع الكون عنه . والعقيدة والايمان أعظم قوّة فى الحياة . أمامهما تندكّ الجبال وتضطرب الرواسى وتخرّ تيجان الملوك ساجدة أو تتحطم تحطُّما . وهما اللذان سارا بالكون والحياة إلى ما بلغنا من تقدُّم . وهما لذلك الجديران دون سواهما بأن يُضَحَّى بالحياة فى سبيلهما . أمّا ما سواهما فى الحياة فأهواء ومطامع لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ولا قيمة لها فى التقدير الإنسانى السليم . فالمال والجاه والحكم والسلطان أوهام باطلة وضلال يُمليه الغرور ؛ لذلك لا بقاء لها على الحياة . وماذا خلّف الإسكندر للإنسانية بملكه الطويل العريض ! وماذا خلّف قارون بماله إلا المثل المأثور يطلقه الناس على المال المتكاثر فيقولون إنه مال قارون ! وماذا خلّف أولو الحكم والسلطان ! . فأمّا أرباب العقيدة والذين ملأ الإيمان

قلوبهم خلّفوا تراثا تتناقله أجيال الإنسانية ، ضخما كان هذا التراث أو ضئيلا . ولا يزال الناس يتذاكرون حتى اليوم آراء سقراط وأفلاطون وأمثالهما من حكماء اليونان وفلاسفتها كما يذكرون أولى الرأى المؤمنين برأيهم فى غير اليونان من الأمم القديمة . وأصحاب المذاهب الأربعة الإسلامية أبقى فى الحياة أثرا من ملوك المسلمين وأمرائهم جميعا . وأولو الرأى هؤلاء لم يجاهدوا فى سبيل آرائهم ولم يبذلوا لها روحهم وحياتهم . أمّا الذين آمنوا وافتدوا إيمانهم بحياتهم من شهداء بَدْرٍ ومن إليهم ، وأمّا الذين جاهدوا فى سبيل الله بأرواحهم لنصر كلمة الحق ، فأولئك جميعا أحياء عند ربهم يرزقون ، وأولئك تذكرهم الإنسانية فى إجلال وإكبار ويقول كل واحد من أبنائها البررة كلّما ذكرهم : "يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما" .

وشهداء بدر القدوة والمثل فى افتداء الإيمان بالحياة ، وفى قوة المؤمن بإيمانه ، وفى سمو الإيمان بالحياة إلى المثل الأعلى . فهؤلاء ثلاثمائة من الرجال جاءوا بدرًا لا يريدون حربا ، بل يريدون أن يأخذوا عِير أبى سُفْيان لقاء ما أخرجت قريش صفوتهم من مكة بعد أن آذتهم وأبعدتهم عن أموالهم وأهليهم ، فاذا أبو سفيان فاتهم ونجا بنفسه وبعِيره ، وإذا قريش خرجت إلى بدر بقَضِّها وقضيضها وألقت إلى قتال المسلمين بأفلاذ أكبادها ، حتى لم يبق بمكة بعد خروجها متخلفٌ قادر على القتال . أفيُقاتل المسلمون هذا الجيش ورجاله ثلاثة أمثالهم عددا وعُدّة ، وليس لهم من وراء هذا القتال بعد نجاة أبى سفيان مأرب؟ لكن قريشا جاءت تناجزهم ، فلم يبق الأمر أمر أبى سفيان وعِيره ، بل صار أعظم من ذلك وأجلّ خطرا ؛ صار الإيمان والشرك يلتقيان . ولقد أدرك المسلمون هذا الموقف مذ عرفوا خروج قريش تحمى تجارتها ، وأدركوا أنهم إن تقاعسوا أو تضعضع ركنهم علت كلمة الشرك وعادوا من أذى قريش إلى شرّ مما كانوا فيه بمكة ؛ فهان على يهود يثرب أمرُهم ، ولم يبق للدّين الذى بعث الله به رسوله أيد ولا قوة . لذلك تمثّلت كلمة المهاجرين حين شاورهم النبيّ فى قول المِقْداد بن عمرو "يا رسول الله ! امْضِ لِما أراك الله فنحن معك . والله لانقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اِذْهَبْ أنت وربُّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون . ولكن اذْهَبْ أنت

وربك فقاتِلا إنا معكما مقاتلون". وتمثلت كلمة الأنصار فى قول سعد بن مُعاذ محدثا النبي: "لقد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثقنا على السمع والطاعة. فامضِ لما أردتَ فنحن معك. فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضتَه لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تلقَى بنا عدوّنا غدا. إنا لصُبُر فى الحرب، صُدُق فى اللّقاء. لعل الله يُريك منا ما تقرّ به عينُك. فسِرْ بنا على بركة الله".

لم يكن موقف المسلمين من قريش أمر مال وغنيمة إذًا، بل كان الإيمان والشرك يلتقيان. لذلك لم يلبث القوم حين نظّموا صفوفهم وأخذوا للقتال عُدّتهم أن بدت بينهم قوة الإيمان وضعف الشرك: بدت قوة الإيمان المتّصل بالله وحده سامية على كل قوة، فلا يغلبها فى الأرض غالب. ولقد آستعرضتُ أمام ذهنى وأنا بموقفى من قبور الشهداء هذا المنظر الفذّ من مناظر التاريخ، فبهرنى ما للإيمان من قوة لا تغلّب. نزل الفريقان منازل القتال والمسلمون فيما رأيت من بأس وعزم، وقريش ما يزالون مترددين يقول لهم عُتبة بن ربيعة: "يا معشر قريش! إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا. والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل قتل آبن عمه أو آبن خاله أو رجلا من عشيرته. فآرجعوا وخلّوا بين محمد وسائر العرب. فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون". ولولا حِدّة أبي جهل ودفعه عامر بن الحَضْرمِيّ ليأخذ بثأر أخيه الذى قتله المسلمون فى سرية عبد الله بن جحش، ولولا أن آندفع الأسود ابن عبد الأسد المخزوميّ من صفوف قريش إلى صفوف المسلمين فعاجله حمزة ابن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دما فلم يبق بعد الدم من القتال مفرّ، إذًا لغلب التردد قريشا ولآرتدّوا على أعقابهم كاسرى الطرف فى غير قتال خاسئين. والآن تبدأ المعركة. أُنظر! إنى أراها بعينى فى هذا الوادى المنبسط أمامى تحيط به الهضاب والكُثبان من كل جانب. فهذا عُتبة ابن ربيعة الذى كان يُهيب بقومه منذ لحظة أن يرجعوا قد خرج فى سلاحه بين

أخيه شيبة وابنه الوليد يدعو المسلمين للبارزة . ويخرج إليه فتيان من المدينة فيأبى قتالهم وينادى المنادى: "إنما نريد أكفاءنا من قومنا"، فيخرج حمزة بن عبد المطلب وعلّى بن أبى طالب وعُبَيْدة بن الحارث. ألا تراهم! ما أشدّ ماترمى عيونهم بالشرر!. واعجبا! هؤلاء قوم لا يريدون قتالًا بل يريدون استشهادا. لقد انقضّ حمزة على شيبة وانقض علىّ على الوليـد كما ينقض البازى على فريسته، فإذا المشركان مُجَنْدَلان ضرّجتهما دماؤهما . أمّا عتبة فيحاول أن يثبُت لعبيدة، فإذا حمزة وعلى قد فرغا من خَصْميهما يُجهزان عليه كما أجهزا على أخيـه وابنه . يا لَعار قريش ! يا لَعار هـذا الجحفل اللَّجِب ! أفقُدّر لهؤلاء الذين أجلتهم قريش عن مكة أن ينتصروا عليهـا وأن يهزموا جموعها! . فلتزحف هذه الجموع إذًا حتى لا يبقى لمحمد ولأصحابه باقية .

رِفقَك اللّهم ! هذه جموع قريش تزحف، وهـذه جموع المسلمين تزحف . رفقَك ربّى ورحمتَك! ماذا يصنع ثلثمائة من المسلمين بألف من قريش ! . وهـذا رسول الله بين المسلمين يعدل صفوفهم . لكن زحف قريش يزيدها بأسا، وتفوّق عديدها على المسلمين يجعلها تحيط بهـم وتكاد تُغرقهم فى لجتها . ربّ ماذا كتبت فى لوحك المحفوظ مصـيرا لهذا اليوم العصيب؟! هذا رسول الله يعود إلى المؤخّرة ويقف فى العريش الذى بناه له أصحابه قبل الموقعة وهو أشد مايكون إشفاقا من هذا المصير ومن خاتمة المعركة . أين وَعْد الله النصر إذًا ؟ وهل أثم المسـلمون بجزاهم الله بإثمهم هذا الموقف الرهيب ؟ .

أُنظر كرّة أخرى! فالآن يتخـذ كل فريق فى زحفه مواقف الاشـتباك بخَصْمه ويكادان يلتحمان . والآن يقف رسول الله وجلًا مشفقا مستقبلا القبلـة متجها بكل نفسه إلى ربه يناجيه ويخاطبه: "اللّهم هذه قريش قد أتت بخُيَلائها تحاول أن تكذّب رسولك . اللّهم فنَصْرَك الذى وعدتَنى ! اللّهم إن تَهلِكْ هـذه العصابةُ اليوم لاتُعبَد!". ألا تراه! إنه يمدّ كلتا يديه ويهتف بربه مستغفرا تائبا داعيا مبتهلا. وهذا رداؤه يسـقط عن منكبيه لشدّة توجّهه إلى ربه وهتافه به . ويردّ أبو بكر الرداء على

منكبيه ويهيب به : "يانبيّ الله ! بعضَ مُناشدتك ربَّك ! فإن الله منجزٌ لك ما وعدك". لكن نبيّ الله لا يزال يتضرّع الى الله ويستعينه . ها هوذا جلس فى العريش صامتا وأغمض عينيه كأنه نام . أُنظر إلى وجهه ! إن أساريره لتنبسط وثغره لتضيئه ابتسامة الظفر . إنه لاشك يرى فى هذه الساعة ما لايراه غيره . لقد كشف الله عنه الحجاب فرأى نصر الله منه قريبا . والمعركة تدور هناك فى الميدان رحاها لا يدرى أحدٌ عمّ تنكشف . إن قريشا لعلى ثقة بعددها وعُدّتها ، فهى تحسب النصر وشيكا أن يتمّ . والمسلمون يزيدهم الإيمان فى كل لحظة قوّة على قوتهم فهم يبطشون بكل مشرك تصل اليه أيديهم بطش عزيز مقتدر .

عُدْ بنظرك الآن الى العريش ، لقد انتبه رسول الله من نومه . إنه يخرج الى الناس فينادى فيهم : "والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجلٌ فيُقتَلُ صابرا محتسبا مقبلا غير مُدْبِرٍ إلا أدخله الله الجنّة". ألا ترى الى وجوه المسلمين ساعة طرق سمعهم صوت الرسول ونداؤه إيّاهم بهذه العبارة . ومَنْ من المؤمنين مَنْ لا يريد الجنة ! من منهم من لا يريد نعيم الرضوان فى رحاب الله بديلاً من هـذه الحياة الدنيا وكاذب غرورها ! والجنة للصابرين على البأساء والضرّاء وحين البأس . والجنّة لمن أحسن البلاء فى سبيل الله ومن غمس يده فى العدو حاسرا . والله وليّ الصابرين والذين يستشهدون فى سبيله ، يمدّهم بالملائكة يبشّرونهم ويزيدونهم تثبيتا وإيمانا .

لا أرى أمامى الآن إلا غبارًا ثار نقعه فحجب الميدان وما فيه ، وكأنما اقتطعه من نطاق الزمان والمكان ليجعله على الدهر آية لقوّة الإيمان المتصل بالله له الملك وله الأمر كله . وهذا هو الجوّ الآن ينكشف فأرى . نعم ! أرى الواحد من المسلمين إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوّه إنما تحرّك قوّة الله يده ، وإذ يحدق بنظره الى شِرْذمة من المشركين فى إقبالهم عليه يردّهم على أعقابهم فيتلقّاهم مؤمن من إخوانه يحزّ رقابهم حزًّا ، ويُرديهم فى حفرة الموت هَلْكَى ، وأرى رسول الله يأخذ حَفْنة من الحصباء يستقبل بها قريشا وينفحهم بها وهو يقول : "شاهت الوجوه" ،

فيولّون أمام الحصباء فراراً ويمتلئون من رميها رعبا . وكيف لا يولّون وقد تجسّمت أمامهم قوة الإيمان فهم لا يعرفون لها مدًى ولا حدًا ! ويرون إخوانهم فى الكفر صَرْعَى فيأخذهم الهول ويلتمسون النجاة هربا ! . وتتم كلمة ربك ويُنجز رسولَه وعده فتفرّ قريش ويطاردهم المسلمون ويعودون بالأسرى وقد امتلأت نفوسهم طمأنينة ورضا .

رأيت هذا كله وأنا بموقفى أجيل الطرف فى ميدان بَدْرٍ . فلمّا تم للمسلمين النصر تنفّست الصُّعَداء وملأ الرضا قلبى ، ثم رجعت ببصرى الى ناحية الهَضْبة التى تحتضن قبور الشهداء وانفرجت شفتاى عمـا سمعه أصحابى : " يا ليتنى كنت معهـم فأفوزَ فوزا عظيما " .

وعاد لى بعد هنيهة هدوء نفسى ، فسرت الهُوَيْنَى حتى استوقفنى رجل من بدر عند مكان ذكر لى أنه القَلِيب الذى دُفِن المشركون من صَرْعَى بدرٍ به ، وأضاف : " إن لون الرمال فوقه داكن لِمَـا يلفحه من نار جهنم . وإنك تحسّه دافئا أبدا فى الصيف وفى الشتاء " . ولم أُرد أن أمسك هـذه الرمال بيدى وإن مدّ محدِّثى الىّ يده بحَفْنـة منها ؛ لأنى خشيت ألّا أشـعر بدِفْئها فيتّهـم القوم حسّى ، ولأنى كنت شغِلاً عن ذلك بتعرُّف ميدان بدر وحدوده ومواقف المتقاتلين منه وموضع اشتباكهم فيه .

فمن أى ناحية جاء المسلمون اليه؟ ومن أى ناحية جاء المشركون؟ وأين العُدْوة القصوى؟ وأين العُدْوة الدنيا؟ وأين مكان المـاء الذى أشار الحُبَاب بن المنذر بن الجموح على رسول الله فنزله المسلمون؟ وأين مكان العريش؟ وأين التـقى الجمعان؟ هـذا هو الذى كان يعنينى وعنـه كنت أسأل . وقد أجابنى القوم بمـا لا أعرف مبلغه من الدقّة . ذكروا أن القليب الذى دُفن المشركون به يقع بين العُدوة القصوى وبين قبور الشهداء . وقد رأيتَ أنّا تخطينا من زاوية السـنوسىّ فى سهل منبسط حتى بلغنا هضـبة الشهداء ثم سرنا لم نغـيِّر اتجاهنا حتى كنّا عند القليب . فالعـدوة

القصوى هى إذًا هذه الهضبة القائمة هناك فى الطرف المقابل الى حيث تقوم زاوية السنوسىّ . أما العدوة الدُّنيا فتقع فى رأيهم بين زاوية السنوسى وقبور الشهداء . وتقوم على مقربة من هـذه العدوة الدنيا هضبة أشار اليها دليلنا وقال : هـذا قَوْزُ علىّ . وسألت ما القوز؟[1] فقال : إنه الجبل القليل الارتفاع ، و إن هذا الجبل هو الذى رأى علىّ منه المشركين وأخبر النبىّ بهـم . وقد دلّنى ذلك على أن القـوم يذكرون السيرة ذكرا حسنا ، و إن لم يبلغ غاية الدقّة . فقد بعث رسول الله علىّ بن أبى طالب والزُّبير بن العوّام وسعد بن أبى وقّاص فى نفر من أصحابه حين نزلوا بدراً الى ماء بدر يلتمسون له الخبر عليه . وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان ، عرف الرسول منهما أن قريشا وراء الكثيب الذى بالعُدوة القصوى . لكن ذكر القوم للسيرة لم يكفنى للاقتناع بصحة ما يعيِّنونه من مواقع الغـزوة . فقد رأيت الأماكن التى يذكرونها لا يتفق تحديدها مع ما تصفه الروايات الواردة فى كثير من كتب السيرة .

فأمّا العريش الذى بناه المسلمون لرسول الله ففى مكانه الآن مسجد يسـمى مسجد العريش . وهو قد بنى على طراز مساجد مكة بساطة وضيق رُقعة ، مع أن موقف الرسول فيه من أجلّ مواقف حياته . والمسجد يقع اليوم بين دور بدر ، كما يقع مسجد عدّاس بالطائف بين دور المثناة .

وآن لنـا أن نعود إلى زاوية السنوسىّ لنستقلّ السيّارة إلى يَنْبُع . وفيما نحن فى الطريق سألت سادن الزاوية : أيجىء إلى بدر زوّار يقفون عندها؟ وأجابنى : إن الذين يجيئون إليها قليلون ، وإنهم لا يقفون عندها غير ساعات كما فعلنا ، وإن منهم من يكتفى بزيارة قبور الشهداء للتبرك بهـا وقراءة الفاتحة عندها ، وقليلون يسألون عما سألت عنه من أمر الغزوة وميدانها ومواقعه فيجيبونهم بما أجاب كثيرون به .

وتبسّمت من قوله وذكرت ميدان «واترلو» حيث كانت الموقعة بين نابليون وولنجتون ، وكيف صوّر القوم نموذجا مصغّرا للميـدان ومواقف الجيوش المتحاربة

---

(١) رجعت الى قاموس المحيط فرأيته يذكر أن القوز هو المستدير من الرمل ، والكثيب المشرف ، والجمع أقواز وقيزان . فعلمت أن دليلنا النجدى لم يخطىء فى اللغة حين ذكر قوز علىّ .

منه وأطوار الموقعة فيه تصويرا بارزا يسهل معه لمن شاء أن يحيط بدقائق الموقعة خُبْرا . وليس لموقعة «واترلو» فى حياة الإنسانية بعض مالغزوة بدر من أثر . لكنه العلم ومايُكبره من عبرة التاريخ قد أدّى بأهل الغرب إلى تصوير هذا النموذج البارز لموقعة «واترلو» ؛ وهو الجهل الذى خيّم على العالم الإسلامى منذ عصور الانحلال هو الذى أدّى بهم إلى ألّا يفعلوا من مثل ذلك شيئا يرسمون به لزوار البلاد الإسلامية المقدّسة صورة صحيحة لِما حدث فى عهد الرسول النبىّ العربىّ .

ليس لموقعة «واترلو» ولا لأية موقعة غيرها بعض ما لغزوة بدر من أثر فى حياة الإنسانية . فغزوة بدر رمز صادق للاستشهاد الصريح فى سبيل العقيدة استشهادا مبرّأ من كل غاية أو غرض إلا الدفاع عن هذه العقيدة والإيمان بها والدعوة إليها . وهو استشهاد صريح لأنه يتمّ فى ميدان الشرف بين جموع المؤمنين الذين يواجهون خصومهم . ليس يذهب طالبه فى غسق الليل ولا فى غفلة النـاس ليغتال إنسانا أو طائفة من الناس لأنهم خصوم إيمانه وعقيدته ، بل يدعو ثم يدعو ويستعذب الأذى ويضـحى بمنافع الحيـاة فى سبيل دعوته . فاذا اجتمع حـوله قوم أنِسوا فى نفوسهم القوّة على الدفاع عن عقيدتهم فى وجه خصومهم ، وهبوا حياتهم فى سبيل هذا الدفاع ومشوا إلى الموت حريصين عليـه . ومَنْ حرص على الموت وُهِبَتْ له الحياة ، حياة خالدة فى نعيم الرضا لمن استُشهد ، وحياة راضية سـعيدة مطمئنة لمن لم تكن الشهادة نصيبه . بَدْرٌ هى الرمز الخالد السرمدىّ لهـذا المعنى السامى ، أبلغ المعانى الإنسانية سموّا وأعظمها جلالا . أمّا وذلك شأنها فليس « لواترلو » ولا لأية موقعة غيرها بعض مالها فى حياة الإنسانية من أثر .

تردّدت هــذه العبارة الأخيرة فى نفسى والسيّارة تنهب بنا الأرض إلى ينبُع . فقد خرجنا من ملتويات الطرق ومنعرجاتها الى بيداء منبسطة ذاهبــة فى انبساطها الى حدود الأُفق . ولم تكن رمال هذه البيداء منحلّة يخشى أن تغور فيها العجلات ، بل كانت رمالا شاطئية تتسرّب اليها ميـاه البحر الى أميال بعيدة فتكسبها تماسكا وتجعلها صُلْبة صلابة الأسفلت ، وإن بقيت تحت عجل السيّارة أكثر لينا ومرونة .

ولم تكن هذه البيداء مطروقة ، فلم يخطّ عجل السيّارات فيها دروبا واضحة للسائرين ، ولم يقلب بعض الأماكن القليلة التماسك منها ظهرًا لبطن . كيف لنا أن نعيّن اتجاهنا فيها حتى لا نضلّ الطريق الى ينبُع ؟ ما كان هذا الأمر ليعنيني لولا أنّ «زَمْزَم» تبرح هذا المرفأ بعد غد . لكني ما لبثت أن اطمأننت حين رأيت دليلنا الجنديّ النجديّ يذر مجلسه من البكس ويتخذ لنفسه مجلسا فى سيّارتنا ليهدى السائق طريقه .

وأشهد لقد رأيت من مهارته ما أعاد الى ذاكرتى صورة ما كنّا نحفظه من الأدب العربى القديم عن دقة العرب فى قصّ الأثر . بدأ فصوّر لنفسه موقع ينبع وجعل يُصدر أوامره للسائق بالسير الى اليمين أو الى اليسار كما يفعل رُبّان المركب إذ يُصدر الأوامر من مجلسه فوقها الى الذين يديرون المحرّكات فى قاعها . والسائر يسير بأمره منطلقا فى هذه البيداء المترامية مطمئنا الى أنه لم يضلّ طريقه . وبعد ساعة وبعض الساعة من خروجنا من بدر بدت على الرمال آثار مبهمة لم أحسبها شيئا ، وأيقن دليلنا أنهــا الدروب الى يَنْبُــع . وأقرّ حسن رأيه فزاد فى سرعة الســيارة الى غاية ما تُطيقــه . ومم نخشى وليس فى طريقنا إنس ولا أثر لحياة ، وليس فيها شبهة حجر تمرّ السيارة فوقه ! . واطمأن الدليل الى أنه أدّى واجبه فألقى الىّ بنظرات راضية من عيون دعجاء شديدة البريق ، وكأنمــا يسألنى العفو عمــا سلف فى طريقنا بين الحمــراء وبدر . وشكرته وأبديت عظيم إعجابى بمهارته ونسيت له ما قال عن أهل بَدْرٍ ممن يقيمون اليوم بها .

فقد ذكرت إذ عدنا من ميدان الغزوة الكبرى الى زاوية السنوسىّ متخطين مقابر الأشراف والنجديين ممن دنّسوا هذا المكان بالقتال فيه ، أن هذا البلد يجب أن يكون حراما ، ويجب أن يعرف المسلمون لأهله من الحرمة مقامهم عند الشهداء . فنظر النجدىّ الى سادن زاوية السنوسىّ وإلى أفراد من القرية جاءوا الينا وانضموا الى جمعنا نظرة كلها الازدراء لهم وعدم الاكتراث بهــم وقال : « أهل بَدْرٍ قوم ضعفاء » . يريد بذلك أن الضعيف غير جدير بحرمة ، وإنما الجدير بها من يقدِر على الدفاع عنها . ولم أعقّب على عبارته هــذه وانتظرت تعقيبا ممن وجهت إليهم فاذا

هم سكوت لا ينبِسون . ومع ما دلّ ذلك عليه من أن الرجل على حق لقـد حَزّ في نفسى أن تُصيب أهلَ بدر هذه المهانة وقد شهدتْ أرضهم فوز الإيمـان على الشرك فى غزوة بدر الكبرى .

أنستنى مهارته قالتَه ، وأنسانيها هذا المساء المقبل البديع . فقد بدأت الشمس تتوارى بالسحب ناحية الغرب، وبدأت هـذه البيداء تكسوها ظلال رقيقة تزيد بسطتها بهـاء وروعة ، وتزيدنا بها و بصحبتها متاعاً وسعادة . وقال صاحبى مشيرا إلى ناحية اليمين : "هذه جبال رَضْوَى" . لم أرأنا بالعين المجرّدة إلى ما وراء الأفق جبالا ، ولم أفكر فى الاستعانة بالمنظار المكبِّر . فقـد كنت سعيدا بأننا على هدى فى طريقنا، وكنت أشدّ حرصا على أن أرى طلائع يَنْبُع منّى على أن أرى أشـباح رَضْوَى وما يثيره فى النفس من ذكريات .

"هذه الآن طلائع ينبع" . كذلك قال الدليل مشيرا بيده إلى ناحية اليسار فيما أمامنا . وأسرعت إلى المنظار المكبِّر فصدَّق الدليلَ وكشف لى عن موج البحر . وانطلقت السيّارة تنهب الأرض فى سرعة كأنما جُنّ جنونها . وفى دقائق تبدّى البحر وتبدّت طلائع الثغر للعين المجرّدة . و بعد دقائق أخرى كانت السيارة تدور حول أسوار المدينة تبتغى مدخلها لتبلغ بنا دار مُضيفنا .

وتلقّانى القوم فى هشاشة وترحيب، وأشفقوا مما لقيت طِيلةَ نهارى من وصب حين وصف أصحابى طريقنا من الحمراء إلى بدر . لكننى لم أكن أشعر بمشقّة ولا بتعب . لقد كنت سعيدا بمـا رأيت ، وبمـا أثار فى نفسى من المعانى البالغة غاية السمو . فلما آن لى أن أطمئن إلى مضجعى زدت بمـا انتشر أمام ذهنى من ذلك سـعادةً ورضا . رضى الله عن أهل بدر وغفر لهم، فهم جديرون حقّا بقوله صلى الله عليـه وسلم : "لعل الله قد اطّلع إلى أهل بَدْرٍ يوم بدر فقـال : اعمَلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم" .

يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما !

أوبـــة الرضا

أصبحت بينْبُعَ مطمئنا سعيدا . وهبطت إلى غرفة الاستقبال فألفيت بها قوما من أهل البلد تفضّلوا بزيارتى . فلما تبادلنا الحديث عجبت أن تكون لهجة أحدهم أدنى الى المصرية، وحسبت السبب فى ذلك محاذاة ينبع مصر . لكن الرجل أسرع فذكر لى أنه مصرىّ المولد، وأن له بينبع بضع سنوات احترف فيها مهنة التعليم ، وأن به الى مصر هوًى لولا مايُمسكه من لطف أهل البلاد به ومن شغفه بالأماكن المقدّسة . وشعرت لحديثه كأنما هزّنى الى مصر شوق زادنى هوًى اليها . ياعجبا ! ألذلك سرّ ؟ لقـد رأيت من أمثاله كثيرين بمكة و بجُدّة و بالمدينة فلم تحرّك لقياهم مثل هذا الشوق فى نفسى . تُرَى أفى نبرة هذا الرجل سلطان على هذه الناحية من النفس لم يكن للذين لقيتهم قبله، أم السرّ فى هذه المدينة التى تحدّث فيها ؟ . إذ ذاك ذكرت ما يحرّك اقتراب الأوبة الى الوطن من حنين النفس اليه وما يشتد بنا من الشوق الى الأعزّة فيه عند وقوفنا على شاطئ البحر الذى يصل بيننا و بينهم، وكأنما تحمل الينا أمواجه من روحهم مالا يحمل الينا الأثير ونحن نضرب فى الأرض . أم أن اقتراب اللُّقيـا يحرّك فى النفس لواعج تظـل حبيسة لا تثـور ماكان الأمل فى اللقاء بعيـدا ، فاذا تنسّمنا ريح الوطن يدنو تمثّلنا صـدور الأعزّة تقترب من صـدورنا وقلوبهم تمتزج بقلوبنا فرقّت فى جوانحنا عواطف الودّ والمحبـة تريد أن تطير بنا اليهم وتخلّف وراءها ما بقى بيننا و بينهم من أيام ! .

وخرجت من الدار مع أصحابى لزيارة أمير ينْبُع ،فعلمت منه أن "زمزم" رست فى المرفأ وأنها قيد النظر . وشربنا القهوة النجديّة والشاى واجتمرنا بذلك العود الذكى الرائحة والذائع اليوم فى البيئات الرسمية بالحجاز . وتناول حديثنا سفر "زمزم" ومرفأ ينبع وما يجـده المنتقل منه إلى البواخر الكبيرة من مشقّة إذ تنقله الزوارق الصغيرة من الشاطئ اليها فى بحر مضطرب الموج أكثر الأحايين . وتابعنا الحديث فى اتصال

البلاد التى تتكلم العربية جميعا، وفى سهولة المواصلات بينها، وفيما أدّى ذلك اليه من ارتباطها من قبل فى الوحدة الأمبراطورية الإسلامية، وأسفنا لجناية الدهر على هذه الروابط ولتفريط المسلمين فى العمل على إعادتها، وانتهينا من ذلك الى حلو الأمانى. ولم يكن حديثنا فى هـذا كله ليتعمّق فى الأمور أو يقصد الى شىء من الوقوف على أسرارها . فيَنْبُع بلد صغير، وأهله وأميره وحاشية الأمير فيـه أكثر عناية بشؤونه المحلّية الخاصة منهم بشؤون التاريخ وأطوار الحياة . وهم كأعيان ريفنا المصرى كرماً وترحيبا وحسنَ لُقْيَـا . ولقد غادرتهم شاكرا لطفهم، شاكرا للأمير ما أبدى من حرص على طمأنينتى حتى أبلغ البـاخرة، ذاكرا له أن مُضيفى وأهله قـد بلغوا من هذا الحرص ما طوّقوا به عنقى وما جعل لهم عندى يدًا لا تنسى .

وانطلقنا فى ميادين فسيحة من أرض ينبع نبتغى الشاطئ حيث ضربت البعْثة الطبّية المصرية خيامها، فشربنا قهوة مصرية وقضينا من الوقت ما بقى الى الظهر. وعدنا الى الدار فأقمنا بهـا فلما اقترب المساء أقبل علينا فيهـا إخوان من المصريين تحدّثوا فى سـفرنا ظهر غد . وكان حديثى معهم حديث طمأنينة ورضا وشكر لله على توفيقه إيّانا فى سفرنا ومُقامنا مذ عزمنا الحج حتى أتممنا مناسكه وزرنا قبر رسوله الكريم فصلّينا وسلّمنا عليه، ورجونا الله، واثقين من إجابته رجاءنا، أن ييسّر عودتنا كما يسّر سفرنا، وأن يهدينا بفضله صراطه المستقيم .

وأصبحت فأعددت متاعى للسفر، وودّعت مُضيفى شاكرا، وذهبت ومن صحبنى الى "الجمرك" ثم أقلّنا زورق صـغير الى الزورق البخارى "السويس" ليُقلّنا الى "زمزم"، ونحن فى شـوق أى شوق الى ركوب ظهرها . ولقـد كنّا السابقين الى الزورق البخارى فلم يصـله غيرنا إلا بعد ربع الساعة من مجيئنا له . ووقفت عند مؤخّرته أحدّق فى الشاطئ وما عليه . ما أعظم هذا الحشدَ الهائل هناك ! وما أشدّهم تدافعا بالمناكب ! أولئـك الحجاج المصريون الذين عزموا العودة على زمزم وعلموا أنها تُبحِر بعد ساعات، فهم مشفقون أن تفوتهم، وهم لذلك يقتتلون يريدون النزول

الى البحر لإدراكها قبل أن تطلق لمحركاتها أعنتها . أُنْظُر إلى هؤلاء الجنود حولهم يريدون تنظيمهم فيأبى أقوياؤهم إلا أن يتقدّموا الضعفاء، وكأنما نسوا الحج وما يجب عليهم بعده من حماية الضعيف وعدم الاعتداء على حقه ! هذه معركة تقوم بين بعضهم وبين الجند . لكنها ليست حامية . إنها سرعان ما هدأت وعاد القوم الى احترام النظام . ويجيء بعد ذلك الى زورقنا بعض ذوى المكانة من العائدين الى مصر فنلقاهم بالترحاب وقد عرفناهم جميعا أو عرفنا أكثرهم بمكة أو بالمدينة . أمّا ذلك الجمع الحاشد على الشاطئ فقد أُعِدّت لهم "صنادل" فسيحة الرحاب تتسع لهم جميعا ويسحبها زورقنا بعد أن يتم عليها جمعهم . ولو أدرك أقوياؤهم ذلك ماتدافعوا بالمناكب ولا اشتبكوا بالجند ما دام آخرهم سيلحق على الصندل بأولهم ثم يبلغون الباخرة جميعا فى وقت واحد . أم أن الناس درجوا على أن يتنافسوا وأن يستبقوا وإن فى غير موضع لمنافسة أو سبق ، وألِفوا أثناء تنافسهم أن يشتبكوا وأن يقتتلوا ثم لا يصيبهم من ذلك خير وقد يصيبهم منه الضرّ والأذى ! .

وإنا لفى موقفنا نشهد ما يجرى على الشاطئ إذ أقبل علينا ممثل شركة مصر للملاحة البحرية ينبئنا بأن "زمزم" لن تُبحر اليوم بسبب هياج البحر، وأن من الخير أن نعود إلى يَنْبُع نقضى بها إلى بكرة الصباح . وفيما هو يحاورنا ونحاوره فى ذهاب "السويس" بنا إلى زمزم لنقيم بها، أبحرت اليوم أو أبحرت غدا، أقبل مضيفى وطلب إلىّ أن أعود معه . وشكرت له دعوته واعتذرت إليه عن إجابتها بأنى وقد ركبت البحر معتزما السفر فلن أعود إلى الشاطئ ، ولن أذَرَ البحر حتى أبلغ غرضى أو يقضى الله قضاءه . وألحّ الرجل فى الدعوة حرصًا على راحتنا وطمأنينتنا . ورأيت بعض الذين معنا يميلون إلى العود لينبعُ حَذَرَ البحر وهياجه . أمّا أنا فأصررت على البقاء ما دمت قد عزمت السفر، ولم أنزل عن رأيى . وذلك دأبى . أُدْعُه عنادا أو آدْعُه ما شئت، فهكذا خلقت : لا أرجع عما بدأتُ حَذَرَ مشقة أو خوف عناء . فالمشقة لا قيمة لها عندى . وأنا اليوم أكثر استهانة بها بعد إن قضيت بالحجاز ستة أسابيع أصعد فى الجبال وأجوب البادية وأقضى الليل بالمُسَيْجيد

أو ببنى حَصَّان فى منازل خير منها العراء . وليس فى يَنْبُع ما تهوى إليه النفس من اثر يزار أو علم يستفاد . ومهما يبلغ البحر من هياجه فالمقـام على ظهر " زمزم " والتمتع بنسيمه الجميل خير من كل ما يدعوننى إليه . ولم يجد مُضيفى بدًّا آخر الأمر من الإذعان لمشيئتى . وكل الذى صنعه فضاعف به لطفه وثنائى عليه أن ترك من السجائر ما يكفينى يومين كاملين .

وغادَرنا مُضيفى ومندوب شركة الملاحة إلى زوارقهم يصحبهم من آثروا العودة إلى الشاطئ انتظار الغد . وآنتقلت أنا إلى قمرة على الزورق جلست فيهـا وحيدا أفكر فى هذا التأجيل لسفر "زمزم" من ينبع، وأذكر حادث "كوثر" إذ نحن بمرأى من جدّة أول ما بلغنا الحجاز، وألتمس فى الحادثين آية من الله وعبرة لنا . ولم يطل بى التأمُّل إذ رأيت الحجيج على الشاطئ وما يزالون فى تدافعهم بالمنـاكب وفى تنافسهم وحرصهم على السبق إلى " السنابك " . ألم يأتِهم نبأ البحر وهياجه وزمزم وإرجاء سفرها؟ أم إنهم مثلى لا يريدون الرجوع عن أمر عزموه؟ . وسألت رُبّان زورقنا الذهاب بنا إلى "زمزم" كيما تقضى الليل بها، فاستمهلنى حتى يرى ما يكون من أمر زملائى الذين يفدون إلينا، لا يحول دون وفودهم إرجاء السفر . فلمـا أذّن العصر لم يربدًّا من الذهاب إلى "زمزم" حتى لا يشق علينا المبيت بزورقه وليس فيه من أسباب العيش ما ألِفنا . ووقف فى غرفته التى كنت أرقب الشاطئ منهـا وصفر لينبّه رجاله بصفيره إلى أنه سيُصدر إليهم أوامره، وبدأ يلقى بهذه الأوامر من بوق فى الغرفة بلغـة لم أفهم أكثر ألفاظها لأنها اصطلاحات فنّية لا تقيدها مجامع اللغة فى المعجمات ولا يفهمها لذلك إلا أهل الفنّ ! .

وبعـد سويعة انطلق الزورق ميمما شطر زمزم، ورُبّانه فى موقفه يلقى أوامره ويمسك بيـده عجلة القيادة . وبَعُـدنا عن المرفأ ومبانيه وانكشف أمامنا البحر فى جلاله ورهبته وجمـاله وسرى إلينا نسـيمه وارتفع إلينا رشاش موجه فبعث إلى النفس السرور والغبطة . وأيّة غبطة وأىّ سرور كاتصالنا بالكون فى فسحته

وعظمته، ننهل من نوره وهوائه، ويشتمل نظرُنا سماءه وماءه، وننمج فيه بكل حواسّنا، ونشعر بأننا ذرّة منه سابحة فى نظام أثيره سَبْحَ الكواكب والأفلاك وسبح الأحياء والخلائق كافّة. وإنا لفى منتصف الطريق إلى "زمزم" إذ بدأ الزورق يعلو مع الموج ويهبط، ويميل مع تقلّب الموج يَمْنةً ويَسرة، ويشعرنا بتمايله وارتفاعه وهبوطه من شدّة هياج البحر ما أرجأ سفرنا. هنالك أخذتنى نشوة غلبت فى نفسى عبث الموج بزورقنا وبطمأنينتنا. هى نشوة ساذجة كثيرا ما يأبى الناس الإفصاح عن مبعثها، وهى التى تحركهم مع ذلك فى كثير من مواقف الحياة. تلك نشوة الظفر بالبحر واقتحام موجه على ظهر زورقنا الصغير، وإقدامنا بذلك على مغامرة خشيت "زمزم" الضخمة العظيمة أن يقدم الناس عليها. هاهى ذى أمامنا وها نحن أولاء نقترب منها. واستعان الرُّبان بمنظاره الكبير ليرى رجالها على سطحها، وأطلق صفّارة "السويس" فى أنغام مختلفة لينبههم إلينا كيما ينزلوا السلّم لنرق عليه إلى الباخرة. والموج يزداد تقلُّبا كلما ازددنا من الباخرة قربا، فيزيد فى تمايل الزورق وفى ارتفاعه وهبوطه على نحو يبعث إلى النفس الرهبة لولا أننا كنا مأخوذين بنشوة الظفر. وإنّا لكذلك إذ علا فى الجوّ صفير "زمزم" فى أنغام مختلفة كأنما تُجيب بها أنغام زورقنا المختلفة. ولم نُعْنَ بالأمر بادئ الرأى وحسبناه تحية تُبادلها الباخرة الكبرى زميلتها الصغرى، وتابعنا اندفاعنا نشقّ عُباب الموج لانحفل هياجه. لكن ضجيج "زمزم" انقلب زئيرا، وجعل يزداد علوّا، وتتقطع أنغامه ويبدو فيها صوت النذير. ما ذا يعنون؟ سألت الرُّبّان فى ذلك فأجابنى: إنهم يُنذروننا بأمر البحر وشدّة هياجه. قلت: فنحن أشدّ من البحر بأسا، فلنقتحم مابقى منه إليهم. ولم نزل فى اندفاعنا نحوهم نُجيب صفيرهم بصفير مثله، وأنغامهم بأنغام ليست دونها نذيرا. لم تبق هذه الأصوات التى ملأت جوّ البحر أصوات تحية إذًا، بل انقلبت أصواتَ إرهاص كأنما تهاجم بارجةٌ بارجة أو كأنما نحن مدمّرة تدنو من "زمزم". وهبطت فى الجوّ كِسَفٌ من السحب حجبت الشمس، واشتدّت الريح فزادت زورقنا على الموج اضطرابا. ويشتدّ فى صفير "زمزم" صوت النذير فيبدأ رُبّاننا يتردّد ماذا يصنع على حبه الإقدامَ والمغامرة،

فأشجعه وأدفعه إلى مزيد من الإقدام، وأصوّر له الظفر وشيكا أن يمدّ إلينا يده .
ويزداد صفير زمزم عنادا فى النذير ولا ينزل القوم لنا سلّما . هنالك غلب اليأس الرّبان، وكأنه ذكر النظام وأنه فى إمرة "زمزم" وليست زمزم فى إمرته، فبدأ دورانا يمهد به للنكوص مُدبرا . وثرت به وذكرت له أنا إذا بلغنا "زمزم" لم يكن لرجالها بدّ من معاونتنا على الرقّ إليها . لكن نذير "زمزم" المتصل كان أقوى فى نفسه أثرا فلم يعقّب واندفع مسرعا نحو موقفه الأوّل فى المرفأ معتذرا بأنه لن يجازف فيعرّضنا لخطر تكون عليه تبعته .

سقط فى يدى حين فاتنا الظفر بغايتنا . مع ذلك لم آسف لهذه الموقعة الصغيرة التى غامرنا بها . فقد قضينا أثناءها أكثر من ساعة قطعنا بها هذا التشابه المملول الذى أظلّنا مذ جئنا إلى الزورق قُبيل الظهر فثقُل علينا ظله . وما كان أجملها ساعةً وأشدّها روعة وأكثرها إثارة لمختلف أحساسنا ومشاعرنا ! ولم نكن أقلّ بها متاعا أثناء عودنا بعد الموقعة . فسرعان ما اطمأنّت النفس الى حظها حين آستدار "السويس" مُدبرا، وفتحت صدرى أستنشق فيه هواء البحر الرقيق الصافى واشتملتنى غبطة راضية عقبت ثورتى لفرارنا . ووقف الزورق مكانه الأوّل والنهار وشيك أن يولّى، والسنابك الراسية عند الشاطئ قد امتلئت بالحجيج، فلم يبق منهم من لم ينزل إليها إلا نفر قليل .

وبدأ رُبّان "السويس" يفكر فى أمر هؤلاء وما يصنع بهم . لقد أقبلوا لركوب "زمزم" فإيواؤهم وإطعامهم فرض على أصحابها . واستقرّ رأيه مع ممثل الشركة على أن يجيئوهم بالخبز من ينبُع وأن يسحبوا الصنادل الى جوار "السويس" وأن يمدّوا اليها النور الكهربائى، وأن يفتحوا قاعاتها لينام هؤلاء الحجاج فيها . وفعلوا، وكان مشهدا ظريفا جرُّ هذه السنابك الضخمة وعليها هذا الجمع الغفير وربطها بالزورق البخارىّ الصغير جدًّا بالقياس اليها . وأضاءتها من الكَهَربا أنوار ساطعة أرتنا القوم فيها وهم المرح والغبطة والجذل والرضا . فهم لم يكادوا يطمئنون الى

مكانهم ، وينعمون بالنور يُلقى شعاعه عليهم ، حتى أحسوا كأنما يبعث نور الوطن شعاعه الى قلوبهم ، وكأنما تسرى اليهم من مصر العزيزة المحبوبة نغمة أُنس وهناءة . انفرجت شفاه الكثيرات من الحاجّات عن أغانى الحجّاج يرتّلنها و يرددنها فى صوت لا يخلو من رخامة الأنوثة و إن خلا من جمال النغم . ياما أُحَيْلَى هذا الغناء ! سرتْ إلينا منه ما اهتزت له الجوانح ، لا من طرب بل من أشواق فى النفس ثارت لواعجها وذكرياتٍ قريبة بمكة والمدينة انتشر أريجها . ونسمع اليهن يرددن " إمتى نعود لك يانبى " يقلنها صادقات ؛ تصدر من قلوبهن قبل أن تتحرك بها ألسنتهن ، فتهتز قلوبنا و إن لم تتحرك ألسنتنا . وهل شىء أكثر هزًّا للعواطف من كلمة صادقة صادرة من قلب مخلص عن إيمان سليم ! .

ترك لنا الربّان غرفته تلطُّفا منه ، فقضينا بها ساعات الليل . وما إن تنفّس الصبح حتى استيقظ هؤلاء المئون والألوف جميعا ، وقد أذّن فيهم مؤذّن الفجر أنِ الصلاةُ خير من النوم . وتحرك "السويس" فى الساعة الخامسة من بكرة الصبح يجر معه صنادلين ، وسار يقصد "زمزم" فى بحر هادئ لا موج فيه بل لا حَراك به ، وكأنه لمّا يستيقظ من هدأة نومه . و بلغنا "زمزم" فأرسينا الى جانبها وقد أنزلت سلّمها وأسرع الذين فى الصنادل يرقَوْنها . فلمّا خلت الصنادل نزلت ومن معى بالسويس وتخطّيناه الى زمزم . وبادلت رجالها التحية ثم آخذتهم بما صنعوا حين صدّونا أمس عن الصعود بصفيرهم الملىء بالنذير ، فاعتذروا بأن البحر بلغ هياجه ساعتئذ و بلغ اضطراب "زمزم" فوقه ، فلم يكن اقتراب السويس منها ممكنا . فإن أمكن حقّ صعودنا الى الباخرة وهى فيما هى فيه من هذا الاضطراب خطرٌ لا قِبَلَ لأحد باحتمال تَبِعته .

وما لبثت حين اطمأنّ بى المقام فى غرفتى أن شعرت كأنى عدت الى مصر ، فاستبدلت باللباس البدوىّ لباسَ المصرىّ . أليس علم مصر خفّاقا على سارية هذه الباخرة ! فلا أُعَدّ إذًا كما كنت يوم غادرت مرفأ السويس . وكيف لا أفعل !

ألست الآن فى مصر! يا لِرِضا النفس وطمأنينةِ القلب! لقـد غادرت مصر أبتغى أداء فريضة الحج فأدّيتها، وأبتغى زيارة الرسول الكريم فى قبره فزرته، وأبتغى القيام بدراسات فى منزل الوحى فقمت بهـا ، كل ذلك وأنا بحمـد الله فى صحة موفورة وبنفس راضية ؛ فمـاذا أبتغى وراء ذلك! وهأنذا الآن تقلّنى جارية يرفّ عليهـا علم مصر وطنى العـزيز المفدَّى . والعلم هو الوطن ، وليس رمزًا له وكفى . وإن يكن رمزًا فهو كذلك كما أن اسمى رمزٌ لى ، واسمك رمزٌ لك . وأنا إذ أسمع اسمك ترتسم صورتك أمام بصـيرتى وأحسبنى أراك كما لو ناديتـك فأجبتنى . ذلك شأنى إذ أرى العـلم : ترتسم لرؤيته صورة مصر كاملة أمامى ؛ مصر بحدودها المتراميـة وبنهرها وواديها وصحاريها؛ مصر بسمائها الصافية ونسيمها العـذب وتربتها الخِصْبة وأزهارها المنبعثة الأريج وثمـارها الحلوة الشهيّة . وترتسم أمامى مصر على التاريخ بحضارتها العتيدة وآثارها الخالدة، وبفنّها وعلمها، وبآمالها وآلامها . كيف لا أشعر بنفسى إذًا فى مصر وأنا على باخرة مصرية تحمل علم مصر! ألَا لو أن هـذه الباخرة جابت بحار الأرض شرقًا وغربا وشمالا وجنـوبا فبلغت بى القطب ودارت بى حول الأرض لَمَـا شعرت يومًا على ظهرها أنى غريب عن بلادى ووطنى، ولرأيتنى أتنقل عليها وكأنما أتنقل من بقعة فى مصر الى بقعة غيرها فى مصر، ولكنتُ بذلك مغتبطا دائمـا، سعيدا غاية السعادة .

وتحركت "زمزم" مبحرة حين تكبّدت الشمس السماء ساعة الزوال . تحرّكت ميممة أرض الوطن، مودِّعة بلاد النبيّ العربى، وقلوب السَّفْر عليها يتنازعها الحنين إلى الوطن والأعزّة فيه، والتعلّق ببلاد النبي العربى والحرمين بها . وانقضت ساعة الغـداء والقيلولة ، وعاد الناس يلتقون جماعات يتحدّثون عن حجهم وما رأوا أثناءه راضين شاكرين فضـلَ الله عليهم، تطوّق ثغورهم جميعـا بسمات طمأنينة وفيض من نعيم، ويُسعدهم سكون البحر ورقّة نسيمه. وأقبل الليل وأوينا إلى مضاجعنا، فإذا بى أستيقظ بكرة الفجر على أصوات جماعة جعلوا حلقتهم إلى جوار النافذة من غرفتى . ولقيت أصحابى بعد الإفطار وتحدّثت إليهم فى ذلك، فذكر كل منهم أنه

استيقظ إذ سمع مثل ما سمعت، وزاد بعضهم أنه خرج إلى القوم يرجوهم أن يخفضوا من أصواتهم فابتسموا، وقالت سيدة : صَلِّ يا أخى على النبى"! . وأضاف أحد أصحابى : "لقد جئت من مصر على «زمزم» فلم يكن من ذلك شىء، بل لزم القوم الأماكن التى عيِّنت لهم لم يبرحوها . فما لهم كذلك اليوم يفعلون، فيخرجون على النظام ولا يرعون ما لغيرهم فى الدرجات الأخرى من حرمة ؟ ". وابتسمت لملاحظة صاحبى وعقّبت عليها بقولى : "اِلتمس ياصاح لهم عذرا . إنهم يوم غادروا مصر كانوا لا يزالون يذكرون النظام وسلطانه، والقانون وأحكامه، والطبقات وتفاوتها، ويرون ذلك كله ماثلا فى عمدة البلد وجندىّ البوليس وفى جبروت الأغنياء وذوى الجاه والمكانة . لم يكونوا بعدُ قد نسوا ما أِلفوا سماعه من هيبة الحكومة ومن بطش القانون وشدّة أحكامه، وكانوا يرون القانون منقوشا بأحرف من بأس على بندقية الجندىّ فى الطريق وسوط عذابه فى السجن . لم يكن أحد منهم يحسب المساواة التى نحدِّثهم عنها حقيقة لها فى الواقع وجود ؛ فكانت نفوسهم تغلِى حفيظةً، وكانت صدورهم تضيق ثم لا ينطق لسانهم من العجز والخوف . لذلك كانوا يحافظون على النظام الذى رسم لهم لا عن رضا وطواعية، ولكن حَذَرَ العقاب الذى يحلّ بهم لمخالفته . فلما حجّوا البيت كما حججناه، ولبسوا الإحرام مثلما لبسناه، وطافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة كتفًا معنا إلى كتف، ثم لمّا صعِدنا جميعا عرفات مُحرمين ملبِّين داعين، رأوا صورة فى الحياة لم يألفوها، ولن يألفوها فى غير الحج . رأوا أنّا جميعا سواسية حقًّا، إخوان حقًّا، وأنّا جميعا ضعاف غاية الضعف، صغار كالذرّات أمام عظمة الله وجلاله ومهابته . هنالك أصغروا ما بينهم وبين غيرهم من تفاوت، وأيقنوا أن الفقر فخر لمن عرف أن يسمو فوق هوان الغنى، وأن الضعف قوة ما آزره فضل فى النفس وخُلق عظيم، وأن الشحناء ليست من طبع الكرام . بهذا الروح عادوا من حجهم . فإن كنت ياأخى فى ضيق من حرّيتهم وكنت حريصا على أن يعودوا لما أِلفوا فى مصر من نظام، فأَنظِرْهم أياما فسيرون بعدها من هيبة الحكومة وبطش القانون وسلطان النظام، وما يتمثّل

ذلك فيه من بندقية الجندى فى الطريق وسوط عذابه فى السجن ، مايردّهم إلى حمى هذا النظام الذى يمقته الإسلام ولا يرضاه الله " .

وأمسك أصحابى عن القول بعد أن فرغت من حديثى . و إنا لفى هذه الفترة من سكوننا إذ حمـل الهواء الينا حُدَاء وترديدا : "متى نعود لك يانبي"، وفى نبرتها من حلاوة الإيمان وعذوبة الصدق فى التوجه ماجعل قلوبنا تهتف مع القوم "متى نعود لك يانبي". ترى هل غيّر هذا الهتاف من حبها النظام الذى ألِفت وتوجيهها النقد إلى الذين تغنّوا لحركها غناؤهم إلى التوجه لله بالأمل الصادق فى العودة إلى بيته وقبر نبيّه حيث الناس سواسية إخوان، لا يفاوت بينهم مال ولا جاه ولا سلطان .

وفيما نحن سكون نسمع مرّ بنـا طبيب السفينة فحيّانا وجلس معنا ودعا الخادم ليجىء بقهوة، وأنبأنا أنا نرسو بالطور ظهر غد، وطمأننا إلى أن الحج نظيف هذا العام، وأنّا لن نلق لذلك بالطور عَنَتًا . ونقلنا الحديثُ عن الطور من صمتنا إلى الحـديث عن مصر وما يجرى فيها . وبذلك انتقلنا خطوة جديدة نحو حياتنا الأولى .

وأرسينا بالطور ظهر الأربعاء الثـامن من إبريل، فتناولنا طعام الغداء على ظهر السفينة، ثم نزلنا إلى المحجر فذهبت وبعض أصحابى إلى حزاء (١٠) وجىء الينا بمتاعنا بعد تبخيره . والحزاء لفظ لاتعرفه اللغة العربيـة بمعناه المعروف بالمجر . فهو مكان فسيح محاط بالأسـلاك به مبان غاية فى البساطة لمبيت الحجاج . أمّا الحزاء (١٠) فحزاء أمير الحج ، ولأمير الحج به بيت ينزل فيه حين مرور المحمل بالطور ، وهو بهذه المثابة أوّل مظهر للنظام والتفاوت يشعر به العائد من الحجاز .

قضينا بالطور ثلاثة أيام، محجوزون فى الحزاءات بحكم القانون، وعلينا من الحرّاس أمثال حرّاس السجون . مع ذلك كانت أيام نَعْمة ورخاء . فقـد كنّا فى حاجة إلى آستجمام النفس بعد الذى صادفنا فى الحج من هزّات مختلفة الأطوار . وكنّا فى حاجة إلى راحة الجسم بعد مشقة السير والركوب فى البادية والصعود فى الجبال والانحدار عنها . وكنّا فى حاجة إلى استعادة صـور الحياة فى مصر وما تضطرب به من منافع

وأهواء حتى لا نعود إليها وفى النفس نبوٌّ ظاهر عنها . وكان بعضهم فى حاجة إلى هذه الأيام الثلاثة لينظم فيها مظهره حين عوده إلى بلده ومقابلة الناس فيها بوجه الحاجّ التق النق . ولقد حصلت من استجام النفس والجسم على ما كنت فى حاجة إليه ، واتصلت بالحياة المصرية بمن لقيت من معارفى المصريين فى المحجر وما كان يرد لى كل يوم من الصحف به .

فلما آن لنا أن يُفرَّج عنا وأن تقلّنا «كوثر» من الطور إلى السويس ، تفضّل الدكتور هريدى مدير المحجر فدار بى أثناءه وأرانى ما فيه من مواطن الماء الصالح والمستشفيات وغرف التحليل والمباخر وما إلى ذلك من آثار العلم وما يطوّع لمصر أن تكون الحاجز الصحى بين الشرق والغرب . ولئن سرّنى أن يكون للعالم بمصر هذه الثقة ، لقد ساءنى أن تكون البلاد الإسلامية المقدّسة هى سبب الحجر الصحى دون سواها من بلاد العالم ، وألا تكون كذلك إلا فى أعقاب أشهر الحج ؛ كأنما العالم الإسلامى متّهم فى نظر الغرب بأنه حين الحج مثابة العدوى بالأمراض القتّالة . فأمّا البلاد الأخرى فى أواسط إفريقيّة وفى غيرها فلا خوف منها . وأمّا البلاد الإسلامية منفردة كل منها عن الأخرى فلا خوف كذلك منها ، وإنما الخوف من هذه البلاد مجتمعة صادقة التوجه إلى الله وفى سبيل الله .

خرجنا من المحجر إلى "كوثر" ظهر السبت الحادى عشر من إبريل . فلما وقع نظرى عليها وتخطّيت رصيف المرفأ إليها هزّنى إحساس كذلك الذى يهزّنا حين نلقَى صديقا ، تركناه والخوف يساورنا على حياته ، ثم لقيناه يمرح فى صحة وعافية . وجعلت أكرر وأنا فى طريقى إلى غرفتى «حمداً لله على سلامتك يا كوثر» ! . فلما اطمأننت إلى متاعى عُدت إلى ظهرها أنعم بهواء البحر الجميل .

وبلغنا السويس صبح الأحد . وفى الساعة التى انقضت بين وقوف محرّكات الباخرة وإرسائها على الرصيف تولّانا السأم الذى يتولّى المسافر دائما فى مثل هذه الحال . فلما قُربنا من الشاطئ ألفيت قوما من أهلى وألفيت والدى فى انتظارنا .

ونزلنا من "كوثر" وتخطينا الجمرك وركبنا السيّارة، فانطلقت بنا فى طريق السويس إلى القاهرة . هأنذا على أرض الوطن . لك الحمد ربى ولك الثناء ! وشعرت وقد رأيت أهلى من حولى برضا النفس وطمأنينة القلب إلى أنى أدّيت واجبا وقضيت فرضـا وعدت إلى الوطن سالمـا، ففاض القلب شكرا لله على جميل رعايته وعظيم نعمته . وبلغنا مصر الجديدة فازداد القلب اطمئنانا وألِفت العين كل ما حولها من المناظر . فلمّـا بلغنا الدار ألفيت أهلى وأبنـائى وقوفا فى انتظارى وكلهم فى لباس العيـد ، وألفيت لدى الباب عِجلاً ينحـره القصّاب ساعة دخولنا ليوزَّع على الفقراء قرباناً إلى الله أن غنمنا السلامة .

هذه هى المرة الثانية التى يلقانى فيها أهلى بمثل هذا الترحاب وهذه الحفاوة حين أوبتى من سفرى . أمّا المرة الأولى فكانت سنة ١٩١١ حين عدت من أوربا لأوّل مرة بعد سنتين من مُقامى بهـا طالبا أدرس بجامعة باريس . ولقد سافرت فيما بين ذلك إلى أوربا وإلى السودان وإلى الشام وإلى تركيا مرّات كثيرة، وقضيت فى بعض هذه الرحلات زمنا يزيد على ضعف ماقضيته بالحجاز . مع ذلك كنت أعود إلى مصر فيخفّ أصحابى وأهلى للقائى، لكن فى غير ضجة وفى غير قربان . ولا عجب، فقد كنت فى المرة الأولى فى فورة الصِّبا وبدء الشباب ، وكنت قد اغتربت لأوّل مرة عن وطنى، وطالت عنه غربتى، ثم عدت إليه وأهلى فى شوق لرؤيتى، فرحون لذلك بمَقْدَمى . وكنت فى هذه المرة الثانية قد قضيت لله فرضا، ووقفت بين يديه تائبا منيبا، ضارعا إليه أن يعفو عنى ، وأن يغفر ذنبى، ولى فى الله كبير رجاء، وقد ذهبت إلى بيته المحرّم خاشعا خاضعا متجرِّدا من زينة الدنيا مُقِرًّا بضعفى وعجزى، أن يقبل توبتى ويعفو عن حوبتى ويُدخلنى بفضله فى عباده الصالحين . وهم من أجل هذا الرجاء يحتفلون بمقدمى فرحين متهللين . وهل الحياة الا رجاء أن يُعيننا الله على أداء واجبنا فى الحياة ! .

ولو علم أهلى ما فتح الله به علىّ حين سرت حيث سـار رسوله وحين وقفت حيث وقف، وما رأيت من آيات الله فى مسيرى وفى وقوفى، لزادوا بمقدمى تهللا وفرحا .

لقد رأيت حقًّا من آياته الكبرى، فسمت هذه المواقف بنفسي إلى حيث لم تسمُ من قبل قطُّ . رأيت نور الله ماثلا في كل دقيق وجليل من خَلْقه . ورأيت آية الهدى متجلِّية يشهدها كل من أراد أن يفتح لها قلبه وبصيرته . ورأيت سنّته في الكون تتبدّى لكل من أخلص إلى الحق وجهه ثابتة لاتبديل لها . رأيت هذا كله رأى العين، وآمنت به إيماني بما يقع عليه حسي وما تلمِسه يدي، وأيقنت أن العلم بهذا كله هو الحياة الراضية المرضيَة . نعم! كذب الظن من يحسبون التكاثر بالمال والجاه والسلطان شيئا في وجودنا . إنما الشيء الذي هو كل شيء في الحياة فذلك إيماننا بالحق عن بيِّنة، وسمُّونا بهذا الإيمان فوق منافع الحياة جميعا، وازدراؤنا هذه المنافع أن يصيب الحق من جرائها مساس . وهل يعدل كل ما في الكون من مال وجاه وسلطان قَبَسًا من نور الحق وضياء الهدى! وهل يبقى على الحياة غير الحق وضيائه! . والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخيرٌ مَرَدًّا .

رَبَّنا لك الحمد على ما أنعمت وتفضّلت! ربَّنا فاهدِنا صراطك المستقيم! ربَّنا ثَبِّت إيماننا واجعل تقواك رداءنا . ربَّنا آتِنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار .

خاتمة الكتاب

بين الحياتين : المادية والروحية

أمّا وقد شهدت من مظاهر الحياة الروحية حيثما سرت فى أثر النبيّ العربى ما شهدت، ورأيت كيف فعل الإيمان الأعاجيب فى مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة، فما بالُ قوم فى عصور و بلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان؟ أفكان ذلك عماية منهم وجهلا، أم أنهم أضلّهم هواهم وغرّهم بالله الغرور، ولولا ذلك لرأوا من آيات الله ومن فضله على عباده المؤمنين ما لا يغيب عمن تأمّل فى خلق الله ومن ألقى السمع وهو شهيد ؟ ! .

حقّ علينا إذ نلتمس لهذا السؤال جوابا أن نذكر أمرًا نعرفه جميعا و ينساه أكثرنا . فقلّ من الناس من ينكر وجود الله، وأشدّ الملحدين غروراً و إمعاناً فى الضلال يقولون بالطبيعة وسننها أو بالدهر وأحكامه . هؤلاء يمسكهم غرورهم حين تأمّلهم فى الكائنات دون أن يحيطوا بالكون الذى لا يُعْرَف للزمان ولا للمكان فيه بدء ولا نهاية، و إن عرف الناس جميعا أن الكون يحول و يتطوّر إلى ما نعرف أقلّه، وما يغيب عنا أكثره . أمّا من خلا هؤلاء الطبيعيين والدهريين فأولئك يؤمنون بالله و إن أقرّوا كلهم مسلمين بأن عقلنا المحدود أضيق أفقا من أن يدرك كنهه تعالى، وسع كرسيه السماوات والأرض . من هؤلاء فى عصرنا كثيرون يثورون بتعاليم أورثتنا إياها عصور الانحلال، لانصراف الحظ الأوفر من هذه التعاليم إلى الجانب المادىّ من الحياة، ولأنها تلْبِس الجانب الروحى ثوب المادّة وتنحدر لذلك به إلى حيث تأبى العقول التى تثقفت بالعلم فآمنت وزادها العلم إيمانا . هؤلاء جديرون بأن تسمو حياتهم الروحية فوق حدود المادة وقيودها، و بأن يكونوا لذلك من أشدّ الناس إيمانا بالله، لا يُشركون به شيئا، ولا يلتمسون الثواب أو المغفرة إلا من فضله .

انصرف الحظ الأوفر من تعاليم عصور الانحلال إلى الجانب المادى من الحياة وإلى تنظيمه، وإلى اعتبار هذا التنظيم من قواعد الإيمان . فكيف نسير، وكيف نستحم، وكيف نأكل، وكيف نشرب، وكيف نلبس، وما اللباس الحلال وما اللباس الحرام، وكيف نعاشر أزواجنا، وكيف نعالج مرضانا، وكيف نعلّم أولادنا، وكيف ندبّر أموالنا ، هذا وما اليه قد صار فى هذه التعاليم مقدّما على الإيمان وعلى الحياة . وهذه التعاليم تذهب الى أن مخالفة ما جاءت به معصية يأثم مجترحها لأنها من أمر الله، وليست رأيا لأصحابها، ولا نصيحةً للناس من حق الناس أن يزنوها بالعقل وبما توجبه المنفعة فى العصر الذى يعيشون فيه . وكأنما نسى الذين أورثونا هذه التعاليم أن الله يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر، وأن الخلفاء الأولين والصحابة والتابعين كانوا يختلفون فى الأمر الواحد رأياً ثم لايطعن هذا الخلاف فى إيمان أحدهم ولا فى عقيدته ؛ لأنه لا يمس جوهر العقيدة ولا يخالف ما جاء فى كتاب الله .

والواقع أن المسلمين فى عصور اجتهادهم وتقدُّمهم وسيادتهم حضارةَ العالم لم يختلفوا إيمانا ولا عقيدة ؛ وإنما اختلفوا رأيا ومذهبا فى شؤون الحياة الدنيا . هم جميعا يؤمنون بالله وما جاء من عنده ؛ لكنهم اختلفوا فى أحكام ما يجرى بين الناس من معاملات ، لم يمنعهم من الخلاف رأىٌ رآه من سبقوهم فى أمر هذه المعاملات .

فالناس تختلف أحوالهم من عصر إلى عصر، ومن مصر إلى مصر، وقد تختلف فى العصر الوحد والمصر الواحد باختلاف طبقاتهم وأسباب كدّهم وعيشهم . فاذا اختلفت الأحكام فى شأنهم فلا جناح فى ذلك ولا عجب فيه . ولذلك اختلف الأئمة الأربعة مذهبا وهم مع ذلك هم الأئمة المؤمنون أولو الورع والتقوى . واختلف مع الأئمة أصحابهم فى كثير من الرأى ؛ فأخذ أهل العصر فى بعض الأمور برأى الصاحب وتركوا رأى الإمام . وخالف الأئمة وأصحابهم مجتهدون لم يقيموا مذهبا وإنما عرضوا لمسائل بذاتها اجتهدوا فيها ، فلم يطعن ذلك فى إيمانهم ولم يخرجهم من عالم البررة المتقين .

كان ذلك حين كان الناس يقدرون العلم ويحترمونه لذاته، ويحترمون لذلك رأى صاحبه ما قصد به وجه الحق . وكان ذلك والأمة الإسلامية فى أوج مجدها وعظيم سلطانها تدوّى كلمتها فى الشرق والغرب ويحسب العالم كله لها حسابا . فلمّا حلّت بالأمة الإسلامية نكبات الشقاق وقام الثائرون فى أنحائها يبتغى كلٌّ مَجْدَ نفسه وسلطانها بدأ الجهل يفتِك بالعقول والجمودُ يفتك بالأرواح ، وبدأ الناس يرتابون فى مقصد صاحب الرأى ويحسبونه لا يدين به عن عقيدة حرصًا منه على خير إخوانه المؤمنين، وإنما يبديه دعاية لنفسه، ويتخذ من النداء به وسيلة الى السلطان . هنالك عمّ الناسَ الفزع من اجتهاد هؤلاء المجتهدين، وقعد بهم هذا الفزع عن تبيُّن الحق فى آرائهم، فرموا الاجتهاد بالمنقصة وطرحوه وراءهم ظِهريًّا، وقالوا لا رأى إلا ما رأى الآباء ، إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم لمهتدون .

نشأ عن الجهل والجمود أن جهل الناس الحياةَ الروحية وغاب عنهم معناها، فصوّروها صورة مادية لا يزيد مداها عما يقع عليه الحس وينحصر فى حدود إدراكه . وفى هذه الحدود أجروا عليها الأحكام التى أجروها على الحياة المادّية وقضوا فى أمرها بما يوجبه تصوّرهم للمادة وشؤونها . هذا مع ما هوى اليه تصوّرهم لشؤون المادة بما يتفق مع جهلهم حقيقة أمرها وسنّة الله فيها .

دار الزمن دورته ، ولم يكن مفرٌّ من أن تُنتج الأسباب نتائجها : خضعت الأمم الاسلامية لغيرها وأذعنت لسلطان من آتاهم العلم مفاتيح السلطان . وبدأ هؤلاء يعلّمون الناس من مبادئ العلم فى الحياة المادّية نقيض ما أورثتهم عصور الإنحلال . علّموهم أن الأرض كروية ، وكانوا قد ورثوا من تلك العصور أنها مسطّحة مستوية . وعلّموهم أن الأرض تدور حول الشمس ، وكانوا قد ورثوا أن الشمس تدور حول الأرض : تشرق من المشرق وتغيب فى المغرب، وتنخسها الشياطين حتى لا تقف سيرها . وعلّموهم أن كسوف الشمس وخسوف القمر من سنن الكون سببهما تعرُّض القمر فى دورته بين الشمس والأرض أو تعرُّض

الأرض فى دورتها بين الشمس والقمر ، وكانوا قد ورثوا أن الخسوف والكسوف من آيات رضا الله وغضبه . وعلّموهم أن لا شىء مما يقع فى الكون إلا له سبب يدركه العقل إذا استوت لديه أسباب العلم لإدراكه ، وكانوا قد ورثوا أن ما يقع فى الكون أبعد من أن يدركه العقل لأنه متعلّق بارادة الله، وأن إرادة الله لاتخضع لسنّة يقع عليها إدراكنا. وعلّموهم أن لصحة الأفراد والجماعات ولأمراضها أسبابا، وأن التماس هذه الأسباب يطوّع معالجة الأمراض والمتاع بالصحة ، وكانوا قد ورثوا أن الصحة والمرض من عند الله ، وأن من إسلام الأمر لله ألّا نناقش قضاءه . هنالك بدأ كثيرون يتساءلون : ما قيمة ما أورثتنا عصور الإنحلال ؟ أوَلا يجب علينا لعقولنا أن نجادل فيه وأن نسأل أهل العلم عن أسبابه ودواعيه ؟

رأى جماعة ممن يعلّمون الناس الدين فى هذا العصر الاخير أن الناس يجب أن يخاطبوا بلغة زمانهم ، وأن ما كان الجاهل يقنع به من قبلُ لم يبق مقنعا لمن نال من العلم فى عصرنا الحديث حظا . والأمر كذلك خاصّةً بعد أن أصبحت كلمة العلم الحديث صاحبة السلطان فى الأمم التى توجّه مصاير غيرها وتحكم فى شؤونها . أولئك رأوا حقًّا عليهم أن يلتمسوا حكمة الله فى الأشياء ؛ وأن يلتمسوا حكمته فى أوامره ونواهيه ؛ وأن يعلّموا الناس هذه الحكمةَ ، وأن يجادلوهم بالتى هى أحسن . لم يبق كافيًا فى نظرهم وفى نظر المتعلّمين أن يقولوا للناس : إن الله فرض الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وفرض العقاب على من لا يؤدّيها، بل رأوا أن يعلّموا الناس لماذا فرض الله الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وما هى الحجج العقلية الدامغة التى تقوم هذه الحكمة عليها،ومن ثَمَّ يترتب الجزاء العادل لمخالفتها. ولم يبق حقًّا عندهم أن الحكم فى أمور هذه الحياة الدنيا، ما جلّ وما دق منها، قد نزل الوحى بصيغة الأمر فيها، بل أصبح الحق عندهم أن ماجاء فى كتاب الله من أمر لا ريبة فى أنه الأمر القاطع، لا النصيحة ولا التفضيل،هو وحده الذى يجب أن يأخذه المسلمون على أنه الأمر . فأمّا ماوراء ذلك من منافع الحياة الدنيا فهم أعلم بما يصلح لهم فى العصر الذى يعيشون فيه . ولذلك وجب عندهم التفريق بين

شؤون الحياة ما تعلّق منها بالروح والإيمـان ، وما تعلق بالخُلُق ، وما تعلّق بالحياة المـادية ومعاملات الناس فيهـا ممـا يجرى لهم فى أمور دنياهم .

وهذا تقسيم يتفق مع مباحث العلم الحديث وما يقرّه . فهذا العلم يرى أن ميادين المعرفة الإنسانية فسيحة لا يكاد يحدّها أُفق ، وأنها مع ذلك ضيّقة محصورة بالقياس إلى الكون وما يترامى إليه إلهـامنا من مداه الذى يتجاوز الزمان والمكان ؛ وأنّا لن نستطيع ، وإن بلغنا من العلم أبعد المدى ، أن نظفر بهذا الغيب الذى تمثله أرواحنا وتمثله أرواح البعض وتعجز أرواح الكثرة عن امتثاله . لذلك فرّق العلم بين ما تقع عليه المعرفة العلمية وما لا تقع عليـه ، وجعل ما وراء المـادّة ممـا لا تقع عليه هذه المعرفة العلميـة . على أنه لم يحدّد المـادّة التى تقع عليهـا المعرفة وإن قسّم العـلوم الى بسيطة مستقلة بذاتها ، ومركّبة تحتاج الى ما تقرّره العلوم التى تسبقها من قواعد وسُنَن . وهو كذلك لم ييأس من أن يمتدّ يوما الى بعض أنحاء الحياة النفسية ، بل إلى بعض أنحـاء الحياة الروحية ، مع التسليم بأن ما سيظل غيباً لا يخضع لقـواعده سيظل أفسح أمدا بمقدارٍ لا سبيل إلى الإحاطة به عن طريق الإدراك ، وإن سبق اليه الإلهام الإنسانى فى حرصه على أن يعرف مكان الإنسان من هذا العالم فى فسحة مداه ، إذ لا يُعرَف للزمان ولا للمكان بدء ولا نهاية .

وكانت النظرية السائدة فى العلم الى زمن غير بعيد تُنكر حاجة الانسان الى ماوراء مقررات العلم ، وترى فيما لا يمتد العلم اليه خيالاً لا يستقيم مع تنظيم العلم الحياة . لكن أكثر العلماء فى هذا العصر قد عدلوا عن هـذا الرأى وأصبحوا يرون فى مقررات الإلهـام ممـا لم يصـل العـلم بعدُ اليه ما لا غِنَى للإنسان عنه . ذلك بأنهـم رأوا الحياة المـادية وحدها أقصر من أن تبلُغ بالإنسان غاية ما تصبو الإنسانية اليه من كمال ونعـيم . فالحياة المـاديّة وثنيّة بطبعها . والوثنيـة أنانيـة يغلب لذلك فيهـا الخوف والفـزع . الوثنىّ يخشى صنمه وهو يملكه ، ويخاله قديرا على نفعـه وضرّه وهو قادر على تحطيمه وإبادته ، وانمـا يمسكه الوهم والخـوف وتقعد به الأنانيـة

فلا يفعل . والوثنية لا تقف عند عبادة الصنم الذى تصوّره أيدينا ، بل تتناول كل عبادة للمادة فى أىٍّ مظهر من مظاهرها . فعبادة المال وثنيّة ، وعبادة السلطان وثنية ، وعبادة القوّة المادية وثنية . وما تجرّ اليه الوثنية من أنانية ومن خوف وفزع قد كان مصدر شقاء العالم ومصدر الحروب المدمِّرة التى تنشَب فيه بين حين وحين . فما لم تلتمس الإنسانية فى غير الحياة المادية وفيما وراء ما يقع عليه الحس وإدراكه مثلا أعلى تصبو اليه ، فستظل فيها الحروب المدمرة وسيظل نصيبها الشقاء .

أمّا ولم يبق فى ذلك ريب فلا مفرّ من تضافر مقررات العلم ومقررات الإلهام لتنظيم الحياة ، ولا مفرّ من الإحاطة عن طريق العلم والالهام جميعا بحياة الكون الى غاية ما ندركه من مدى الزمان والمكان ، لنعرف موضع الانسانية منهما وما تطيقه من نشاط فيهما ، لتؤدّى رسالتها فى الكون على خير وجه ، بأن تبذل فى الانتاج العقلى والروحى أخصب مجهود وأحكمه وأعظمه ؛ ولتؤدّى هذه الرسالة عن إيمان بها هو الحافز الصحيح للعمل المثمر . وتعاليم الإسلام تقتضى صاحبها أن ينظر فى خلق الله ليكمل بهذا النظر إيمانه . فواجب علينا أن نقف على كل ما بلغه العلم وأن نحيط به إحاطة معرفة وتدقيق ، لنُرشد الناس عن بيِّنة ولنميط لهم عن وجه الحق ، حتى يؤمنوا على علم وليكون علمهم هاديا لهم الى هذا الايمان . أمّا أن نقول لهم إن الله أمر أن تؤمنوا به فآمنوا وليس لكم أن تناقشوا أو تجادلوا ، فذلك مالا يتّفق مع ما قام الإسلام على أساسه من النظر فى الكون ومشاهدة آيات الله فيه وتأمّلها والوصول من ذلك الى الإيمان به جل شأنه .

والإسلام صريح فى هذا ؛ فهو يقتضى الناس جميعا أن ينظروا فى الكون ليؤمنوا عن بيِّنة ومن غير إكراه . لم يفرّق فى هذا الأمر بين الرجل والمرأة ، ولا بين العربى والأعجمى ، ولا بين العبد والحرّ ، ولم يجعل لأحد فضلا فى ذلك على غيره إلا بمقدار ما أوتى من العلم وما يطوِّع العلم من إرشاد الى الحق والهدى . لا يعرف الإسلام نظام الكنيسة ولا يعرف الرؤساء الروحانيين ، ولا يعلّق إيمان أحد

على كلمة غيره، ولا يجعل المغفرة لغير الله . وهل كأبى بكر الصديق فى حسن إيمانه ودقة معرفته بما جاء الرسول من عند الله به، وهو يقول للمسلمين يوم اختاروه خليفة رسول الله : " أطيعونى ما أطعت الله و رسوله ؛ فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم " ! .

الإحاطة بالعلم فى أحدث ما وصل اليه واتخاذه وسيلة للنظر فى آيات الله، ذلك سبيل الهدى الى الإيمان الحق ، وذلك سبيل الحياة الروحية الصحيحة . فالروح تنكر العقل اذا قُيِّد النظر وقيِّد العقل معه . من ثَمّ كان الجمود العقلى عدوًّا الحياة الروحية، لأن هذه الحياة لا تتفتّح لتمتثل الكون إذا فُرض عليها قيد أيًّا كان نوعه . وهى لا تستطيع أن تمتثل الكون الا أن يكون العقل حرًّا والحواسّ حرة فى الإلمام بكل ما فيه . وملاكُ حريّة الحواس سلامتها . والحواس المريضة يضطرب ما تقع عليه، فتنتقل منه الى العقل صورة فاسدة . فاذا أسلمت الحواسّ السليمة ما تُلِمّ به إلى عقل سليم ينتظمه ليبلغ منه غاية ما نستطيع لمعرفة سنة الكون، كان ذلك خير معوان للحياة الروحية فى تطلّعها الى آفاق أسمى من هذه التى تحدّ حواسّنا وأحساسنا. عند ذلك يتضافر العقل والقلب والوجدان وكل ما فى الإنسان من قوة مدركة ليمد الروح بعرفانه، وليستمد من الروح ضياءه .

وضياء الروح يهدينا الى وحدة الكون ووحدة الحياة فيه، وإن تعدّدت المظاهر التى نحسبها مستقلة لنسبية إدراكنا . من ثَمّ كانت الحياة الروحية السليمة فى تطلّعها إلى الحق تصبو دائما إلى الوحدة : الى الوحدة بالحب ، والوحدة بالرجاء فى الله ونوره الذى يضىء الكون كله، والى وحدة الزمان والمكان . وهذه الصبوة الروحية هى التى تصوّر لنا وحدة الخالق جلّ شأنه وتجعلها أمامنا حقيقة ملموسة نؤمن بها عن يقين إيمانَ كل إنسان بما يقع عليه حسّه . أمّا الحياة الماديّة فانفصالية بطبيعتها . ومهما يعمل قانون الجاذبيّة لضمّها وحدةً مؤتلفة الأجزاء، فما فيها من طبيعة التوالد يدعوها الى الانقسام والتقسيم . ولذلك جَعل التفكير المادى وجعلت الحياة المادية من الانقسام والتقسيم أساس الحياة وأساس السعى فيها .

وعلى هذا الأساس صوّرت المثل الأعلى للطوائف والأمم والشعوب. والانقسام داعية النضال والحرب، وهو من ثمّ سبب الشقاء .

فأمّا صبوة الحياة الروحية الى الوحدة فتجعل المثل الأعلى مثل تعاون وتضامن ومحبة . وهذا المثل لا يعرف النضال ولا الحرب . وكيف يعرفهما والغاية التى يتوجه اليها، وهى رضا الله، تسع الجميع وتفيض عنهم على تعاقب أممهم وأجيالهم ! لا خوف من أن يضيق هــذا الرضا بمن هو أهله، كما تضيق الأرض بسكانها، وكما تضيق الموادّ الأوّلية دون إمداد الصناعة ، وكما تضيق أسباب الترف فى العالم بمتـاع أهـله جميعا بهـذا الترف . ولذلك يدعو الداعى إلى الحيـاة الروحيـة النـاس كافّة بلا تفاوت بينهم، ويدعوهم اليها فى حمى السـلام والإسلام والرضا، لا فرق بين شرقىّ وغربى، ولا فرق بين أبيض وأســود وملوّن، ولا فرق بين أمة وأمة ، بل هم فى هذا الحمى سواسية، جزاؤهم بعملهم ، وعملهم بنيّتهم، وأحبهم الى الله أشـدّهم حباً للناس ، وأمتنهم إيمـانا أكثرهم معرفة لخـلق الله وعرفاناً لسنّته فى الكون وعلماً بكل ما يهيئ الله لنا أسباب العلم به .

والناس يستجيبون بطبيعتهم الى الدعوة الروحية،لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم. ولولا ما يمدّ لهم فيه دُعاة المـادة من أسباب الضلال إذ يُغْرونهم بمُتَع الحياة ولذّاتها لأنهارت فوارق كثيرة ليس يبقيها إلا هــذا الضلال، ولآمن كلٌّ بأن واجبه الأوّل أن يهدى غيره طريق الحق ، ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد ، ولأخلصت القَصْدَ فى سعيها الى السلام بدل أن تجعل من نُذُر الحرب هيا كل عبادتها، ولكانت خُطا الإنسانية فى سبيل التقدّم الى ناحية الكمال أسرع وأهدى ســبيلا . ولو أن الناس لم يتنكّبوا طريق الهدىَ لنعِموا اليوم بمـا يلتمسونه من سعادة . ولعلهــم تنكبوا هــذا الطريق لأنهم بعـدُ فى جهالتهم ، ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصرا دون هداهم، والعلم الناقص داعية ضلال .

وحسبُك لتدرك الحق فى ذلك أن تصوّر لنفسك أن المسلمين الأوّلين لم يختلفوا بينهم شيئا ، وأنهم تابعوا وثبتهم الأولى الى غايتها، وأنهم نشروا التوحيد فى ربوع

العالم كله على أساس من النظر فى خلق الله ومن معرفة سنّته، وأن الناس جميعا التمسوا العلم فى حمى التوحيد ليزدادوا إيمانًا ، وأن هذه الاثنى عشر قرنا التى انقضت منذ خلافهم قضتها الإنسانية فى التماس حقيقة الكون ومعرفة أسراره . أية إنسانية كانت تعمر الأرض اليوم لو أنّ ذلك حدث؟ إنسانية بالغة من السموّ ما لا أحسبنا نُدرك مداه ونحن فيما نحن فيه من فرقة وتنازع على أسباب العيش ، ومن حروب لا تهدأ ثائرتها منشؤها هذه الفرقة وهذا التنازع .

أليس جديرا بنا، وذلك ما تدعونا الحياة الروحية اليه وما بلغه سلفنا فى ظِلالها، أن ننهل من وِرْدها وأن نشهد من آثارها فى بلاد النبىّ العربى ومنزل الوحى اليه عليه السلام، لعلّنا نعود سيرة السلف فنثب وثبتهم هدًى لإخواننا بنى الإنسان! . لقد شهدت من ذلك ما سطّرته فى هذا الكتاب . ويعلم الله أنى أودّ لو أنهل من هذا الوِرْد فى كل حين ، وأن أقف حيث وقف الرسول وأن أسير حيث سار ، ملتمسا فى سيرته وفى مواقفه الأسوة والعبرة . فإننى لعلى يقين من أن التأمّل فى السيرة ومواقفها وفى التعاليم التى جاء بها الرسول خير ما يهدى الإنسانية سبيلَ الحق والخير والجمال، وما ينهض بها من دَرَكٍ أمسكتها المادية فيه عن السموّ الى مراقى الروح حيث العيش إخاء ومحبة وحرص على العلم بما فى الكون، ليضىء العلم بنوره إخاءنا ومحبتنا، ويزيدهما إنسانية وسموًّا، ويصل بنا فى ظلّهما الى حمى السلام .

لقد حالت الحوائل دون مسيرى فى أثر الرسول الى الشام حيث ذهب صبياً، وإلى خَيْبَر حيث ذهب نبياً . فلعل الله يهيئ لى من بعدُ أسبابَ هذا السير فأستكمل به غرضا هو اليوم أجلّ أغراض الحياة عندى ، وأزداد به إيمانا وتثبيتا، وأنعم به فى ظلال الحياة الروحية الوارفة ، وأبلغ من ذلك ما سعدت به من الرضا حين جاورت البيت الحرام وحين زرت قبر النبى عليه الصلاة والسلام .

﴿ إنّ اللهَ وملائكتَه يُصلّونَ عَلَى النَّبىّ يا أيُّها الّذِين آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

استدراك

ورد بالسطرين الأخيرين من صفحة ٥٤٥ ما نصه : " ذكروا أن ابن الخطاب أرسل إلى عائشة لما طعنه المغيرة يسألها أن يدفن مع صاحبيه " .

وصوابه : " ذكروا أن ابن الخطاب أرسل إلى عائشة لما طعنه غلام المغيرة يسألها أن يدفن مع صاحبيه " . وغلام المغيرة هو أبو لؤلؤة فيروز . وإنما سقطت كلمة " غلام " خطأ .

فهارس الكتاب

فهـــرس الموضـــوعات

فهـــرس الأعـــلام

(ا)

(ب)

(غ)

(ف)

(ق)

فهـرس الأمم والقبـائل

(ب)

(ت)

(ث)

فهـــــرس الأماكن

(ت)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الغزوات والأيام والوقائع

فهـــــرس الكتب

كمل طبع كتاب "فى منزل الوحى" بمطبعة دار الكتب المصرية

فى يوم السبت ١٥ شوال سنة ١٣٥٦ (١٨ ديسمبر سنة ١٩٣٧) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب

المصـــرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٤/١٩٣٧/١٠٠٠٠)